سراج الغيوب في أعمال القلوب

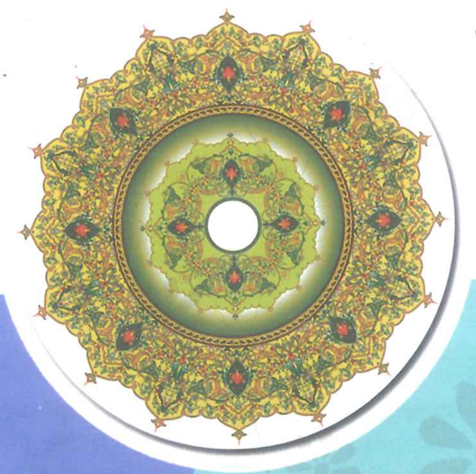
تأليف

الشيخ سيدي عبد الكبير بن عبد المجيد عليوات

من علماء القرن الحادي عشر الهجري

تحقيق ودراسة

الدكتور عبد الله شريف وزاني





سِرَاجُ الغُيُوبِ في أَعْمَالِ القُلُوبِ

تأليف

الشيخ سيدي عبد الكبير بن عبد المجيد عليوات
من علماء القرن الحادي عشر الهجري

تحقيق ودراسة

الدكتور عبد الله شريف وزاني



SIRĀJ AL-ĞUYŪB FĪ AʿMĀL AL-QULŪB *The Works of The Heart*

سراج الغيوب
في أعمال القلوب

Author : *Al-Sheikh Sidi Abdul-Kabir ben Abdul-Majid 'Alaywat*

المؤلف : الشيخ سيدي عبد الكبير بن عبد المجيد عليوات

Editor : *Dr. Abdullah Sharif Wazzani*

المحقق : الدكتور عبد الله شريف وزاني

Classification : *Sufism*

التصنيف : تصوف

Year : *1434 H. - 2013 A.D*

سنة الطباعة : ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

Pages: *736*

عدد الصفحات : ٧٣٦

Size : *17 × 24 cm*

القياس : ٢٤ × ١٧ cm

Printed in : *Lebanon*

بلد الطباعة : لبنان

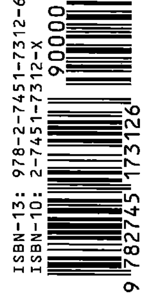
Edition : *First edition*

الطبعة : الأولى

ISBN : *978-2-7451-7312-6*



Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Hout Street,
Katerji Building, First Floor, Beirut-Lebanon
Tel :+961 76 944 855-P.O.Box: 11- 374 Riyad Al-Soloh
E-mail: books.publisher@hotmail.com



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد،

فإن للكتابات الصوفية المغربية خاصية فريدةٌ، تتميَّزُ بالتقرير والتحرير، والنقل والتوثيق، والتوسع في الشرح والبسط في الطرح، وثراء الاصطلاح المعرفي ودقة التعبير الإشاري، كما يتميَّزُ المصنفون في الفكر الصوفي المغربي بجودة الأسلوب الأدبي وتعميق البحث العلمي، فكأن كتبهم خزانةُ علوم ومعارف، يجد فيها صاحب كلِّ فنٍّ مراده ويقف على تفصيل لكل مسألة تدخل في مباحث صناعته...

ومن تلك الكتب النفيسة هذا المؤلَّف الفريد في بابه لصاحبه عبد الكبير بن عبد المجيد بن يوسف بن محمد بن علي بن محمد الشّريف الحسني المصمودي ثم الزجني الكثيري النسب وعليوات اللقب، والذي توسع خلاله في شرح على الأبيات الثلاثة المنسوبة لشيخ الطّريقة، ومحيي الحقيقة، سَيدي أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه:

توضأ بماء الغيب إن كنتَ ذا سر ... وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر

وقدم إماما كنت أنت إمامَه ... وصل صلاة الفجر في أول العصر

فهذه صلاةُ الْعارفين بربهم ... فإن كنتَ منهم فانضح البرَّ بالبحْر

وهذا الكتاب كان ولا يزال دفين الخزانات العامة والخاصة، مع ما هو عليه من النفاسة والجودة، ودقة العبارة وبراعة تحرير المقالة، فأحببتُ أن أسهم في خدمة التراث المغربي عموما والمغربي الصوفي على وجه الخصوص، فاخترتهِ للدراسة والتحقيق.

مقدمة المحقق

الحمد الله الذي علَّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يكن يعلم، وكرَّمنا بالإسلام وشرفنا به بين الأمم، وجعل الإحسان من الدين ورفع به مقام أهل الهمم، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله خيرُ من تقرب وأطاع وعبد، صلى الله عليه وسلم صلاةً وسلاما باقيين ببقاء الأبد، وعلى آل بيته الأطهار والصحابة الأبرار والتُّبع الأخيار، إلى يوم الدين،

وبعد،

فإن التصوف من أجلِّ علوم الإسلام وأرفعها قدرا وأعلاها شرفا، لأن موضوعه مرتبط ببيان أسهل طريق موصل إلى حضرة الرب عز وجل، وغايته تحقق السالك بمقام الإحسان المجموع في مرتبتيْ المشاهدة والمراقبة، ولذلك اهتم علماء الإسلام منذ أن بدأ التدوين وقبله، بهذا العلم الجليل وصنفوا فيه المطولات والمختصرات والمتوسطات، واختلفت ألوان تآليفهم باختلاف غاياتهم ومرادهم فيها، وتشعبت كتب التصوف وانتشرت في بلاد الإسلام شرقا وغربا، وتنافس العلماء والشيوخ والصالحون في الكتابة في موضوعاته وفروعه وأصوله، وتعددت أساليب التصنيف في كل ذلك، بين ما كان منه موجَّها إلى أهل التخصص والسلوك، وبين ما كان مرادا به السالكون عموما والمريدون، وحظيت كتب أهله بالنسخ والنشر والاقتناء والحفظ، وتوسع الناس في الاهتمام بها إلى درجة التبرك ببعضها ومصاحبتها في الحل والترحال، لما ظهرت منها البركة في موضوعها وسرها.

ولقد كان لعلماء المغرب وصالحيه وأوليائه وأمرائه وخواصه وعوامه اهتمامٌ بالغ بهذا العلم الجليل وأقبلوا عليه اعتقادا وسلوكا وتأليفا ودفاعا، وأنشؤوا له مدارس وزوايا، حتى صار للتصوف المغربي مميزاتٌ خاصة وأشكال متميزة، تجعل له خصوصية في التأصيل والتفريع.

حتى قال الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله في كتابه "معلمة التصوف المغربي"[1]: "أما كتب التاريخ المغربي فيغلب على الظن أنها تحوي من الصوفيات أكثر ما تحويه من مصنفات الشرق، لأن الدور الذي قام به التصوف المغربي في الميدان السياسي لا يكاد يضاهى؛ ويكفي أن نعلم أن أسرا مالكة لم تتمكن من مسك زمام الحكم بالمغرب إلا بفضل روابطها مع الصوفية، الذين بلغت سلطتهم الروحية على الشعب مبلغا أصبحوا يوجهونه الوجهة التي يرتضونها...".

فكون التصوف المغربي كان قادرا على أن يتحكم في السياسة الشرعية دليل واضحٌ على التمسك المتين الذي كان للمغاربة بهذا العلم الجليل؛ ناهيك عن اهتمام صوفية المغرب بالجانب التأليفي في موضوعات ومباحث شتى منه، خاصة التربوية والسلوكية.

فبعضهم صنف في موضوعات عامة منه، كتصانيف الشيخ سيدي أحمد زروق البرنسي وأهمها كتاب "القواعد في التصوف"، و"عدة المريد"، وغيرها...

ومنهم من صنف في شرح كتاب صوفي أو له علاقة بالتصوف، كالشيخ سيدي أحمد بن عجيبة الذي تعرض لـ"الحكم العطائية" شرحا وتفسيرا كتابا سارت به الركبان، وهو كتابه "إيقاظ الهمم بشرح الحكم"، وله تفسير للقرآن الكريم على طريقة الصوفية وهو "البحر المديد في تفسير كتاب الله المجيد".

ومنهم من صنف في السماع الصوفي، كالشيخ محمد بن عمر الواقلاني الذي صنف في موضوعه كتابين، أولهما: "المولد النبوي" و"انتقال النور النبوي" وقد نقل عنهما الإمامُ السهيليُّ أشياء كثيرة في "الروض الأنف"[2].

ومنهم من صنف في الشمائل والخصائص والدلائل، وأشهر ما يُذكر في هذا الباب، كتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للإمام الحافظ القاضي سيدي عياض بن موسى اليحصبي رحمه الله، وهو فريد في بابه.

ومنهم مَن صنف في علوم الدين عموما وتطرق في مبحث خاص للتصوف باعتباره أحد الأركان الثلاثة له، كما فعل الشيخ الإمام سيدي عبد الواحد ابنُ عاشر في

(1) ص 55.

(2) أفاده الحافظ أحمد ابن الصديق الغماري في "جؤنة العطار"(مخطوط).

نظمه البديع الموسوم بـ"المرشد المعين على الضروري من علوم الدين"، والذي عنون للقسم الثالث منه بقوله "مبادي التصوف وهوادي التعرف"، وقد تعرض مجموعة من العلماء لنظمه هذا شرحا وتحشيةً واهتموا كثيرا بقسم التصوف منه اهتماما بالغا.

ومن العلماء المغاربة مَن جعل موضوع تصنيفه التزكيةَ النفسية والتطهير القلبي على طريقة بيان المهمات في هذا الشأن تحت ضوء تأصيلات المحققين لمذهب الصوفية، فوجه كتابه إلى شريحة السالكين والمريدين والمبتغين للقرب والوصول، فجمع لهم كتابا سهلَ العبارة على طريق الشعراني في "العهود المحمدية" وأبي طالب مكي في "قوت القلوب".

ومنهم من رام في تأليفه الجمع بين كل ذلك وتغيَّى بكتابه الحظ على اتباع الطريق الموصل إلى الله، جامعا عبارات الصوفيين وطريقة المحققين، بأسلوب سهل ممتنع، جامع بين غزارة المادة العلمية، وحسن التركيب والتقسيم، ككتابنا هذا موضوع البحث، وهو كتاب "سراج الغيوب في أعمال القلوب" للشيخ الرباني سيدي عبد الكبير بن عبد المجيد بن يوسف بن محمد بن علي بن محمد الشّريف الحسني المصمودي ثم الزجني الكثيري النسب، وعليوات اللقب، المتوفى في أواخر القرن الحادي عشر من الهجرة النبوية.

فهو كتاب تطرق لشرح أبيات ثلاثة شهيرة على ألسنة الصوفية شرقا وغربا، وهي:

توضأ بماء الغيب إن كنتَ ذا سر وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر

وقدم إماما كنت أنت إمامَه وصل صلاة الفجر في أول العصر

فهذه صلاةُ الْعارفين بربهم فإن كنتَ منهم فانضح البرَّ بالبحْر

وهذه الأبيات وإن اختلف في نسبتها إلى ناظمها - كما سيأتي بيانه إن شاء الله -، لكنها تضمنت من معارف القوم، ووصاياهم العرفانية التربوية السلوكية ما تلهَّف جماعةٌ من العلماء والعارفين على وضع شروحات عليها بين مطوِّل العبارة ومقصر، ومعقَّد الإشارة ومصرِّح، فأخذ الإمام عليوات مكانه بين القوم وأخرج هذا الشرح الرائق الجامع بين القوة العلمية والسلاسة اللغوية والتعبير المتين والإيصال الحكيم.

وهو كتاب أيضا جمع أصول التربية ومقامات السالكين التي اهتم الصوفية ببيانها والحضّ عليها، والتي لا وصول بدون سلوكها بعد العلم بها ومعرفتها.

كما يتميز كتاب "سراج الغيوب" بكونه خزانة أدبية لمجموعة من الحكم العرفانية

لجماعة من علماء القلوب وأطبائها، مما يعوزك الوقوف عليه في غيره، ويضم عشرات من الأبيات الشعرية الرقيقة اللطيفة في إصلاح القلوب وتطهيرها، ويحوي بين دفتيه نقولاتٍ عدةً عن عدد من الصوفية الأخيار، خاصة منهم المغاربة مما لا يوجد منقولا في كتب المشارقة الشهيرة كـ"الإحياء" و"القوت" و"العوارف" وغير ذلك، بل إننا وقفنا على نقولات لأعلام لم يتيسر لنا التعريف بهم، فضلا عن توثيق كلامهم وآرائهم.

فعُدَّ الكتاب بهذا مرجعا آخر من مراجع التصوف عموما وتاريخ التصوف المغربي خصوصا.

ومما يميزه أيضا منهجه في التأليف، حيث جمع في كتاب واحد الشيخُ عليوات شرحين للأبيات الثلاثة المذكورة، وهما شرح صغير مختصر، وشرح كبير مطول مفصل، وجعل الأول كالمقدمة بين يدي الثاني، وهو ما لا يسلكه عادةً المصنفون في هذا العلم، فللشيخ عليوات الأسبقية فيه.

ولما كان كتاب "سراج الغيوب" بهذه الأهمية العلمية، والأسبقية الأدبية، وأن مؤلفه الشيخ عليوات ممن له قدم راسخ في طريق القوم وعلومهم، وهو مما لم يهتم به كثيرا الباحثون في التاريخ أو التصوف المغربي، فإنني استخرت الله في الاشتغال عليه تحقيقا ودراسة، في إطار التحضير لشهادة الدكتوراه الوطنية[1].

---

(1) نوقشت هذه الأطروحة الجامعية بجامعة محمد الخامس بالرباط من لدن لجنة علمية تتكون من: د. محمد الديباجي (مشرفاً)، د. محمد المغراوي (رئيساً)، د. إدريس القاسي الفهري (عضواً).


القسم الأول
الدراسة

الباب الأول: المؤلِّف

تمهيد

لا بدّ أن نعترف أولا على أن المادة المترجمة للشيخ عبد الكبير عليوات شحيحة جدا، بالنسبة لقدره في المجال العلمي والقدر الصوفي، وباعتبار أمثاله من شخصيات المغرب الذين أخذوا حظهم الوفير من الترجمة والكتابة، بل أقل من الشيخ عليوات ترجم بإسهاب وتكلمت عنه كتب التاريخ.

وأنا أرجح أن سبب ذلك هو أن الشيخ عليوات كان من نوع الشيوخ المؤثرين للتواضع والخمول على الظهور والبروز، وأنه كان لا يعدُّ نفسه شيخا بالمعنى الذي تعارف عليه أقرانه، ثم إنه كان رحمه الله يرجع في أمور الظاهر والباطن إلى علماء وأولياء زمانه، ونادرا ما يستأثر برأي، فعدَّ نفسه تلميذا ومريدا لا عالما ومربيا، ومن ثمة شحت الكتابات في ترجمته والتعريف به، إلى درجة عدم الجزم بسنة وفاته، كما ذهب إليه المحققون.

ولم يترجم له الشيخ القادري في "نشر المثاني" ولا من جاء بعده.

كما أن اتصاله وخدمته للشيخ الإمام العارف مولاي عبد الله الشريف الوزاني رضي الله عنه كان سببا في تخصيصه بترجمة، حيث غلب على من أحاط بالشيخ مولاي عبد الله الشريف الاعتناء به وبترجمته دون غيره.

لكن هذا تفصيل لما قد وقفت عليه من ترجمته من كتب التاريخ والتراجم.

الفصل الأول: اسمه ونسبه وبيئته وعصره:

هو الشيخ عبد الكبير بن عبد المجيد الشريف الحسني المصمودي الكثيري النسب عليوات اللقب.

ولد بقرية أسجن من قبيلة مصمودة وليس ببني زجل من قبيلة غمارة كما ذهب إلى ذلك محمد حجي.

ينتسب إلى الشرفاء الكثيريين الذين انتشروا بفاس وسوس، وقصر الوداغير بالصحراء بفجيج، وغرناطة بالأندلس، وهم أدارسة، إذ أن جدهم كثير بن عبد الرحمن ابن داود يتصل عمود نسبه بأحمد بن محمد بن إدريس الثاني بن إدريس الأول.

ولد الكثيري بقبيلة مصمودة بقرية آسجن، البعيدة عن وزان بتسع كيلومترات، وكانت حينها من المراكز الحضارية الجبلية، وقد نشأ بها في بيت عريق أنجب الصالحين والأولياء والعلماء والمجاهدين وذلك بحكم اتصالهم بالشيخ عبد المجيد الداتسي والشيخ الغزواني، فعنهما أخذوا علوم التصوف وطرائق التعبد.

وليس لدينا عن سنة ولادته معلومة صحيحة، إلا أن المؤكد هو كونه من مواليد ووفيات القرن الحادي عشر من الهجرة.

وتقول الدراسات إنه لازم والده بداية نشأته وعليه تلقى المبادئ الأولية للعلوم الشرعية والتصوف، وقد كان والده من أعلام الثقافة في القبيلة المصمودية، وهو الذي غرس في ابنه حب التصوف والذكر والتهجد، وكان والده أيضا عارفا بطريق التربية عالما بالحقيقة والشريعة والطريقة، بل له تأليف في التصوف سماه "بشرى السعادة في طريق أهل الإرادة" فيه وصايا على طريقة الصوفية وحكمهم.

وقد كانت للشيخ عبد الكبير عليوات رحلات إلى المناطق الجبلية المجاورة لتلقي القراآت القرآنية، والاتصال بالعمال المشارطين في مساجد الأخماس، وبني مسارة ورهونة وغزاوة ومصمودة، للأخذ عنهم أوليات النحو والفقه والتفسير والبلاغة.

ثم رحل إلى فاس قبلة الطلاب والعلماء آنذاك، حيث أتم ما بقي من تعليمه على جلة علمائها الذين كانت تضيق بهم زوايا جامع القرويين.

من بينهم الشيخ عبد السلام بن الناصر الجابري المتوفى بفاس عام 1054 هـ، وقد حضر عليه عدة علوم بمدرسة أبي عنان المريني.

الفصل الثاني: نشأته

ولم تعطنا مصادر التاريخ والتراجم عن نشأته تفاصيل تفيد في التقرير، إلا أنه نشأ على حب العلم وأهله وسلوك طريق التصوف وساداته، بدليل أنه آثر الرحلة إلى فاس مدينة التلقي وآثر بعدها خدمة القطب مولاي عبد الله الشريف في خلوته، وما ذلك إلا لتشبع الشيخ عبد الكبير عليوات بحب العلم والسلوك، وهو الطابع الذي كان عليه أكثر شرفاء المغاربة في زمانه وقليلا بعده.

ويزيد دلالة على هذا مؤلفه العجيب الذي هو موضوع تحقيقنا، فإنه تكلم فيه بلسان كبار أهل العلم والمعرفة، كما أن له كتبا أخرى ونظما رائقا يشير إلينا إلى أنه

حصّل علما غزيرا أثناء نشأته[1].

الفصل الثالث: ثقافته ومؤلفاته:

تفوق الشيخ عبد الكبير عليوات في الفقه والتفسير وعلوم اللغة والقراآت، وكان له القدم الراسخ في التصوف والحديث، وباع طويل في الترسل والنثر الفني، كما يدل عليه بوضوح كتابه "سراج الغيوب".

بل إن له إجازة كبرى من شيخه القطب مولاي عبد الله الشريف الوزاني، تدل على تبحره في علمي الحقيقة والشريعة وأن له القدم الراسخ في العلوم، بل تدل على أحقيته بالخلافة عن الشيخ لولا خمول وتواضع كان يميل إليه الشيخ عليوات.

ذلك أن مولاي عبد الله الشريف لما انتقل إلى دوار "الميقال" وانتقل معه تلميذه الشيخ عبد الكبير عليوات، هناك طار صيت الشيخ مولاي عبد الله الشريف وحج الناس إليه من كل جهة، العالم والطالب، حتى قصده بها الشيخ العلامة المحقق سيدي الحسن اليوسي رحمه الله مستطلعا خبره، ومستفسرا عن معنى أبيات الجنيد الثلاثة "توضأ بماء الغيب..." فرحب به الشيخ، واعتذر له عن عدم تلبيته لطلبه لانشغاله بزواره، لكنه أحاله على تلميذه الشيخ عبد الكبير عليوات لأهليته وتبحره العلمي، وكفاءته الثقافية.

وقال له وهو مشبك يده بيده: "اعلم يا سيدي أن حقك واجب علي وكذلك حقوق الوافدين علينا، وأردت أن أقوم بحق الجميع إن شاء الله، فلذلك استحضرت هذا الشريف، وهو عندي في المحبة والرأفة كأحد أولادي من صلبي، فاستخدمته إياك في هذه الليلة، وكل ما تحتاج عندي من العلم والحال والمقال فهو عنده، وهو يقوم بحقك إن شاء الله...".

ومما يدل على أهليته الثقافية ومكانته العلمية اشتغاله بالتدريس بالزاوية الوزانية مدة، ثم خلف ولدا واشتغل بالعدالة، وقد حلاه ابن يخلف في كتابه "سلوة المحبين" بـ"الفقيه العدل"، وتوثقت صلته بشيخ الزاوية الوزانية بمصر الشيخ محمد بن عبد الله الكنكسي.

---

(1) مخطوط نظمه موجود بخزانة علال الفاسي بالرباط.

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن الشيخ سيدي عبد الكبير بن سيدي عبد المجيد عليوات صنف بعض الكتب ونظم بعض القصائد، والذي عرفناه منها ثلاثة مصنفات مفيدة.

○ الأول: "السَّيف المتين في الرد على من كفر عوام المسلمين"، ولا شك أن هذا الكتاب يدل دلالة واضحة على اهتمام الشيخ عليوات بالقضايا المعاصرة له، حيث إن جماعة من المتعالمين كفروا عموم المسلمين بأدنى شبهة، فرد عليهم الشيخ بهذا المصنف البديع. وموضوع الكتاب أن الشيخ دافع فيه عن سلامة عقائد العوام وأن إيمانهم المنبني على التقليد لا يؤدي بهم إلى الكفر كما زعم بعضهم،

○ الثاني: أرجوزة "بهجة السرور"، والواقع أنها أرجوزة في علم السلوك، نسخة مخطوطة منها موجودة بخزانة علال الفاسي بالرباط.

○ "سراج الغيوب في أعمال القلوب" وهو كتابنا موضوع التحقيق إن شاء الله.

الفصل الرابع: شيوخه:

والشيخ عليوات كان متنقلا بين المدن والقرى والمناطق باحثا عن معلم ومنقبا عن عارف بالله يأخذ عليه الطريق، وقد عد من شيوخه مجموعة منهم:

○ الإمام القطب سيدي عبد الله الشريف اليملاحي العلمي المصمودي دفين وزان وإمام الطريقة الوزانية الزروقية الشاذلية بالمغرب، الشيخ الزاهد السني العارف الطائر الصيت الكثير الأتباع المتوفى سنة 1089 هـ. له ثبت جمع فيه جميع طرق أشياخه من الصوفية إلى منتهاها، وجمع فيه أيضاً أكثر ما في الفهارس من الأسانيد الحديثية المروية فيها، نسبها له صاحب "التحفة القادرية" وذكر أنها كانت بزاويته بفاس ثم فقدت، وأن نجل المترجم الشيخ سيدي محمد أجاز بها لجده أبي عبد الله محمد بن علال القادري الفاسي، وقد ساق أسانيد الشيخ المذكور في كل علم في مجلدين ممتعين هما عندي. اهـ من فهرس الفهارس للشيخ سيدي عبد الحي الكتاني رحمه الله.

والشيخ عليوات ثبت أنه خدم الشيخ وتتلمذ عليه مدة طويلة من عمره كما يلحظ من كتابه الذي بين أيدينا ومن تراجم الشيخ الوزاني رحمه الله أيضا، فلا شك أنه استفاد منه كثيرا في علمي الحقيقة والشريعة، إن لم نقل إن كل ما فتح الله عليه به من المعارف والعلوم كانت ببركة حبه للشريف الوزاني، كما لا يخفى ذلك على محب لطريق القوم.

وقد قال الطاهري في "تحفة الإخوان" عن الشيخ مولاي عبد الله الشريف الوزاني:

"لا يخرج ولا يلقاه أحد إلا رجل من أصحابه يقال له سيدي عبد الكبير عليوات الشريف، فإنه يناوله ما يحتاج إليه ويوصل إليه ما يتوقف عليه."اهـ.

بل يعد الشيخ عبد الكبير عليوات أول من أخذ الطريقة الوزانية عن مولاي عبد الله الشريف، وهو أول تلميذ ومريد للشيخ.

○ عبد المجيد بن يوسف بن محمد بن علي بن محمد الشّريف الحسني المصمودي، وهو والد الشيخ عليوات، والذي شحت المصادر والمراجع أيضا في ترجمته، والذي لا نشك فيه أنه كان من أهل العلم والمعرفة، ولا أدل على ذلك من آثار الخير والبركة على ولده مترجمنا.

○ سيدي عبد السلام بن الناصر الجابري أصلا الفاسي منشأً وتربية ووفاة توفى عفا الله عنا وعنه بسبب الوباء الذي كان سنة 1056 هـ، وكان لغويا أديبا، ذكر له القادري في "نشر المثاني" قصائد من نظمه بديعة جدا.

وكان الشيخ عليوات قد التقى به وأخذ عنه واستفاد من مجالسته ومصاحبته بفاس، رحم الله الجميع.

الباب الثاني: المؤلَّف أو الكتاب

الفصل الأول: نسبة الكتاب للمؤلف ودواعي تأليفه:

لا شك في نسبة كتاب "سراج الغيوب" إلى الشيخ سيدي عبد الكبير ابن عبد المجيد عليوات، للبراهين الآتية:

- أولا: أنه كان يحيل إليه في غيره من كتبه ككتاب "بشرى السعادة".
- ثانيا: أن النسخ المتوفرة منه كلها نسبته إليه بدون تردد ولا اختلاف.
- ثالثا: أنه لم يأت دليل على نسبته لغيره.
- رابعا: أنه يشير فيه إلى ما يدل عليه، كمصاحبته لمولاي عبد الله الشريف خاصة، فإنه لا أحد صاحبه وخدمه كالشيخ عليوات، بل قيل إنه أول من أخذ الطريقة الوزانية، والله أعلم.
- وكذا نسبه إليه الدكتور محمد حجي في كتابه "الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين" والدكتور عبد الإله الغزاوي في كتابه "الممارسة الثقافية بالزاوية الوزانية" وغيرهما.

الفصل الثاني: موضوعه:

عادةً ما يُعرف موضوع أي تأليف من عنوانه، ولذلك قالوا: "الكتاب يقرأُ من عنوانه"، وكتابنا هذا يجري عليه هذا المنطق العام، مع بعض التخصيص.

فإن الإمام المؤلف الشيخ عبد الكبير بن عبد المجيد عليوات اختار لكتابه اسما جامعا دالا على موضوعه دلالة أغلبية، وهو:

سراج الغيوب في أعمال القلوب

والملاحظ من الطرف الثاني للعنوان أن موضوعه متعلق بعلم خاصٍّ بأعمال القلوب وأسرار دوائها وبيان أمراضها، ألا وهو علم التصوف. فأول ما يمكن أن نخرج به من هذا أن موضوع الكتاب صوفي محضٌ، ما دام عنوانه مشيرا إلى أن صاحبه خصه للبحث عن أعمال القلوب وما يصلح لها ويحييها.

والملاحظ من طرفه الأول "سراج الغيوب" أن المؤلف يضيء سراجا يهتدي به المريدون والسالكون طريق القوم، كأنه أراد أن ينبه ويثير فضول المطلع عليه أنه

مصنَّفٌ يضمُّ قواعد وبيانات ووصايا ونصائح لا يستغني عنها السالك إلى الله تعالى، سماها سراجا ووصف ذلك السراج بكونه مستمدا من الحضرات الغيبية، فكأنه بذلك يريد أن يشير إلى أن هذه القواعد المهمات والنصائح النيرات مستمدةٌ من إلهامات غيبية وكشوفات إلهامية، بقدر ما بناها على نصوص شرعية قرآنية ونبوية.

وبالجملة فموضوع الكتاب العام التصوف التربوي، وهو الذي كان الإمام المؤلف رحمه الله يشتغل به ويجتهد لنشره ويسعى للدعوة له ويلتذ بمطالعته والتصنيف فيه، خاصة وأنه كان حاملا لمشعل الإصلاح الصوفي، حيث ظهر في زمانه ومكانه بدعٌ وخرافات دخلت الطريق وضيعت على القوم المقصدَ الشريف من علمهم، فاختار المؤلف لكتابه موضوعا عاما إرشاديا سلوكيا.

وقد أشار المؤلف نفسه إلى ذلك بقوله في تقدمة تصنيفه: "واعلَم أنّه لما كان هذا الكتاب، مخصوصاً بتصفية أعمال الصدور والألباب، ومرشدا للجوارح الظاهرة بالاكتساب سمَّيتُهُ: "سِراج الغيُوب في أعمال القُلوب" أسأل الله تعالى أن يجعل المسمَّى موافقا للتسمية، وأن يكون سببا لرضا رب البرية، وأن يكون معينا لنا على الأعمال المقبولة المرضية، وأن ينفع به في الدنيا والآخرة مؤلفه وناسخه وناظره وكاسبه، وأن يوفقنا جميعا للعمل بما فيه، وإخلاص الأعمال كلها لله تعالى والدؤوب عليها لليوم الذي فيه نأتيه، آمين والله الموفق سبحانه."اهـ.

وأما موضوعه الخاص فهو الذي أعلنه المؤلف رحمه الله نفسه في مقدمة تصنيف، حيث قال: "إني أردت أن أضع شرحا متوسّطا على الأبيات الثلاثة المنسوبة لشيخ الطّريقة، ومحيي الحقيقة سَيدي أبي القاسم الجنيد وهي هذه:

تَوضّأ بماء الغيب إن كنت ذا سِر ... وإلّا تَيمم بالصَّعيد أو الصَّخر

وقدِّم إماما كنتَ أنتَ إمامَهُ ... وصلِ صلاة الفجر في أوَّل العصْر

فَهذي صلاةُ الْعارفين بربهم ... فإن كنتَ منْهم فانضح البرَّ بالبحْر"

وهو واضح الدلالة على أن مقصد المؤلف هو التعرض لأبيات اختلف في نسبتها إلى الإمام أبي القاسم الجنيد أو الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، شرحاً وبيانًا.

قلت: موضوع كتابنا الخاص هو شرح أبيات الإمام الجنيد التي كثر الكلام عنها

وعن ناظمها وأسرارها، ففي "البحر المديد"[1] لسيدي أحمد بن عجيبة: وإليه أشار ابن العربي الحاتمي: كما في طبقات الشعراني، ونسبها غيرُه للجنيد رضي الله عنهم أجمعين وهو الأصح بقوله:

تَوضّأ بماء الغيب إن كنت ذا سِر ... وإلّا تَيمم بالصَّعيد أو الصَّخر
وقدِّم إماما كنتَ أنتَ إمامَهُ ... وصلِ صلاة الفجر في أوَّل العصْر
فَهاذي صلاةُ الْعارفين بربهم ... فإن كنتَ منْهم فانضح البرَّ بالبحْر

أي: إن لم تقدر على الطهارة الأصلية؛ وهي الغيبة عن الأحداث الكونية، فاقصد العبادة الحسية، وقدَّم الشريعة أو من قام بها من أهل التربية النبوية أمامك، بعد أن كان يطلبك من قبل أن تعرفه، وأجمع ظُهر الشريعة لعصر الحقيقة، فهذه صلاة العارفين، فإن كنت منهم فانضح بَرَّ ظاهرك بحقيقة باطنك، فما كَمُنَ في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر. اهـ.

فهكذا يُرَّجِّح ابنُ عجيبة نسبةَ الأبيات إلى أبي القاسم الجنيد، ويتطرق إلى مختصر من شرحها، مما يبدو منها أن موضوعها تربوي محضٌ وعليه جرى المؤلف الشيخ العليوات في تأليفه "سراج الغيوب".

وكذلك قال الشعراني في "الطبقات الكبرى"[2] خلال ترجمة الإمام أبي المواهب التونسي: وقال في معنى قول: الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله تعالى:

تَوضّأ بماء الغيب إن كنت ذا سِر ... وإلّا تَيمم بالصَّعيد أو الصَّخر
وقدِّم إماما كنتَ أنتَ إمامَهُ ... وصلِ صلاة الفجر في أوَّل العصْر
فَهاذي صلاةُ الْعارفين بربهم ... فإن كنتَ منْهم فانضح البرَّ بالبحْر"

المرادُ بالوضوء طهارةُ أعضاء الصفات القلبية من النجاسات المعنوية، وماء الغيب هو خلوص التوحيد فإن لم يخلص لك بالعيان فتطهر بصعيد البرهان، وقدِّم إماماً كان إمامك في يوم الخطاب ثم صرت أنت إمامه بعد سدل الحجاب، وصلِّ صلاة الفجر التي هي صلاة نهار كشف الشهود بعد حجاب ظلمة الوجود في أول العصر الذي هو أول زمان انفجار فجرك، ولا تتأخر لآخر دورك لأن الحكم للوقت، والتأخير له مقت،

(1) 432/1.
(2) ص 288.

فهذه صلاة العارفين بربهم، وهم الذين لم يخرجوا عن متابعة الأحكام الشرعية في جميع مشاهدة الربوبية، فإن كنت منهم، فانضح يعني اغسل بماء بحر الحقيقة ما تدنس من بر الشريعة.

وقال: في قولهم النبي مشرع للعموم، والولي مشرع للخصوص؛ أي النبي مبين للعوام برسالته ومبين للخواص بولايته، لا أن الولي يشرع الأحكام الشرعية، فإنه ليس له ذلك، وإنما له تبيين الحقائق الكشفية بطريق الولاء، والوراثة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام. اهـ.

فأبو المواهب يُقرِّر الموضوع نفسه في نظرته لهذه الأبيات التي هي موضوع تأليفنا، وهو عين ما سطره ورمى إليه الشيخ العليوات في تصنيفه.

ولذلك يمكن أن نؤكد على أن كتاب "سراج الغيوب" هو امتداد لكتب التربية الإحسانية، التي كان يسلك التصنيف فيها علماء الطريق الصوفية، وينهجون في ذلك مناهج متعددة، وإن كان المقصد والغاية من ذلك واحدة وهي التأكيد على ضرورة تخليص قلوب السالكين من معوقات الوصول إلى حضرة الباري عز وجل، بدليل غزارة مادته الصوفية، لا من حيث النصوص المستشهد بها ولا من حيث الأسلوب المنتهج في التأليف.

الفصل الثالث: تحقيق نسبة الأبيات الثلاثة:

لقد أخذت هذه الأبيات الثلاثة في الأدبيات الصوفية حظا وفيرا من الاعتناء، شرحا واستشهادا ومعارضة، واعتمده السادة الصوفيةُ في مؤلفاتهم وتغنوا بها في مجالسهم، وصارت عندهم من النصوص المشتهرة المحفوظة، والاستدلالات السائدة المعروفة، والغالب عليهم أنهم يوردونها دون تعرض لناظمها وتعرف على صاحبها.

ولقد نحا بعضُ السادات منهم منحى نسبتها إلى الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي الحاتمي رضي الله عنه، لأنها من نمط أسلوبه في القريظ والنظم، ومن جنس حديثه عن الحقائق الغيبيات والمجازات الصوفيات.

لكنَّ الذي نميل إليه ونرجحهُ هو الذي حققه أغلب شُراحها وهي نسبتها إلى الإمام الجنيد رحمه الله، وإن كنت لم أقف على من نسبها إليه من أصحابه أو من ترجم له وأورد كلامه بعد ابن العربي الحاتمي، إلا أن الاطمئنان إلى تحقيقات أولئك المحققين مأخوذ بالاعتبار، كما أنها لم تُسَق في ديوان الشيخ الأكبر ابن العربي

المطبوع باسم "ترجمان الأشواق"؛ وهذه أقوال من نسبها إلى الجنيد.

- قال الشيخ سيدي أحمد ابن عجيبة رحمه الله في إحدى شروحه على الأبيات الثلاثة: "فظهر لنا أنك تريد الجواب عن مسألة الأبيات الثلاثة المنسوبة لشيخ الطريقة، وإمام الصوفية، ومحيي الحقيقة، الشيخ أبو القاسم الجنيد، نفعنا الله ببركاته آمين:..."ثم ذكرها.

- ولا يعترضُ على هذا بأنه نسب الأبيات إلى الإمام ابن العربي في "إيقاظ الهمم" لما قال[1]: أي لا تقربوا صلاة الحضرة وأنتم سكارى بحب الدنيا وشهود السوى حتى تتيقظوا وتتدبروا ما تقولون في حضرة الملك ولا جنباً من جماع الغفلة وشهود السوى حتى تتطهروا بماء الغيب الذي أشار إليه الحاتمي رضي الله عنه كما في الطبقات الشعرانية في ترجمة أبي المواهب بقوله:... الخ"، لأنه هنا نسب النسبة إليه إلى الشعراني، وفي شرحه الذي خصها به جزم فيه بكونها للجنيد، فلعله قبل أن يشرحها شرحا خاصا لم يتحقق له ذلك.

- ودليل ذلك أنه صرح بصحة نسبتها إلى الجنيد كما في "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" حيث قال[2]: "أيها الذين آمنوا لا تقربوا صلاة الحضرة القدسية، وأنتم سكارى بحب الدنيا الدنية، حتى يذهب عنكم سُكر حبها، وتعلموا ما تقولون في مناجاة خالقها، ولا جنبًا من جنابة الغفلة، إلا ما يمر بالخواطر على سبيل الندرة والقلة، حتى تغتسلوا بماء الغيب، الذي يحصل به طهارة الجنان، ويغيب المتطهر به عن رؤية الأكوان. وإليه أشار ابن العربي الحاتمي: كما في "طبقات" الشعراني، ونسبها غيرُه للجنيد رضي الله عنهم أجمعين وهو الأصح بقوله:

تَوَضَّأ بماءِ الغَيبِ

- وكذا حقق نسبتها إلى الإمام الجنيد الشيخ المحدث سيدي عبد العزيز بن الصديق الغماري في شرح له خاص عليها قال في مبتدئه: "هذا تعليق وجيز، وشرح مختصر مفيد على الأبيات المنسوبة لشيخ الطائفة الجنيد رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وهي:... الخ" ثم ذكرها.

---

(1) ص 36.

(2) 432/1.

هذا، وإن أغلب من نسبها إلى ابن العربي الحاتمي رحمه الله إنما نقل ذلك عن الإمام عبد الوهاب الشعراني إن لم نقل إنها لم تنسب إليه قبله، وهو الذي قال في "الطبقات الكبرى" خلال ترجمة "أبي المواهب التونسي"[(1)]: وقال في معنى قول: الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله تعالى: توضأ بماء الغيب... الخ" ثم ذكرها.

الفصل الرابع: شُرَّاح الأبيات الثلاثة قبل المؤلف وبعده:

لا يمكن أن نحيط علما بعدد المتعرضين لأبيات الإمام الجنيد شرحا ومعارضة، ولكن وقفت على بعض منهم وعلى شروحاتهم أدرجها في هذه الفصل مزيدا للفائدة، وهي كالتحقيق لها لأنها لم تر النور إلى عالم الطباعة حاشا ما ورد من تفسيرها في "إيقاظ الهمم لابن عجيبة".

وإن كان غيرهم قد شرحها بمؤلف خاص كالشيخ عبد الجواد بن شعيب بن أحمد بن عباد بن شعيب القنائي المتوفى سنة ثلاث وسبعين وألف (1073 هـ) كما ذكره المحبي في "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر"[(2)].

وكذلك أشار المرادي في كتابه "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر" إلى أن الشيخ أحمد الكستي الحلبي الأمجد وضع عليها شرحا.

وأشار الأستاذ سزكيس في "معجم المطبوعات"[(3)] إلى أن للشيخ أبي بكر بن محمد بناني المغربي المتوفى عام أربعة وثمانين ومائتين وألف (1284 هـ)، شرحا على الأبيات الثلاثة المنسوبة إلى الجنيد رحمه الله، طبعت مع مجموعة من الكتب في علم التصوف، فقال: البناني المغربي "(الشيخ) أبو بكر بن محمد"(1284هـ) "مدارك (أو مدارج) السلوك إلى ملك الملوك"(تصوف)؛ وبهامشه "عقد الدر واللآل" في بيان فضل الفقر والفقراء وفضيلة السؤال لابن المؤلف الشيخ فتح الله. وبآخره "الفتوحات الغيبية في شرح الصلوات المشيشية" و"شرح أبيات تطهر بماء الغيب" للسيد أبي بكر أيضا (مط الجمالية 30 / 1329).

وهذه شروح بعض من وقفت عليه كاملا:

---

(1) ص 288.

(2) 8/2.

(3) 591/1.

الشرح الأول: للشيخ سيدي أحمد ابن عجيبة

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

إلى أخينا الفقيه الأجل السيد علي بن عبد الرحمان، أصلحك الله ورعاك، وأعانك على الدين والدنيا، سلام الله تعالى عليك وبركاته.

وبعد، فقد ورد علينا كتابك ومسطورك وتأملناه، فظهر لنا أنك تريد الجواب عن مسألة الأبيات الثلاثة المنسوبة لشيخ الطريقة، وإمام الصوفية، ومحيي الحقيقة، الشيخ أبو القاسم الجنيد، نفعنا الله ببركاته آمين:

توضـأ بمـاء الغـيب إن كـنتَ ذا سـر ... وإلا تـيمم بالـصعيد أو الـصخر

وقـدم إمامـا كـنت أنـت إمامَـه ... وصـل صـلاة الفجـر فـي أول العـصر

فهـذه صـلاةُ الْعارفـين بـربهم ... فـإن كـنتَ مـنهم فانـضح البـر بالبحـر

فاعلم أيها الأخ أن كلام الأولياء العارفين، والعلماء العاملين، الذي ليس بمنقول عمن تقدم، وإنما تكلموا به من قريحة أنفسهم؛ فيكون منطويا على أسرار مصونة، وجواهر مكنونة، لا يكشفها إلا هم، ولا تتبين حقائقها بالتلقي عنهم. ومثل هذا يسأل عنها الأولياء العارفون، وأما أنا فبمعزل عن هذا، وبعيد لكثرة جهلي، ومخالفة ربي، وكثرة زلتي، وعمى بصيرتي، ونقصان عقلي، لكن لما أتاني كتابك، استحييت أن أهمله، ولم أجبه لأن الكتاب ينوب على صاحبه، وأجيب على قدر ما منحني الله تعالى بفضله وجوده وكرمه؛ فلله الحمد وله الشكر. على قدر فهمنا كلام المتقدمين رضي الله عنهم.

فاعلم أيها الأخ بأن الطهارة طهارتان: طهارة حسية وطهارة معنوية. فالطهارة الحسية صغرى وكبرى، كما هي معلومة. والطهارة المعنوية طهارتان: ظاهرية وباطنية. فالطهارة الظاهرة، طهارة الجوارح من المعاصي، والباطنة طهارة القلب من الأدناس والأغيار ومن مخالفة الديان الملك الجبار، وأن يمتثل الإنسان بجميع جوارحه لما أمر به. الواحد القهار فجمع المصنف رحمه الله تعالى في هذه الأبيات: الطهارة المعنوية كلها، وعلوم الصوفية، والحقيقة والشريعة.

فقوله: "توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر" أي تطهر للدخول في الحضرة الربانية الإلهية، أي تطهر من المعاصي بالتوبة والتجريد من الأغيار والندم على ما فات من

عمرك، وكثرة الاستغفار، والنية، وصحة اليقين. كما لا تدخل في الصلاة إلا بالطهارة الحسية، فكذلك إذا أردت أن تدخل في حضرة الله تعالى والتقرب إليه. فتطهر وتوضأ بماء الغيب، أي اليقين الذي لا شك فيه، ولا شك معه. والنية، والصدق، والإخلاص. ودليل ماء الغيب هو اليقين والله أعلم. فقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝ ﴾ [البقرة/ 1 - 3] فقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [البقرة/ 3] أي يؤمنون بقلوبهم، ويؤمنون بالآخرة، لأن الآخرة غيب. ولا يؤمن بالآخرة إلا الموقنون. فلذلك قال الشيخ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝ ﴾ [البقرة/ 4] توضأ بماء الغيب، الذي هو اليقين، وفسره الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [البقرة/ 3] إلى قوله: ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة/ 3] بقوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝ ﴾ [البقرة/ 5] فهذه مزية هذا الوضوء، وأي مزية أعلى، لمن شهد الله له بالهدى والفلاح.

وقوله: "إن كنت ذا سر" أي إن كنت صاحب سر، والسر هو "لا اله إلا الله"، لأنها شرط في جميع العبادات. فإذا انتفى الشرط، انتفى المشروط. وقوله: لا اله إلا الله هو سر الأسرار، وأصل جميع أعمال الأخيار، لأنا لو فرضنا أن أحدا يعمل الأعمال الصالحات كلها، من صلاة وصيام وقراءة، ويأتي بوجوه العبادات كلها، واستكبر عن قول لا اله إلا الله؛ أو نطق بها ولم يعرف معناها، بل نطق بها خاصة، فلا ينفعه عمل من الأعمال كلها. وأن هذه الكلمة الطيبة المباركة هي أصل الأسرار الربانية والمواهب الإلهية، وبها يستحق المؤمن رضاء رب العالمين.

ووجه المناسبة بينها وبين الوضوء المذكور، حتى جعلها شرطا في صحة ذلك، لأن الكفر نجس، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ﴾ [التوبة/ 28] الآية. وبقول لا اله إلا الله المذكورة، يظهر ذلك النجس من حينه. ويصير من نفس قولها، واعتقادها وليا لله تعالى، والله ولي المؤمنين.

فهذا مراد الناظم بقوله: "إن كنت ذا سر" والله تعالى أعلم، لأن هذه الكلمة تدخل تحتها جميع الأسرار الربانية، واتفقوا على أن ذكرها مفتاح الولاية الكبرى، فأي سر

أعظم من هذا السر.

وقوله رضي الله عنه: "وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر" أي إذا عدمت الغيب، وهو اليقين، وكنت من أصحاب السر، فتيمم بالصعيد أو الصخر، لأنك لا تدخل الحضرة حضرة الله تعالى، إلا بالطهارة المعنوية كما لا تدخل للصلاة إلا بالوضوء أو بالتيمم إن عدم الماء كما هو مقرر. ومراده بالصعيد هنا مخالطة الأولياء العارفين والعلماء العاملين، أهل اليقين، وتهتدي بهم حتى تكون من أهل اليقين، ولذلك اتفق أهل الطريق على أن الشيخ لا بدّ منه. قال الشيخ أبو القاسم الخليل: من لا شيخ له، فالشيطان شيخه. وقال: ومخالطة الأخيار ومحبتهم من أعمال الخير، وإن كان جنبا. لقولهم: إن لم تكن منهم، فعليك بمحبتهم، لأنك بحبك لهم تصل إليهم. ولقوله ﷺ: "من أحب قوما حشر معهم"[1]؛ وقال بعضهم: من فاتته درجة الولاية والصلاح، فعليه بمحبة أهلها، لأن محبتهم ولاية. ومن أحب أهل الخير، وإن كان جنبا، فلا بدّ أن يتطهر بمخالطتهم، فهذا مراد الناظم بالتيمم بالصعيد.

والمراد بالجنابة: الجنابة المعنوية، وهي الغفلة عن طاعة الله، والانهماك في معاصي الله، والإصرار عليها فيجب على العبد أن يتطهر من غفلته، وسوء فعلته، بتوبته ورجوعه إلى ربه، ووقوفه عند أمر الله ونهيه، واتباع سنة رسول الله ﷺ إن كان عارفا بذلك، وكثرة اليقين والتصديق والنية والإخلاص، وإن كان جاهلا بذلك، وغلبه الأمر فعليه بمخالطة الأخيار العارفين وأهل اليقين، نسأل الله التوفيق لنا ولكم.

وقوله رضي الله عنه: أو بالصخر، أي أنك إذا لم تجد ماء الغيب الذي يرفع الحدث الأكبر، وهي الغفلة، فلا غنى لك عن التيمم بالتراب، وهي مخالطة الأولياء العارفين والعلماء العاملين، لأن التراب ينبت فيه كل نبات. فكذلك الأولياء العارفون كلامهم حكمة، ينبت في القلوب شيئا فشيئا، والانتفاع بهم حاصل، نفعنا اللهم بهم. فإن لم تطلع عليهم لأنهم عرائس، والعرائس لا يراهم إلا مَحرم منهم فعليك بمخالطة علماء السوء والمنتسبين والمدعين، لأنك ربما تسمع كلمة تنتفع بها من نيتك وصدقك، لأن من اعتقد الخير في صخرة نال الخير منها.

---

(1) رواه الطبراني في "الأوسط" و"الصغير" عن علي بن أبي طالب عليه السلام ورجاله رجال الصحيح كما قال الحافظ الهيثمي في "المجمع" 185/11.

ومراد الناظم بـ"الصخر" الحجر لكونه لا ينبت فيه نبات في غالب الأحيان، وربما ينبت في بعض بكثرة الأمطار أو بكثرة مرور الماء عليه. فكذلك علماء السوء والمنتسبون لا ينتفع بهم في غالب الأحوال، لكن إذا دام على مجالستهم فربما ينتفع بهم، أي بأقوالهم، ولأن من تشبه بقوم فهو منهم، ولذلك أمر بالإنصات للوراق والخطيب، وقراءة كتب أهل التصوف، لأنه ربما يسمع كلمة فيتعظ بها. قال الشيخ زروق رحمه الله تعالى في صدر شرحه على المباحث الأصلية، قال: "تشاجر الحق والباطل، فغلبه الباطل فقتله، فخاف أن يطلب به، فأحرقه. فجاء أهله وفر منهم الباطل، وجمعوا رماد الحق وجعلوه في المحابر وكتبوا به الكتب. فمن أراد الحق في زماننا هذا فلا يجده إلا في الكتب". فهذا مراد الناظم بـ"الصخر" لكونهم يسمع منهم ما كان موافقا، ويترك فعلهم لما قيل: "اجن الثمار وخل العود للنار". ولذلك قيل: وربما يسمع كلمة، ينتفع بها سامعها ويحرم منها قائلها. والله الموفق بمنه للصواب.

وقوله رضي الله عنه: "وقدم إماما كنت أنت إمامه" فالإمام هو المتبوع، والمأموم هو التابع. والمراد به هنا هو النبي ﷺ فيجب على الإنسان أن يتبعه ويقدمه ويتخذه إماما، باتباع الكتاب والسنة. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران/ 31] فهو إمام باتباعه له، وقوله: "كنت أنت إمامه"، فإن الإنسان لما كان مرتكبا للمعاصي والكبائر، قبل التوبة في حال المؤمن العاصي، أو حال الكافر أو مشرك، لمن كان كافرا قبل أن يسلم وهو يفر من التوبة والإسلام، ودعوة النبي ﷺ تتبعه، حتى عمت الآفاق كلها بحمد الله تعالى فعلى هذا المتبوع هو الكافر، حيث فر من الحق الباطل. فالمتبوع: إمام، والتابع: المأموم، وهو التابع له، وهو رسول الله ﷺ طول حياته بالمعجزات والبراهين، والحجة والأمر والنهي، والنذر والوعظ، والقتال وهم فارون منه، وهو يتبعهم، حرصا على هدايتهم حتى هداهم الله للإسلام، فأمروا باتباعه. فحين كانوا متبوعين له، كانوا أئمة له، لكون المتبوع كان إماما بتابعه. والآن أمرهم الشرع العزيز بأن يتبعوا النبي ﷺ. فصار إمامهم باتباعهم له. وكذلك عصاة المؤمنين لم يزالوا هاربين من سنة رسول الله ﷺ وطاعته؛ والأولياء يتبعونهم بالمواعظ، من الكتاب والسنة، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، وكذلك العلماء. ولم يزل كتاب الله تعالى يخاطبهم وسنة رسول الله ﷺ إلى أن استيقظوا من نوم الغفلة وسكرة الأهواء، وبادروا إلى التوبة

بالرجوع إلى الله، على قدر صدقهم فيعزلون نفوسهم من هذه التبعية، ويكونون تابعين للكتاب والسنة والعلماء، فكانوا قبل التوبة متبوعين، والمتبوع إماما لمن تبعه كما تقدم، والآن حين تابوا أمروا بالكتاب والسنة، والعلماء والأولياء الذين كانوا تابعين لهم، صاروا مأمومين لمن كان إماما لهم. وهذا مراد الناظم بقوله: "وقدم إماما كنت أنت إمامه". والله أعلم.

وقوله: "وصل صلاة الفجر في أول العصر" أي مراده والله أعلم بالفجر: الطاعة في حالة الشباب، والعصر آخر العمر. ولما كان حال كل مسلم، وأوان موته مجهولا، لا يعلم كل أحد بموته، أي يوم أو أي ساعة، والناس مختلفون، فمنهم من يموت شابا ومنهم من يموت شيخا، صار كل إنسان صغيرا كان أو كبيرا في عصر يومه، أي آخر يومه. ويصلي صلاة الفجر في حالة شبابه، بأن يطيع الله تعالى ويتوب في أول عصره أي في أول عمره، لأن صلاة الفجر في كلام الناظم: الطاعة والتوبة، والندم، والرجوع إلى الله تعالى في حالة الشباب، وهو أول العصر أي أول العمر، لأن عصر النهار هو آخره، وكل ساعة من الساعات على الإنسان، فهي آخر عمره لا يدري هل يفوتها أم لا. فهذا مراده رضي الله عنه، والله أعلم؛ لأن الإنسان إذا أصبح فلا يحدث نفسه بالمساء، وإذا أمسى فلا يحدث نفسه بالصباح.

وقوله: "فهذه صلاة العارفين بربهم" لأن العارفين رضي الله عنهم، مهما تفكروا أو تيقظوا من الغفلة، رجعوا إلى الله، وتابوا توبة نصوحا، خوفا أن يدركهم الموت قبل الفوت، ويندمون على ما فات من عمرهم. فهذه حالة أكابر الأولياء والصالحين، لأنهم لم يكونوا موفقين في حال شبابهم، بل كانوا عصاة مذنبين. فلما كانوا في آخر عمرهم، تداركهم الله بعفوه ومغفرته، فكان أول عصرهم، وصلاة فجرهم فتابوا في ذلك الوقت، ورجعوا إلى الله تبارك وتعالى وفتح الله عليهم، وبلغهم حضرة قدسه في الحين، بفضله وإحسانه. كالفضيل بن عياض رضي الله عنهم، وأكابر منهم، بل جلهم نفعنا الله ببركاتهم. فكان الوقت الذي تفكروا فيه، هو صلاة فجرهم وأول عصرهم. وإن لم يكونوا في أول الشباب، لأن الإنسان يجب عليه المبادرة إلى التوبة، مهما تفكر وتيقظ، سواء في حالة الشباب أو في حالة الكهولة أو الشيخوخة. ومنهم، نفعنا الله ببركاتهم، من كان موافقا في حال الصغر، كمعروف الكرخي والشيخ الجيلاني والشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش، وأمثالهم فقليلون، نفعنا الله ببركاتهم. والله الموفق بمنه.

وقوله: "فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر". النضح: هو الرش باليد تقول: نضحت الشيء إذا رششته بالماء. والبر: الشريعة، والبحر: المراد به الحقيقة، أي كن ملتبسا بالشريعة، ملازما للحقيقة.

الشريعة هي أن تعبده، وهي أمر ونهي. والحقيقة أن تشاهده: وهي قضاء وقدر، فيجب عليك أن تقف مع الشريعة في حال الأمر والنهي. ولا تخرج عن الحقيقة، في حال القضاء والقدر. ودم على ذلك إلى أن يحين الممات.

القشيري: الشريعة ملازمة العبودية، والحقيقة: مشاهدة الربوبية. فكل شريعة غير مقيدة بالحقيقة غير مقبولة. وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فهي غير محمودة. وهذا مراد الناظم بقوله: "فانضح البر بالبحر". أي انضح الشريعة بالحقيقة. أي اجمع بينهما.

قال الشيخ الشريشي:

وللشيخ آية إذا لم تكن له فما هو إلا في ليالي الهوى يسري

إذا لم يكن علم لديه بظاهر ولا باطن فاضرب به لجج البحر

فعلم الشريعة هو علم الظاهر، قال الشيخ: علم لديه بظاهر. وعلم الحقيقة: هو علم الباطن الذي قال الشيخ: ولا باطن إلا أن علم الشريعة محصور في خمسة أقسام على ما قال المطرفي، وعلى ما قال ابن السبكي بستة بزيادة الأولى. وعلم الحقيقة مواهب لا تحصى... وهذا ما حضر لأخيكم في الله في هذا الجواب.

وأما هذه الأبيات، فقد احتوت على كثير من العلوم لو جعلنا عليها المجلدات، والدواوين والأسفار، ما احتوت على أحدها بكونه كلام منور، صدر من شيخ كامل جليل. فكيف لعاجز مثلي تحومه وكيف لناقص بطاعة مثلي يتسوق سوقه. فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بفتح بصيرتنا، وأن يتجاوز عن سيئاتنا بجاه سيدنا محمد المصطفى ﷺ.

اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

الشرح الثاني: للشيخ سيدي أحمد ابن عجيبة من "إيقاظ الهمم"

قال رحمه الله تعالى ورضي عنه في كتابه العجيب "إيقاظ الهمم في شرح الحكم" في شرح قول سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه: "كيف يشرق قلب صور

الأكوان منطبعة في مرآته... الحكمة):

توضأ بماء الغيب إن كنتَ ذا سر ... وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر

وقدم إماما كنت أنت إمامَه ... وصل صلاة الفجر في أول العصر

فهذه صلاةُ الْعارفين بربهم ... فإن كنتَ منهم فانضح البر بالبحر

قلت: الحضرة مقدسة منزهة مرفعة لا يدخلها إلا المطهرون، فحرام على القلب الجنب أن يدخل مسجد الحضرة وجنابة القلب غفلته عن ربه، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ ﴾ [النساء/ 43] أي لا تقربوا صلاة الحضرة وأنتم سكارى بحب الدنيا وشهود السوى حتى تتيقظوا وتتدبروا ما تقولون في حضرة الملك، ولا جنباً من جماع الغفلة وشهود السوى حتى تتطهروا بماء الغيب الذي أشار إليه الحاتمي رضي الله عنه كما في الطبقات الشعرانية في ترجمة أبي المواهب بقوله:

توضأ بماء الغيب إن كنتَ ذا سر ... وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر

وقدم إماما كنت أنت إمامَه ... وصل صلاة الفجر في أول العصر

فهذه صلاةُ الْعارفين بربهم ... فإن كنتَ منهم فانضح البر بالبحر

يعني تطهر من شهود نفسك بماء الغيبة عنها بشهود ربك، أو تطهر من شهود الحس بشهود المعنى، أو تطهر من شهود عالم الشهادة بماء شهود عالم الغيب، أو تطهر من شهود السوى بماء العلم بالله فإنه يغيب عنك كل ما سواه؛ وإذا تطهرت من شهود السوى تطهرت من العيوب كلها وإلى ذلك أشار الششتري رضي الله عنه بقوله:

طهر العين بالمدامع سكباً ... من شهود السوى تزل كل علة

وهذا الماء الذي هو ماء الغيب هو النازل من صفاء بحار الجبروت إلى حياض رياض الملكوت، فتغرقه سحائب الرحمة، وتثيره رياح الهداية فتسوقه إلى أرض النفوس الطيبة، فتملأ منه أودية القلوب المنورة وخلجان الأرواح المطهرة. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ ﴾ ... [الرعد/ 17] الآية؛ شبه الحق تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء. فكما أن المطر تعمر منه الأودية والغدران وتجري منه العيون والأنهار، كل على قدر سعته، وكبره، كذلك العلم النافع نزل من سماء عالم الغيب إلى أرض عالم الشهادة، فسالت به أودية

القلوب كل على قدر طاقته وحسب استعداده. وكما أن المطر يطهر الأرض من الأوساخ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ ﴾ [الرعد/ 17]؛ أي مرتفعاً على وجه الماء، كذلك العلم النافع يطهر النفوس من الأدناس والقلوب من الأغيار والأرواح من الأكدار والأسرار من لوث الأنوار، وهذا الماء هو الذي أشار إليه بقوله: (توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر)، أي: كنت صاحب سر، والشهود شهود الوحدة ونفي الكثرة، أو شهود العظمة بالعظمة. ومن لم يتحقق بهذا فلا يمكنه التطهير بماء الغيب بالكلية، لفقده ذلك الماء أو لعدم قدرته عليه، فينتقل للتيمم الذي هو رخصة للضعفاء، وطهارة المرضى؛ وإلى ذلك أشار بقوله (وإلا تيمم بالصعيد أو بالصخر)، أي: وإن لم تقدر على الطهارة الأصلية وهي الغيبة عن السوى لمرض قلبك مع عدم صدقك، فانتقل للطهارة الفرعية التي هي العبادة الظاهرية؛ أو تقول: وإن لم تقدر على الطهارة الحقيقية التي هي الطهارة الباطنية، فانتقل للطهارة المجازية التي هي الطهارة الظاهرية. أو تقول: وإن لم تقدر على طهارة المقربين فانتقل لطهارة أهل اليمين. أو تقول وإن لم تقدر على طهارة أهل المحبة فانتقل لطهارة أهل الخدمة. "قوم أقامهم الله لخدمته وقوم اختصهم بمحبته كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً".

فطهارة أهل المحبة الفكرةُ والنظرة، وطهارة أهل الخدمة بالمجاهدة والمكابدة بين عبادة ظاهرة كصلاة وصيام وذكر وتلاوة وتعليم وغير ذلك، وبين عبادة خفية كخوف ورجاء وزهد وصبر وورع ورضى وتسليم ورحمة وشفقة وغير ذلك مما لا يظهر للعيان. وهذا هو تصوف أهل الظاهر.

وأما تصوف أهل الباطن فهو الغيبة عن الأكوان بشهود المكون أو الغيبة عن الخلق بشهود الملك الحق وهو الذي عبر عنه الناظم بـ"ماء الغيب". فكل من لم يدرك تصوف أهل الباطن فهو من أهل التيمم. فإن كان مشغولاً بالعمل الظاهر كالصلاة والصيام ونحوهما فهو كالمتيمم بالصعيد لظهورها كظهور أثر التراب على الجوارح. وإن كان مشغولاً بالعبادة الخفية كالزهد والورع ونحوهما فهو كالمتيمم بالصخر لعدم ظهورها في الغالب كعدم ظهور أثر الصخر.

ولما أمرك بالغيبة عن السوى خاف عليك إنكار الواسطة وإسقاط الحكمة فتقع في الزندقة فقال: "وقدم إماماً كنت أنت إمامه" والمراد بالإمام هو النبي صلى الله عليه وسلم ومن كان على قدمه ممن جمع بين الحقيقة والشريعة. فأمرك باتباع الشريعة

المحمدية في حال غيبتك عن السوى فيكون ظاهرك سلوكاً وباطنك جذباً، ظاهرك مع الحكمة وباطنك مع القدرة. ولا بدّ أن تقتدي بإمام كامل سلك الطريقة على يد شيخ كامل يعلمك كيفية العمل بالشريعة ويدلك على الحقيقة. وإلا بقيت مريضاً على الدوام تستعمل طهارة المرضى على الدوام. وانظر قول القرافي رضي الله عنه لما سقط على شيخ التربية قال: تيممت بالصعيد زماناً والآن سقطت على الماء. إذ لا تجد ماء الغيب ولا تقدر على استعماله إلا بصحبة أهل هذا الماء الذين شربوه وسكروا به ثم صحوا من سكرتهم وسلكوا من جذبتهم فتملكهم زمام أمرك وتنقاد إليهم بكليتك. بعد أن أطلعك الله على خصوصيتهم، وكشف لك عن أسرارهم. فشهدت لهم روحك بالتقديم وسرك بالتعظيم فتقدمهم أمامك بعد أن كنت أنت إمامهم وهم يطلبونك للحضرة. وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو الناس إلى الله وهم فارون أمامه، فلما عرفوا الحق قدموه أمامهم. وهذا معنى قوله (كنت أنت إمامه).

وقوله (وصل صلاة الفجر في أول العصر) وفي بعض النسخ (وصل صلاة الظهر في أول العصر) أي اجمع ظهر الشريعة لعصر الحقيقة. وفي أكثر النسخ (وصل صلاة الفجر في أول العصر) أي: ارجع إلى البقاء بعد كمال الفناء، أو إلى السلوك بعد الجذب. إذ الغالب على المريد أن يتقدمه السلوك ثم يأتيه الجذب فأوله سلوك، وآخره جذب كما أن أول النهار صلاة الفجر، وآخره صلاة العصر. أي: ارجع إلى صلاة الفجر التي كانت في أول نهارك فصلها في آخر نهارك فارجع إلى السلوك الذي كان في أول أمرك فاجعله في آخر أمرك. وهو معنى قولهم: "منتهى الكمال مبدأ الشرائع"، وقالوا أيضا: "نهاية السالكين بداية المجذوبين، ونهاية المجذوبين بداية السالكين"، وقالوا أيضا: "علامة النهاية الرجوع إلى البداية". وسيأتي الكلام على هذا في محله إن شاء الله.

وقوله (فهذي صلاة العارفين بربهم) لأنهم تطهروا الطهارة الأصلية وصلوا الصلاة الدائمة قال الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المعارج/ 23]، فالعوام حد صلاتهم أوقاتهم، والعارفون في الصلاة على الدوام. قيل لبعضهم: هل للقلوب صلاة؟ فقال نعم؛ إذا سجد لا يرفع رأسه أبداً. أي: إذا سجدت الروح لهيبة الجلال والجمال، لا ترفع رأسها أبداً. وإليه أشار الشُشتري بقوله:

فاسـجد لهيـبة الجـلال عـند التدانـي ولتقـرأ آيـة الكمـال سـبع المثانـي

وقوله (فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر) أي: فإن كنت من العارفين المحققين فانضح بر شريعتك ببحر حقيقتك، بحيث ترش على شريعتك من بحر حقيقتك حتى تغمرها وتغطيها فتصير الشريعة عين الحقيقة، والحقيقة عين الشريعة، حتى يصير عملك كله بالله.

والله تعالى أعلم وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الشرح الثالث: للشيخ أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني المسمى "كشف البراقع بشرح أبيات توضأ بماء الغيب"

حمدا لمن أفاض جداول الحكمة من قاموس هيولى سائر البسائط والمركبات، ونشر بُسُط أشعة الرغبوتية على مصادر رهبوتية الاقتضاءات حتى قدر على التلقي من بحار جبروتية الصدمات، وما ذاك إلا لخيطة العين بخط أحببت المقتضية لبروز الانفعالات، فبسط براقع الرحموتية على محيا فتكات العيون النجل بإرخاء ذيول الكافور المعنوي من دولاب الشيئيات.

سبحانه عن تنزيه التشبيه وتشبيه تنزيه الهيولات، وثناء التقييد الصادر عن التقليد بانحجام القوى عن كشف فص مسميات الأسماء في بساط ارتفاع البين من البين وذوائب الكثافات. وصلاة وسلاما على من استوى برحمانية إحاطته على عروش الوحدات، وسرى بمعاني مادة إطلاق إجماله في مباني الفروق والتقييدات، فصارت مجلًى لظهور انفعالات الأسماء والصفات والشؤون والمقتضيات، وحانا تصطف في أرجاء جوانبه كواعب البهنانات بسلافات الزجاجات.

صلى الله على مبدأ شجرة الكثرة، وروح روح هيولى عناصر الكليات والجزئيات، وبحر غوامض قاموس التنزلات، ونور نور الفضاء، ووسع الجمال المطلق، وإزار العظموت والكبرياء والتشكلات، وعلى آله وأصحابه المنتخبين من وحدات المراتب الكيانية والجواهر والمولدات.

أما بعد؛ فإنه لما كان مراد الحق تعالى من إبراز هذه الوحدات من عالم الطي إلى عالم النشر شيء واحد وهو معرفته تعالى بشاهد ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات/ 56]، أي: إلا ليعرفون.

فإن قلتَ: وإذا كان كذلك فلم تخلف قوم عن صف المتابعة ورجعوا بالقهقرى

إلى وراء؟ قلتُ: لما لم يكن متجل في جميع ذرات الوجود إلا الوجود المطلق الساري في جميع التعينات، أعني بجمع أحدية ذاته المطلقة وهي وإن كانت هناك آلهة فإنما الهوية العارية عن النسب والإضافات، ظهرت بصورة لا إله مشهود عند أرباب التحقيق العجمي إلا الله. وعليه فالعبادة إنما هي لله شعر بذلك من شعر وذهل عنها من ذهل. وهاهنا ترنم من قال:

نــــار ولـــــولا المــــزج يـــوما ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ مــــا عـــبدت غيـــرها المجـــوس

كأنه يشير بما ذكر إلى أنها إنما تسترت بحجب براقع عالم الحكمة الظاهر بمقتضيات الاسم الباطن والظاهر. وإلا فلو ظهرت مجردة لما جُهلت. وتذكر قول من قال:

"لا تنظر للأواني وخض بحر المعاني لعلك تراني"، وهذا أمر ذوقي كشفي لا مجال للعقل فيه. ويستروح هاهنا بقول من قال:

ســيكفيك مــن ذاك المــسمى إشــارة ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ودعـــه مـــصونا بالجمـــال محجـــبا

على أن المقام يسع الإطناب، لكن ذلك يؤدي إلى الإسهاب فلا ينفع إلا إرخاء الحجاب وسد الباب.

وثَـــم أمـــور لـــيس يمكـــن كـــشفها ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ لقـــد قلدتنـــي عقـــدهن شـــرائع

لكن هذا أمر لا بدّ له من واسطة، وليست إلا هيولى الإجمال والتفصيل، أعني الجناب المحمدي، فصارت هي السبب في إبرازنا من دياجي العدم والجهل إلى صبح الوجود والمعرفة، فناسب أن يعرف هو أيضا. لأنه بالضرورة كل معرف لا بدّ لك أن تعرفه، فإذاً لا سبب لإبرازنا إلا معرفة الحضرتين: الجناب الأقدس والجناب المحمدي، أعني نعوتا مما ذكر.

وإلا؛ فالكنه قد ضرب بينهم بسور باطنه فيه العذاب وظاهره من قبله لجة العذاب. أما الجناب الحقي فضروري لدى الناس، وأما الحضرة المحمدية فكذلك عندنا لا سبيل لدرك إدراك ماهيتها. وهذا أمر عام في هذا العالم، وفي العالم البرزخي المنقول إليه، وفي حضرات الجنان. وأما قول المديح:

وكـــيف يـــدرك فـــي الدنـــيا حقيقـــته ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ قـــوم نـــيام تـــسلوا عـــنه بـــالحلم!

فهو في عهدته، لأنا إذا قلنا: مفهومُ الدنيا الآخرةُ، عكر عليه ما قدمنا المشار له بقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّى ﴾، إذ ليس المراد بالروح عند الله هاهنا إلا الروح

الكلية، الهيولى القابلة لارتسام جميع الأشكال والصور السارية في جزئيات النواسيت، من أمر ربي أي: العلم المختص بربي، وهو المشار له بقوله: "يا عمر؛ والله ما عرفني حقيقة غير ربي"، يعني في الحال والماضي والاستقبال، إذ الأزمنة في حقه تعالى سواء. وإذا نفى العلم عن غيره تعالى استبد بإدراك ومعرفة الكنه الأحمدي فلا يشارك. وإذا قلنا لا مفهوم للدنيا عكر عليه قوله: قوم نيام، لأن الناس إذا ماتوا انتبهوا، فدونك هذا التحقيق فما طرق سمعك فيما أظن، والمنة للبرزخيات الثلاث. على أن ما أذكره في هذا الكتاب لا أستند فيه إلى نقل ولا إلى عقل، بل لما يلقيه العقل الأول على العقل الجزئي.

نكتة

إذا بدلت صفات الهياكل الظلمانية بانبعاث أشعة إطلاقية نورانية بحيث وصل إلى مقام: "كنته" على سبيل التحقيق هل يصح له إدراك كنه بحتية صرافة الأحمدية أم لا؟ قلت: هذا أمر توارى العلم به بحجب أنافت على الحصر والتعداد إذ هو صلى الله عليه وسلم نسخة الوجود المطلق، ولا يتم له اسم الخلافة إلا بإفراغ جميع حلل الأسماء والصفات الذاتية عليه، أعني بحيث يصير ذلك خلقا له على سبيل السرمدية. بل نقول نحن: تخلق أيضا حتى بالاسم الأحد وباسم الهوية. إذ لما تخلق بهذا الاسم صار مجهولا أعني على سبيل اللونية، وباسم الغني عن العالمين كما بسطته في "ختمة الآجرومية". هذا الحق عند الله فانظرها.

وعن هذا الذوق أفصحت الصديقية العظمى لما سئلت كيف كان خلقه صلى الله عليه وسلم قالت: "كان خلقه القرآن"، أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود وابن أبي شيبة[1].

قلت: والمراد بالقرآن هاهنا الجمع المعبر عنه بأحدية الكل الجمعي، وجميع التعينات هاهنا بحكم البطون الحكمي لا العيني على ما هو الحق عندنا، فتكون الأحدية استوت بصرافتها على جميع الشؤون والمقتضيات. وهاهنا ترجم الروح الكلي حيث قال:

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا أحمد المتردي بأردية الكبرياء وأشعة

---

(1) "المسند" 56/1 "صحيح مسلم" ح 1233 "سنن أبي داود" ح 1144.

الفردانية، الملثم بمعاني عظمة سرادقات غيب الهوية، المتأحد في عين الكثرة، المتكثر في عين الوحدة، الملتحف بوحدات الذات، المستوي بقدم الأحدية على عرش الصفات، المثنى عليه بلسان جمع الجمع في مهامه الغارات، على خط قوس لسان الأزلي، بمحو الذات بالذات للذات في الذات. ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾. خط الدائرة ونقطة البروج، دفتر المثاني وقهرمان العروج، العبد الحقاني، المنفرد بـ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ الأحد الثاني، المتلو عليه بلسان الجمع في حضرات جمع جمعه: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝ ﴾. {هيهات هيهات وما يعقلها إلا العالمون}. وآله وصحبه وسلم.

فاستواؤه على ما ذكر حتى صار متخلقا بما دل عليه لفظ القرآن إذ يريدون به الجمع وبالفرقان الفرق هو المعنون بخلقه القرآن، ثم إن هذا أمر لا مرمى دون مرماه، ولا كشف لأحد عن باطن ظاهر محياه، حتى للأنبياء والرسل عليهم من ربهم السلام، فإنما لهم الاطلاع على غيوب ستة، وأما الغيب السابع فانفرد الحق بمعرفته على سبيل الإجمال والتفصيل لما اقتضاه وجوب العلم الذاتي، وهذا المشار له بالروح في الآية المتقدمة وغيرها. ومجموع هذا هو المشار له بقوله صلى الله عليه وسلم: "أنزل القرآن على سبعة أحرف"، فيما أخرجه الإمام أحمد والترمذي[1] عن أبي بن كعب، والإمام أحمد[2] عن حذيفة.

والمراد بالقرآن هاهنا بطريق مراده صلى الله عليه وسلم: حقيقة الحقائق، أحدية الكل الجمعي المطلق السارية في جميع المقتضيات والتعينات، والمراد بالأحرف الحضرات الواقع فيها الظهور للأثرات الكيانية على سبيل النشر التفصيلي من الكنزية في صرافة البحتية، ثم عين الماهية، ثم غيب الغيب، ثم غيب السر، ثم سر الغيب، ثم العمى، ثم الأحدية أعني بحسب التدلي، وفيها ظهور حكمي للأحمدية الصرفة أعني حين كانت في جوهرية العمى. وقد أشير لذلك بقول القرآن ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ ﴾ تفهم جدا.

---

(1) المسند 132/5 "سنن الترمذي" ح 2868.

(2) "المسند" 152/5.

فالمراد بالأحرف هاهنا الحضرات الواقع فيها مقتضيات الاسم الظاهر بالنسبة لذاته بذاته، والمراد بالنزول الظهور الحكمي المفضي إلى الانتشار الكلي وأوله الواحدية ثم أمهات الوجود المعلومة المشار لها بقول التنزيل ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ إلى أن انتهى الدور لآخر أمهات الوجود وهي الرحمانية المشار لها بقول الله ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ هكذا نختار في معنى الحديث وهو مراده صلى الله عليه وسلم بطريق بواطن غيوباته. ولا نقول كما قال أهل الحديث حتى انتهوا إلى أربعين قولا، كل ذلك من عدم الاطلاع على مراد الإنسان الكامل، وخصوص السبب لا يأبى عموم الحكم؛ تفهم.

ولك أن تقول: المراد بالقرآن مجلى الجناب الأقدس كما في قول الصديقية: "كان خلقه القرآن"، والمراتب المتقدمة كذلك تأتي هاهنا. ولولا تنزله في تلك الحضرات ما عرف له الاسم فأحرى المسمى، ومع تنزله فلا يعرف إلا على قدر الاستغراق والاستهلاك فيه. وهاهنا ترجمت في بعض الصلوات: "الذي هام الكل في مهامه بداية نقط دوائر هياكل آدميته، ووله الكل في هيمنة محيط عرش ظهور عوالم إنسانيته، فلا يعرف إلا على قدر قابلية الكمال المنبسطة منه إليه في بين الدقائق المحوية في بحر قاموس حسن مفاوز سلطنة الهوية الأحمدية المحمدية الملكية... الخ". ودونك ألواح التفلك والفلك.

هذا؛ والمقصود بهذا المرقوم إبداءُ كلمات روحية ونفحات قدسية وعواطف برهوتية وعوارف لاهوتية ونسمات توتية ومنازلات صمدانية على الأبيات السنية:

توضأ بماء الغيب إن كنتَ ذا سر	وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر
وقدم إماما كنت أنت إمامَه	وصل صلاة الفجر في أول العصر
فهذه صلاةُ الْعارفين بربهم	فإن كنتَ منهم فانضح البر بالبحر

لكن، لا بدّ قبل الشروع في المقصود من تقديم مقدمات بين يدي نجوى محمد بن عبد الكبير الكتاني نسبا وطريقة الأحمدي.

المقدمة الأولى:

اعلم أن التوحيد الذي هو فناء النواسيت شعور شعشعانية الماهية الذاتية المطلقة على مراتب:

الأولى: التوحيد النظري إن علم بالاستدلال أو التقليد، أي إن اعتقد بمجرد

تصديق المخبر الصادق وسلم القلب من الشبهة والحيرة وهو أن يعتقد أن الله منفرد بوصف الألوهية، متوحد باستحقاق العبدية.

الثانية: التوحيد العملي، وهو أن يصير العبد بخروجه عن قيد تقييد أوصافه وانسلاخه عن لباس الاختيار حيران في فضاء عظمة أنوار الجبروتية، فيعرف أن الموجود الحقيقي والمؤثر المطلق هو الله وحده، أعني استبدادا، وأن كل ذات وعنصر فرع من نور ذاته، وكل صفة من علم وقدرة وإرادة وسمع وبصر عكس من أنوار صفاته وأثر من آثار أفعاله. وهاهنا ربما يُدعى مذهب الجبرية وهو أن العبد كالميت بين يدي غاسله، لا حركة ولا تدبير ولا اختيار، فكأنه آلة والمحرك واحد من شدة ما يغامره من شهود أنوار مقتضيات الأسماء والصفات والأفعال، أعني انفعالاتها. فربما ينكر وجود القدرة الحادثة لاستهلاكه في فضاء الوجود المطلق، وانتفاء التغيير المأخوذ من الأمانة التكليفية ﴿ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴾ [النساء/ 78] لكن يا عارف، كتب في ديوانة الأزل أن هذه الوحدات التعددية لا تخرج عن حكم القبضتين السعادة والشقاوة، الاتصال والانفصال، الائتلاف والاختلاف، التقييد والإطلاق، الظلمة والنور وهلم جرا. فقبضة السعادة متعلقها الجنة بسبب الذهاب على السنن المستقيم، وقبضة الشقاوة متعلقها النيران بسبب الانحراف عن النهج القويم ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب/ 62] "هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي".

فإن تلك النشأة العنصرية تجتمع منها أبخرة منعقدة هي المعبر عنها بالكثافة الظلمانية وهي منشأ القبضة النارية، وعنصرها وأساسها الكسب الشرعي المضاف إلينا على سبيل الاستمداد وهي القدرة الحادثة التي لسنا بها نقدر وإنما القادر حقيقة "القائم على كل نفس بما كسبت"، فنحن مجبورون في قالب مختار، فليس لقدرتنا الحادثة تأثير أصلا بشاهد ﴿ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال/ 17] أي: وما رميت حقيقة إذ رميت صورة، فالنفي هاهنا مسلط على أصل الفعل وعلى وصفه، وأما ما نقل عن الأستاذ من أن المؤثر في الفعل مجموع القدرتين قدرة الله وقدرة العبد، وأنه جوز اجتماع مؤثرين على أثر واحد على أن تعلق قدرة الحق بأصل الفعل وقدرة العبد بوصفه بأن تجعله موصوفا بكونه طاعة أو معصية فهو بريء منه لأنه لا تأثير لشيء من الكائنات في أثر ما عموما.

وأما قول المعتزلة أن العبد يخلق أفعال نفسه فهم ينظرون إلى أن المؤثر في المسببات العادية هو قدرة العبد الحادثة، لكن بقوة أودعت فيه لا بالطبع. وعليه فهم عصاة لا كفار.

فالآية هاهنا جمعت بين مقامات الفرق والجمع والتشبيه والأدب والنسبة الكسبية المشار لها بآية ﴿ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة/ 286]. وسلب تأثير القدرة الحادثة المكتسبة والمستندة إلى وسع القدرة الذاتية، وفيها اتصال بحر الناسوتية بخضم اللاهوتية. وعليه فقوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[الفاتحة/ 2] أي: بالنسبة الكسبية المرتبطة بالقدرة الحادثة.

نكتة:

اعلم أن قدرته تعالى عبارة عن مقتضى ذاتي يبرز المعلومات الحكمية في نفسها إلى البساط العيني. ثم إن جميع شؤونه تعالى قديمة بقدم الذات لها الأزلية المنزهة عن الأولية المنسوبة إلى الأزمنة إذ هي بالنسبة إليه سواء.

ومن جملة شؤونه محبته المثبوتة للفروع الجامعة بين الإطلاق والتقييد وهي قديمة بقدم الذات. وقد قال "ولا زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنته"[1].

المراد هاهنا الشعور لا غير، وإلا فالكنتية قديمة، تفهم.

وعليه؛ فقدرته الذاتية الواجبة له بمقتضى الذات عين قدرة الحروف المنقوشة في جوهرية العمى الأزلي والأبدي، إنما سبحان من ستر المعاني بالمباني توهما للفرق. فكذلك النقط المرقومة في لوح الإطلاق هي بلونه وما ذاك إلا للوجود المطلق الساري في سائر جزئيات العالم الكوني والغيبي. بيد أن نسبتها إليه قدرة قدسية استبدادية أوجبها له الوجوب الذاتي، ونسبتها إليهم قدرة استمدادية لذلك تحجم في بعض الأوقات لأنها ليست بذاتية لاستيلاء أحكام العناصر على العوالم المركب منها الهيكل.

فلما يريد الله نفوذ أحكام القبضة الظلمانية يسلبه عقل التمييز حتى يقع فيما يقع لنفوذ الأحكام الإلهية. وإلا لو كان العبد لا حكم له أصلا حتى بالنسبة الكسبية لما كان

(1) رواه البخاري في "صحيحه" عن أبي هريرة رضي الله عنه ح 6021.

تصييرنا إلى النار عدلا بل جورا وتعالى وتقدس ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت/ 46] فتلك النسبة هي التي أثبتت الشرائع. وهذه القدرة الثابتة لنعوت التعينات هي المشار لها بقوله: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾[التين/ 4]، أي: عنصره وأساسه وأسه، أي: منقوشا في طي التعين الأول ﴿ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾[التين/ 4] أي: روحا جزئية متصلة بالكلية. وليس هناك إلا اتصال السر بالسر في مقام المعاينة والاصطحاب، لأن الغيرة تأبى انفصال المحب عن المحبوب، أعني ولو عينا، وإلا فالاتصال الحكمي هو المعبر عنه بالمعية. ثم لما أرادت مرتبة المحبية الظهور تدفقت وانتشرت الشؤون الإلهية.

ثم اقتضى ما سطر أن لون الماء لون إنائه وكان العالم الحال فيه مرصعا بأنواع الكثافات والتغيرات الآتية من جهة حمل الأمانة قال ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ [التين/ 5] بنسجنا عليه أردية مقتضيات العناصر، وأزر شؤون الطبائع، ومجموع ذلك تحدث منه أبخرة تنسحب على سباك الهيكل فيصير محجوبا عن الأصل، ضرب بينه وبينه بسور فهذا أسفل سافلين. لكن هناك أرباب الإيمان أعني المرتبة الثالثة فيه إذ فيه مراتب:

الأولى: العوام يعلمون أن المعطي والمحيي والمميت هو الله.

الثانية: يعلمون أن الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور نور الحق فيه.

الثالثة: يشهدون أن ليس في الكون إلا حقائق ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ﴾، [الحجرات/ 7]، ورقائق ﴿ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة/ 115] وهذه المقصودة هاهنا، وهم المشار لهم بقوله: ﴿ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ ﴾ [الأحزاب/ 23] أي: في عالم الذر المسموع فيه الخطاب الثالث. فهم أجابوا على بساط اللطافة ولا زالوا على العهد القديم.

ومن ذلك أيضا: ما يسمعه أرواحهم وعقولهم وأسرارهم من نغمات الألحان والأوتار والأصوات الحسية في العالم الكوني لأنهم عاهدوا الله على الصوت القديم الغير المتحيز فلا زالوا يسمعونه بأرواحهم في رتبة الفضاء الآن، وهم أنواع، وتلك الأمور الحسية تذكرهم المنازل والخيام. على أن فيهم من يرى أن المحرك للأوتار والمسموع من الأصوات وهلم أنامل مقتضيات القدرة، فالحركات الحسية آلات

والمؤثر هو: "القائم على كل نفس بما كسبت". فلا اعتراض على أهل الله في سماعهم الآلات.

لكن الشرط؛ وهو: قوله ﴿ صَدَقُواْ ﴾. ولما آثر القرآن التعبير بالفعل المجهول في قوله: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف/ 204] علمنا أن القراءة ولو سمعها المحقق الأحمدي من الحق، فواجب أن يستمع بشاهدة الأمر وهو للوجوب حقيقة عند طائفة من الأصوليين، بل أمرين؛ فتأكد الوجوب فلا بدّ من الاستماع حالة سماعه القرآن من صاحبه. وهذا من أنواع المكالمة، وهي واقعة بشاهد ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى/ 51]. فالنفي منصب على عنوان البشرية. والكلام إذا قيد بقيد فروح الكلام هو ذلك القيد وإليه يتوجه النفي والإثبات كما هو قاعدة من علم المعاني.

فإذا غابت مقتضيات البشرية وأحكامها وبقيت عينها قائمة بجوهر الهيكل فيكلم من حيث كلمت الروح، ومن جهل شيئا عاداه. بل صرحت الآية بأن الاستماع لا يكفي، فلا بدّ من الإنصات المؤذن بإثبات العين في عين انمحاقها، ولولا وجودها ما صح استماع فأحرى الإنصات كأن الآية تقول لا يكفيه الاستماع بأن تنحل تراكيبه وجزئياته ويلتحق بالإعدام الغير الثابتة فيكون جامعا للضدين في عين إثباته، لا شك أن جواهر الهيكل بعد انعدامها تسمع بسماع حقيقي لا مجازي لأنها شيء والقرآن يقول: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء/ 44] بل لا بدّ من الإنصات، كأن هذا حض من الحق على إثبات العين في بساط الرسوخ والتمكين لا في بساط الانمحاق، فما ثم لذة في هذا المشهد أصلا لأجل هذا ورد في الحديث: "سؤر المؤمن شفاء"[1]، والمؤمن من أسماء الحق وسؤره عبارة عن الانفعالات الصادرة من المكالمة في بساط التجريد شفاء من داء التقييد، فيسقى من هذا السؤر فتنفى عنه حلة غير الصدق وتنشر عليه ألوية ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا

(1) قال الشيخ أحمد الغزي العامري في " الجد الحثيث ": ليس بحديث، وأقره الشيخ العجلوني في " كشف الخفاء "(1 / 458). ولكن قال الشيخ على القاري في " موضوعاته "(ص 45): هو صحيح من جهة المعنى لرواية الدارقطني في " الأفراد " من حديث ابن عباس مرفوعا: "من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه " أي المؤمن.

عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب/ 23] فيحيى بحياة حقانية أبدية "خلق الله آدم على صورته"[1]، وهذا هو المعبر عنه بماء الحياة، وكم شربنا من عذب معينه. وفي الحديث "الحمد لله الذي جعله عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا"[2]، وهو قول القرآن: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ ﴾ [التين/ 5]. فإذا فعل ما ذكر؛ كسي حلة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران/ 132] بالرحمة الإطلاقية التي منها السقي بسؤر المؤمن وهو أثر المكالمة والمحادثة إذ لا بدّ من أثر.

وهاهنا عبر القرآن ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم/ 4] بقراءة الإضافة بدون تنوين، فالخلق العظيم من آثار "سؤر المؤمن شفاء" فلم يؤثر فيهم العالم ولا مقتضياته لأنهم صدقوا، وفيهم قال ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [التين/ 6] أي الأمور المنخرطة في سلك الصدق وهو أن لا يسمعه في جهة أو يفتر عنه ذلك، بل السرمدية أزلية وهي عين الأبدية، إذ الأزلية عين الآخرية وهكذا. وإنما سماه عملا؛ لأنهم لما تمكنوا في المقام صاروا كأنهم كلهم عمل، تفهم.

وهؤلاء: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ ﴾ [التين/ 6] على الصدق المطلق ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين/ 6] عليهم بل هو من حقائق مكامن أسوار القدرة المذكورة فليس بممنون عليهم، بل لازالوا على ما كانوا في الكنزية مع إقامة رتب الشرائع على ما ينبغي لصاحب القوة من الجهتين وهو مقام غريب جدا.

وما كنت في إبراز هذه النكتة من أولها إلا كالمجبور، فدعها في خدرها إن وصلتها وإلا فسلم لأقوام قالوا:

تركنا البحار الزاخرات وراءنا ... فمن أين يدري الناس أنى توجهنا

ثم إن منشأ هذه الرتبة الثانية: المراقبة فدونكها.

الثالثة: التوحيد الحالي وهو أن يصير التوحيد وصفا لازما لذات الموحد بحيث

---

(1) أخرجه الآجري في " الشريعة "(ص 315) وابن خزيمة في " التوحيد "(ص 27) والطبراني في "الكبير "(2/206/3) والدارقطني في كتاب " الصفات "(48/64) والبيهقي في " الأسماء والصفات "(ص 291) من طرق عن جرير بن عبد الحميد عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر مرفوعا.

(2) رواه ابن أبي الدنيا في "الشكر"(1/ 8/ 2)، وأبو نعيم (8/ 137) عن جابر، عن أبي جعفر مرفوعاً.

تتلاشى ظلمات الحدثان من باصر بصيرته إلا مقتضيات البقية الظلمانية فإنها ترق ولا تنقطع، ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾ [هود/ 86] وبإثباتها صح مقتضى القبضة الظلمانية وإثبات العدو، وإلا أين هو العدو من الصديق، وفي الحديث: "وأعوذ بك من شماتة الأعداء"[1]،

وفي الحديث أيضا[2]: "وأعوذ بك من غلبة الرجال"، وفي الآية: ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾ ... [الأعراف/ 150] وهلم جرا.

فلا بدّ من إثبات البقية، وبعد إثباتها ظلمانية لا نورانية وإلا لما بقي لها أثر ولا فائدة في إبقاءها. ويدلك على إثبات البقية في الهيكل الإنساني بعد انعدام عينه ورسمه ووسمه ونعته وفناء وجوده المقيد وشهوده الوجود المطلق، لأن لكل أحد ربية منطوية في وجوده، ولا يزال الحق يبرز لها منها شيئا فشيئا إلى أن يصل لرتبة "من عرف نفسه عرف ربه". فالمحقق من ذهل عن ربيته وانتقل وزج به إلى ربية رب العالمين صدر ديباجة القرآن ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة/ 2] تفهم وجود الظلية منه حالة مشيه في الشمس، فلولا أن البقية فيه ما أثرت الظلية في شعاع الشمس.

ويدلك - أيضا - على إثباتها وجود الداعية للأكل والشرب والجماع وغير ذلك من الملاذ من المركوبات والمشمومات والملبوسات والمنكوحات والمطعومات والمشروبات وهذه ملاذ الدنيا. ولما كان هكذا؛ قال من نطق الحق على لسانه: "والله يا رسول الله ما أكلت إلا لنا ولا شربت إلا لنا ولا بسطت إلا لنا"، تفهم. ويدلك - أيضا - على وجودها: إظهار الضعف وحالة الافتقار، ولو دام ذلك المشهد ظاهرا وباطنا، عينا وحكما ما أظهر إلا انفعالات القوة الجمعية التي اكتنفها من سر الخلافة، تفهم.

ويدلك - أيضا - على إثباتها أن الأصل في هذه الأعيان الثابتة هو العدم المحض، وهو ظلمة في المعنى ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾ [مريم/ 67] فامتن الحق بحالة ظهور الأشعة النورانية على حالة كمون الظلمة في الظلمة. فإذا الظلمة المعبر عنها بالعدم الساذج سابقة، والأصل أن يبقى ما

---

(1) رواه مسلم في "صحيحه" عن أبي هريرة رضي الله عنه ح 4880.

(2) رواه البخاري في "صحيحه" عن أنس بن مالك رضي الله عنه ح 5886.

كان على ما كان فلا يتغير. وتذكر سر قول القرآن ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد/ 7]؛ لا يخفى أنا مستخلفون في مرتبتي الإطلاق والتقييد، لكن عالم الشهادة هو المنوط به التكليف فهو المستخلف فيه نحوَ ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة/ 30]، ولم يقل في السماء؛ لأنها محل اللطافة فآثر التعبير بجانب ما يقتضي الكثافة، فنحن مأمورون بالإنفاق من جنس ما استخلفنا فيه، وليس إلا مقتضى العناصر الظلمانية المركب منها الهيكل؛ فهذا سر غامض في الآية تفهمه يا ولي.

وهاهنا قال القرآن: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ [يس/ 37] فلا شك أن المنسلخ فرع عن المنسلخ عنه والمنسلخ منه أصل للمنسلخ عنه، والليل هاهنا هو المنسلخ عنه فهو أصل فيبقى أثره في الذات الترابية بعد انفصام عراها، وهذه آية عظمى لأجل ذلك عقبها بقوله: ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس/ 37] الجمع بين الضدين إذ لا شك أن الليل في حالة ليليته جامع للنهارية وهل الجمع بين الظلمة والنور إلا جمع بين الضدين.

نكتة:

تقرر عندنا أن كل من دك طوره فقد قامت قيامته لكنها تختلف، ولا شك أن الهياكل الجسمانية إذا عدمت يبقى فيها عجب الذنب كما ورد وهو إحدى المستثنيات، كذلك إذا وقع التبديل المعبر عنه بالموت يصير إلى مرتبة يكون الرائي هو المرئي، ومع ذلك هل انفصلت عنه البقية فهي عجب ذنب هذا الموت أيضا، تفهم. فيصير صاحب هذه المرتبة الثالثة في غلبة إشراق نور التوحيد، لا ينظر للأغيار بحيث لا يظهر عنده شهود إلا الذات الواحد، ويرى التوحيد صفة الواحد لا صفته.

وعلامته أن لا ينسب إلى نفسه ولو في العبارة فعلا أو وصفا أو نسبة أو أثرا أو إضافة أو انفعالا، فلا يقول: أكلت أو شربت أو نمت أو قعدت أو خرجت أو نكحت، فلا يسند إلى نفسه شيئا ولو مجازا، لأنه يرى التوحيد صفة الحق وكيف ينازعه فيها.

وهاهنا قال القرآن: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: 106]؛ فلا يخفى أن الإشراك والإيمان لا يجتمعان لأنهما ضدان، ومع ذلك أخبرت الآية بوقوعه فما بقي إلا أن يحمل على الإشراك في نسبة الفعل إلى نفسك مع الغيبة عن

الظاهر في قواك الحسية والمعنوية بشاهد ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ ﴾ [العاديات/ 11] فهو متجل في جميع جزئيات جزئياتك فهو الفاعل ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء/ 78] فانظر يا ولي كيف صرحت الآية بالجمع بين الضدين فعليه أن يتلطف حتى في العبارة لأن ما في الباطن يظهر مقتضياته على أرجاء الظواهر كأن يقول: أطعمَني سقاني أخرجني أقعدني حركني وقس، اللهم إلا في المساوئ فيضيفها إلى نفسه تنزيها لساحة الربوبية: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ [النساء/ 79] وفي الحديث "أدبني ربي فأحسن تأديبي"[1]، يشير إلى قول القرآن ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ [فاتحة/ 2]، أي: مربي العالمين، ومنهم: هو؛ تفهم.

وتذكر قول الخليل أرباب الأدب المطلق عليهم الصلاة والسلام: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ ﴾ [الشعراء/ 78 - 82].

نكتة

قد يكون صاحب هذا المقام في بساط الجمع فينسب الأمور لنفسه ولا بدع في

(1) رواه الجرجاني (147) عن الحسن بن يحيى بن نصر بـ (طوس): حدثنا العباس بن عيسى العقيلي قال: حدثني محمد بن يعقوب بن عبد الوهاب الزبيري: حدثنا محمد ابن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن جده، قال: قال رجل من بني سليل: يا رسول الله أيدالك الرجل امرأته؟ قال: "نعم إذا كان مفلجاً "، فقال له أبو بكر: يا رسول الله ما قال لك، وما قلت له؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه قال: أيماطل الرجل أهله؟ فقلت له: نعم ؛ إذا كان مفلسا "، فقال أبو بكر: يا رسول الله، لقد طفت في العرب، وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟ قال: "ربي. " الحديث. أورده في ترجمة الحسن بن يحيى هذا، ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا ؛ إلا وصفه بأنه كان من أهل السنة، ومن فوقه لم أعرف أحدا منهم سوى الزبيري، وهو صدوق مترجم في " التهذيب "، ومن طريق شيخه أخرجه ابن عساكر في " التاريخ " كما في " الجامع الكبير "(1/29/1) للسيوطي، ونقل عنه المناوي أنه قال: "سنده ضعيف". وروي بلفظ " أدبني ربي وأحسن تأديبي ". ولا يعرف له إسناد ثابت، لكن المعنى صحيح، كما قال ابن تيمية في " المجموع "(375/18).

ذلك ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة/ 30] فإياك والالتباس وفرق بين مقامات الناس فإن الناقد بصير.

وهاهنا قال الكليم ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ [طه/ 18] بإضافة العصا إلى نفسه فلولا أنه في هذا المقام ما ساغ له أن يفوه بمثل هذه الإضافة لأن فيها ادعاء الشركة معه في الملكية، ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران/ 109]، فهو من قبيل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ [التوبة/ 111]، في بساط التحقيق: ليست لنا أنفس ولا أموال حتى تضاف إلينا لكن لولا نسبتها إلينا ما صحت نسبة مناط التكليف المشار لها بالأمانة في الآية التي عجزت السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وما هذا إلا لوفور علمها بالله، فعلمت أن ما خلق له النوع الإنساني شيء عظيم، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون/ 115]، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات/ 56] والعبادة لا تقوم إلا بدعائم صعبة المسالك تحتاج لأسس وقواعد وجدران ومعالم ورسوم، فأبى من ذكر عنه الإباء لما ذكر وهو بساط مدح بشاهد وأشفقن منها، والإشفاق لا يكون إلا من شيء ثقيل، والانخراط فيه لا يصح إلا من في مقام الانبساط والدلال. فبإثبات ما ذكر إلينا صحت إضافة الأعمال إلينا ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة/ 286]، فأراد الحق بذلك إقامة الحجة علينا من جميع الجهات، وإلا فلو أضافها إلى نفسه ثم أرسل عليها رياح التكاليف ووكلها إلى ما عندها فالبديهة تعجز، وليس هذا من شأن الحكماء وهو حكيم، فإذا أقام الحجة وجدت المحل عندنا بعقولنا فما أبدع إتقانه.

نكتة:

مَن الأولى للمحقق الأحمدي أن يثني على الحق تعالى بلسان الجمع أم بلسان الفرق؟

الذي يعطيه الذوق الكشفي: أنه في مقام قاب قوسين المتعلق بسلطان العوالم، أعني القلب، أعني في مقام كشف المعية الخاصة بالأحمدي وهذا مقامه السرمدي لا يزايله، ولو بان عنه في بساط من البسط لا يستحق التسمية بهذا الاسم. وما كل إنسان بواديها يسرح وإذا كان كذلك؛ فقول الفارضي:

ولـــو خطـــرت لـــي فـــي ســـواك إرادة على خاطـــري ســـهوا قـــضيت بردتـــي

صحيح لا امتراء فيه. فالخطور لا يحصل، فالمسبب عنه ممنوع لأنه معلق عليه، فلا يخرج قلب المحقق الأحمدي من التعلق بأستار كعبة التحقيق لا في النوم فأحرى في اليقظة. كيف وموروثه يقول "تنام عيني ولا ينام قلبي"[(1)] ولوارثه حظ. فيؤخذ من قوله: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل"[(2)] المراد بالعلماء العلماء بالله لا بأحكامه وبينهما بون كبير؛ ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾. إن من العلماء بالله من يكون معصوما كالأنبياء لا يخطر على قلبه غير الله في سائر اللحظات والحضرات والنوم والغفلة؛ لأنهم: ﴿ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ [المعارج/ 23] كما في القرآن.

ومطلق الناس مطالب بالحضور مع الله على قدر ما له، وهؤلاء صلاتهم مؤبدة. كيف والمصطفى صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يقبل من صلاة أحدكم إلا ما عقل منها"[(3)] أي: باعتبار الأصالة لا باعتبار الكمالية. اللهم باعتبار قوم قالوا: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة/ 286]، ومنه: دوام الحضور مع الله خصوصا في الصلاة، وما أمروا بالاستعاذة حتى قبل منهم ما ألهموا لطلبه، والقرآن يقول في حق الحرم الشريف: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج/ 25]، علق إذاقة العذاب بالإرادة القلبية فأحرى بالعمل، وهذا خاص بمكة، وأما غيرها؛ فقال في الحديث[(4)]: "إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به نفسها ما لم تعمل به" .لكن هذا في غير مكة.

لكن لا يخفى أن القرآن صرح بهذا وسيدنا صلى الله عليه وسلم يقول: "وجعلت لي الأرض مسجدا"[(5)]. فانظر - يا ولي - كيف لم يحصر المسجد في بقعة معينة، بل

---

(1) رواه البخاري في" صحيحه" عن عائشة رضي الله عنها ح 3304.

(2) لا أصل له كما قال الحافظ ابن حجر والحافظ السخاوي وغيرهما.

(3) رواه أبو داود ح 675من حديث عمار بن ياسر بلفظ "إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها ".

(4) رواه النسائي في "سننه" عن أبي هريرة ح 3379.

(5) رواه البخاري في "صحيحه" عن جابر بن عبد الله ح 323.

أطلق ولم يقيد وفصّل والقرآن أجمل والسنة مبينة للقرآن: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل/ 44]، وقد بين أن الأدب اللائق بالحق في المسجد ليس خاصا بذوات الجدران بل جميع كرة الأرض مسجدك.

وتذكر قوله في الحديث: "إن الله في قبلة أحدكم"(1)، وفي القرآن ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة/ 117]، والكلية كلية جميعية لا مجموعية. فهو حتى في المواطن المنهي عنها من الكنائس ودور النصارى وغيرهم مما نهي عنه في ظاهر الشريعة ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة/ 115]. فتفهم يا ولي فيما أشرت إليك به وكن ممن قيل فيهم ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ/ 51]، لا من قوم قيل فيهم: ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت/ 44].

فعليه أن يثني بلسان الإجمال أعني بما يثني به على نفسه ذوقا وحالا لا كشفا فقط، فتستوي عليه الرحمانية فتعِيره حللا من الإطلاق وتزيل بينه من بينه فيثني عليه بالثناء المثني به على نفسه ولا يفتر كما تقدم، وهو غريب جدا. وأما باللسان الشهادي فلا يليق به إلا الثناء بلسان التفصيل، أعني في نفسه ونيابة عن أجزائه الحسية والملكية والنفسانية والحيوانية.

وتذكر أحواله صلى الله عليه وسلم، نظير قراءة القرآن فإن الكامل لا يقرأ من حيث دلالته على المعارف والعوارف والقصص والأخبار واستنباط الأحكام أو رؤيتها بل من حيث كونه كلام الله، أعني في بعض الحضرات، وفي غيرها لما ذكر.

نكتة:

وقد ينتقل بعضهم إلى أن يصير هو المتكلم به فيأمر وينهى من حيث تجلى له المظاهر فيصير يخاطبها. وقد رأيتني وأنا بمكناسة الزيتون كأني أخاطب الأثرات الكيانية من حيث هي من الجن والإنس والملائكة والشياطين والأنبياء والرسل والصحابة والروح الكلية وسائر أطوار الولاية وأنا في هذه الحالة معدوم العين والأثر مجهول الأين والرسم، محيت أطواري وكلياتي وجزئياتي في الوجود المطلق فصرت

---

(1) لم أجده.

أنا هو. وهاهنا قال في الحديث[1]: "ولا زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنته". وفي مقابلة الحديث: ولا زال عبدي يتقرب إلي بالفرائض حتى يحبني فإذا أحبني كأنني فكان سمعي وبصري. وهاهنا قال في حديث "الصحيح" عن الرجل الذي وجد دابته بعد شرودها فحصل له طرب فقال: "اللهم أنت عبدي وأنا ربك"[2]. وهذا المناط يسمى بالتبديل؛ تفهَّم، ولا زلت في هذا المقام ثلاثة أيام مع قيام العين وانمحاقها.

وفي مثلنا قال القرآن: ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف/ 22] فأخذ من الآية أن من هو منهم لا يسأل عنهم ولا يستفتي فيهم لأن كمالات الحق في كل محقق لا تحصى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة/ 255] ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف/ 22]. فمن جهل نفسه كيف لا يجهل عند من هو في أقصى حظيرة الغيوبات. فقد يطلع الإنسان العبدي الحقاني على المكامن وسائر ما في الجيوب ولا يعثر على ما في جيبه وراثة ممن قال: "والله ما عرفني حقيقة غير ربي"، وهو نفسه داخل في عموم لفظة ما فلا يعرفها بألفاظ القرآن اتقوا صلوا زكوا وهلم جرا.

وهذا مقام غريب جدا فلا أدري هل له ذائق أم لا، أعني ذوقا لا علما ولا كشفا. وعلامة من وصل لهذا المقام يرى متخلقا بأخلاق الله من الرحمة والشفقة على العصاة وأرباب الجور. وهاهنا قال في الحديث: "خيركم من إذا رُئِيَ ذُكِرَ الله"[3].

ولا شك أن الجبابرة والظلمة وأرباب الظلم والعدوان هم نسخة الحق من حيث ظهر فيهم مقتضيات الجبارية والقهارية والعزيزية والمهيمنية والباطشية والمتكبرية وليس له هو في نفسه اختيار ولا تدبير، بل مجبور بشاهد: "فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله". ولا شك أن المحبة قديمة بقدم الذات، وعليه فالكنتية

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه مسلم في "صحيحه" عن أنس ح 4932.

(3) رواه: أحمد، والبخاري في (الأدب المفرد)، وابن أبي الدنيا في (الصمت) و(الأولياء)؛ من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن. وفي سنده شهر بن حوشب، وفيه كلام. كما قال الزين العراقي في "تخريج الإحياء".

قديمة أيضا.

فإذا؛ الحق هو الفاعل بمقتضى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات 96] و"ما" نافية، دل عليها: "فإذا أحببته كنته". فمن خفيت عليه مسألة الكسب؛ فليستنبط مخارجها من هذه الآية والحديث فهما أوضح من شمس الظهيرة.

وإذا كان كذلك؛ فأرباب الجور من الولاة هم خير باعتبار كون من يراهم وتمكنهم من البطش، يتذكر بذلك بطش الحق: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [البروج/ 12] فهم من الذين إذا رؤوا ذكر الله باعتبار ما له من الصفات الجلالية وقد ظهرت فيهم، والواحد بالشخص له جهات، و ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون/ 53] وهؤلاء حزب، وليس من شأن الكريم الترح بعد الفرح، ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [آل عمران/ 159]، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف/ 6]، ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه/ 44]. ومجموع هذا كله: هو المشار له بالمرتبة الرابعة:

التوحيد الإلهي، أعني: توحيده بما حمد به نفسه إما أزلا وإما أبدا؛ أعني: بلسان المظاهر.

المقدمة الثانية: اعلم أن التوحيد على قسمين:

توحيد أهل الدليل والبرهان؛ وهم الذين يستدلون على وجود الوجود المطلق بوجود العوالم، وهل المخلوقات دالة على وجود الله من جهة إمكانها أو وجودها أو هما معا آراء، ويبرهنون عن ما ذكر بما عندهم.

وتوحيد أهل الشهود والعيان، وجل وتقدس على أن يدل عليه شيء.

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يبصر القمرا

وهذا التحقيق، وإلا؛ لبطلت جهة الباطن وانهد ما عليه أهل الله. وقد أساء الحافظ ابن حجر في "فتح الباري"، وسعد الدين في "شرح المقاصد" فأبطلا توحيد أهل الله. ويستروح هاهنا بقول من قال:

سارت مُشَرِّقَةً وجِئتُ مُغَرِّباً ... شتان بين مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ

ولولا الإسهاب؛ لأطرينا في هذا الجناب، ولصحة توحيدهم قال: توضأ بماء.. الخ.

انتهى ما وجد من كتاب "كشف البراقع، بشرح أبيات: توضأ بماء الغيب..." لحجة الإسلام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني رضي الله عنه.

الشرح الرابع: للإمام المحدث سيدي عبد العزيز ابن الصديق الغماري المسمى كشف الريب عن أبيات الجنيد توضأ بماء الغيب[1]

بسم الله الرحمان الرحيم، الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبينا المختار المصطفى، وعلى آله أهل الرضا والصفا وبعد:

فيقول عبد العزيز بن محمد بن الصديق غفر الله تعالى له، وأفناه عن نفسه به، وحققه بعبوديته آمين، هذا تعليق وجيز، وشرح مختصر مفيد على الأبيات المنسوبة لشيخ الطائفة الجنيد رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وهي:

تَوَضَّأ بِماءِ الغَيْبِ إنْ كُنْتَ ذا سِرٍّ   وإلا تَيَمَّم بالصَّعيدِ أو الصَّخْرِ

وَقَدِّمْ إماماً كُنْتَ أَنْتَ إمامَهُ   وَصَلِّ صَلاة الفجْرِ في أوَّلِ العَصْرِ

فَهذه صَلاةُ العارِفِيْنَ بِرَبِّهِم   فَإنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فانْضَحِ البَرَّ بالبَحْرِ

وقد كتبته إجابة لبعض الراغبين من مدينة سلا في معرفة معناها وبيان محتواها، وكشف معماها.

وقد ذكر في رسالة السؤال أنه سأل جميع من يهمه الأمر من أهل المعرفة والثقافة، فلم يجد أحدا يعرف تفسيرها، هذا نص كلامه في سؤاله.

وهذا مما يدل على أن طريق الإحسان وسبيل أهل العرفان من صميم الدين وأصول الإسلام، وقواعد الإيمان، خلاف ما يدعيه الجهلة الذين طمس الله تعالى بصيرتهم، وأعمى قلوبهم عن الاعتراف بالطريق، وسلوك سبيلها المؤيد بالكتاب والسنة بغيا من عند أنفسهم وكبرا في صدورهم.

لأن قول السائل إنه سأل جميع العارفين والمثقفين، فلم يجد أحدا يعرف تفسيرها أعظم شاهد وأقوى دليل على هذا، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم

---

(1) وهو شرح ناقص، بُترت أوراقه الأخيرة كما أفادنيه نجل الشارح الأستاذ عبد المنعم بن عبد العزيز بن الصديق وهو من مكنني من هذا الشرح من مخطوطات والده الخاصة، جزاه الله خيرا.

قال: "بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء"[1]، فغربة الطريق وعلمها وندرة رجالها في هذا العصر الذي انتشر به العلم على اختلاف فنونه، والكتب على كثرة أنواعها، والعلماء على تعدد اتجاهم في صلب المعرفة، إلا علم الطريق وسبيل الإحسان، فلا تجد له بينهم ذكرا ولا ترى له طالبا، كل هذا بدل الدلالة الواضحة الظاهرة على أنه من الدين كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيعود غريبا كما بدأ غريبا.

ها هو الواقع الآن في شرق الأرض وغربها، فقد ماتت الطريق، وانقرض أهلها، وإذا بقي أحد ينسب إليها فما ذلك إلا سبيل حب الظهور، والدعوى والترف بها، فيصيد بها النفوس لأجل الدنيا والعيش لا غير.

لهذا أخبر السائل أم لم يجد من يشرح له هذه الأبيات، ومعناها إذ لو وجد صوفي على الحقيقة يشتغل بكتب الصوفية، ويطالع أقوالهم، ويخوض فيما يصطلحون عليه من التعبيرات والرموز التي اصطلحوا عليها بينهم لأجاب السائل عن معنى الأبيات المذكورة، ولعرفه بمعناها من أول وهلة إذ من خصائص أهل الطريق كما قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه: إن من دخل طريقهم بحق وصدق، وخالطهم، لا يصعب عليه شيء من مصطلحاتهم، ولا يعسر عليه شيء من علومهم بخلاف غيرهم.

هذا أمر مجرب معروف لمن خالط كتب الصوفية، وقرأها لأجل الانتفاع بها والسلوك على منهاجها القديم.

لكن الصوفي الحقيقي المتحقق المتذوق الذي يرجع إليه في شرح كلام أهل الطريق، فقد من الأرض مع من فقد من رجال الدين والإيمان وأئمة العلم والعرفان، وصار التصوف غريبا والصوفي إن وجد غريبا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. نعم بقي كما قلت المدعين أصحاب الدعوى العريضة في هذا الطريق كذبا وزورا كما يعلم ذلك من رآهم وشاهدهم واطلع على ما يأتون به من زور وبهتان وكرامات لم يدعها الأكابر من رجال السلف رضي الله تعالى عنهم. وذلك مما زاد هذا العلم غربة وإعراضا عنه في هذا العصر، والأمر لله تعالى.

---

(1) رواه مسلم"صحيحه" ح 208 ومسلم عن أبي هريرة.

بعد هذا أقول وبالله تعالى أستعين، ومن حولي وقدرتي أتبرأ، معنى قول الإمام الجنيد شيخ الطائفة رضي الله تعالى عنه (تطهر) أيها المريد الصادق المجد في السلوك إلى حضرة الله تعالى، واغسل قلبك وسرك،(بماء الغيب) النازل على أودية القلوب من عند الله تعالى، لمن أقبل على عبادته الظاهرة والباطنة، وترك النظر إلى سواه من الأغيار والأكدار، فلا يلتفت في سيره إلى مولاه إلى شيء دونه، ولا يطلب في خدمته، والعكوف على بابه سوى الوصول إلى معرفة الله تعالى وحده من غير نظر إلى الكرامات الحسية والمعنوية، بل يكون قصده في سلوكه وسيره وعكوفه على الخدمة هو الله تعالى وحده كما قال الششتري رضي الله تعالى عنه في نونيته:

فلا تلتفت في السير غيرا فكلما ... سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا
ومهما ترى كل المراتب تجتلي عليك ... فحل عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب ... فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى

لهذا قال الجنيد رضي الله تعالى عنه (تطهر بماء الغيب) من شهود السوى مطلقا، والنظر إلى الأكوان عموما علوها وسفلها (إن كنت) أيها السالك إلى الله تعالى (ذا سر) وهو أن تريد السلوك المراد عند العارفين وهو الوصول إلى نفي شهود السوى، والتحقق بالوحدة المطلقة، فلا ترى في الوجود إلا الله تعالى، وما سواه مظاهر لجلاله وجماله، يحسبه الجاهل غيرا، وكونا في الحقيقة ما تم سواه كما قال تعالى ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ [النور/ 39] وأوضح تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد/ 3] فالظاهر هو الباطن، ظهر في صدر الموجودات وبطن في حقيقتها، فلذلك كان هو الأول والآخر، وإنما عمى البصيرة والدقوق مع الحس، وظلمة النفس أثبت تلك أن ذلك شيء ثابت قائم بنفسه، والحقيقة خلاف ذلك، وإلا كان قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد/ 3] يحتاج إلى تأويل بعيد، والأصل خلافه، فإن النصوص تحمل على ظاهرها حتى يرد صارف صحيح عن ذلك والعلة في هذا للإنسان هو عدم تطهير قلبه بماء الغيب كما قال الجنيد رضي الله تعالى عنه، فلو طهر عين قلبه لزالت العلة، وارتفع الحجاب ورأى ما في الوجود إلا الله تعالى كما قال الششتري رضي الله عنه:

طهر العين بالمدامع سكبا ... من شهود السوى تزل كل علة

وهي علة النظر إلى السوى وإثبات الأكدار، مع الواحد الأحد الذي تفرد بالأحدية والوجود، فلم يشاركه فيها أحد، فأشار الجنيد رضي الله تعالى عنه بقوله (تطهر بماء الغيب) يعني الغيب عن النظر إلى الأكوان والأغيار ومنها نفسك التي تثبت تلك التعدد في الوجود، تطهر من هذا كله إن كنت ذا سر الوحدة ومحو الاثنينية فمن حصل له التطهر بصدقه، وحق بماء الغيب فلا بدّ من طهارة سره ونظر قلبه من إثبات شريك السوى كما قال الششتري رضي الله تعالى عنه في نونيته:

فــرفض الــسوى فــرض علينــا لأنــنا بملــة محــو الــشرك والــشك قــد دنــا

وقال أيضا:

ولــم نلــق كــنه الكــون إلا تــوهما ولــيس بــشيء ثابــت هكــذا الفــنا

فطهارة الباطن بالمجاهدة والرياضة وترك الهوى، وحب الدنيا يورث المشاهدة، والفناء في الذات، فلا يبقى مع ذلك نظر في السوى والتفات إلى إثباتها.

فإن قيل: كيف يمكن التحقق بنفيها عدم إثباتها، مع أن الله تعالى هو الذي أوجدها وأظهرها للحكمة بما لا يخفى، وقد قال تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون/ 115] فكيف يجوز بعد هذا القول بنفيها وعدم إثباتها؟

قلت: أوجدها الله تعالى بحكمة عظيمة وهي كونها طريق للوصول ومعرفته، والتحقق بأحديته، وأنها ظاهرة بظهوره فيها، ولهذا قال تعالى في الآية المذكورة ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون/ 115] في ظهور صدرها واختلاف تلونها فتعالى الله الملك الحق في أن يكون خلقكم منفردا بالوجود دونه، أو ظاهرا بنفسه دون بطونه تعالى فيها. ولهذا قال تعالى (الملك الحق) ليعرف أنه الحق الذي لا يجوز أن يظهر بعد سواه، أو ينفرد بوجوده. لأن شأن الحق هو الظهور والعلو على الباطل الذي لا حقيقة له، وإنما أثبتته النفس بوهمها.

وخيالها فلهذا كانت هذه الآية من الأدلة الواضحة لمن عقل وتدبر، وفتح الله تعالى بصيرته على أن الحكمة في وجود خلق هذه المظاهر الأساسية، ليصل بها العبد إلى الله تعالى، وتكون له طريقا لعدم الوقوف معها، ونفي ثبوتها الوهمي الباطل المخالف للحق الذي أخبر تعالى أنه يتعالى عنه لأن القسمة ثنائيه فماذا بعد الحق إلا

الضلال، فالله تعالى أوجد هذه المظاهر لترى وجود الحق فيها ولترجع إليه في النظر إليها، فيتغيب عن توهم وجودها، وتثبتها بوجود الحق فيها، كما قال في الحكم العطائية "الأكوان موجودة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته". وقال أيضا: "ما حجبك عن الله تعالى وجود موجود معه، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه".

فلأجل هذا يجب على كل سالك أن يتحقق أنه لا موجود سوى الله تعالى على التحقيق، وما سواه إنما هو وهم مجرد فلا حاجب لك عن الله تعالى إلا توهم وجدل ما سواه لا غير، والتوهمات باطلة لا حقيقة لها مطلقا ولا سند يؤيد حكمها في الخارج فلا حاجب لك عن الله تعالى في الخارج إذاً، ولا يزول هذا الوهم الباطل إلا بتطهير القلب بماء علم الله عز وجل اللدني الذي يذهب عن البصر غبش الوهم وعمش الخيال، فتنظر إلى حقيقة الوجود مجلوة كالعروس، بارزة لا يحجبها عن النفوذ إليها، كما لا يحجب السفينة عن السير في البحر وجود ظلال الأشجار في الماء.

فإن لم تكن أيها المريد السالك من أهل هذا الشأن ولا لك قوة في الدخول إلى هذا الميدان والسير فيه على قدم التجريد لتحكم الهوى فيك وسيطرة النفس عليك، ووقوفك مع الوهم والتقيد به في النظر إلى الأكوان، فاعلم أنه ليس لك سبيل ولا طريق للخروج من هذا الداء والانفصال عنه (وإلا تيمم بالصعيد أو بالصخر) وهو أن تلزم الطهارة الفرعية، وهي العبادة الظاهرة بالجوارح مع خلو الباطن من السر، وهي العبادة التي يسلكها العامة، ومن ليس له طاقة ولا قدرة على التحقق لعدم استطاعته سلوك سبيل أهله، والطهارة الظاهرة هي التي يبقى صاحبها مريض الباطن بالعلل التي تحجب عن معرفة الحق والوصول إليه، وهو يظن أنه سالم لا علة فيه مطلقا، بل ربما يزعم أنه يداوي غيره، ويعترض على من يقول أن هناك طريقا وبابا للدواء من الأمراض غير التي سلكها هو، ويرضى عن نفسه بسلوكها والوقوف معها، والعياذ بالله تعالى من حال من كان هذا حاله.

وهذه العلل الباطنة كثيرة يطول شرحها، وقد تولى بيانها وشرح حقيقتها الأئمة من أهل الحقيقة، وفي "الإحياء" للغزالي رضي الله تعالى عنه كفاية لمن أراد معرفتها والوقوف على تفصيلها.

ومن هذه العلل عند أهل الله تعالى الرياء وهي الشرك الخفي الذي قل من ينجو منه إلا من منَّ الله تعالى عليه بالطيب الخير بعلل النفس.

ومن هذه العلل العبادة لأجل الثواب والخوف من العقاب.

ومنها حب المنزلة والظهور بين الأقران.

ومنها الخوف من الخلق والرغبة في إقبالهم والرهبة من إدبارهم.

ومنها حب الدنيا والغنى وكراهة الفقر، إلى غير هذا مما هو مذكور في كتب القوم ببيان كاف شاف، فمن لم يسلك على يد شيخ فلا بدّ له من الوقوع في هذه العلل، وهو لا يشعر، ولهذا قال الإمام أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: "من لم يتغلغل في طريقنا هذه مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر". ويدل على هذا حال العلماء الذين لم يسلكوا الطريق، فمع علمهم الواسع ومعرفتهم الكاملة، تجدهم متخلقين بأخبث الأوصاف وأقبح العلل التي توجب النار، والعياذ بالله تعالى، وأكبر علة مصابين بها أنهم يظنون أنهم سالمون من العلل والأمراض فهم من أهل الجهل المركب كما يقولون في الجاهل الذي لا يعلم أنه جاهل. فلذلك تجدهم لا يسمعون كلام الناصحين، ولا ينصاعون إلى العارفين لأنهم يرون أنهم في غنى عنهم، بل أغلبهم ممن يجله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ ﴾ [البقرة/ 206]، وبذلك حرموا الوصول والحصول على دواء نفوسهم، وعلل أمراضهم.

فكل من لم يتذوق تصرف أهل الحقيقة ويقبل على قراءة كتبهم، وفي مقدمتها الحكم لابن عطاء الله رضي الله تعالى عنه وشروحها، وأهمها شرح ابن عجيبة رضي الله تعالى عنه، فهو من أهل الطهارة للظاهر كالتيمم بالصعيد والأحجار، وشتان بين الطهارتين، فالطهارة بالماء هي طهارة حقيقية، وهي الأصل في التطهير، ومحو أثر الأوساخ العالقة بالإنسان، وأما التراب والأحجار والصخر فطهارتها حكمية كما هو معلوم، ولذلك لا تستعمل إلا عند فقد الماء أو عدم القدرة على استعماله، والتطهر به كما قال تعالى: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء/ 43]، وهذا إشارة إلى أن من فقد الوصول إلى الحقيقة وطهارة الباطن من النظر إلى السوى والوقوف مع الأكدار، فعليه بالطهارة التي يلجأ إليها الضعفاء والمرضى وذوو العلل الذين لا يستطيعون استعمال الماء الذي يطهر طهارة حقيقية وهي المجاهدة وتحمل المشاق والمكاره التي تكرهها النفس الأمارة في سبيل الوصول إلى الله تعالى، كما أشار إلى ذلك العارف الششتري في نونيته رضي الله تعالى عنه:

وكـم دونـه مـن فتـنة وبلـية   وكـم مهمـة مـن قـبله قـد حيـنا

فإن الوصول إلى الحضرة والتحقق بالمعرفة لا ينال إلا بتجرع الكؤوس المرة في ذبح النفوس، وترك المألوفات، ولا ينال بالركون إلى المألوفات واتباع الشهوات والوقوف مع العادات والأهواء الحاجبة عن المعرفة، كما قال الششتري رضي الله تعالى عنه في نونيته:

ولــو كـــان ســـر الله يـــدرك هكـــذا لقـال لـنا الجمهـور هـا نحـن مـا خبـنا

فإن الجمهور رغم تمسكه بالعبادات الظاهرة من صلاة وصيام وذكر وتلاوة محجوب عن الحقيقة بهواه الكامن في نفسه الساتر له عن معرفة الحقيقة.

ولهذا كان هذا المقام لا يناله أحد بدون المجاهدة الباطنة التي تعرف المجاهد بحقيقة الأمر وسر المسألة، ولهذا يحتاج طالبه إلى السلوك على يد شيخ عالم بأمراض القلوب وعلل النفوس التي يظن العابد أنه سالم منها، وهو غارق في بحرها، كما قال ابن عجيبة رضي الله تعالى عنه في "شرح الحكم": صلينا كثيرا وذكرنا كثيرا وصمنا كثيرا وما عرفنا الله تعالى حتى صحبنا الرجال.

فلكل داء أطباء وخبراء بأسبابه ومعرفة بدوائه، وأمراض النفوس وعلل القلوب المانعة من مطالعة الغيوب، هم الشيوخ العارفون الذين جابوا ميادين النفوس وخاضوا بحار المجاهدة حتى اطلعوا على حقيقة الأمراض الخفية وأين تكمن من الإنسان، وكيف دواؤها وعلاجها، فصاروا كالإكسير لمن يريد العلاج، والخروج من كل علة تقف في طريق المريد لمعرفة ربه. ولهذا قال الجنيد رضي الله تعالى عنه: في هذه الأبيات أمر من يريد الطهارة الأصلية والشفا من العلل الخفية، وإن كان عالما بالطهارة الفرعية.

(وقدم إماما كنت أنت إمامه) يعني: اسلك إذا أردت الوصول إلى الطهارة بماء الغيب على يد شيخ كامل عارف بعلل النفس وخفايا أمراضها ليزيل عنك حجب الوهم التي تقف في طريق معرفتك، ويرفع عنك الأستار التي تراها حقا ثابتا وهي باطل محض لا أصل له ولا ثبوت مطلقا، لا سيما إذا كانت الحجب المانعة لك عن معرفة الحقيقة وتقف معها بوهمك ناتجة عن أنوار العبادة فإن النفس تقول لك: هذا غاية المراد وكفاية القصاد، فماذا تريد بعد هذا من مجاهدة وجهاد فيقبل عقلك كلامها هذا، ونراه حقا وصدقا، والواقع أنك محجوب بها عن المعرفة، واقف معها عن الوصول إلى الحقيقة، فإنه كما يقع الحجاب بالأمور الظلمانية من معاصي ومخالفة واتباع

الهوى، كذلك يقع الحجاب بالوقوف مع ما يظهر من أنوار العبادة، كما أشار إلى ذلك الششتري في نونيته:

وقـد تحجـب الأنـوار للعـبد مـثل مـا تـبعد مـن الظـلام نفس حـدت ضـغنا

وورد في الحديث الصحيح ما يدل على هذا كما في قوله صلى الله عليه وآله سلم "حجابه النور"[1]. وفي رواية أخرى صحيحة أيضا "حجابه النار"[2]، فاللفظ الأول يشير إلى ما يحجب العبد عن ربه من الوقوف مع أنوار العبادة وبشائر الكرامات، واللفظ الثاني يشير إلى ما يحجبه عن ربه من نار الشهوات والمعاصي ولكن معرفة حجاب المعاصي والشهوات سهل يدركه كل أحد، أما حجاب الأنوار فلا يعرفه إلا من سلك على يد الشيخ الكامل العارف بالعلل الخفية الكامنة في العبادات وأنواع الطاعات.

فلهذا قال الجنيد (قدم إماما) في هذا الطريق، الخبير بدروبها ومسالكها، البصير بدقائق علومها، لأنه أخد ذلك عن الشيوخ العارفين الواصلين عن سلوك صحيح واجتهاد حقيق، وإن كنت قبل اتصالك به ووقوفك عليه (كنتَ أنت إمامه) حيت كنت ترى أنك بلغت الغاية في علم الشريعة فلا تحتاج إلى إمامة أحد تقتدي به ويعرفك بربك، ويكون إماما لك، وقدوة في عبادتك، وما تأخذ منها وما تترك، لا سيما إذا كان هذا الشيخ الذي يجب عليك أن تجعله إمامك في الوصول إلى الحقيقة ممن لم يعرف بالعلم الظاهر ولم يشتهر بالتعليم والأخذ عنه العلم الظاهر من تفسير وحديث وفقه وغيرها من العلوم التي يكون صاحبها قدوة وإماما لأهل عصره.

وهذا من أعظم الحجب المانعة من التسليم للشيخ في التربية لا سيما والمعاصرة حجابه بل من أعظم الحجب كما هو معلوم معروف عند كل أحد.

وقد قالوا: معرفة الله تعالى أيسر من معرفة شيخ التربية، لأن الله تعالى معروف بجلاله وجماله وكماله وقدرته، وأما شيخ التربية فهو رجل مثلك يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق، فكيف تدعي لنفسك خصوصية وتتخذه إماما في طريقك وتطهير باطنك من العلل والأمراض.

وهذا الذي وقع للكفار والمشركين مع أنبياء الله ورسله في عدم الإيمان برسالتهم

---

(1) رواه مسلم في "صحيحه" عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ح 263.

(2) رواه أحمد في "المسند" 499/4 عن أبي موسى.

واتباعهم لقصر نظرهم على الظواهر البشرية، كما قال تعالى عنهم ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ [الفرقان/ 7] وطبيعة النفوس لا تتغير وشأنها حب العلو والرفعة والخصوصية.

فالكفار أنكرت نفوسُهم أن يكون الرسول الذي دعاهم إلى الخروج عن مألوفاتهم والإيمان بالله تعالى وحده بشرا مثلهم، والمسلم أنكرت نفسه أن يكون من هو مثله في الصفات البشرية الظاهرة من أكل وشرب وغيرها من العادات معرفا له بالطريق إلى الله تعالى. اهـ الموجود منه.

الشرح الخامس: لسيدي محمد بن الحبيب الأمغاري الإدريسي الحسني

قال الجنيد رضي الله عنه:

تَوَضَّأ بِماءِ الغَيْبِ إنْ كُنْتَ ذا سِرٍّ وإلا تَيَمَّم بالصَّعيدِ أو الصَّخْرِ
وَقَدِّمْ إماماً كُنْتَ أَنْتَ إمامَهُ وَصَلِّ صَلاة الظهر في أوَّلِ العَصْرِ
فهذه صَلاةُ العارِفِيْنَ بِرَبِّهِم فَإنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فانْضَحِ البَرَّ بالبَحْرِ

أمر رضي الله عنه بالتطهير بماء الغيب، ويأخذ منه أن الطهارة على قسمين: طهارة حسية وتكون بالماء الحسي، ومتعلقها البدن كله إن كان الحدث أكبر، أو الأعضاء المخصوصة إن كان الحدث أصغر، وليست هذه مرادة للناظم رضي الله عنه.

والقسم الثاني: الطهارة المعنوية، وهي طهارة القلوب من الأمراض الحاجبة لها عن حضرة علام الغيوب، وهذه الطهارة لا تكون إلا بالماء المعنوي وهو ماء العلوم والمعارف والأسرار الجاري من حضرة الغيب إلى قلب الشيخ العارف بالله المطهر من العيب الذي يفيضه الشيخ على المريد، فيتطهر قلبه من الأغيار ويملأ بالمعارف والأسرار، وهذا إن كان المريد صاحب سر أي بصيرة، يتوصل بها إلى من يأخذ بيده وهو الشيخ الذي يستمد من حضرة الغيب كما قدمنا.

وإن لم يكن المريد صاحب سر وبصيرة فليتيمم بصعيد الأعمال الظاهرة والعلوم الرسمية حتى يفتح الله عليه بالسر والبصيرة.

وأشار رضي الله عنه بقوله: "وقدم إماما كنت أنت إمامه"إلى أن المريد يجب عليه أن يقدم إماما شيخا عارفا بالله يقتدي به في الصلاة المعنوية التي هي الشهود لحضرة

الملك المعبود، كما أن المريد يجب عليه أن يقتدي بإمامه في الصلاة ذات الركوع والسجود. وقوله: "كنت أنت أمامه" أشار به رضي الله عنه إلى أن المريد لا يقتدي بشيخ من الشيوخ إلا إذا حصل التعارف بينهما في عالم الأرواح، قال عليه السلام: "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"[1]، فيكون المعنى على هذا وقدم إماما في عالم الأشباح كنت إمامه في عالم الأرواح، ولأجل المقابلة والتعارف الذي حصل في عالم الأرواح حصل الائتلاف في عالم الأشباح.

وقوله رضي الله عنه: "وصل صلاة الظهر[2] في أول العصر" أي صل الظهر، أي ظهور ما في إرادتك لربك وهي دوام الشهود لحضرة الملك المعبود، كما تقدم في أول العصر، أي معاصرتك لشيخك وسلبك الإرادة له، وليس مراده رضي الله عنه، صلاة الظهر والعصر المشتملة على الركوع والسجود، لأن الظهر المعلوم يطلب فيها أن تصلي في أول وقتها لا في أول العصر، فمن ثمَّ حملناها على ما ذكرنا فافهم ترشد والله يتولى هدانا وهدى العالمين، آمين.

وقوله: "فتلك صلاة العارفين بربهم" وهي دوام الشهود لحضرة الملك المعبود فلا تنقطع صلاتهم لكونهم من الذين هم على صلاتهم دائمون، أي على شهودهم لربهم مواظبون.

وقوله: "فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر" فإن كنت من العارفين وهم الذين لا يحجبون بالخلق عن الحق ولا بالحق عن الخلق، فانضح أي رش بر شريعتك ببحر حقيقتك وكن من الجامعين بينهما، كما قال إمامنا مالك، رضي الله عنه: "من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق" أي تحقق بالعبوديتين: عبودية التكليف وعبودية التعريف. اهـ

الشرح السادس: للشيخ سيدي الهاشمي ابن عجيبة رضي الله تعالى عنهما

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما،

---

(1) علقه البخاري في "صحيحه" باب الأرواح جنود مجندة، وأسنده مسلم في "صحيحه" عن أبي هريرة رضي الله عنه ح 4773.

(2) اعتمد الشارح هنا نسخة من قال "الظهر" بدل "الفجر"، وإلا فأغلب النسخ فيها "الفجر".

قال الشيخ الفقيه سيدي الهاشمي بن محمد بن المهدي الشريف الحسني بن عجيبة الحوزي رضي الله عنه ونفعنا ببركاته:

الحمد لله الذي حمد نفسه والصلاة والسلام على مظهر قدسه وآله وأصحابه الذين هم من معناه وحسبه،

وبعد، فهذا شرح مختصر قريب يكشف عن معاني ما ألقى به الجنيد رضي الله عنه في قوله:

تطهر بماء الغيب إن كنت ذا سر وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر

وقدم إماما كنت أنت أمامه وصل صلاة الفجر في أول العصر

فهذه صلاة العارفين بربهم فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر

قوله "تطهر بماء الغيب" أي تطهر من رؤية نفسك الغيرية بأن تشاهدها خمرة أزلية ولذلك أمرك أن تسلك الطريقة على أربابها باصطلاحها حتى تشرق فيك الحقيقة بذاتها وصفاتها، فتتطهر حينئذ من الجهل ومن كل وصف دميم كنت محجوبا به عن الله. فماء الغيب هو الذات الأقدسية التي هي غائبة عن العقول القاصرة والأبصار الحادثة.

وقوله "إن كنت ذا سر" أي إذا سلكت الطريقة بالصدق والنية على يد شيخ التربية وتقربت إلى الله بالعبودية الذاتية حتى يحبك فإذا أحبك كانك وكنته تسمع بسمعه وتبصر ببصره وتتكلم بكلامه وتريد بإرادته وتفعل بقدرته وتعلم بعلمه وصفاته ملازمة لذاته، فتكون في نفسك النورانية بذاته وصفاته وفعاله فحينئذ تكون المشاهدة إذ لا يشهد الله إلا الله، فإذا وصلت إلى هذا المقام كنت ذا سر.

قوله "وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر" أي فإن لم تكن من أهل الفناء في الصفات ذوقا فأنت تيممت على الصعيد، وإن كنت من أهل الفناء في الصفات علما فقط فأنت متيمم على الصخر.

قوله "وقدم إماما كنت أنت إمامه" أي قدم شهود الله في نفسك واجعله إماما وهذا هو الشهود ثم شاهد نفسك بالله واجعله مأموما وهذه هي المعرفة بالله وذلك في نظرة واحدة فتكون به معا بين الشهود والمعرفة.

وقوله "كنت أنت أمامه" أي كنت محجوبا عن الله تتوصل إلى الله بنفسك استدلالا فلما رفع عنك الحجاب صرت تثبت نفسك من الله عيانا.

قوله "وصل صلاة الفجر في أول العصر" عبر بالفجر عن شعاع البصيرة الذي هو

فجر شمس المعرفة وهو أول الفناء وصلاة العارفين بربهم هي تروحن النفس واتصالها وسكون الفكرة واطمئنانها القلب باتصال النظرة واتساع العقل في المعرفة وهو مقام حق اليقين، زمان اعتدال الفاني في الله الباقي به بين الحقيقة والشريعة، وتمكنه بشهود الحقيقة في شريعتها، تمكنا لا تغيب عنه لحظة وأن عمل ما عمل فهذه صلاة العارفين بربهم.

وقوله "في أول العصر" هو زمان اعتدال حر النهار مع برد الليل وعبر به عن زمان اعتدال الإنسان بين الحقيقة والشريعة، وهو وقت صلاة أهل القلوب.

وقوله "فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر" قلت: البر عبارة عن البشرية التي وصفها العبودية، والبحر عبارة عن الروح الذي وصفه الحرية.

وقوله "فانضح البر بالبحر" أي اعمل أعمال تتروحن به البشرية وترق عبوديتها وتشرق الروح فيها بأوصافها فيصير صاحب هذا المقام بشريته ملكوتية حسا يتشكل بها كيف شاء وروحه جبروتية حسا يتصرف بها كيف شاء فيما شاء؛ وهؤلاء هم أرباب الأحوال. أي فإن كنت من العارفين بالله فكن من أهل الأحوال وفي ذلك نزهة ومزية. انتهى الشرح الذي وضعه عبد ربه الهاشمي بن محمد بن عجيبة الشريف الحسني وكان الفراغ منه يوم الأحد خامس عشر من شهر شوال عام ثلاثة وعشرين ومائتين وألف.

الشرح السابع: للعارف بالله الشيخ البوزيدي رضي الله تعالى عنه

هذا تقييد على بعض الأبيات دقيقة الفهم للشيخ العارف بالله الكبير الصوفي سيدي محمد بن محمد البوزيدي الحسني أدام الله علينا مدده أمين والحمد لله رب العالمين:

تطهر بماء الغيب إن كنت ذا سر ... وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر

وقدم إماما كنت أنت أمامه ... وصل صلاة الفجر في أول العصر

فهذه صلاة العارفين بربهم ... فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر

قوله "تطهر" أي تطهر من وجود حسك وشهود نفسك، وقوله "بماء الغيب" يعني العلم بالله الذي يذهب بوجود الأكوان ويأتي بوجود الحق تعالى ظاهرا للبصيرة لا البصر، إذ البصر نور محصور لا يرى إلا المحصور التي هي الأكوان؛ فإذا انفتحت

البصيرة واستنارت السريرة أشرق نور العيان على فقد الأعيان فغابت الأكوان وبقت عظمة المنان، كما هي باقية لم تزل ولم يحجبها شيء سوى الوهم، والوهم باطل فظن من حصلها أن معها غيرها فأثبت لها الجهل الأكوان بالأكوان الخيالية فوقفها معها وانحجب عنها بها ولو كانت له باصرة نافذة لاستدل على رؤيتها بآية الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. لأن الحق تعالى قال ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ [يونس/ 101] والنبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما رأيت شيئا إلا رأيت الله فيه"[1] أي ما رأيت شيئا ببصري إلا رأيت الله فيه ببصيرتي فغاب بصري، وما رأى في بحر عظمة ربي؛ فمن لم ينفع نظره هذا النظر فهو بعيد من مقامات الرجال ليس له سر ولا نور لأن أهل السر والنور شهدوا الأشياء بالله لا بها فغابوا برؤيته سبحانه عنها في وجودها. فأهل الدليل استدلوا بها على الله لبعدهم من حيث يظنون أنها موجودة بإيجاده سبحانه.

قلنا: نعم أهل الشهود إذا شهدوا إيجاده سبحانه فيه غاب توهم وجودها وبقي وجود الحق تعالى كما هو باقٍ، إذ لا يشاهدون معه سواه لقربهم منه سبحانه وكمال معرفتهم به؛ وأهل الدليل لطف الله بنا وبهم إذا راقبوا فيها أي في الأشياء بقي توهم وجودها لا يسقط عن قلوبهم رؤية الكون أبدا فيثبتون معه غيره فحجبهم ذلك الغير عن كمال معرفته فلا يعرفونه إلا بالاستدلال عليه بسواه، ومن استدل عليه بسواه فهو جاهل به وإن كان عالما وعابدا وزاهدا وورعا وغير ذلك. لأن الذين يستدلون بالوهم والوهم كالحلم يظن النائم شيء في منامه فإذا استيقظ لم يجد شيئا، كذلك أهل الدليل إذا تحققوا يجدون أنهم كانوا يستدلون عليه بالباطل المحض. ولهذا قال ابن عطاء الله "يا عجبا كيف يظهر الموجود في العدم أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم" وقد كان قبل ذلك من أكابر أهل الدليل ولما صار من أهل الشهود تحقق عنده أنه كان جاهلا بالله تعالى فصار يستغرب من جهله مع علمه هذا معنى قوله رضي الله عنه وقول الجنيد رضي الله عنه "تطهر بماء الغيب إن كنت ذا سر".

والماء على قسمين ماء حسي يحصل به الطهارة الحسية التي هي طهارة البدن والثوب والمكان وغير ذلك، فتلك الطهارة تحصل بها الصلاة الحسية؛ كما أن ماء المعاني الذي هو العلم بالله الذي يحصل به طهارة القلب مما سوى الله تعالى فبذلك

---

(1) لا أصل له.

تصح الصلاة المعنوية وليكن هذا العبد عارفا ببيت الرب كما قال الله عز وجل: يا داود طهر لي بيتا أسكنه؛ ولا يطهر هذا البيت إلا بشهود الحق تعالى ولا يكون شهود الحق تعالى إلا بعد موت النفس ولا يكون موتها إلا بالبعد عن الدنيا وأهلها، ولا يحصل البعد عن الدنيا وأهلها إلا بصحبة من غاب في الله عما سواه وهو الشيخ أو الأخ الناصح فافهم وفقك الله وإيانا آمين.

وقوله: "وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر" فالصعيد علم الشريعة الظاهرة وعملها فخاطب العامة بذلك وهو الضعفاء عن الجهاد أعني جهاد النفس، فقال لهم إن لم تقدروا على ما وراء ذلك من التحقق بأوصاف العبودية الذي هو الفقر والفاقة والمذلة والإهانة وغير ذلك من سائر أوصاف العبودية الخالصة لله تعالى التي لا حظ للنفس فيها فعليكم بما هو أرفق لكم من ذلك وهي الشريعة الظاهرة لعلكم تتقوون على الشريعة الباطنة التي هي شريعة الخواص وهي التي ذكرنا إذ لا يحملها إلا الصديقون. ولذلك سماها بالصخر لرزانتها وثقالتها على النفس الأمارة، فتكلم رحمه الله على المقامات الثلاثة في هذه الثلاث كلمات، فتكلم مع أهل الإحسان قال لصاحبه لا تغفل عن النظرة والأدب فإنك في محل القرب من ربك، وقال لصاحب مقام الإيمان لا تغفل من مجاهدة نفسك فإنك طالب الوصول، وقال لصاحب مقام الإسلام: قم بما أمرك الله به ظاهرا ونهاك عنه ظاهرا أو لا تطرد ذلك فتكون من المطردين، فإنك إن أثبت في ذلك زادك الله خيرا وقواك على المقام الذي بعده والله غالب على أمره.

أو تقول أيضا بعبارة قصيرة قوله: "تطهر بماء الغيب" أي تطهر من وجود نفسك وثبوت حسك الذي هو الحجاب بينك وبين ربك، "بماء الغيب" وهو الشهود والعيان، "إن كنت ذا سر" أي إن كنت من أهل هذا السر. "وإلا تيمم بالصعيد" أي اشتغل بأعمال الشريعة الظاهرة، "أو بالصخر" أي أعمال الطريقة إن كنت قوي الصدق شديد المحبة رافع الهمة عن هذه الأكوان الوهمية الخيالية كما تيمم بذلك الأقوياء رضي الله عنهم، لأن الشريعة الحقيقية لا يقدر عليها غيرهم كما تقدم إذ هي أثقل على النفوس وأمر عليها من الشريعة الظاهرة، ومن أجل خفتها حملتها نفوس العوام؛ وانكوت شريعة الخواص لأن شريعة الخواص ثقتلها فصارت من جهلها بالله لا تحب أن ترى السيوف التي يذبحوها بها مقلدون بهم الخواص ولهذا المعنى أنكروا العوام الخواص وصارت أنفسهم تدافع عن نفسها لكيلا تموت بتلك السيوف كأنها تقول: إذا قربتهم قربوا مني

وإذا قربوا مني أخذوني وقتلوني؛ فهي تقول: الحذر الحذر. وتحذر النفوس الغافلة التي هي على الفطرة لتتقوى بحسها على الخواص. وكذلك نفوس الأولياء الكمل رضي الله عنهم يتسلطون على نفوس العوام ليأخذوهم أحبوا أم كرهوا ويأذنون من هؤلاء رضي الله عنهم من لا يخافون عليه الرجوع إلى ما كانوا عليه من الغفلة قبل فسرقوا العامة ويأتون بهم إلى حضرة الأشياخ فيقتلوا لهم نفوسهم، كما أن العوام يسرقون نفوس الخواص الذين لا تمكين لهم ويأتون بهم إلى الأشياخ الغَفَلَة ليحيوا لهم نفوسهم بعد أن كانت قريبة إلى الممات. وقد شهدنا ذلك عيانا من هؤلاء وهؤلاء، الحذر الحذر يا فقراء من الغافلين كما أنهم يقولون الحذر الحذر من الذاكرين. وقوله: "وقدم إماما" أي اتخذ شيخا عارفا بالله يعرفك الطريق ويكشف لك عن كمال ذات التحقيق إن كنت صادقا في طلب الوصول إلى حضرة الله تعالى وسلم له الأمر في نفسك ومالك وكل شيء عندك حتى لا تتحرك إلا بإذنه في جميع العادات والعبادات، إلا ما هو فرض فلا كلام عليه. واجعل نفسك بين يديه كالميت بين يدي غاسله ودع انقيادك لنفسك كما كنت منفردا لها قبل وصولك إلى هذا الشيخ العظيم حيث كنت أمام نفسك قائما بها إلى ما فيه مرة قلبك بجهلك، واليوم اجعله أيها المريد إمامك كما تقدم، ولا تلتفت لسواه في الحس وفي المعنى حتى يسلك بك الطريق ويدخلك حضرة التحقيق ويقول لك ها أنت وربك، فإن كنت بالله تولى الله أمرك كما تولى أمره وهذا شأن المشايخ رضي الله عنهم فكن معه أيها المريد كما هو شأن المريدين يكون معك كما هو شأن الشيوخ. وقوله و"صل صلاة الفجر في أول العصر" أي أول عصر الحقيقة أي دخولك فيها واستغراقك في شهودها واجمع بينها لتكون من الكمل ولا يدهشك جمعها عن فرقها ولا فرقها عن جمعها، فإن أخذك الجمع فادخل في الفرق وإن أخذك الفرق فادخل في الجمع، وسر هكذا حتى يحصل الاعتدال. فإن في أول إشراق نورها مما يقدر على الجمع بينهما إلا الرجل الكبير فإنها تدهش العقول وتفني النقول ويغيب العقل المعقول فتنحل العزائم وتهدم القوائم ويفنى صاحبها في هذا الوقت كأنه المهبول المجنون لا يمسك عقله عند ذلك إلا الرجل الحاذق الذي مكنه الحق من القبل والبقاء وقواه عليها. وقد كان هذا الشيخ حصل له الجمع بينهما في أول وهلة فدل السالكين المجذوبين على حاله إذ هو حال الكمل من الصحابة والأولياء رضي الله عنهم أجمعين. ولهذا أثنى بعد بهذا البيت بما يناسبه، فقال: "فذاك صلاة

العارفين بربهم" أي كذلك صلاة العارفين الكاملين كالصحابة والأولياء بكمال علمهم بالله، لا يحجبهم فرقهم عن جمعهم ولا جمعهم عن فرقهم، يعطون للشريعة حقها حين تشرق عليهم أنوار الذات، ويعطون للحقيقة حقها حين تشرق عليهم أنوار الصفات، فهم يتقلبون بين أنوار جماله وجلاله، سالكين بنور عظمة ذاته صاحين بنور جمال صفاته، لم يحجبهم رؤية الحق عن رؤية الخلق ولا رؤية الخلق عن رؤية الحق فافهم. وقوله: "فإن كنت منهم" أي إن كنت من أهل هذا الصنف العظيم الشأن "انضح البر بالبحر" أي اجمع البر التي هي الشريعة مع البحر الذي هو الحقيقة، وكن برزخا بينهما لتكون إماما مقتديا وعالما مهتديا. وقد عبر عن حاله رضي الله عنه وحال الكمل من غيره الذين كانت بدايتهم نهايتهم ونهايتهم بدايتهم، وقد أهلهم الحق سبحانه للاقتداء بهم أول بدايتهم كما أهلهم لذلك في نهايتهم نفعنا الله ببركاتهم وجعلنا منهم آمين. انتهى بحمد الله وحسن عونه والحمد لله رب العالمين وكان الفراغ منه زوال يوم الثلاثاء من شهر الله ذي القعدة من النصف الآخر عام أربعة عشر ومائتين وألف.

فهذه سبعة شروح للأبيات الثلاثة المنسوبة للإمام الجنيد رحمه الله، كلٌّ تكلم عنها بنفس خاص وعلم خاص، على حسب ما بدا له فيها وما ألهمه من استخراج مكنوناتها وكشف أسرارها، ولكني لم أقف لحد الساعة على من فصل وحقق، وفرّع وتعمق، في شرحها، جامعا بين العلمين الظاهري والباطني، الحقيقة والشريعة كما فعل مؤلفنا الشيخ العليوات رحمه الله، فله الأسبقية في تقريب معاني هذه الأبيات إلى الصوفي الغارق والسالك المبتدئ الطارق، وقد تميز بمنهج في تأليفه خاص جامع بين جمال الشكل وجمال الموضوع.

الفصل الخامس: منهج المؤلف

سبق أن ذكرت أن لكتاب "سراج الغيوب في أعمال القلوب" موضوعا عاما إجماليا وهو التربية والسلوك ومعرفة طريق القوم، وموضوعا خاصا وهو التطرق لشرح معاني الأبيات الثلاثة المنسوبة إلى الإمام الجنيد أو إلى الشيخ الأكبر ابن العربي رضي الله عنهما.

ولِتعدد وجهة الموضوعَيْن فإن الإمام المؤلف سلك في كتابه هذا مسلكا متميّزاً، لم يحصره في شرح الأبيات المذكورة شرحا تقليديا، كما كانت العادة عند أهل التأليف، بحيث لم يكن منهجه فيه التطرق لشرح كلمات الأبيات اللغوية ومعانيه

البلاغية ومقاصده التربوية.

بل سلك المؤلف في كتابه مسلكا آخر، فجعله مكوَّنا من فصول ومباحث على عادة أهل التصنيف في الموضوعات العامة، يندرج تحت كل فصل منها معنى من المعاني المشير إليها معاني تلك الأبيات، حيث إن منطوقها لا يفيد حكما تربويا ولا شرعيا، بل منطوقها مخالف ومناقض لمقتضيات أحكام الشريعة، فاقتضى الأمر اللجوء إلى الشرح التفصيلي المنضوي في تأليف عام منهجي.

وهذه أهم ملامح منهج الإمام عليوات في تأليفه:

- قسم المؤلف كتابه إلى قسمين عريضين، أولهما شرح مختصر صغير إجمالي، وثانيهما شرحٌ كبير موسَّع تفصيلي.

- بنى المؤلف كتابه على تقديم عام وفصل تمهيدي وتسعة فصول عامة تندرج تحتها مباحث اقتضاها السياق وتنبيهات وإلماحات. وهذه هي بالتفصيل:

*تقديم، ذكر فيه القصد الخاص للتأليف وهو شرح الأبيات الثلاثة، مع التأكيد على اسمه ونسبه ولقبه على عادة المؤلفين، سدا لذريعة نسبته إلى غيره ولكي لا يتحمل غيره مسؤولية ما يحتمل أن يقع فيه من زلل وغلط.

*فصل في بيان القصد والمراد في ذكر ما يكون عليه في النقل الاعتماد، ذكر فيه معتمده من المؤلفين ومراجعه من المؤلفات، وعنوان تأليفه المختار.

*فصل في ابتداء الشرح الأول، بحوله وقوّته وعليه المعوّل، وقد رمى فيه إلى تسليط الضوء على منهجه في الكتاب الذي قال عنه: "وَاعْلَمْ يا أخي أن عملي في هذا الشرح الأول إنما يكون بالاقتصار والاختصار ليس مختصرا خاصة بحيث نحذف الألفاظ وتبقى المعاني ولا بالاقتصار المخل بالمقصود، بل جامع بينهما والله أعلم. وأما الشرح الثاني وهو المقصود بالذات فعمله على ما اشترطناه من التوسط المائل للطول وكلاهما شرح واحد. والأول يتضمن الجواب عن الشيء المسؤول، والثاني كفيل بجميع بعض ما كان في الباطن محصول. ويحصل الغرض بما في هذين الشرحين مجموعين ليعينا على التَّحقيق لأن الجمع لأبلغ وأنفع من التفريق والله يهدي من يشاء إلى حسن الطريق". اهـ ثم تطرق للشرح الأول المختصر المقتصر موردا اللفظ الأول من البيت، ومبينا القصد منه.

*فصل في بيان عمل الطهارة على سبيل تقصير العبارة، ذكر فيه معاني الطهارة

الغيبية المعنوية وارتباط ذلك بالطهارة الشرعية الحسية موردا كلام العارفين ومستشهدا بالقرآن الكريم وسنة النبي الأمين عليه الصلاة والسلام، ومدرجا خلال ذلك كله شرحا عاما إجماليا للأبيات الثلاثة المعلومة.

*الشرح الثاني التفصيلي، وبدأه بتمهيد قال فيه: "عمل هذا الكتاب في ذكر برنامج ما فيه من الأبواب والفصول والتنبيهات ليسهل النظر فيه لذوي الألباب، على أن تكون أصول هذا الكتاب على خمسة أبواب وتتميّز عن غيرها بقولي بكل باب: هذا الباب الأول من أصول هذا الكتاب في كذا والباب الثاني من أصول هذا الكتاب في كذا إلى آخر الأبواب الخمسة وبتمام الكلام على هذه الأبواب يتم هذا الشرح بإذن الله تعالى، ويحتوي على أبواب كثيرة وتنبيهات وفصول وأن تكون مبنية على تلك الأصول والله الموفق وهو الملهم والهادي سبحانه". اهـ

*الباب الأول من أصول هذا الكتاب في قول الناظم: "توضّأ بماء الغيب"، تعرض فيه المؤلف رحمه الله لشرح البيت الأول من الثلاثة شرحا موسعا، فرَّع الكلام فيه عن الطهارة ومتعلقاتها من التنزيه اللاهوتي والتنزه الناسوتي.

*فصل في بيان الكسوة المعنوية، والمراد منها ما وجب على المريد السالك أن يتستر به من لباس التقوى المعنوي، بتفصيلات وتفريعات تربوية سلوكية، مستمدة من كتب القوم وإشاراتهم وتفسيراتهم.

*فصل في أقسام الْبشَرِ، وهو الذي عد فيه البشر أقساما أربعة: كافرون ومؤمنون وأنبياء ومرسلون، تعرض لكل قسم من الأقسام وبيان ما يتضمن هو نفسه من أقسام، ولم يكن التقسيم مرادا لهذا المؤلف بقدر ما كان يهتم ببيان أسباب التقسيم المتعلقة بطهارة القلب والقالب، وما يلزم بذلك من رقيٍّ في المعارف أو نزول إلى الحضيض.

*فصل في معرفة الموجودات والفرق بين الصفات الأزلية والصفات المحدثة، تعرض فيه المؤلف رحمه الله للحديث عن الخالق والمخلوق وللعلاقة القائمة بينهما والتي هي مراد الخالق من الخلق، بناء على مستندات النصوص الشرعية وإلهامات وكشوفات الأولياء الربانية ورثة الأنبياء والمرسلين. وقد أدرج تحته فصولا كثيرة متعلقة بالعقيدة والتوحيد: كنفي الظلم والجور عن الله سبحانه، وهو فرعٌ من الفصل السابق، كالذي يليه، وفي نفي الشريك عن الله تعالى. ونفي المَكان عن الله سبْحانَهُ، وفي معرفة الله تعالى.

*القسم الثاني في معرفة الدين وفيه فصول، تحدث فيها الإمام المؤلف رحمه الله عن كل البحوثات المتعلقة بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان ومقاصد كل مقام من الثلاثة، مما هو متعلق بسلوك العابد وعبادة السالك.

*فصل تعرض فيه لمقامات السلوك مما هو مبثوث في كتب القوم كالرسالة القشيرية ورسالة المسترشدين وقوت القلوب والإحياء وعوارف المعارف والقواعد الزروقية وغير ذلك، وفصل ذلك في فصول ومباحث كثيرة.

*باب في ذكر بعض أخلاق سيد المرسلين محمَّد صلَّى الله عليْه وسلَّم وَعلى آله وأمَّتِه ويحتوي هذا الباب على ثلاثة عشر فصلا؛ تعرض فيه للشمائل الظاهرة وبعض الباطنة، لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أراد بها إعطاء النموذج الأمثل في الكون للطهارة الغيبية، وبيان ما وجب التمسك به من الأخلاق النبوية والصفات الأحمدية.

*وختم تأليفه النفيس بتنبيهات متعلقة بتذكر الموت وما بعده من عذاب القبر ونعيمه والوقوف بين يدي الله تعالى، مما هو متعلِّقٌ بالنفس البشرية التي هي مراد الناظم للأبيات الثلاثة محور موضوع الكتاب.

- ومن منهج المؤلف في كتابه أنه يورد لكل موضوع أو فكرة طرحها ما يشهد لها من القرآن الكريم، فلذلك كثُر إيراد الآيات القرآنية في الكتاب من أوله إلى آخره، ولربما ذكر ما فيها من إشارات أو قراآت أحيانا، تقوية للاستدلال بها وبيانا لأوجه الدلالة من معانيها.

- كما أن الحديث النبوي له وجود كبير في تأليفه، وقد عنى الإمام المؤلف بتخريج بعض الأحاديث ونسبتها إلى من رواها من أصحاب كتب السنة المسندة مراعيا في ذلك ذكر الصحيح منها من الضعيف أحيانا، ومشيرا إلى المتصل منها من المنقطع والمرفوع من المرسل وغير ذلك من المباحث الحديثية المعروفة باقتضاب يقتضيه المقام.

- كما أن منهجه مبني على نقل أقوال أهل العلم سواء من الصوفية أو المتكلمين أو الفقهاء أو المحدثين عازيا أقوالهم متى تيسر له إلى مظانها من الكتب المعتبرة، وإلا أطلق النقل عنهم دون عزو، وهو الغالب على كتابه. ولعله يستند في نقل قضية واحدة على عدة نقولات متى رأى الأمر يلزم تلك التقوية بالاستناد على كلامهم

والاستئناس بآرائهم.

- وللشعر نصيب وافر في منهج المؤلف رحمه الله، فقد اهتم بسرد بعض الأبيات الشعرية التي توافق الموضوع المتكلم فيه، وغالبها من شعر الصوفية في الآداب والسلوك مما لا تجمعه الدواوين المشهورة، فتعسر بذلك توثيق كثيرٍ منها وعزوه إلى مظانها، يشير مرة إلى أصحابها ولا يفعل ذلك إلا قليلا، دونما حاجة إلى بيان أوزانها وبحورها، فالكتاب للتربية ليس كتاب أدب، فلم يقتض الأمر الحث عليه.

- والمؤلف نفسه له حضور قويٌّ في مناقشته الأقوال المنقولة والآراء المذكورة، فإذا رأى في مسألة حق المتابعة والتفصيل والتحرير، صدر ذلك بقوله: "قلت"، فيسرد بعدها مذهبه في المسألة تلك، مع ذكر الحجج والبراهين المؤيدة لمذهبه.

- وملأ المؤلف كتابه بالاستطرادات العلمية والتنبيهات المعرفية التي تغني مادة الكتاب وتزيد المطالع تعلقا به، وربما ذكر قصصا لطيفة وحكايات طريفة، كقصته التي ناظر فيها بعض المتنبئين الخبثاء، والتي تشد القارئ إلى تأليفه شدا رفيقا.

وبالجملة، فكتاب "سراج الغيوب" من خير كتب الصوفية موضوعا ومادة ومنهجا وأسلوبا، وغريب أن يكون عرضة للنسيان والإهمال في الزوايا الصوفية والمراكز التربوية، مع ما ضم من براعة التأليف وحسن اختيار الموضوع، فرحم الله الإمام سيدي عبد الكبير عليوات رحمة واسعة وجزاه الله خيرا والحمد لله رب العالمين.

الفصل السادس: أسلوب المؤلف

فتبعا لموضوع الكتاب الذي أسلفت أنه موضوع تربوي سلوكي محضٌ، تتخلله بعضُ المباحث العقدية والوقفات على الشمائل المصطفوية، فإن الأسلوب العام يتميز بأمور:

- الأسلوب الصوفي المركِّز في الغالب على اختيار العبارات العميقة في الفهم والتفهيم، دون الغلو في الإشارة والتلميح.

- والأسلوب الصوفي ممزوج أيضا في الكتاب بالأسلوب الفقهي السائد في زمان المؤلف المبني على اللغة السليمة غير المعقدة، والتي تركز على النقولات الكثيرة، والاستشهادات العديدة، حيث إن الغرض من التأليف أن يستفيد منه أغلب شرائح المجتمع الإسلامي، بما في ذلك الأميين وغير المتخصصين، فهو وإن كان كتابا صوفيا فإنه لم يعتمد الأسلوب الصوفي المركز على الإشارة والغلو في الحقائق التي لا يحسن

فهمها أكثر الناس.

- قدم لكتابه بمقدمة سجعية رقيقة على عادة مؤلفي الزمان، ممزوجة ببراعة استهلال موفية القارئ موضوع التأليف ومقصد المؤلف منه.

- كما لم يخْلُ مؤلفه من لقطات سجعية ومحسنات بديعية، تستلذ قراءتها وهي طريقة درج عليها المتأخرون من المصنفين، يعلقون بها قلب القارئ ويشوقونه إلى حسن المتابعة.

- ليس في كتابنا هذا ألفاظ غريبة ولا مصطلحات غير مشهورة ولا تعقيد عبارة ولا تطويل ممل أو اختصار مخل، بل هو كتاب يتميز بالأسلوب الجامع بين العلمي والوعظي، بين الخطاب والسرد الغيبي، وهو ما يعطيه قوة ومرتبة بين مؤلفات جنسه.

الفصل السابع: قيمة الكتاب

وبعد هذا، فلا يخفى أن كتاب "سراج الغيوب" للشيخ عبد الكبير عليوات له قيمته العلمية الرصينة ومنزلته بين كتب الإسلام عموما وكتب التصوف خصوصا، وهذه أهم ما يمكن التدليل به على ذلك:

○ "كتاب "سراج الغيوب" من أهم واكبر وأجمع شرح على الأبيات الثلاثة التي نسبت إلى أحد الإمامين الجنيد أو ابن العربي رضي الله عنهما، حيث إن كل الشروح التي سبقته أو تلته لم تتعد الصفحات اليسيرة، أو الفقرات القليلة، وأما كتابنا فحجمه كبير ومادته غزيرة.

○ كتاب "سراج الغيوب" من الكتب التي تقرب علم الحقائق الصوفي إلى الخاص والعام، فقد تعرض الشيخ عليوات لأبيات الجنيد بأسلوب يليق بجميع شرائح المتلقين حيث جعله كتاب تربية وسلوك، بخلاف باقي الشروحات خاصة التي وقفت عليها، فإنها سارت مع نفَس الأبيات الثلاثة في التعبير المجازي واستعمال الكنايات والاستعارات على لغة الصوفية المحققين، مثل شرح سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني، وسيدي أحمد ابن عجيبة والشيخ البوعزاوي وغيرهم، بل عن بعض تلك الشروح زادت الأبيات الثلاثة تعقيدا واستشكالا.

○ كتاب "سراج الغيوب" يعد خزانة علمية وصوفية لمجموعة من النصوص والنقولات والتوثيقات عن جماعة من العلماء، خاصة المغاربة منهم والذين لا تجد كلامهم مبثوثا في كتب التصوف المشرقي، فلا مبالغة أن نعده ذيلا على إحياء أبي

حامد أو عهود الشعراني.

○ ومن الناحية التاريخية فإن الكتاب له قيمة كبيرة من حيث التعريف بأثر عظيم من آثار الزاوية الوزانية، وبشيخها ومؤسسها مولاي عبد الله الشريف الوزاني الذي على يده تربى المؤلف الشيخ عليوات، وفي مدرسته أخذ العلوم والسلوك والمعارف التي بث بعضها في مؤلفه هذا.

○ ومن الناحية الأدبية فإنني أرى أن الشيخ عليوات ضم في كتابه أشعارا غريبة ونادرة الوجود، مما يعد بسببها كتابه خزانة لها.

منهج التحقيق

وهذه أهم ملامح المنهج المتبع في تحقيق كتاب "سراج الغيوب":

1. التحري الجاد في الوقوف على نسخ الكتاب الموجودة في الخزانات العمومية والشخصية، حتى وقفت على نسختين فريدتين، سيأتي الحديث عنهما إن شاء الله.

2. تحرير الكتاب كلِّه وكتابته باليد، ثم قابلتُ المكتوب مرات عديدة مع النسخ الخطية المتوفرة لدي.

3. تحقيق متن الكتاب تحقيقا عليما، مضبوطا بالضوابط المعرفية المتعارف عليها بين أهل هذه الصناعة، فقسمت الفقرات وفرقت بين العبارات وأدرجت النقولات معتمدا في كل ذلك على ما هو معروف من علامات الترقيم والتنصيص من نقط وفواصل وأقواس وأسهام وغير ذلك.

4. تخريج الآيات القرآنية الكريمة وعزوها إلى سورها وترقيمها بأرقامها، ووضعها بين القوسين المزهريين الخاصين بالآيات الكريمة كما هي عادة الباحثين والطلاب.

5. تخريج الأحاديث النبوية الشريفة بعزوها إلى مظانها من كتب السنة، وذكر مخارجها من الصحابة إن كانت مرفوعة أو التابعين إن كانت موقوفة أو غير ذلك، والتطرق أحيانا لبعض ما يتعلق بها من التصحيح والتضعيف ولبعض رواتها من الجرح والتعديل.

6. شرح الكلمات التي تحتاج إلى بيان من كتب القواميس اللغوية الشهيرة.

7. ترجمة الأعلام الواردة أسماؤهم في الكتاب، إلا من أغنى ذكر اسمه عن التعريف به، ككبار الصحابة والأئمة الأربعة ومحققي المذاهب الإسلامية المشهورين وكبار شيوخ الصوفية المعروفين، فهؤلاء تراجمهم مبثوثة في كتب كثيرة.

8. قدمت للكتاب بدراسة مفصلة عن المؤلِّف واسمه ونشأته العلمية وشيوخه وتلاميذه ومذهبه في الفروع والأصول وطريقته الصوفية وجهوده في الإصلاح الصوفي

ووفاته وأقوال أهل العلم فيه، وبدراسة مفصلة أخرى عن المؤلِّف وموضوعه العام وتحقيق نسبته إلى صاحبه الشيخ عليوات وركزت على أهم شراح الأبيات الثلاثة موضوعَه الخاص، ومنهج التأليف وأسلوبه، ومصادره فيه.

9. صنعت للكتاب فهارس إجمالية وتفصيلية، على عادة المحققين، فواحدة للآيات القرآنية، وأخرى للأحاديث النبوية وأخرى للأبيات الشعرية وأخرى للأعلام وأخرى للكتب والمصنفات وأخيرة للموضوعات العامة للبحث عموما.

وصف النسختين المعتمدتين في التحقيق:

اعتمدت في إخراج هذا الكتاب النفيس "سراج الغيوب" على نسختين خطيتين، وهذا وصفهما:

- الأولى: نسخة في ملكي نتوارثها في عائلتنا جيلا بعد جيل، وهي نسخة جيدة خطها مغربي جيد وواضح ولا يوجد عليها اسم ناسخها أو سنة النسخ، لكن مكتوب عليها في الصفحة الأولى:

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله صلاة تعرفنا بها إياه معرفة تامة شافية وتكشف بها عن قلوبنا حجب الظلمانية حتى نعرفه عليه السلام كما ينبغي أن يعرف به في عالم الملك والملكوت والجبروتية. قيده من حفظه وإملائه عبد ربه كاتبه أحمد بن الحاج عبد السلام بن الطيب الشاهدي التهامي الوزاني العلمي الحسني وكان له في الدارين بجميل فضله.

فهذه الكتابة تبين أن الناسخ هو أحمد بن الحاج عبد السلام بن الطيب بن محمد الحاج حفيد الشيخ مولاي التهامي ومن ذرية ابنه الورع الزاهد سيدي أحمد الشاهد، كان شخصية علمية مرموقة، ولد بقبيلة الجايا بمدشرخندق سولة عام 1291هـ - 1874م، حفظ القرآن بمسيد أطفال سولة ثم انتقل إلى فاس فأخذ عن علمائها وفي مقدمتهم أبو شعيب الدكالي، وزار مراكش فأخذ فيها عن محمد بن عبد الله المؤقت المراكشي علم الحديث فأجازه إجازة عامة، وقد أخذ الطريقة الوزانية عن عدة شيوخ كوالده الشريف سيدي الحاج عبد السلام الوزاني، وسيدي محمد بن علال الوزاني، ومولاي عبد الهادي الطاهري الفاسي، اتصل بشيخ الزاوية الوزانية بوزان مولاي الطيب بن العربي، فأخذ عنه الورد، وأذن له في تلقين الطريقة الوزانية عام 1932م، كانت وفاته عام 1955م، ودفن بزاوية سيدي المحجوب المجاورة لزاوية سيدي الحاج الخياط

الرقعي، وقد خلف مؤلفات متنوعة في مجال التوثيق ككتابه الرحلة الصوفية التي تضم تراجم العديد من أعلام الزاوية الوزانية ممن عاصرهم المؤلف بفاس ووزان ومكناس، وله مؤلفات أخرى في التصوف " كرسالة الإخوان في التخلق بالأخلاق الحسان" و" منهال التجريد فيما يطلب العمل به عند أهل التوحيد"، و" أحوال المريد الفقير"، و" المنى والسول في التعريف بمعاني الوصول"

وبعد فقرة الناسخ يوجد عنوان الكتاب وبعده فقرة بيد خط أول مالك للكتاب وهو محمد بن محمد بن علال الحسني الوزاني، وبعدها فقرة لمالك الكتاب الثاني وهو والدي الذي كتب:

ثم اشتراه عبد ربه المستجير الشهير بنبيه علال بن محمد بن علال الحسني الوزاني في سنة 1369 وفقه آمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، اللهم وفقنا لذكرها في جميع أوقاتنا وثبتنا عليها.....

- الثانية: نسخة بالخزانة العامة بالرباط على الميكروفيلم في 671 صفحة تحت رقم: ك455، حالتها العامة رديئة وبها نقص وخروم عديدة، خطها مغربي ولا يوجد عليها اسم ناسخها أو سنة النسخ، ليس مكتوب عليها شيء خاص أو مصدرها، وتكلمت عنها مراجع عديدة مثل تحفة الإخوان للطاهري والممارسة الثقافية للغزاوي وغيرها.

نماذج من صور المخطوط

صور النسختين

الأولى: اللوحة الأولى/الثانية/الأخيرة

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله صلاة تعرفنا بها إيا[ه]
[illegible] ونكشف بها عن قلوبنا حجب الظلمانية حتى
نعرفه عليه السلام كما ينبغي أن يعرف به في عالم الملك والملكوت
والجبروتية. فرغ من حفظه وإملائه عبد ربه كاتبه أحمد بن الحاج
السلاوي بن الطيب [illegible] الوزاني العلمي الحسني
وكان له في الدارين بجميل فضله

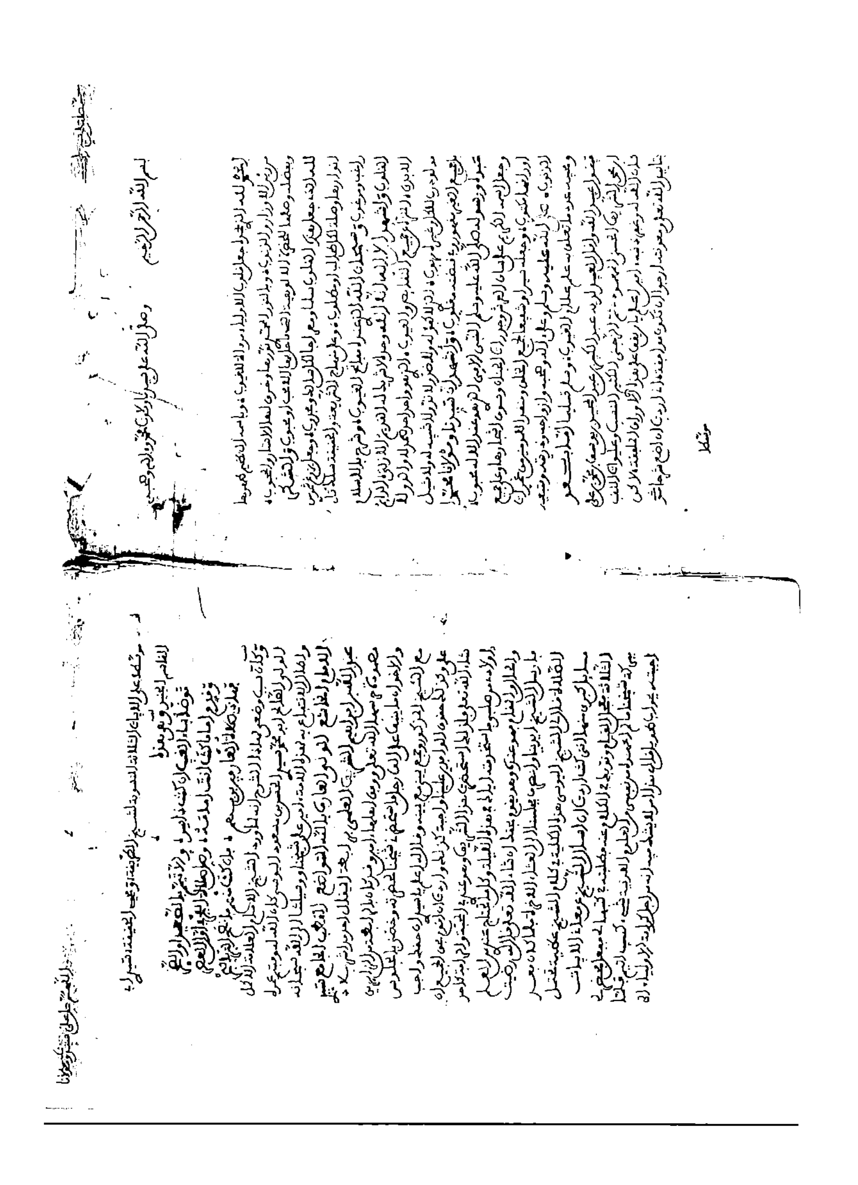
كتاب [illegible]

[illegible] بالله [illegible] مولانا [illegible]
الحسني الوزاني [illegible] ونفعنا ببركاته [illegible]

[illegible]
بن محمد بن [illegible] الحسني الوزاني
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

ثم استنساخه عبد ربه [illegible]
عكال بن محمد بن عكال [illegible]
الوزاني [illegible] سنة 136[illegible]
[illegible]

ويشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدا
رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible]
[illegible]



الأولى: اللوحة الثانية

اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

هذا أوان الشروع في الشرح الكبير ليكون كالشرح للشرح الأصغر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين والرضى عن آله
وأزواجه والمهاجرين ومن جميع الصحابة والتابعين ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم اعلم يا أخي أنني نرتب عمل الوضوء المعنوي والطهارة
المعنوية على ترتيب الوضوء الشرعي والطهارة الشرعية ليكون عمل العبادات
بكمال الطهارة الغسل من الجنابة المعنوية ونرتب أبواب هذا الكتاب ومحصوله على جميع
ما يتعلق بالطهارات الحسية بترتيبها [illegible] تمهيد عمل هذا الكتاب
في ذكر ترتيب ما فيه من الأبواب والفصول والتنبيهات ليسهل النظر فيه
لذوي الألباب على أن تكون أصول هذا الكتاب على خمسة أبواب ونتبين [illegible]
بعنوان بكل باب فهكذا الباب الأول من أصول هذا الكتاب في كذا والباب الثاني
من أصول الكتاب في كذا إلى آخر الأبواب الخمسة ونتمم الكلام على هذه
الأبواب يتم هذا الشرح بإذن الله تعالى ويحتوي على أبواب كثيرة وتنبيهات
وفصول وأن تكون مبنية على تلك الأصول والله الموفق وهو الملهم والهادي
سبحانه الباب الأول من أصول هذا الكتاب في قول الناظم توضأ بماء الغيب
[illegible] هذا العمل إلى آخر الباب اعلم يا أخي أن هذا الباب لا يتم
الكلام على ما فيه [illegible] الكتاب [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

الأولى: لوحة بداية الشرح الكبير

اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وآله

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

هذا ابتداء السفر الثاني من سراج الغيوب
في أعمال القلوب شرح الأبيات الثلاث التي
أولها توضأ بماء الغيب شيخ الحي يفتة
وحبر الحقيقة أبي القاسم الجنيد مما عني
بتأليفه عبد الكبير بن عبد المجيد
الشريف الحسني الشهير بعلوان الزرهوني
كان الله له وغفر ذنوبه
آمين

الباب الثاني في أصول هذا الكتاب قوله رضي الله عنه إن كنت ذا
سر اعلم أن ذا بمعنى صاحب سر وإن القصد بما شرطية وإن هذا السر
المشار إليه شرط حققت في جميع ما تفرع في السفر الأول وسأبين هذا السر
إن شاء الله تعالى اعلم أن السر يعوض الجهر والعلانية وقيل هو الشيء
الذي يستحق الكتمان مما لا ينبغي إفشاؤه ومنه إذا تكلم أحد لرجل بكلمة
وأوصاه بكتمانها فهي عنده أمانة فإن كتمها حفظت الأمانة وإن بثها
ضيعها وقيل إذا تكلم معه أحد بكلمة والتفت خلفه فهي أمانة عنده
وإن لم يوصه بكتمانها وحفظها فهذا هو المراد بالسر عند أهل اللغة وأما
في اصطلاح أهل الحقيقة فهو الشيء الرفيع النفيس الذي لا قيمة ولا ثمن له في
الدنيا ولا عوض عنه في الآخرة وهو الإسلام ومعظمه النطق بالشهادتين
باللسان واعتقاد معناهما بالقلب بحيث لا يكذب القلب اللسان كنطق
المنافقين والزنادقة الذين هم أشر عند الله من الكافرين كفرا بدليل قوله تعالى
إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا لأنهم في الدنيا يظهرون

الأولى: لوحة بداية السفر الثاني

اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وآله

267

وبأبيه واجعلنا جميعا واغفر عنا أمرا أو نعيم الى أن نخرج أرواحنا من أجسادنا
يا رب العالمين وأنا أشهد وأتحقق وأقطع أنه لا إله إلا الله وحده لا
شريك له وأشهد وأتحقق وأقطع أن سيدنا ومولانا محمدا رسول الله
أرسله الله تعالى في آخر الزمان رسالة عامة لجميع الثقلين الإنس والجن وأشهد
أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة وما قبضه الله إليه حتى أكمل به الدين وأنه
بلغ به نفع المؤمنين والمشركين وأنه شفيع المذنبين وسيد المرسلين وخير الخلق
أجمعين صلى الله عليه وسلم وعلى آله واستودع هذه الشهادة وما ذكر من
الصلاة والسلام على سيد الأنام عند كاتبي وأعز الكتاب وعند من قرأها أو
سمع شيئا منه وعند الله تعالى الذي خلقنا وخلق سيدنا ومولانا محمدا صلى الله
عليه وسلم وفضلنا على جميع الأمم بالإيمان به وباتباع سنته وسنة الخلفاء
الراشدين من صحبه واستودع ذلك أيضا جميع الملائكة الكرام وكل مخلوق على
الدوام ليخبر بعد الوديعة محفوظة عند الله سبحانه وعند نبينا محمد عليه
السلام وينفعنا بذلك يوم الحسرة والندم يوم لا تضيع لديه الودائع يا رب
العالمين اللهم لك الحمد كما أنت أهله فصل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم
كما أنت أهله وافعل بنا يا مولانا ما أنت أهله فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأزواجه وذريته وأهل
بيته والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من مضى منهم ومن مات والأحياء
منهم والأموات آمين يا رب العالمين وعلى جميع النبيين والمرسلين والسابقين للخيرات
والمسلمين والشرفاء والعلماء والأولياء والصالحين وعلى جميع من استجاب لله وللرسول
صلى الله عليه وسلم وعلى آله صلاة دائمة مستمرة منورة طيبة مطهرة كثيرة
مضاعفة بقدر معاني القرآن وعدد نفع حروفه ولا تزال معه الصلاة تتضاعف
كذلك بقدر معاني ما يتعلق به علم الله تعالى وكلامه وسلم تسليما سبحان
ربك رب العزة عما يصفون وسلام على
المرسلين والحمد لله
رب العالمين
هـ

الأولى: اللوحة الأخيرة

الثانية: اللوحة الأولى

اللوحة الثانية

اللوحة الثالثة

هذا، وأسأل الله تعالى أن يجزل الثواب والأجر العظيم لكل من ساعد وأسهم في إخراج هذا العمل، خاصة أستاذي المشرف الدكتور سيدي محمد الديباجي.

وهو جهد المقل، أسأل من وقف عليه ولمح فيه خطأ أن يبادر لتصحيحه وإخبارنا به، ومن وقف فيه على صواب فكله من الله توفيقا وتسديدا، والصلاة والسلام على سراج الكائنات ومصباح الظلمات سيدنا ومولانا محمد خير الخلق أجمعين وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته الغر الميامين والحمد لله رب العالمين.

وكتب

د. عبد الله شريف وزاني


القسم الثاني
التحقيق



وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي بحمده جعل قلوب الأولياء مرآة للغيوب، وباسمه العظيم طهّرها من رين[1] الأوزار والذنوب، وبالنور المحمدي نوّرها وخرق لها الأستار والحجوب، وبفضله وصلها للحضرة الألوهية التي ما حلَّ بها إلا محب أو محبوب، والشكر لله الذي جعل هذه القلوب سلما ومعراجا لكل سالك ومجذوب، وجعل بزوغ شموس أنوارها وصلة لكل طالب أو مطلوب، وعلى منهاج الشريعة والحقيقة سلك كل راغب ومرغوب، وسبحان الله الذي عنده مفاتح الغيوب، وشرح بالإسلام القلوب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القديم الأزلي، الدائم الأبدي، المنزّهُ عن جميع النقائص والعيوب، والذي هو واحد أحد صمد لا والد ولا مولود، رب للكل وغيره مربوب، الذي لا كفؤ له ولا ضدّ ولا ندّ ولا شبيه له ولا مثيل، بل جميع الغير مقهور وفي قبضته مغلوب، وأشهد أن سيدّنا ومولانا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، النبي الأمي الذي هو عند الإله محبوب، وجعل اسمه الكريم على ساق العرش وجدران الجنان، وسوق أشجارها وعلى جميع أوراقها مكتوب، وجعله سيدا وشفيعا لجميع الخلق ومنقذا للمؤمنين من غمرات الذنوب، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته ومتبعيه ومحبيه عدد ما تعلق به علم علام الغيوب، وسلم تسليما.

أمّا بعد:

فيقول عبيد الله وأقل العبيد لديه عبد الكبير بن عبد المجيد بن يوسف بن محمد بن علي بن محمد الشّريف الحسني المصمودي ثم الزجني، الكثيري النسب،

---

(1) الرين: الصدأ والوسخ.

وعليوات اللقب، كان الله له وغفر ذنبه. آمين: اعلم يا من يقف على هذه الأوراق الملفقة، لكن بتأييد الله تعالى ومعونته أرجو أن تكون موافقة، إني أردت أن أضع شرحا موسّطا على الأبيات الثلاثة المنسوبة لشيخ الطّريقة، ومحيي الحقيقة، سَيدي أبي القاسم الجنيد[1] وهي هذه: الطويل

تَوَضَّأ بِمَاءِ الغَيْبِ إنْ كُنْتَ ذَا سِرِّ ... وإلَّا تَيَمَّم بالصَّعِيدِ أَو الصَّخْرِ

وقَدِّم إمَاماً كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ ... وَصَلِّ صَلَاةَ الفَجْرِ فِي أَوَّلِ العَصْرِ

فَهذِي صَلاةُ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ ... فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَح البَرَّ بِالبَحْرِ

وَكَانَ سبب وضعي لهذا الشرح، أنه لما ورد الشيخ الإمام العلامة الأكمل، الولي الصَّالح، أبو محمد سيدي الحسن بن مسعود اليوسي[2]، كان الله له وفسَح عمره وأطال الانتفاع به لهذه الأمة آمين، على شيخنا ووسيلتنا إلى الله سبحانه، الإمام الخاشع الولي العارف بالله المتواضع، القطب الجامع، سيدي عبد الله بن إبراهيم[3]، الشريف العلمي، برابطة الميقال، أحد

---

(1) إمام الطائفة الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي القواريري والده الخراز، هو شيخ الصوفية، ولد سنة نيف وعشرين ومئتين، وتفقه على أبي ثور، وسمع من السري السقطي وصحبه، ومن الحسن بن عرفة، وصحب أيضا الحارث المحاسبي، وأبا حمزة البغدادي، وأتقن العلم، ثم أقبل على شأنه، وتأله وتعبد، ونطق بالحكمة، توفي رحمه الله سنة 298 هـ (سير أعلام النبلاء 66/14).

(2) هو: الحسن بن مسعود اليوسي، أحد الأعلام، تقلب في عدة مناطق مغربية طلبا للعلم والمعرفة، فحل بمنطقة دكالة ومراكش وسوس قبل أن يقصد الزاوية الدلائية ويستقر بها ما يربو عن عشرين سنة، طالبا للعلم أولا، ومتصدرا لمهمة التدريس ثانيا، تتلمذ عليه جلة، كأبي سالم العياشي وأبي عبد الله التازي، وأبي عبد الله ابن زاكور، ومحمد العربي القادري وغيرهم كثير، له عدة تآليف، منها: فتح الوهاب فيما استشكله بعض الأصحاب من السنة والكتاب، البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع، زهر الأكم في الأمثال والحكم، وغيرها، توفي عام 1102هـ [انظر ترجمته في: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني لمحمد بن الطيب القادري (3/ 44)، وشجرة النور الزكية لمخلوف (ص: 328)].

(3) هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن موسى الشريف الحسني اليملحي الوزاني، الشيخ المؤسس للزاوية الوزانية بالمغرب خلال أواسط القرن 11هـ/17م.

ولد بقرية تازروت من حوز جبل العلم سنة 1005هـ/1596م ونشأ بها وتعلم، ثم أكمل دراسته بتطوان وفاس فتخرج عالما متبحرا في العلوم الدينية، وسلك طريق القوم على يد الشيخ سيدي علي بن =

مداشر بلاد مصمودة، حرسها الله تعالى ووفق أهلها آمين، وقد كان بالرابطة من الزائرين والإخوان ما ينيف على ألف رجل، فاستحضرني شيخنا لحضرته، وخصّني بالجلوس مع الشيخ المذكور، وجمع يميني مع يمينه، وقال له: اعلم يا سيدي أن حقَّك واجِبٌ عليَّ وكذلك حقوق الوافدين علينا واجبة كذلك، وأردت أن أقوم بحقِّ الجميع إن شاء الله تعالى، فلذلك استحضرت هذا الشريف وهو عندي في المحبة والرأفة كأحد أولادي من صلبي، فاستخدمته إياك في هذه اللّيلة، وكل ما تحتاج عندي من العلم والحال والمقام فهو عنده، وهو يقوم بحقك إن شاء الله تعالى، قال له: رَضيتُ، فأرسل الشيخ أيدينا وانصرف، فجلسنا إلى العشاء الآخرة، فلما كان بعد الصَّلاة، قال لي الشيخ اليوسي: هذه الكُلِّيَّةُ في كلام الشيخ عظيمة تحتمل مسائل كبرى، منها أنني كنت أردت أن أسأل الشيخ عن معاني الأبيات الثلاثة، فعجَّلَ القيام ونَوَّبَكَ في الكلام عنه، فطلبته في كتبها لي ففعل، فحضر لي ببركة شيخنا ما لم أعهده من نفسي من العلوم اللدنية شيء كسيب اليم[1]، فَلما أجبته بجواب طويل قال:

=

أحمد الصرصري وإليه انتسب في الطريقة، ثم على يد الشيخ سيدي محمد بن عطية السلوي الفاسي بفاس، وبعد وفاة شيخه الصرصري المذكور انتقل إلى مدشر «شقرة» المعروف اليوم بالكزروف من قبيلة مصمودة، فتصدر للإقراء والتدريس بمسجده سنين عديدة، فاشتهر أمره هنالك، وذاع صيته في سائر المناطق، فقصده الناس بالزيارة من كل صوب وحدب للأخذ عنه والتبرك به، ثم انتقل منه إلى مدشر «المقال» من القبيلة ذاتها، ومنه إلى وزان حيث سيؤسس بها زاويته، فكانت النواة الأولى لانطلاق توسع عمراني حولها، واستمر في الاتساع طول حياة الشيخ وبعدها، وكثر الواردون على زاوية وزان من العلماء والطلبة والمتصوفة فانتصب مولاي عبد الله الشريف لهم، ينشر العلم ويلقن الأوراد والأحزاب والأذكار، ويطعم الطعام. توفي بوزان في 12 شعبان سنة 1089هـ/28 شتنبر 1678م. ممن ترجم له: الإفراني، صفوة من انتشر ص 198، م. الكتاني، سلوة الأنفاس ج 2 صص 30 - 32؛ القادري، نشر المثاني ج 2 ص ص 233 - 236 التقاط الدرر ص 208، الإكليل والتاج ص 407؛ المكناسي، الكوكب الأسعد صص 46 - 52؛ التليدي، المطرب ص 182؛ الناصري، الاستقصا، ج 7 ص 107، عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس صص 748 - 750؛ الزبادي سلوك الطريق الوارية صص 241 - 244.

(1) السيب: الماء الغزير واليم هو النهر.

هذا أمر لا يشك فيه. إنه من أجل كرامة الأولياء إلى آخر القصة، وهي معلومة عند كثير من إخواننا كانوا يستمعون مفاوضتنا، فَلمَّا انصرف الشيخ استحضرني شيخي، وسألني عن ليلتي، فأخبرته، فأذن لي في وضع شرح لتلك الأبيات، وأن أضع فيه ذلك الجواب بأسره، وما يدخل تحت ذلك من المعاني، فقلت له: نعم، لما تقدّم لي من التأليف عن إذنه، والله تعالى حسبي ونعم الوكيل.

فصل: في بيان القصد والمراد،

في ذكر ما يكون عليه في النقل الاعتماد[1]

اعلم يا أخي أن اعتمادي في هذا الشرح على كلام شيخين اثنين من أئمة أهل الدين، القائمين بحق رب العالمين، أحدهما: أبو علي صالح الأندلسي[2]، تلميذ شيخ شيوخ آبائنا وأجدادنا سيدي أبي محمد عبد الله الغزواني المراكشي[3] رحمة الله عليه، والثاني: الإمام الكبير الكوكب المنير أبو عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر الرازي[4] رحمة الله عليه، ونفعنا بهما آمين، على أننا نأتي بكلامهما مزجا وتركيبا بصناعتي، وما يؤيد ذلك من النقول بحسب علمي القصير من مزجاة بضاعتي، وما يفتح الله سبحانه من الفتوحات على بصيرتي، إن قدرت على التعبير عنه فطنتي وهمتي، على أن يكون كلام الشيخين المذكورين مطلقا من غير تقييد، وأن يتميز كلام بعضهما من بعض بوصف حميد، وذلك أن كلام الرازي فصيحٌ لغوي عربي، وكلام الأندلسي يماثل كلام الرجل الأعرابي البدوي، لكنه كلام منيف مبارك لطيف، وكلام الرازي محقق صريح، مدقق فصيح، يشفيان **غفل** القلب القريح. وأما كلام غيرهما فنأتي به إن شاء الله معزوا لصاحبه، ونقيده باسم قائله، ليتبيّن المراد، ويتأسس البناء على قواعد الاعتماد، وتحصل الفائدة إن شاء الله تعالى للحاضر والباد.

واعلَم أنّه لما كان هذا الكتاب مخصُوصاً بتصفية أعمال الصدور والألباب، ومُرشدا للجوارح الظاهرة بالاكتساب، سمَّيتُهُ: ((**سِراجُ الغُيُوبِ فِي أَعْمَالِ القُلُوب**)) أسأل الله تعالى أن يجعل المُسمَّى موافقا للتسمية، وأن يكون سبباً لرضا ربِّ البرية، وأن يكون معينا لنا على الأعمال المقبولة المرضية، وأن ينفع به في الدنيا والآخرة

---

(1) القصد بالاعتماد ما اعتمد عليه في شرح هذه الأبيات مما قرأه أو تفقه به أو سمعه عن شيوخه.

(2) لم أجد له ترجمة.

(3) الفقيه المشارك سمع على الشيخ أبي محمد عبد القادر الفاسي في فنون مختلفة وأنجنب وفاق أقرانه، وتوفي بالطاعون بالقصر عام 1089هـ. (الإعلام بمن غبر بأعلام القرن الحادي عشر لعبد الله الفاسي 1692/4 من موسوعة أعلام المغرب).

(4) شمس الدين أبو بكر: محمد بن أبي بكر الرازي صاحب (مختار الصحاح) المتوفى: سنة ستين وستمائة 666 هـ (كشف الظنون 81/1).4

مؤلفه وناسخه، وناظره وكاسبه، وأن يوفقنا جميعا للعمل بما فيه، وإخلاص العمل كلها لله تعالى والدؤوب عليها لليوم الذي فيه نأتيه، آمين والله الموفق سبحانه، وهذا أوان الشروع، في عمل هذا الموضوع، بعد تقديم المعذرة لأهل الإيمان، العارفين بآلات العلم والبيان، والنّقص والتّقصير والخطأ والنسيان، فاقبلوا يا سادتي عذري، واصفحوا عن وزري، واستكثروا نَزْرِي[1]، واعلمُوا إني ما أبديت إلا للأخيار معذرتي، فاستروا عورتي، وقِلُوا عثرتي، واعفوا عن زَلَّتِي، ولا اعتذار لأهل الغي والفساد، والظلم والعناد، إذ الغالبُ عليهم الاشتغال بالغيبة والانتقاد، فلذلك لا عبرة بهم، ولا لاستماع راجفهم، فهم كالهباء في الهواء، فتركهم وما فيه من الزيغ والبلوى، وترك مناظرتهم في المشكل والفحوى، وترك إثمهم بالإعراض والغض عنهم في العلانية والنّجوى.

واعْلَمُوا أنّني أبتدئ هذا الكتاب بما ابتدأ به والدي[2] رحمه الله كتابه ((**بُشرى السّعادة، في طريق أهل الإرادة**))، حيث قال بعد كلام جميل موشح طويل، فقال: إن من عامل الكريم بلغ مُرَادَه، ونال فوق ما يُرِيدُ وزيادة، وإن من تطفَّلَ على ذوي الفضل جبروا جبرته، وداووا علَّتَه، وستروا عورته، وغفروا زلته، وجمعوا فرقته، وأجابوا دعوته، وقضوا حاجته، ومن تطفَّل على ذوي اللؤم أسرعوا مضرته، وكشفوا عورته، وأفسدوا نيته، ووَعَّصُوا[3] حاجته، وشوهوا وجنته، وصفعوا لحيته، وجردوا حيرته، وعددوا عترته، وحاولوا فرقته، وقد رآى رجل النبي ﷺ في نومه وكان يريد الدخول في التصوف، فقال: يا رسول الله دُلَّنِي على ما أنتفع به، فقال: اقرأ كلام الأولياء وتطفَّل عليهم، فإن المُتَطَفِّلَ عليهم وَلِيٌّ، والمُتَكَلِّمَ معهم لا يُدْرَك، فإن كنت من أهل هذا الشأن فحصل هذه الإفادة، وما كان على قدم السفر يسر زاده، وقضى مراده، وصحب الرفقة المأمونة أهل الفضل والعلم والسيادة، والزهد والعبادة، والمجد والنجادة، لا جرم أن سفره ناجٍ مأمون، ورفده مضمون، وعليهم يحسب ومنهم يكون، ويرحم الله القائل حيث يقول:

---

(1) نزري: أي قليلي، وفي اللسان (203/5): "النَّزْر: القليل التافِه، قال ابن سيده: النَّزْر والنَّزِير القليل من كل شيء ".

(2) عبد المجيد ابن يوسف الشريف الحسني المدعو عليوات الزجني.

(3) وعصوا: صعبوا وعسروا، من العصِّ، بمعنى الاشتداد والصلابة، وفي اللسان (54/7): "وعَصَّ يَعَصُّ عَصّاً وعَصَصاً: صَلُبَ واشْتَدَّ ".

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيارَهُمْ ... وَلَا تَصْحَبْ الأَرْدَا فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي
عَنِ المَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارَنِ يَهْتَدِي

قُلتُ: وأنا أقول بقول والدي، إذ عليه معتمدي، وبه في الإسلام مقتدي، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَـٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ ﴾ [الطور/21]، قال بعض المفسرين في تفسير الغريب المنظوم: ﴿ وَمَآ أَلَتۡنَـٰهُم ﴾: وما أنقصناهم[1].

واعلم أن هذه الآية الكريمة مُحْكَمَةٌ لم يطرأ عليها نسخ، والحمد لله، فالرجل يدرك درجة والديه وإن كثروا بمتابعته لهم بالإيمان خاصة، فكيف لا أفرح إذاً ووالدي وأسلافه معلومون [وكانوا][2] على التوفيق والسداد والولاية والنصح للعباد، والتهجد والجهاد وحسن السيرة بين العباد، والعمل بالسّنة السنية والجود والنجاد، إلى أن توفّاهم على ذلك خالق الأطواد، والحمد لله والشكر لله على ذلك دائما في ازدياد.

قلتُ: وسنذكر في السفر الثاني من هذا الكتاب في باب شرح قوله: "إِنْ كُنْتَ ذَا سِرِّ " إن شاء الله تعالى بعض ما أظهره الله تعالى من الكرامات على يد والدي ووالده وبعض أقاربه، لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝ ﴾ [الضحى/ 11]، وكذلك كرامات شيخهم سيدي عبد المجيد الدادسي[3] رحمهم الله جميعا، فكيف لا أقتدي بوالدي وأنا به مهتدي، وهو الذي أورثني الإسلام والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، حُلْوِهِ ومُرِّهِ، إذ رَبَّانِي على ذلك منذ خرجت من مهدي صغيرا، وسلكني على ذلك إلى أن قبضه الله إليه، واختار له ما لديه، فرحمه الله

---

(1) قال الإمام الطبري رحمه الله عند تفسير الآية: "يعني بقوله: (وَمَا أَلَتْنَاهُمْ): وما نقصناهم من أجور أعمالهم شيئا، فنأخذه منهم، فنجعله لأبنائهم الذين ألحقناهم بهم، ولكنا وفّيناهم أجور أعمالهم، وألحقنا أبناءهم بدرجاتهم، تفضلا منا عليهم. والألت في كلام العرب: النقص والبخس، وفيه لغة أخرى، ولم يقرأ بها أحد نعلمه، ومن الألت قول الشاعر:

أَبْلِغْ بني ثُعَلٍ عَنِّي مُغلغَلَةً ... جَهْدَ الرّسالة لا أَلْتا ولا كَذبا

يعني: لا نُقصان ولا زيادة.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل" [جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (471/22)].

(2) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(3) الذي وقفت على ترجمته هو عبد الله بن محمد ومحمد بن علي وعلي بن محمد ولم أقف على سيدي عبد المجيد.

ورحم والديه وجزاهم عنا خير ما جزى والد عن ولده. آمين. ولا خير في ولدٍ لم يسلك سبيل والديه المؤمنين، وهم قد نفعوه بملة المسلمين، إذ لو كان أبواه كافرين فلا يدري ما يفعل به، إذ لا يخرجه عقله من زمرة الكافرين إلا أن يشاءَ رب العالمين، فحقوق الوالدين المؤمنين لا قيمة لها لو لم يورثا ولدهما إلا بقول لا إله إلا الله، فبأي شيء يكافيهما إلا بالبر والإحسان، كما وصى بذلك قديم الإحسان، ويرحم الله الشاعر حيث قال في عدي بن حاتم الصحابي رضي الله عنه[1]:

بِأَبِـهِ اقْـتَدَى عَـدِيٌّ فِـي الْكَـرَمْ   وَمَـنْ يُـشَابِهْ أَبَـهُ فَمَـا ظَلَـمْ

وَنَحن والله ما شبهنا أسلافنا في خصلة من الخصال، ولا في مقام ولا مجاهدات ولا حال، سوى ما من علينا إلهنا جل جلاله من نعمة الإسلام، فلله الحمد ولهُ الشكر على هذه النعمة العظمى كما يستحقه الله الواحد العلام، وإنّما تعلقنا بالرجاء والخوف إلى يوم الخروج من الدنيا إن شاء الله بسلام، فسبب الرجاء قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَـٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ ﴾ [الطور/21] وروينا في تفسير الغريب المنظوم ﴿ وَمَآ أَلَتۡنَـٰهُم ﴾ معناه: وما أنقصناهم، وسبب الخوف قول الله تعالى بعد هذه الآية ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ [الطور/21] فلا تزال رياح الخوف والرجا تصفقنا في كل وقت وحين، حتى ترد أرواحنا على الله الرحمن الرحيم، اللهم لك الحمد ولك الشكر على نعمة الإسلام كما أنت أهله. فصل على سيدنا محمد كما أنت أهله، وافعل بنا يا مولانا ما أنت أهله، فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة. اللهمّ إني أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وأنبياءك ورسلك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن سيدنا محمداً عبدك ورسولك، وأشهد هذا القلم والمحبرة والكاغيد[2] وهذه البسط، ومن ركع وسجد عليها، وهذا المسجد الذي أنا الآن أكتب فيه، وما احتوى عليه من السقف والأحجار والتراب وغيرها، وهذا التأليف ومن يطالعه ويكتبه ويسمع ما فيه أنني أقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ﷺ، شهادة لا يدخلني فيها شك ولا

---

(1) القائل هو: رُؤبة بن العجاج يمدح عدي بن حاتم الطائي، وهو في زيادات الديوان (ص: 182)، وهذا البيت مشهور عند النحاة كشاهدٍ على جواز نقص " أب ".

(2) الورق بالدارجة المغربية.

تكذيب ولا احتمال غيب، دَرَيْتُ ذلك بعقلي وقلبي وروحي وحسي ولحمي ودمي وعظمي، وكل ما احتوى عليه جسدي، وأنني معتقد ما دَرَيْتُ من معانِي: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا أزال على ذلك إن شاء الله إلى يوم لقاء الله، وأنا مسلم مؤمن محسن، والحمد لله رب العالمين.

فصل: في ابتداء الشرح الأول، بحوله وقوّته وعليه المعوّل

بسم الله الرحمن الرحيم، عونك يا الله، وبك نستعين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم. الحمد لله على ملة الإسلام، والشكر له سبحانه بلا حصر ولا حد على الدوام، على ما أنعم به علينا من محبته ومحبة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، واعلم يا أخي أن مؤلف هذا الكتاب يقول ما فتح الله عليه في هذه السطور:

اعلم يا أخي أن ابتدائي بهذا الشرح الأصغر، ليس هو منفصلا بالبسملة عن الشرح الأكبر، بل هو له تمهيد وتوطئة وتعريف كالبرنامج لكل قضية، وما بدأت بذلك إلا تبركا وتيمنا وتنبيها للناظر فيه بما سنذكره من تعظيم ربنا سبحانه، وكذلك يكون الشأن في استفتاح الشرح الأكبر نستمطر به عفو الرحيم الرحمان.

وَاعْلَمْ يا أخي أن عملي في هذا الشرح الأول إنما يكون بالاقتصار والاختصار، ليس مختصرا خاصة، بحيث نحذف الألفاظ وتبقى المعاني، ولا بالاقتصار المُخِلِّ بالمقصود، بل جامع بينهما، والله أعلم. وأما الشرح الثاني، وهو المقصود بالذات، فعمله على ما اشترطناه من التوسط المائل للطول، وكلاهما شرح واحد، والأول يتضمن الجواب عن الشيء المسؤول، والثاني كفيل بجمع بعض ما كان في الباطن محصول، ويحصل الغرض بما في هذين الشرحين مجموعين ليعينا على التَّحقيق، لأن الجمع أبلغ وأنفع من التفريق، والله يهدي من يشاء إلى حسن طريق، وهذا أول هذا الشرح.

قولُهُ: "تَوَضَّأْ بِمَاءِ الغَيْبِ":

فاعلم أن الناظم رحمه الله تعالى كأنه جرد من نفسه شخصا، وجعل يخاطبه بما ينتفع به من تمسك به من المؤمنين، أو من تأمل معناها من العارفين، ويرحم الله عوام المسلمين إذ يقولون: (الكلام للسَّارية والجواب للجارية)، وهو موافق لما ذكرناه،

ومثل لما صورناه، واعلم أن ظاهر هذه الأبيات، يشير لجميع علم التصوف في كل الحالات، فهو[1] رضي الله عنه قد حصر جميع علم التصوف في هذه الأبيات الثلاث، حسبما تراه مبينا مجموعا في هذا الشرح، إن أعاننا عليه خالق الأرضين والسّموات، فهذا اللفظ الوجيز لا يتصور إلا من الصديقين، التابعين لسيد المرسلين، إذ أوتي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، ولا يخلوا تابعوه إن شاء الله من نيل علمٍ عَنْهُ عليه السلام عُلِمَ، إذ كرامات التابع معجزة للمتبوع، وعِلْمُ المتبوع للتّابع موروث وفي قلبه مودوع، ويرحم الله تعالى أبا سعيد البوصيري[2] حيث يقول:

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ الله مُلْتَمِسٌ غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ

واعلم أن هذه خصوصية ظاهرة موهوبة من الله تعالى للشيخ أبي القاسم الجنيد، وأنها تشهد له بأنه رضي الله عنه كان وارثا لسيد المرسلين، وناصحا لإخوانه المؤمنين، جزاه الله خيرا، وأعظم له مثوبة وأجرا.

فقوله رضي الله عنه: "**تَوَضَّأْ**" فقد صدّر بالأمر لِيُصْغَى لقوله، ويُمتثل به أمرُه، وأنه استعاره للدخول للحضرة الإلهية بأحسن إشارة، وعبر عن الوصول إليها بالوصول للصلاة بالطهارة، فأمر السالكين والمريدين أن يتوضؤوا وضوءا معنويا، مقيسا على الوضوء المشروع، ليسهل على المريد ما يريده لقياسه على الأمر المعلوم الذي كأنه في الثوب مطبوع، فسأبين إن شاء الله جميع ذلك على كيفية الوضوء الشرعي، والله أسأل أن يحفظه من كل بدعي ومدعي آمين.

واعلموا يا إخواني أنه لمّا أقام الطهارة الحسية كأنها عنوان للطهارة المعنوية، لأن الحسية لما كان لا يُرفع حدثُها وخبثُها إلا بالماء المطلق، السّالم من التغير بما يفارقه غالبا من طاهر أو نجس، وحكمُه كمُغَيّره، كذلك الشأن في الطهارة المعنوية لا يُرفع حدثُها وخبثُها إلا بماء الغيب المطلق السّالم من الإضافة كذلك.

فماء الغيب هو اليقين، واليقين في اللغة هو: العلم الذي لا شك معه ولا ريب، والمراد بالمطلق هنا هو: اليقين السّالم من إضافة شيء من الشك أو الشرك بالشيء

---

(1) هو يشير بها إلى الإمام الجنيد.

(2) العارف بالله شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد ابن حماد بن محسن بن عبد الله بن صنهاج بن هلال، صاحب النظم البديع في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات رحمه الله سنة 696 هـ. (معجم المطبوعات 603/1).

القليل منهما يُغَيِّرُهُ، ولا يصلح للعادة ولا للعبادة، لأن ذلك الماء أضيف بنجس فصار ماء متنجسا فيطرح، ويطلب ماء آخر مطلقا، **فاعلمه**، ولا يجد المتوضئ ماء الغيب السّالم من الإضافة إلا بتصحيح اعتقاده بالتوحيد المَحْضِ، مثل الحكم لابن عطاء الله[1] ونحوها، فإنها تُعَلِّمُ اليقين الذي لا شك ولا شرك معه، **فهذا هو ماء الغيب**، والدليل على أن ماء الغيب هو اليقين قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾ إلى قوله ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة/1 - 4]، فانظر كيف بدأ الله تبارك تعالى وصف المتقين بنفي الريب، وهو الشك، وختم وصفهم بالإيمان واليقين بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ ﴾ [البقرة/4]، ثم بَشَّرَهم بقوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [البقرة/5] فالإيمان بما أنزل على سيدنا محمد ﷺ وبما أنزل على الأنبياء قبله هو الإيمان بالآخرة، لأن المرسلين كلهم مبشرون ومنذرون بالآخرة، والإيمان بالآخرة غيب، ولا يؤمن بالغيب إلا المُوقنون، فلذلك قال النّاظم - رحمه الله -: "**تَوَضَّأْ بِمَاءِ الغَيْبِ**" الذي هو اليقين، واليقين عند أهل اللغة هو: العلم الذي لا شك معه ولا ريب، فانظره في الشرح الكبير في شرح هذا المحل مطولا، فتعلم ذلك، والله أعلم.

فإن قيل: وما هذا الوضوء الذي يتوضأ فيه بماء الغيب؟ إنما هو وضوء معنوي وهو اليقين.

وما كيفية هذه الطهارة؟ فالجواب: فاعلم يا أخي أن هذا الوضوء إنما هو وضوء معنوي وطهارة معنوية، والمراد بذلك هو حصول التوبة النصوح، وهي الدائمة، ودوام الاستقامة والمجاهدة والتخلق بأخلاق النبوءة تحلية وتخلية، وذلك أن لله تعالى في عباده تسعا وتسعين خصلة محمودة، ومثل عددها خصائل مذمومة، فالمحمودة: كالتوبة

---

(1) الزاهد المذكر الكبير القدر تلميذ الشيخ ياقوت رضي الله عنه، وقبله تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي كان ينفع الناس بإشاراته، ولكلامه حلاوة في النفوس، وجلالة. مات هكذا سنة سبع وسبعمائة 707 هـ وقبره بالقرافة يزار. وله من المؤلفات كتاب التنوير في" إسقاط التدبير"، و"كتاب الحكم"، وكتاب لـ"طائف المنن"، وغير ذلك رضي الله تعالى عنه. "الطبقات الكبرى للشعراني ص 234".

والخوف والرجاء والشكر والصّبر والزهد والتوكل والرضى والمحبة والصدق في العمل من غير علة الرياء والحرف لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الحج/11] كالعبادة بقصد حصول فوائد دنيوية أو أخروية، قال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر/3] هو الذي لا يخالطه طمع في الدنيا ولا يرجى معه ثواب في الآخرة، وإنما هو خالص لوجه الله وحده لما يستحقه من كمال الجلال والجمال والنوال، فالمؤمن يخلص الأقوال والأفعال والأخلاق لله تعالى في جميع الأحوال، ومنتهى هذه الأوصاف تسع وتسعون خصلة محمودة، فانظر بُغية السّالك للسّاحلي[1] رحمه الله.

وأما الخصائل المذمومة فهي تسع وتسعون أيضا، كالكذب والغيبة والنميمة والحقد والحسد وقول الزور كله والحرص والطّمع وطول الأمل والغش والخديعة والخلابة[2] وحب المدح وحب الدنيا وتعظيم أهلها لأجلها والمداهنة وغير ذلك من الأوصاف المذمومة التسعة والتسعين.

فيجتهد الإنسان في التّحلية بالأوصاف المحمودة، والتّخلية عن الأوصاف المذمومة، فإذا تحلّى بجميع الأوصاف المحمودة، وتخلّى عن جميع الأوصاف المذمومة، فحينئذ تكمل طهارة النّفس وتصير نفسا مطمئنة، ولا تأمر إلا بخير إن شاء الله تعالى، وسيأتي بعض ذلك في أول السفر الأول من الشرح الثاني إن شاء الله تعالى، وأما بيان جميع الأوصاف المذكورة كما ذكرناها فإن يسّر الله لي العمل بما بقي معي من النظر فلا بدّ إن شاء الله أن أبين جميعها، وما يتعلق بها من الأذكار والنتائج في الباب الجامع، فنقتطف ذلك من بغية السّالك في أشرف المسالك للشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد السّاحلي رضي الله عنه، وإلا فانظر ذلك في الكتاب المذكور واستكثر من النظر فيه، ففيه فوائد في السّلوك ومعرفة منازل السالكين، وآدابهم وأفعالهم وأذكارهم، وثمرات الأذكار وعلامات ووصايا، ما لا يوجد في غيره، اللهم

(1) وابن القاضي في لقط الفرائد دون أن يترجما له" الوفيات "الونشريسي في 1 - محمد بن أحمد بن عبد الرحمان الساحلي ذكره بشيء كبير.

(2) الخديعة والنفاق.

إلا إذا يسَّر الله تعالى علينا نقل المُهِمَّاتِ منه، فيكون إذ ذاك هذا الكتاب جامعا مانعا[1] لا نظير له في جميع المجامع، فاعلم ذلك، والله أعلم.

واعلموا يا إخواني أن الله سبحانه ذكر اليقين في القرآن الحكيم على ثلاث درجات، وهي: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

الدرجة الأولى: أشار إليها بقوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر/5]، وهذه الدرجة هي أدنى درجات اليقين، وهذه الدرجة لا تحصل إلا للمؤمنين في دار الدنيا، وهي التي أشار نبينا وسيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ﷺ حيث قال: «**ما فاتكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن فاتكم بشيء وَقَرَ في صدره، ألا وهو اليقين، ألا وهو اليقين، ألا وهو اليقين**»[2]، كما عبر أبو بكر[3] رضي الله عنه عن يقينه، فقال: "لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ ما ازددت يقينا ".

واعلم أن المؤمنين متفاوتون في اليقين على قدر تصديقهم بسيد المرسلين، وما جاء به على حكم المعجزة المقوية للتصديق، فمن كثر علمه بمعجزة نبينا محمد ﷺ كثر تصديقه له عليه السّلام، ومن كثر تصديقه كثر يقينه، وأعلى أهل الدنيا دون الأنبياء؛ أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وأمّا الدرجتان الباقيتان من درجات اليقين فلا يحصل شي من ذلك في الدنيا إلا ما كان على سبيل المكاشفة، وهو تمام يقين الدرجة الأولى، وأما الدرجتان الأخريان فهما حاصلان في الدّار الآخرة للمؤمن والكافر، ولا يؤجر المؤمن ويثاب إلا على ما حصل له من يقين الدرجة الأولى، لأن الإيمان بها هو الإيمان بالغيب، وأما الإيمان بعد المعاينة فلا يفيد ولا يحصل به إلا على الحسرة والندامة، ولذلك يندم الناس كلهم عند معاينة العقاب والثواب، ولا يفيد الندم حينئذ شيئا، فعليكم إخواني بعلم اليقين ما

---

(1) في الأصل جامع مانع وهو خطأ في النسخ.

(2) قال الحافظ العراقي رحمه الله في تخريج الإحياء (20/1): "أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعا"، وذكره أيضا السبكي في الأحاديث التي لا أصل لها في الإحياء.

(3) الخليفة الراشد سيد الصحابة وخليل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن معيتق أول من أسلم من الرجال وأول خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مات رحمه الله ورضي عنه سنة 13 هـ.

دمتم مؤمنين بالغيب.

وأما الدرجة الثانية: فأشار الله تعالى بقوله: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر/7] فعين اليقين هو رؤية العيان، فهذه الدرجة أعلى من الدرجة الأولى لاجتماع ما في الأولى لما فيها، لأن الأولى علم اليقين، والثانية عين اليقين، فقد اجتمع في الثانية كلاهما، أعني: رؤية البصر ورؤية البصيرة، فالبصيرة للدرجة الأولى، والبصر للثانية.

وأمَّا الدرجة الثالثة: فقد أشار الله تعالى بقوله: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ [الواقعة/92 - 95]، فالتصلية في اللغة هي: التشوية بالنار، منها قولهم: "شاة مصلية " أي شاة مشوية. فحق اليقين إنما هو بالذوق، أعني الكافر حقُّ اليقين عنده لا يحصل عنده إلا بذوق العقاب وشدة العذاب، وأما المؤمن فحق اليقين عنده لا يحصل له إلا بذوق لذَّة الثواب ونيل الدرجات ورضاء رب الأرباب، فهذه الدرجة في حق المؤمن والكافر أعلى درجات اليقين، كما أن عين اليقين عند المؤمن والكافر في عرصات القيامة أعلى وأعظم يقينا من علم اليقين الذي لا يتصور إلا في الدنيا.

واعلم أنني ضربت لهذه الثلاث الدرجات مثلا يعمُّها ويوضحها ويبينها بالبيان الحسي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وذلك كأن قوما مجتمعون في بلدتهم أو حلقهم، مطمئنين لغفلتهم، ساكنين لراحتهم وهواء أنفسهم، إذ ورد عليهم رجل منهم، يعرفون بأجمعهم صدقه وأمانته، وحفظه وصيانته، وحسن خلقه ورفقه بهم وشفقته، فتأملوه فإذا هو مجرد عريان لا شيء عليه، وهو مجرح في أيما موضع من بدنه، ففزعوا إليه، فقالوا: ما شأنك؟ وما دَهَمَكَ؟ فقال: يا قوم! جئتكم مستغيثا وبشيرا ونذيرا، وذلك أني رأيت ملكا له عسكر جرّار، وساق إليكم قوم لا يسطلى لهم بنار، ولا لكم بحربهم طاقة ولا مقدار، فجرحوني وكشفوا عني الأستار، فيا قوم البدار البدار!! فهذه الدار ليست لكم بدار، فعن قريب تصيرون مستترين بالمسوح وخِرَقِ البَرَادِع، وتصير أرضكم وبلادكم بَلَاقِع، فانتبهوا من نومتكم، وتفطنوا من غفلتكم، وكفوا أهواء أنفسكم، وفروا بأجمعكم لمنعتكم وحصونكم، فكأنكم بالجيش قد وفد ولا يبقى منكم والد ولا ولد. فمنهم من صدق النذير ورافقه في المسير، فقال لهم: أنا إليكم بشير، فاستبشروا بالفوز الكبير، وبالنجاة من الهول الخطير، فعن قريب تلحقون

الفرار، وتنجون من الفضيحة والعار، والباقون اتخذوا قوله مزاح، وناموا في الربا والبطاح، فبينما هم كذلك إذا بغبار الجيش قد لاح، فعلا منهم الصياح، وإذا بالخيل قد أقبلت مثل الرياح، فوضعوا في الظهور والبطون منهم السيوف، وشقوهم بالسهم والرماح، فمنهم القتلى والمأسورين والمستثقلين بالجراح، فقالوا: والله هذا حق اليقين، فيا ليتنا كنا ممن صحب النذير وسار معه وراح، فلم يك ينفعهم الندم والبكاء والتراح، فقد وقع للقوم علم اليقين بخبر النذير الذي أمرهم بالنهوض والفرار، وحصل لهم عين اليقين برؤية الجيش وكثرة السواد وشدة الغبار، وحصل لهم حق اليقين بوقوع القتل والسبي والهلاك والدمار، فهذا مثل صحيح لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله حيث قال: «**أنا النذير العريان**»[1].

فهذا بيان شافي في معرفة ماء الغيب الذي هو اليقين، وسيأتي إن شاء الله في أول الشرح الأكبر ما يؤيد هذا من سيد المرسلين، وأخبار الأولياء المقرَّبين، وتفسير الموقنين، ما فيه كفاية في تعلم عين اليقين، والرجوع لرب العالمين. فليستعمل الإنسان المؤمن اليقين في جميع عباداته وأجزائها، ويجاهد في نفي الشك لا سيما في الفرائض، لأن الذمة عامرة بيقين، فلا تبرأ إلا باليقين، وليستحضر اليقين في صلاته وقراءته فيها وفي عدد ركعاتها، وفي جميع ما يتعلق بها من تحريمها إلى تحليلها، وكذلك يحافظ على اليقين في جميع العبادات بأسرها، ويستعين على اليقين بحضور القلب وتدبر المعنى، والله الموفق، وهو الملهم والهادي سبحانه.

فصل: في بيان عمل الطهارة على سبيل تقصير العبارة

اعلم يا أخي أنه لمَّا تقدم لنا الوضوء المَعنوي مقيسا على الوضوء الشرعي ولوازمه، فلوازمه التي لا انفكاك للطّهارتين منها، فمن ذلك: استبراء معدته ومثانته من ثقل الأخبثين، الذين هما البول والغائط، قياسا على استبراء رحم الأنثى من الماء الفاسد، وحكم الاستبراء الوجوب لكونه مشغلا للعابد عن عبادته عن فهمها وما يراد بها، حتى لو أن المؤمن كان متوضئا، والحالة أنه مدافع الأخبثين أو أحدهما فلا تصح له صلاة ولو في حال تلبسه بها إن كانت تشغله عن فهمها، هذا في الطهارة الحسية،

---

(1) رواه البخاري (2378/5)، ومسلم (1788/4).

وأحرى في الطهارة المعنوية.

فإن قيل: وما الأخبثان المعنويان اللذان يفسدان الطهارة المعنوية؟ فيجب عليك حيث تعرضت لذلك أن تبينها لنا لتكون لنا على بال.

فأقول: اعلموا يا إخواني، أنه لما كان الأخبثان المعلومان نَجِسَيْن لا تصح بهما صلاة، سواء قلَّتْ أو كثرت، ولو مثل رؤوس الإبر، وكذلك الأخبثان المعنويان لا تصح بهما عبادة بمثل ذلك من أحدهما، وهما: **الرياء وحُبُّ الدنيا**، بَاللفِّ والنشر، الأول للأول، والثاني للثاني، فيجب على السالك الذي يريد السفر للحضرة الإلهية أن يستبرأ منهما بقطع مادتهما مثل ذلك، لأن الرياء مفسد للعبادة لقوله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر/3]، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة/5] أي من غير ميل ولا اعوجاج، بل صديقا قاصدا مستقيما، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة/27] أي متقين الشرك الأصغر، وقال عيه السلام: «**الرياء الشرك الأصغر**»[1] ولا يقبل الله من الشرك شيئا لا قليلا ولا كثيرا، لقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر/65]، وقال عليه السلام حكاية عن الله تعالى: «**أنا خير الشركاء، فمن عمل عملا لوجهي وأشرك معي فيه غيري فأرد نصيبي للشريك ولا أقبل منه شيئا، ولا أقبل إلا العمل الخالص، والعامل الذي أشرك في عمله فليس هو بخالص لي، فأنا تركته للشريك فليطلبه فليجازيه عني**"، وهذا الحديث بالمعنى لا باللفظ، فانظر لفظه في كتب الحديث إن شئت[2]، فهذا معنى البول المعنوي.

وأمّا الغائط المعنوي فهو: **حبُّ الدنيا**، قال رسول الله ﷺ: «**حبُّ الدُّنيا رأس كلِّ خطيئة**»[3]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران/185]، وقيل: معنى المتاع هي الجيفة والغرور الذي أضيفت إليه هو الكلب، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده (428/5) من حديث سيدنا محمود بن لبيد، وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (290/1): "ورجاله رجال الصحيح ".

(2) رواه أحمد في مسنده (301/2) من حديث سيدنا أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله سلم يروي عن ربه عز وجل أنه قال: "أنا خير الشركاء، فمن عمل عملا فأشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك ".

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان (338/7) من حديث الحسن البصري مرسلا.

﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [محمد/36] الآية، واللعب ضد الجد، والضدان لا يجتمعان، وأيضا فإن محبة الدنيا ومحبة أهلها من أعظم الفتن للمؤمنين، وإنهما مشغلان عن العبادة، فلا يزال العابد مدافعا لذلك في عبادته مثل مدافعة المصلي لأحد الأخبثين، لكن مدافعة الأخبثين المعلومين أخف مدافعة من حب الدنيا وحب الرياء، لأن الأولين قد يصبر لهما المصلي حتى يفرغ من صلاته، وهذان غالبان للعابد، وربما يقطعانه عن العبادة رأسا، وأما شغل القلب بهما فلازم لكل أحد إلا للزاهدين، وأنهما فتانان للمحب فيهما والمشتغل بهما حتى لا يدري المصلي ما صلى، ولا التالي ما تلا، وربما يتذكر الأمور المنسية له في حال صلاته، بل هذا كثير غير قليل، حتى لو سئل المصلي بأي سورة قرأ في صلاته لقال: لا أدري، والمأموم كذلك في الصلاة الجهرية لو قيل له عند الفراغ من صلاته: بأي سورة قرأ إمامُك؟ لقال المفتون بحب الدنيا: لا أدري!! ألم يعلم المؤمن أن المراد من الصلاة إقامتها لا وجود صورتها، فإقامة الصلاة هو بتفرغ القلب من الشواغل المضادة لها، وبتمام قراءتها وركوعها وسجودها، والاعتدال والطمأنينة فيها، وفهم معاني التكبير والتسبيح والقراءة وغيرها، فهذا هو المصلي على الحقيقة، وقد مدح الله تعالى الُمصلين في القرآن الحكيم بإقامة الصلاة، فكل آية وردت في مدح المصلين فإنما تكون بلفظ الإقامة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء/162] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة/3]، ومثل ذلك في القرآن الحكيم كثير، وأما من كان غافلا عن صلاته بحب الدنيا ومفتونا بها، فلا يكون في صلاته إلا ساهيا عنها غافلا فيها، وقد أشار الله تعالى لهذا الصنف بطريق الذم، وأن أكمل هيئة الصلاة كما أمر بها فقال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝﴾ [الماعون/4 - 5] وهذا الذي ذكرناه كله ليس هو مخصوصا بالصلاة بل يعم جميع العبادات كلها، فالعابد هو العارف بمعبوده وعبادته، لا من هو لاه عنهما، فاللاهي عن الله في عبادته فهو عابد الوثن، وأيُّ وثن أشر من الهوى، فالمصلي والعابد مطلقا إذا كان لاهيا فإنما هو عابد هواه، لا عابد إلهه، لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية/23]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**الهَوَى شَرُّ إِلَهٍ عُبِدَ**»[1] أو كما

(1) لم أقف عليه فيما بين يدي من مصادر.

قال عليه السلام، فلذلك أمرنا من يتطهر بهذه الطهارة، وأن يستبرئ من هذين الأخبثين كاستبرائه من البول والغائط، والاستبراء منهما هو بطرحهما في بيت الأنجاس، وسيأتي بيان ذلك كما ينبغي في محل ذكره من الشرح الأكبر إن شاء الله تعالى.

واعلم أن المؤمن إذا استبرأ من هذين الأخبثين، فلا يستعجل الخروج من بيت الأنجاس حتى يقطع مادتهما، كالمستبرئ من الأخبثين الحسيين، وعلامة ذلك في حقه أن تخف معدته ومثانته مما كان معمرا فيهما، فإذا خف ذلك عليه فإذا لم يحس بخارج من المخرجين فليستجمر المحلين بمسح بقية الأنجاس على فم المخرجين بيابس طاهر قلاع، غير أملس ولا محدد، وهذا الاستجمار الحسي يجزي عن الاستنجاء بالماء إذا لم ينتشر أحدهما عن محله، فيجب الاستنجاء بالماء، وأمَّا في الاستبراء المعنوي واستجماره والاستنجاء فلا بدّ من ذلك كله، فلا يكفي الاستبراء عن الاستجمار، ولا الاستجمار عن الاستنجاء بماء الغيب، فإذا الاستجمار من الغائط المعنوي بعد طرحه وتركه فإنما يكون بالزهد والقناعة والرضى بالقسمة الأزلية، والاستجمار من البول المعنوي إنما يكون بالإخلاص وترك النظر لغير الله تعالى، قال تاج الدين[1] رحمه الله: "**الأعمالُ صُوَرٌ قائمةٌ وأرواحُها وجودُ سِرِّ الإخلاص فِيهَا**"[2]، لأن العبادة والأعمال كلها من جميع أنواع العبادات إذا لم تكن مخلصة لله تعالى فهي بمنزلة رجل له بهائم كلها ميتة، فلا ينتفع بلحمها ولا بثمنها، فكذلك العبادة مع شيء من الرياء، فهذا هو الاستبراء منهما، **فاعلمه واعمل به**، والله الموفق وهو الملهم سبحانه،

وأمّا الاستجمار منهما؛ فيتحقق بترك الأشغال الدنيوية، ويركن إلى التجريد، قال الشاعر:

تَجَــرَّدْ مِــن الدُّنْــيَا فَإِنَّــكَ إِنَّمَــا ... خَـرَجْتَ إِلَـى الدُّنْـيَا وَأَنْـتَ مُجَـرَّد
وأَخْلِـصْ جَمِـيعَ الـدِّينِ لله مُفْـرداً ... وإِنْ تُـشْرِك الأَغْـيَارَ لَـسْتَ مُعَـبَّد

فإذا استجمرت بهذا الاستجمار، فلا بدّ من الاستنجاء بماء الغيب، واجعله وطنك ولك قرارا، أي تستعين على ذلك كله باليقين، وذلك بأن تعلم أن ربك قد فرغ من

---

(1) هو ابن عطاء الله السكندري.

(2) الحكم العطائية بشرح ابن عباد، (الحكمة العاشرة)، (ص: 47).

أربعة في الأزل؛ وهي: خَلْقٌ وخُلُقٌ ورِزْقٌ وأَجَلٌ، فلا يتكون شيء من ذلك إلا على حكم ما سبق بصورته ومقداره وزمانه، فإذا علم العبد وتيقّن أن الله لا يخلق في الدنيا ما لم يسبق في علمه فإنه يستريح قلبه من ((لولا)) و((لو))، يعني لولا كذا لكان كذا، ولو كان كذا لكان كذا، فالأعمال كلها قد قدَّرها سبحانه في الأزل، حتى الشراب من نهر سريع الجري، فلا يشرب منه الظمآن إلا ما قدر له في الأزل، وليس رزقه منه إلا ما يجوز على حلقه، وما كتب لماضغك أن يمضغه فلا يمضغه غيرك، فالرزق إذا لا يَجُرُّه حِرْصُ حريص ولا يردُّه رَدُّ رَادٍّ، فكُلْ رِزْقَك بِعِزٍّ، ولا تأكله بِذُلٍّ، وكله من وجهٍ حلال، ولا تأكله من وجه حرام، وقِسْ على هذا جميع الأمور حتى الشوكة ولدغة حيوان، حتى القمل والذباب والبراغيث، كل ذلك بتقدير من حكيم حميد، فما لم يسبق في علمه أنه يضرك فلا يأذيك أصلا ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة/51]، واعلم أنه لو أجمع أهل الدنيا كلهم على أن ينفعوك بشيء لم يكتب فلا يصلك شيء منه أصلا، وإن أجمعوا على أن يضروك بشيء لم يقدر لك لم يقدموا على ذلك، حتى الكلام وعدد الأنفاس وجميع الآثار والأعمال كلها من طاعة ومعصية فلا يصدر منك شيء إلا وقد سبق في علمه تعالى وقضائه وقدره، وأمَّا الثواب والعقاب فإنما هو على حكم الاكتساب والاختيار، فلا يختار الإنسان إلا ما قد سبق له في علم الله تعالى من كفر وإيمان وجميع الأحوال والأسباب ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات/96] ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء/23] وأمَّا اكتساب الأعمال فقال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة/286] فهذه الأمور تقوي اليقين لمن يتأملها، فينبغي أن يجعلها العابد على بال، والله الموفق.

قلتُ: وقد بقي علينا من الاستجمار الحسي أن نذكره، وذلك أن الفقهاء قد قالوا أن من يمر إصبعه البنصر على القضيب الذي بين المخرجين تحت الأنثيين فإنه مجرب لقطع مادة البول، لأنه يدفع الحاصل ويمنع الواصل، ومثاله في الاستجمار المعنوي هو: تفكر المؤمن الذي يتطهَّر بهذه الطهارة في الموت الذي لا بدّ منه، ولا محيص لكل مخلوق حي عنه، وليستكثر من ذكره، فإنه يدفع الحاصل ويمنع الواصل من الرياء وحب الدنيا، وليعلم المؤمن علم يقين؛ أنه كما يعلم أن الموت نازل به على كل حال فيحصل هذا اليقين بدليل قاطع، وهو موت آبائه وجميع أقاربه وجيرانه وكل حيوان

ناطق وغير ناطق، فكذلك ينبغي له أن يتيقن بسؤال القبر وضمّتِهِ، فالمؤمن تضمه الأرض ضمة حنان وشفقة كما تضم الأم ولدها الصَّغير إلى صدرها، والكافر تضمه ضمة سخط وعذاب، ولا بدّ لكل إنسان من ضمة القبر حين نزوله فيه، وهذا مما يجب الإيمان به.

وكذلك يتقين بالبعث لعين هذا الجسد بلحمه ودمه وجميع ما فيه بما كان فيه معهود قبل الموت، لا أنه يخلق الله له أشياء أخرى يحيي الله تعالى لنا تلك الأجزاء كلها بذاتها وعينها وهو أهون عليه، قال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف/29].

ويتيقن بحوض نبينا سيدنا محمد ﷺ ولوائه وشفاعته الكبرى والصغرى، بل الشفاعة الكبرى مخصوصة به عليه السَّلام ولا يشاركه فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب، بخلاف الشفاعة الصغرى ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة/255].

ويتيقن بالحشر والنشر، وأخذ الصحف بالميامن وعكسها، ووزن الأعمال، وهل هو ميزان واحد أو موازين كما هو في الكتاب العزيز، ويتيقن أن الشفاعة لا يشفع بها إلا المؤمنون لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم/87]، والعهد المذكور هو قول: ((لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ))، نطقا واعتقادا.

ويتيقن المؤمن بأن الله تعالى يدخل من أمة سيدنا محمد ﷺ الجنّة سبعين ألفا بغير حساب، ومع كل واحد سبعون ألفا، اللهم اجعلنا منهم. آمين.

ويتيقَّن المؤمن بالحساب لغير هؤلاء على القليل والكثير، والنقير والقطمير، إلا أن يعفو الله سبحانه.

ويتيقن المؤمن بالجواز على الصراط والورود على جهنم، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم/71].

ويتيقَّن بقوم مؤمنين يحبسون على الأعراف، وهي أعلى درجة من الصراط تكفيرا لما بقي من خطاياهم وأوزارهم، ثم يدخلون الجنة.

ويتيقن المؤمن بأن الجنة لا يدخلها كافر أبدا، وأن المؤمنين كلهم يدخلون الجنة ويخلدون فيها للأبد، وأن المشركين يدخلون النار كلّهم مفرقين على طبقاتها، وأنهم متفاوتون في الدركات على قدر تفاوتهم في الكفر والجرأة والأعمال السيئات، كما أن

المؤمنين يتفاوتون في الدرجات على قدر الأعمال الصالحات، وأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴿ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء/145].

ويوقن المؤمن بأن طائفة من المسلمين يسبق عليهم الوعيد فيدخلون النار، لما قابلهم الله بالعدل، وهم قوم قليلون جدا، فيكونون في الطبقة العليا من جهنم، لا تذرف أعينهم، ولا تسود وجوههم، ولا تشوه خلقتهم، ولا يغلّون بالسلاسل والأغلال، ولا يقرّنون مع الشياطين في الأصفاد، وأنهم يخرجون منها بشفاعة سيدنا محمد ﷺ، وأنهم يمكثون فيها على قدر أعمالهم، فمنهم من يغمس فيها غمسة ويخرج، ومنهم من يمكث فيها السَّاعة والسَّاعات، واليوم والأيام، والشهر والشهور، والسنة والسنين، وأطولهم مكثا رجل واحد يسمى هناد، هو آخر من يخرج من النار[1]، ويكون مكثه فيها قدر عمر الدنيا من يوم بدأت إلى يوم فنيت، جمعة من جمع الآخرة، وهي سبعة آلاف سنة لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج/47]، وأن يوم القيامة يوم واحد مقداره خمسون ألف سنة، وأن اليوم الذي يخرج منه هناد ولا يبقى أحد من المسلمين ممَّن قال ((لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ))، وإن مرة واحدة في عمره إلا ويخرج منها، ولا يخلد فيها إلا الكفار والمشركون والمنافقون، ويبقى ذلك اليوم يذبح الموت بين الجنة والنار، وهو على صورة كبش أقرن فحيل، فيصيح الموت عند موتها صيحة يسمعها الخلق كلهم، أهل الجنة وأهل النار، فيعرفها كل أحد من المؤمنين والكافرين، صغارا وكبارا، ذكورا وإناثا، من الإنس والجن، فيتيقنون كلهم بأن الموت قد ماتت، فينادي مناد من قبل الله تعالى: يا أهل الجنة خلودا لا موت فيها، ويا أهل النار خلودا لا موت فيها، فيفرح أهل الجنة فرحا لم يفرحوا قبله مثله، ويحزن أهل النار حزنا لم يحزنوا قبله مثله[2]، وتغلق أبواب الجحيم السبعة، فلا

---

(1) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، انظر: تخريج أحاديث الإحياء للحافظ العراقي رحمه الله (9/4).

(2) روى البخاري في صحيحه (1760/4) ومسلم في صحيحه (2188/4) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، قال: =

يفتح منها باب أبدا، وتتزين الجنان وتتزخرف، ولا تزال تتزين وتزيد في الخيرات والنعائم، كما يزيدون الكفار في كل يوم العذاب والعقاب الشديد أبدا.

ويوقن المؤمن برؤية الله تعالى في الجنة لقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة/22 - 23] لا يضارون في الرؤيا، ويرونه سبحانه من غير حصر في جهة ولا مكان، ولا أين ولا تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل، وهو سبحانه مخالف في ذاته وصفاته لجميع المحدثاث كما كان في الأزل، غني عن الزمان والمكان والأعوان، وكذلك فيما لا يزال، ولا يحيطون الناظّرون بشيء من علمه، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه/110]، أعني بشيء من علمه إلا بما شاء، ولا يزال الناظرون يزيدون علما ومعرفة وتوحيدا وتفريدا بالله سبحانه مع كل نظرة ينظرونه، فالرؤية لا تنتهي لكونها في كل جمعة أبدا، والعلم والمعرفة بالله سبحانه لا تنتهي أبدا، قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام/103]، وبكل رؤية حين يرى العبد ربه يزيد نضارة وبهجة في جسمه وصحته، وبهاء وجمالا ما دام الرائي يراه أبدا، قال تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ ﴾ [المطففين/24] فالمؤمنون يزيدون به علما ومعرفة أبدا، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، والأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون، وإن كانوا ناظرين إلى الله أبدا، أو سيد الوجود سيدنا محمد كذلك، وإن كان أكثر الخلق معرفة بربه، ومعرفته بربه تتضاعف مع كل رؤية أبدا، فلا يحيط به علما، وأحرى غيره من الأنبياء والمرسلين، وأحرى الصحابة والصديقين، وأحرى الأولياء الصّالحين، وأحرى الشهداء وأخيار المؤمنين، فحيث عجزت معرفة نبينا محمد ﷺ عن الإحاطة بمعرفة الله سبحانه على ما هو عليه من معرفة كمال الذات والصفات، ولا يعرف الكنه لذات الله إلا الله سبحانه، فهو عالم بذاته وصفاته وجميع أفعاله وسلطانه، لأن علمه تعالى متعلق بالواجبات والجائزات والمستحيلات، ولا واجب الوجود سوى ذاته تعالى وصفاته وجميع كمالاته.

=

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [مريم / 39]".

وأما من قال: كيف يعجز رسول الله ﷺ عن معرفة كنه الله سبحانه وقد أوتي من العلوم والمعارف كالبحور الزاخرة وعلم غيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصَّالحين بالنسبة لعلمه ﷺ كقطرة ماء من تلك البحور، لقول صاحب البردة:

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ الله مُلْتَمِسٌ   غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ

قلتُ: ذلك صحيح منصوص عليه مقبول من غير شك، ولكن وإن كانت معرفته ﷺ كذلك، وتتضاعف معرفته بربه مع كل رؤية سيراه أضعافا مضاعفة ما دام في الجنة أبدا، فلا يحيط به علما، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام/ 103]، وبصره عليه السلام من جملة الأبصار، لأنه محدث والله قديم، فكيف يعرف المحدثون من هو قديم؟ إذ لا نسبة بين المخلوق والخالق، ولا بين الرب والمربوب، وسيدنا محمد ﷺ عبد وهو سيد العبيد، فلا يقوم العبد مقام سيده، ولا يماثله ولا يجانسه ولا يضاهيه، وبمثل هذا أوصى ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام**»[1] إذ جاوزوا الحد في محبته، وصيروه وأمه إلهين اثنين من دون الله، قال البوصيري رحمه الله:

فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيه أَنَّهُ بَشَرٌ   وأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

وقال عليه السلام: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد**»[2].

وأيضا لا أحدا غير الله يتعلق علمه بالواجبات والجائزات والمستحيلات، فنبينا لا يتعلق علمه بذلك، وإذا كان الأمر كذلك فلا يحيط بالله علما، وهذا بيان شافي، والله سبحانه من الجهل معافي، لمن يشاء سبحانه لا إله إلا هو، فهذه معرفة أبديتها لكم عظيمة، من العلوم اللدنية المنيفة، يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قُلتُ: وحيث حصلت لكم هذه المعرفة، فنشرع في وصف الوضوء المعنوي بأوضح صفة، لأن البنيان لا يقوم إلا إذا كان صحيح الأساس، والذكر لا يرسم في القلوب والقوالب إلا مع الذكر بالمعرفة في جميع الأنفاس.

واعلم أن مبدأ هذا الوضوء إنما هو بالعلم والنية، فالعلم محصور في ثلاث

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده (23/1)، والبخاري في صحيحه (1271/3).

(2) رواه عبد الرزاق في مصنفه (417/10) من حديث يحيى بن أبي كثير مرسلا، وأبو يعلى في مسنده (318/8) من حديث أمنا عائشة رضي الله عنها.

قواعد وهي:

- أن لا تعمل شيئا مما لا تعلم.
- وأن لا تترك شيئا مما تعلم.
- ولا تزال تتعلم إلى حين الوفاة وإن كنت عالما، لقوله تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف/76]، و ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه/114]، وإن لم تكن عالما فقال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل/43]، وأهل الذكر: هم أهل العلم.

وأمّا النية؛ وهي الدوام على تعلم علم اليقين، وأن تبنى عليه جميع الأمور من العبادات وغيرها، واحترز من أن يكون اليقين مشوبا بشك، فيكون اليقين كلا يقين في حق المرتاب والشاك، إذ اليقين هو السَّالم من ذلك، لأن النيَّة هي: القصد إلى الشيء والعزم عليه، فإذا قصدت أن تفعل هذه الطهارة وغيرها من جميع المعاملات، وعزمت عليه على وفق العلم المحصور في الثلاثة قواعد المذكورة، لأن تعلم ذلك العلم لا يصعب على النساء ولا على الرجال، ولا على الشيوخ والكهول والأطفال العقال، مع توفيق الله ذي الجلال والجمال، فتكون إذ ذاك يا أخي محصلا لهذه الطَّهارة بشروطها، وقد أتيت البيوت من أبوابها، ولعل الله يكتبك في ديوان العلماء العاملين، وتحسب إن شاء الله من الأولياء المقرَّبين، ثم تشرع في الوضوء بحقيقته، ومتابعا لطريقته.

فإذا عقدت النية على وفق العلم، **فتغسل يديك** قبل إدخالهما في الإناء؛ بأن تقصد وتعزم على أن لا تؤذي بهما أحدا من خلق الله تعالى، إلا من أذن الشرع في إذايته، مثل: جهاد الكافرين والمحاربين ونحو ذلك مما يجوز للمؤمنين فعله شرعا، وأن لا يلمس بهما ولا بجميع بدنه إلا ما يحل له لمسه من ملامسة وقبلة ومباشرة، وأن لا تسخر يديك وجميع جوارحك الظاهرة والباطنة إلا في الواجبات والمندوبات والمباحات، وتكف جميع ذلك من أن تسخرها في المحرمات والمكروهات، فهذا أمر محتم على المريد في جميع الجوارح الظاهرة كاللسان والفم والمنخرين، لأن بعض الناس ينجسانها بسف غبرة تبغه، وهي نجسة محرمة على ما يأتي بيانه في الشرح الكبير إن شاء الله تعالى، وكذلك الوجه والعينين والأذنين ومسح الرأس ورد المسح والقدمين والبطن والفرج، فهذه الجوارح الظاهرة.

وأما الباطنة: فالعقل والقلب والروح والسر، فلا تسخر شيئا من ذلك إلا فيما يحل، وذلك تمضمض فاك بعد غسل اليدين بما ذكرناه، بأن تغسل بالقصد والعزم والقوى، وهي النية والعلم واليقين من الكذب والغيبة والنميمة والزور، وهو الباطل كله، فإذا خليته عما ذكر، فَحَلِّهِ بالذكر وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إن كانت لك قدرة على ذلك أو ترجى أن يسمع منك، وإلا فعليك بما تضمنه حديث رسول الله ﷺ حيث قال: «**شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك وملازمة بيتك**»[1]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة/105]، وبالصيام والصمت، وترك الكلام فيما لا يعني، والحمد والشكر والثناء على الله تعالى، وكثرة الصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ وعلى آله، والرضى عنهم وعن أزواج النبي عليهم السلام وعن كافة أصحابه، والدعاء الحسن لعامة المؤمنين وخاصتهم وأمرائهم بالتوفيق والهداية، وإفشاء السلام ورده، وإرشاد الضال، وإغاثة الملهوف.

وأما الاستنشاق والاستنثار في الوضوء الشرعي؛ فالاستنشاق: هو جذب الماء لداخل الأنف بريح الخياشم، والاستنثار هو: دفعه بالإعانة عليه بالسبابة والإبهام يمرهما عليه من أعلاه لأسفله مع مصاحبتهما للريح المذكور، وأما في الوضوء المعنوي؛ فالاستنشاق فيه: هو جذب الروائح الطيبة إلى داخل القلب، وذلك بمخالطة الأخيار وبالاستماع للتلاوة والمواعظ والأذكار، وأمَّا الاستنثار فهو: ترك مجالسة السفهاء والأشرار ومجانبة الأحداث والفجار، مع الإعانة عليه بالأصبعين المذكورين، هما: ملازمة العزلة والخلوة، والصمت عما لا يعني، وكثرة الصلاة والسلام على النبي ﷺ.

وأمَّا غسل الوجه؛ فتغسله من التوجه إلى المخلوقات، وأن تتوجه في جميع الأمور كلها لله تعالى ولا تطلبها إلا منه على الحقيقة، وإن طلبت الحوائج من عبيده فيكون ذلك على سبيل المجاز، وعلامة صدق الطلب أن لا تمدح من أعطاك لأجل إعطائه، ولا تذم من منعك لأجل منعه، بل أثن على من أعطاك إذ جعله الله لإطلاق الخير على يديه، ففي بعض الآثار: «**خير الناس من خلقه الله للخير وأجرى الخير على**

---

(1) رواه الترمذي في سننه (257/5) من حديث سيدنا أبي ثعلة الخشني، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

يده وشر الناس من خلقه الله للشر وأجرى الشر على يده»[1]، و«**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»[2]، وأن تغسل وجهك أيضا بالحياء من الخالق والخلق، وأنشدوا:

إِذَا لَـمْ تَخْـشَ عَـوَاقِبَ اللَّيَالِـي ... وَلَـمْ تَـسْتَحِ فَافْعَـلْ مَـا تَـشَاء

فَـلا وَاللهِ مَـا فِـي الـدِّينِ خَيْـرٌ ... وَلَا الدُّنْـيَا إِذَا ذَهَـبَ الحَـيَاء

وتغسل عينيك عن النظر لمحارم الله، لأن «النظرة الأولى لك، والثانية عليك»[3]، ولأن الأولى من غير تعمد؛ فيعفى عنها، والثانية مع التعمد فيؤاخذ الناظر بها، ولذلك قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور/30]، لأن ((مِنْ)) للتبعيض، وهو في النظر لما ذكرناه، والفرج لا تبعيض فيه لأجل التعمد، فاعلم ذلك.

وأمَّا غسل اليدين؛ فتغسل اليمنى بالشَّريعة واليسرى بالحقيقة، مع ما تقدم في غسل اليدين أولا، وذلك بأن تكون في جميع أحوالك بين الشريعة والحقيقة، فتقبض الشريعة في يمنيك، والحقيقة في شمالك، ولا تفرط في شيء منهما، **لأن من خرق الشريعة تفسق، ومن خرق الحقيقة تزندق، ومن جامع بينهما تحقَّق**، وكن أبدا بين الشريعة والحقيقة كما هو جسمك بين يديك طول حياتك.

وأمَّا مسح الرأس؛ فتمسحه من التدبير والاختيار مع الله تعالى.

وأما رد المسح؛ فيكون بتفويض الأمور للكبير المتعال، والرضى بما قضاه الله العظيم ذو الجلال.

وأما مسح الأذنين ظاهرهما وباطنهما؛ فهو بكفهما عن استماع اللهو ومزامير الشيطان، والاستماع للغيبة وللنميمة، وللكذب والأراجيف، والفحش من القول والخنا، فهذا مسح ظاهر الأذنين، وأما مسح باطنهما: فهو باستماع العلم والذكر

---

(1) رواه ابن ماجه في سننه (86/1) من حديث سيدنا أنس بمعناه، ولفظه: "إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه ".

(2) نص حديث رواه الإمام أحمد في مسنده (258/2)، والترمذي في سننه (339/4) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) إشارة إلى الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده (159/1) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولفظه: "لا تتبع النظر فإن الأولى لك وليست لك الأخيرة".

والتلاوة والقول الحسن وتدبر معنى ذلك، قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر/17 - 18]. وأمَّا إنشاد الشعر؛ فقال رسول الله ﷺ: «الشِّعر كلامٌ؛ حَسَنُهُ حَسَنُ الكَلَام، وقَبِيحَهُ قَبِيحُ الكلام»[1].

وأمَّا غسل الرجلين؛ فتداوم غسلهما بتداوم الاستقامة وبالسعي للواجبات والمندوبات والمباحات، وكفهما عن المحرمات والمكروهات، قال أبو الحسن الشاذلي[2] رحمه الله: "لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبا من معصية الله، ولا تصطفي لنفسك إلا من تزداد به يقينا، وقليل ما هم ".

انتهى الوضوء المعنوي الذي تضمنه قول الناظم: **"تَوَضَّأْ بِمَاءِ الغَيْبِ"**، فقد وَفَّيْتُ الكلام عليه بالاختصار والاقتصار، وسنأتي بالشرح الكبير كالشرح لهذه الجملة إن شاء الله تعالى، والله المُوَفِّق، وهو المُلْهِمُ سبحانه.

قولُهُ: "إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ ":

اعلم يا أخي أن المراد بقوله: **"إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ "**، وتقديمه الشرط في أول هذا الشطر، لأن جميع ما ذكرناه وما نذكره في الشرح الأكبر فجميعها مشروطة، وهذا السر الذي أشار إليه الناظم هو الشرط في جميع العبادات والمعاملات الإلهية كلها، فإذا انتفى الشرط انتفى المشروط، وهذا السر الذي صدر بشرطيته هو سر الأسرار، وأصل جميع أعمال الأخيار، وهو قول ((لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ))، لأنها شرط في جميع العبادات، فلو فرضنا يهوديا أو نصرانيا أو غيرهما من المشركين أنف من قول ((لا إله إلا الله))، واستكبروا، ونطق بها ولم يعتقد معناها، بل نافق بها خاصة، فأولئك لا ينفعهم عمل من الأعمال كلها، ولو قرأ القرآن كله عن ظهر قلبه، وقرأ جميع كتب التوحيد، ويعبد بجميع وجوه العبادات القولية والفعلية، وجاهد وزكى ماله وصام، وغير ذلك من خصال الإيمان والإسلام، فلا ينفعه شيء من ذلك بغير النطق والاعتقاد

---

(1) رواه أبو يعلى في مسنده (200/8)، والدارقطني في سننه (155/4) من حديث أمنا عائشة رضي الله تعالى عنها.

(2) أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الحسني الإدريسي المشهور بالشاذلي شيخ الطائفة الشاذلية نشأ ببلدة شاذله (قرية بأفريقية) فاشتغل بالعلوم الشرعية حتى أتقنها وصار يناظر عليها مع كونه ضريرا. ثم سلك منهاج التصوف وجد واجتهد حتى ظهر صلاحه وخيره وله أحزاب محفوظة وأحوال ملحوظة توفي بصحراء عيذاب سنة 656 هـ (قاله المناوي في طبقات الأولياء).

لقول ((لا إله إلا الله))، وأعماله كلها محبوطة، لقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر/65]، والأعمال المحبوطة كالميتة لا تنفع شيئا، وإن هذه الكلمة الطيبة المباركة هي أصل الأسرار الربانية والمواهب الإلهية، وهي أصل كرامة الأولياء ومعجزات المرسلين، وبها يكون الدخول لجنة الخلد، وبها يستحق المؤمن رضاء رب العالمين، ورؤية ذات أحكم الحاكمين، ووجه المناسبة بينها وبين هذا الوضوء المذكور حتى جعلها شرطا في صحة ذلك أن الكفر نجس لقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة/28] الآية، وقول ((لا إله إلا الله)) مرة واحدة يُطَهِّر ذلك النجس من حينه، ويصير بنفس قولها واعتقادها وليا لله تعالى لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران/68] إذا استعمل هذه الطهارة وبناها عليها، وصلح يقينه وعلمه ونيته، فربما يصير من حينه من الأولياء المخصوصين المقربين، ولذلك قال عليه السلام: «**يصلح المرء من حينه، ومن صلح كان الله وليه**»(1) وهذا معنى قول الناظم: "**إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ** ". والله المُوَفِّق، وهو المُلْهِم سبحانه.

قولُهُ: "وإِلَّا تَيَمَّم بالصَّعِيدِ أَو الصَّخْرِ ":

فالمراد به - والله أعلم -: أنك إذا لم تجد ماء الغيب الذي يتطهر به المتطهرون، بأن لم تكن من أهل اليقين، وأنت من أصحاب السِّر المذكور، فقد أشار عليك بما يرجى خيره ونفعه، كالمتوضئ الوضوء الشرعي إذا عدم الماء المطلق، فيجعل بدله التيمم بالصَّعيد، وهو التراب الطَّاهر أو الصَّخر، وهي الحجارة الطَّاهرة، ويتيمم على ذلك فتصح صلاته ولا يرتفع بها حدثه، وكذلك هذه الطهارة المعنوية إن لم تكن من أهل اليقين فتيمم بالصعيد، والمراد بذلك مخالطة أهل اليقين، لأن الطبع يسرق من الطبع، فيقتدي بأهل اليقين، وتهتدي بهم حتى تصير من أهل اليقين، فتصح عبادتك قبل أن تكون من أهل اليقين، وتثاب على عبادتك لأنك من أصحاب السر المذكور لصحته عندك، وهو في حوزك وأنت من أهله، وهو قول: ((لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ))، فتصح عبادتك بهذا التيمم بالتراب، وهو مجالستك لأهل اليقين مع وجود جنابتك المعنوية، لأنها حدث أكبر تصح معه الصَّلاة بالتيمُّم، وهنا كذلك.

---

(1) لم أقف عليه فيما بين يدي من مصادر، والله أعلم.

فإذا أثمرت فيك خلطة أهل اليقين، فإنك تغرس أشجار اليقين بأرض قلبك، فتنبت وتعظم وتثمر فتصير من أهل اليقين، فيرفع الحدث الأكبر، وهي الجنابة المعنوية لما تطهرت بماء الغيب.

فإن قيل: وما هي الجنابة المعنوية؟

قلتُ: الجنابة هنا المراد بها: الغفلة عن طاعة الله، والانهماك في معصية الله، مع هذه الجنابة بدوام الإصرار على المعاصي، والشاهد على ذلك قول تاج الدين في حكمه رضي الله عنه: "**كيف يُشرقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوانِ مُنْطَبِعَةٌ في مرآته؟ أمْ كيف يرحلُ إلى الله وهو مكبَّلٌ بشَهواته؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرةَ الله وهو لم يتطهَّر من جَنَابَةِ غَفَلاتِهِ؟**"[1] فانظر فقد سمى تاج الدين الغفلة جنابة، كما أن الجنابة الشرعية تمنع من الدخول في الصلاة والتلبس بها من غير تيمم، وكذلك الجنابة المعنوية تمنع صاحبها من الدخول لحضرة الله من غير تيمم، وقد عرفناك بالتيمم على الصَّعيد.

وأمَّا قوله: "أو الصَّخْرِ": أي أنك إذا لم تجد ماء الغيب الذي يرفع الحدث، فلا غنى لك من التيمم بالتراب، وهو خلطة أهل اليقين، فإذا عدم الماء والتراب فلا يُعْدَم الصَّخر، وهي الحجارة في أرض لا تراب فيها، فتيمم على الصَّخر في عدم التراب، والصخر هنا المراد به هي مجالس المذكرين، وأهل الوعظ من أهل التوريق بقراءة كتب الوعظ والتذكير على العوام، وإن عدم الوراقون فلا يعدمون الخطباء في كل أرض تقام فيه الجمعة، إذ لا يخلوا الخطيب من وعظ وتذكير، وإن كان الغالب على أهل هذا العمل من الورّاقين والخطباء أنهم يتخذون ذلك صناعة ليجمعوا بها حطام الدنيا والترفع بها عند أربابها، وهذه المقاصد كلها خبيثة، والعياذ بالله من ذلك، لأنهم لا يتدبّرون ما يقولون ولا يؤثر فيهم شيئا ما به ينطقون، ولهذه الحالة سماهم صخرا، وأخر التيمم عليهم عن التراب الذين هم أهل اليقين، فأهل اليقين بمنزلة التراب، فإنه لا يتكون غرس ولا فواكه ولا أثمار ولا غيرها من المنافع إلا من التراب والماء، وكذلك أهل اليقين تنبت فيهم الحكمة لربهم باليقين الذي هو ماء الغيب، فسيفيد منهم من يخالطهم بالاقتداء بالأفعال والاهتداء بالأقوال، لأنهم رضي الله عنهم لا يأمرون بشيء إلا وكانوا أول عاملين به، ولا ينهون عن شيء إلا وكانوا أول تاركين له،

(1) الحكم العطائية بشرح ابن عباد، (الحكمة الثالثة عشرة)، (ص: 48).

فالانتفاع بهم حاصل ومظنون على كل حال، لأنهم ورثوا هذه الأخلاق المحمودة من رسول الله ﷺ، ولذلك قيل: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[1]، إذ ورثوا عنهم الأقوال والأفعال والأخلاق، وهؤلاء العلماء هم الذين تشد لهم الرحال، ويكونون للمؤمنين على بال، وأمَّا علماء السوء الذين قيل فيهم: لا يتدبَّرون ما يقولون، ولا يفعلون ما يأمرون الناس بفعله، ولا يتركون شيئا ممَّا ينهون النَّاس عن تركه، ولذلك سمَّاهم الصخر الذي لا ينبت نباتا ولا فواكه ولا مقتاتا، بل ربما ضررهم أكثر من الانتفاع بهم، لكن رعى فيهم الناظم رحمه الله الاستظلال بالصخور والتحصن بالحصون المبنية، ولذلك لا ينتفع بظلها والتحصن بها مع كونها مجردة إلا إذا كانت جماعة منها مركبة، وكذلك علماء السوء يستكثر المريد من مجالستهم والاستماع من أقوالهم، فلعل سهم صائب ولا يتقلب المستمع منهم إلا بمنفعة فيكون غير خائب، وربما كلمة ينتفع بها سامعها أكثر من الناطق بها، ولذلك تجدهم يجتهدون في الفصاحة وينطقون بالبراعة، ولذلك لا ينتفع بأقوالهم إلا الأفراد دون الجماعة، لأن الكلام إذا خرج من القلب لم يسكن حتى يدخل القلب، فينتفع صاحب القلب، وإذا خرج من اللسان فلا يجاوز الأذنان، فلا ينتفع به إلا من كان واعيا ذلك، كأنه يستمع من الرحمن، ولذلك قال ﷺ: «**سيأتي في آخر الزمان قوم يقرؤون القرآن، ويتمردون على الرحمن، أصواتهم أحلى من العسل، وأفعالهم أنتن من رائحة البصل، لا تجاوز قراءتهم حناجرهم، منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود، أولئك شر من تظل السَّماء**» ويرحم الله القائل حيث يقول:

فَهَـلْ أَفْسَدَ الـدِّينَ إِلَّا المُلُـو ... كُ وَأَحْـبَار سُـوءٍ ورُهْـبَانُهـا
أَضَـاعُوا الـنُّفُوسَ وَلَـمْ يَـرْبَحُوا ... وَلَـمْ يَغْـلُ فِـي البَـيْعِ أَثْمَانُهَـا
لَقَـدْ وَقَـعَ الـنَّاسُ فِـي جِـيفَةٍ ... تَبَـيَّنَ لِلـنَّاسِ إِنْـتَانُهَا

وإنما أمر الناظم بالتيمم على هؤلاء الصخر وغالبهم على هذه الأحوال الخبيثة، قلنا: إنما أمر بالاستماع منهم لأنهم موجودون كثيرون ولا يقولون باطلا أصلا، وإن كانوا غير موفقين لما يقولونه، فربما ينفع الله بعض من يستمع منهم بسبب أقوالهم، فلذلك أمر الناس بالإنصات للخطيب والوراق ونحوهما، رعاية لما قال سيدي أحمد

(1) هو حديث نبوي؛ رواه: أحمد (196/5) وأبو داود (341/2) والترمذي (48/5) وابن ماجه (81/1) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

زروق[1] رحمه الله في صدد شرحه على المباحث الأصلية قال: "**تشاجر الحق والباطل، فغلبه الباطل فقتله، فخاف أن يطلب به فأحرقه، فجاء أهل الحق ففر منهم الباطل، وجمعوا رماد الحق وجعلوه في المحابر وكتبوا به الكتب، فمن أراد الحق في زمننا هذا فلا يجده إلا في الكتب**"، ولذلك عبر النظم رحمه الله: بالتيمم على الصخر، وما ذاك إلا ليسمعوا المستأجرين الحق للناس، لأن يسمعوا الناس ما تضمنته الكتب والخطب من الحق، ولا تجد أحدا منهم متطوعا بذلك بل ربما يتعدى على بعض المساجد، فيأكل الخطيب ما عين له وما لم يعين، ولذلك لم ينفعهم الله تعالى بعلمهم ولا بقولهم، والمثال في ذلك أن العالم منهم كالشمعة يحرق نفسه ويذيبها، وينتفع الناس بناره أو بنوره إن كان له نور، ولذلك قال بعض العارفين المحققين: "**اجن الثمار واترك الأعواد للنيران**"، فلذلك قالوا: "**رُبَّ كلمة ينتفع بها سامعها ويحرم منها قائلها**"، والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

قَولُهُ: "وقَدِّم إِمَاماً كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ ":

فالإمام في اللغة هو: المتبوع، والمأموم هو التابع، وفي اصطلاح أهل الحقيقة كذلك، فالمراد بالإمام هنا المؤمن إذا كان مدمنا على عمل الكبائر والكفار والمشركين كلهم، لكون الكافر يفر من الإسلام، ودعوة سيدنا محمد ﷺ تتبعه حتى عمت الآفاق كلها بحمد الله تعالى، فعلى هذا الإمام هو الكافرُ حيث فرَّ من الحق إلى الباطل، والمأموم هو التابع له، وهو رسول الله ﷺ طول حياته، فكانت سيرته يتبع الكفار وإن جفوه وبالغوا في إذايته، وهو يتبعهم بالمواعظ وإظهار المعجزات وبالقتال، وهم لم يزالوا فارين منه وهو يتبعهم حرصا على هدايتهم وصلاح عاقبة أمرهم، فهو لهم مأموم بهذه النسبة إن قهرهم بالسيف وردهم للأيمن طوعا وكرها، فَحينئذ رجعوا إلى الله تعالى واتقوا، وصار هو متبوعا في طاعة الله وعبادته، وصاروا هم تابعون لفرضه

---

(1) شهاب الدين أبو العباس احمد بن احمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة نشأ يتيما فكفلته جدته حتى بلغ العشر وحفظ القرآن وتعلم صناعة الخرز ولما بلغ السادسة عشر قرأ الرسالة على الشيخين علي السطحي وعبد الله الغفار قراءة بحث وتحقيق والقرآن على جماعة منهم الفوري والزرهوتي واشتغل بالتصوف والتوحيد له تآليف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير. توفي رحمه الله سنة 899 هـ (معجم المطبوعات لسزكين 965/1).

وسنته، وكذلك عصاة المؤمنين لم يزالوا هاربين من سنة رسول الله ﷺ وطاعته وطاعة الله، ولم تزل العلماء والأولياء يتبعونه بمواعظ الكتاب والسنة إلى أن استيقظوا من نوم الغفلة وسكرة الهواء وبادروا للتوبة بالرجوع لله على قدم الصدق، فحينئذ ينبغي للتائب أن يعزل نفسه عن تلك الإمامة ويتخذ سيدنا محمداً ﷺ إماما باتباع الكتاب والسنة وما اجتمعت عليه أئمة الأمة، فهذا معنى ما أشار إليه الناظم بقوله: "**وقَدِّم إِمَاماً كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ** "، والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

قَولُهُ: "وَصَلِّ صَلَاةَ الفَجْرِ فِي أَوَّلِ العَصْرِ ":

اعلم أخي أن الناظم عبَّر بالنهار عن العمر كله، فنهار كل إنسان مدة عمره، فلو طالت مدة حياة الإنسان مائة سنة مثلا لكان شبابه هو أولها، وإليه الإشارة بالفجر، ولما كانت وقت العصر أواخر النهار، كذلك عبر بالعصر عن أواخر العمر، ولمَّا كان حال كل مسلم على ما ذكرناه وأوان موته مجهول لا علم لأحد بيوم موته، والناس مختلفون، فمنهم من يموت كهلا، ومنهم من يموت شيخا، ومنهم من يبلغ أرذل العمر، فصار كل إنسان صغيرا كان أو كبيرا في عصر يومه فيكون مخاطبا بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى، وليتدارك ما فرط فيه من عبادة ربه، ويصلي صلاة الفجر وهي الطاعة والعبادة التي فاتته في فجر عمره، أي في حال شبابه بأن يسرع الرجعة لله تعالى باعتقاد التوبة النصوح، وهي التوبة الدَّائمة، وسأبينها في محل ذكرها في الشرح الأكبر بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى، فينبغي له أن يفعل العبادة المأمور بها في فجر يومه، وهو حال مخاطبته بعبادة الله تعالى بخطاب والديه في السَّبع سنين الذي هو زمن الأثغار غالبا، أو بخطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين، وهو زمن البلوغ، وهو باجتماع العقل، وعلامة البلوغ بالحيض والحمل والإنبات والسنين في حق الأنثى، أو بخروج المني والإنبات والسنين، وهي ثمانية عشر سنة إن لم يظهر حيض ولا حمل ولا إنبات للأنثى، وفي حق الذكر تكون السنون علامة للبلوغ إن لم يخرج له مني ولا إنبات، فالسنون والإنبات يشترك فيها الذكور والإناث، ويختص الذكر بخروج المني والإناث بالحمل والحيض، فمن كان عاقلا بالغا فهو المكلف المخاطب بأصول الشريعة وفروعها، ومن كان عاقلا غير بالغ أو بالغا غير عاقل فلا يخاطب بأصول الشريعة ولا فروعها، ولكن يختص العاقل غير البالغ بخطاب والديه بالصلاة وبالتفريق في المضاجع، فينام منعزلا عن غيره في ثوب يخصه، وهذا هو فجر كل إنسان، وعبادته

في هذا الحين هي صلاة الفجر، ومن أخر التوبة إلى عشية يومه وهو وقت أول العصر، لأن العصر هو أول العشية، فيعبد الله بما فاته في فجر يومه أن يقضيه ويجتهد في تحصل جميع عبادة ربه حين انتباهه من نوم الغفلة، فذلك الوقت هو أول عصر يومه، لأنه إذا أمسى فلا يحدث نفسه بالصَّباح، وإذا أصبح فلا يحدث نفسه بالمساء، وهذا معنى قوله: "**وَصَلِّ صَلَاةَ الفَجْرِ فِي أَوَّلِ العَصْرِ**" فها هو مبين بأحسن بيان، والحمد لله على ذلك، والله هو الموفق، والهادي إلى أحسن طريق سبحانه.

قَولُهُ: "فَهَذِي صَلاةُ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ ":

يعني أن العارفين بربهم أكثر أكابر الأولياء والصَّالحين، لم يكونوا موفّقين في حال شبابهم، بل كانوا عصاة مذنبين، وعن ذكر الله وطاعته غافلين، فلما كانوا في أواخر أعمالهم تداركهم الله بعفوه ومغفرته، فتابوا وفتح الله عليهم وبلغهم حضرة القدس في الحين، بفضله وإحسانه وجوده وامتنانه، كالفضيل بن عياض[1] رضي الله عنه كان قاطعا للطريق، سفّاكا للدماء طول حياته، فلمَّا كان أواخر عمره تاب الله تعالى عليه، وحسنت توبته وصار من أكابر الأولياء رضي الله عنهم، وسأذكر سبب توبته في هذا المحل في الشرح الكبير إن شاء الله تعالى، وأمَّا من كان موفَّقا في حال صغره مثل معروف الكرخي[2] رضي الله عنه، فإنه قد بلغ مقام الرجال من خمس سنين، والله أعلم، فأمثاله قليلون، والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

قَوْلُهُ: "فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَح البَرَّ بِالبَحْرِ ":

النَّضحُ هو: رَشُّ الماء باليد، والبَرُّ المراد به هنا الشريعة، والبحر: المراد به الحقيقة، وشرح قوله " فانضح البر بالبحر " بَيِّنٌ بما ذكرناه، كأنه يقول لك: كن في حال

---

(1) أبو علي الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه ابن مسعود بن بشر التميمي ثم اليربوعي خراساني المنشأ من ناحية مرو من قرية تعرف بقندين. مات بالحرم الشريف سنة 287 هـ رضي الله عنه. ومن كلامه رضي الله عنه أهل الفضل هم أهل الفضل ما لم يروا فضلهم. وكان يقول من أحب أن يسمع كلامه إذا تكلم فليس بزاهد. (الطبقات الكبرى ص 65).

(2) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي وهو من جملة المشايخ المشهورين بالزهد والورع والفتوة مجاب الدعوة يستسقى بقبره وهو من موالي علي بن موسى الرضا رضي الله عنه صحب داود الطائي رضي الله عنه ومات ببغداد ودفن بها سنة 200 هـ وقبره ظاهر يزار ليلا ونهاراً رضي الله عنه. ومن كلامه رضي الله عنه إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل وفتح له باب الجدل. (الطبقات الكبرى ص 69).

تلبسك بالشريعة ملازما للحقيقة، ولا تفرط في الشريعة في حال الأمر والنهي، ولا تخرج عن الحقيقة في حال القضاء والقدر، وداوم على ذلك إلى حين الموت، والله الموفق سبحانه.

فَهذا آخر ما أردنا من الشرح الأصغر، يتلوه الأكبر، فأشرع فيه هاهنا إن شاء الله تعالى، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.



وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

هذا أَوَانُ الشُّروعِ في الشَّرْحِ الأَكبَر، لِيَكونَ كَالشَّرحِ للشَّرْح الأَصْغَر.

الحمْد لِله رب العالمين، والصّلاة والسلام على سيد المرسلين، والرضا عن آله وأزواجه والصديقين، وعن جميع الصَّحابة والتَّابعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اعلم يا أخي أنَّني أرتب عمل الوضوء المعنوي والطَّهارة المعنوية على ترتيب الوضوء الشرعي والطهارة الشرعية، ليكون عمل العبادات بكمال تمام الغسل من الجنابة المعنوية، وأرتب أبواب هذا الكتاب وفصوله على جميع ما يتعلق بالطهارة الحسية بتوفيق رب البرية.

تمهيد

عمل هذا الكتاب في ذكر برنامج ما فيه من الأبواب والفصول والتنبيهات ليسهل النظر فيه لذوي الألباب، على أن تكون أصول هذا الكتاب على خمسة أبواب، وتتميّز عن غيرها بقولي بكل باب، هكذا الباب الأول من أصول هذا الكتاب في كذا، والباب الثاني من أصول هذا الكتاب في كذا، إلى آخر الأبواب الخمسة، وبتمام الكلام على هذه الأبواب يتم هذا الشرح بإذن الله تعالى، ويحتوي على أبواب كثيرة وتنبيهات وفصول، وأن تكون مبنية على تلك الأصول، والله الموفق وهو الملهم والهادي سبحانه.

الباب الأول من أصول هذا الكتاب في قول الناظم:
"تَوَضَّأْ بِمَاءِ الغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ"
فتفطّنوا لهذا العمل يا أولي الألباب.

اعلم يا أخي أن هذا البابَ لا يتم الكلام على مسائله إلا في سفر من الأسفار،

وهذا برنامج الكتاب كله فتأملوه يا أولي الأبصار، فأقول لك أن تقول: هذا باب فاخر في أمور مهمات من العلم الظَّاهر، فمن ذلك باب في ما ينبغي تقديمه لأجل التنزيه من معرفة أقسام البشرية وعلم تنزيه الألوهية، فأمَّا الكلام على معرفة البشر، فيحتوي على أربعة أقسام، ثم فصلين اثنين في ذلك المقام، وأما الكلام على التوحيد الظَّاهر الذي يليق بحال من هو عامي قاصر فيحتوي على ثمانية وعشرين فصلا، وكلها قسم واحد مكملا، ثم قسم ثاني في معرفة الدين، فيحتوي على سبعة فصول تجتلى، ثم تنبيه حسن العبارة، ثُمَّ ثمانية أبواب في أوصاف الطهارة، أول ذلك أن تبتدئ بالعلم، أي باب العلم، ثم باب النية، وتأخذ ماء من اليقين وتصفيه في آنية الخوف وتدفيه بنار الشَّوق، وتكون الأعواد من الرجا موسوقة من جبل الكريم، وتروح عليه بنسيم القرب، وتدخل في قبة الإرادة، وتجلس على كرسي الرضى، وتغرف الماء بالكتاب والسنة، وتستبرئ بالإقلاع عن المعاصي، وتستجمر باليقظة، وتستنجي من أثر الذنوب والعيوب بالتوبة، ثم غسل اليدين قبل إدخالهما في الإناء ثلاثا مفترقتين، حاصلهما ستة فصول، الفصل الأول والثاني مشترطان في وصف الطَّهارة، لأن متعلقهما واحد، وكذلك الفصل الثالث والرابع والفصل الخامس والسَّادس بأن تغسل اليمنى بالرضى بقضاء الله تعالى وقدره، واليسرى بالرضى والتفويض وتسليم الأمور كلها لله تعالى على الإطلاق، وتمضمض فاك ثلاثا، فينتهي الكلام فيما يتعلق بالمضمضة في أربعة فصول، والفصل الرابع منها يحتوي على فصلين، الفصل الأول في المرة الأولى من المضمضة بأن تغسله من الكذب والغيبة والنَّميمة وقول الزور والخصام بالفجور، ومن الباطل كله، وفي المرة الثانية من المضمضة بأن تغسل فمك بالصمت بملازمة الصيام والجوع، فهذه ثلاث فصول في المضمضة، والفصل الرابع في السواك وهو ملازم للمضمضة، ويشتمل هذا الفصل على فصلين، الفصل الأول منهما وهو الرابع من فصول المضمضة بأن تسوك فمك بالشكر، والفصل الثاني منهما وهو الخامس باعتبار فصول المضمضة أيضا وهو أن تغسل لسانك بحسن الخلق، لأن السواك في الفم عرضا وفي اللسان طولا فلذلك اشتمل فصل السواك على فصلين، وتستنشق منخريك ثلاثا وتستنثر ثلاثا، والأصبعين اللذان تستنثر بهما وهما السبابة والإبهام وهما لازمان لذلك لتستخرج بهما رطوبة المنخرين، فينتهي الكلام في ذلك في ثمانية فصول متوالية الفصل الأول من ذلك أن تستنشق الرائحة الطيبة، وذلك بحضور مجالس الأخيار،

الفصل الثاني تستنشق ترك مخالطة الأرذال والأشرار، الفصل الثالث تستنشق في المرة الثانية التذكير وكثرة الصلاة والسَّلام على البشير النذير صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وملازمة تلاوة القرآن، الفصل الرابع تستنشق في المرة الثانية بترك اللهو كله ومفارقة الأحداث، الفصل الخامس تستنشق في المرة الثالثة بملازمة الذكر آناء الليل وأطراف النهار، الفصل السادس تستنثر في المرة الثالثة بالفقر، الفصل السَّابعُ الأصبع السبابة الذي تستنثر به وهو بالمراقبة، الفصل الثامن في الإبهام وذلك يكون بالمحاسبة وتغسل وجهك ثلاثا وعينيك وتخلل شعر لحيتك الخفيف أو الكثيف باعتبار الغسل من الجنابة فينتهي غسل الوجه في خمسة فصول، الفصل الأول في الغسلة الأولى بأن تغسله بالتوجه إلى الله تعالى في كل شيء، الفصل الثاني في الغسلة الثانية فتغسل وجهك بالحياء، الفصل الثالث في الغسلة الثالثة للوجه فتغسله بالعبودية، الفصل الرابع في غسل العينين بترك النظر للأجنبيات، الفصل الخامس في تخليل شعر الوجه بدوام الحزن والبكاء والدموع من خشية الله تعالى وتغسل يديك إلى المرفقين ثلاثا لكل يد وتخلل أصابعهما فينتهي غسلهما في سبعة فصول، الفصل الأول والثاني بأن تغسل اليمنى بالإيمان واليسرى بالإسلام هذا في المرة الأولى والثانية، الفصل الثَّالث والرَّابع في غسلهما معا في المرَّة الثانية وذلك بأن تغسل اليمنى بالشريعة واليسرى بالحقيقة، والفصل الخامس والسادس في المرة الثالثة فاليمنى تغسلها بالعزلة والخلوة واليسرى بالمجاهدة، والفصل السَّابع في تخليل أصابع اليدين بالجود والسخاء وتمسح رأسك أولا بترك التدبير والاختيار مع الله تعالى وترد مسح الرَّأس بالعقل وفي غسل الجنابة المعنوية تخلل شعر رأسك بالتوحيد والمعرفة فتلك أربعة فصول، وتمسح صماخ الأذنين بترك استماع الغيبة والنميمة والكذب وفحش القول ومن الاستماع للهو ومزامير الشَّيطان، وتغسل جلدتي أذنيك باستماع العلم وتلاوة القرآن والقول الحسن وتدبر معناه وبالسَّماع على طريق أهل الحقيقة، وتغسل أعضاء بدنك كلها مرة مرة بصب الماء والتدلك وذلك بترك الشكوى من ألم البلوى، وفي هذا المحل ثمانية عشر فصلا، الفصل الأول في معنى صب الماء، فالماء هو الصبر لكي يعم جميع البدن، الفصل الثاني في التدلك وتقدم بيانه وهو بترك الشكوى من ألم البلوى، الفصل الثالث في غسل العنق بتقليل مؤن الدنيا وأثاثها وحوائجها، الفصل الرابع في غسل العضد الأيمن بالمحبة، الفصل الخامس في غسل العضد الأيسر بالشوق، الفصل السَّادس في

غسل الجانب الأيمن بالغيرة، الفصل السَّابع في غسل الجانب الأيسر بالصحبة لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ﴾ [النساء/36]، الفصل الثامن في غسل الصدر بالتَّصوف لأنه عبارة عن صفاء البواطن وهو المعبر عنه بسلامة الصدور، الفصل التاسع في غسل القلب ويشتمل هذا الفصل على فصلين، الفصل الأول منهما بالحرية والثاني بالفتوة، الفصل العاشر في غسل باطن القلب بمعرفة القلب والروح والنفس، الفصل الحادي عشر في غسل البطن بالورع، الفصل الثاني عشر في غسل الظهر ويشتمل على فصلين، الأول منهما بترك الطمع، والثاني بترك الغيبة لأنها من الذنوب والعيوب الظاهرة، الفصل الثالث عشر في غسل المقعدة والوركين والفخذين بالعلم النافع والتحديد من الضار السيّئ، الفصل الرابع عشر في غسل مخابع الجسد كما تحت الحلق والإبطين والصرة وما بين الإليتين والرفغين وذلك كله يغسل بالولاية، الفصل الخامس عشر في غسل الركبتين وما تحتهما بالهيبة والأنس، الفصل السَّادس عشر في غسل السَّاقين بالسَّفر والإقامة، الفصل السابع عشر في غسل القدمين بالاستقامة، الفصل الثامن عشر في الفوز في جميع ما ذكرناه أو يذكر بعد، الفصل التاسع عشر في تجفيف الأعضاء بمنديل الكرم، الباب الثَّامن عشر في ذكر نواقض الوضوء المعنوي والطهارة الكبرى المعنوية، وهو تنبيه في فساد هذه الطهارة بنواقض الوضوء الحسي، وهذا الباب يحتوي على فصلين، الفصل الأول منهما في نواقض الطَّهارة المعنوية، الفصل الثاني في شروطها، ويحتوي هذا الفصل على سبعة فصول، والفصل السابع من هذه الفصول يحتوي على تنبيه واحد وهو يحتوي على خمسة فصول، فمبلغ عدد فصول الشروط اثنا عشر فصلا، وتنبيها آخر كلها في الفصل الثاني دون الفصل الأول الذي هو في نواقض الوضوء، وما رتبت هذا الترتيب إلا أن النفوس ترتاح إلى الفنون المختلفة، هذا وإن كان فن واحد ففصوله ليست على نسق واحد، فاعلم ذلك، ثم يلزمك أن ترى هذه الأمور كلها من الله تعالى ولا ترى شيئا منها لنفسك ولا بحولك وقوتك، الفصل الثاني أن تحمل الأذى كله، الفصل الثالث أن لا يبقى في قلبك ذكر غير ذكر الله تعالى، الفصل الرابع أن لا تهوى لغير الله وأن تحب الصَّالحين من أجله، والحب فيه والبغض فيه، الفصل الخامس أن لا تستغني بأحد غير الله تعالى، الفصل السَّادس أن لا تحب الدنيا الغرارة، الفصل السَّابع أن يجتمع حبك كله لله في الله، ثم نذكر بعد هذا تنبيها، فأقول تنبيه وإعلام في ما خص الله تعالى به أمة سيدنا محمد عليه الصَّلاة والسَّلام،

وسنأتي ببعض خصائص هذه الأمة في أوائل السفر الثاني في شرح قول الشيخ رحمه الله: "إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍ " إن شاء الله تعالى، الفصل الأول من هذا التنبيه في تسوية أمة سيدنا محمد ﷺ مع نبيهم حبيب الله عليه السلام في اثنتا عشر شيئا كلها بينت من القرآن، الفصل الثاني من هذا التنبيه في تسوية أمة سيدنا محمد ﷺ مع خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السَّلام في اثنا عشر شيئا، كلها بنصوص بينة من القرآن أيضا، الفصل الثالث من هذا التنبيه في تسوية أمَّة سيدنا محمد ﷺ مع كليم الله سيدنا موسى عليه السلام في اثنا عشر شيئا، كلها بنصوص بينة من القرآن إلا الثاني عشر بحديث من الصحيح، الفصل الرَّابع في تسوية أمَّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله مع روح الله سيدنا عيسى عليه السلام في اثنا عشر شيئا، كلها بنصوص من القرآن إلا الحادي عشر والثاني عشر من الحديث الصَّحيح، الفصل الخامس في تسوية أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله مع الحبيب والخليل والكليم والرُّوح في شيئين زائدين على ما ذكر قبل، وكذلك تساوي هذه الأمة المعظمة جميع المرسلين في هذين الشيئين، عثرت على هذين الآيتين بعد ذكر ما احتوت عليه الفصول الأربعة، استخرجتهما من القرآن بتدبر في آياته ومن تدبر القرآن ربما يجد شيئا آخر والله أعلم، وَاعلم أن كل آية من هذين الآيتين تقتضي تسوية أمة سيدنا محمد مع جميع الرُّسل فستقف على ذلك بمحله إن شاء الله تعالى، البابُ الأول في خاتمة الطهارة المعنوية وذلك بالدعاء الذي يدعوا به المتوضئ بعد فراغه من الوضوء، واعلم أن حاصل هذا الفصل هو الأمر بالدعاء، وسنتكلم عليه في هذا المحل من هذا الكتاب إن شاء الله بما يبين حكمه وبعض معانيه، والمطلوب من هذه الإشارة أن الدعاء مطلوب عقب كل عبادة، وستراه بينا إن شاء الله تعالى في خاتمة السفر الأول من هذا الكتاب لأن بتمام شرح هذه الأبيات من برنامج هذا الشرح يختم هذا السفر المذكور إن شاء الله تعالى، ثم نقول في أول السفر الثاني، الباب الثاني من أصول هذا الكتاب في شرح قول الناظم إن كنت ذا سر، وهذا مبدأ الجملة الثانية من هذا البرنامج، وبتمام الجملة الثانية يتم جميع الكتاب والله الموفق.

السفر الثاني في قول الناظم رحمه الله تعالى: "إن كنت ذا سر":

اعلم يا أخي أن هذا هو الباب الثاني من أصول هذا الكتاب، واعلم أنَّ هذا الباب

شرط صحَّة في جميع ما يحتوي عليه هذا الكتاب، ما مضى منه وما يأتي إن شاء الله تعالى، **واعلم** أن فروع هذا الباب كثيرة نقتصر منها على عشرة أبواب مهمَّة، الباب الأول في ذكر ما بقي من الأسرار التي خص الله بها أمَّة سيدنا محمد النبي العربي الهاشمي المكي المختار، الموهوبة لهم من الله الكريم الغفار، وخصهم سبحانه بها دون غيرهم من سائر الأمم بمحض الفضل، البَابُ الثَّاني من فروع هذا الباب في آداب التَّائبين الدَّاخلين في هذه الطَّهارة، الباب الثالث في كرامات الأولياء الواصلين من الذكور والإناث أجمعين، الباب الرَّابع في فراسة المقربين العارفين، الباب الخامس في بعض وصايا المريدين السَّالكين المحبين، الْبَابُ السَّادِسُ في حفظ قلوب المشايخ المسلكيين والمربين، الْبَاب السَّابعُ في رؤيا الأبرار والمقربين، البَابُ الثَّامنُ في أحوالهم عند الموت وفرح بعضهم وخجل البعض من الورود على رب العالمين، الْبَابُ التَّاسع في بعض أخلاق سيد المرسلين سيدنا ومولانا محمد إمام المتَّقين والعابدين صلى الله عليه وصحابته أجمعين، ويحتوي هذا الباب على ثلاثة عشر فصلا، الْفصْلُ الْأولُ في بيان تأديب الله تعالى له بالقرآن، الفَصْل الثاني في بعض محاسن آدابه صلى الله عليه وعلى آله، الفصل الثالث في بيان جملة أخرى من أخلاقه وآدابه صلى الله عليه وسلم وعلى آله، الفصل الرابع في بيان كلامه وضحكه صلى الله عليه وسلم وعلى آله، الفصل الخامسُ في آدابه وأخلاقه في الطَّعام عليه من الله أطيب الصَّلاة وأزكى السلام، الفصل السَّادس في بيان بعض أخلاقه وآدابه في اللباس صلى الله عليه وسلم وعلى آله، الفصل السَّابع في بيان عفوه مع القدرة صلى الله عليه وسلم وعلى آله، الفصل الثامن في بيان أعضائه وكل ما يكره صلى الله عليه وسلم وعلى آله، الفصل التاسع في بيان بعض سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم وعلى آله، الفصل العاشر في بيان بعض شجاعته وبأسه صلى الله عليه وسلم وعلى آله، الفصل الحادي عشر في بيان تواضعه وحسن خلقه صلى الله عليه وسلم وعلى آله، الفصل الثاني عشر في بيان بعض وصف صورته وخلقته صلى الله عليه وسلم وعلى آله، الفصل الثالث عشر في ذكر بعض آياته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فهذه نبذة من شمائله وهي من الأسرار الموهوبة له من الله الكريم الستار صلى الله عليه وسلم وعلى آله من غير اكتساب ولا قراءة ولا تعليم آداب، بل كان مجبولا عليها من أول نشأته إلى أن أنزل عليه خير كتاب، فزاده الله تعالى به تأديبا مع ما كان عليه من

السجايا المذكورة في طبعه، موهوبة من رب الأرباب، واعلم أنني ألحق بآخر هذا الفصل بابا في بعض مشاهير الأحاديث في بعض معجزاته التي بمحضر الجمع الكثير والجم الغفير من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله، ثم نذكر بعد ذلك بابا حسنا في فضل الصلاة والسلام على حبيب الله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، إذ هي من جملة الأسرار الموهوبة للنبي المختار صلى الله عليه وسلم وعلى آله، ويشتمل هذا الباب على خمسة فصول الفصل، الأول في فضيلة الصلاة على النبي صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله والدعاء له، الفصل الثاني في المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسلام على سيد الأنام سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسَّلام، والفصل الثالث في بعض الكيفيات المرويات عنه في الصَّحيح من غير تكثير لوضوحها في كثير من المجامع البينات صلى الله عليه وسلم وعلى آله، الفصل الرابع في ذم من لم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله عند سماع ذكره أو الصلاة عليه أو شيء من أنسابه عليه السَّلام، الفصل الخامس في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول أمر مهم صلى الله عليه وسلم وعلى آله، ثم نأتي في آخر هذا الفصل بتنبيه حسن لنختم به هذا الباب الأحسن في ذكر لا إله إلا الله، إذ هي سر الأسرار، فذكرت بعض فوائدها وخصائصها في افتتاح الأسرار، ونختمها بها بتوفيق الملك الغفار، كما نذكر هنا بعض معانيها وتفسيرها وأسمائها لمن يريد الأمن والإيمان، وتفاؤلا لنا لعل الله تعالى يختم لنا بذكرها، ويجعلنا محسوبين من الفقراء والمساكين المحبين لحبيب الرحمن صلى الله عليه وسلم وعلى آله في كل حين وأوان، ويشتمل هذا التَّنبيه على مقدمة وتنبيه آخر وثلاثة فصول وخاتمة، فَالمقدمة في الحض على ذكر الله في سائر الأحوال، ونسمي هذا التنبيه فنقول تنبيه في تفجير الأنهار خلال رياض سر الأسرار، الفصل الأول من هذا التنبيه في فضل لا إله إلا الله، والفصل الثاني في بعض تفسير لا إله إلا الله، والفصل الثالث في مبلغ عدد أسماء لا إله إلا الله، ثم نذكر آخر هذا الفصل خاتمة أسميها تتمة الأسرار في بعض معاني بعض الأذكار، وتحتوي على تنبيه واستذكار في بعض فوائد الأذكار، وبتمام شرح هذه الجملة من السفر الثاني يتم الكلام على قوله: "إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍ ".

ثم نشرع في بعض ما يتعلق بالباب الثالث من أصول هذا الكتاب في بيان معنى

قول النَّاظم: "وقَدِّم إِمَاماً كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ " ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول، الفصل الأول في وجوب اتباعه وامتثال أمره والمحافظة على سنته والاهتداء بهديه صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله، ثم نذكر آخر هذا الفصل تنبيها لعمل مؤكد وهو في بعض ما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله، والاقتداء بهديه وسيرته عليه السَّلام، والفصل الثاني في القدير من مخالفة البشير النذير صلى الله عليه وسلم وعلى آله، والفصل الثالث في توقيره وبره بتعظيم قدر أهل بيته وصحبه صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وبتمام الكلام على هذه الفصول ينتهي ما يدخل تحت قول الناظم رحمه الله: "وقَدِّم إِمَاماً كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ ".

ثمَّ نشرع في ذكر الباب الخامس من أصول هذا الكتاب في قول الناظم رحمه الله: "**وَصَلِّ صَلَاةَ الفَجْرِ فِي أَوَّلِ العَصْرِ** " وهو كفيل بشرح قوله:

فَهَـذِي صَـلاةُ الْعَارِفِـينَ بِـرَبِّهِمْ   فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَح البَرَّ بِالبَحْرِ

ويكون هذا على سبيل الاختصار، لأن ما يتعلق به من البيان تقدم لنا في السفر الأول بالدليل والبرهان، فلا فائدة في التكرار بلا فائدة تزيد في البيان، فانظره إن شئت في فصول قدمتها في هذا الكتاب، والله يهدينا بمنه للصَّواب، فنتكلَّم على ذلك الآن بسبيل الإجمال، وقد قدمنا أكثر ذلك في الشرح الأول ما فيه غنية لمن اقتصر عليه من النساء والرجال، ونتكلم على هذا الباب في هذا المحل أولا على سبيل الإجمال، ثم نشرع في شرحه بالإطناب والكمال، فنبتدئ فيه بذكر ما يتعلق بشروط الصَّلاة الشَّرعية ليقاس عليها ما نرومه من ذكر شروط الصَّلاة المعنوية.

فصل في بيان الكسوة المعنوية

فاعلم يا أخي أن الكلام هنا متسع، وفيه طول ولا بدّ لنا من ذكر برنامج يحصره ويلمه، وهذا محله وأوانه، وبتمام هذا البرنامج يحصر جميع ما يحتوي عليه هذا الكتاب، والله هو الهادي والملهم للصَّواب، ولا علم لنا إلا ما علمنا رب الأرباب، سبحانه لا إله إلا هو الكريم الوهاب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

واعلم يا أخي أن هذا أول هذه الجملة الآخرة من برنامج هذا الكتاب، هي آخر ما نريده من هذا الشرح، والله يلهمنا ويوفقنا للعمل بما فيه بجاه سيدنا محمد وآله ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران/8] وهذا مبدأ هذه الجملة بحمد الله تعالى، وهي أن تلبس الثوب الكامل،

وتردى بالإخلاص، وتشتمل بالخمول، وتتدرع بذكر الله تعالى، وتتحزم بمضمة حسن الظن، وتهلل بأسماء الله الحسنى، وتتقلد بسيف الحقيقة، وتأخذ بيدك درقة الجهاد، وتحبس بيدك عصاة العلم، وتنشر راية الوفاء، وتركب جواد الحق، وتسرجه بالحلم، وتمسكه بعنان صدق الصدق، وتكون اللّزمة من الصمت عما لا يعنيك، وتتجمل برداء المعرفة، وتتزود بالتقوى، وتمشي على الصراط المستقيم، فإذا أردت المشي عليه يتعرض لك أربعة أعداء، الدنيا والشيطان والنفس والهوى، فقاتل الدنيا بالآخرة، واحرق الشيطان بالذكر وتلاوة القرآن، فإنهما يحرقانه، وازجره بالعلم، وأذهبه بالملك، وقاتل النفس بالمخالفة، والهوى بحب الله تعالى، ولا بدّ لك من دليل يكون عارفا بالبلاد كلها، ويكون عنده مفاتيح الأبواب كلها، ويكون عارفا بالطرق كلها، وبهذه الطّهارة وبهذه الكسوة وفهمها، فَأوّل ما يفتح لك باب الفقر والعبودية، فتكون إن قمت بذلك كله من خاصّة أولياء الله تعالى، ومن أولياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله، ثم ترى نفسك أصغر من عشر عشر جناح البعوضة، والبعوضة قد طارت وأنت عاجز عن الطيران، وإنما ترى هذا كله من الله تعالى وحده، فتكون يا صاحب هذا الوصف من الذين قال الله عز وجل فيهم حيث قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة/222]، فهذه نهاية الطهارة بأسرها، ثم نختم هذا الكتاب بباب جامع من أحوال السالكين، وذكر منازلهم التسعة، وما يخص كل منزل من الأذكار والمقاصد والثمرات والوصايا والمعاملات، وغير ذلك ممّا يتعلق بقواعد الدين الثلاث، وهي قواعد الإسلام وقواعد الإيمان وقواعد الإحسان، والأصل في ذلك من حديث حبيب الله خالق الأرضين والسموات، والله يبلغنا في ذلك كمال الوصف على أفضل الحالات.

واعلم يا أخي أنني وإن أطنبت واستكثرت من البيان والإيضاح لطريق القوم الصوفية أهل النجاح والفلاح في هذا الكتاب الذي يضاهي حسنه الكوكب الوضاح، فإني لا أخرق فيه حجب الأستار، ولا نسفر عن وجوه الأسرار، صونا لها من إيداع السر لغير أهله، إذ ربما يطلع عليه أهل البدع والفجار فيدعون أن ذلك السر سرهم، وذلك المقام مقامهم، وتلك الأحوال أحوالهم، والله يعصمنا من الزيغ والزلل، وسوء الدَّعوى والتكاسل في الأحوال آمين، وسأذكر في أوائل السفر الثاني قصيدة من نظمي، وصية لذوي الأسرار من كشف الأستار، وأنها كفيلة بحفظ السِّر المصون والدر

المكنون، فعليك بحفظها وامتثال أمرها ترشد وتسعد إن شاء الله تعالى، وسبب الحفظ لهذه الأسرار لئلا يفتتن بها من لا ذوق له، فيفهمها على غير وجهها، فيصير من الأشرار، والشاهد لصحة ما قلناه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث قال لبعض الصحابة رضي الله عنهم: "لو أخبرتكم بما خصَّني به حبيبي صلَّى الله عليه وسلم من العلوم لقطع مني هذا البلعوم"، وأشار إلى حلقه وكذلك روى عن أبي هريرة[1] رضي الله عنه بمعناه[2]، وقال أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي طالب[3] رضي الله عنه وكرَّم وجهه في ذلك:

فَــرُبَّ جَوْهَــرٍ لَــوْ أَبُــوحُ بِــهِ ... لَقِيلَ لِي أَنْتَ مِمَّــنْ يَعْـبُدُ الوَثَـنا

وَلَاسْــتَحَلَّ رِجَــالٌ مُـسْلِمُونَ دَمِــي ... يَــرَوْنَ أَقْــبَحَ مَــا نُبَيِّــنُهُ حَــسَنَا

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[4] رضي الله عنه: دخلت المسجد يوما، فوجدت أبا بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما يتكلمان في علم من العلوم بلسان عربي مبين، ومع ذلك كنت بينهما كالجماد بين الحيوان، أو كما قال: ولم نعلم شيئا مما كانا يتفاوضان فيه ولا توهمته، والله أعلم بما قال، ولله درهم جميعا، ويشهد لصحة ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «علَّمني ربي أربعة علوم، علم أمرني بتبليغه للكافة فبلغته وما كتمت منهُ شيئا، وعلم أمرني بتبليغه لقوم مخصوصين سماهم لي فبلغتهم، وعلم خيرني في تبليغه لمن شئت فبلغته لمن رأيت فيه قابلية لفهم ذلك العلم، وعلم خصني به فلا أذكره لأحد أبدا إذ لا يحتمله عقل أحد سواي» وهذا معنى

---

(1) الدوسي اليماني، مات رضي الله عنه سنة 57 هـ. كانت له هرة صغيرة فكني بها، وكان يقول لولا آية من كتاب الله عز وجل ما حدثتكم بشيء أبداً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾، وكان يخدم الناس قبل صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطنه، وكان لا يسأل الناس شيئاً، وكان رضي الله عنه يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة، ويقول أسبح بقدر ذنبي.

(2) رواه البخاري في صحيحه (56/1) من حديثه رضي الله عنه قال: "حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم".

(3) باب مدينة العلم سيدنا على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، أبو الحسن الهاشمي (أمير المؤمنين، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم) مات سنة 40 هـ.

(4) الفاروق سيدنا عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي القرشي العدوي أبو حفص (أمير المؤمنين) من كبار وخيرة الصحابة، توفي رضي الله عنه سنة 23 هـ بـ المدينة.

الحديث، فانظر لفظه في محله، ويرحم الله الشَّاعر حيث قال:

فَمَــنْ مَــنَحَ الجُهَّــالَ عِلْمــاً أَضَــاعَه وَمَــنْ مَــنَعَ المُــسْتَوْجِبِينَ فَقَــدْ ظَلَــم

وَقَال عليه السَّلام: «**أنزلوا الناس على قدر منازلهم، وحدثوهم على قدر عقولهم**» والله الموفق، وهو الهادي والملهم سبحانه.

وهذا باب فاخرٌ في ما ينبغي تعليمهُ لأولاد المؤمنين من التوحيد الظاهر، لترويض قلوبهم على معرفة الله الباطن الظاهر الأول الآخر.

اعلم يا أخي عمَّر الله قلبي وقلبك بمعرفة الله، وشغلنا بطاعته عمن سواه، أن من شرط العبادة معرفة المعبود، وإلا كان العمل لغير الله، فيكون خراج فاسد مردود، لأن عبادة من لا يعرف إنما هي عيش النَّفس باتباع هواها، كأنها عبادة الأوثان للاتفاق ومعناها، ولذلك رأيت هنا أن أقدم معرفة التوحيد قبل كل قضية لتطمئن القلوب بذكر رب البرية، وتكون الأعمال خالصة لوجهه، ويكون العابد منورا بمعرفة ربه، فلذلك قدَّمت هذا العلم على بيان الوضوء المشار إليه، وهذا وجه المناسبة في تقديم هذه الأمور عليه، قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد/19] فقد أحال العباد على علم معناها وهو علم التوحيد المعلوم من مبناها، وَقال عليه السَّلام: «**من عرف نفسه عرف ربه**»[1] وقال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات/21]، فلذلك قدمت الكلام في علم البشرية، ثم نشرع بعد معرفة الرسل في معرفة أوصاف الربوبية، ثمَّ نتكلَّم في بيان أقسام الدين لينبني على صحة هذه الأمور معرفة هذا الوضوء المكين، إذ واجب على المكلف أن يسعى في إنقاذ مهجته ومهجة أهله وأولاده من النار، ويعلمهم ما يبيح لهم السكنى في جوار الله الحليم الغفار، فيعلمهم أولا قاعدة سهلة بينة من علم التوحيد بالنظر الصَّحيح السَّديد، ليخرجوا إن شاء الله تعالى من الخلاف الوارد في التقليد، ويعلمهم قواعد الإسلام وما يراد بها، وقواعد الإيمان ومعانيها، وقواعد الإحسان وما يراد بها، وقواعد القواعد وهي أربعة: دال ودليل ومستدل ومبين، فالدَّال هو الله تعالى حيث دل عباده على معرفته لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا

---

(1) قال الحافظ السيوطي رحمه الله: "هذا الحديث ليس بصحيح، وقد سئل عنه النووي في فتاويه فقال: أنه ليس بثابت، وقال ابن تيمية وقال الزركشي في الأحاديث المشتهرة: ذكر ابن السمعاني أنه من كلام يحيى بن معاذ الرازي" [الحاوي للفتاوى 355/3].

لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/56] أي ليعرفوني ويؤدوا حقي، والدليل هو القرآن هو الذي يستدل به المؤمنون، والمستدل باسم المفعول هو الموحدون المؤمنون، والمبين هو رسول ﷺ، ويعلم أولاده في حال صغرهم قراءة الفاتحة وما يحتاجون إليه من سور القرآن والتشهد والقنوت وسؤال القبر وغير ذلك من أمر دينهم، ويزرع في قلوبهم محبَّة النبي ﷺ ومحبة الشرفاء والعلماء والأولياء وجميع الأمة ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، واعلم أن هذا الباب على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في معرفة البشر والرسل منهم.

والقسم الثاني: في معرفة الله تعالى وتنزيهه عما لا يليق به.

والقسم الثالث: معرفة الدين والفرق بين الإيمان والإسلام.

والله الموفق، وهو الهادي والملهم سبحانه.

تنبيه

في ما ينبغي تقديمه للبرية

من معرفة أقسام البشرية وعلم أحكام تنزيه الربوبية

اعلم يا أخي أن البشر المراد به هو الحيوان الناطق، وهم ذرية آدم[1] عليهم السلام، الذكور والإناث، ولا فرق بين البشر والحيوان البهيمي، وهو المعبَّر عنه بغير الناطق، لأن أوصاف الحدوث شاملة لكل حيوان، وهي التحيز، وهو عدم انفكاكه عن الجهات الست، يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت، وهذا الوصف يدخل فيه جميع الأجرام، والجرم هو ما له ذات تعمر فراغا ويمتنع أن يحل غيره حيث حل، بل إذا تحرك من ذاك المحل وعمر غيره فيحل جرم آخر في ذلك المكان، وأما في المحل الذي هو فيه فهو في حق جميع الأجرام ممتنع، والفراغ هو ما بين السَّماء والأرض، فلا يعمر بعضه إلا الأجرام خاصة، وأما غير الأجرام فلا تعمر فراغا، كالرياح مثلا، لأن الخلق كلهم أعني العالم بأسره وهو جميع ما سوى الله سبحانه، كل ذلك لا يخلوا من ثلاثة أقسام، وهي الجرم والجوهر والعرض، فالجرم عرفناك به، والجوهر على قسمين،

(1) أبو البشر وأول الأنبياء وخليفة الله في الأرض والمنفوخ فيه من روح الله والمخلوق بيده سيدنا آدم عليه السلام، (البداية والنهاية لابن كثير 520/1).

جوهر مركب من جواهر مفردة كثيرة وهو الجرم، وكلما تكاثرت جواهره عظمت ذاته، كالأرض مثلا وجبالها لأنها متألفة من جواهر لا يحصي عددها إلا خالقها سبحانه لا إله إلا هو، وهو أسرع الحاسبين ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك/14]. وأمَّا الجوهر الفرد الذي ذكرنا أنه يتألف منه الجرم القليل بقليل الجواهر المفردة والكثير بكثيرها، فتعريفه أعني الجوهر الفرد هو الشيء الضَّعيف الحقير الدقيق المتلاشي الذي لا يمكن انقسامه من شدة الضعف والدقة، وهو الهباء الذي يظهر في هواء بيت مظلم إن دخلته لمعة شمس من فرجة صغيرة، فتظهر الجواهر في اللمعة متحركة تحركها الرياح فوقا وتحتا ويمينا وشمالا، ولا تظهر في غير ذلك اللمعة، وإن تألفت الجواهر المصوفة صارت جرما له ذات ظاهرة للحس في غير ذلك اللمعة، وتقدم بيانه، والدليل على حدوث الجواهر المفردة والجواهر المركبة المماثلة والتحيز في الجهات الست، فالجرم ظاهر في كل محل، والجوهر الفرد لا يظهر إلا في اللمعة المذكورة، فإذا ظهر فيها فبالضرورة تراه بعينيك متحيزا محصورا في الجهات الست، وأمَّا الأعراض فهي أوصاف الجواهر المفردة والمركبة من حركة وسكون وطلوع وهبوط وقعود وقيام ومشي وإفاقة وكلام وصمت ومرض وصحة وحياة وموت وبعث بعد الموت والفناء، وهذه الأوصاف لا تنحصر كثرة، وتقريبه كل ما ظهر من وجود إلى عدم ومن عدم إلى وجود، ولا بقاء له بل هو مضطرب أبدا ولا ينفك جرم عنه، فهو العرض والدليل على حدوثه المشاهدة كالجو مثلا، وهو ما بين السماء والأرض، فلا بقاء له على حالة واحدة بل تارة صحوا وتارة سحابا ثقيلة كثيفة، وتارة سحابا رقيقة خفيفة مرتفعة، واختلاف الرياح وجمعها وانفرادها والبروق والرعود وطلوع الشمس والقمر والكواكب وغروبها ودوام حركاتها في الفلك في كل نفس، وحدوث الخسوف والكسوف والرمي بالشهب والأمطار وكثرتها وقلتها والرعود والصواعق وحركات المياه في الأنهار وتلاطم الأمواج في البحور وغير ذلك، فهذا هو التعريف بالأعراض والأجرام والجواهر، وكلها حادثة، والله بخلاف ذلك كله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى/11].

واعلم أن الأجرام المتصفة بالأعراض التي تلازمها ولا انفكاك لها عنها على قسمين: جرم وجسم، فالجرم لا يخلو إما أن يكون ساكنا أو متحركا، فالساكن فهو

الجمادات كالحجارة والجبال ونحوها، والمتحرك على قسمين، فالقسم الأول: ما كان غضا طريا من الكلإ والأشجار في العمارة والسباسب، فالمعمور منها ما تسبب فيه الإنسان من حراثة وغراسة ونحوها والسّباسب التي تنبت من غير سبب الآدمي، وذلك كله سواء كان في البلاد المعمورة أو في الفيافي البلاقع الخالية، وَأمَّا الجسم فهو ما له نفس سائلة، وهو الدم، ويلازم الدم اللحم، وهو الذي يسمَّى الحيوان، لأن روح الحياة التي تتصف بالإدراك أعني تصحح لمن قامت به أن يتَّصف بالإدراك، لأن الإدراك يلازمها في جميع الأحوال بدليل النائم والمغمى عليه والمجنون والسكران السكر الطَّافح الذي لا يميز بين الذرة والفيل، فهولاء كلهم أحياء ولا إدراك لهم، فاعلم ذلك.

فصل في أقسام الْبشَرِ

اعلم أن البشر، وهم الآدميون على أربعة أقسام: كافرون ومؤمنون وأنبياء ومرسلون، فالكافر كل من جاءه البشير النَّذير، وهو الرسول عليه السَّلام، أو بلغته دعوته ولم يؤمن بالله ورسله، ومن شك في خبره أو أظهر الإيمان واعتقد الكفر، أو جحد قاعدة واحدة من قواعد الإسلام، أو سبَّ الله أو أحدا من المرسلين بعد ثبوت إيمانه، أو جحد ما علم من الدين ضرورة، فاعلم ذلك.

فصل في أقسام المؤمنينَ

اعلم أن المؤمنين على أربعة أقسام، بدليل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [فاطر/32]، وقال تعالى في حق هذه الأصناف الثلاثة ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [فاطر/33] فهذا واو الجمع جمعهم جميعا وحكم لهم بالجنة، قال ابن عبَّاس[1] وابن مسعود[2] رضي الله عنهم: الأصناف الثلاثة كلها في هذه الأمة المحمدية، وكلهم في

(1) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو العباس المدني (ابن عم رسول الله صلى الله عليه) المولود بالشعب والمتوفى رضي الله عنه بـ الطائف سنة 68 هـ.

(2) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن (صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم) المتوفى عام 32 أو 33 هـ بـ المدينة.

الجنة، وقاله أبو سعيد الخدري[1] رضي الله عنه، وقالت عائشة[2] رضي الله عنها: دخلوا الجنة كلهم، وقال أبو إسحاق كعب الأحبار[3]: استوت مناكبهم ورب الكعبة، وتفاضلوا بأعمالهم، وقال أبو إسحاق السبيعي[4]: أما الذي سمعت منذ ستين سنة كلهم ناج[5]. وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»[6].

قال المواق[7] في سنن المهتدين[8]: "ولا شك أن الراكن لهذا العموم مغرور، ما لم يقْفُ سنن المهتدين، فقد قال معروف الكرخي[9]: طلبُ الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظارُ الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، ورجاء رحمة من لا يطاع حمق وجهل ".

فالظَّالم لنفسه هم الظالمون، لأنهم ظلموا أنفسهم باتباع هواها، وهي أمَّارة بالسوء على وزن فعَّالة للتكثير، فلا يتصرف منها إلا الشر، فأولئك هم أصحاب القسم الأول، والمقتصدون هم أصحاب النفس اللَّوامة، فمهما وقع في الذنب تلومه نفسه فيفعل الخير، ولا يزال يفعل الخير والشر حتى يعفو الله عنه، قال تعالى: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا

---

(1) سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصارى، أبو سعيد الخدري، توفي سنة: 63 أو 64 أو 65 هـ وقيل 74 هـ بالمدينة.

(2) عائشة بنت أبي بكر الصديق التيمية، أم المؤمنين، أم عبد الله صحابية، المتوفاة سنة 57 هـ على الصحيح، وقيل 58 هـ.

(3) كعب بن ماتع الحميري أبو إسحاق، المعروف بكعب الأحبار (كان من أهل اليمن فسكن الشام أدرك النبي وأسلم في خلافة أبي بكر) من كبار التابعين، توفي رحمه الله في آخر خلافة عثمان.

(4) لم أجده، وإنما وجدت أبو الينبغي الشاعر نديم المنصور.

(5) انظر هذه الآثار في: تفسير الطبري (465/20 - 467)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (300/14)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (24/7).

(6) أخرجه البيهقي في البعث والنشور، انظر تخريج الكشاف للزيلعي (153/3).

(7) أبو عبد الله محمد بن يوسف العبدري المواق المتوفى سنة 897 هـ، فقيه أصولي مشارك له من المؤلفات "التاج والإكليل شرح مختصر خليل" و"سنن المهتدين". (معجم المطبوعات 20/1).

(8) سنن المهتدين (ص: 38).

(9) معروف الكرخي، أبو محفوظ البغدادي، «علم الزهاد، بركة العصر» كما حلاه الذهبي في السير، سئل عنه أحمد: هل كان مع معروف شيء من العلم؟ فقال: كان معه رأس العلم؛ خشية الله". توفي رحمه الله سنة 200هـ، وقد أفرد مناقبه الحافظ ابن الجوزي في مصنف وهو مطبوع.
تنظر ترجمته في: حلية الأولياء (360/8، 368)، وسير أعلام النبلاء (339/9).

وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة/102]، فهؤلاء هم أصحاب القسم الثاني، وأمَّا القسم الثالث فهم السَّابقون بالخيرات، وهو أصحاب النَّفس المطمئنة، فلا يتصور منهم إلا فعل الخير في الأقوال والأفعال والأخلاق، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝﴾ [الوَاقعة/10 - 11] الآية. وهذه الأصناف الثلاثة كلها موجودة في أمة سيدنا محمد ﷺ، ولا نظن أنَّها مخصوصة بحملة القرآن كله على ظهر قلوبهم، بل يعمُّ كل من قرأ من القرآن ولو فاتحة الكتاب خاصة، فهو من حملة القرآن، حمل منه قدر ما منَّ الله به عليه سبحانه، لأن الإرث لا يكون على التساوي، ويؤيد هذا الخبر الوارد في يوم القيامة أن رجلا من حملة القرآن يغضب الله عليه ويأمر به إلى النار، فكلما جروه ملائكة العذاب إلى النار تباعدت منه سبعين خريفا، فلم يزالوا كذلك إلى أن بعثوا، فاشتكوا لله تعالى بذلك، فأوحى الله تعالى إليهم: النَّار لا تحرق حملة القرآن، أعني من عمل به، إذ من عمل بآية منه كانت له حجَّة، ومن خالف آية منه كانت عليه حجة، فيقولون له ملائكة العذاب: يا ربنا وما كان يقرأ من القرآن؟ فقال: فاتحة الكتاب، فانزعوها منه، وألقوه في النار، فأول حرف من فاتحة الكتاب الألف الدَّال على وحدانية الله تعالى، فلم يزالوا يجبذونه ويستخرجونه من صاحبه حتى يسدوا ما بين الخافقين ولا يجدون أين يطرحونه، وهو لم ينتهي ولم يعلموا ما بقي منه، فيقولون: يا ربنا ما وجدنا أين نضع هذا الحرف؟ وأين يكون غيره من الحروف؟ فيقول تعالى: ذلك الحرف الواحد لا يسعه شيء إلا صدر صاحبه، ردوه له، فقد غفرت له. انتهى القسم الأول من أهل الإيمان.

القسم الثاني: الأولياء والصَّالحُون

قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الصافات/164]، فمعرفة الولي أصعب من معرفة الله سبحانه، وهذا قاله بعض المحققين، لأن الولاية لا يقطع بها على شخص معين، ولا ترفع عنه ما دام في الحياة وإن كان كافرا، لأن المرء يصلح بالتوبة من حينه، ومن صلح كان الله وليه، وقال عليه السَّلام: «**أخفى الله ثلاثة في ثلاثة، أخفى الله رضاه في طاعته، فلا تحقرن من طاعة الله شيئا، وأخفى غضبه وسخطه في معصيته، فلا تحقرن من معصية الله شيئا، وأخفى وليه في خلقه، فلا تحتقرن من خلق الله أحدا**»[1]،

(1) ليس هو بحديث، وقد ساقه العلامة المواق في سنن المهتدين (ص: 139) من كلام جعفر الصادق =

فمن أخفاه الله سبحانه فمن يطلع عليه إلا بتوفيق من الله تعالى، مع وجود حسن الظن والتصديق، فقد قيل خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير، حسن الظن بالله وحسن الظَّن بعباد الله، وفي هذا كفاية والله أعلم.

القسم الثالث: الأنبياء عليهم الصّلاة والسَّلام

قال تعالى: ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر/78] فيجب علينا الإيمان بهم كافة، والتصديق بما جاءوا به، ومحبَّتهم والصلاة والسلام عليهم، وأن لا يفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، وأمَّا التعريف بهم عباد الله تعالى من البشر، يجوز عليهم ما يجوز على البشر من الأمور الجائزة على البشر، مثل النكاح والطلاق والضرر غير المرض المنفر، فالأنبياء معصومون من كل ذنب ومن كل سوء في أجسامهم وأقوالهم وأفعالهم، والنبي هو: من أوحى الله تعالى إليه في ما يخصه وما يفعله في خاصة نفسه من غير أن يرسل إليه، بل يقوم بشريعة أحد من المرسلين في خاصة نفسه ولا يتعدى طوره، والنّبي اختلف فيه القراء فبعضهم يقرؤه بالهمز وبعضهم بالياء، فقراءة الهمز من النبأ، وهو الرفعة وعلو القدر، وقراءة الياء من الخبر، أعني الله تعالى أخبره بما يفعله في دينه، إما لأمر ينزل أو يدل على شريعة غيره.

القسم الرَّابع: المرسلون عليهم الصَّلاة وَالسَّلام

فهم رجال من البشر، من أشرف الناس وأوسطهم، أي من خيارهم، وهم معروفو الحسب والنَّسب، وهم معروفون بدلالة المعجزة، وهي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة، وفي زمن تصح به، لأنَّ هذا الزَّمان لا تصح به، بدليل قوله عليه السَّلام: «لا نبي بعدي»[1]، فكيف لا يعرف من يقول لك: آية صدقي إذا قلت لتلك الشجرة آتي واسجدي فتنقلع من حينها وتنقطع جميع عروقها وتأتي تسعى إليه على ساق بلا قدم، تجر عروقها وتخدد بها الأرض، وتسجد بين يديه وتكلمه وتشهد له بالرسالة، وأن من تبعه نجا ومن خالفه هلك، فالفعل الذي وقع من هذه الشجرة ليس

=

رضي الله عنه.

(1) رواه البخاري (1273/3، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح: 3268)، ومسلم (1471/3، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، ح: 1842).

هو من ذاتها ولا من فعل الرسول، إذ هو من البشر، والبشر معلوم بالعجز وعدم القدرة، وأدل دليل على أن المعجزة ليست من فعل المرسلين وليس لهم فيها سبب ولا علاج قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد/38]، فتبيَّن بهذه أن هذه المعجزة هي من أفعال الله تعالى، أظهر ذلك الأمر الخارق للعادة الذي لم يستطع أن يأتي به أحد من البشر، وهذا معنى عدم المعارضة، بل لا يقدر على ذلك وعلى أكثر منه إلا الله تعالى الذي خلق تلك الأشياء وأنشأها، ففعل بها هذا الفعل تصديقا لرسوله، لأن هذه المعجزة تتنزل منزلة قوله جل وعلا: "صدق عبدي في كل ما يبلغ عني "، وقد وقع لنبينا من هذه الخوارق ما لا يحصى كثرة، فمنها تسبيح الحصا في كفه عليه السلام، وتسليم الحجر عليه في الطرقات، وكفاية القليل من الطعام والقليل من الماء القوم الكثير، ووقوف الشمس له عليه الصلاة والسلام عشية غداة ليلة المعراج، إذ أخبر صلى الله عليه وسلم بقدوم العير من الشام فقال: غدا يدخلون قبل غروب الشمس، فجعل المشركون يرصدون الغروب، فحبس الله سبحانه الشّمس في السَّماء في قرب الأفق مقدار يوم بليلته، ولم تغرب حتى وفد العير، وآية انشقاق القمر وغيرها من المعجزات ما لا يخفى كثرة، وليس هذا محل ذكر المعجزات، لكن سنذكر جملة شافية من ذلك في السفر الثاني إن شاء الله تعالى، ومنها: عصاة موسى نبي الله عليه السَّلام التي كانت ترجع حية تسعى، وناقة نبي الله صالح، وغير ذلك من المعجزات، لكن معجزة الرسل انقطعت بانقطاع المرسلين، ولم يبق إلا صحة الخبر عنها في الكتاب والسُّنَّة، ودلالة رسالة نبينا محمد ﷺ وهي المعجزة، فأعظم معجزاته القرآن الذي تحدى له به الله تعالى، فقال جل من قائل: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة/23] الآية. وقال تعالى: ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء/88] أي معينا، فهذا القرآن هو أعظم المعجزات كلها، تراه باق لدينا من غير تبديل ولا تغيير لقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝ ﴾[البروج/21 – 22]، أي محفوظ من التبديل والتغيير، ومانع للمعارض، فلا يأتي أحد بمثله، فهذا ألف وصدر السنة السَّابعة والتسعين بعد الألف، وهو الحمد لله متلو بالحروف السَّبعة، ولم يوجد من الملحدين الكافرين من لدن نزوله حتى الآن من اختلق آيات تماثل بسورة ﴿ إِنَّآ

أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ التي هي أصغر سور القرآن باعتبار حروفها، وأي معجزة أعظم من معجزة نبينا ﷺ، فنحن والحمد لله إيماننا ثابت بدلالة المعجزة، من غير تقليد الآباء والجدود، لكن فضلهم علينا بالسبق للإيمان وتربيتهم لنا به وتعليمهم لنا الدين حتى كنا لا نعلم الدليل ولا المدلول ولا المستدل ولا المبين، فهم رضي الله عنهم قدموا لنا ذلك قبل كل شيء، فجزاهم الله خيرا، وزادهم خيرا بلا نهاية، آمين. قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن/60]، فأي إحسان مثل من أحسن إليك بمعرفة الإسلام وقواعده وفصوله وأصوله؟ وأي إحسان ممن علمك آية تماثل سورة ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ ليصحّ لك الاستدلال بمعجزة القرآن؟ وأحرى ممن علمك أكثر من ذلك من القرآن وغيره من حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم! فنحن عبيد لأسلافنا الذين نفعونا بالإسلام بسبقهم إليه، وورثناه عنهم، إذ لو لم يكونوا مؤمنين والعياذ بالله لكنا موثوقين بوثاق الكفر، والعياذ بالله، وقليل من نجا من أولاد الكافرين، فلا نقنع من شكر الوالدين، تمسكوا بهذا الدين حتى بلغوه إلينا سالما من التَّبديل والتغيير، اللهم ارحم والدينا وأسلافنا رحمة لا تغادر ذنبا ولا عيبا يا رب العالمين.

قلتُ: فإذا علمت الرسول بدلالة المعجزة، يجب عليك تمام معرفته، وذلك أنه يجب في حق المرسلين عليهم الصَّلاة والسلام ثلاث صفات: الصدق والتَّبليغ والأمانة، إذ من لم يكن موصوفا بهذه الصفات الثلاث كان موصوفا بأضدادها، وهي الكذب والخيانة والكتمان، وهو عدم التبليغ، أو كتمان شيء من الرسالة، فمن كان موصوفا بهذه الأوصاف فليس بنبيٍّ ولا رسول، لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسول، فقد عرفنا المرسلين بدلالة المعجزة لأنك تقدر كأن الله تعالى يقول: صدق عبدي في كل ما يبلغ عني، ولو كانوا كاذبين أو خائنين أو كاتمين شيئا لم يصدقهم الله تعالى بالمعجزة، إذ هي لا تظهر على غير يد رسول الله تعالى، وحيث ظهرت على أيديهم فهم صادقون أمناء مبلغون كل ما أمروا بتبليغه، وانظر ما قال الله تعالى في تصديق نبينا محمَّد ﷺ فقال تعالى للمسلمين: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة/3] أعني الدين هو ما لديكم من غير زيادة ولا نقصان، فأنا شاهد، يقول الله تعالى بأن نبيكم محمَّدا ﷺ بلغكم جميع الدين ولم يكتم منه شيء، وهو بريء من ذلك، فقد أبرأته براءة تامة، فتمسكوا بما جاءكم به تحشرون

معه، لأنه قال صلى الله عليه وسلم: «**المرء مع من أحب**»[1] وعلامة المحبَّة الاتباع، فمن لم تتبعه لم تحبه، لأن المخالفة لا تقع بين المتحابين أصلا، كيف وقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر/7] وقال تعالى في حقه عليه السلام: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران/ 31] وهذا الكتاب ما سعيت فيه إلا لنعلم الطريقة الموصلة لرضاء الله ولرضاء رسوله عليه السلام، اللهم كما أطلقت بناني في تقييده ورسمه، فأطلق جميع جوارحي الظاهرة والباطنة بالعمل لما فيه، يا رب العالمين.

فَصلٌ

وَاعْلَمْ يا أخي أنَّ الرَّسول ﷺ وكل رسول معرفون معلومون بدلالة المعجزة، والله تعالى معروف بآثاره وأفعاله، قال الحوضي[2] رحمه الله تعالى: الحمد لله دل عليه إيجادنا ثم افتقارنا إليه، وسيأتي بيان هذا المعنى قريبا إن شاء الله، فقد صحَّ قولنا، معرفة الولي أصعب من معرفة الله تعالى، فمتى تعرف خصوصية رجل مثلك يبيع ويشتري ويعامل الخلق بمثل معاملتك، ومماثل لك في جميع الأحوال، ولا ما يدل عليه من الكتاب ولا من السنة إلا الولاية العامة، والله ولي المؤمنين، ونحو ذلك، وَأمَّا الكرامات فلا يستدل بها على الولي، قال أبو يزيد البسطامي[3] رحمه الله تعالى: من رأيتموه يطير فلا يغرنكم بطيرانه، فإن الشيطان يطير، حتى يشهد له الكتاب والسنة، ولذلك قال: الاستقامة رأس كل كرامة، فمعرفة الولي صعبة جدا، عرفنا الله بهم وحشرنا معهم آمين.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه (2283/5، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله عز وجل، ح: 5816)، ومسلم (2034/4، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، ح: 2640).

(2) العلامة المشارك الفقيه المطلع إبراهيم بن سعيد بن علي بن محمد الرجراجي الحوضي المراكشي، له سرح على تحفة المطالع، توفي رحمه الله سنة 1190 هـ. (إتحاف المطالع 2409/7 كما في الموسوعة).

(3) أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي مات سنة 261 هـ من كلامه رضي الله عنه: مددت ليلة رجلي في محرابي فهتف بي هاتف من يجالس الملوك ينبغي له أن يجالسهم بحسن الأدب، وكان رضي الله عنه يقول: اختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد، ولقد عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشق على العبد من العلم ومتابعته. (الطبقات الكبرى ص 75).

فَصلٌ: في ذكر ما عهدت ذكره قبل، من ذكر طعام الأرواح وبيانه،

فاعلم أنَّ طعام الأرواح وقوتها هو التسبيح والتقديس والتهليل وتلاوة القرآن والمواعظ، لأن المواعظ وذكر الله تعالى هي قوت القلوب وطعام الأرواح، بدليل الملائكة عليهم السَّلام هم أرواح بغير أجساد، ولا طعام لهم سوى التسبيح والتقديس، فقال نعم ذلك طعام الأرواح، قلتُ: الآن، وممَّا يؤيد ذلك ما حكي أن رجلا نحيف الجسم وعلى وجهه أنوار تلوح للناظرين، وهو جالس خلف سارية لا يقوم من مجلسه ليلا ولا نهارا إلا إذا قام للصَّلاة، قال: ولازمت أن أراقبه ليلا ونهارا هل يتوضأ، فمكث على حاله أياما، فطلبته أن يسكن منزلي، فقال: على شرط، فقلت: وما هو؟ فقال: ألا تجيعني، فانطلق معي ففرشت له سجادة في بيت من داري وجلس عليها مستقبلا، وكنت آتيه بألوان الأطعمة وأتركها عنده، فإذا أصبح وجدت الطَّعام على حاله ولم يذق من ذلك ذواقا، فمكث على تلك الحالة مدة من أربعين يوما ولم يأكل ولم يشرب ولم يتوضأ، فقال لي: يا أخي قد أجعتني، فقلت له: يا سيدي هذه ألوان الأطعمة بين يديك ولم تذق منها ذواقا، فقال: يا أخي ذلك طعام الأشباح، وأنا ريَّضت نفسي حتَّى صارت إنسية وملكية، ولا طعام لها ولا قوت لروحي إلا المواعظ وذكر الله، وهذه مدَّة من أربعين يوما لم نسمع منك موعظة قط،، فاضطجع وتشهد ومات رحمة الله عليه، وهذا من أعظم الأدلَّة لصحَّة جوابي للشَّيخ اليوسي وفَّقنا الله وإيَّاك.

القسم الأول في معرفة الله بالعلم الظَّاهر:

اعلم يا أخي أنَّ أول الواجبات على كل مكلف شرعا، ولا يسع العبد جهله، هو معرفة الله تعالى بما قرره أئمَّة السُّنة رضي الله عنهم، كعقائد الفقيه الأجل البركة سيدي محمَّد السنوسي[1] رحمة الله عليه ورضي عنه، وعقائد غيره من أهل السنة السَّالمة من شوائب المعتزلة في ما يجب لله تعالى وما يجوز له وما يستحيل عليه تعالى، وأن

---

(1) الإمام أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الحسين الحسيني التلمساني المشهور بالسنوسي الأشعري جمع تلميذه الملالي في أحواله وسيره وفوائده تأليفا كبيرا في نحو سبعة عشر كراسا سماه بـ"المواهب القدسية في المناقب السنوسية" ومما قاله فيه: له في العلوم الظاهرة أوفر نصيب. توفي رحمه الله سنة 895 هـ.

يعرف المكلف ما يجب على الرسل عليهم الصلاة والسَّلام وما يجوز وما يستحيل عليهم، ليخرج المكلف من التَّقليد، وإن كان لا يكفر أحداً بترك النَّظر في ذلك على المشهور، لأن النَّظر واجب ولا يكفر المؤمن بترك الواجب، فانظر بيان ذلك وكيفية المخرج منه في تأليف لنا في ذلك انتصرت فيه للعلامة أي انتصار، وهو الذي سميته بـ ((**السَّيف المتين في الرد على من كفَّر عوام المسلمين**))[1]، وهو كتاب جليل جلبت فيه جميع ما اطلعت عليه من نصوص أئمَّة أهل السنة، فينبغي لمن وصله خبره أن يطالعه ليعلم سلامة عقائد العوام، ولم يكلفوا بما لم يكلفهم به النَّبي ﷺ، ولا الخلفاء بعده الهداة المهتدين لمن وفَّقه الله للإسلام رضي الله عنهم. وهذا مبدأ القسم الأول فاعْلمْهُ.

واعلم يا أخي أنه لا تدرك معرفة الله تعالى بسمع ولا ببصر ولا بتقليد، ولا تدرك إلَّا بتوفيق الله تعالى، فكم من عالم بلسانه خالي المعرفة بقلبه، وكم من جاهل أمي لم يقرأ قط ولا تعلم حكمة قط وتجده يفصح عن مشكلات العلوم، لكن أقوى الأسباب في معرفة الله تعالى، النَّظر الصحيح السَّالم بتفكر القلب في مصنوعات الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات/21]، ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ [الغاشية/17] وما يدل على النظر من الكتاب والسنة كثير، انظر السيف المتين ترى فيه ما يسرك إن شاء الله تعالى، ونذكر هنا ما صدر به سيدي عبد الرحمن اللجائي[2] رحمه الله كتابه ((قطب العارفين))[3]، مع زيادة فيه لنا في مواضع كثيرة من فتح الفتاح سبحانه، والله الموفق والهادي لمن يشاء، لا إله إلَّا هو.

فَصْلٌ

اعلم أن كل ما في الوجود من الأفعال على قسمين لا ثالث لهما: **قسم** يعلم بالمعالجة والتعليم، وهو صنعة الآدميين التي يعالجونها بأيديهم، مثل النجارة والخياطة والحياكة والكتابة وكل ما يدرك بسبب معتاد، **وقسم** ثاني لا يدرك بمعالجة ولا تعليم

---

(1) كتاب جليل للمؤلف لم أجد له أثر.

(2) الفقيه المتفنن الصالح المفيد أبو زيد عبد الرحمان ابن الفقيه أبي الربيع سليمان اللجائي من مدينة فاس، ومن أشياخه أبو العباس بن البناء، وحاز علومه بتحقيق، ووالده أبو الربيع أول من أدخل مختصر ابن الحاجب الأصلي إلى المغرب وعنه أخذ، مات رحمه الله سنة 773 هـ. (كما في "وفيات الونشريسي" 682/2 من الموسوعة).

(3) الكتاب صدر مؤخرا بتحقيق الدكتور محمد الديباجي.

مثل تصوير البشر من الماء وغير ذلك من أفعال الاختراع والاقتدار، فأمَّا الأفعال التي تعلم بالمعالجة والتعليم لا يصح وجودها من غير فاعل، فإذا أثبت بضرورة العقل أن جميع الصَّنائع والحرف كالحياكة والكتابة وغير ذلك ممَّا يدرك بالمعالجة والتعليم لا يصح وجودها من غير فاعل، ولا بدّ لها من صانع يصنعها ومعالج يعالجها، فإذا تأملت هذا وصحَّ لك وقطعت به فكذلك يثبت أيضا بضرورة العقل أنَّ الأفعال التي لا تدرك بالمعالجة والتَّعليم كتصوير البشر من الماء وما أشبه ذلك لها صانع صنعها، ومنظم نظمها، ومخترع اخترعها، ومتقن أتقنها، وهو الخالق الذي خلقها وصورها، وأيضا فإذا علم بضرورة العقل أنَّ الصَّنعة لا تقوم من ذاتها إلا من صانع حي عالم قادر مريد، لأن هذه الصفات الأربع شرط في وجود الفعل من الفاعل للصنعة التي تدرك بالمعالجة والتَّعليم، فأحرى ما لا يدرك بمعالجة ولا بتعليم، فكيف يتصور وجود الفعل من الماء من غير فاعل بل من ذات الماء خاصة، والماء لا يوصف بحياة ولا بعلم ولا بقدرة ولا بإرادة، ألم تر أن قرب الصنائع للتعليم صنعة نسج الحصر، فإنك تجد رجلا عاقلا قادرا عالما بجميع العلوم، غير أنه جاهل بصنعة الحصر، فإنه يعجز عن إيجادها بجهله، فإذا ثبت هذا فكيف يتصور وجود البشر من الماء من ذاته فقط من غير فاعل مختار، فهذا لا يكون، ويستحيله كل عالم وجاهل، فإذا علم ذلك علم أن الماء الذي هو النطفة التي خلق منها الإنسان وكل حيوان ناطق وغير ناطق فإنه يستحيل في العقل أنَّ النُّطفة تصور من ذاتها يدا ورجلا وسمعا وبصرا وكلاما وعقلا من غير صانع، فإذا علم أن الصنعة مفتقرة إلى الصَّانع، علم أنَّ الصانع ليس في وجوده شك، فتصوير البشر من الماء لا يدرك بمعالجة ولا بتعليم، لأن الخلائق كلهم يعجزون عن ذلك، وَاعْلَمْ أنَّ المخلوقات على ثلاثة أقسام، حيوان يعقل، وحيوان لا يعقل، وجماد لا يدرك، الحيوان العاقل على أن يعرفوا كيف يجد الإنسان ببصره الألوان المختلفة أو كيف يجد بسمعه اختلاف الأصوات أو كيف يجد بعقله الأرض والسَّموات أو يريدون من الجسد بعض تصويره إن نزع منه كيد أو رجل أو أصبع أو ظفر واحد بعد نزعه، أو يردون شعرة واحدة إلى محلها إن نزعت أو حبة عنب أو قمح أو غيره بعد النزع إلى محله، أو زهرة واحدة من سائر الأشجار والأعشاب، واتفق الجميع على رد بعض إلى محله بعد النزع، لاعترف الجميع بالعجز والتقصير إن طلب منهم ورده للقادر عليه وهو الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان/25].

فإذا عجز الحيوان الناطق عن رد ذلك لمحله بعد النزع، واعترف بالعجز والتَّقصير مع كونهم يتأتى منهم العقل والفهم والحيلة، فغير العاقل الذي لا يتأتى منه عقل ولا فهم ولا حيلة أعجز، فإذا أعجز الحيوان العاقل وغير العاقل، فالجمادات التي هي بمنزلة الموتى أعجز وأعجز وأبعد وأبعد، فإذا عجز الخلائق عن الشيء المخلوق أن يكيفوه أو يردوا ما زال منه فهُم عن نشأة التصوير من أوله أعجز، فهذا معلوم للعاقل ضرورة إذ كل إنسان يعلم أنَّ الأفعال التي لا تدرك بالمعالجة والتعليم لا تتصور ولا تنتظم ولا تنمو ولا تنقص ولا تتقيد إلا بقدرة مكون الكائنات، بلا معالجة ولا على مثال سابق ولا لاحق، بل إنما يقول للشيء كن فيكون، وهو الله وحده لا شريك له ولا معين ولا مثيل.

فصل

في معرفة الموجودات

والفرق بين الصفات الأزلية والصفات المحدثة

اعلم أنَّ الموجودات كلها على ضربين: محدث وقديم، فالمحدث كل موجود سوى الله تعالى، ووجود المحدث يتعلق به التقييد والتَّخصص لا انفكاك له من ذلك، لكونه محصور ومحيز بالجهات الست، وهو فوق وتحت ويمين وشمال وأمام وخلف، فالحوادث كلها أعني ذوات الأجرام، ولو كان جوهرا فردا، وهو الذي لا يتجزأ ولا ينقسم من شدة الضعف والدِّقَّة، وتعريفه هو الهباء الذي يظهر في البيوت المظلمة إن كانت الشمس تدخل إليه من فرجة صغيرة مخروقة يدخل شعاع الشمس منها للبيت، فالهباء الذي يظهر فيها هو الجوهر الفرد، وإن اجتمعت هذه الجواهر وتركبت بأن تنظم بعضها إلى بعض فيتألف منها جرم بقدر قلة الجواهر وكثرتها، والجوهر الفرد والمركب حادثان لأنهما متحيزان كما ذكرنا، وكل متحيز حادث، ودلالة حدوث الأجرام كونهم متألفين من جواهر متعددة، لأن كل ما يمكن انقسامه فهو جرم، ودلالة حدوث الأجرام ملازمتها للأعراض الحادثة بالمشاهدة، لأن الأعراض لا تقوم بنفسها، لأنها صفة من أوصاف الجرم، لأنها مفتقرة إليه على كل حال ولا تظهر إلا فيه، وهي مثل الحركة والسكون والقعود والقيام والصمت والنطق والضياء والظلمة والموت والحياة والمرض والصحة وحدوث الأرياح والرعود والبرق وعدم ذلك والسَّحاب

وتسييره والمطر والصحو وغير ذلك، فهذا كله لا يظهر إلا في الأجرام إذ جميع ذلك صفات الأجرام، فلمَّا كانت الأعراض حادثة بمشاهدة وجودها بعد عدمها وعدمها بعد وجودها لأنها كلها أضداد والضدان لا يجتمعان أبدا، فانظر للنور والظلمات والحركة والسكون والموت والحياة وقس على ذلك جميع الأعراض، لأنها لا يحصيها محدث، لأنها متعددة في شخص واحد، فأحرى جميع الأجرام، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر/31]، وكل فرد من الجنود المذكورة محدث، وكل حادث تلازمه أعراض لا تحصى، فلا يحصيها إلا الله سبحانه، فتبيَّن لنا أن الجواهر المفردة والمركبة حوادث لملازمتها الأعراض الحادثة بالمشاهدة، وملازم الحادث حادث، فهذه الصفات الحادثة.

وَأَمَّا الصفات الأزلية، فهي الوجود والقدم والبقاء، والمخالفة للغير، والقيام بالنَّفس والتنزه عن النَّقائص، والوحدانية والحياة والقدرة والإرادة والعلم والسَّمع والبصر والكلام، وكون الله المتصف بها قادرا مريدا عالما سميعا بصيرا متكلما، فإذا قست التبر بالتراب ظهر لك نقصه، وإذا قست الياقوت بالحجر الجلمود فقدته، لكن جدد النظر تزداد علما ومعرفة.

فأول الصفات الأزلية الوجود، والوجود نور، والجرم ولوازمه حوادث، والحوادث ظلمات، فتجد الفرق بينهما، وكذلك القدم الذي لا بداية له والعدم، فتجد الفرق بينهما، وكذلك البقاء الدائم مع الفناء فتجد الفرق بينهما، وكذلك المخالفة للغير والمماثلة فتجد الصفة الأزلية التي هي المخالفة للغير منزهة عن المماثلة، لأن جميع أوصاف الحوادث تماثل بعضها بعضا، وصفات الله كلها أزلية لا مثل لها، وإن تبعت جميع الصفات فيظهر لك الفرق بينها سريعا بحمد الله وشكره، ولنرجع لقولنا إن الموجودات كلها على ضربين، محدث وقديم، فالمحدث كل موجود سوى الله تعالى، ووجود المحدث يتعلق به التقييد والتخصيص، فالقديم هو الله سبحانه، ووجوده على الإطلاق، لأنه غير مقيد بزمان، ولا مخصوص بجهة ولا مكان، تنزه سبحانه وتعالى عن صفات خلقه، ليس هو بمتصل ولا بمنفصل، إذ كل متصل تلمسه الأيدي، وكل منفصل تدركه الأبصار، وهو سبحانه قاهر فوق عباده، وفوقيته فوقية الجلال والعظمة والكمال والرفعة والعزة والاقتدار، لا فوقية المكان والجهات، فإنه تعالى منزه عن الأماكن والجهات الفوقيات والتحتيات، بل هو غني عن جميع الجهات، بل هو متعال

عن الحلول في العرش في السَّموات، والتمكن بالاستقرار والمماسات، فالعرش بنفسه هو المكان، وله جوانب وأركان، والله تعالى مكون المكان، وهو سبحانه كان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، والعرش تكيفه العقول وتصفه بالعرض والطول، وهو مع ذلك محمول، وحملته محمولون بقدرة من لا يحول ولا يزول، سبحانه لا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد.

فَصْلٌ

في نفي القبلية والبعدية عن الله تعالى

فالله أزلي قديم، واسم القدم لله سبحانه موضوع لاسم القدم الأبدي الذي ليس قبله قبلية، ولا لله سبحانه بداية، أوجد منها نفسه، بل هو دائم في قدمه بلا بداية، ينتهي إليها قدمه، بل قدمه دائم قبل وجود الخلق بلا نهاية، وقدر سبحانه بمحض اختياره إيجادا ثانيا بعد الفناء الثاني، وسماه بعثا لجميع الأجساد الفانية بحيث تعود بعد الفناء بالموت إلى الوجود كما كانت قبل الموت بذاتها وهيئتها وجميع أحوالها، لا أنه يخلق لحما وعظاما ودماء وشعورا أخرى، بل تعود تلك الأشياء بعينها كما كانت في الدنيا في أسرع من طرفة العين، سبحان الله القادر على ما يشاء، الذي إذا أراد شيئا فإنما يقوله له كن فيكون، فلما استحال عليه سبحانه أن يكون ببقائه نهاية، استحال أيضا أن يكون لقدمه نهاية، تعالى عن ذلك علوا كبيرا، سبحانه لا إله إلا هو.

وسئِلَ بعضهم عن التوحيد، فقال: العالم كله موجود بين طرفي العدم، يعني مسبوق بالعدم وملحق به، والله تعالى موجود على الإطلاق، فلا بداية له ولا نهاية له، وهو المحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء.

فَصْلٌ

في نفي الحركة والسكون عن الله تعالى

اعلم أن الحركة والسكون لا يصحان إلا من تعاقب الأعراض على الأجسام والجواهر، لأن الأجسام والجواهر محل الأعراض كما تقدم، فإذا حلت الأعراض بالأجسام والجواهر تحركت، وإذا ارتحلت عنها سكنت، والله تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، فإن الجسم يمس والعرض يحس، لأنه يدرك بحاسة البصر كالحركة والسكون وغير ذلك، فَافهم.

فصلٌ في تنبيه حسن

اعلم يا أخي أن العالم بأسره على ضربين لا ثالث لهما، لأنه لا يخلوا إما أن يكون ساكنا وإما أن يكون متحركا، فإذا اتصف العالم بأسره بالحركة والسكون، والعالم بحركته وسكونه صنعة من صنائع الله تعالى، فاعلم أن الصنعة لا تشبه صانعها بصفة ولا بحال، والعالم بفتح اللام، هو كل موجود سوى الله تعالى، ولو اتصف الباري سبحانه بالحركة والسكون لكان فوقه محركٌ يحركه ومسكن يسكنه، فتصل العقول لمعرفته، لأن العقول يتأتى منها معرفة الحركة والسكون، لأنهما من صفات المحدثات، فيكون الذي فوقه من يحركه حادث، ثم ينظر في المحرك والمسكن له فيحكم له بمثل ذلك، فيلزم التسلسل فبهذا يبطل هذا التقدير، وأيضا فالحركة والسكون من صفات الحوادث لا من صفة القديم، لأن حدوثهما يدرك مشاهدة فيعلمه العالم والجاهل، فيعلم كل واحد أن الحركة والسكون ينقطعان وينعدمان بتعاقبهما، لأن هذه العلل لا انفكاك لهما عنها، لأن الحركة تبطل وتعدم عند مجيء السكون، والسكون يبطل ويعدم عند مجيء الحركة، وكل صفة تبطل وتعدم فهي محدثة، وصفة الله تعالى لا تبطل ولا تعدم ولا تتغير، لأنها من صفات الكمال، فلمَّا وجدته العقول لا تجوز عليه الحركة والسّكون عجزت عن التكييف والصفات، لأنَّ العقول لا تعرف إلَّا الحركة والسكون ولا تعرف لهما ثالثا أصلا.

فَصْلٌ
في نفي التَّخييل والتَّكييف والتَّمثيل والتَّلوين عن الله سبحانه

فكل ما توهم في وهمك أو تكيف في عقلك أو تمثل في نفسك أو تلون في فكرك فإن صفات الله عزَّ وجل بخلاف ذلك كله، فإنَّ صفات الله تعالى لا تدرك ببصر ولا ببصيرة، والله الهادي إلى الرشاد وهو الملهم سبحانه، واعلم أنَّ التَّلوين هو انقلاب الأحوال وتبديلها من حالة إلى حالة، فاعلم ذلك.

فَصْلٌ
في نفي التَّشبيه بين الخالق والمخلوق

فالله عز وجل لا يشبه المخلوقات في شيء من الصفات ولا الحركات ولا السكنات، ولا يستضيء بالأنوار، فإن نور الشمس والقمر والنجوم والمصابيح نور

مخلوق مستعار، ألم تر أنَّ الشمس تكسف والقمر يخسف والسراج يطفأ ويهلك جميع ذلك قطعا كهلاك جميع الأشياء لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص/ 88] فمن هو مسبوق بالعدم وموعود به لا يماثل القديم على الإطلاق، وهو الباقي على الإطلاق في شيء من الأشياء جل أو قل، وإن الله خلق جميع ذلك بمحض اختيار لتستضيء به تلك الأشخاص وينتفع بها الناس تكرما منه سبحانه وفضلا، مع العلم بأنه تعالى لا تجب عليه مصلحة ولا تستحيل عليه عقلا، بحيث علمت ذلك أنه من جملة الحوادث، فتعلم بذلك أن المحدث لا يشبه الحادث، وقد تقدم أنَّ الصَّنعة لا تشبه الصَّانع، وَهذا الأمر معلوم عند النَّاس وهو فيهم ذائع.

فَصْلٌ

في نفي الظلم والجور عن الله سبحانه

اعلمْ يا أخي أنه ليس في الوجود من الحوادث إلا خلق الله تعالى، ولا ملك في الوجود إلا ملكه، ولا معه شريك في ذلك ولا فوقه غيره، فحيث هو واحد في الملك فهو متصرف في ملكه بحكمه وإرادته، وحكمه ماض في خلقه، ولم يتصرف في ملك غيره فيتّصف بالجور والظلم والعدوان، بل هو القاهر فوق الكل، وهو رب الكل، وهو بكل شيء عليم.

فَصْلٌ

في نفي الشريك عن الله تعالى

اعلم يا أخي أنَّ الله عز وجل ليس معه ثان في ملكه ولا له شريك في أمره، بل هو واحد فرد فلا يماثل الخلائق، لأنه سبحانه كان واحدا على الإطلاق مع ثبوت القدرة له والقهر والغلبة والعظمة والجلال، منزه عن النّقص، موصوف بالكمال، هكذا كان وحده في الأزل، وهو كذلك في ما لا يزال لم يزل، مستمر الوجود وهو خالي الآباء لخلقه والأمهات والجدود، لأن من ثبت قدمه استحال عدمه، فلا يفتقر سبحانه لشريك ولا معين، فالمعين لا يتصور ولا يكون لأنَّ الله ما معه إلا خلقه، فكيف يعين المخلوق خالقه، فهذا محال، وأمَّا الشَّريك فإنه لا يخلو من وجهين، إما أن يكون غيرا أو يكون ليس بغير، فإن كان الشريك خارجا عن الغيرية فمحال في العقل، والمحال ما لا يمكن كونه، فقطع الكلام عنه أولى، وإن كان الشَّريك غيرا فالغيرية على ضربين، غيرية

مستقلة وغيرية غير مستقلة، فمن كان غير مستقل فهو محدث، والمحدث لا يكون شريكا للقديم، لأنَّهُ من جملة خلقه وملكه، وإن كانت غيرية مستقلة فلا تخلو من وجوه، إما أن تكون متجانسة أو متلاصقة أو متباينة أو متجاوزة أو متقابلة، فإن تعلق بالغيرية شيء مما ذكرنا فقد تعلق بها الحدث، ومن تعلق به الحدث فهو مخلوق وغير مستقل، والغيرية لا تنفك عن هذه العلل أصلا، والله عز وجل لا يكون صانعا لذاته ولا لشيء من صفاته، تعالى عن ذلك علوا كبيرا، فإذا علمت بضرورة عقلك تشقيق ما ذكرت لك فإنك تقول قطعا، لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ولو كان معه غيره سالما مما ذكرنا من علل الغيرية لكان إلهين، ولو كان إلهين لعلا بعضهما على بعض، وانفسخ شأن الربوبية وتعطَّل أمر الألوهية، كيف والحوادث موجودة لمالك واحد، وهو الذي يحيي ويميت، والملك كله لواحد من غير ند ولا ضد ولا معاند، يتصرف في ملكه كيف يشاء، إذ لو كان إلهين لعجزا معا، ويتعطل أمر الوجود الحسي لأنه يقدر أن أحدهما يريد إيجاد محدث ممكن والآخر يريد إعدامه، فمن نفذت إرادته فهو إله وحده، والآخر من جملة ملكه ومخلوقاته، والمخلوق لا يشارك خالقه في شيء من أمر نفسه، فأحرى في غيره، فتبيَّن بهذا أنَّ الله واحد أحد، سبحانه لا إله إلَّا هو، فاشهد أنه واحد أحد كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل/51].

فَصْلٌ

نفي المَكان عن الله سبْحانَهُ

اعلم أنَّ الله سبحانه غني عن المكان في الأزل، ولا يحتاج إلى المكان في ما لا يزال، بل هو باق على ما عليه كان، وكل كائن في مكان، فهو الكل إليه والله عز وجل كان في الأزل قبل أن يخلق الخلق مفردا، ليس معه غيره، بلا مكان ولا تشبيه ولا تكييف، ثم أحدث الحوادث وصنع الصَّنائع وخلق العرش والثرى وما بينهما من السموات والأرض وأصناف الموجودات التي لا تنحصر، فقدر عليهم الموت والفناء، فالوجود الأول بعد العدم السَّابق، والعدم بعد الوجود، والوجود بعد العدم، والزيادة والاعتدال والنقصان والتَّغيير والانتقال والحركة والسكون والتقديم والتأخير والبعث بعد الموت والوقوف بعرصات القيامة والخلود في الدَّارين، جرت أحكام الله تعالى

على خلقه في ذلك كله، وهو كما كان في الأزل بلا مكان وهو الآن على ما عليه كان، لا زوال له عن صفات القدم، وأما الأماكن فهي محدثة لا يحل فيها إلا من هو محدث مفتقر إليها، والله عز وجل أكبر وأعظم من أن يفتقر إلى المكان أو لغيره، وإنما الله عز وجل شيء واحد قديم، غني عن خلقه من مكان وغيره، وخلقه شيء ثان، أحدثهم بعد أن لم يكونوا، فهم مفتقرون إليه، وليس في الجود إلا محدث وقديم لا ثالث لهما، فالقديم لا يحل في محدث، ولا يجاوره ولا يقابله ولا يمسه ولا يلاصقه، والمحدث مع القديم كذلك، ولو حل ربنا في مكان لكان محتاجا إلى المكان، ولو كان محتاجا إلى المكان لعجز عن تكوين المكان وغيره وكل كائن في مكان، فلا يخلو من ثلاثة: إما أن يكون أصغر من المكان، أو مقدرا بتقدير المكان، أو يتقدر المكان أصغر من تقديره، ومن كانت هذه صفته جاز عليه التَّحيز والخصوصية بالجهات، وكان وجوده وجودا على التقييد لا وجودا على الإطلاق، ولا بدّ من كونه جسما أو جوهرا، وكل جسم وجوهر مخلوق لله، تعالى الله أن يقدر بحد ولا مقدار، وتنزه سبحانه عن الحلول في الحوادث.

فَصْلٌ

في معرفة الله سبحانه

فذاته وصفاته قديمة غير محدثة، ومن صفاته: الحياة التي بان بها من الموت والأموات، وأحيى كل حي بحياته، ومن صفاته القدرة التي خلق بها الأشياء من لا شيء، ثم جعلها موجودة، وخلق بقدرته صفات الحوادث وأجناسها وذواتها، ومن صفاته: العلم الذي أحاط بجميع المعلومات والأمور الخفيات والأحوال الباطنات والأشياء الغامضات، ومن صفاته: الإرادة التي صرف بها أصناف الموجودات، وأجرى عليها الأمور الباقيات، وأمضى عليها الأشياء الماضيات، ومن صفاته: السَّمع الذي أدرك به جميع الأصوات، وسمع به جميع المسموعات، ومن صفاته: البصر الذي أدرك به جميع المبصرات، وأخرق به ستور الظلمات، واطلع به على خفاء الخافيات، ومن صفاته: الكلام الذي فارق به الخرس والسكوت، وتنزه به عن النقائص والعاهات، وتعالى به عن الصمت والمضرات، ومن صفاته: القدم الذي سبق به جميع الموجودات والدهور الماضيات، ومن صفاته: البقاء الذي يبقى به بعد فناء الفانيات، وتنزه به عن الآماد والنهايات، وتقدس به عن الفناء والغايات، وهو سبحانه راض في أزليته على من

قد ختم عليه بالإيمان، وغضبان في أزليته على من قد ختم عليه بالكفر، وغضبه ليس بخنق ولا غيظ ولا مشقة ولا ترويع، ولا حقد يعتريه، وليس هو بذي طبع يتغير، فإنه مقدس عن الميل والنفور، ومنها مشيئته ومحبته ورضاه ورحمته وكراهيته وغضبه وسخطه وولايته وعداوته، كل ذلك راجع إلى إرادته، وإرادته صفة من صفاته، وصفاته قديمة غير محدثة، **واعلم** أن إرادة الله سبحانه قديمة، وأجرى أمور خلقه كلهم عليها، لا تحدث إرادته بحدوث الحوادث، تأخر وجودهما بعد التقدير، والإرادات سبقت الحوادث، فالحادثات جارية على وفق الإرادة السَّابقة القديمة، تعالى الله أن يجوز على إرادته بذات المحدثات.

فَصْلٌ

في القدرة والسَّمع والبَصر

اعلم أنَّ الله عز وجل إذا أراد شيئا كونه بقدرته، فيصور الشيء من الشَّيء، ويصور الشَّيء من لا شيء، بلا (دون) أن يقول بكلامه كن، وهي الغاية في مبالغة اسم التَّقدير، لأن قوله كن تعلقت بجميع الكائنات، وهو قديم سبق الحوادث، فسبوق الإرادة لا يكرر كل حادثة حدثت، ومن زعم أن كل كائنة كونها الله بقدرته لا تكون حتى يقول لها بكلامه كن فقد عظم جهله.

واعلم أنَّه بإرادته وجدت الأشياء، وبإرادته عدمت، وبقدرته تصورت، وبحكمته انتظمت، فلا يشغله سمع المسموعات عن رؤية المرئيات، ولا تشغله رؤية المرئيات عن تصوير المصورات، ولا يشغله أهل الأرض عن أهل السماوات، بل يسمع المسموعات ويرى المرئيات ويصور المصورات ويكشف المضرات ويقضي الحاجات، وكيف لا يكون مقتدرا من يصنع الصنائع بلا آلات، ولا تدركه الموانع المانعات، فلو كان سمعه بحاسة أذن لم يحط سمعُه بجميع المسموعات، ولو كانت رؤيته بحاسة عين لم تحط رؤيته بجميع المرئيات، ولو كان تدبيره بفكر فؤاد لم يدبر أمر جميع الكائنات، ولو كان علمه باستدلال لم يعلم جميع الخفيات، ولو كانت صنعته بالآلات لجازت عليه المعالجات، ولو جازت عليه المعالجات لتناهت له المقدورات، وتنحصر له المعلومات، ولو كان في جهة لكان في جهة المتحيزات، ولا يجوز السؤال عنه بأين لاتصف بالمكان، وكيف يتصف بالمكان من هو بحيث لا أين ولا مكان، ولا يعلم أين هو ملك ولا إنس ولا جان، تعالى الله أن تتناهى مقدوراته أو

تنحصر معلوماته أو يشبه مخلوقاته أو توصف ذاته، فإن العقول محجوبة عن إدراك ذات الله عز وجل، فلا تدرك صفته ولا كنه عظمته، وهو سبحانه بكل شيء عليم.

فَصْلٌ

في عجز العقول والأوهام عن إدراك صفة الله سبحانه

اعلم يا أخي أن كل ما جانس العقول والأوهام في الحدث تميزت بصفاتها، وكل حادثة في الوجود مقيدة بالزمان والمكان، فإنه فان عن صفاته، والجنس لا انفكاك لحادثة عن ذلك، وكل ما تضمنته هذه التّقييدات الثلاث هو حد العقول الذي تقف عنده لا تتعداه، وهو العجز عن التكييف، ليس للعقول وراء ذلك مجال تجول فيه غموض الوحدانية وصفات الربوبية، لا يطلع على ذلك إلا الجبار الأعظم، وحده لا شريك له، تعالى أن تحيط بكنهه المقيسات العقليات الفاسدات، ظن الجهال أن يدركوا الصفات الأزليات، هيهات هيهات إن من وراء حجب العقل ربا مقدسا ليس البصر له في الدنيا بلاحظات، ولا الأوهام له بلاحقات، ولا العقول له بمكيفات، ولا النفوس له بمثلات، ولا الأفكار له بمخيلات، ولا الأذهان له بمدركات، ولا الألسن له بواصفات، ولا الأذن له بسامعات، ولا الفوقيات له برافعات، ولا التّحتيات له بواضعات، ولا السّماوات له بكانفات، ولا فوقيات العرش له بمجاورات، ولا تحتية الثرى له بمقابلات، ولا جوانب الحوادث له بجاذبات، ولا الأعراض له بمغيرات، ولا الجواهر له بجانسات، بل هو رفيع الدرجات عن جميع المحدثات، حي قيوم، إله من في الأرض والسّماوات، وغير ذلك من جميع الكائنات.

فَصْلٌ

في نفي ما يوجب التّشبه

وبيان المخرج من جميع ذلك بحكم التنزيه

في فصول محكومة مبينة المعنى السّالم لمن يريده ويبغيه

فمن ذلك:

فَصْلٌ

في القرب والبعد والحلول في الأشياء

اعلم يا أخي أن العرش والسّماوات والأرضين، وكل ما يقع عليه اسم الحدث،

فإن الله تعالى لا يحل فيه أبدا، ولا يحتاج لشيء سرمدا، لأنه سبحانه لا يحل في شيء، ولا يحل فيه شيء، ولا يوجد في شيء، ولا يوجد فيه شيء، ولا يمازج شيئا ولا يمازجه شيء، ولا يمس شيئا ولا يمسه شيء، ولا يقابل شيئا ولا يقابله شيء، ولا يقارب بذاته شيئا ولا تقارب منه ذات شيء، ومن يذكر بالقرب من الله ممن يقربه الله إليه أو يحبه، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ ﴾ [الواقعة/ 10 - 11] قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة/222].

فأمّا محبته تعالى فليست بالميل لأحد، لكن بإرادة الله تعالى للمحبوب الرضى عنه وجزيل الثواب، وأمنه من أليم العذاب إلى غير ذلك من الألطاف والإحسان والتجاوز عنه في الحساب، وكذلك قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في حزبه الكبير المعروف الشّهير حيث قال: "اللهم اجعل حسناتنا حسنات من أحببت ولا تجعل سيئاتنا سيئات من أبغضت "، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضر مع الحب منك، وأمّا القرب والبعد منه تعالى، فقربه تعالى من خلقه فهو قرب إكرام وجاه ورفعة وعناية، لا قرب الذات من الذات، وأمّا البعد منه تعالى، فمن بعد عنه من خلقه فبعده بعد إهانة وعُقوبة وحرمان وخذلان، وقربه من خلقه بسمعه وبصره العميم عليهم، وبعلمه المحيط بهم، وبقدرته التي بها أوجدهم، وبحكمه النافذ فيهم، فبذلك يقارب الكافر والمؤمن، والمسيء والمحسن، فكل ما ذكرت لك بلا مقابلة ولا مجاورة ولا تشبيه ولا تكييف قرب تشاهد بما لاح من بسط جمال النجوى، وبعد فلا يرى لأجل هيبة الجلال والعظمة إلا الهموم والخسران والبلوى من الذوات المؤتلفات، والله الهادي وهو الملهم سبحانه.

فصْلٌ
في الرّحمة والغضب

اعلم يا أخي أنَّ الرحمة فضل من الله عز وجل على من أطاعه، والغضب عدل منه سبحانه على من عصاه، والرحمة والغضب صفتان من صفات أحكام الله تعالى، اتصف بهما الجبار جل جلاله، فالغضب لاحق بأهل الحرمان والخذلان من أرباب المخالفة والعصيان، والرحمة لاحقة بأهل التوفيق والهداية من أرباب التقوى والعناية، وأمر الرحمة والغضب من تحت قناع المشيئة، قال الله سبحانه: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن

يَشَآءُ﴾ [آل عمران/129]، فعلق الرحمة والغضب بمشيئته تعالى كي لا يقنط مذنب، ولا يأمن مطيع، فإن القنوط والأمن كفر حقيقي، والله تعالى لا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره وإن جل، ولا يؤمن سخطه في صغير ذنب وإن قل، فالفرض اللازم على العبد في هذا المعنى لزوم الطاعة وترك المعصية والتمسك بالخوف والرجاء مع مفارقة الأمن والقنوط، واعلم أن الاتكال على رحمة الله تعالى مع ترك أعمال الطاعة وركوب المعصية ورؤية العمل الصَّالح لا ينفع، وإنما يوجب اللعنة، لأن ذلك من فعل المرجئة، كما روى عنه عليه السَّلام: «**ألا وإن الله لعن المرجئة والقدرية على لسان سبعين نبيا أنا آخرهم**»[1] صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

فَصْلٌ وكيد
في ترتيب الأقوال والأفعال لجميع المخلوقات وكل ما يطرأ على العبد

اعلم يا أخي أنَّ الله سبحانه وتعالى جده قد رتب في الأزل مقادير خلقه، وسبق به سابق علمه، ما من قول وعمل من خير وشر، وطاعة ومعصية، وكفر وإيمان، وكتابة بالأقلام وأثر الأقدام، وغير ذلك من الأحوال، من مبدأ خلقة كل مخلوق إلى فراغ الآجال، وكذلك الأمطار والزلازل والرياح والغلاء والرخص في الأسعار، وضرب الأمثال بدليل قول الله: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق/18].

روي أن رجلا ضربته شوكة خرقت نعله ونشبت في رجله، فاشتد ألمها به، فلما نزعها قال: هذا سبق لي في علم الله قبل أن يخلق السَّماوات والأرض، قال: فسمعت هاتفا يقول: وكلامك عليها وجوابي إليك بهذا الجواب، فسمعت الصوت ولم أر الشخص، فازددت يقينا والحمد لله.

واعلم أنه لا يرد على العبد خير ولا شر، ولا نفع ولا ضر، ولا إيمان ولا كفر، ولا زيادة ولا نقصان، ولا ربح ولا خسران، ولا جمع ولا افتراق، ولا لمس ولا التصاق، ولا حركة ولا سكون، ولا حياة ولا منون، ولا مشقة ولا بؤس، ولا لدغة من ذباب أو ناموس، وما لا يحصى من مطعم ولا مشرب وفراش وملبوس، وضرب وشتم، ومدح

---

(1) رواه أبو إسماعيل الهروي في " أحاديث في ذم الكلام وأهله "(ص: 68)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (156/1)، وقال: حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وذم إلا كل ذلك سبق في علم الملك القدوس، فقد سبق به قضاؤه وقدره في سابق علمه مرتبا على كل خلق يبديه الله، ويحرك به العبد في وقت كذا وكذا من يوم كذا في نوم أو يقظة، وحالة يوم شميس أو مظلم عبوس، فلا يحصل الوقت المعين إلا وظهر للمخلوق ما كان له مقدر في علم الله تعالى محفوظ ومدسوس، وكذلك رتب في أزله صفات خلقه، فعلم الأبيض والأسود، والصحيح والسَّقيم، والفقير والغني، والسَّعيد والشقي، قبل وجود السموات والأرض والجنة والنار والعرش والكرسي، فلمَّا أخرجهم من الوجود إلى العدم استعملهم على حكم ما سبق لهم من إرادته وقضائه وتقديره، قال في الرسالة[1]: "لا يكون من عباده قول وعمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به "، وصورهم في الأرحام على الصفة السَّابقة من الذكورية والأنوثية، وغير ذلك من الأوصاف، ثم يقع بالعبد ما سبق له مرتبا مع الأنفاس والغفلة والإحساس، فلا يموت الإنسان حتى يطرأ عليه ما سبق له في علم الله تعالى من رزق وغيره، وينتهي جميع ذلك مرتبا محكوما، وَحينئذ يأتيه الموت وهو محمود أو مذموم كما قضاه الله وقدره من غير زيادة في ذلك ولا نقصان، لأن المقادير لا تفسخ، والشقاوة لا تنسخ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٢٩ ﴾ [ق/28 - 29] فهذا ترتيب الله تعالى في كل كائن من جميع الممكنات، وقد أمضى ذلك في خلقه، فلا يقدر على هذا التَّرتيب إلا الجبَّار، ولا يتقنه إلَّا القهَّار، وفي التفكّر في ذلك عبرة لأولي الأبصار.

فَصْلٌ
في بيان الكلام القديم بقدم من لا ينام

فأقول والله المستعان، إن القرآن هو كلام الله تعالى على الحقيقة لا على المجاز، وهو أزلي قديم غير مخلوق، وليس هو بحرف ولا صوت ولا لغة من اللغات، مكتوب في المصاحف مقروء بالألسن، محفوظا في القلب، وهو غير حال في شيء من ذلك، ويتّضح ذلك بالمثال، إذا أنزلت كلام الله في المثل كأنه رجل، فتذكر الرجل بلسانك، وتكتب اسمه ببنانك، فيكون ذكر الرجل حالا على لسانك، والرجل بنفسه غير حال

(1) الرسالة لابن أبي زيد القيرواني (ص: 6).

على لسانك، وكتابتك تدل عليه لأن الكتابة تظهره وتبديه، فهذا معنى مقروء باللسان، وإنك أيضا تحفظ في قلبك أيضا أمر الرجل ونهيه إذا أمرك بشيء أو نهاك عن شيء أو خوفك من شيء أو شوقك في شيء فإنك تحفظ جميع ذلك كله في قلبك، والرجل الذي أمرك ونهاك وشوقك وخوفك غير حال في قلبك، فهذا معنى محفوظ في القلوب، وتكتب اسم رجل في كتاب فيكون اسم الرجل حالا في الكتاب، والرجل بنفسه غير حال في الكتاب، فهذا معنى مكتوب في المصاحف ولا تحسبن القراءة والتلاوة هما كلام الله القديم، فليس ذلك كذلك، وإنما هما دالان على كلام الله سبحانه، ولو كانت التلاوة والقراءة كلام الله القديم لحل كلام الله سبحانه على اللسان، لحلول التلاوة والقراءة عليه، ولو حل كلام الله على اللسان لحل الله حيث حل كلامه، لان كلامه مقرون بذاته جل وعز لا يفترقان، لأن كلامه صفة من صفاته، وصفاته لا تفارق ذاته، وقد أجمع شيوخ أهل السنة رضي الله عنهم على أن كلام الله لا يكون قائما بذاتين، ولا يتكلم به متكلمان، فلا يتكلم بكلام الله أحد إلا الله، واعلم أنك إن سمعت كلام الله من البشر سمعته متلوا ومقروءا، وإن سمعته من الله تعالى في الآخرة سمعته لا متلوا ولا مقروءا، فإن القرآن راجع في حق البشرية إلى التلاوة والقراءة، وهو في حق الربوبية منزه عن التلاوة والقراءة والحروف والأصوات واللغات، فإن الله عز وجل إذا تكلم لا يلفظ ولا ينطق، فإن اللفظ والنطق مفتقران إلى الحروف والأصوات واللغة، والله عز وجل منزه عن ذلك، وكلام الله تعالى شيء واحد، يفهم منه الأمر والنّهي والترهيب والترغيب، وليس بعربي، ولو كان عربيا لكان لغة من اللغات، وإنما التلاوة المعبرة عنها عربية فقط، وتسميه كلام الله قرآنا تسمية إلاهية لا تسمية اصطلاح، فهذه جملة مقنعة في شرح كلام الله سبحانه، وللسان في شرح هذا الفصل مجال متسع، لكن في ما أومأنا إليه كفاية لأهل العقول الراجحة.

فَصْلٌ في الاستواء

قال الله سبحانه: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه/5].

اعلم يا أخي أنه يجب على العبد أن يعلم من العلم ما هو بعيد ممَّا يوهمُ التكييف، لأن إيهام صفة الربوبية يستجلب الكفر للقلوب، فيجب عليك أولا في تفصيل هذه الآية أن تعلم أنَّ الله عز وجل كان قبل العرش وقبل غيره من الكائنات، فيدلك ذلك على أن الذي أغناه عن الكون على العرش فيما مضى يغنيه عنه وعن غيره

في ما بقي، ويجب عليك ثانيا أن تعلم أنَّ العرش وجميع الحوادث في جنب عظمة الله تعالى كلا شيء، فيدلك ذلك على أنَّ الله سبحانه لا يحمله عرش ولا غيره، ويجب عليك ثالثا أن تعلم أن الاستواء في اللغة معلوم كما يقول النَّاس، استوى السلطان على ملكه، ولم يريدوا بذلك استواءه بجسمه، وإنما أرادوا استواءه باقتداره وقهره، فيدلك ذلك على أن استواءه سبحانه منزه عن الحلول، ويجب عليك رابعا أن تعلم أن الاستواء في حق البشرية راجع إلى المماسة والتَّمكن والاستقرار، فيدلك ذلك أن نوحا عليه السلام استوى على الفلك تمكنا واستقرارا، ويجب عليك خامسا أن تعلم أن الاستوى في حق الربوبية راجع إلى القدرة والقهر والإرادة، فيدلك ذلك على أنَّ الله سبحانه استوى على عرشه قهرا واقتدارا، فإذا فهمت تأويل ما ذكرت لك علمت ضرورة أنَّ الله عز جل لا ينتقل عما كان عليه في القدم إلى اصطلاح المحدثات، وليس للعقل فوق العرش مجال، ولا يعبر عنه لسان ولا ما يدركه علم مخلوق وما تحت الثرى، كذلك فإنه ليس فوق العرش وتحت الثرى إلا غامض علم الله سبحانه، وعلمه محيط بجميع الكائنات.

فَصلٌ
في ذكر الغمام

قال سبحانه: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة/ 210].

وَاعلَم رَحمك الله أنَّ حروف الخفض يجوز بدل بعضها ببعض عند أهل السنة، فتحمل الآية أن يكون تقديرها هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام والملائكة، فتكون الفاء بمعنى الباء وتحتمل وجها آخر، هل ينظرون إلا أن يأتيهم ملك من ملائكة الله تعالى في ضلل من الغمام والملائكة فيكون ذلك علامة للحساب، فيحذف المضاف ويقيم المضاف إليه مقامه، فهذه الاحتمالات كلها التي تحتمل هذه الآية ذكره بعض المفسرين، وذلك صحيح، لأن القرآن لا تنتهي عجائبه، ولا تنقضي غرائبه ومعانيه، لا تنحصر في ما ذكر ولا في ما أكثر من ذلك، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا﴾ [الكهف/109]الآية، وأما نحن فلا تعلم عقولنا أكثر من هذه الوجوه المذكورة، وربما يكون في النَّاس من يعلم من معاني هذه الآية أكثر من هذه الاحتمالات، لقوله

تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف/76].

قُلتُ: ولا تحتمل هذه الآية ما يعلم من ظاهر اللَّفظ، لأن ذلك يؤدي للمحال، وما يؤدي للمحال فهو محال، لا يلتفت إليه ولا يعول عليه، وذلك أن من توهم أنَّ الله تعالى يأتي يوم القيامة في ظلل من الغمام والملائكة بمعنى الحلول والانتقال، ومن سجد لمن هذه صفاته فقد سجد لغير الله تعالى، لأن الغمام خلق من خلق الله سبحانه، والخالق لا يحل في المخلوقات، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فَصلٌ
في بيان النَّجوى

قال الله سبحانه: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة/7].

فَمن معنى هذه الآية أنَّ الله عز وجل يعلم ما في مكنون ضمائرهم وما انطوت عليه سرائرهم، من غير مجاورة ولا إصغاء، فإنه عالم بالأشياء، ولا يحل فيها، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فَصلٌ في المجيء

قال الله سبحانه: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر/22].

فالله عز وجل لا يأتي يوم القيامة في كواكب الملائكة وصفوفها، بمعنى الحلول والانتقال، فإنَّ الله عز وجل يفصل بين خلقه يوم القيامة، ولا تشغله محاسبة أحد عن أحد بلا حلول معهم في عرصة القيامة، ولا يقرب منهم ولا يبعد عنهم، فإن القرب والبعد يتضمنان المسافة، والله عز وجل لا مسافة بينه وبين خلقه، فإنه قدير، وقدرته لا تدركها العقول، ومن توهم أن الله تعالى له حركة بمجيء أو ذهاب فهو كافر على الحقيقة، والله ولي التوفيق والعظمة بمنه وفضله.

فَصلٌ في الضَّحِك

في الخبر أن الله عز وجل يضحك لمن حبس على فئة في سبيل الله[1]، فالضَّحك

(1) لم أقف عليه، ومن جملة الأخبار التي ورد فيها نسبة الضحك إلى الله جل جلاله: حديث أبي رزين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ضحك ربنا من قنوط عباده وقُربى غيره "، قال: قلت: يا رسول الله، أو يضحك ربنا؟ قال: "نعم "، قلت: لن نعدم من رب =

وطلاقة الوجه للأضياف عند العوام أعلى كرامة عندهم، لأن الضحك وطلاقة الوجه تدل للأضياف على كرم من أضافهم، ورضاه بكرامتهم، هذا من العوام، وليس الضحك من صفة الملوك، وإنما عطيتهم ومنتهم بدل من ضحكهم، هذا في ملوك الدنيا، وهذا ضرب مثل لأن المؤمنين يجدون عند الله تعالى كرامات وطرفا ومننا وهدايا ما سمعتها آذانهم، ولا بصرتها أعينهم، ولا حدثتهم بها أنفسهم، إنهم يجدون المواهب من سيدهم، لأن عقولهم لم تبلغ علم ذلك، فهذا معنى الضحك عند شيوخ أهل السنة رضي الله عنهم.

قال الله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة/22 - 23]، فالمؤمنون ينظرون إلى الله عز وجل في دار السَّلام، ودار السَّلام هي مجصة عرش الرحمن، وهي مجصة لا يعلم طرقها إلا خالقها، يخرج إليها المؤمنون في كل يوم جمعة، ومقدار أيام الجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج/47]، فيخرجون إليها كما يخرج الناس لمصلاهم يوم الفطر والأضحى، فبينما أهل الجنة في مجصتهم فإذا بالحجب قد كشفت عن الخلائق، لأن الحجب على الخلائق لا على الخالق، ومن اعتقد أن الحجب تجوز على الخالق سبحانه وتعالى فقد جهل أمر الربوبية، ولو جاز عليه الحجاب لانهدمت السموات والأرض، فإذا انكشفت الحجب بدا لهم الجبار جل جلاله، فينظرون إلى شيء ليس كمثله شيء، فينظر العبد المؤمن فلا يرى فوقا ولا تحتا ولا يمينا ولا شمالا ولا أماما ولا خلفا إلا الله تعالى، ولا يخطر بباله شيء إلا الله تعالى، ولا يجد لشيء لذة إلا النظر في وجه الله تعالى، فيتجسد العبد في العظمة والجلال حتى لا يعرف اسم نفسه، ولا يشعر بمن حوله من الخلائق، وينسى كل شيء إلا الله، فينظر العبد حينئذ لمولاه بالبصر والبصيرة من غير أن يدرك ببصره وبصيرته شيئا من الصفات ولا من الذات الكريمة، بمعنى النهاية والإحاطة، قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة/255] فإنهم يرونه على الحقيقة، ولا تتخيل صفته ولا ذاته في عقولهم ولا في أوهامهم حين الرؤية ولا بعدها، فإن العقل يعجز هناك عن الفهم، ويعجز الفهم عن

=

يضحك خيرا. رواه ابن ماجه في سننه (64/1).

الإدراك، ويعجز الإدراك عن الصفات ويتلاشى الكل في جنب عظمة الله عز وجل، فإنَّ الله إذا تجلى لهم ليس في تجليه حركة ولا سكون ولا مجيء ولا ذهاب، وإنما يتجلى لخلقه من ذاته بذاته في ذاته سبحانه بلا تشبيه ولا تكييف، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللَّطيف الخبيرُ، قُلت يا أخي إنني أذكر لك هنا تنبيها حسنا من فتح الفتاح سبحانه، فاعلم يا أخي أن رؤية الله تعالى في الجنة لا تتناهى، لأن المؤمنين يرونه جلّ وعز حين يتجلى لهم في كل يوم جمعة على الدوام والاستمرار من غير نهاية ولا انقطاع، فقيل: إن معرفة العباد بربهم غير متماثلة، لأن كل واحد يخلق الله له في قلبه من المعرفة به تعالى في أول جمعة يراه بقدر معرفته به سبحانه في دار الدنيا، من غير تشبيه ولا تمثيل ولا جهة ولا مكان ولا تخييل.

واعلم أنَّ النَّاس في الدنيا متفاوتون في العلم بتنزيه الجليل جل جلاله، ثم تتضاعف معرفتهم بالله تعالى بكل رؤية يرونه بحضرة القدس، وفي ذلك المحل تجري في وجوههم نضرة النعيم، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين/24] والفرق ظاهر في معنى ناضرة وناظرة، لأن معنى الضاد في نضرة أن النضارة هي النعمة والبهاء والكمال والصحة والحس والجمال، ومعنى ناظرة بالظاء المشالة من النظر والرؤية بالبصر والبصيرة، كقول القائل ناضرة إلى ربها ناظرة بالبصر والبصيرة، ثم لا يزال المؤمنون ينظرون ذات خالقهم في يوم جمعة ﴿ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج/47] وفي كل يوم يزيدون نورا في أجسامهم ونضارة وبهجة وحسنا وجمالا في ذاتهم، وصحة وقوة في جوارحهم، وكذلك يتضاعف فيهم أبدا بلا نهاية، لأن الجمعات لا تتناهى أبدا في دار الخلود، ورؤية الله في كل يوم جمعة لا تنقطع ولا تنحصر، والمعرفة بالله لهم تزيد مع كل رؤية ولا تقتصر، ونعيم أجسامهم بكل نظرة لهم فائض منتشر، وكل ذلك يكون أبدا دائما مجددا بلا انقطاع سرمدا، ومع ذلك لا يدركون شيئا من صفاته تعالى، بل كلما ازدادوا نظرا ازدادوا معرفة، وبحسب كل معرفة يزدادون نعمة ونضارة وبهجة وحسنا وجمالا وصحة وقوة ونورا أبد الآبدين، ولذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق/35]، وكذلك الأنبياء والمرسلون وسيد الجميع سيدنا محمد ﷺ وعليهم أجمعين، تتضاعف معارفهم ونعيمهم بكل نظرة ينظرون ربهم أبدا سرمدا، ومع ذلك لا يحيطون بشيء من

صفات الله تعالى وإن كثرت معارفهم إلى ما لا نهاية لها ولا غاية، فلا يدرك صفة الله وذات الله إلا الله تعالى سبحانه، لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه.

واعلم يا أخي أنني اشترطت في صدر هذا التأليف أنني لا أذكر فيه شيئا من علم الأذواق إلا ما تحتمله عقول العامة، أعني عامة العلماء، وهذا التنبيهُ الذي ذكرناه وفرغنا الآن منه، وإن كان في علم ذوقي تلقيناه من فتح الفتاح، أشرقت أنواره في أفئدتنا كضوء المصباح، فلمَّا رأيت قلوب العامة لا تنكره وتصطفيه وتدخره، وضعناه هنا ليزدادوا بالله معرفة، ويزيد الحليم منهم بمعرفته حلما، وسنذكر في أثناء الكتاب بابا حسنا في معرفة الذَّوق إن شاء الله تعالى، ونذكر هنا طرفا من ذلك.

قال سيدي عبد الرحمن المجدوب[1] رحمه الله تعالى:

إذا هـو علـم الأوراق ... حـد الحـلاوى لـساني

وإذا هـو عـلم الأذواق ... فـي وسـط قلبـي كوانـي

قال سيدي عبد العزيز المغراوي[2] رحمه الله تعالى في قصيدة له بالكلام الملحون في قصيدته التي مطلعها:

البرق شار بسيفو كنو اطغا الميدان ... أو بطل محمد في ملاعب السقارا

حيث قال فيها رحمه الله تعالى:

درها يا ساقي نغتنموا ساع في ذا العشيا

من خمر نورين ليس يذاق بلسان

لا ربيع أغصان ثمارو الأسحارا

ولا تمس يدين ولا تراه الأعيان

يعرفوا من ذاقوا يفاهم الأشارى

بدا الشراب تلهج وارتاح كل دايق

...

---

(1) من الأولياء الأكابر، وكان سيدي على الخواص رضي الله عنه يقول: ما رأيت قط أحداً من أرباب الأحوال دخل مصر إلا ونقص حاله إلا الشيخ عبد الرحمن المجذوب، وكان مقطوع الذكر قطعه بنفسه أوائل جذبه، وكان جالساً على الرمل صيفاً وشتاء، وإذا جاع أو عطش يقول أطعموه، وأسقوه، وكان ثلاثة أشهر يتكلم وثلاثة أشهر يسكت، وكان يتكلم بالسرياني؛ مات رحمه الله سنة 944 هـ. (الطبقات الكبرى ص 371).

(2) لم أجده.

علـى بـساط الملكـوت فـي حـضرة الجـلالا

وارتقـــى والتقـــى بـــروح كـــل لاحـــق

مـــع رجـــال وصـــلوا بـــالعلم لا جهـــالا

وشـــاهدوا مـــولاهم بأبـــصار الحقائـــق

وغـــنموا مـــن حـــب المحـبوب كـل حـالا

إلى آخر القصيدة ففيه إشارة لما ذكرناه فاعلم ذلك.

فَصْلٌ

في نفي المثل عن الله تعالى

قال الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى/11].

اعلم أن المثل لا يتعلق بمن هو غير مصور، ولا مركب ولا مؤلف، ولا مجتمع ولا مفترق، ولا يتصف سبحانه لا بحمرة ولا بصفرة، ولا ببياض ولا بسواد، ولا بلون من الألوان، لم توجد ذاته من شيء كانت منه بدايتها، فهو لا بداية له، كما أنه لا آخر له، وهو سميع بلا أذن، بصير بلا حدقة، صانع بلا معالجة يد ووجه بلا صورة، حي بلا نفس تتردد، متكلم بلا كلام متعدد، فاليدان راجعان إلى القدرة، وكلتا يديه يمين والسَّمع راجع إلى إدراك المسموعات، والبصر راجع إلى إدراك المبصرات، والوجه راجع إلى الجود، فلا يماثل المحدثات ولا يشابه المخلوقات ولا يختص بعضه بالوجه دون بعض، وكذلك اليدان والسَّمع والبصر، قال بعض المحققين في تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك/1] وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور/48]، وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة/115] فلما كانت هذه الآيات الثلاث يوجب ظاهرها التشبيه نفاه بقوله: وجه الله وجوده، ويد الله جوده، وعين الله شهوده، ومن يعتقد في الله سبحانه غير هذا فالأصنام معبوده، فأحسن في ذلك رحمة الله عليه لأنه تعالى الله وتعاظم من أن يتبعض، ولا يجوز عليه كل إذ لا يتبعض إلا من يتجزأ، ولا يليق الكل إلا لمن له حد، وهو سبحانه لا يعقل منه إلا الوجود فقط، لأن كنه صفاته تعذر على العقول معرفتها، فكيف يوصف من تنزه عن الأمد والأبدية، وتعالى عن الحد والنهاية، تعالى الله أن يحيط علم بذاته، أو تدرك العقول شيئا من صفاته، وتنزه عن زي الذكور والإناث، وعن الوالد والولد

والزوجات والأمهات، فهو خالق الزوجات والآباء والجدود والإخوة والأعمام والبنين والبنات، ليس فوق العرش ولا تحت الفرش إلا غامض علم الله سبحانه، وعلمه محيط بجميع الكائنات، له الخلق والأمر وبيده الخير والشر، تبارك الله رب العالمين.

فصلٌ
في بيان معنى التلاوة والقراءة

قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران/58].

اعلم يا أخي أنَّ التَّالي والقارئ هو أحد المخلوقين، وأمَّا الله سبحانه فيتنزه عن صفات المخلوقات، فعلى هذا يحتمل أن يكون جبريل هو التالي، ويضيف الله ذلك إلى نفسه كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس/26]، وهم الحراثون شقوا الأرض بالحراثة والفلاحة، فأضاف الله سبحانه ذلك إلى نفسه، ومن زعم أنَّ الله تعالى قارئ وتالي فقد خرج عن مذهب المسلمين، لأن معنى التلاوة والقراءة عند أهل السّنة صوت القارئ ونغمته، والله منزّه عن الصوت والنغمة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا والله الموفق.

فصلٌ
في بيان كيْفية سمْع كلام الله

قال تعالى: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة/6] معنى ذلك كمثل معبر يعبر لرجل عن كلام غيره فيفهم المعبّر له من كلام المعبر ما يستدل به على فهم الكلام المعبر عنه، فافهمه والله الموفق.

فَصْلٌ في الآيات

قال الله سبحانه: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت/29].

اعلم أخي أن معنى هذه الآية أن العقول فهمت من كلام الله سبحانه الوعد والوعيد والمواعيظ والأمثال وغير ذلك من المعاني، فصار الفهم دلالة على المفهوم بلا أن يحل المفهوم في كنز الصدور، والمفهوم هو الكلام القائم بالملك الغفور.

فَصْلٌ
في معنى النُّزول

قال الله سبحانه: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل/102].

روح القدس هو جبريل عليه السَّلام، يحتمل معنى ذلك أن جبريل كان في جهة الفوق فسمع كلام الله من الله، أو يوحي الله في ذلك كيف يشاء، وهو ليس في جهة الفوق ولا في جهة من الجهات، فعبر جبريل لمحمَّد ﷺ بلسان عربي مبين كما فهم جبريل من كلام الله سبحانه، وعبَّر محمد ﷺ بلسان عربي لأمته عمَّا فهم من عبارة جبريل عن كلام الله تعالى، فالعبارة عربية، والمعبر عنه غير عربي ولا عجمي، ولا بلغة من اللغات، فهذا معنى النزول، وليس المقصود بالنزول انفصال كلام الله عن الله، بمعنى الانحطاط من علو إلى سفل، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

فَصْلٌ
في العلو وبيان معناه

قال الله سبحانه: ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك/17].

فكل شيء علا فيدعى سماء، ومن ذلك سما البيت سقفه، وليس المقصود بمعنى الآية سماء الدنيا ولا غيرها من السَّبع الطباق، وإنما المقصود بمعنى الآية آمنتم من في العلو، وهو علو الجلال، وليس كون الله تعالى في سماء الحوادث من صفات الكمال، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فهو تعالى في سماء عزته وعلو قدرته، سبحانه لا إله إلا هو، وجامع القول في التنزيه هو أن تقول تنزه ربنا عن كل نقيصة، يتعذر من أجلها وجوب الكمال، لأنَّه سبحانه منزه عن البداية، والبداية أصل كل نقيصة، والأرض وجميع الخلائق ويوم القيامة كل ذلك في قبضة قهره واقتداره، والسَّماوات مطويات بيمينه، لا يبعد كون المعنى مطويات بيمينه أي بقوته وقدرته، ويستحيل نزول الله تعالى إلى سماء الدنيا، بمعنى الانتقال والتّحويل والحلول، لا يبعد حمل الحديث على نزول ملك من المقرَّبين، فيحذف المضاف ويقيم المضاف إليه مقامه، وقوله عليه السلام:

«**فيضع الجبار قدمه في النّار**»[1]، لا يبعد أيضا حمل القدم على كل جبار متكبر كان في الشر رأسا، فتطلب النار الزيادة حتى يستقر فيها قدم كل متكبر جبار شقي، فلا تطلب النار بعد ذلك زيادة، وقوله تعالى: ﴿ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن/3] معناه عظمة ربنا، تقول العرب: جَدَّ فلان في قومه، إذا عظم فيهم.

اعلم أنه لا يجوز الجمع والنظم إلا على العبارة والرقم المستدل بهما على الكلام القَديم لأن العبارة نزلت مفترقة فجمعت بالرقم ونظم السور.

واعلم أنَّ استواءه سبحانه وإتيانه ومجيئه وضحكه ورؤيته وتنزيله ونزله بلا مقابلة ولا مجاورة ولا تشبيه ولا تكييف، ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير، فقد وضعنا لك في مفتاح المعرفة فصولا تحتمل شرحا طويلا وتستدعي تشقيقا وتفصيلا، لكن اقتصرنا على الاختصار وتركنا التطويل والإكثار، فنسأل الله أن يمنَّ علينا بالفضل الجزيل، وحياة القلب العليل، وطهارة الذنوب بالعفو والصّفح الجميل والنزول غدا في الظِّل الظليل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، واعلم يا أخي أنَّ هذا العلم الذي تضمنته فصول هذا القسم الأول ضمنتها صدر قطب العارفين، مع زيادة لنا فيه في كثير من المواضع، لأجل سهولة الفهم وحسن التَّبيين.

واعلم أنَّ هذه الفصول تدرك بالقراءة والتَّلقين، وتشتركه العامة والخاصة، ويفهمه الصَّالح والطَّالح، وبيَّنَها العارفون لإخوانهم المؤمنين الموحدين، فيدور على ظاهره المتكلمون، ويكشف على باطنه الأولياء العارفون.

واعلم أن جميع ما تضمَّنه هذا القسم والقسم الذي بعده هو القشر القريب من لباب المعرفة، فمن قنع وعجز عن بقية الكتاب فقد رضي لنفسه بمنازل عوام المسلمين، وأقعده العجز والبطالة عن الولوج بمنازل السَّالكين، فأحرى اللحوق بالسَّابقين المقربين، أهل المعرفة واليقين، ومن تعلم ما تضمنه هذان القسمان وحط رحله بما تضمنه آخر الكتاب وأوله فهو من الأولياء الصَّالحين، وإن قهر النفس والشيطان والدنيا والهوى وعكف على ذلك إلى أن رسخ فيه معناه فيرجى له أن يدرك

---

(1) رواه بهذا اللفظ: الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (127/5) من حديث أنس رضي الله عنه، وأصل الحديث في الصحيحين من حديثه أيضا. وانظر: صحيح البخاري (1835/4)، وصحيح مسلم (2186/4).

مرتبة السَّادات العارفين.

هذا القسم يتلوه إن شاء الله معرفة رب العالمين بالجوارح الظاهرة والباطنة، والتطهر بماء اليقين.

القسم الثاني في معرفة الدين
وفيه فصول
الفصل الأول

اعلم يا أخي أنَّ الدين هو مجموع في قواعد الإسلام والإيمان والإحسان، وهذه الثلاثة هي أصل منازل السَّالكين التسعة، فالإسلام له بداية ووسط ونهاية، والإيمان له بداية ووسط ونهاية، ويسمَّى كل قسم منها منزلا من منازل السّالكين، فيتحلى صاحب كل منزل بإحدى عشر علامة محمودة، ويتخلى عن إحدى عشرة علامة مذمومة، فتجتمع الأوصاف المحمودة وهي تسعة وتسعون وصفا محمودا، وتسعة وتسعون وصفا مذموما، فمن تحلى بهذه الأوصاف المحمودة كلها وتخلى عن هذه الأوصاف المذمومة كلها فهو الذي يسمَّى السَّالك والولي العارف، الناسك فهو الذي ينبغي له أن ينتصب للشيخوخة ويسلك المريدين في المنازل المذكورة، ولا بدّ من ذكر تسمية المنازل هنا إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني
في مقام الإسلام،
وفيه ثلاث منازل

اعلم أنَّ الإسلام بدايته [....][1]، ووسطه الاستقامة، ونهايته التقوى.

ومقام الإيمان،

اعلم يا أخي أن مقام الإيمان بدايته التَّصديق ووسطه الطمأنينة لقوله تعالى: ﴿أَلَا

(1) فراغ في النسختين.

بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد/28] ونهايته الإخلاص.

ثُمَّ مقام الإحسان

اعلم يا أخي أنَّ مقام الإحسان بدايته المراقبة، ووسطه المشاهدة، ونهايته المعرفة، ونؤخر الكلام على هذه التسعة منازل لآخر الكتاب في الباب الجامع الذي ذكرناه في صدر الكتاب إن شاء الله تعالى، لئلا يطول الكلام فلا يناسب الشروح، وإن كان كذلك فهو إذا متروك ومطروح، ونذكر هنا ما لا بدّ من ذكره من معنى الإيمان والإسلام وما يتعلق بهما من الأمور ومعاني الكلام إن شاء الله تعالى، والله الموفق سبحانه، وأسأله العلم والعمل والفهم والإصابة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الثَّالث
في معرفة الإسْلام والإيمان

لأن من عرفهما فقد عرف ما يعبد به الرحمان.

اعلم يا أخي أنه ينبغي لك أن تعرف ما هو الإسلام وما هو الإيمان وما محلهما وما دواعيهما وما شروطهما، وأيهما أصل والآخر فرعه.

اعلم يا أخي أن الإسلام فرع والإيمان أصلُهُ، فتقدم الإسلام لعمومه كونه يلم المؤمن والزنديق، وهو المنافق في صدر الإسلام، فالإسلام في اللغة هو الاستسلام، والاستسلام هو الانقياد، والانقياد هو امتثال الأمر بفعل المأمورات وترك المنهيات، لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر/7]، فمن انقاد لأوامر نبينا محمَّد ﷺ ونواهيه فقد استسلم له واستحق التسمية بالمسلم، ومن لم ينقَد لأوامره صلى الله عليه وسلم وترك نواهيه وتوعص أمره فهذا لم يستسلم، فلا ينبغي أن يسمّى مسلما، مثالهما دابة فارهة قادها صبي أو غيره بزمامها فطاوعته وانقادت له، يسمَّى استسلام، ومن لم ينقد من الدواب لقائده وتوعصت عليه فتلك الدابة غير مستسلمة، وهذا أمر بين ظاهر واضح، والله الموفق بمنه.

وأمَّا محله؛ فهو الصدر، لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر/22].

وأمَّا دواعيه؛ فهو السؤال، لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل/43].

وأمَّا شروطه؛ فهو كف الأذى، لقوله صلى الله عليه وسلم: «**المسلم من سلم الناس من لسانه ويده وفرجه**".

فَصْلٌ

وأما الإيمان؛ فهو التَّصديق، قال والدي عبد المجيد بن يوسف الشَّريف الحسني رحمه الله ورزقني رضاه. آمين، في تأليفه ((بشرى السَّعادة في طريقة أهل الإرادة)): "التَّصديق أول المعرفة، فمن أراد الله سعادته وخيره ورزقه رزقه حسن الاعتقاد والتَّصديق والتَّوفيق "، ثم قال رحمه الله تعالى: "وقيل إنَّ أول الطريق إلى الله تعالى الإيمان ثم الذوق ثم الحلال، والإيمان هو التَّصديق ".

فإن قيل: ما الإيمان؟ وما محله؟ وما دواعيه؟ وما شروطه؟ وما حقيقته؟

فالإيمان هو التَّصديق كما تقدم قريبا، يليه إذ كل من آمن بشيء بقلبه فهو مصدق به.

وأمَّا محله؛ فهو القلب، لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [المجادلة/22].

وأمَّا دواعيه؛ فهو النظر والتأمل والتفكر في الأشياء، لقوله تعالى: ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ [يونس/101]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية/17].

وقد ذكرت في تأليف لي الذي سمَّيته بـ ((السَّيف المتين في الرد على من كفَّر عامة المسلمين)) في أواخره: أنَّ الله تعالى حضَّ عبيده على النظر في نحو ثمانمائة آية، وبينت هنالك ذلك غاية البيان، فانظره إن شئت.

وأمَّا شروطه؛ فهو التَّقوى، لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة/88].

وأمَّا حقيقته؛ فهو بدل من الروح، لقوله عليه السَّلام: «**لا يبلغ أحدكم حقيقة**

الإيمان حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه»[1].

الفصْل الرَّابع
في تقسيم الإيمان

اعلم يا أخي أن الإيمان ينقسم على أربعة أقسام، إيمان كفر، وإيمان جحود، وإيمان بدعي، وإيمان كامل.

فأمَّا إيمان كفر، فهو قول بلا عمل ولا نية ولا اعتقاد.

وأمَّا إيمان جحود فهو قول وعمل بلا نية ولا اعتقاد صحيح.

وأمَّا إيمان بدعي فهو قول وعمل ونية واعتقاد من غير موافقة الكتاب والسّنة.

وأمَّا الإيمان الكامل فهو قول وعمل ونية واعتقاد صحيح وموافقة الكتاب والسّنة، فهذا هو الإيمان الكامل الذي أثمر عن قوة التَّصديق.

الفصل الخامس
في زيادة الإيمان ونقصانه

اعلم يا أخي أنَّ الإيمان على أربعة أوجه:

إيمان يزيد على الدوام ولا ينقص.

وإيمان لا يزيد ولا ينقص.

وإيمان يزيد وينقص.

وإيمان ينقص ولا يزيد.

فأمَّا الإيمان الذي يزيد أبدا ولا ينقص: فهو إيمان الأنبياء والمرسلين.

وأمَّا الإيمان الذي لا يزيد ولا ينقص فهو إيمان الملائكة.

وأمَّا الإيمان الذي يزيد وينقص فهو إيمان المؤمنين، لأنه يزيد بالطَّاعة وينقص

---

(1) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأقرب الألفاظ إليه: ما رواه ابن حبان في صحيحه (471/1) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا: "لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير ". وهو مشهور بلفظ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " اتفق عليه الشيخان: البخاري (14/1)، ومسلم (1219/3) من حديث أنس، وفي الباب عن غيره.

بالمعصية.

وأمَّا الإيمان الذي ينقص أبدا فهو إيمان الزنادقة والمنافقين ماداموا مصرين على كفرهم ببواطنهم مع عدم التوبة، ولذلك استحقوا الدرك الأسفل من النار لزيادة كفرهم على كفر الكافرين، لأنهم فاتوهم باللَّعب بالأديان، فإيمانهم عكس إيمان الأنبياء والمرسلين عليهم الصَّلاة والسَّلام، لأن الإيمان يزيد بالطَّاعة وينقص بالمعصية، والأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام معصومون من كل ذنب وفاحشة، فإيمانهم في الزيادة سرمدا، ولذلك إستحقوا الدرجات العليا في الجنة، وأقواهم إيمانا سيدنا محمد ﷺ لكثرة طاعته لربه، لأنَّ طاعة الله تعالى على قدر المعرفة به، وهو عليه السَّلام أعظم النَّاس معرفة بربه، وكلهم من رسول الله ملتمس، ولذلك ترجى له الوسيلة، وهي أعلى درجات الجنة، اللهمَّ آته الوسيلة والفضيلة، والمقام المحمود الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد، إنها لا تنبغي أن تكون لغيره عليه السَّلام.

وأمَّا الإيمان الذي لا يزيد ولا ينقص فهو إيمان الملائكة، لا يزيد ولا ينقص.

فإن قال قائل: إذا كان الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فهو في حق الأنبياء والمؤمنين ظاهر، وقولكم في الملائكة إيمانهم لا يزيد ولا ينقص مع أنهم طائعون لله على الدَّوام ولا يعصون الله في شيء أبدا، بدليل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم/6]، فينبغي أن يكون إيمانهم كإيمان الأنبياء، يزيد بالطاعة، لأنهم طائعون على الدَّوام كالأنبياء، ولا يعصون الله في شيء كالأنبياء أيضا.

جوابه: لمَّا كانت الملائكة طاعتهم متحدة وعبادتهم متباينة، لأن منهم من أمر بالركوع فقط فهو راكع أبدا، ومنهم من أمر بالقيام فهم قائمون أبدا، ومنهم من أمر بالسجود فهم ساجدون أبدا، ومنهم من أمر بالتلاوة والقراءة فهو قارئ أبدا، ومنهم من أمر بالتكبير فهو يكبر الله أبدا، ومنهم من أمر بالتَّسبيح فهو يسبح الله ويقدسه أبدا، ومنهم من أمر بقول لا إله إلا الله فهو يهلل أبدا، ومنهم من وكل بحفظ الأعشاب والأشجار والأثمار والحبوب فهم في حفظ ما وكل به وحراسته إلى أن يصل لمن يقتات به، وغير ذلك من الأفعال والأقوال، لا تحصى أقوالهم ولا أعمالهم، والأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام لمَّا جمع الله لهم جل عبادة الملائكة في ركعة واحدة من الصلاة، فتجد المصلي مكبرا لله وقارئا وراكعا وساجدا وقائما ومسبحا لله وحامدا له وجالسا متشهدا لله ومصليا على سيدنا محمد ﷺ ومسلما على جميع عباد الله

الصَّالحين في التشهد، فيدخل في عباد الله الصَّالحين جميع الملائكة وجميع المؤمنين من الجن والإنس وغيرهم، وزيادة الخضوع والخشوع في الصَّلاة والتوّجه للقبلة، هذه عبادة الملائكة كلهم جمعها الله لعبد واحد من عامة المؤمنين في صلاة، فأحرى خاصتهم وخاصة خاصتهم، وعبادة الأنبياء أعظم من ذلك أجرا على قدر معرفتهم بربهم مع ما لجميع المؤمنين من العبادات من الحج ومناسكه، والعمرة ومناسكها، والجهاد وقول المعروف والنهي عن المنكر، وصلة الأرحام والقيام بحق الزوجات والوالدين والأرامل والأيتام، والاعتكاف والضحايا والزكاة والصيام، وغير ذلك من العبادات والصدقات، وإطعام الطَّعام وإفشاء السَّلام، وما لا يحصيه من عبادتهم إلَّا الله الواحد العلَّام، فمن أجل ذلك كانت عبادة الملائكة محصورة في عمل واحد من غير معصية، لا تزيد ولا تنقص، وعبادة الأنبياء عامة مع العصمة، فهي لأجل ذلك تزيد ولا تنقص، والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

الفصل السَّادس
في العموم والخصوص بين الإيمان والإسلام

اعلم يا أخي أنَّ بين الإيمان والإسلام عموما وخصوصا من وجه، فالإسلام أعم من الإيمان من حيث أنه يعم المؤمن والزنديق، لقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات/14]، والإيمان أعمُّ من الإسلام لكونه يعم الجوارح الظَّاهرة والباطنة، بخلاف الإسلام الذي يعم الجوارح الظَّاهرة كونها تفعل مشاهدة، وأمَّا أعمال القلوب فيعلم الزنديق أن قلبه يكذب جوارحه الظَّاهرة، وهي أيضا تكذب قوله، فلأجل ذلك حصل بينهما العموم والخصوص، فتبيّن لنا أن الإيمان أعم من الإسلام، لأن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمن، لأن المنافقين والزنادقة يظهرون الإسلام ويخفون الكفر ويعتقدونه، فلأجل ذلك قلنا إن جوارحهم الظَّاهرة والباطنة يكذب بعضها بعضا، فالإسلام مخصوص بالجوارح الظَّاهرة فقط، والإيمان يعم الجوارح الظاهرة والباطنة، لأن الجوارح الظاهرة تصدق الجوارح الباطنة، والجوارح الباطنة تصدق الجوارح الظاهرة، ولا يوجد خلاف بينهما في العقيدة والفعل، وأمَّا باعتبار المعبود فيدخل الفساد في أعمال الجوارح الظاهرة من جهات الجوارح الباطنة، من حيث يحب العابد أن يراه النَّاس في حال عبادته، ويفرح قلبه إذا

اطلع عليه أحد وهو في عبادة ظاهرة، وقد يقصد ذلك العابد، ويفعله رئاء النَّاس، كما روي أن رجلا مرائي قصد مسجدا معلوما باجتماع الناس فيه في أوقات معينة، فقصد ذلك المسجد ليري النَّاس أنه يتقن الصلاة جدا، فقصد موضعا من المسجد كان به إمام عالم مخلص مشتهر بذلك، فجعل يصلي أمامه ويتقن تلك الصلاة ويجدد النظر للعالم هل كان ينظر إلى صلاته أم لا، فعلم ذلك منه العالم، فقال له: يا أخي إنك عارف بالصلاة جدا فقد أتقنتها يا بني، فأجابه المرائي، فقال له: يا سيدي وأنا صائم أيضا، وتصدَّقتُ برغيف في طريقي، فقال له العالم: هكذا فأنت مصل وصائم ومتصدق، فقال: نعم، وذكرت من الأذكار كذا وكذا، فقال: يا مرائي لم يكفك الرياء بما رأيناه منك حتى زدتنا ما لا علم لنا به، فأنت رجل مرائي على الحقيقة إن صدقت في قولك، وإلا فأنت مرائي كذاب، ترائي بما لم تفعل، فاتق الله، فعملك إن عملته كما قلت فلا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، لأنك أشركت معه غيره، وهو لا يقبل عملا من مشرك، فانصرف خائفا متحسرا، والله الموفق سبحانه.

الفصل السَّابع
في بحث حسن يتعلَّق بما تقدَّم

فإن قال قائل: الإيمان والإسلام شيء واحد أو شيئان؟

فجوابه: أن تقول في ذلك قولان؛ قيل: هما شيئان، وقيل: هما شيء واحد، وحجة من قال شيئان قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات/14] الآية، وحجة من قال شيء واحد قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦ ﴾ [الذاريات/35 - 36].

وقيل: هما شيئان، والدليل على ذلك الحديث الصَّحيح الوارد من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشَّعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فقال: السَّلام عليكم، ولم يزل ما شيا إلى أن بلغ إلى رسول الله ﷺ، فجلس بين يديه وأسند ركبته إلى ركبته، وقال: يا محمد أخبرني ما الإسلام؟ فقال ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدا رسول الله وتقيم الصَّلاة وتؤتي الزكاة وتصوم شهر رمضان وتحج بيت الله الحرام إن استطعت إليه سبيلا»، فقال: صدقت يا محمد،

فتعجبنا منه كيف يسأله ويصدقه، ثم قال: يا محمَّد وما الإيمان؟ فقال ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره»، فقال: صدقت يا محمد، فتعجبنا منه، فقال: يا محمَّد أخبرني عن الإحسان؟ فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك من حيث لا تراه"، فقال: صدقت يا محمد، ثمَّ قال: يا محمد أخبرني عن السَّاعة؟ فقال ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السَّائل»، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «هل تدرون من السَّائل»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال: «ذلك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[1]، فانظر كيف جعل رسول الله ﷺ الدين كله هو هذه الثلاثة، وفيها انطوت جميع منازل السَّالكين التّسعة كما تقدَّم ذلك مجملا، وسيأتي بيانه مفصلا إن شاء الله تعالى في الباب الجامع، وانظر أيضا كيف فرَّق رسول الله ﷺ بين الإيمان والإسلام في هذا الحديث، إذ جعل الإسلام من أعمال الجوارح المحسوسة الظاهرة، مثل الشهادتين والصلوات الخمس والطهارة لها والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من الوظائف الشرعية، كالجهاد والقيام بأمر الجنائز والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من الأمر والنهي، فهي كلها داخلة في قواعد الإسلام لأنها محسوسة لغير الفاعل، ولذلك قل أن تسلم لفاعلها من الرياء والمدح بسببها، هذا لمن كان معتقدا للإيمان، وأما إن نافق بها من غير اعتقاد صحيح فلا خلاف في كفره، قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾[الحجرات/14].

وأمَّا الإيمان وجملة قواعده وما يتعلق به من أعمال الجوارح الباطنة وهو ما وضع عليه هذا الكتاب، فهي أعمال غير محسوسة ولا يعلمها إلا الله وعاملها والكرام الكاتبون، ومنها لا يعلمها إلا الله وعاملها دون الحفظة، وبهذا يثبت صحة القول بأن الإيمان أصل والإسلام فرعه، كما يقال: الثمر من الشجرة، ولا يقال الشجرة من الثمر، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

---

(1) رواه البخاري (27/1)، ومسلم (36/1).

هذا باب أصل الأبواب
في الشروع في مقاصد الكتاب

اعلم يا أخي أن لهذا الكتاب ثلاثة مقاصد، المقصد الأول في بيان مقام الإسلام، والمقصد الثاني في بيان مقام الإيمان، والمقصد الثالث في بيان مقام الإحسان، فأمَّا ما يتعلق بقواعد الإسلام فهو على طريقتين: طريقة في أعمال الظاهر، فاكتفينا عن ذكرها وبيانها وما يتعلق بها بكتب الفقه، فلا نطيل بذكرها، وأمَّا الطريقة الثانية فهي المعبر عنها بطريقة السلوك، وهي المعبر عنها بالطّهارة المعنوية، لما فيها من الأعمال الباطنة، فنأتي بها في الباب الجامع، وكذلك مقام الإيمان، وأما الإحسان فكل ما يتعلق به يذكر في الباب الجامع، وعلى الله البلاغ، وهذا أول الشروع في الوضوء المعنوي.

اعلموا يا إخواني أن حضرة الله المقدسة الرَّفيعة الطاهرة المطهرة لا يدخلها إلَّا الطاهرون التائبون المتطهرون بماء الغيب، اللابسون حلل التقوى والدين، الملازمون الطَّهارة الصّغرى بماء اليقين، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة/222].

واعلموا رحمكم الله أن كل حضرة لا بدّ لها من أدب وطهارة وكسوة، كحضرة الصَّلاة التي هي رأس الدين، لأنها لا تصح إلا بطهارة الثوب والبدن والمكان من الأنجاس، وكذلك في حَضرة الله الرفيعة التي أعدَّها الله للنَّبيين والصديقين والشهداء والصَّالحين، لا يدخلها إلَّا المطهرون من الذنوب والعيوب من جميع الجوارح الظَّاهرة والباطنة، وتنورت لهم القلوب اللابسون لباس التَّقوى، وقاموا بحق الرب والمربوب، قال تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر/4] فتحمل هذه الآية على ظاهرها للدخول في حضرة الصَّلاة، وتحمل هذه الآية أيضا على طهارة الجوارح الظَّاهرة من فعل السَّيئات والعيوب بالتوبة النصوح، بالرجوع للملك الأعظم علام الغيوب، وتصفية الجوارح الباطنة من هواجس الضمائر ورين القلوب، ليصلحوا الدخول لحضرة الله الرَّفيعة التي لا يدخلها إلا محب أو محبوب، فلا بدّ للتوبة والطهور لدخول هذه الحضرة من علم وآداب وكسوة وخدمة، فسنبينها إن شاء الله لكل من يكون له همة فيها، ومن يريد السلوك إليها والحضور مع أربابها، فأسأل الله العظيم بفضله العميم ونبيه الكريم أن يصون أسماعنا من الإصغاء لغير كلامه وأمره، وأبصارنا من النظر إلى

محارمه، وألسنتنا من ذكر غيره وذكر أحبائه، وأيدينا من التعدي بها على حدوده والوقوع في نهيه، وأرجلنا من السعي بها لغير مرضاته، وأبداننا من البخل والكسل في طاعته، وبطوننا بأن تتقوت بمحرم أو مكروه منهي عنه في شرعه، وفروجنا من الزنا واللواط المحرمات على كل مؤمن بربه، وأنفسنا من الميل إلى الشهوات القاطعة عن مؤانسته ومحبته ومناجاته، وعن كل ما يبعدنا من مرافقة نبينا محمد ﷺ وعن ذوي الصَّلاح من أهل ملته. آمين يا رب العالمين. اللهمَّ احفظ قلوبنا من أن يسع فيها غيرك، وأرواحنا من محبَّة غيرك، وعقولنا من التدبير في شيء من ملكك، وأفكارنا من العكوف على أحكام غير أحكامك، وأسرارنا من الحضور مع غيرك، وبصائرنا من رؤية غيرك، وذهننا من حولنا وقوتنا إذ لا حول ولا قوة إلا بحولك وقوتك، ولا تجعل اعتمادنا إلَّا عليك، واحفظ ظواهرنا وبواطننا من التّوجه لغيرك، فلا حول لنا ولا لأحد من خلقك إلا بحولك وقوتك، واحفظ صدورنا من الريب في دينك، وأن تكسينا من خلع لطائف مننك، وافتح لنا خزائن خيرك وبركاتك، وتوجنا بتاج هيبتك وأنوار عظمتك، وارزقنا محبَّتك ومناجاتك ومواساتك، ومنَّ علينا بمشاهدتك وقربك وعفوك ورحمتك وعميم فضلك وسترك، وأسألك بوجهك الكريم وباسمك العظيم ونبيك الكريم أن تثبت أقدامنا على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصَّالحين، واحفظنا من طريق أهل الزيغ والبدع، فنعتصم بك ونتوكل عليك، فإنما نحن لك وإليك، لأننا لا ننطق ولا نكتب ولا نلفظ بكلمة إلا بقدرتك ومشيئتك على حكم ما سبق في علمك، ولا تصيبنا مصيبة ولا نعمة إلا بما سبق لنا في الأزل قبل وجود خلقك، ولا نكسب ذنبا ولا طاعة ولا رزقا وموهبة ورزية إلا بمرادك وحكمك وأمرك وإذنك، ولا تصدر منا طاعة ولا معصية إلا بتوفيقك وخذلانك، فوفقنا لأحب الأمور وأفضلها عندك، مع علمنا بأننا إن أطعناك فبفضلك، وإن عصيناك فبشهواتنا وقهر عدلك، وكل شيء بما قدر في كتابك السابق لنا أو علينا في الأزل، فامنن علينا بفوائد فضلك، فنتبع كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم وصحبه وسلم تسليما.

واعلمُوا رحمكم الله أن مجموع التقوى كلها مجموع في طهارة جوارحنا الظاهرة والباطنة، فيجب على من يحب الدخول في الحضرة الرَّفيعة تطهير جوارحه الظاهرة والباطنة طهورا معنويا زائدا على الطهور الحسي، فنرتب أصول هذه الطَّهارة وفصولها

على مراتب الطَّهارة الحسية لأنها شاملة للوضوء الشرعي، والكسوة المعنوية على الشبه بالكسوة الحسية ليسهل على طالب ذلك بيانه ليعمر بذلك أوقاته وأسبابه، فننظم ذلك كله كنظم الأمهات، ونتبع كل باب منها بحكم الفور والترتيب بوضع باب يخص كل كلمة يأتي ذكرها قريبا من جميع الكلمات، إن شاء الله تعالى خالق العرش والكرسي والأرضين والسَّماوات، فهذا تمام الطهور والكسوة، ويبقى الصَّلاة يأتي الكلام عليها في شرح ما بقي من كلم الأبيات إن شاء الله تعالى، وبتمام الطَّهارة يتم معنى قواعد الشيخ رحمه الله، توضأ بماء الغيب، خاصة إذ لا يتم الكلام على ما تحمله من المعاني إلا في عشرين بابا أخرى، غير ما تقدم من الأبواب من أول الكتاب إلى هنا، ولا ينتهي الكلام على هذه الأبواب إلا في فصول كثيرة وتنبيهات مفيدة، وكلها في وصف الطهارة المعنوية لا غير، ثم نأتي بجملة أخرى في وصف الكسوة المعنوية إذ لا غنى لكل متطهر من الكسوة، فانظر في شرطية ستر العورة في الطهارة الحسية، وهذه مقيسة عليها ولا بدّ من ذكر غاية ما يدخل تحت هذه الكسوة من المعاني في فصول وتنبيهات كثيرة سوف ترى جميع ذلك مشروحا مبينا إن شاء الله تعالى، فإن قلت لِم لم تعين ذلك وتحصيه عددا إذ هو في وهمك مصور، قلتُ فتح الفتاح لا قياس له ولا يعلم منتهاه غيره، إذ لا ندري ما يفتح الله لنا من ذلك، وأمَّا البرنامج الذي يحصر ذلك كله فلا نضعه في أول الكتاب إلَّا بعد الفراغ من تجوره والانتهاء من كتابته، أرشدنا الله وإياكم بمنه وجوده، لكن لا بدّ من رعاية المناسبة بين الشرح والمشروح، فنثبت في شرح كل لفظة من قول الناظم ما يناسبها من كلام ما وصل إلي من كلام كل شيخ ربّاني، ممزوجا مع ما يفتح لنا من الفتوحات، فنبنيه عليها بأحسن المباني إن شاء الله تعالى، والله الموفق.

انظر يا أخي كلام الأولياء ما يحتمل من المعاني والفروع، ولا عجب في ذلك إذ شرف التابع شرف للمتبوع، فإذا كانت هذه المزية لكلام الأولياء فكيف بكلام الأنبياء، وإذا كان كلام الأنبياء والمرسلين لا حصر له فكيف بكلام سيدهم وروح حياة أرواحهم سيدنا ومولانا محمد الذي أوتي جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم وعلى آله، كما نبّه على ذلك الشيخ أبو سعيد البوصيري في البردة رحمه الله بقوله:

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ الله مُلْتَمِسٌ ... غَرْفاً مِن البَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِن الدِّيَمِ

والشاهد لذلك هنا أيضا ما احتملته هذه الكلمة الأولى من كلام الجنيد، فانظره

هنا، فإذا كان هذا كلام الولي فكيف بكلام سيد الخلق كافة، وإذا كان كلامُه عليه السَّلام لا حصر له فكيف بكلام الله الذي لا مثيل له، كيف وقد أخبرنا سبحانه بذلك، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف/109] ولا ريب في ذلك إذ البحر ومثله من الحوادث، وكلام الله قديم، والمحدث لا يحيط بالقديم، فاعلم ذلك فهو بين، والحمد لله والشكر لله على ذلك، لأن إحاطة المحدث بالقديم محال، والمحال لا يتصور في العقل وجوده ولا يعلم قدر القديم، وانظر أيضا لعلم سيدنا محمد ﷺ فيتبين لك ذلك من قول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ قال: "لو أذن رسول الله ﷺ لوضعت على فاتحة الكتاب وقر سبعين بعيرا "، أي حمل سبعين بعيرا، **قلتُ:** هذا في ما يعلمه علي وما فاته من معاني الفاتحة أكثر وأكبر، فأعط للمحدث حقه وللقديم حقه، وأيضا لا عجب في علم الإمام، إذ قال ما قال، حيث شهد له رسول الله ﷺ بقوله: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»[1]، فإذا كان هذا علم الباب فكيف بعلم المدينة، وقد قال بعض المحبين في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه:

أروم امتداح المصطفى فيصدني ... قصوري عن إحصاء تلك المناقب
فمن لي بحصر البحر والبحر زاخر ... ومن لي بإحصاء الحصى والكواكب
فلو أن أعضائي غدت ليس إذاً ... لما بلغت في المدح بعض المناقب
ولو أن كل الخلق تألفوا ... على مدحه لما قضوا بعض واجب
فاسكت عنه هيبة وتأهبا ... وخوفا وإعظاما لأرفع جانب

الباب الأول من أصول هذا الكتاب
في قول الشيخ رحمه الله: "توضأ "

اعلم يا أخي شرح الله صدري وصدرك للإسلام بنور اليقين، وحشرنا وإياكم في

(1) رواه الحاكم في المستدرك (137/3) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقد كثر الخلاف بين المحدثين في هذا الحديث ما بين مصحح له أو محسن، ومضعف له أو قائل بوضعه، وللحافظ السيد أحمد بن الصديق الغماري رحمه الله جزء حديثي مفرد في بيان صحة هذا الحديث، سماه " فتح الملك العلي بصحة باب مدينة العلم علي ".

زمرة المتَّقين، في رفقة الصحابة وأهل البيت وسادات التابعين، وزمرة النبيين والصديقين والشهداء والصَّالحين، والقرب من سيد الخلق أجمعين، سيدنا محمَّد بن عبد الله الهاشمي أفضل رسل رب العالمين، عليهم الصَّلاة والسَّلام، أنَّ اليقين هو باب العبادة وموطن الولاية والسيادة، وضامن بفضل الله للقبول والزيادة، وبه تتطهَّر النَّفس الخبيثة الأمارة فتصير مطمئنة، وتخرق لها العادة، فعليكم إخواني بمعرفة علم اليقين، إذ بمعرفته وسبيله ينكشف عين اليقين، ويتجلى للعارفين بالله حق اليقين، على سبيل المجاز في هذه الدار، فكن كأنك تشاهد الوعد والوعيد بالبصر والبصيرة، في عرصات القيامة، بين يدي رب العالمين، وقد قدمت في الشرح الأصغر من ذلك ما فيه كفاية، واعلموا يا إخواني أنني أريد لما تقدم لنا من ذكر اليقين بيانا لتزدادوا بنصوص الأئمة على ذلك حجة وبرهانا، فأقول اعلم أنَّ اليقين هو الذي عبر عنه النَّاظم بماء الغيب، وهو اليقين، فاليقين إذ هو العلم الذي لا شك معه، واليقين عند أهل الحقيقة رؤية العيان بقوة الإيمان لا بالحجة والبرهان، وهو الشيء الذي وقر في صدر أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث قال سيدنا محمَّد ﷺ: «**ما فاتكم أبو بكر الصديق رضي الله عنه بكثرة صلاة ولا صيام إلا بشي وقر في صدره وهو اليقين**»[1] وعبر أبو بكر رضي الله عنه عن حاله فقال: "لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا"، وقيل اليقين هو: مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب، وملاحظة الأسرار بنور الأفكار.

وذكر الله تعالى اليقين في كتابه العزيز على ثلاثة أوجه: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وقال أهل الحقيقة في تفسير ذلك: علم اليقين ما يحصل عن الفكر والنَّظر، وعين اليقين ما يحصل عن نظر العيان، وحق اليقين ما يحصل باجتماعهما.

وقيل اليقين ينقسم إلى ستة أقسام: اسم ورسم وعلم وحق وحقيقة وعين، فالاسم والرسم للعوام من المؤمنين، وعلم اليقين لعوام العلماء والأولياء، وعين اليقين لخواص العلماء والأولياء، وحق اليقين للأنبياء، وحقيقة اليقين لسيدنا محمَّد ﷺ، وذكر الله تعالى في كتابه العزيز أهل اليقين، وهم الذين يؤمنون بالغيب، لأن الإيمان بالغيب لا يكون إلا بصحة اليقين، فقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ

(1) سبق تخريجه.

يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [البقرة/1 - 4] فالآخرة غيب، والمؤمنون بالغيب هم الموقنون، ولذلك قال رضي الله عنه: "**توضَّأ بماء الغيب**" وقال عليه السَّلام: «**كفى بالموت واعظا، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلا**»[1] وقال عليه السلام: «**إن من اليقين ألا ترضين أحدا بسخط الله تعالى ولا تمدحن أحدا على ما آتاك ولا تذمن أحدا على ما لم يؤتك فإن رزق الله لا يجره إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره**»[2]، ولا يكون هكذا إلا الموقنون الذين يؤمنون بالغيب وقال عليه السَّلام: «**جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل الهم في الحزن والشك والسخط**»[3] وقال ذو النون المصري[4] رحمه الله: "ثلاثة من علامة اليقين، قلة مخالطة الناس في الاشتهار، وترك المدح لهم عند العطاء، وترك ذمهم عند المنع"، وقال إبراهيم الخواص[5] رحمه الله: "لقيت في أرض التيه غلاما كأنه سبيكة فضة فقلت له إلى أين يا غلام، فقال إلى مكة، فقلت له بلا زاد ولا نفقة، فقال: يا ضعيف اليقين، من قدر على حفظ السَّموات والأرض أولى أن يقدر على إيصالي إلى مكة بلا زاد ولا نفقة، فتركته ومضيت فلما وصلتُ إلى مكة لقيته فقال لي: يا شيخ أنت إلى الآن على ذلك الضعف من اليقين، قلت لا".

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (353/7) والقضاعي في مسند الشهاب (302/2) من حديث سيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنه.

(2) رواه الطبراني في المعجم الكبير (215/10)، والبيهقي في الشعب (221/1)، وأبو نعيم في الحلية (121/4).

(3) هو جزء من الحديث السابق، انظر المصادر السابقة.

(4) أبو الفيض ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه، واسمه ثوبان بن إبراهيم وكان أبوه نوبياً توفي سنة 245 هـ، وكان رضي الله عنه رجلا نحيفاً تعلوه حمرة وليس بأبيض اللحية. ولما توفي رضي الله عنه بالجيزة حمل في قارب مخافة أن ينقطع الجسر من كثرة الناس مع جنازته ورأى الناس طيوراً خضراً ترفرف على جنازته حتى وصلت إلى قبره رضي الله عنه. ومن كلامه رضي الله عنه: إياك أن تكون للمعرفة مدعياً أو بالزهد محترفاً أو بالعبادة متعلقاً وفر من كل شيء إلى ربك. (الطبقات الكبرى ص 67).

(5) أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الخواص هو من أجل من سلك طريق التوكل، وكان أوحد المشايخ في وقته، وكان من أقران الجنيد والنوري، وله في الرياضات والسياحات مقام يطول شرحه. مات بجامع الري سنة 291هـ مات بعلة البطن. وكان كلما قام توضأ صلى ركعتين فدخل الماء يوماً فمات وسط الماء، وكان يقول: إنما العلم لمن اتبع العلم واستعمله واقتدى بالسنن، وإن كان قليل العلم. (الطبقات ص 97).

فَصْلٌ

فإذا علمت أنَّ اليقين هو الإيمان بالغيب، فتعلم أن الشَّيخ رحمه الله عبر عن اليقين بماء الغيب، وذلك أنه لما كان الوضوء الحسي لا يرفع الحدث وحكم الخبث عن المكلف إلا بالماء الحسي، عبر عن الطَّهارة المعنوية أنها لا يرتفع الحدث فيها إلا بماء الغيب الذي هو اليقين، ولـمَّا كانت الطَّهارة الحسية على قسمين: طهارة صغرى وطهارة كبرى، والطهارة الصغرى ترفع حكم الحدث الأصغر، وأنه لا يدخل أحد من المكلفين في الصَّلاة التي هي رأس العبادة إلَّا بها، جعلهما الشرع شرطا من شروط الصلاة، فإذا انتفى الشرط فالمشروط منتف، ولما كان الحدث الأكبر يمنع من الدخول للمسجد ولا يباح الدخول للمسجد إلا بعد رفع الحدث الأكبر عن ظاهر جميع البدن بالماء الحسي الطاهر المطهر، أيضا فإذا علمت هذا فالوضوء الشرعي الحسي يتعلق بالجوارح الظاهرة المعلومة شرعا، والطَّهارة من الجنابة الحسية بالماء الحسي تتعلق بجميع ظاهر الجسد بالنية والماء والتدلك والفور فيهما معا، وكذلك يكون الشأن في الطّهارة من الجنابة المعنوية، وهو الحدث الأكبر فيها، والوضوء فيها من الحدث الأصغر، وهو الوقوع في المعاصي ومخالطة الأشرار والإصرار على ذلك، فهذا هو الحدث الأصغر لأنه يمنع من الدخول في روضة التوبة وقلة الاستقامة، كالحدث الأصغر في منعه المكلف من الدخول للصَّلاة، وكذلك المعنوي في ما ذكرناه، وأما الحدث الأكبر المعنوي فهو الجنابة المعنوية، فتمنع المكلف من الدخول لحضرة الله المعبر بها عن كمال التّصفية، ورحم الله الشاعر حيث قال:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... وظنوا أنه مشتق من الصوفِ

ولكنه امرؤ أصفا فصفا ... وزاد صفاء فسمي الصوفي

ولذلك عبر عنها بلفظ البيضاء والجنابة المعنوية المانعة من الدخول للحضرة المقدسة الرفيعة هي الغفلة، قال ابن عطاء الله رحمه الله في حكمه: "**كيف يُشرقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوانِ مُنْطَبِعَةٌ في مرآته؟ أمْ كيف يرحلُ إلى الله وهو مكَبَّلٌ بشَهواته؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرةَ الله وهو لم يتطهَّر من جَنَابَةِ غَفَلاتِهِ؟**"[1]، فانظر فقد سمّى الشيخ الغفلة جنابة، ولا يتطهر المكلف منها إلا بالطَّهارة المعنوية، والوضوء المعنوي أيضا

---

(1) الحكم العطائية بشرح ابن عباد، (الحكمة الثالثة عشرة)، (ص: 48).

والطَّهارة المعنوية متعلقتان بالجوارح الباطنة وبجميع الجسد الظَّاهر، وسنرتب الطهارة المعنوية على الطَّهارة الحسية ليسهل حفظها على المتطهر وهو التائب.

فَصْلٌ

ولمَّا كانت الطهارة الحسية لا تصح مع تلويث الأعضاء الظاهرة بالأنجاس إلَّا بعد طهارتها أولا بالماء، ثم يشرع في الطهارة، وكذلك الطَّهارة المعنوية لا يصح طهرها مع تلويث الأعضاء الباطنة بنجس الإصرار وعدم التوبة، فتطهر تلك الأعضاء بالتوبة ونفي الإصرار، وحينئذ يشرع في الطهارة المعنوية، قلنا فإذا كانت هذه الطَّهارة لا تصحّ إلا بعد صحَّة التَّوبة، فالتوبة لا تصح إلا بعد أن يصحح التَّائب خمس مقامات قبل التوبة، والمقام السَّادس هو مقام التوبة، وحينئذ يؤمر بشروط التَّوبة المعلومة، وهي الإقلاع من المعاصي، ونفي الإصرار، والعزم على أن لا يعود، فإن عاد أعاد التَّوبة فورا ورد المظالم إلى أهلها، ويتلافى ما فرط فيه من الصَّلاة والصيام وكفارات الأيمان وغيرها، فإذا فعل ذلك بعد تحصيل المقامات الخمس التي ذكرنا قبل التَّوبة فهو التَّائب حقا وصدقا، فيجب علينا أن نعلمه الوضوء المعنوي والطَّهارة المعنوية، فأمَّا المقامات الست التي لا يكون التائب تائبا إلا بتحصيلها فأولها مقام اليقظة، وهو الانتباه من نوم الغفلة بسبب موعظة وغيرها، لأن من استغرق في النَّوم الحسي لا ينتبه منه إلا بمحرك، وكذلك المعنوي لا ينتبه منه الغَافل إلا بحركة المواعظ ونحوها، والمقام الثاني العلم، والمقام الثالث التصديق، والمقام الرابع الخوف، والمقام الخامس النَّدم، والمقام السَّادس التَّوبة.

فصل
في بيان اليقظة من نوم الغفلة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ/46] والقومة لله تعالى هي اليقظة من سنة الغفلة، والنهوض عن ورطة الغرة، وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه واليقظة، لأن المستيقظ يجلب النفع لنفسه ويدفع الضر عنها، بخلاف النَّائم الذي هو كالميت، لا يجلب نفعا ولا يدفع ضررا، وهذا مثال صحيح في حق الغافل عن طاعة الله سبحانه، قلتُ فالتوبة لا تصح للميت، وكذلك لا تصح من الغافل الذي هو في موتة الغفلة، فإنه لاستغراق غفلته لا يرجى

وعدا ولا يخاف وعيدا، فلذلك قلنا لا تصح له توبة، فهذا برهان ذلك فاعلمه، وأمَّا الاستشهاد بالآية في أول هذا المقام ففيه مناسبة حسنة للقيام بأوامر الله وترك مخالفته، ولا يقوم لله بأوامر الله إلا المستيقظ له بالموعظة ورقة القلب بتمزيق حجاب الغفلة عنه، فاعلم ذلك.

فَصْلٌ
في المقام الثَّاني الذي هو مقام العلم

والمراد بالعلم هنا العلم بخطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين، فإذا استيقظ الإنسان من نوم الغفلة سواء كان مؤمنا أو كافرا واستيقظ وصار حيا يتأتى منه جلب النفع ودفع الضرر، فإنه ينظر أولا في أوامر الله تعالى ونواهيه، ويعلم أنه إن قام بالأوامر فله بكل حسنة عشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء، قال الله العظيم: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر/10]، وإن عمل سيئة فإنه يجازي بمثلها، إلَّا أن يعفو الله سبحانه، فهذه الأوامر والنَّواهي سريعة التَّعليم للمؤمن والكافر، فإذا حصلت هذه المعرفة لعبد من عباد الله فهو عالم، وحصل مقام العلم، وهذا هو العلم الذي ذكرنا لا أنه لا يكون تائبا حتى يعلم الفرائض والسنن وغيرها من الفروع، فإنه لا يشترط ذلك في حق من أراد التَّوبة، وإنما يخاطب بذلك بعد حصول التَّوبة، وذلك من مقام الاستقامة لا من مقام التَّوبة، وأمَّا العلم المطلوب من المستيقظ لتصح له التوبة هو معنى قوله تعالى: ﴿مَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر/7] ولا يكلف بغير هذا، والله الموفق.

فَصْلٌ

في معرفة المقام الثالث الذي ذكرنا أنه يتقدم على التَّوبة، الذي هو التَّصديق، لأن الإنسان إذا حصل مقام اليقظة كما ذكرنا ثم حصل بعده مقام العلم بما يثاب عليه ويعاقب بفعله أو تركه، فإنه يطلب منه التَّصديق لصاحب الشريعة، وهو سيدنا محمَّد ﷺ في صحة ما جاء به من الثواب والعقاب، فبمخالفة أمره يكون العقاب بالدخول في النار، وبفعل أوامره صلى الله عليه وسلم يستحق الثواب بالدخول في الجنة، فإذا صدق الإنسان في هذه الأمور وأنها حقا بدلالة المعجزة التي تقدم التَّعريف بها، فإذا علم الراسل والمرسل والرسالة والمرسل إليه، فالراسل هو الله العظيم، خالق الخلق

ورازقهم، ومميتهم ومحييهم بعد الموت للجزاء بالثواب والعقاب، والمرسل لهذه الأمة جميعا، أي لكل حي من الآدميين والجنود منذ أرسله الله إلينا إلى قيام السَّاعة، فهؤلاء هم المرسل إليهم، وهم كلهم أمَّة سيدنا محمَّد ﷺ، بدليل قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد/30] الآية، وفي يوم القيامة يقع الفصل بين مؤمن هذه الأمة وكافرها، قال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال/37] الآية، فظهر بهذا القول أن الإنس والجن، مؤمنهم وكافرهم، كلهم أمة لسيدنا محمَّد ﷺ، وليس في هذا الزمان الذي ذكرنا أمة لسيدنا موسى ولا لسيدنا عيسى ولا لغيرهما من المرسلين، وكل من يدعي أنَّه من أمة غيره عليه الصلاة والسَّلام من مبعثه إلى قيام السَّاعة فهو كاذب، لأن ملته عليه السَّلام نسخت جميع الشَّرائع، فمن صدقه منهم فهو مؤمن، ومن لم يصدقه فهو كافر محبوط الأعمال بدليل قوله تعالى: ﴿ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ/28] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف/158]، وأما الرسالة فهي دين الإسلام وقواعده الخمس وقواعد الايمان وقواعد الإحسان المعلومان، فإذا علمت الراسل والمرسول والرسالة والمرسل إليهم، وقد بينت هذا في عقيدة نظمتها في علم التوحيد، فقلت في هذا المعنى في البيت الثاني منها فقلت:

الراسل الله العظيم والمرسل نبي كريم رسالة دين قويم للخلق ليعبدوا الله

وأكثر من مائتي بيت، وهي عقيدة حسنة فانظرها إن شئت، فإذا عرفت الراسل وهو الله، وشدّة عقابه وكثرة نعيمه وثوابه، وصدقت الرسول عليه السلامُ في ما جاء به وأنت حي القلب بنور اليقظة، فإنك تخجل من شدة الخوف من الله تعالى.

فصل في
المقام الرَّابع

الذي هو من المقامات التي تتقدم على التوبة، وهو مقام الخوف، وهو توقع حلول مكروه وفوات محبوب، وقيل هو استشعار النَّفس ما يكدر حالها في المستقبل، وقال بعض المحققين: الخوف من الله واجب بقوله تعالى: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران /175]، وقال تعالى: ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [النحل/51]، ومدح الله سبحانه

بالخوف أولياءه وأنبياءه فقال: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء/90]، وقال: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل/50]، وقال: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة/16]، وقال: ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد/21]، وقال عليه السَّلام: «**لا يدخل النار من بكى من خشية الله**»[1]، وقال عليه السلام «**كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث عين بكت من خشية الله، وعين غضت عن محارم الله، وعين باتت تسهر في سبيل الله**»[2]، وقال عليه السَّلام: «**لا يدخل الجنة من بكى من خشية الله حتى يلج اللبن في الضرع**»[3]، وقال عليه السَّلام: «**إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها**»[4]، وقال عليه السَّلام: في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون/60] أي خائفة أن لا يتقبل منهم أعمال البر[5]، وقال عليه السَّلام: «**رأس الحكمة مخافة الله**»[6]، وقال عليه السَّلام: «**من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله خاف من كل شيء**»[7]، وقال عليه السَّلام: «**قال الله تعالى: لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، إن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، وإن أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة**»[8]، قال الأستاذ أبو علي

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب " الرقة والبكاء "(ص: 41)، والبيهقي في شعب الإيمان (489/1) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية (163/3) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (208/4) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) رواه البزار في مسنده (148/4) والبيهقي في شعب الإيمان (491/1) من حديث سيدنا العباس رضي الله عنه.

(5) يشير إلى حديث أمنا عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون، قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات" رواه الترمذي في سننه (327/5).

(6) شعب الإيمان (470/1) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(7) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (69/4): "رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا. ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين بإسناد ضعيف معضل".

(8) رواه ابن حبان في صحيحه (401/2) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

الدقاق[1]: الخوف على ثلاث مراتب، الخوف والخشية والهيبة، فالخوف من قضية الإيمان، قلتُ وهذا يناسب ما قلنا قبل من أنَّ الخوف مرتب على التَّصديق، وهذا الشيخ قال هنا: الخوف من قضية الإيمان، والإيمان هو التَّصديق إذ من لا تصديق له لا إيمان له، ثم قال: والخشية من قضية العلم لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر/28] والهيبة من خشية المعرفة، وقيل: أول الخوف الوجل، فإذا التقوى صارت خوفا، والخوف فزع تخف له الأعضاء، فإذا خفت صار هيبة، فإذا صحبه العلم ودله على الصبر صار خشية، وقيل: الخوف للمذنبين والرهبة للعابدين والخشية للعلماء والوجل للمحبين والهيبة للعارفين لأنهم لا خوف لهم قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس/62]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت/30]، فالعارف له هيبة ودهشة في مقام الجلال وحضرة الكمال، فإذا تجلى الحق بأوصاف الجمال فيغيبون عن رؤية الأعمال والأجسام، فلا يبقى لهم خوف ولا رجاء، لأنَّ الخوف من أثر الإحساس بالبشرية، فبعد أن تلاشت أوصافه يتلاشى خوفه ورجاؤه، ولذلك قال الواسطي[2] رحمه الله: "الخوف حجاب بين الله والعبد، فينبغي للعبد أن يكون أبدا على حذر ولا يغتر بحسن حاله وكثرة أعماله"، وكثير ما ينشد أهل الحقيقة في هذا المعنى شعرا:

حسَّنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسلَّمتك اللَّيالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وَقيل: لما طرد إبليس عليه اللعنة وجرى عليه ما جرى، جعل جبريل وميكائل يبكيان زمنا طويلا، فأوحى الله تعالى إليهما: ما يبكيكما؟ فقالا: يا ربنا لا نأمن مكرك، فقال: فهكذا كونا لا تأمنا مكري.

---

(1) الدقاق أبو علي: الحسن بن علي بن محمد الدقاق أبو علي البغدادي الشافعي توفي سنة 405، صنف كتاب الضحايا (هدية العارفين 220/1).

(2) الواسطي أبو عبد الله محمد بن زيد الواسطي من جلة المتكلمين وكبارهم أخذ عن أبي علي الجبائي واليه كان ينتمي وكان في زمانه علي الصوت كثير الأصحاب وقيل إنه من متكلمي بغداد وفيهم بعد وهو الصحيح. (فهرست ابن النديم 245/1).

قلت: وهذا مما يقوي الخوف في قلوب الطّائعين فأحرى العاصين والفاسقين. هـ.
وقال حاتم الأصم[1]: "لا تغتر بموضع صالح فلا موضع أصلح من الجنَّة، وقد لقي فيها آدم ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد كثرة عبادته لقي ما لقي، ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام بن باعورا[2] كان يعرف الاسم الأعظم وقد لقي ما لقي، ولا تغتر بمخالطة الصّالحين فلا رجل أعظم قدرا وأحسن حالا من رسول الله ﷺ ومع ذلك لم ينتفع أقاربه لمخالطته، **قلتُ:** عمه أخو أبيه أبو لهب[3] كيف صرح الله بإهانته وعذابه في محكم كتابه الحكيم فأنزل فيه وفي زوجته أم جميلة بنت أبي سفيان بن حرب وبدل الله اسمها بحمالة الحطب، لكن كانت تحمل الشوك وتحته ليلا في طريق سيدنا محمد ﷺ للمسجد، فلذلك سمّاها الله تعالى حمّالة الحطب، وغيره ممن كان أقرب من أبي لهب نسبا وأعظم النّاس له صلى الله عليه وسلم محبة وأنه يكلؤه من الأعداء بسيفه ولسانه ومع ذلك لم ينطق بالشهادتين عند الموت بمحضره عليه السّلام، وشدة محبته له وحرصه على إيمانه، فهذا مما يكسر القلوب ويملؤها خوفا من الله تعالى، ولذلك أطنبت الكلام في هذا الفصل لأنه يقوي الخوف في القلوب، والخوف يشهد لصاحبه بالإيمان، ومن لا خوف له لا تصديق له، ومن لا تصديق له لا إيمان له، وصاحب الخوف حريص على التوبة، فاعلم ذلك والله الموفق.

فَصْلٌ

فِي المقام الخامس فِي النَّدم

وهو من المقامات التي تتقدم على التّوبة.

اعلم أنَّ النّدم هو التأسف والتحسر على فوات محبوب أو الوقوع في مكروه، وأحرى إذا فاته المحبوب، وهو رؤية الله تعالى ورؤية نبينا محمَّد ﷺ وسكنى الجنان والدرجات، ويبقى مع ذلك في أطباق جهنَّم، فهذا أشد حسرة وندامة، والندم على

(1) أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان الأصم هو من قدماء المشايخ بخراسان من أهل بلخ صحب شقيقاً البلخي وهو أستاذ أحمد بن حضرويه مات أبو عبد الرحمن سنة 237 هـ ودفن عند رباط يقال له سروند على جبل فوق واشجرد. (الطبقات الكبرى ص 78).

(2) الذي ورد فيه قوله تعالى ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

(3) عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كفر ونزل في حقه سورة المسد.

قسمين: ندم مذموم وندم محمود، فالندم المحمود هو الندم في الدنيا، فيكون سببا لرضاء الله باعتقاد التوبة والعمل الصَّالح، وربما يرقى في درجات السَّالكين، وربَّما يرقى إلى درجة الأقطاب[1]، وأقل فوائده إذا كان مقتصرا على أداء الفرائض وترك المحرمات إنه يموت تائبا وتبدل سيئاته حسنات، لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان/70] الآية، وأعلاها إذا منَّ الله عليه وتفضل عليه بمقام القطب الأكبر، وما ذلك على الله بعزيز، فهذه نتيجة الخوف المحمود.

وأمَّا النَّدم المذموم فهو ندم الكافر الذي مات على كفره، والعياذ بالله من ذلك، فهذا هو الذي اجتمعت عليه حسرتان، ندامة على فوت المحبوب والنَّعيم المقيم أبدا، وحسرة الوقوع في المكروه وهو المأوى في قعر جهنم، وحيث شاء الله له من طبقاتها مع الخلود في العذاب الأليم أبدا، فأي ندامة وحسرة أعظم من هذه، ويليها ندم المؤمن العاصي الذي مات وهو مصر على الكبائر، فهذا وإن عاقبه الله بالنار لا بدّ من الخروج منها والسكنى في الجنان بفضل الله تعالى، فهذا ندمه أخف من الأول لأنه بنفس دخوله الجنة ينسى ما فات من العذاب والمشقة، حتى كأنه لم ير بأسا أبدا، ويلي هذا الندم ندم المؤمن التَّائب يوم القيامة على ما فاته من أيام البطالة والعمل الصالح، فيكون عليه حسرة وندامة يوم القيامة وإن كان آمنا من النار وعذابها، وقد ضربت لهذه الأقسام الثلاثة مثلا، فكن حاضر الذهن لاستماعه، وذلك أنه حكي أن ذا القرنين[2] لما قفل من غروب الشمس مر هو وجنوده ببحر الظلمات في جزيرة كثيرة الحجارة والحصا، فاشتكى له عسكره بما لقوا من شدة الحجارة فقال لهم: احملوا هذه الحجارة في رحالكم فستندمون كلكم على حملها، فافترق الناس على ثلاث فرق، فرقة حملوا

---

(1) قطب وهو مقام من مقامات الإحسان والعرفان يسمي به الصوفية الأخيار العارفين والأولياء، (ينظر: قاموس اصطلاحات الصوفية ص 455).

(2) عن قتادة قال إسكندر هو ذو القرنين وأبوه أول القياصرة وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام، فأما ذو القرنين الثاني فهو إسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون بن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومي بن الأصفر بن يقز بن العيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل كذا نسبه الحافظ ابن عساكر في تاريخه. (البداية والنهاية لابن كثير 105/2).

واستكثروا فقالوا إن ندمنا ومعنا كثير أفضل من أن نندم وعندنا القليل، ولا يمكننا التلافي والرجوع إليها، وفرقة حملوا قليلا وقالوا لا بدّ من النَّدم، فنندم على شيء خفيف الحمل أفضل من أن نندم على المشقة والحمل الكثير، والفرقة الثالثة قالوا إن كان ولا بدّ من النَّدم فنندم على سلامتنا من ثقل الحجارة أولا، فلم يحملوا شيئا ثم انصرفوا، فلمَّا خرجوا إلى البر وفتحوا أمتعتهم فإذا بالحجارة التي حملوها كلها ياقوت برهماني لا قيمة له، فندم جميع العسكر، فأمَّا ندم القوم الذين استكثروا من حمله فندموا إذ لم يحملوا أكثر من ذلك، فندمهم أخف من غيرهم، وأمَّا الذين يلونهم وهم القوم الذين حملوا شيئا قليلا، فندموا إذ لم يستكثروا من الحجارة كمن ذكر قبلهم، وأمَّا الفرقة الثالثة الذين لم يحملوا شيئا فندموا ندما كثيرا وتحسروا وتأسفوا إذ لم يحملوا شيئا، فهؤلاء ندمهم يماثل ندم الكافرين يوم القيامة، إذ فات محل التدارك، فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام/28]، والذين يلونهم فندمهم يضاهي ندم عصاة المؤمنين يوم القيامة، فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة/102]، وأما الذين يلونهم الذين استكثروا من حمل الحجارة فندمهم يشبه ندم المؤمنين التَّائبين الذين ماتوا على توبتهم واستكثروا من الأعمال الصالحة، فإن كان ولا بدّ من النَّدم فاندم يا ابن آدم في الدنيا لينفعك الندم يوم القيامة، والله الموفق سبحانه.

تنبيه:

اعلم يا أخي أنه يتقدر هنا سؤال وجواب، **فإن قيل**: إن كان التَّائب لا تصح له التَّوبة حتى يحيط علما بهذه المقامات الخمسة التي تضمنتها هذه الفصول الخمسة، فلا تجد تائبا من المسلمين إلا قليلا، وهذا لا قائل به من أئمة المسلمين، **فجوابه** للمؤلف: أن يقول لك اعلم أنَّ التَّوبة لا تكون توبة إلا بعد معرفة الذَّنب ثم يتوب منه، ومعرفته تتصور من المقامات الخمسة المذكورة، وذلك كله يحصل للتَّائب بسرعة سواء كان قارئا أو غير قارئ، مؤمنا أو كافر، وكل ذلك يحصل لهم في لحظة، وذلك أنَّ التائب إذا أراد التَّوبة فتلك الإرادة هي المعبر عنها باليقظة والانتباه، إذ لولا انتبه وفكر فيما بقي من المقامات لما أراد الله له التَّوبة، فهذا المقام حاصل لكل أحد في الحين بلا مشقة، ويليه مقام العلم، وهو بلوغ دعوة سيدنا محمد ﷺ وما جاء به عن ربه من الأمر والنَّهي وغيرهما، مما يتعلق بشرعه عليه الصلاة والسَّلام، يعني مما علم من

الدين بالضرورة، كالنطق بلفظ الشهادتين واعتقاد معناهما، والصَّلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد بلغت الدَّعوة لجميع أقطار الدنيا، وهذا هو العلم الذي يتقدم على التوبة، وهو حاصل لكل أحد، ويعلم كل أحد الحلال والحرام، كقتل المؤمن ظلما وتعديا، فكل أحد يعلم أن ذنبه عظيم، وكذلك الزنا وشرب الخمر والسَّرقة والغضب والتَّعدي، فهذا مقام العلم حاصل أيضا بسرعة لكل أحد، وأما مقام التَّصديق، وهو تصديق ما جاء به نبينا محمد ﷺ في كل ما جاء به من الوعد والوعيد، وهو الثواب بالجنة ونعيمها للطَّائعين، والعقاب بالدخول في النار لجميع الكافرين وشرذمة قليلون من المسلمين، ويحقق العبد معنى قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[الزلزلة/7 - 8] وأيضا يعلم قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف/49] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور/16] فهذا مقام التصديق، وهو معلوم لكل أحد ولا يحصل إلا بتوفيق الله سبحانه، وأما مقام الخوف فيحصل بالتفكر في العقاب المترتب على الكفر والعصيان أو فوات السكنى في الجنة وعدم رؤية وجه الله عظيم القدر والشأن، فإن المتفكر في ذلك يحمله الخوف على ذلك على الحسرة والنّدامة، وهذا حصوله بأيسر سعي لمن وفقه الله تعالى، وأمَّا مقام النَّدم فهو مرتب على الخوف إذ النَّدم مرتب على الخوف ولا ينفك عنه، فهذا أيضا حاصل لكل أحد، ومهما حصل النَّدم حصلت، فهذا جواب السؤال المتقدم فاعلمه، ولا عتاب علينا في ذلك والله أعلم.

فالتوبة حاصلة قطعا للنَّادم لقوله عليه السَّلام: «**النَّدم توبة**»[1]، فقوله عليه السَّلام النَّدم توبة فليس النّدم نفس التوبة بل معظم دواعي التَّوبة كقوله عليه السّلام: «**الحج عرفة**»[2] أي معظم الحج، أي هي أعظم مناسك الحج، فاعلمه لأن التوبة من غير ندم هي توبة الكذّابين، فاعلم ذلك، فقد بان لك بذلك أنَّ هذه المقامات كلها معلومة ومعقولة لكل أحد وليست مجهولة، ويدركه كل تائب سريعا بغير كلفة ولا مشقة، والله الموفق.

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده (376/1)، وابن ماجه في سننه (1420/2).

(2) رواه أحمد (309/4)، والترمذي (237/3)، والنسائي (256/5)، وابن ماجه (1003/2) من حديث سيدنا عبد الرحمن بن يعمر الديلي.

فصل
في بيان مقام التوبة وشروطها

وهو المقام السادس من المقامات المتقدمة على التوبة، فاعلم أنَّ التَّوبة في اللغة الرجوع عن الذنب، وكذلك التوب، قال الله العظيم: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر/3] وقيل التوب جمع توبة، فالتّوبة في الشرع الرجوع عن الأفعال والأقوال المذمومة إلى الأقوال والأفعال المحمودة، وهي واجبة على الفور، ونعني بالفور هنا البطش من غير تراخ مع ما فيه من معنى الموالاة، وهي الدوام عليها، ومهما نقضت ردت، وهذا عند عامة العلماء، أما الوجوب فيثبت بقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور/31].

واعلم أنَّ جميع المؤمنين يشمل العامة والخاصة وخاصة الخاصة، فتوبة العامة من الكبائر والصغائر، وتوبة الخاصة من وساوس الصدور وهواجس الضَّمائر، وتوبة خاصة الخاصة من النظر لغير الله، الباطن الظاهر العالم بما في القلوب والخواطر، وأما الثاني بالفورية في تأخيرها من الإصرار فمحرّم، وأمّا الإنابة فهي قريبة من التّوبة لغة وشرعا، والتّوبة عند أهل الحقيقة النّدم على ما مضى والدوام على ما صفا، وقيل النَّدم على ما فات وإصلاح ما هو آت، وقيل التوبة ترك التسويف وتقويم الاعوجاج والتحريف، وقال بعضهم التوبة أن ترجع عن كل شيء سوى الله عزّ وجلَّ، وتقطع كل علاقة بينك وبين غيره قطعا متّصلا، كما قال الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف/110]، وقال بعض المفسرين: سبب نزول هذه الآية الكريمة أن رجلا أتى النّبي ﷺ فقال له إني أتصدق بالصَّدقة فألتمس بها وجه الله وأحب أن يقال فيَّ خير، فنزلت، وقال ذو النون المصري رحمة الله عليه: حقيقة التّوبة هي أن يضيق الأرض عليك بما رحبت ﴿ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة/118].

قُلْتُ: هذا يؤيد ما ذكرناه من المقامات الخمس التي ذكرنا أنها تتقدم على التّوبة لأن هؤلاء الثلاثة كانوا من أخيار الصَّحابة وتخلفوا عن رسول الله ﷺ من جيش العسرة التي أمر صلى الله عليه وسلم جميع المؤمنين بالمسير معه وعرفهم أنه لا يتخلف عنه في هذه الغزوة إلا منافق، فقال المنافقون بعضهم لبعض سرا لا تنفروا في

الحر، ففضحهم الله عز وجل بنزول هذه الآية، فلمّا تخلف هؤلاء الثلاثة وهم مؤمنون مخلصون عن رسول الله بغير قصد ولا اختيار إلا بحكم القدرة الأزلية، وقضيتهم معلومة في البخاري وكتب التفسير، فلا نطيل بذكرها بل نعرفهم بأسمائهم ليكونوا على بال من يطالع هذا الكتاب، وهم كعب بن مالك[1] رضي الله عنه، ومرارة بن الرَّبيع[2] رضي الله عنه، وهلال بن أمية[3] رضي الله عنه، فلما قفل رسول الله ﷺ وجاءه المنافقون يعتذرون عن تخلفهم عن رسول الله ﷺ فعذرهم، ولم يقبل الله تعالى عذرهم، ففضحهم الله سبحانه في كتابه العزيز، وعرف بتوبة الثلاثة السَّادات المذكورين لأنهم لم يتعمدوا التخلف ولم يعتذروا كما اعتذر المنافقون، فغضب عليهم النبي ﷺ ونهى الصَّحابة الكرام عن كلامهم نحو الخمسين يوما، فيدخلون على رسول الله ﷺ ويسلمون عليه فلا يرد عليهم ويقول بعضهم لبعض هل حرك شفتيه أم لا فيقول المسؤول منهم لا، ويسلمون على المسلمين فلا يردون عليهم السَّلام، ويكلمون أقاربهم فلا يردون عليهم جوابا طول المدة المذكورة، فلمَّا كان بعد الأربعين يوما عزل رسول الله ﷺ عنهم نساءهم، فاشتد عليهم الأمر، فجاء رجل متنصر للسوق وسأل عن كعب بن مالك رضي الله عنه فأرشد إليه فناداه لخلوة وناوله كتابا من قيصر

---

(1) كعب بن مالك بن أبي كعب، عمرو بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب ابن سلمة الأنصاري، الخزرجي العقبي الأحدي. شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه، وأحد الثلاثة الذين خلفوا، فتاب الله عليهم. شهد العقبة، وله عدة أحاديث تبلغ الثلاثين. اتفقا على ثلاثة منها، وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بحديثين. توفي رضي الله عنه في خلافة علي رضي الله عنه. (الاستيعاب لابن عبد البر 282/1).

(2) مرارة بن الربيع الأنصاري الأوسي: من بني عمرو بن عوف صحابي مشهور شهد بدراً على الصحيح هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم أخرجاه في الصحيحين من حديث كعب بن مالك في قصة توبته. وفي حديث جابر عند قوله تعالى: "وعلى الثلاثة الذين خلفوا " التوبة 118 قال: هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وكلهم من الأنصار. توفي رحمه الله.

(3) هلال بن أمية بن عامر بن قيس بن عبد الأعلم بن عامر بن كعب بن واقف - واسمه مالك - بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس الأنصاري الواقفي. شهد بدراً وأحداً. وكان قديم الإسلام، كان يكسر أصنام بني واقف، وكانت معه رايتهم يوم الفتح. وأمه أنيسة بنت هدم، أخت كلثوم بن الهدم الذي نزل عليه النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة مهاجراً وهو أحد الثلاثة الذي تخلفوا عن غزوة تبوك، وهم: هلال هذا، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الذينَ خُلِّفُوا﴾ التوبة الآية. (أسد الغابة 93/3).

ملك الروم وهو يقول فيه: بلغنا أنَّ صاحبكم جفاكم وأبعدكم عن نفسه فالحقوا بنا نكرمكم ونعظم قدركم، فمزق الكتاب رضي الله عنه وطرحه من يديه واغتاظ غيظا شديدا وقال هذا أعظم ممَّا كنا فيه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة/118] الآية، فنزلت الآية بتوبتهم، فانظر فهؤلاء السَّادات لم تنزل توبتهم حتى تقدَّمت معرفتهم بالمقامات الخمسة التي ذكرناها قبل، وقلنا لا بدّ لكل تائب أن يحصل هذه المقامات، فأولها اليقظة، وهم لم يكونوا غافلين عن هذا الذنب، والثاني العلم، وهم كانوا عالمين به بالعقوبة عليه، ولا سيما وقد عوقبوا عليه في الدنيا، وأحرى في الآخرة، والتَّصديق، فلا يشك أحد أنهم كانوا مؤمنين مصدقين بكل ما جاء به صلى الله عليه وسلم، والدليل على ذلك قول كعب بن مالك رضي الله عنه للمتنصر هذا أعظم، والخوف والوجل ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ [التوبة/118] الآية، وندمهم معلوم غير مجهول لما ذكرناه، لأنَّ النّدم نتيجة الخوف، فلمَّا حصلت لهم هذه المقامات كلها نزلت توبتهم، وكذلك ينبغي أن تكون توبة كل تائب لأن هذه علامة التّوبة الصَّادقة، فهذا شاهد وحجة تصديق ما ذكرناه، فحيث عرفنا ذلك، فاعلم أنَّه قيل إن التوبة على ثلاث، توبة العامة من الزلات، وتوبة الخاصة من الغفلات، وتوبة خاصة الخاصة من رؤية الحسنات، وقيل من تاب من خوف العقاب فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعا في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر لا خوفا ولا طمعا فهو صاحب أوبة، وقيل التَّوبة صفة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور/31] والإنابة صفة الأولياء والمقرَّبين، قال الله تعالى: ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق/33] والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: في أيوب عليه السَّلام: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص/30] وأظهر الأقوال أنَّ التَّوبة على قسمين: توبة العوام، وهي الرجوع عن المعاصي إلى الطاعة بترك الدنيا وطلب الآخرة والجنة ونعيمها، وهذه التَّوبة للعوام، ويشاركهم فيها الأبرار، وتوبة خواص الخواص، وهم المقربون، وهي التوبة من هذه التوبة بالرجوع عنها لعبادة الله لذاته المقدسة فقط، لا طمعا في

الثواب ولا خوفا من العقاب، ولهذا كانت توبة العوام ذنبا من ذنوب الخواص، كما قال صلى الله عليه وسلم: «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين»[1]، ثم الخواص على قسمين، العارفون والمقربون، فالمقرَّبون خواص الخواص، ونسبة العارفين إلى المقربين كنسبة المبتدئين في السلوك إلى العارفين، ثم اعلم أنّ القسم الأول من قسمي التّوبة هو أول منازل السلوك ومقامات الطالبين، وحث الله على التوبة بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة/222]، وروى أنَّ النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب**» ثم تلا هذه الآية المذكورة[2]، والمعنى أنَّ الله إذا أحب العبد وفَّقه للتّوبة فيتوب فلا يضره الذنب الذي صدر منه قبل التوبة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «**التَّائب من الذنب كمن لا ذنب له**"[3]، وقال عليه السَّلام: «**ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب**»[4].

وشروط التَّوبة عند أهل السّنة والجماعة ثلاثة، النَّدم على ما سلف، والتّرك في الحال، والعزم أن لا يعود إلى مثل ذلك في المستقبل، وقال بعضهم: شروط التوبة ثمانية، الثلاث المذكورة، والرابع: رد مظالم العباد وحقوقهم، والخامس: قضاء ما فات من واجبات الله تعالى، والسَّادس: إذابة كل لحم وشحم نبت من الحرام بالرياضة والمجاهدة، والسَّابع: إصلاح المأكول والمشروب والملبوس بجعل ذلك من جهة حلال، والثامن: تطهير القلوب من الغل والغش والمكر والخديعة والحسد والحقد وطول الأمل ونسيان الأجل وما أشبه ذلك.

وأمَّا التَّوبة النصوح فهي التَّوبة البالغة في النّصح، وقيل: هي أن يتوب ثم لا يعود

---

(1) قال المحدث العجلوني رحمه الله في كشف الخفاء (122/2): "هو من كلام أبي سعيد الخراز كما رواه ابن عساكر في ترجمته، وهو من كبار الصوفية، وعده بعضهم حديثا وليس كذلك".

(2) رواه القشيري في رسالته الشهيرة (ص: 59). وقد رواه الحافظ أبو نعيم في الحلية (318/4) من كلام الشعبي، بلفظ: كان يقال التائب من الذنب كمن لا ذنب له ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين فإذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب وذنب لا يضر كذنب لم يعمل.

(3) رواه ابن ماجه (1419/2) والطبراني في الكبير (150/10) من حديث عبد الله بن مسعود، والبيهقي في شعب الإيمان (436/5) من حديث ابن عباس.

(4) رواه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (181/4) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه، وعزاه الحافظ السيوطي في الجامع الصغير إلى أبي المظفر السمعاني في أماليه.

إلى ما تاب منه أبدا، وقال يحيى بن معاد الرازي[1]: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين زلة قبل التوبة، وقال ذو النون: الاستغفار من الذنب من غير إقلاع عنه توبة الكذَّابين، ثم إن أول مقدمات التّوبة انتباه القلب من رقدة الغفلة، ونظر العبد فيما هو عليه من سوء الحال والإصغاء إلى زواجر الشرع بسمع القلب، ولهذا قال عليه السَّلام: «**واعظ الله في كل قلب مؤمن**»[2]، وثاني المقدمات هجران رفقة السوء لأنهم يمنعون من التّوبة قولا وفعلا، ومن تاب ثم لم ينقض توبته فهو من السعداء، وإن نقضها مرة أو مرات ثم جددها فإنه يرجى له الثبات عليها، فإن لكل أجل كتابا، واعلم أنه لا ينبغي للعصاة والمذنبين أن ييئسوا من رحمة الله تعالى في قبول توبتهم ومحو حوبتهم، وإن كثرت ذنوبهم وعظمت وتكرر منهم نقض التّوبة والإصرار على الكبائر فذلك غلط عظيم وسبب لفوات التّوبة والبقاء في الذنوب أبدا، بل ينبغي إذا عرضت لهم مثل هذه الحالات أن يعلموا أن ذلك من كيد الشيطان ومكره في منع الإنسان من التّوبة وإبقائه مصرا على الذّنب مدة حياته، نعوذ بالله من ذلك، وصلاح ذلك الداء إذا حصل أن يتدبَّر العصاة قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر/53]، وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء/48] ونظائر ذلك كثير في القرآن العظيم الكريم، وَروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: آيتان في كتاب الله تعالى ما أصاب عبد ذنبا فقرأهما ثم استغفر إلا غفر الله له أحدهما ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾ [آل عمران/135] الآية، والأخرى ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء/110].

واعلم أنَّ التوبة أصل هذا الطريق وأساسه، فمتى صحت التّوبة وخلصت لله تعالى صح ما بني عليها وأثمر من جميع ما نذكره في هذا التأليف ممَّا يتعلق بشرح هذه

---

(1) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الواعظ الرازي كان أوحد وقته في زمانه، له لسان في الرجاء خصوصاً وكلام في المعرفة. أقام ببلخ مدة ثم عاد إلى نيسابور ومات بها سنة 258 هـ. ومن كلامه رضي الله عنه كيف يكون زاهداً من لا ورع له. (الطبقات الكبرى ص 79).

(2) رواه أحمد في مسنده (182/4) والحاكم في مستدركه (144/1)، والبيهقي في شعب الإيمان (5/ 444) من حديث النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه.

الأبيات إلى آخر هذا الكتاب، وإن طال الكلام فيه فإنَّ ذلك كله متعلق بالطَّريق الموصل إلى الله تعالى في قطع المنازل والعقبات وسير السائرين إلى الله سبحانه، واعلم أنَّ الله تعالى ليس بينه وبين خلقه مسافة تسلك بالمنازل والمفاوز ولا بالبعد والقرب، فذلك محال والمحال لا يتصور في العقل وجوده، ولكن هذا السفر المنسوب للسَّالكين وقطع العقبات للمجدوبين في لحظة ليس ذلك أمر حسي، وإنما ذلك أمور معنوية يعبر بها عن طهارة القلوب وصفائها إلى غاية الصفا، وأنهم يعبرون بالوصول عن الوصول لرضاء الله سبحانه، والحافظين الوقوع في الذنوب والسيئات بعد ذلك، ومتى لم تصح التوبة أو فسدت بإخلال بعض شروطها أو بأن يشوبها شيء من الأعراض الدنيوية كطلب السمعة والشهرة وإجداب قلوب الناس بعلم أو عمل أو ما أشبه ذلك كان البناء عليها كالبناء على شفا جرف هار، نعوذ بالله من ذلك.

اللهم إن هذا الكتاب وضعته لوجهك وخالصا، فاجعلني في سترك وحفظك من العجب والرياء والسمعة إلى يوم لقائك يا حليم، ولكن الزاجر لنا بفضل الله قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة/79]، فهذه موعظة عظيمة ينتفع بها كل مصنف إن وفقه الله تعالى، وإن كانت هذه الآية إنما نزلت في أحبار اليهود فيخشى كل مؤلف أن يدخل في عموم هذه الآية والعياذ بالله، فمن تدبَّر هذه الآية كانت له من أعظم الزواجر، إن تفضل عليه المولى جل جلاله بالفهم والعلم، لكن أذكر نفسي وغيري تذكرة تنفي عنها العجب والمباهاة، وذلك أن يتدبَّر معنى هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات/96]، فنعلم ضرورة أنه لا علم لنا إلا ما علمنا مولانا، ولا عمل لنا إلا قضاه وقدره بنا، فنعلم أيضا ضرورة أننا كالأقلام، وقدرة الله كاتبة، لكن القدرة الاكتسابية تؤثر في مقدورها بحكم الاختيار، وتأثير القدرة الحادثة مجاز، وإنما التأثير الحقيقي هو للقدرة الأزلية، فلا فائدة للاكتساب إلا وجود اختيار الفعل والترك، فعلى ذلك يستحق المكتسب الثواب والعقاب، فحيث هو الأمر هكذا فنحن كالأقلام والقدرة الأزلية كاتبة في جميع الأقوال والأفعال، فعلى هذا لا يحمد المؤلف لأنه غير مؤلف وإنّما المؤلف والكاتب غيره، فكيف يتعجب المؤلف بفعل غيره على الحقيقة، وكيف يباهي بعمل لا تأثير له في

وجوده سوى المجاز، والاختيار من حيث تفضل بهما عليه إلهنا الواحد القهار، ولا سيما وجميع ما نقلت هنا إنما نحن مسبوقون به لأن الأوائل لم يتركوا في كل فن قولة لقائل، وإنما رتبنا أشياء كانت عندنا في الذهن وتكلمنا عليها بكلام الغير، فمن دخله العجب والافتخار بكلام غيره وربَّما يكون قد غيَّره عن محله فيكون للتوبة والاستغفار أولى من العجب والاستكبار، وأنا أقول أستغفر الله من كل ذنب، أعوذ بالله من كل ذنب، والله الموفق سبحانه.

الباب الأول
من الأبواب الثماني التي هي في معنى قول الشيخ:
"توضأ بماء الغيب"

فكأنه رضي الله عنه جرد من نفسه صورة مكلف بالغ عاقل تائب بالتوبة التي وصفناها، فخطبها بما تضمنته معاني الثلاثة أبيات ليكون الخطاب صالحا لنفسه ولكل مكلف من الذكور والإناث، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور/40] ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة/213].

فصلٌ
في لوازم الوضوء

اعلم أن الوضوء الحسي من لوازمه الاستبراء قبله باستفراغ الأخبثين، وهما البول والغائط اللذان يجد المكلف ثقلهما بعد انحدارهما في الأمعاء بعد النضج والتصفية في المعدة، فيجب على المكلَّف استفراغهما في بيت الأنجاس، وهو المرحاض، لئلا تفسد عبادته لاشتغاله بمدافعتهما، فيشغله ذلك عن فهم القراءة وكيفية الصَّلاة، فتبطل عليه صلاته، فإذا استفرغهما وانقطعت مادتهما من جوفه فيستجمر محل الغائط والبول بما بقي عليهما من أثر الأخبثين بطاهر يابس قلاع غير محدد، ثم يستنجي بالماء الطَّاهر لينجى من عين الأنجاس ومن أثرهما، وكذلك يجب على التَّائب أن يستفرغ الأخبثين المعنويين ويقطع مادتهما ويستجمر بتجفيف المحل بمثل ما ذكرناه، ثم يستنجي بماء الغيب وهو اليقين.

فَصْلٌ
في معرفة الأخبثين المعنويين الذين يفسدان العبادة المعنوية

فالغائط المعنوي هو حب الدنيا والاشتغال بجمعها وعمارة القلب بتدبيرها، والبول المعنوي هو الرياء، فيجب استفراغهما وانقطاع مادتهما والاستجمار المعنوي منهما والاستنجاء بماء الغيب من بقية أثرهما، وأمَّا بيت الأنجاس فهي النَّفس الأمارة، وأرباب البيت وملاكه فهم إبليس وجنوده لعنهم الله.

فصلٌ
في التعريف ببعض أحوال الدنيا

فتعريفنا بها، هذا الكتاب كاف عن بقية أوصافها حيث سميناها الغائط والرياء البول، وهما مسميان في كتب الفقه بالأخبثين، والاستبراء منهما باستفراغهما من الأجساد واجب لأنهما لا تصح بهما أو بجزء قليل ولو كرأس الإبرة منهما صلاة، وكذلك الدنيا والرياء لا يستقيم معهما أو مع بعضهما، وإن قل عبادة العابدين ولا سلوك السَّالكين إلا بعد الاستنجاء منهما، وسأبين كيفية ذلك إن شاء الله تعالى، واعلم يا أخي أنَّ الدنيا محنة واختبار للخلائق لأن الدنيا بحر عميق، والآخرة من وراء ذلك البحر، ولا ينكشف الحجاب عن قلب عبد إلى النظر إلى الآخرة إلا من بعد جواز ذلك البحر العميق في سفر الصبر والرضى والتقوى، لأنه بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، وهذه الصفات ضرب الله بها المثل للدنيا لأن صفاتها وصفة المغترين بها مثل الموج الأول، وهو موج الشَّهوات الداعية لصفات البهائم، لأن عبيد الدنيا ليس لهم همة إلا الاشتغال بشهوة بطونهم وفروجهم وكثرة تخبط قلوبهم في بحر التفكر في ما يحصلها في أيديهم، فمن كان متَّصفا بهذه الأوصاف فقد اتَّصف بصفة البهيمة لأنّ البهيمة ليس لها عمل إلا الاشتغال ببطنها وفرجها، لكن البهيمة لا لوم عليها ولا تبعة في ذلك لأنها باشتغالها ببطنها يكثر شحمها وأثمانها، وباشتغال البهائم بفروجها تكثر أنسالها، وذلك الذي يراد بها، ولذلك خلقت، كيف بك يا إنسان تماثلها وأنت لم تخلق لذلك ولا أنت مطالب بذلك، بل قال الله العظيم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/56]،

معناه: ليعرفوني ويؤدوا حقي، فمتى تحصل المعرفة والعبادة الخاصة لمن يماثل البهيمة، بل هو شر منها، لا تفكر في حصول رزقها ولا بخزنه واحتكاره والقتال عليه والتحاسد والتباغض من أجله وسرقته وغصبه، فالبهيمة سالمة من هذه الأوصاف كلها.

تنبيه:

متى يصلح للعبادة ويرضى للدخول لحضرة الله ويتعمر قلبه من كانت هذه الأوصاف أوصافه، ومع ذلك لم يزدد من الله إلا بعدا لعدم رضاه بضمان الله، وأخرج من تدبير ملك الملك، وجعل نفسه شريكا لله في تدبير ملكه، قال الله عز وجل: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات/22] وقسم لنا بنفسه على نفسه فقال: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات/23] ولم يكتف بالقسم لعلمه أننا عبيد سوء، فمثل لنا بما نعلمه قطعا فقال: ﴿ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات/23] ومع ذلك يشتد حرص العبد على الدنيا وأسبابها، فأما من كانت همته في بطنه وفرجه كان كالبهيمة، بل رتبته أسفل من رتبها، لأن البهيمة ليس لها عقل تعرف به خساسة حالها، وأمَّا العبد فقد جانس البهيمة في صفة فعلها بعد مادة العقل الذي هو ميزان الله في أرضه، وإلى هذا الصنف الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان/44] وهؤلاء هم أهل الموج الأول، وهو موج مظلم وأهله ملقّبون بالحماقة.

وصنف ثان قادتهم الصفة المعمية إلى الغضب والعداوة والحقد والشحناء وحب الجاه والشَّرف، وحب المنزلة عند النَّاس، فهؤلاء أهل الموج الثاني، وهو موج مظلم أشد سوادا من الموج الأول، وهذا الصنف ملقب بالعمى والصمم والبكم، وإلى هذا الصنف الإشارة بقوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة/171].

وصنف ثالث هم أهل المظلمة، وأهل الاعتقادات الخبيثة لأن من صفات السحاب أن تحجب نور الشمس عن الأرض، والاعتقادات الخبيثة تحجب نور العقل أن يفيض على القلوب، وهذا الصنف هم أهل ظلمات بعضها فوق بعض.

وصنف رابع وهم أهل السحاب المظلمة فوق السحاب المعتادة، فهذا الصنف أهله حجبوا عن الإيمان والإسلام، فلم يستضيئوا بنور شمس القرآن ونور العقل، وهذا الصنف إذا أخرج يده لم يكد يراها فإذاً كانت المعرفة نورا من أنوار العقل وهي مواهب من الله تعالى، ومنع الله منها هذا الصنف، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ

تَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور/40].

فَصْلٌ

فإذا كان العبد مستغرقا في حب الدنيا، مقبلا عليها بقلبه، فرحا بما أوتي منها، حزينا على ما فاته منها، زاهدا فيما في يده، راغبا فيما يدخل عليه منها، معظما لقدر من أقبلت الدنيا عليه، فإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان/27].

واعلم رحمك الله أن الدنيا إذ عظمت وجلت في قلب عبد، فإنَّ ذلك العبد يعظم قدر من أقبلت عليه الدنيا، ولا يقنعه ما يدخل يده منها، وأقل قليل منها يحجب العبد ويمنعه من معرفة الله سبحانه، كما يمتنع من إصابته قطرة واحدة من البول والعذرة في ثوبه أو بدنه أو مكانه من صحة الصَّلاة.

تنبيه:

اعلم يا أخي أن الدنيا في قلب من يعظمها ويحبها أشد نجسا من نجس البول والعذرة، لأنهما تستقذرهما النفوس، ولا ترضى بهما نفس مؤمن، ويستعجلون نزعها عن الثوب والبدن مع كونهما لا انفكاك لأحد عنهما، ومع ذلك يكرهونها، فوجود السَّلامة منهما مع ذلك أيسر من السَّلامة من حب الدنيا، لأن الدنيا تشتهيها النفوس، وتبتغي التكاثر منها، فمن كان عنده شيء منها، أو لم يكن، فكلهم يتكالبون عليها، ويتهارشون عليها، مثل الكلاب على الجيفة، ولا يقنع أحد منها إلا من تركها وزهد فيها، فهو السالم من فتنتها، وأمَّا من كان معظما لها، فلو ملك منها فلسا واحدا لابتغى ثانيا، ولو ملك قنطارا لابتغى قنطارا آخر، ولو قدرنا أن رجلا ممن يحب الدنيا ملكها كلها وحده وهي مسيرة خمسمائة سنة، وملك جميع ما فيها من الأموال، فإنها لم تقنعه، ولابتغى دنية أخرى مثلها تدخل في ملكه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا ينفق منه ولا يملؤ عين ابن آدم إلَّا التراب**»[1].

قلتُ: فإذا كان القليل منها يشغل القلب ويلهيه عن معرفة الله، فمتى يدخل

(1) رواه البخاري (2364/5)، ومسلم (725/2) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه.

الحضرة الرفيعة من ابتلي بحبها إلا بطرحها في بيت الأنجاس زهدا فيها، كما يطرح المتوضئ الأخبثين في المرحاض، فقد بان وظهر أنَّ الغائط أيسر تحفظا من الدنيا، فاعلم ذلك، والله الموفق سبحانه.

فَصْلٌ

في بيان الرياء

اعلم أن الرياء هو الشرك الأصغر، وأنَّ الله تعالى لا يقبل عمل المرائي، لأنَّ الله تعالى يقول: «أنا خير الشركاء فمن أشْرَكتموه معي في عمل من الأعمال فأنا تركت نصيبي للشَّريك فهو يجازيكم على العمل»[1] إن قدر وسمي بالشِّرك الأصغر، لأنَّ الشرك الأكبر الذي يجعل مع الله ندا وهو سبحانه خالقهما معا، فإنَّ هذا الشرك يحبط جميع ما سلف من الأعمال كلها، وإن مات المشرك قبل أن يجدد الإسلام مات كافرا، والعياذ بالله من ذلك، والشرك الأصغر الذي هو الرياء لا يحبط إلَّا العمل الذي أشرك فيه، ولا يخرجه ذلك عن الإيمان ما دام يعتقد أنَّ الله واحد أحد لا شريك له في الملك، لكن المرائي رجل أعمته الغفلة وصمته وقادته بزمامه لساحل بحر الشرك، فوقع عليه الرش ولم يغمره الماء، فما وقع الرش من ثيابه وبدنه أكلته سموم الشرك، لأن بحر الشرك مسموم، وما لم يلحقه الرش فهو سالم، لكن إذا لم يتب بمعنى الرجوع من ذلك الساحل ربما لحقته أمواج بحر الشرك فجرته لوسط ذلك البحر، وهذا المثال من فتح الفتَّاح، فالحمد لله والشكر لله على ما ألهم وبيَّن، ولم أر مثالا للرياء أبين من هذا المثال، ولو لم يكن في هذا الكتاب سوى هذه الفائدة لكان كافيا، لأن الرياء في هذه الأمة أخفى من دبيب النَّمل على الصفا في اللَّيلة الظلماء، فكيف وفي هذا الكتاب بفضل الله فوائد لا تحصى، فعلى العاقل أن يزن بهذا الميزان عمله، فيحمد الله على العمل الخالص لوجه الله، ويستغفر الله من المشوب بالظلمة، ويصلح ما بقي من الأعمال. أليس الرياء كالبول حيث ذكرنا أنَّ هذين الأخبثين يجب طرحهما عن من أراد أن يتوضأ بماء الغيب؟!

فإن قلت: لا قلتُ المحجوب بظلمات الشرك لا يتخطى خطوة واحدة في مقام السَّالكين، لأن الأعمى لا يهتدي للسلوك بين حيف وأجراف ومطامير كثيرة ولصوص

---

(1) سبق تخريجه.

وأسد وأوعار، وهذا المثال أيضا لنا كذلك، وهو يعم المرائي والمحب للدنيا، فعلى هذا المتوضئ الذي ذكرناه أن يطرح عند ثقل هذين الأخبثين في بيت الأنجاس لتنفتح له ولو عين واحدة من عيني بصيرته فيدرك بها المقصود والله الموفق سبحانه.

فَصْلٌ

فهذان الأخبثان أشد نجسا من الأخبثين المعلومين في الطَّهارة الحسية إذ هذين يكتفى فيهما بالاستجمار بالحجارة والطوب ونحوهما ونجس الدنيا والرياء لا يدخل الحضرة المقدَّسة من بقي معه شيء من أثرهما.

تنبيه:

لا يستنجى منهما إلا بالزهد البالغ والإخلاص الصَّادق الذي لا يبقي معهما أثر لهذين الأخبثين وذلك بعد الاستجمار بالقناعة فكما يكون الاستنجاء بماء العيون في الطَّهارة الحسية بعد الاستجمار ليجمع بين الطّهارة المائية والترابية فكذلك في الطَّهارة المعنوية.

فَصْلٌ
في طرح الأخبثين

اعلم يا أخي أنَّ طرح الأخبثين إنما ينبغي أن يطرحا بالمراحض لوجوب الستر، وكذلك في الطَّهارة المعنوية يطرّحهما في مرحاض بيت الأنجاس، فالأنجاس المعبر عنها هاهنا هم الشياطين، ورئيس الضلالة إبليس لعنهم الله أجمعين، والبيت المضاف إليهم هي النفس الأمَّارة، والمرحاض الملازم للبيت المضاف للشياطين هو المجرى الكائن في البيت الذي هو محل لطرح الأخبثين فيه هو الهوى، فقد جمعنا في هذه العبارة الأعداء الأربعة وهم: إبليس، والدنيا، والنفس، والهوى. قال الشَّاعر:

إِنِّي بُلِيتُ بِأَرْبَعٍ مَا سُلِّطُواْ ... إِلَّا لِعظَمِ بَلِيَّتِي وَشَقَائِي
إِبْلِيس وَالدُّنْيَا وَالنَّفْس وَالهوى ... كَيْفَ الخَلَاصُ وكُلُّهُمْ أَعْدَائِي

فالخلاص منهم لا يكون إلا بالجهاد والمحاربة وسيأتي كيفية ذلك في فصل من السفر الثاني إن شاء الله.

اعلم أنَّ جهاد النَّفس والشَّيطان والهوى والدنيا أعظم وأشد من جهاد العدو الكافر، لأنَّ محاربة العدو الظاهر أهون من محاربة العدو الخفي وهم الأربعة المذكورة

وإن كانوا من حيز الغيب، فقد أمرنا الله بمحاربة رئيسهم وهو الشيطان لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر/6]، وقال تعالى في عداوة النَّفس والدنيا: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ [النازعات/37 - 41]، وأمَّا الهوى؛ فقال تعالى في حق من هو أفضل منا وأعظم وأرفع قدرا رسول الله داود عليه السَّلام: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص/26]، فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾: تهديد للمعصوم الذي لا يتبع الهوى، فالتّهديد في حق من سلط عليه الشيطان وجنوده وهو مع ذلك غير معصوم أشد، والتَّحفظ منه أولى وأحرى.

فَصْلٌ

فأمَّا الشيطان فهو رأس الفتن ومجلب الضَّلالة والمحن قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ [البقرة/35 - 37]، وقال تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ ﴾ [الأعراف/16 - 17] الآية، وقال: ﴿ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة/9]، وقال تعالى حكاية عن إبليس لعنه الله أيضا: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾ [ص/82 - 83]، ومحاربته بالاستعاذة بالله منه لقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل/98]، وقاتله بالعلم والعبودية والإخلاص لقوله تعالى في ما ذكرناه: ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص/82 - 83]، فالإخلاص ينجي من شره وهو معترف بذلك لعنه الله وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟

إلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة/5]، وكذلك بالعبادة والمجاهدة لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر/42].

واعلم أنَّ الشيطان لا ينطرد ولا ييئس من ضلالة المؤمن ما دام في الحياة وهو يدعو للجحيم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر/6]، وهو مثل الذباب مهما صرفته من ناحية أتاك من ناحية أخرى، ولا تأمنن من شره وكيده ما دمت في الدنيا، فإنه لا يأتي للمؤمن إلا في صورة ناصح لقوله تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف/21 - 22] وطرق شره لا تنحصر ولا تنضبط، وأول ما يأمر الإنسان بالكفر، فإن وجد صحة الاعتقاد فلا يقدر عليه من ذلك الوجه، فيأمره بالشَّك في الله تعالى وفي أوامره ونواهيه، فإن لم يقدر، فيأمره بالشك في الرزق وفي الرازق، ثم في الكبائر، وفي الصغائر مع الإصرار عليها، لأنَّ الإصرار على الصَّغائر تصيِّر الإصرار كبائر، ثم يلقي له الشك في الحلال، ويلقى له فيما يجهل العبد من الأشياء المحرمات، فيلقي له فيها أنها حلال محض ليستخرجه من الإيمان إلى الكفر، وهو لا يشعر، لأن من حلل حراما فقد كفر أيضا، ولا ينجى الإنسان إلا بالعلم.

تنبيه:

في بيان قاعدة من العلم تحصر لك جميع العلوم وتكون لك من أعظم آلات القتال مع إبليس وجنوده والدنيا والنفس والهوى.

وذلك أن لا تعمل ما لم تعلم، ولا تترك شيئا ممَّا تعلم، ولا تزال تتعلم، وقال تعالى: ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل/43]، فحافظ على هذا التنبيه ففيه علم كبير تحصر به جميع العلوم، فلا تزال تردد هذا القول وتتفهمه وتعمل به ولا تتعدى أمره، فإنه سبب للنّجاة من الشيطان وجنوده، ومن الدنيا وحبها، ومن النَّفس الأمَّارة وشرها، ومن الهوى وضلالته.

واعلم أنك لا تزال تجهده بمخالفة أمره وأمر أعوانه؛ النَّفس والهوى والدنيا، والجهاد في ذلك كله هو بمخالفة أمرهم وغرضهم، ولا يتوصل لذلك إلَّا بالعلم وتكرر لفظه، ليكون لك على بال، وذلك أن لا تعمل ما لم تعلم، ولا تترك شيئا ممَّا تعلم، ولا تزال تتعلم.

واعلم أنَّ صديقك الأكبر هو والدك الأول وهو آدم عليه السَّلام، وعدوك الأكبر هو إبليس لعنه الله، قال الشاعر:

بِأَبِــهِ اقْــتَدَى عَــدِيٌّ فِــي الْكَــرَمْ وَمَــنْ يُــشَابِهْ أَبَــهُ فَمَــا ظَلَــمْ

لأن الرجل الصَّالح الذي يرجى خيره هو الذي يقتدي بأبيه آدم في التوبة، ليسكن بجواره في الجنَّة، والرجل الفاسد هو الذي يترك الأحباب ويتبع الأعداء، فمن اتبع إبليس في شيء من ترك الأوامر أو في شيء من فعل المناهي، فإنه يقع في الخسران العظيم بسكناه الجحيم، وينقطع عن دار النَّعيم، نعوذ بالله من ذلك.

فَصْلٌ

النَّفس فضررها أعظم من الشَّيطان، لأن إبليس لعنه الله له أسهم كثيرة، فيرمي العبد بسهم منها، فإن أصابه به فإنه يزيده حتى تنفذ مقاتله بوقوعه في الشك أو في الشرك والعياذ بالله من ذلك، وإن أخطأه بالسَّهم الأول فيرميه سريعا بسهم آخر، ولا يزال يرمي بسهم بعد سهم حتى يصيبه أو يحفظه الله سبحانه، فينجى من شره، ولو رماه بألف ألف سهم، لأن العناية الربانية يمتحق عند وجودها كل شيء بفضل الله، فلا يضر صاحبها إنس ولا جان. وأمَّا النّفس فلا ترميه إلا بسهم واحد، فإن أصابته به فذلك مرادها، وإلا فلم تزل ترميه بذلك السَّهم ولا تنتقل عنه ولو طالت الأيام حتى تحصّل غرضها، أو ينجيه الله من شرها، إنه ولي حميد.

تنبيه:

إذا وقعت لك وسوسة بذنب وأردت أن تعرف أنّها وسوسة الشيطان أو وسوسة النَّفس، فانظر للخاطر الذي ورد على قلبك، وجاهده بالمخالفة، فإن انصرف وتبدلت لك وسوسة أخرى بذنب آخر، فتعلم أن تلك الوسوسة من الشيطان، وإن بقيت الوسوسة الأولى على حالها لم تنتقل بل تزيد حرصا على الوقوع في ذلك الذنب الأول، فتعلم أنَّ تلك الوسوسة من النَّفس، لأن هواها يصمي ويعمي، أعاننا الله على جهادها ومخالفتها وتطهيرها. آمين.

واعلم أنَّ النفوس ثلاثة ذكرها الله في كتابه العزيز، فذكر الأمارة بالسوء في قصة يوسف عليه السَّلام قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف/53] الآية، وقولنا أمارة على وزن فعَّالة لا تكثير، وقال تعالى: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾

[القيامة/2]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر/27 - 30].

وبيان النفوس الثلاثة؛ أنَّ **النفس الأمَّارة** لا تأمر بخير قط ولا تأمر إلَّا بالسوء، فهي من أجناد إبليس لعنه الله، وربما تفعل الفعل ولا يستطيعه الشَّيطان، كما حكي أنَّ رجلا تسوق سوقا فإذا بسمسار ينادي على عبد، ويقول: هذا عبد معياب فيه جميع العيوب، فتأمله الرجل فرآه صحيح الذَّات قوي البدن، فقال للسمسار: بين لي عيوب هذا العبد، فقال ليس فيه إلا عيب واحد خاصة، فقال الرجل: ما هو؟ وما ثمن العبد؟ فقال: ثمنه عشرة دراهم، والعيب لذي هو فيه فهو نمام لا غير، فاستخف الرجل العيب، واستقل الثمن، فاشتراه بشرط عيبه ذلك، فلمَّا رجع لمنزله قال في بيت من بيوت أصحابه، وله بنت صبية فسأل العبد عن اسم رب المنزل وعن اسم الصبية فعرفهما، فلما بلغ منزل سيده جعل يسأل الزوجة عن اسمها وأسماء أقاربها وعن منازلهم وعن أقارب سيده ومنازلهم، فأخبرته الزوجة بجميع ذلك فجعل ينظر فيها ويبكي ويشهق، فقالت له: ما يبكيك أيها العبد؟ فقال: يا مولاتي إني جئت مع سيدي، وقِلنا عند صاحبه فلان، وله صبية وجيبة اسمها فلانة، فخطبها من والدها، فقال له: لمن تخطب هذه البنت؟ فقال له: لنفسي وعلى بركة الله احتال مع نفسك وآتنا في السوق الآتي نعقد لك النكاح عليها، فلم تكذبه المرأة وصدقته في ذلك، فقالت له: وما وجه الحيلة في ذلك؟ فقال لها: أنا عبد سحَّار، فأتني بما أطلبه منك، فأسحر له فيه، فلا يتزوج عليك أبدا، فقالت: وما تريد؟ فقال: إئتني بشيء من شعر لحيته، فقالت له: كيف أصنع في ذلك؟ فقال لها: خذي هذا الموسى فهو محدد جيد، واتركيه إلى أن ينام فاقطعي به شيئا من شعر لحيته، فأخذت الموسى من يده، وانصرف إلى سيده، وناداه: الخلوة، قال له: يا سيدي هذه مصيبة عظيمة تنزل بك في هذه الليلة، فقال له: وما ذلك؟ فقال: مولاتي نقر عليها رجل بحجر خلف البيت فخرجت إليه وخرجت وتضرقت منهما، فقال لها: بعد أن قبلها وأدخل يده في صدرها: هنيئة لك يا فلانة، كفي عني من كذبك علي، فخذي هذا الموسى وانتظري زوجك فلانا حتى يستغرقه النوم، واذبحيه واستغيثي بالنَّاس، وقولي دخلوا علينا لصوص فذبحوه وانصرفوا، فقالت له: نعم، وأنت احفظ نفسك في هذه الليلة، فأنا لك ناصح، فمضى الرجل بخوفه مما ألقاه العبد عليه، فلَّما كان الليل دخل فراشه على حذر وجعل يغط وينفخ غطيط النَّائم، فظنَّت المرأة أنه استغرقه النَّوم،

فأخذت الموسى وفتحته، وهو ينظر من طرف خفي، فلمَّا رآها نزلت عليه اضطرب متفجعا، ونزع الموسى من يدها وذبحها، فماتت، وانصرف العبد إلى منازل أقاربها وجعل يستغيث، وقال لهم: سيدي فلان ذبح زوجته بلا ذنب، فانطلقوا إليه وقتلوه، فانطلق إلى أقارب سيده فاستغاث فأتوه، فقال لهم: إن بني فلان قتلوا أخاكم بلا ذنب ولا حق، فانطلقوا لداره فوجدوه مقتولا وهم بالمنزل، فوقع القتال بين الفريقين فماتت بينه سبعون نفسا. فانظر ما فعل شيطان الإنس في ليلة واحدة ما لم يستطع أن يفعله الشيطان في ألف ليلة!! وإلى هذا العمل ونحوه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ ﴾ [الأنعام/112]، فأي غرور أعظم من غرور هذا العبد، وذلك من تسويل نفسه الأمَّارة، فهي التي وسوست له في ذلك، وطاوعها ليقضي الله أمرا كان مفعولا، فهذا فعل النَّفس الأمَّارة بما تفعل أكثر من ذلك.

وأمَّا **النَّفس اللوامة** فهي نفس من نفوس المؤمنين الذين يفعلون الخير والشَّر، فتوسوس لصاحبها حتى إذا وقع في الذَّنب ندمت على صدور ذلك الذَّنب خوفا من الله تعالى، فتجعل تلوم صاحبها على سوء فعله، وإلى هذا الصّنف الإشارة بقوله تعالى: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة/102].

وأمَّا **النَّفس المطمئنَّة** فهي النَّفس الزاكية المطهرة، فلا يتصور منها السوء قط ولا تأمر إلَّا بالخير، وإلى هذا الصّنف الإشارة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠ ﴾ [الفجر/27 - 30].

وهذه ثلاثة نفوس في العدد والصفة، وما هي في الأصل إلا نفس واحدة، كانت طاهرة طيبة مطهرة، وهي من العالم العلوي، فلما ركبت بهذا الجسم الترابي وركبت فيه فغلب عليها طبيعة العالم السفلي الذي هو عالم الكون والفساد، فتطبعت بطبيعة إبليس فطاوعته في كل ما يريد، وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [النازعات/40] أي نهى النَّفس عن الميل للشهوات. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السَّلام: يا داود حذر أصحابك عن أكل الشهوات، فإن النفوس المتنعمة بنعيم الدنيا وشهواتها عقولها محجوبة عني، وإلى هذا الصنف الإشارة بقوله: ﴿ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي

حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف/20]. وقال عليه السَّلام: «أخوف ما أخاف على أمتي الهوى وطول الأمل أما الهوى فيصد عن الحق وأمَّا طول الأمل فينسي الآخرة»[1].

واعلم أنَّ مخالفة النفس والتجرد من حظوظها رأس العبادة، لأنها أعظم حجاب بين العبد والرب، ومن طلعت طوارق نفسه غربت شوارق أنسه، ومن رضي عن نفسه أهلكها، فكيف يصح للعاقل الرضى عن نفسه، وقال يوسف الصديق[2] عليه السلام: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ [يوسف/ 53] الآية، وقال السري السقطي: طالبتني نفسي ثلاثين أو أربعين سنة أن أغمس خبزة في دبس فما أطعتها، وروي أن رجلا رُؤِي جالسا في الهواء، فقيل له: بم نلت هذا؟ فقال: تركت الهوى فسخر لي الهواء، وقال إبراهيم الخواص: من ترك شهوة ولم يجد ثمرة تركها في قلبه فهو كاذب في تركها.

فَصْلٌ

اعلم أن بيت الأنجاس الحسية وهو المرحاض لا غنى للعبد عنه في كل يوم وليلة، وأن الشياطين لا تفارقه، ولذلك أمر داخلها أن يقول أعوذ بالله من الخبث والخبائث[3]، فالخبث هم ذكور الشياطين، والخبائث إناثها، ومحل طرح الأخبثين مجرى في البيت فمن كان يتعاهد طهارة البيت فلا تمله النفوس ومن تغافل عن طهارته أملي بالعذرة فلا يسلم داخله من وقوع النجاسة على ثوبه أو بدنه فتفسد عبادته وأصل البيت الطَّهارة فقد كان قبل أن يطرح ذلك فيه طاهرا نقيا تصح به العبادة فلما قصد بذلك وطرح فيه صار كما ذكرناه وكذلك النَّفس الأمارة كانت من عالم الملكوت أعني من غيب العالم الأعلى وهي طاهرة نقية منورة لأنها روحانية وكانت إذ ذاك لا سبيل للشَّيطان عليها فلمّا ركبت بهذا الجسد الترابي وغيبت عن وصلتها وسلط الشيطان على

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (370/7) من حديث جابر رضي الله عنه.

(2) سيدنا يوسف بن سيدنا يعقوب بن سيدنا إبراهيم النبي المعظم الذي جاءت سورة من سور القرآن بأكملها في حقه على نبينا وعليه الصلاة والسلام. (البداية والنهاية 520/3).

(3) رواه البخاري (66/1) ومسلم (283/1) من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء قال: اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث.
ورواه أبو داود في سننه (49/1) من حديث زيد بن الأرقم بصيغة الأمر، ولفظه: "إن هذه الحشوش محتضرة، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث".

ما ركّبت به فوجد البون وهو الجسد قريب من عالمه والنفس قريبة عن عالمها فوسوس الشّيطان لها لضعفها لأن الغريب ذليل إذ لا أهل له ولا عشيرة والغالب على الغريب أن يداهن أكابر البلد ويوافقهم في أفعالهم فإن وجدهم في صلاح زادهم صلاحا بحسن رأيه وإن وجدهم في فساد زادهم فسادا لفساد أمره وقلة خيره لغربته فالنَّفس المطمئنة هي نفوس الأنبياء والمرسلين لمَّا سبقت لهم العصمة من الله تعالى فلا يضرهم من ضل كالشيطان وجنوده فركبت نفس النبي الطاهرة بجسمه المعصوم الطَّاهر المطهَّر فزادته طهارة بما اكتسبته من عالمها وحسن حالها فاطمأنت حيث انتقلت من عالم طاهر إلى جسد طاهر فصارت لا تأمر إلا بالخير ولذلك إيمان الأنبياء يزيد ولا ينقص، والنَّفس اللَّوامة هي نفوس المؤمنين فلما لم يكونوا معصومين وسلط الشيطان على غير قلوبهم لأنَّ القلب محل الإخلاص ووكل الله بكل قلب ملكا يهديه وشيطانا يغويه فلذلك لا يزال مترددا بين الحسنات والسَّيئات فإذا وقع المؤمن في السيئة وفرغ منها بسبب وسوسة الشيطان فإن الملك يعظه ويذكره عاقبة سوء فعله فيندم على تلك المخالفة فتلوم العبد الذي هي مركبة فيه على الفعل السوء وهذا دأبها إلى أن يعفو الله فمن سبقت لهُ السَّعادة فإن الله يوفقه لما يلقي له الملك من الخير فيفعله بعمل خالص لله تعالى ويتنبه لما يلقي الشيطان لقلبه من الوسوسة فلا يفعلها ويجاهد نفسه على ترك الفعل فيتقوى نور الإيمان في قلبه فيزداد بذلك النور طاعة وكلما ازداد طاعة وعبادة ازداد أنوارا وكلما ازداد أنوارا ازداد عبادة وطاعة وخوفا من ربه ولا يزال في زيادة من غير نقصان إلى أن تتخلص نفسه من جميع سيئات الأقوال والأفعال والأخلاق المذمومة فيتخلى عنها إجمالا وتفصيلا ويتحلى بجميع الأخلاق المحمودة في سرعة فتصير النفس حينئذ طاهرة مطهرة نقية منورة فتستحق التَّسمية بالنَّفس المطمئنة لأنها قد اطمأنت برجوعها لأوصاف عالمها الأول وهو العالم الأعلى السَّالم من جميع العيوب والسَّيئات وهذا كمال طهارة النَّفس اللوامة التي كانت تأمر بالسوء حتى يقع صاحبها فيه بوسوسة الشيطان لعنه الله ثم يحصّنها الملك الموكل بها على الندم والتَّوبة فتصغي له فتفعل فتزداد أنوارا كما ذكرناه إلى غاية طهارتها وهو نفس عوام المؤمنين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة/102] هذا إن كان صاحبها يصغي إلى ما يلقي إليه الملك، وأما إذا لم يصغ للملك ويفعل ما يلقي الشيطان فلا يزال يقع في المعاصي ويزيد بكل معصية

ظلمات، إلى أن تصير تلك النَّفس التي كانت لوامة نفسا أمارة، والعياذ بالله، فلا تأمره النَّفس بعد ذلك إلا على السُّوء، أعاذنا الله منها. وأيضا إن صارت نفس المؤمن مطمئنة طاهرة فيجب عليه حفظها، لئلا تنعكس له فتصير أمارة، لأن نفس المؤمن وإن بلغت الغاية في الصفاء والطَّهارة والاطمئنان فلا تبلغ درجة نفوس الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، لأنَّ نفوسهم معصومة، فلا تقع في الذنوب والعيوب أبدا - ومع ذلك فلن يزالوا خائفين منها، ولم يركنوا إليها بدليل قوله تعالى حكاية عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ [يوسف/53] الآية فإذا اتهم المعصوم نفسه فكيف يأمن المحفوظ وهو قد يطرأ عليه الغفلة والسلب بعد العطاء وأيضا فقد حذرنا الله سبحانه من ذلك بقوله عز وجل: ﴿ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف/99].

وَأمَّا النفس الأمَّارة فهي على نوعين؛ الأول: نفس المؤمنين فهي وإن كانت أمارة بالسوء فينبغي لصاحبها أن لا ييأس من رحمة الله، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف/87]، لأنها ركبت فيمن سبقت له العناية بقول ((لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله ﷺ))، وهو وإن مات عاصيا فإنه يرجى له عفو الله وشفاعة رسول الله ﷺ، حتى إنه كان ممن يدخل النار فلا يخلد فيها وعاقبته الجنة بعد ذلك، والحمد لله رب العالمين على ذلك.

وَأمَّا النَّوع الثَّاني من النفس الأمارة، فهي نفوس الكافرين، ولا تركب إلا فيمن سبقت له الشقاوة والعقوبة والذلة والسخط والغضب من الله سبحانه، إلا قليلا منهم ممن سبقت له السعادة فيسلم ويحسن إسلامه بأهل النَّفس اللوامة وأهل النفس المطمئنة على وفق إرادة الله سبحانه﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء/23]، فلذلك يوجد من طبع الله على قلبه بالكفر والعياذ بالله من ذلك مَنْ لا يقبل نصحا، ولا ينصت لمذكر ولا لواعظ، بل يزيد عند التذكار شرا وغيظا وكفرا وحمقا، وحاله مع كل من يحدثه بالتَّوحيد والإيمان بالله والرسول الحميد لا ينصت إليه ولا يسمعه ولا تتوجه إليه همته، وإن وسوس إليه الشيطان فإنه يقبل منه جميع وساوسه، وتزين لهُ النّفس الأمارة كل شر وكل ما يبعده عن الله سبحانه، ولذلك قال كفار قريش لنبينا محمد ﷺ: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت/5]، وقالوا في موضع: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ [البقرة/88] الآية، ورضوا بهذه الذلة مع

أنهم كانوا يزعمون بالفصاحة والكياسة والفطنة والشجاعة والنّباهة، ولذلك لـمَّا عاينوا الحق وصفُوا نفوسهم بغاية الجهل حسبما ذكرناه، فلذلك منعهم الله من تعلم العلم النافع بل لا يعلمون، ولا يتعلمون إلا العلم الذي يتضمَّن مصالح دنياهم وأبدانهم ومعاشهم لا غير، ولذلك قال الله جل ثناؤه في حق الروم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الروم/7]، ولذلك لا يزدادون بتلك العلوم إلا ظلمات وكفرا وبعدا من رضاء الله سبحانه، فإذا فعل فعلا سيئا فإنه يستلذه ويفرح به لكونه موافقا لغرض دنياهم وهواء أنفسهم وشياطينهم الموسوسة لهم، فلذلك لا يندمون ولا يفكرون في عواقب الأمور ذلك لقساوة قلوبهم وعماء بصائرهم، فلا يزالون يزدادون في كل العلوم ظلمات بعضها فوق بعض إلى أن تزهق أنفسهم وهم كافرون، ويتفاوتون في الكفر بقدر جرءتهم وطول أعمارهم، لأنهم كلما فعلوا معصية من جميع ما نهى عنه شرعنا، إذ هم مخاطبون بجميع التكاليف الشرعية، فإنهم يزدادون ظلمات وغشاوة وعمى وجهلا يطمس على قلوبهم ويحجب قلوبهم عن الخير جملة وتفصيلا، وكلما ازدادوا سيئات ازدادوا ظلمات إلى حين الوفاة أهلكهم الله تعالى وأتلف رأيهم. آمين. والذي أوقعهم في ذلك لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم قبل زمان البلوغ، وكيفية ذلك أن كل مولود وللمؤمنين لا يولد إلا على فطرة الإسلام، بدليل قوله عليه السَّلام: «**لا يولد مولود إلا وهو على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[1]، لأن الكافر مطلقا أول ما يغش نفسه ثم يكون حريصا على غش أولاده قبل أن يتكلمون ولا يعقلون، فيزرع في قلوبهم وآذانهم دسائس الكفر حتَّى يعقلون عنهم جميع ما يعلمونهم من الكفر، فبكل علم من علمهم تنقط في قلوبهم نقطة سوداء بقدر ما تضمنت الألفاظ من الكفر، فلا يزال النقط الأسود يصبغ في قلوب صبيان الكفار بكل قول يتعلمونه وبكل فعل يفعلونه من كفرهم وهوسهم إلى أن يطبع الله على قلوبهم، أي يختم على القلوب بالسَّواد والرين الحالك حتى لا يبقى في قلوبهم من البياض الذي خلقوا به ولا قدر رأس الإبرة، فذلك هو الطبع على القلوب، والعياذ بالله منه، فلا يرجى منهم خير، لا يأتي عليهم زمن التكليف إلا وقلوبهم مطبوع عليها، فلا يرجى منهم خير ولا يفعلونه إلا أن يشاء الله تعالى، لأن نفوسهم صارت نفس أمَّارة

---

(1) رواه البخاري (456/1)، ومسلم (2047/4).

كنفوس آبائهم وأسلافهم، لعنهم الله.

وليحذر المؤمن من سلب الإيمان منه جملة، فيموت على غير الخاتمة بكثرة المعاصي والذنوب، إذ ربما يطبع على قلبه برين الذنوب وسوادها وظلماتها فيموت كافرا بعد الإيمان، فيكون شرا من الكافر الأصلي، إذ لم يبدل النور بالظلمات، وهذا قد بدله، فهذا أعظم زاجر وواعظ لقلوب المؤمنين، عصمنا الله من ذلك بمنه وجوده ورعايته. آمين.

ليتفكر المؤمن وليقطع بأن كل معصية وسيئة وذنب يصدر منه من الكبائر أو من الصغائر إلا وينقط في قلبه نَقْطٌ أسود بقدر عظم الذنب وصغره لقوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين/14]، وقال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة/286] فَلْيَمْحُ المؤمن سواد قلبه وظلماته بالتَّوبة، لقوله عليه السَّلام: «التّائب من الذنب كمن لا ذنب له»(1) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود/114] ليذهب الرين وسواد الذنوب وظلمات البصائر لحلول الأنوار الإيمانية والأسرار الربانية في القلوب والبصائر فيزول الرين عن القلوب والظلمات عن البصائر فلا يفعل إلا خيرا على خير إلى أن يموت على أكمل حال من التوبة، أو على أكمل حالة من المعرفة، والله الموفق سبحانه.

تنبيه حسن:

ولمّا كانت تلك الأوصاف الذميمة من أوصاف النَّفس خشي منها الأنبياء، وخاف من وقوعها الأولياء، أفلا يخافن المؤمنون وعامتهم ممَّا يخشاه المعصومون، ويخافه المحفوظون، مع علم العامي بأنه غير معصوم ولا محفوظ، بل ينبغي لكل مؤمن أن يحاسب نفسه، ويتفقد أقواله وأفعاله وجميع أحواله، فإن وجد خيرا فيجب عليه أن يحمد الله ويشكره، لقوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم/7] الآية، وإن وجد شرا فليجدد التوبة والنَّدم والاستغفار، وإصلاح ما يمكنه إصلاحه، وجبر ما يمكنه جبره، وألا يعتقد التَّوبة بشروطها المذكورة قبل، ويتضرع إلى الله تعالى ويتوسل إليه رغبا ورهبا في غفران ذنوبه، وإصلاح حاله في جميع الأحوال، لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُونِىٓ

---

(1) سبق تخريجه.

أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر/60]، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء مخ العبادة**»[1].

وينبغي لكل سالك أن لا يزال هكذا ما دام في سلوك طرق السَّالكين إلى أن يصير من جملة أولياء الله الصَّالحين العارفين برب العالمين، ويفنى عن نفسه وعن كل فان بمشاهدة الله القديم الباقي سبحانه، لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه، فعند ذلك ينزهه الله عن ذكر الحفا، إذ هو حضرة الصفا، وكمال الوفا، ويصير في ديوان أهل الدرة البيضاء المأمونين من السلب بعد العطا، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس/62]، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

واعلم أن كيفية سلوك طريق القوم هي التّحلية بالأوصاف المحمودة التسعة والتسعين، والتخلية عن ضدها، وهي الأوصاف المذمومة التسعة والتسعون أيضا، وذكر علامات التحلية والتخلية يذكر إن شاء الله تعالى في شرح الأبيات كل في محله مفرقا، وسنذكر ذلك مجموعا في آخر الكتاب في الباب الجامع إن شاء الله تعالى، ونذكر فيه أيضا والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

فَصْلٌ
في طهارة بيت الأنجاس
وهي النَّفس الأمَّارة

إذ هي موطن الوسواس.

اعلم يا أخي أن النَّفس الأمارة بالسوء أنها في الفتنة والغواية والوسوسة كالشَّيطان، لأنه له ثمانية رؤوس كلها خبيثة، وهي كذلك لها ثمانية رؤوس خبيثة، فأما رؤوس النَّفس فهي: الشهوات، والغضب، والكبر، والحسد، والبخل، والحرص، والأمل، والرياء. ولا يتطهر ذلك البيت من هذه الأنجاس إلا بالقتال المؤدي للقتل وقطع ذلك الرؤوس كلها سريعا من غير مهلة، وسنذكر ما يقطع به هذه الرؤوس في ثمانية أبواب.

(1) رواه الترمذي في سننه (456/5) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه.

الباب الأول
ما يقطع به الرأس الأول
الذي هو الشَّهوات

اعلم يا أخي أن الشَّهوات إنما تقطع بالمجاهدة والرياضة، وملاكها الجوع والعزلة والصمت والمجاهدة والصَّبر والسهر، فينتهي الكلام في ذلك في ستة فصول، وهي هذه.

الفصلُ الأول
في الجوع

قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة/155]، أي وبشر الصابرين على الجوع والخوف والنقص من الأموال والأنفس، وقال تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر/9]، وكان صلى الله عليه وسلم يبقى أياما لا يأكل شيئا.

واعلم أنَّ الجوع أحد أركان المجاهدة، وبسببه يتفجر ينابيع الحكمة لأهل السلوك، وهي من صفات أهل الحقيقة، وكان سهل بن عبد الله[1] لا يأكل الطَّعام إلا بعد خمسة عشر يوما، فإذا دخل رمضان لا يأكل حتى يرى هلال شوال، وإنَّما كان يفطر في كل ليلة على جغمة ماء واحدة لا غير رعاية منه لحفظ السنة، وكان يقول: جعل الله في الشبع الجهل والمعصية، وفي الجوع العلم والحكمة، وكان رحمه الله إذا أكل ضعف، وإذا جاع قوي. وقال عبد العزيز بن عمر[2]: جاع صنف من الطير ثم طاروا في الهواء ورجعوا بعد أيام ورائحة المسك يفوح منهم. قال الإمام القشيري[3]

---

(1) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التستري هو أحد أئمة القوم ومن أكابر علمائهم المتكلمين في علوم الإخلاص والرياضات وغيوب الأفعال. صحب خالداً ومحمد بن سوار وشاهد ذا النون المصري عند خروجه إلى مكة في سنة 273 هـ ومات سهل سنة 283 هـ، ومن كلامه رضي الله عنه: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وإذا انتبهوا ندموا وإذا ندموا لم تنفعهم الندامة. (الطبقات الكبرى ص 76).

(2) لم أتبين من يكون.

(3) الإمام قطب الصوفية أبو القاسم عبد الكريم ابن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بني محمد =

رحمه الله: لا يبعد أنَّهم وصلوا إلى الجنة، وقال أبو سليمان الداراني[1]: مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع. وقال يحيى بن معاد الرازي: الجوع نور والشبع نار. وقال الإمام أبو بكر بن فورك[2]: هم العيال نتيجة متابعة لشهوة الحلال، فكيف تكون نتيجة متابعة لشهوة الحرام؟ وقال أبو علي الرازي[3]: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام: أنا جائع فألزموه السوق وأمروه بالكسب. وقال الربيع[4]: قدر السعر، فقال: نحن أهون على الله من أن يجيعنا إنما يجيع أولياءه، وقال الأستاذ أبو علي: قام الفقير بمجلس يطلب شيئا، فقال: إني جائع منذ ثلاث، فصاح عليه بعض المشايخ، وقال: كذبت إن الجوع سر الله وهو لا يضيع سره إلا لمن يحمله ممن يريد، وقال أبو التراب النخشبي[5]: ما تمنت علي نفسي إلا مرة واحدة تمنت علي خبزا وبيضا، وأنا مسافر

=

القشيري النيسابوري الفقيه الشافعي كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر وعلم التصوف. أصله من ناحية استوا من العرب الذين قدموا خراسان وسكنوا النواحي. (معجم المطبوعات 1500/2).

(1) أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني وداريا قرية من قرى دمشق من بني عبس وكان كبير الشأن في علوم الحقائق والورع مات سنة 215 هـ. ومن كلامه رضي الله عنه: لا ينبغي لفقير أن يزيد في نظافة ثيابه على نظافة قلبه بل يشاكل ظاهره باطنه قال أحمد بن أبي الحواري، وسمعت أبا سليمان يقول يوماً ليت قلبي في القلوب مثل ثوبي في الثياب قال أحمد: وكانت ثيابه وسطي. (الطبقات الكبرى ص 78).

(2) الإمام أبو بكر محمد بن الحسن النيسابوري الشافعي المتوفى سنة 406، وكان مبرزا في العلوم العقلية والنقلية أشعريا مدافعا ومنافحا. من كتبه "طبقات المتكلمين". (كشف الظنون 1106/2).

(3) ابن مسكويه: أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه أبو علي الرازي الأصل الأصفهاني السكن المعروف بابن مسكوية توفي بأصفهان سنة 421 هـ. من تصانيفه "آداب العرب والفرس". "تجارب الأمم وتعاقب الهمم" في التاريخ. "ترتيب السعادات". "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" مطبوع. "جاويدان" فارسي. "الفوز الأصغر في أصول الديانات". "الفوز الأكبر". "فوز النجاة في الأخلاق". كتاب "السياسة". (هدية العارفين 38/1).

(4) الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل، الإمام المحدث الفقيه الكبير، بقية الأعلام، أبو محمد، المرادي، مولاهم المصري المؤذن، صاحب الإمام الشافعي، وناقل علمه، وشيخ المؤذنين بجامع الفسطاط ومستملي مشايخ وقته. مولده في سنة أربع وسبعين ومئة أو قبلها بعام، ومات رحمه الله سنة 270 هـ (سير أعلام النبلاء للذهبي 590/12).

(5) الإمام القدوة، شيخ الطائفة، أبو تراب عسكر بن الحصين النخشبي؛ومدينة نخشب من نواحي بلخ، تسمى أيضا نسف. صحب حاتما الأصم. مات رحمه الله 245 هـ. (سير أعلام النبلاء 546/11).

فدخلت إلى قرية لطلب الخبز والبيض فوثب رجل وتعلق بي، وقال لقومه: وهذا كان معهم، فكتفوني وضربوني سبعين سوطا، فمر بي رجل فعرفني وخلصني منهم، وعرفهم بي فاعتذروا لي، وأدخلني رجل منهم إلى منزله، وقدم إلي خبزا وبيضا، وقلت لنفسي: كل شهوتك بعد سبعين جلدة. وقيل إن أبا تراب رحمه الله أكل من البصرة إلى مكة مرّة واحدة.

فَصْلٌ
في كيفية الرياضة

اعلم أن بعض الفقراء الصوفية أراد أن يريض نفسه ليكون إنسيا روحانيا، فأخذ اليوم الأول مقدار ما يكفيه من الطَّعام ليوم وليلة بحسب العادة، ودخل خلوة وعلق فيها ميزانا، وجعل ذلك الطعام في كفة وفي الكفة الأخرى خشبة خضراء قطعها في ذلك اليوم من شجرة التين وعدلها مع ذلك الطَّعام، فأكل الطعام بحسب عادته والخشبة هنالك في الكفة التي كانت فيها لا تنتقل من ذلك المحل، وهي تجف وتخف في كل يوم وهو لا يأكل من الطعام إلا ما يعتدل مع تلك الخشبة، فلما استخبرها حين بلغت غاية اليبس والجفاف ووجدها لا تنقص شيئا أخذ طعاما معتدلا بهذه الخشبة اليابسة، ثم عدله بخشبة خضراء ثانية، ومضى على تلك الحالة إلى أن يبست واستبدل غيرها، كذلك كان قوته ربع أوقية ميزان في اليوم، ثم جعل ينقل أوقات الأكل مرة بين يومين ثم مرة في ثلاثة أيام ثم مرة في خمسة إلى أن صار يطوي شهرا، ثم يتقوت بربع أوقية ميزان، ثم طوى أربعين يوما، وكان يفطر على ثمن الأوقية، ثم قطع الطعام والشراب وذهب النَّوم والكسل والغفلة ولم ينتقض له الوضوء قط، واستبدل قوته بالتَّهليل والتكبير وتلاوة القرآن والصلاة على البشير النذير، فكان يطير في الهواء ويمشي في الماء وتحمله الرياح إلى حيث شاء، ومهما خطر بباله بلد وجد نفسه فيه من غير حركة ولا خطوة، فهذا حال الروحانيين من الآدميين، نفعنا الله بهم آمين.

الباب الثاني
قطع الغضب

وهو الرأس الثاني من رؤوس النَّفس والشيطان.

وإنما يقطع بالحلم والعلم، أنَّ الحلم هو الصَّبر على مكافات الظالم الضعيف

والسَّفيه على وجه جميل مع القدرة على الانتصار عليه، ومع العجز الانتصار يكون ذلا وليس بحلم، ومع الاضطرار ورجاء النفع أو الثواب في الحال أو في الاستقبال يكون صبرا، وقد قالوا: متى حلمت على السَّفيه كثرت أنصارك عليه، ومن حلم زاد، ومن تفهم ازداد، وقيل: الحلم تحمل الأذى عن الضَّعيف ومعرفة حق الشريف والرفق بالوصيف، ومن طلب صديقا بغير عيب ولا زلة أبقته الأيام بغير صاحب، وقيل: الحلم هو التغافل عن إذاية العدو والحبيب، واحتساب الثواب في ذلك عند القريب المجيب، ومن الحلم إخماد الحرارة وتجرع أكواس المرارة من سبب إذاية الدني والرذيل، وتبديل الجفاء بالغض عن جميع الإذاية، وقد قالوا: من ملك نفسه ارتفع قدره، ومن ملك نفسه عند الغضب استحق رضاء الرّب.

الباب الثالث

في قطع الكبر

وهو الرأس الثالث من رؤوس النَّفس والشَّيطان.

اعلم أنَّ الكبرياء والعظمة من أوصاف الربوبية قال عليه السلام: «**إنَّ الله يقول الكبرياء إزاري والعظمة ردائي فمن نازعني فيهما قصمته**»[1] أهلكته.

واعلم أن رأس المتكبرين هو إبليس لعنه الله، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف/11 - 12]، ظن عدو الله أنَّ النار أفضل من الطين، ولم يعلم أن النار لم تخلق سوى الحموم والرماد، وأنَّ الطين هو مجموع من الماء والتراب، ولم يعلم لعنه الله أن الخيرات والبركات لم تخرج من الطين، فالعسل والزيت والزبيب والتمر وأنواع الفواكه واللبن والسمن والجبن والأقط والقمح والشعير وأنواع الزراريع واللحم والشحم وما لا يحصى من النَّعائم إذ استخرجت كلها من الطين، والأنبياء

---

(1) رواه أحمد في مسنده (248/2) وأبو داود (456/2) وابن ماجه (1397/2) من حديث أبي هريرة. ووقع قلب في اللفظ الذي ساقه المصنف، وإنما ورد بلفظ: "الكبرياء ردائي والعزة إزاري "

ورواه مسلم في صحيحه (2023/4) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته ".

والمرسلون والأولياء والشهداء والصالحون وجميع الصَّحابة والتابعين وسيد الخلق أجمعين كلهم من آدم، وآدم من طين، فصحّ إذاً أن رأس المتكبرين هو إبليس لعنه الله، وأنه مطرود من الجنة بسبب التكبر، لقوله تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف/13]، وكل متكبر في الأرض من خلق الله كافة فهو مقتد بإبليس في التكبر وهو من أتباعه يوم القيامة، قال الله جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه وصفاته: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام/93].

فَصْلٌ
فيما يقطع هذا الرأس الذي هو الكبرُ

اعلم أنَّ الكبر يقطع بالتواضع، لأن من رأى لنفسه قدرا على غيره وإن قل فهو متكبر، روي أنه قال: "من قال أنا خير من الكلب فالكلب خير منه "، والتَّواضع هو أن يتضع العبد لصولة الحق أي لدعوته وقهره، والحق هنا ضد الباطل، من كل قائل صغيرا كان أو كبيرا، شريفا كان أو دنيا، وسواء كان غنيا أو فقيرا، وسواء كان مأمورا أو أميرا، عظيما كان أو حقيرا، فيكون تواضعه لما نال من الحق لا لغيره، فالكبر هو عين الباطل، إذ هو مخصوص بالخالق ولا يستحقه غيره، والتَّواضع هو الحق لمعرفة المتواضع قدر نفسه وألزمها ما يستحقه أبناء جنسه.

قيل: إن بعض الأمراء مرَّ على فقير جالس، فلم يقم لهُ الفقير ولم يلتفت إليه، فقال له: الأمير كأنك لم تعرفني؟ قال: أنا عارف بك أكثر من معرفتك لنفسك، منصرف أولك وآخرك ووسطك، فقال: وكيف ذلك؟ فقال له الفقير: أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وفيما بينهما وعاء مملوء بالعذرة، فخجل الأمير واستحيا منه، ومن الله تعالى التَّوفيق.

واعلم أن هذه الأوصاف هي لازمة لكل إنسان، فمن عرف نفسه وأوصافها، فكيف يتكبر وينازع الله في وصفه؟ تعالى عن ذلك علوا كبيرا، فلا إله إلا الله ولا مثل له، فمن تكبر فقد كذب وأتى بالباطل، ومن عرف نفسه وحقارتها وعجزها ولم ير لها مزية على غيرها فهو المتواضع حقا، والحق ضد الباطل، والضدان لا يجتمعان، قال الشاعر:

تَوَاضَعْ تَكُـنْ كَالـبَدْرِ يُبْـصِرُهُ الـوَرَى فِـي صَـفْوِ غَدِيـرِ الأَرْضِ وَهْـوَ رَفِـيعُ
وَلَا تَـكُ كَالـدُّخَانِ يَـرْفَعُ نَفْـسَهُ لِـنَحْوِ الـسَّمَا يَعْلُـو وَهْـوَ وَضِـيعُ

وما ذكرناه من التواضع كاف في قطع رأس الكبر.

الباب الرابع

في قطع الحسد

الذي هو الرأس الربع من رؤوس النفس والشَّيطان.

قال الله تعالى: ﴿ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق/ 5] ختم الله سبحانه السورة التي جعلها عوذة بالتعوذ من الحسد، وقال صلى الله عليه وسلم: «**ثلاث من أصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن؛ الكبر فهو منع إبليس من السجود لآدم، والحرص فهو حمل آدم على الأكل من الشجرة، والحسد فهو الذي حمل قابيل على قتل أخيه**»[1]. وقيل: الحاسد جاحد لا يرضى بقضاء الواحد، وقيل الحسود لا يسود، وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف/ 33]، قيل: ما بطن هو الحسد. وقيل: اتق الحسد فإنه يؤثر فيك قبل أن يؤثر في المحسود، وقال الأصمعي[2]: رأيت أعرابيا له مائة وعشرون سنة، فقلت له: ما أطول عمرك! فقال: تركت الحسد فبقيت لهذا الأمد، وقيل: إذا أردت أن تسلم من الحاسد فلبس عليه أمرك، وقيل: إياك أن تتعب نفسك في مودة من يحسدك فإنه لا يفيد أبدا. ولا يقطع الحسد إلا الاعتقاد الصَّحيح أنَّ الملك لله وحده وأنَّ الناس عبيده في ملكه، فيهب لمن يشاء من عباده ما يشاء من ملكه، إما من طريق الفضل والاختيار، أنه علم بمصلحة كل واحد منهم، أو بطريق أنه يتصرف في ملكه كما يشاء ويختار، فهذا كاف في قطع الحسد.

---

(1) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (40/49).

(2) الإمام العلامة الحافظ، حجة الأدب، لسان العرب، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الأصمعي البصري، اللغوي الأخباري، أحد الأعلام. وتصانيف الأصمعي ونوادره كثيرة، وأكثر تواليفه مختصرات، وقد فقد أكثرها. قال خليفة وأبو العيناء: مات الأصمعي سنة 215 هـ.

الباب الخامس

في قطع البخل

الذي هو الرأس الخامس من رؤوس النَّفس والشيطان.

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «**البخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار والكريم قريب من الله قريب من النَّاس قريب من الجنة وبعيد من النار**"[1]، وقال عليه السَّلام: «**الكرم شجرة في الجنة ولها غصنٌ في الدنيا فمن تعلق بذلك الغصن فأداه إلى الجنة والبخل شجرة في النار ولها غصن في الدنيا فمن تعلق بذلك الغصن فأداه إلى النار**"، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من البخل وأشياء أخر لأنها من الأخلاق المذمومة، مع سلامته وأمنه عليه السَّلام من كل خلق مذموم، لقوله تعالى: وإنك لعلى خلق عظيم، فقد خرّج استعاذته عليه السَّلام الصَّحيح أبو زكرياء يحيى النووي[2] رحمه الله في حليته، وجلبه الإمام زروق في وظيفته المعلومة مع زيادة في الحديث، وأتى بذلك غير معزو فقال: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من البخل والجبن وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال**»[3].

---

(1) رواه الترمذي في سننه (342/4) والبيهقي في شعب الإيمان (429/7) من حديث أبي هريرة، والطبراني في الأوسط (27/3) والبيهقي في شعب الإيمان (428/7) من حديث عائشة.

(2) محيى الدين النووي الشافعي ولد بنوى من عمل دمشق. وقدم به والده دمشق سنة 649 هـ وسكن المدرسة ولازم كمال الدين المغربي وحج مع والده سنة 651 هـ، وبرع في العلوم وصار مدققا في عمله حافظا للحديث عارفا بأنواعه وكان لا يضيع وقتا إلا في وظيفته من الاشتغال ولا يأكل إلا مرة مما يؤتى به من عند أبويه بعد العشاء ولا يشرب إلا شربة عند السحر تولى الحديث بالأشرفية سنه 65 بعد وفاة أبي شامه ولم يأخذ من معلومها شيئا. يلبس ثوب قطن وعمامة سنجابية وعليه سكينة ووقار في بحث العلوم الدينية ولم يزل على ذلك إلى أن سافر إلى العريش ثم عاد إلى وطنه فمرض عند أبويه وتوفي في بلده نوى سنة.

(3) رواه البخاري في صحيحه (1059/3) من حديث سيدنا أنس، قال: كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل فكنت أسمعه كثيرا يقول (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال) الحديث.

وروى أبو داود في سننه (484/1) من حديث أبي سعيد الخدري قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة فقال " يا أبا أمامة ما لي أراك جالسا في المسجد في غير وقت الصلاة "؟ قال هموم لزمتني وديون يا رسول الله قال " أفلا أعلمك كلاما إذا أنت قلته أذهب الله [عز وجل] همك وقضى عنك دينك "؟ قال بلى يا رسول الله قال " قل إذا أصبحت وإذا أمسيت اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك =

فصل
في بيان ما يقطع به البخل

اعلم أن تدبر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة/111]، فهو يسلم من البخل إن تقوّى يقينه مع توفيق الله سبحانه.

اعلم يا أخي أنَّ الله سبحانه لما علم أنَّ أشد الفتن على عباده المؤمنين النَّفس والدنيا، وأن الإنسان يحب نفسه ودنياه عبد له بما يفهم، وذلك لما كان من باع شيئا لغيره، وأبانه عن نفسه بصفقة البيع، فإنه ييئس منه ولا يطمع في منفعة تلحقه من ذلك، عدا الثمن الموعود به إن كان مؤجلا، فإنه لا يتركه عند بلوغ الأجل، وإن ترك المشتري مشتراه بيد بائعه ومن عليه بالانتفاع به وبجميع غلته ما دام بيده إلى أن ينتزعه منه متى شاء، فهل فعل هذا المشتري الخير مع بائعه أم لا، فلا يشك أحد في فضل المشتري إذ ترك مشتراه لبائعه بغير عوض ولا منفعة للمشتري في ذلك بعد تعيين الثمن للبائع، وتفضل عليه بغلة المبيع، ثم صرف بعض عبيده للبائع ليقبض منه ذلك كله أو بعضه، فهل على المشتري في ذلك ملامة أم لا، فقل لا ملام عليه في ملكه، فالنظر له يؤتيه من يشاء ويمنعه ممن يشاء، فإن البائع يمكنه لمن أتى إليه عن طيب نفسه أنه لا ييئس من فضل المشتري أن يؤتيه مثل ذلك أو أفضل منه ممَّا تفضل من الإحسان، فقال له هذا مالي وملكي، فكل فيه واشرب وانكح وتصدق، ولك ثواب الصَّدقة، ولا تبخل بمالي على عبيدي إن قصدوك في شيء، فإن كان الأمر هكذا فما فائدة البخل؟ وبيان ذلك هو التَّفهم في شيء من معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة/111]، فالله تعالى خلق نفس المؤمن وأمواله وجميع دنيته وجميع ما يملك من الأحوال، ثم اشتراه منه وجعل الجنَّة ثمن المبيع، فما للمؤمن من الدنيا لا قيمة له لهوانه عند الله لأن الدنيا كلها عند الله لا تزن جناح بعوضة، ونفسه أيضا لا قيمة لها لسوء حالها وخبثها، والعوض يشكل لك ثمنا عظيما نفيسا لا قيمة له لحسنه وشرفه ودوامه أبد الأبدين، فانظر ما

=

من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال " قال ففعلت ذلك فأذهب الله [عزوجل] همي وقضى عني ديني.

أكرمك الله سبحانه، إذ خلقك وخلق لك نفسا ومالا وأولادا، فاشترى منك قليلا بكثير دائم، ومع ذلك ترك المبيع بيدك، وفوض لك في المنفعة والنفقة منه، وضمن لك خلفه فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ/39]، ووعدك على النقص إن طرأ على ما بيدك من ماله بأمره فلا يعاقبك عليه، وضمن لك الهداية إن صبرت على ما يخرج من يدك من نفس أو مال، وسمى ذلك مصيبة، فقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة/155] المراد على ذلك ثم قال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة/156 - 157]، وقد جعل لك أولادا هم عندك كنفسك ومالك، وأنه يأخذ ما شاء حيث شاء، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فالمال والنفس والأولاد راجعون لربهم على كل حال، فإذا كان الأمر هكذا من غير شك ولا ريب، ففيما الجزع وعدم الصبر على ما أخذ المالك من ملكه، وما فائدة البخل في مال أمرك ربه بتبديده بالمعروف فيما يريد، وأنت عارف بوجوده بالتصرف والنفقة، فليس ذلك إلا جرأة منك على المالك يخشى عليك من الوقوع في الجحيم بسبب ذلك، فبهذا ينقطع رأس البخل، وتحصل القناعة بما جعل ربك بيدك، والله الموفق.

فصلٌ
في القناعة

وهي أيضا من السلاح الذي تقطع به رأس البخل، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل/97]، قال بعض المفسرين: الحياة الطيبة هي القناعة، والقناعة في اللغة: الرضى بالقسمة السَّابقة في الأزل، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي: السكون عند عدم المألوفات، وقيل: هي الاكتفاء بالقليل، وقيل: هي الاستغناء بالموجود وترك التطلع إلى المفقود، وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الحج/58] إنه القناعة، وقيل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب/33] أي البخل والطَّمع، وقوله

﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي بالسخاء والقناعة، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار/13] إنه القناعة في الدنيا ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب/33]، أي السخاء والقناعة، وقيل السخاء والإيثار، وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص/35] أنه أراد بالملك كمال الحال في القناعة، وقيل في قوله تعالى: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل/21] أي لأسلبن عنه القناعة ونبتليه بالبخل في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار/13] لفي قناعة في الدنيا، ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار/14] إنه الحرص في الدنيا، وقال عليه السلام: «**القناعة كنز لا يفنى**»[(1)] وقال عليه السلام: «**ارض بما قسم الله لك تكن أغنى النَّاس**»[(2)] وفي الزبر: صاحب القناعة غني وإن كان جائعا، وقال بعض الحكماء: من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة، وقيل: وضع الله سبحانه خمسا في خمس؛ العز في الطاعة، والذل في المعصية، والهيبة في قيام الليل، والحكمة في البطن الخالي، والغنى في القناعة، وقيل: من قنع استراح من الشغل، واستطال على الكل، وقيل: من نظرت عيناه لما في أيدي الناس طال حزنه، وقيل: ما دام العقاب في طيرانه لا تسموا إليه همة الصياد، فإذا أحطه الطمع إلى الجيفة علق في الحبالة، فيا أيها السَّالك عليك بقطع مادة الطمع بسيف القناعة. قال موسى عليه السَّلام إذ مال للطمع بقوله للخضر[(3)] ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف/77] عوقب بقول الخضر له ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف/78]. وقيل إنَّ الله تعالى بعث ظبيا قام بين موسى والخضر عند قول موسى هذا القول، وكان جانب الظبي مما يلي الخضر مشويا ومما يلي موسى [][(4)]، الخضر صبر على الجوع فظفر، وموسى لم يصبر فلم يظفَر.

---

(1) رواه البيهقي في الزهد الكبير (ص: 88) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه.

(2) رواه أحمد في مسنده (310/2)، والترمذي في سننه (551/4) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) وأشهر أسمائه بليابن ملكان وكنيته أبو العباس وهو معروف بلقبه الخضر وهو صاحب القصة الشهيرة مع سيدنا موسى عليه السلام المذكورة في سورة الكهف، جمع لأخباره الحافظ ابن حجر جزءًا سماه "الزهر النضر في أخبار الخضر".

(4) سقط في النسختين.

واعلم أن مثل الطامع مثل كلب المزابل يقطع طول عمره بحذاء حانوت الجزار لرجاء عظم أو قطعة لحم ولا يجدها ومثل القانع مثل كلب الصَّيد لما ترك الجهل والشره وقطع طمعه عن لحم الجزار وعمل المكلة حمل إليه لطائف لحم الجزار والصيد وزادوه الخبز والمرق وغيرهما فالحريص محروم والعالي الهمة ينال ما يطلب، والله الموفق.

الباب السَّادسُ
في قطع الحرْص

وهو الرأس السَّادس من رؤوس النَّفس والشيطان.

وإنما يقطع بالقناعة وما ذكرناه قبلها بذلك قاطع للبخل والحرص لمن وفقه الله سبحانه.

واعلم أنَّ الرزق وما يدخل يد الإنسان من الأموال وغيرها إنما ذلك كله هو بالقسمة السَّابقة لقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف/32] الآية، والسَّابق لاحق فالرزق لا يجلبه حرص حريص، ولا يرده عجز عاجز.

واعلم أنَّه لو اجتمع أهل السَّموات والأرض أن ينفعوك بشيء لم يقدره الله لك لم يقدروا ولو اجتمعوا واتفقوا كلهم على أن يضروك بشيء لم يقدره الله لك لعجزوا ولم يقدروا، قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ [التوبة/51] فما يفعل الحرص مع هذه الأمور البينات، فالحريص متعوب، ولا ينال إلا ما كتب له، والمتوكل على الله مستراح، ولا يفوته شيء مما كتب له، والله الموفق.

فصل
في التوكل على الله سبحانه
في جميع الأمور كلها

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق/3]، وقال تعالى: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر/44]، وهذا الفصل يؤيد ما قبله من الأمور القاطعة للبخل والحرص وهو مناسب لما تقدم قريبا ونحن اشترطنا المناسبة في هذا الكتاب.

فاعلم أن التوكل هو الثقة بما عند الله تعالى واليأس ممَّا في أيدي النَّاس، وقيل: هو أن يستوي عند الإنسان الإكثار والإقلال، وقيل: هو إسقاط هم الوقت الغائب وقيل هو بقاء العبد مع الله بلا علاقة، وتفسير العلاقة هو ما ذكره يحيى بن معاد الرازي في قوله: ليس الصوفي في حانوت، والكلام في الزهد حرفة، وصحبة القوافل تعرض، وهذه كلها علاقات. وروي أن رجلا من المتوكلين دخل بغداد فقال: أعرف رجلا في هذا البلد اسمه الجرادي وله دكان بباب مسجد من مساجد المدينة، فلما بلغ إليه وجد الدكان مسدود الأسفل، فسأل عنه، فقيل له: سيأتي إن شاء الله قريبا، فجلس داخل باب المسجد بحيث يرى الرجل إذا جاء لدكانه، فإذا هو قد هتف به هاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه، وهو يقول له: التوكل في البراري والصحاري، لا بالجلوس على البرادي تنتظر الجرادي. وقيل: التوكل تمام اليقين بالله لا يتم إلا بحسن الظن به والثقة بما وعد من الرزق، والرضى بما جرى به قضاءه وقدره، فإذا تم اليقين بالله سمي توكلا. وقيل: التوكل بداية وهو صفة المؤمنين، والتَّسليم أوسطه وهو صفة الأولياء، والتَّفويض نهايته وهو صفة خواص الخواص.

وقد مدح الله التَّوكل وحثَّ عليه فقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق/3]، وقال: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة/23]، وقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس/84]، وقال: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران/159]، وقال: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم/12]، وأنشدت في ذلك، فقلتُ:

رضيت من الدنيا بقوت من حله ... من جنس الكلا أو من عروقه يحفر
وخرقة ثوب ساتر أو ملفق ... رضيت به إذا من حل مطهر
واشرب من كأس خشن مرقع ... وإن بقي عندي النصف عندي لا ينكر
وإن جاء ذاك كله متخيرا ... أخذت نصيبي منه والله أكبر
أيا أبناء الدنيا افعلوا ما أردتم ... ولاية أم عزلا وخلوني أنظر
رضيت قضاء الله كلا لأنني ... موقنٌ من فعل من ربي مقدر
ولو أنَّ أهل الأرض كلا تألفوا ... على نفعي أو ضرى وليس مقدر
فلا أحد بيدي من ذاك مراده ... إلا ما أراه الله فهو ميسَّر

وقال عليه السَّلام: «**التوكل نصف العبادة والدعاء نصفها**»، وقال عليه السَّلام: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم مثل ما يرزق الطَّير تغدوا خماصا وتروح بطانا**»[1]، وقال لقمان[2] لابنه: يا بني إنَّ الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيه أناس كثيرون، فلتكن سفينتك في تقوى الله، وشراعها التوكل على الله، لعلك تنجوا وما أظنك ناجيا. وقال بعض الحكماء: من ادعى ثلاثة وهو بغير ثلاثة، فإنَّ الشيطان يسخرُ منه، أولها من يدَّعي حلاوة ذكر الله مع الحب للدنيا فهو كذب لدعواه، الثاني من يطلب رضاء خالقه من غير إسخاط نفس فهو كاذب، والثالث من يدعي الإخلاص مع حب ثناء المخلوقين عليه فهو كذاب.

واعلم أنَّ التوكل على قسمين: توكل العوام؛ وهو: تفويض أمر الرزق إلى الله تعالى، وترك التعلق بالأسباب ثقة بوعد الله تعالى، واعتمادا على كرمه. وأمَّا توكل الخواص؛ فهو: تفويض الأمر إلى الله في كل شيء حتَّى يبقى العبد تحت أحكام القضاء والقدر عديم الحركة والاختيار، كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف يشاء، وهو عديم الحركة بالبدن، وعديم الاختيار بالقلب، وإن وقع في قلبه الحركة كان يتحرك بالله، وإن وقع في قلبه السكون كان ساكنا بالله، وإلى هذا أشار من قال: التوكل: اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب. قال أهل الحقيقة: المتوكل على التحقيق كان إبراهيم الخليل عليه السلام، فإنه لمَّا ألقاه النمرود في النار في كفة المنجنيق، لقيه جبريل في الهواء وهو نازل إلى النار، فقال: يا خليل الله ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فعلمه بحالي أغناه عن سؤالي، وكما التوكل لا يظهر إلَّا عند نزول

---

(1) رواه: أحمد (30/1) والترمذي (573/4) وابن ماجه (1394/2) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(2) نَاعور بن ناحثور بن تَارخ، وهو آزر، وقال وهب كان ابن أخت أيوب وقال مقاتل: ذكر أنه كان ابن خالة أيوب، وقال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل واتفق العلماء على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً إلا عكرمة فإنه قال كان نبياً وانفرد بهذا القول وقال بعضهم خُيِّرَ لُقْمَانُ: هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض فتحكم بين الناس بالحقّ فأجاب الصوت وقال: إن خَيَّرَنِي ربي قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن عزم علي فسمعاً وطاعة فإني أَعْلَمُ إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني فقال الملائكة بصوت لا يراهم لِمَ يا لقمانُ؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان إن يعن فبالحري أن ينجو وإن أخطأ، أخطأ طريق الجنة ومن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً، ومن يختر الدنيا على الآخرة تُغْنه الدنيا ولا يصيب الآخرة فتعجب الملائكة من حسن مَنْطِقِه فقام من نومه فأعطي الحكمة فانْتَبَه.

البلاء فالخليل صلوات الله على نبينا وعليه كان كالذهب الإبريز، عرض على النار لارتفاع شك الشاكين فيه، فلم تؤثر فيه النَّار لإظهار كمال الجوهرية والصفا.

وقيل: علامة توكل العوام ثلاث؛ أن لا يسأل الفقير، ولا يرد، ولا يدخر. وعلامة توكل الخواص: أن يكون الفقير بحيث لو أحاطت به السباع واللفاع لم يتحرك لها قلبه.

واعلم أن التوكل محله القلب، وحركة الظَّاهر لا تنافيه بعد أن يتيقن العبد أنَّ الكل بتقدير الله، فإن تيسَّر شيء فبتقديره، وإن تعسر شيء فبتقديره أيضا، وجاء رجل إلى النبيّ عليه السَّلام على ناقة فقال: يا رسول الله أدعها وأتوكل، فقال: «**لا، اعقلها وتوكَّل**»[1]. وقيل: كان إبراهيم الخواص محققا في التوكل مدققا فيه، وكان لا يفارقه إبرة وخيوط ومقراص وركوة، فقيل له في ذلك، فقال: الله على فرض لا يتأدى إلَّا بذلك، لأنه ليس لي إلا ثوب واحد خلق، فربما أنفتق أو انخرق فظهرت العورة، فمنعت جواز الصَّلاة، وقال الحسن أخو سنان[2]: حججت أربع عشرة حجة حافيا متوكلا، وإن يدخل في رجلي الشوك فلا أخرجه لئلا ينقص توكلي، وقيل: من ادعى التوكل ثمَّ شبع فقد حمل زاداً، وجاء جماعة من الشام إلى بشر الحافي[3] وطلبوا منه أن يحج معهم، فقال لهم: ولكن بثلاثة شروط؛ أن لا نحمل معنا شيئا، ولا نسأل أحدا شيئا، ولا نقبل من أحد شيئا، فقالوا: أمَّا الأول والثاني فنقر عليه، وأمَّا الثالث فلا نقدر عليه، فقال: أنتم الذين تحجون متوكلين على زاد الحجاج. وقال أبو حمزة الخراساني[4]: حججت سنة فبينما أنا في الطَّريق إذ وقعت في بئر، فطلبت مني نفسي

---

(1) رواه الترمذي في سننه (668/4) وصححه ابن حبان في صحيحه (510/2).

(2) لم أعرفه.

(3) أبو نصر بشر بن الحارث الحافي أصله من مرو وسكن بغداد ومات بها عاشر المحرم سنة 227 هـ رضي الله عنه، صحب الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه وكان عالماً ورعاً كبير الشأن أوحد وقته علماً وحالا، ومن كلامه رضي الله عنه لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس يعني يحب اطلاع الناس على صفات كماله. (الطبقات الكبرى ص 71).

(4) يقال إن أصله من نيسابور من محلة ملقاباذ صحب مشايخ بغداد، وهو من أقران الجنيد رضي الله عنه، وسافر مع أبي تراب النخشبي وأبي سعيد الخراز، وكان من أفتى المشايخ، وأدينهم، وأورعهم مات سنة 309 هـ، وكان الإمام أحمد رضي الله عنه إذا عرضت عليه مسألة تتعلق بطريق القوم يقول له: ما تقول في هذه المسألة يا صوفي، وكان يقول: بقيت محرماً في عباءة أسافر ألف فرسخ كل سنة كلما تحللت أحرمت جديداً سنين عديدة. قلت: وعري البدن للفقير =

أن أستغيث فلم أفعل، فما تم هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان، فقال أحدهما: للآخر: تعال حتى نسد رأس هذا البئر كي لا يقع فيها أحد، فوافقه صاحبه، فهممت أن أصيح، ثم قلت في نفسي: لمن منهما، ثم سكت حتى سدا رأس البئر، فلما مضت ساعة سمعت حس شيء يفتح رأس البئر ودلى رجله، وقال لي بلسان حاله: تعلق برجلي، فتعلقت به فأخرجني فإذا هو سبع فتركني ورحل. وسمعت هاتفا يقول: يا أبا جمرة كيف ترى نجيناك من الهلاك بالهلاك من التلف بالتلف؟! وقال أبو سعيد الخراز[1]: دخلت البادية مرّة بغير زاد فأصابتني فاقة، فرأيت المنزل من بعيد ففرحت بالوصول، ثمَّ نكرت في نفسي التي سكنت إلى غير الله في توكلي، فآليت أن لا أدخل المنزل إلا أن أحمل إليه من الضعف، وقال إبراهيم الخواص: بينما أنا أسير بالبادية إذ قال لي أعرابي: يا إبراهيم المتوكل أقم عندنا حتى يصح توكلك، أما تعلم أن رجالا دخلوا بلدا فيه أطعمة تحملك وتقوتك، اقطع رجالك عن دخول البلدان وتوكل.

وحاصل الأمر أنَّ التوكل من المقامات العالية الشريفة، ولكنه عزيز الوجود جدا، انتهت الفحول القاطعة لرأس البخل والحرص، وبالله التَّوفيق.

الباب السَّابع

قطع الأمل

وهو الرأس السَّابع من رؤوس النَّفس والشيطان.

اعلم أنَّ الأمل هو تعلق القلب بالبقاء، فمن طال أمله لهى عن أمر ربه، وانقاد لشهوات نفسه، واتبع وساوس عدوه، واشتغل بالجمع والتحصيل، وتقوى فيه الحرص والطَّمع وكثرة القال والقيل، وصار كمن أيقن أنه خالد في الدنيا وأنه لا يزال حيا، وغفل عن الموت وتركه نسيا منسيا، قال عليه السَّلام: «**يشيب ابن آدم وتشب فيه**

=

إشارة للتجرد بالباطن عن الكون، وقوله كلما تحللت أحرمت أي كلما ملت إلى شهوة جددت توبة، والله أعلم. (الطبقات الكبرى ص 102).

(1) أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز هو من أهل بغداد وصحب ذا النون المصري وسريا السقطي وبشرا الحافي وغيرهم، وهو من أئمة القوم وأجلة المشايخ قيل إن أول من تكلم في علم الفناء والبقاء أبو سعيد الخراز. مات رضي الله عنه سنة 279 هـ. (الطبقات الكبرى ص 91).

خصلتان الحرص وطول الأمل»[1]، وقال عليه السَّلام: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي الهوى وطول الأمل أما الهوى فيصد عن الحق وأمَّا طول الأمل فينسي الآخرة»**[2]، وقال عليه السلام: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع هواه وتمنى على الله الأماني»**[3].

واعلم أن طول الأمل له سببان، أحدهما: الجهل، والثاني: حب الدنيا. فأما الجاهل فإنه لا يدري ما يراد به، ولم يشاهد سوى ما يدرك ببصره، وإذا دخل يده مال قال: هذا لا يبيد، ولا تزال فوائده ومدده يردان علي في كل يوم جديد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة/96] الآية فسريعا ما تنقلب عليه الدنيا ويسلب من ماله، ويبقى ينظر إليه من بعيد. وأما الدنيا فمن ملك منها شيئا فيقول: هذا موروث عن الجدود، ولا أزال ملكه إلى يوم الخلود، ولم يعلم سوء ما يرد إليه فبئس الورد والمورود، لأن الدنيا من استأنس بها وذاق لذة شهواتها ونشب في قلبه علائقها ثقل عليه مفارقتها، وامتنع قلبه من ذكر الموت والتَّفكر اللذان هما أعظم السَّبب بمفارقتها، لأن من يكره شيئا لا يحب أن يسمعه بأذنه، فأحرى أن يتفكر فيه بلبه، ولا يزال يدفعه عن نفسه وكل من قلبه أحب الدنيا لا يزداد من اليقين إلَّا بعدا، ولا يزال مشغولا بالآمال الباطلة، فيمني نفسه بالبقاء أبدا، وهذا محال لا يتصور في العقل، لكن لا يعلم استحالته إلا من اهتدى، وأما من غلبت عليه شقواته فلا يزال يروع عن الحق كالثعلب سرمدا.

فصلٌ
فيما يقطع به هذا الرَّأْسُ
الذي هو الأمل

فلا يقطعه شيء سوى التّفكر في الموت وفراغ الأجل، وربما يأتيه الموت فجأة فتنقله سريعا عن ماله وأهله وبنيه وبناته، وينسى بمرارته جميع لذاته وشهواته، ولا بدّ أن يذوق الموت فيأتيه بأهواله وسكراته وينقله للدار الدائمة بجميع ذنوبه وسيئاته فيندم

(1) رواه أحمد في مسنده (115/3)، والبيهقي في السنن الكبرى (368/3).

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان (370/7) من حديث جابر رضي الله عنه.

(3) رواه أحمد (124/4) والترمذي (638/4) وابن ماجه (1432/2).

حين لا ينفعه الندم، وربما يختم له بالشر فيكفر ويخلد في جهنم، فاجعل يا أخي ذكر الموت على بال، ولا تنسه في جميع الأحوال، فهو هادم اللذات، ومخرب الديار، وفاسد الأموال، ومرمل الزوجات، وميتم الأطفال.

واعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول، ولا حساب وعقاب ولا عذاب، ولا فراق ماله وأهله وأحب الناس إليه، سوى سكرات الموت لمجردها، لكان جدير بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، وتفارقه شهوته وغفلته، وحقيق بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده، كيف وما بعد الموت أعظم من الموت، قال عليه السَّلام: «**إن يوم القيامة فيه ألف هول وأدناها أعظم من الموت ألف مرة**» أو كما قال صلى الله عليه وسلم، وقال لقمان لابنه: يا بني أمر لا تدري متى يلقاك فاستعد له قبل أن يفاجئك، وانظر لهذا الزمان الذي نحن فيه إذ كلما ازداد الإنسان دنيا كثرت الوظائف والأهوال عليه ولا يلتذ بالنعائم الكثيرة لنعمة وربما يكون في أطيب عيش وأرغده مع زوجته وأهله إذ دخل عليه جندي من أقل العبيد فيضربه في بيته ويسجنه في داره فهذا ذل معجل لصاحب الدنيا وبقلة المال ينجو من هذه البلية فأحرى ما يلقاه يوم القيامة من شدة الحساب وعظيم الحسرة والندامة لا سيما إن كان شحيحا بخيلا والمال عنده عظيم وهو معه ذليل ومن كان ذا مال وجاه وعز ورفعة في الدنيا فبالموت يذوق الذل والهوان ويذلل بين المظلومين تذليلا ويحاسب على النقير والقطمير والجليل والحقير كيف يكون حاله ومقاله بين يدي العليم الخبير واعلم أن خوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وسرعة خطفاته جبذت الخائفين فلا تليق الغفلة عنه بالمؤمنين قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات**»[1] وقال صلى الله عليه وسلم: «لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سمينا قط»[2] وقال أنس قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا**»[3] وقال صلى الله عليه وسلم: «**كفى بالموت واعظا**»[4] وخرج

(1) رواه الترمذي في سننه (639/4)، وابن حبان في صحيحه (261/7).

(2) رواه البيهقي في الشعب (353/7) من حديث أم حبيبة الجهنية رضي الله عنها.

(3) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (193/4: "أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف جدا ".

(4) سبق تخريجه.

صلى الله عليه وسلم: إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال: «**اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا**»[1] وذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال: «**كيف كان ذكر صاحبكم للموت**» فقالوا: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموتى، قال: «**فإن صاحبكم ليس هناك**»[2]. وقال ابن عمر رضي الله عنه أتيت النَّبيَّ ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار: مَن أكيسُ الأكياس وأكرم النَّاس يا رسول الله؟ قال: «**أكثرهم ذكرا للموت واستعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة**»[3] وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه يا أخي احذر الموت في هذه الدَّار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت ولا تجده وكان ابن سيرين[4] رحمه الله يجمع كل ليلة الفقهاء فكان إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه. وكان عمر بن عبد العزيز[5] رحمه الله يخرج كل ليلة للفقهاء يتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة. وقال كعب

---

(1) رواه بنحوه البخاري في الأدب المفرد (ص: 98)، وابن حبان في صحيحه (319/1) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) عزاه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (555/10) إلى البزار في مسنده، وقال: وفيه يوسف بن عطية وهو متروك.

(3) رواه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (ص: 18) والطبراني في الكبير (417/12) والأوسط (308/6)، وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (556/10): "إسناده حسن".

(4) محمد بن سيرين كانوا إذا ذكروا أحداً عنده بسوء يذكره هو بالخير، وكان ذا خشوع وسمت، وكان لا يدع أحداً يمشي بصحبته إذا خرج إلى مكان ويقول: إن لم يكن لك حاجة فارجع، وكان إذا كلم أمه لا يكلمها بلسانه كله إجلالا لها، ولما حبس في دين قال له السجان إذا جاء الليل فاذهب إلى دارك وأْت بكرة النهار، فقال: لا أعينك على خيانة أمانتك، وكان يقول سبب حبسي أنني عيرت رجلا بدين كان عليه فعوقبت بذلك، وكان رضي الله عنه يقول من الظلم البين لأخيك أن تذكر شر ما فيه وتكتم خير ما فيه عند غضبك، وكان يقول لو أن للذنوب ريحاً لما قدر أحد أن يدنو مني لكثرة ذنوبي، وكان إذا سئل عن الرؤيا يقول للسائل اتق الله في اليقظة فلا يضرك ما رأيت في النوم. (الطبقات الكبرى ص 33).

(5) الخليفة الراشد وأحد من جمع الله لهم الولاية الظاهرة والباطنة، وكانت الشياه والذئاب في زمانه ترعى سواء من عدله، وأتته الدنيا وهي راغمة فتركها وزهد فيها وكانت حجزة إزاره غائبة في عكنته، فلما ولي الخلافة، فلو شئت أن تعد أضلاعه عداً من غير مس لعددتها، وكانت غلته خمسين ألف دينار، فلما ولي الخلافة صار ينفقها كل حين، حتى ما يبقى له غير قميص واحد لا يخلعه، حتى يتسخ فإذا اتسخ غسله ومكث في البيت حتى يجف. (الطبقات الكبرى ص 30).

من عرف الموت هانت عليه الدنيا وهمومها. وقال أشعث كنا ندخل على الحسن فلا نجده يتذاكر إلا أمر النار وأمر الآخرة. وقالت صفية رضي الله عنها: أن امرأة اشتكت إلى عائشة قساوة قلبها فقالت أكثري ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة. وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الموت والقيامة بكى حتى تتخلع أوصاله فإذا ذكرت الرحمة رجعت إليه نفسه ، وقال الحسن[1] رضي الله عنه ما رأيت عاقلا قط إلا أصابه من الموت رعدة وكان عليه حزينا ، قال عمر بن عبد العزيز لبعض الفقهاء: عظني فقال ألست الآن أول خليفة يموت قال: زدني قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم عليه السَّلام إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكى عمر لذلك ، وكان الربيع بن خيثم[2] رحمه الله قد حفر حفرة في داره قبرا وكان يدخل فيه في اليوم مرات ليجد قلبه وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد. وقال مطرف بن عبد الله بن الشيخدان[3]: هذا الموت قد نغص على أهل النعم نعيمهم فاطلبوا نعيما لا

(1) ولد في النصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وأذّن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أذنه وسماه الحسن، وكان حليماً كريماً ورعاً دعاه ورعه وحلمه إلى أن ترك الدنيا، والخلافة لله عز وجل، وكان من المبادرين إلى نصرة عثمان رضي الله عنه. وولي الخلافة بعد قتل أبيه وبايعه أكثر من أربعين ألفاً، كانوا بايعوا أباه، وبقي نحو سبعة أشهر خليفة بالحجاز واليمن والعراق وخراسان وغير ذلك، ثم سار إليه معاوية من الشام وسار إلى معاوية فلما تقاربا علم أنه لن تغلب إحدى الطائفتين حتى يقتل أكثر الأخرى، فأرسل إلى معاوية يبذل له تسليم الأمر على أن تكون الخلافة له من بعده، وعلى أن لا يطالب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه وغير ذلك، من القواعد، فأجابه معاوية إلى ما طلب فاصطلحا على ذلك وظهرت المعجزة النبوية في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن ابني هذا سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " وكان ذلك إحدى وأربعين وكان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم. (الطبقات الكبرى ص 23).

(2) كان يقول أي لحيمة أي دمية كيف تصنعان إذا سيرت الجبال ودكت الأرض دكاً وكان يكنس البيت بنفسه ولا يمكن أهله من ذلك ويقول إني أحب أن آخذ لنفسي من المهنة، وكان رضي الله عنه يقول: لقد أدركنا أقواماً كنا نعد أنفسنا في جنبهم لصوصاً مات رضي الله عنه سنة 67 هـ، في أيام معاوية رضي الله عنه. (الطبقات الكبرى ص 26).

(3) مطرف بن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه: كان رضي الله عنه يقول: لو أتاني آت من ربي عز وجل فقال: أنت مخير بين الجنة والنار، أو تصير تراباً لاخترت أن أصير تراباً. ولما مات ابن له رضي الله عنه، سرح لحيته ولبس أحسن ثيابه. فقيل له: في ذلك قال: أتأمروني أن أستكين للمصيبة، والله لو أن الدنيا وما فيها كانت لي ثم وعدني الحق تعالى، على أخذها كلها بشربة ماء في الآخرة، لاخترت تلك الشربة، وكان رضي الله عنه يقول: لأبيت نائماً وأصبح نادماً، أحب =

موت فيه. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لعنبسة: أكثر من ذكر الموت فإنك إن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك، ولمثل هذا الإشارة بحديث عائشة رضي الله عنها حيث سألت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله وهل يحشر مع الشهداء أحد فقال: «**نعم من يذكر الموت في كل يوم عشرين مرة**»[1] ففي هذا الخبر كفاية في قطع الأمل والله الموفق سبحانه.

الباب الثامن
في قطع الرياء

وهو الرأس الثامن من رؤوس النَّفس والشيطان، وبتمام قطعه تنقطع رؤوس الشيطان ورؤوس النفس كلها.

اعلم أنَّ التَّعريف بالرياء قد تقدَّم ولو يبق لنا إلا قطعه ولا يقطع إلا بالإخلاص والإخلاص في اللغة هو ترك الرياء في الطَّاعة وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو كذلك أيضا، ولهذا قال بعضهم: هو أن يكون المقصود بالطاعة وجه الله وقال رؤوسهم الإخلاص كل عمل لا يريد عليه صاحبه عوضا في الدنيا ولا في الآخرة وقال بعضهم: هو أن تستوي عبادة العابد في الظاهر والباطن وقيل المخلص من يخفي حسناته كما يخفي سيئاته وقال عليه السلام حكاية عن الله تعالى: «**الإخلاص سر من أسراري أستودعه قلب من أحبه من عبادي**»[2] وقال عليه السلام: حكاية عن الله تعالى

=

إلي من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً. توفي رضي الله عنه بعد الطاعون الجارف، لما تولى الحجاج العراق سنة 207 هـ رضي الله تعالى عنه.

(1) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (139/4): "لم أقف له على إسناد".

(2) قال العلامة ابن الطيب أخرجه أبو القاسم بن الطيلسان في مسلسلاته وقال حديث غريب وكذا سلسله ابن أبي عصرون والديلمي في مسنده وفي رواية سألت جبريل عن علم الباطن ما هو فقال سألت الله عن علم الباطن ما هو فقال يا جبريل هو سر بيني وبين أحبابي وأوليائي وأصفيائي أودعته في قلوبهم فلا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل وقد صرح السخاوي بأن الحسن لم يسمع من حذيفة بل ما لقيه أصلا والراوي عنه مجمع على ضعفه والهجيمي صرح الدارقطني بأنه متروك انتهى

انظر: العجالة في الأحاديث المسلسلة للفاداني (ص: 89).

أيضا: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا وأشرك فيه غيري فأنا منه بريئ**» [1]
وقال عليه السَّلام: «**طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الدنيا تنجلي عنه كل فتنة**»[2]
وأقل الإخلاص في التوحيد وكيفيته ما ذكر الله تعالى في سورة الإخلاص وفي الطَّاعات قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة/5] وفي الدين قال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ وقال مكحول[3]: ما أخلص عبد أربعين ليلة إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، وقال أبو يعقوب السوسي[4] من رأى في إخلاصه إخلاصا احتاج إخلاصه إلى إخلاص، وقال بعضهم: ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجلهم شرك والإخلاص الخلاص من هذين وقال سعد بن عبد الله: الإخلاص أشق العبادات على النفس أنها لا نصيب لها فيه، وقال أبو سعيد الخراز: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين وقال السري السقطي[5]: رحمه الله. من يزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله والله أعلم وهو الملهم سبحانه.

فمن وفق لما ذكرناه في هذه الأبواب فقد قطع له رؤوس النفس والشياطين، وتطهر له بيوت الأنجاس من خبائثه، ولم يبق عليه إلا الاستبراء من الأخبثين، الذين هما البول والغائط المعنويين، وهما الرياء وحب الدنيا.

فأمَّا البول المعنوي فقد انتهى الكلام لنا الآن على كيفية طرحه في المجرى التي هي الهوى.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه البيهقي في الشعب (343/5).

(3) مكحول الشامي الفقيه المشهور تابعي يقال إنه لم يسمع من الصحابة إلا عن نفر قليل ووصفه بذلك ابن حبان وأطلق الذهبي أنه كان يدلس. توفي رحمه الله سنة 100 هـ. (تهذيب التهذيب 5/ 450).

(4) محمد بن عبد الله بن سعيد، أبو عبد الله السوسي: من كبار المتصوفين في المغرب. من أهل مراكش، أصله من السوس، ومولده بها. كانت له معرفة بالفقه والحديث وانقطع إلى الزهد وتلاوة القرآن. وكثر تلاميذه. وجاور بالحرمين وتوفي بمكة سنة 1079 هـ. (الطبقات الكبرى ص 101).

(5) أبو الحسن السري بن المغلس السقطي خال الجنيد وأستاذه رضي الله تعالى عنهما، صحب معروفاً الكرخي وكان أوحد أهل زمانه في الورع والأحوال السنية وعلم التوحيد وهو أول من يتكلم فيه ببغداد وإليه ينتمي أكثر المشايخ ببغداد ومات بها سنة 251 هـ، وقبره بالشونيزية ظاهر يزار. (الطبقات الكبرى ص 66).

وأما الدنيا فسنصف لك هنا إن شاء الله كيفية طرحها حيث طرحنا البول المذكور ليجتمع في المجرى المذكور الأنجاس كلها في محل واحد، لأنه لما كان البول الحسي والغائط الحسي لا غنى للمكلف عن طرحهما في كل يوم وليلة، وكذلك الأخبثان المعنويان يجب على الإنسان الذي قطع هذه الرؤوس المذكورة أن يطرح ذلك مع الهوى، ومحاربة الشيطان أشد من محاربته قبل ذلك، لأنه حريص على إضلال من تيقن نجاته، فكن على حذر من جميع ذلك، ومن كيد النفس وإن كانت مطهرة فاتهمها كما اتهمها يوسف الصديق عليه السَّلام، أن الشيطان لا يتركها لموالفتها وموافقتها لأمره قبل ذلك، وأيضا لا يقين عندك في طهارة النَّفس، فلا بدّ أن تتحفز منها، وتحذر هؤلاء الأربعة: النفس والشيطان والدنيا والهوى، وإن عبرنا بانقطاع جميع رؤوس النفس والشيطان، فذلك معظم وساويسهما، لأن الشيطان من المنظرين فلا يموت حتى لا يبقى حي في الدنيا. **واعلم** أن وساويسه لا تنقضي مادام الإنسان حيا كما روي عن بعض السادات، كان من أصحاب التَّجريد، وكان إمام بمسجد وبه سكناه، فلما مرض مرض الموت وطال مرضه جعل له جماعته اثنين منهم يجلسان معه بالنوبة، فلما نزلت به سكرات الموت جعلا يلقناه الشَّهادة، وجعل كل ما يقولا ((لا إله إلا الله محمَّد رسول الله)) فيجاوبهما بأن يقول: لا، لا، مازلت مازلت، آخر كلامه، فساءت به الظنون، فلما كان بعد دفنه بيوم وقف على كل واحد من الجماعة وهو في هيئة حسنة وعليه أنوار لا تتكيف، فسُئل عمَّا فعل الله به، فقال: خيرا غفر لي، وأكرمني كرامة لا تتكيف، فقيل له: حيث كنت في النزاع كان فلان وفلان يلقناك الشهادة، فإذا قالا: ((لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)) كنت تجاوبهما بقولك: لا لا مازلت مازلت، فقال: كانا يسمعان مني ذلك فقيل له: نعم قال: ذلك حق، كنت أقوله جوابا للشيطان لعنه الله، أنه إذ ذاك لم يزل يقول: لي نجوت مني يا فلان، وأقول له: لا لا مازلت مازلت، وأما من حضر من الجماعة فلم أسمع له قولا، لا بالشهادة ولا بغيرها لشدة فتنة الشيطان في ذلك الوقت الضيق، فقيل له: ما معنى قوله نجوت مني وما مراده بذلك؟ وما معنى قولك ما زلت ما زلت بعد النَّفي؟ فقال: إنني كنت طول حياتي قطعتها في محاربة النفس والشيطان بالمخالفة، فلمَّا نزل بي الموت جاء يغشني ويؤمنني، فكنت نقول: لا لا مازلت، معنى كلامي: لم أنج منك مازلت في محاربتك وقتالك وعدم قبولي منك قولك مادامت الروح بجسمي، فقيل له: وما كان مراده بذلك

القول؟ فقال: لا علم لي غير أنّني فهمت منه أن أرضى قوله في ذلك الوقت، ويفسد علي ثواب المحاربة، أو لعله إن آمنت فيه وعلم مني بذلك ربما يدس لي من أنواع وساوسه مالا أعلمه فاتخذته عدوا، لأن العدو لا تقبل نصيحته وإن كانت صدقا، فتحمل على الغش، وكذلك كونوا معه، وهذه كيفية استفراغ أحد الأخبثين وهو البول المعنوي الذي هو الرياء قد انتهى وكمل، والله الموفق سبحانه.

باب في استفراغ الخبث الثاني الذي هو الغائط المعنوي وهو حب الدنيا

سمي بذلك لأنه مفسد للعبادات، ومن أعظم قواطع السلوك على السَّالكين، فلا ينقل السالك للمنزل الذي فوقه أبدا مادام معه شيئا من حب الدنيا ولو قل، ولا يستفرغ حب الدنيا إلا بالزهد.

فصل في التَّعريف بالدنيا وطرحها

قال الله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ [الحديد/20] الآية وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران/185]، وقال النَّبي ﷺ: **«من كان همه الدنيا شتت الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته منها إلا ما كتب له ومن كان همه الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا راغمة»**[1]، وقال عليه السَّلام: **«من أحب الدنيا أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»**[2] وقال عليه السَّلام: **«ولو كانت الدنيا تزن عند الله قدر جناح بعوضة ما سقى منها الكافر قطرة»**[3] وقال عليه السَّلام: **«والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر نسبة ما يلصق**

(1) رواه الترمذي (642/4) من حديث أنس، وأحمد (183/5) وابن ماجه (1375/2) من حديث زيد بن ثابت.

(2) رواه أحمد (412/4) وابن حبان في صحيحه (486/2) والحاكم في مستدركه (343/4) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(3) رواه الترمذي (560/4) والحاكم في مستدركه (341/4) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

بالإصبع من الماء فذلك الدنيا من ماء اليم وهو البحر فلا نسبة بينهما»[1]، وقال عليه السَّلام: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة وقطع رأس الدنيا رأس كل عبادة**»[2]، وقال عليه السلام: «لو كانت الدنيا ذهبا يغني والآخرة خزفا لاخترت الآخرة"، وقال عليه السَّلام: «**رأيت الدنيا في صورة عجوزة شوهاء فقلت لها أين أزواجك فقالت قتلتهم عشقا**»، والله الموفق.

فصل
في الزهد الذي يطرح الدنيا

الزهد في اللغة هو: ترك الميل إلى الشيء، وهو ضد الرغبة فيه، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو: بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل هو: ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة، وقيل هو: أن تخلي قلبك ممَّا خلا منه يداك، وقال الجنيد: هو خلو اليد من الدنيا، وخلو القلب من طلبها، وقيل هو: ترك كل ما يشغل عن الله، وقيل هو: ترك كل ما سوى الله، وقال سفيان الثوري[3] وأحمد بن حنبل[4] وغيرهما: الزهد قصر الأمل في الدنيا، وليس هو أكل خبز الشعير ولبس العباءة، وقيل: حقيقة الزهد قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد/23]، فالزاهد لا يفرح بموجود من الدنيا ولا يحزن على مفقود منها، وقال أبو علي: الزاهد من يترك الدنيا كما هي ولا يقول أبني رباطا ولا أعمر مسجدا، وقال يحيى بن معاد الرازي: الزهد يورث السخاء بالروح.

واعلم أنَّ الزهد من المقامات الشريفة، قال عليه السَّلام: «**إذا رأيتم الرجل قد**

---

(1) رواه مسلم (2193/4) من حديث المستورد أخي بني فهر.

(2) سبق تخريجه.

(3) سفيان بن سعيد الثوري وكانوا يسمونه أمير المؤمنين في الحديث. ولد رضي الله عنه سنة 97 هـ وخرج من الكوفة إلى البصرة سنة خمس وخمسين ومائة وتوفي رضي الله عنه بالبصرة سنة 161هـ وكان رضي الله عنه عالم الأمة وعابدها وزاهدها وكان رضي الله عنه يقول: لا ينبغي للرجل أن يطلب العلم والحديث حتى يعمل في الأدب عشرين سنة. (سير أعلام النبلاء 152/6).

(4) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله المروزي ثم البغدادي ولد سنة 164 هـ ببغداد وهو من كبار الآخذين عن تبع الأتباع وله مذهب معروف وصلابة في السنة وقد امتحن بسبب ذلك رحمه الله توفي سنة 241 هـ ببغداد (التهذيب 320/1).

أوتي زهدا في الدنيا ومنطقا فاقتربوا منه فإنه يلقي الحكمة»[1]، وقال عليه السلام: «**من زهد في الدنيا هانت عليه المصائب**»[2] وجاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال يا رسول الله: دلني على عمل يحببني إلى الله فقال عليه السَّلام: «**ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك النَّاس**»[3].

ثم قال: الزهد في الحلال إنما يكون مندوبا في حق من يعلم من حاله الصَّبر على العشير والشدة، وقيل: الأفضل أن لا يختار العبد ترك الحلال تكلفا واختيارا إذا رزقه الله، ولا يطلب فضلا لا يحتاج إليه، بل يتبع ما قسم الله له، فإن رزقه الله مالا حلالا شكر، وإن لم يوسع عليه صبر، فعلى هذا الشكر بالغنى والصَّبر أولى بالفقر. وقال أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أقسام: زهد العوام: وهو ترك الحرام، وزهد الخواص وهو: ترك ما زاد على قدر الضَّرورة من الحلال أيضا، وزهد العارفين وهو: ترك كل شيء سوى الله. وقال النصربادي[4]: الزاهد غريب في الدنيا والعارف غريب في الآخرة، وقيل: من صدق في زهده أتته الدنيا راغمة، ولذلك قيل: لو سقطت قلنسوة من السَّماء لما سقطت إلا على رأس من لا يريدها، وقيل: من تكلم في الزهد ووعظ النَّاس ثم رغب في دنياهم نزع الله حب الآخرة من قلبه، وقيل: إذا زهد العبد في الدنيا وكل الله به ملكا يغرس في قلبه الحكمة، وقيل لبعضهم: لم زهدت في الدنيا؟ فقال: لزهدها فيَّ، وقال السري: مارست كل نوع من الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد في النَّاس فإني لم أبلغه ولم أطلبه قط، فالحاصل أنَّ الزهد علامة كمال العقل والهداية، لأن العاقل يترك المنفعة العاجلة خوفا من المضرة الآجلة، وينظر في عواقب الأمور بخلاف الجاه، ولهذا قال بعضهم: ما خرج الزاهدون من الدنيا إلى الله بل إلى أنفسهم، لأنهم تركوا النَّعيم الفاني للنَّعيم الباقي، لكن هذا في زهد العوام والخواص، لا في زهد خواص الخواص، لأنهم زهدوا في الآخرة أيضا، حيث كان زهدهم ترك كل شيء سوى الله تعالى، فبتحقيق هذا الفصل تطرح الدنيا وشواغلها، والله الموفق سبحانه.

---

(1) رواه ابن ماجه (1373/2) من حديث أبي خلاد رضي الله عنه.

(2) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (74/1) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(3) رواه ابن ماجه (1373/2) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(4) لم أجده.

باب
في كيفية الاستجمار المعنوي

اعلم يا أخي أنَّا لمَّا رتَّبنا الطَّهارة المعنوية على الطَّهارة الحسية، وأوضحنا الكلام في كيفية استفراغ الأخبثين المعنويين، المعبر عنهما بالاستبراء، لكونه كالاستبراء الحسي، فبالحسي تستبرأ معدة المتطهر، ومبولته من ثقل الأخبثين، وكذلك الاستبراء المعنوي يستبرأ به قلب التائب من رين الذنوب وظلمات الزلل والعيوب، فلمَّا فرغنا من الكلام على الاستبراء المعنوي، أردنا هنا الكلام كذلك على الاستجمار المعنوي، ولـمَّا كان الاستجمار الحسي هو نزع البقية الضَّعيفة من الأخبثين على فم مخرجهما، ولا ينزع ذلك إلَّا بالماء المطلق في الفعل المعبر عنه بالاستنجاء بعد الاستجمار إن شئت، لأن الفقهاء نصوا على جواز الاستجمار، وأنه يكفي على الاستنجاء، وإن مع وجود الماء وذلك بمسحه وتجفيفه بما يلزمه من شيء يابس طاهر من حجارة أو طوب ونحوهما، وفي الطهر المعنوي لا يكفي الاستجمار عن الاستنجاء، لأن الاستجمار هنا إنما يكون بالصدق، والاستنجاء بالتقوى، ولا بدّ من كل واحد منهما في الرجوع للحق، والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

فصل
في ذكر الصدق وبيانه

قال تعالى: ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب/8]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ﴾ [الأحزاب/35] من جملة القوم الذين أوعدهم الله تعالى بالمغفرة والأجر العظيم إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب/35]، فانظر معنى كلامنا في صدر هذا حيث قلنا في الباب الأول من هذا الكتاب: كأنَّ الشيخ جرَّد من نفسه صورة مكلف بالغ عاقل، إلى قولنا ليكون الخطاب صالحا لنفسه، ولكل مكلف من الذكور والإناث؛ أنه لا خصوصية للذكور في الولاية

العامة ولا في الولاية الخاصة، فانظر هذه الآية ما من خصلة إلا وذكرها الله تعالى للذكور والإناث على حد السَّواء، والوعد بالمغفرة والأجر العظيم للجميع الحمد لله على ذاك.

اعلم أنَّ الصدق عند اللغويين هو ضدّ الكذب، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو كذاك لقولهم: الصدق هو قول الحق في مواطن الهلاك، وقيل: هو استواء السِّر والعلانية، وقيل: هو إسقاط ما سوى الحق، وقيل هو: الوفاء والصَّفاء، وقال الجنيد رحمه الله: الصدق هو أن تصدق في موضع لا ينجيك منه إلا الكذب، وقال أبو علي الدقاق: الصدق أن تكون كما ترى من نفسك أو ترى من نفسك كما تكون، وقيل: الصَّادق من لا يحبُّ اطلاع الناس على عمله ولا يكره ذلك، وقيل: الصِّدق هو الذي يتهيأ له أن يموت ولا يستحيي من سره ولو كشف وقد مدح الله تعالى الصِّدق وأمر به، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة/119]، وقال عليه السَّلام: «**ولا يزال العبد يصدق ويتحرى الصِّدق حتَّى يكتب عند الله صدِّيقا ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذَّابا**»[1] بإسقاط التحري فيهما وقال عليه السَّلام: «**دع ما يريبك إلى مالا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»[2] وقال عليه السَّلام: «**إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار**»[3] وروي أن لقمان كان عبدا حبشيا فقال له رجل: ما الذي بلغ بك هذه المنزلة؟ فقال: صدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعني.

والصِّدق عماد أمر السَّالكين ونظامه تمامهم، وهو ثاني درجة النبوءة قال تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء/ 69] والصديق صفة مبالغة من الصادق، كالسِّكِّيت من السَّاكت، فالصديق من صدق في أقواله وأفعاله وأحواله، والصدق زلال صاف، منبعه استقامة القلب، وبراءته من الأعراض الدنيوية، والصدق قرين الحرية والفتوة وإن كان دونهما مرتبة.

والصدق على ثلاثة أقسام: صدق النية، وصدق اللسان، وصدق العمل.

فصدق النية أن لا يريد بأقواله وأفعاله وأحواله إلَّا الله تعالى؛ وصدق اللسان

---

(1) رواه البخاري (2261/5) ومسلم (2012/4) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) رواه أحمد (200/1) والترمذي (668/4) والنسائي (327/8) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما.

(3) هو أول الحديث الذي ذكره قبل الحديث الذي قبل هذا.

معروف؛ وصدق العمل أن يكون حريصا عليه ولا يقطعه إلا قهرا أو اضطرارا. وقال ذو النون المصري رحمه الله: الصدق سيف الله ما وضع على شيء إلا قطعه، وقال بعضهم: إذا طلبت الله تعالى بالصدق أعطاك مرآة تبصر فيها عجائب الدنيا والآخرة، وقال آخر: عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرك، وكان أبو سعيد الدينوري[1] يتكلم فصاحت عجوز في مجلسه فقال لها إن كنت صادقة فموتي فوقعت ميتة، وسئل أبو جعفر الفتح الموصلي[2] عن الصدق فأدخل يده في كير الحداد وأخرج الحديدة المحماة ووضعها على كفه وقال هذا هو الصدق، والله أعلم.

باب
في الاستنجاء المعنوي

اعلم أن الاستنجاء عند اللغويين هو طلب النجاة من أثر الأنجاس الباقية بعد الاستجمار وأن السين والتاء للطَّلب فيهما معا، **واعلم** أنَّ طهارة جميع أثار الذنوب بعد ما ذكرناه لا يكون إلَّا بصدق التَّقوى والمحافظة عليها.

فصلٌ
في الكلام على التَّقوى وبيانها

اعلم وفَّقنا الله وإياك لتقواه أنَّ حاصل التقوى هو أربعة أقسام:

القسم الأول: اجتناب المناهي، وهو: ترك كل محرم ومكروه ابتداء ودواما وتوبة واستغفارا ممَّا سلف وبمعاودة التوبة فورا إن عاد لشيء من ذلك.

والقسم الثاني: فعل جميع المأمورات، وهي الواجبة مع القدرة على ذلك والاستطاعة، وكل إنسان فقيه نفسه وليدارك ما فرط فيه من ذلك بحسب الإمكان مع المجاهدة في تحصيله في المستقبل.

والقسم الثالث: أن يكون الفعل والترك في جميع ما ذكرناه لازما

---

(1) هناك الدينوري أبو بكر والدينتوري أبو عبد الله ولم أقف على الدينوري أبي سعيد والله اعلم.

(2) فتح بن سعيد الموصلي، أو نصر. من أقران بشر الحافي، وسري السقطي، كبير الشأن في باب الورع والمعاملات. وكان يحضر بغداد لزيارة بشر، فورد عليه مرة زائراً، فأكل عنده، واخذ باقي الطعام، فقال بشر لمن حضر: "أتدرون لم حمل باقي الطعام؟ ". قالوا: "لا! ". قال: "أراكم أنه إذا صح التوكل لا يضر الحمل ". (طبقات الأولياء لابن الملقن 76/1).

لجميع الجوارح الظَّاهرة.

والقسم الرابع: أن يكون جميع هذه الأفعال الظَّاهرة موافقة للاعتقاد الباطن بحيث يكون الفعل يصدق الاعتقاد والاعتقاد يصدق الفعل والظاهر يصدق الباطن والباطن يصدق الظاهر ومهما وقع الخلاف بين شيء منهما فليعلم ذلك الإنسان أنه مرائي وليس بمتَّقي، وهذا ميزان صحيح معتدل تزن به أقوالك وأفعالك وأخلاقك وجميع أحوالك ومهما وحدت إلى حجاب بين شيئين فعدله بالمجاهدة والإخلاص تكن متَّقيا.

واعلموا رحمكم الله تعالى أن أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى العمل بمقتضى كتابه العزيز وهو مجموع في التَّقوى، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء/131]، ثم أكد على حقيقة التَّقوى فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران/102]، ثم ضمن للمتَّقين الفرج والمخرج والرزق الواسع من حيث لا يحتسب فقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[الطلاق/2 - 3]، ثم أخبر المتَّقين بأنَّ التقوى هي خير أعمالهم لقوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التَّقوى﴾ [البقرة / 197]، ثمَّ مدح أهلها وأثنى عليهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات/13] ثمَّ وعدهم بخير المنازل فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر/54 - 55] ثمَّ بشرهم بمحبته تعالى لهم بقوله جل من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة/222] ثم رجاهم بالخير الدائم فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة/189].

فلعل في الوعد محققة الوقوع والتخويف بالوعيد محتمل قيل يقع وقيل لا يقع لقوله تعالى: ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة/15] وسماها الله تعالى لباسا لقوله تعالى لآدم وزوجته وجمع اللفظ ليعم المتَّقين من ذريته بقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف/26] فالتقوى أفضل ما يتزين به المؤمن في الدنيا ويستحق ثمراتها في الآخرة.

واعلم أنَّ التقى والتقوى بمعنى واحد وهما في اللغة بمعنى الاتقاء وهو اتخاذ الوقاية، وهو ما يقي الإنسان إي يحفظه ويحول بينه وبين ما يخافه ومثاله الترس

والدرقة واللمط والدرع وهو الزرد والبيضة وهي القلمون ونحو ذلك مما يتّقي به الإنسان من الضربات المهلكات، وأي هلاك أعظم من الجحيم والسعير والحطمة والهاوية وأعظم من ذلك فراق نبينا محمّد صلى الله عليه وسلّم وأصحابه وعدم رؤية الله تعالى الذي يكون عدم التقوى سببا لذلك الهلاك أسأل الله السّلامة بمنه وجوده. والتّقوى سبب للتحصن بجميع حصون الإيمان كالإخلاص والصدق والخشوع والجوع والسهر والدموع وغير ذلك والصدقة أيضا من الأفعال المنجية والتّقوى عند أهل الحقيقة اجتناب كل ما يبعد عن الله سبحانه وقيل هي الاحتراز بطاعة الله تعالى عن عقوبته وقيل هي أن يجتنب العبد كل ما سوى الله وقال الواسطي[1]: المتّقي من اتقى تقواه أي رؤية تقواه وقيل حقيقة التقوى من غير الأنبياء عليهم السّلام الاحتراز من الشرك الجلي والشرك الخفي والشرك الجلي والخفي أمران مختلفان باختلاف الأشخاص فالشرك الجلي من العوام الكفر والشرك الخفي منهم التّوحيد باللسان مع اشتغال القلب بغير الله وهذا هو الشرك الجلي من الخواص والشرك الخفي منهم التفاتهم إلى الدنيا وأسبابها وهذا هو الشرك الجلي من خواص الخواص وهم السّابقون والمقرّبون والشرك الخفي منهم التفاتهم إلى الآخرة ونعيمها وتسلحهم بالطّاعات لجلب ثواب أو دفع عقاب وأمّا تقوى الأنبياء فمنهم إليه فجزاء العوام على تقواهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر/45] الآية وجزاء الخواص على تقواهم ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران/133] ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر/54 - 55] وأمّا جزاء الأنبياء على تقواهم فمنهم إليه أيضا أن تقوى الأنبياء عليهم السّلام على قدر خصوصيتهم ولا يعلم قدر تقواهم إلّا الله فلذلك قلنا منهم إليه وكذلك أقوال في ثواب تقواهم منه تعالى إليهم فلا يعلم قدر ذلك إلّا الله الذي اجتباهم وفضّلهم على غيرهم

(1) يزيد بن هارون الواسطي رضي الله تعالى عنه، قال أحمد بن سنان ما رأيت عالماً قط أحسن صلاة منه كان يقوم كأنه أسطوانة، وكان رضي الله عنه يقول: من طلب الرياسة في غير أوانها حرمها وقت أوانها، وكان إذا صلى العشاء لا يزال قائماً يصلي حتى الغداة نيفاً وأربعين سنة، وكانت عيناه جميلتين، فلم يزل يبكي حتى ذهبت إحداهما وعمشت الأخرى توفي رضي الله عنه سنة 286 هـ رضي الله عنه.

من البشر.

واعلم أنَّ التقوى من أعظم أركان الدين وأجل مقامات السَّالكين وقد كرر الله تعالى في كتابه الكريم الوصية بالتَّقوى وكرر مدح المتقين أيضا فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران/102] وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن/16] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [الأنفال/29] وقوله تعالى: ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [ق/31] وقوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران/133] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [القمر/54 - 55] وقال عليه السَّلام: «**اتق الله حيث ما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وعاشر النَّاس بخلق حسن**»[1] وكان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء اللهمَّ إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى[2]، وقال رجل للنَّبي ﷺ أوصني فقال: «**عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير**»[3] وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم وجهه: سادات النَّاس في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأتقياء وقال عبيد الله رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران/102] أن يطاع ولا يعصى وأن يذكر ولا ينسى وأن يشكر فلا يكفر، وقال ابن عطاء الله للتَّقوى ظاهر وباطن فظاهرها حفظ حدود الشرع وباطنها الإخلاص، وقال أبو الحسن الزنجاني[4]: من كانت رأس ماله التقوى كلت الألسن عن وصف ربحه، وهذا الأمر كاف في ذكر ما يتعلق بالتَّقوى جعلنا الله من المتَّقين والأولياء المقربين. آمين.

---

(1) رواه أحمد (153/5) والترمذي (355/4) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(2) مسلم (2087/4) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(3) رواه أبو يعلى (283/2) والطبراني في الصغير (156/2) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(4) أبو سليمان: محمد بن نصر البستي المعروف: بالمقدسي وأبو الحسن: علي بن هارون الزنجاني (كشف الظنون 902/1).

البابُ الأول من أبواب الطَّهارة الثمانية عشر في معنى قوله: تبدأ بالعلم

فاعلم يا أخي أن العلم به ساد من ساد وبه شرف من تشرف والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ما عُبد الله بأفضل من علم»[1] أو كما قال صلَّى الله عليه وسلم وقال عليه السَّلام: «**عمل قليل في سنة خير من الاجتهاد في البدعة**»[2] لأنَّ السنَّة لا يعمل بها إلَّا العالم بها والبدعة لا يحدثها إلا الجاهل بالسنة فزينت له النَّفس والشيطان أمورا ظنَّها بتحسين عقله أنها من أكمل الدين ففعلها بغير علم ودعا الناس إليها فضل وأضل ولا يموت البدعي إلا على الضلالة والعياذ بالله من ذلك لأن العاصي عالم بعصيانه فترجى له التَّوبة والبدعي جاهل بضلالته وفساد دينه وهو يظن ويعتقد أنه على أكمل حالة في الدين وغره تقبيل الجهال يده ورجله ويطيعونه في جميع أوامره وينتهون بنهيه ويلقي لهُ ولهم الشيطان في قلوبهم العداوة والبغضاء للعلماء ويحذرهم شيخهم البدعي من ملاقات العلماء ويقول لهم العلماء يفسدون حالكم ودينكم فيتباعدون منهم فمتى يطبع الله من يتباعد من العلماء ويعتقد عداوتهم وانظر فضيلة العلم في هذه الحكاية: روي أن أخوين تابا إلى الله ورجعا إليه في يوم واحد وافترقا لأجل التَّوبة فمضى أحدهما لكهف في جبل ليتعبد فيه والآخر سافر للقراءة والتَّعليم فمكثا أربعين سنة كل على عمله فقدم العالم مضلعا بالعلم الظَّاهر والباطن فافتقد أخاه فدُلّ عليه فلمَّا دخل عليه وعرفا بعضهما بعضا فوجد العالم على عين أخيه العابد لصقة من شمع فسأله عنها فقال له: يا أخي، لما دخلت هذا المكان وعلم بي النَّاس، فجاء بعض النسوة بقصد الزيارة فنظرت عيني هذه التي عليها اللصقة محاسن وجه امرأة منهن فغضضت بصري عنهن بعد ذلك فعقدت في قلبي أن أحرم تلك العين التي عصيت الله تعالى بها من ضوء الدنيا فلم نجد أمكن من هذه اللصقة فوضعتها على هذه العين عقوبة لها، ومن ذلك اليوم ما عصيت الله قط حتى الآن والحمد لله، فقال له العالم: أعد صلاة الأربعين سنة لأنك كنت تصلي جنبا إن أجنبت

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (265/2) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: "ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين ".

(2) رواه عبد الرزاق في مصنفه (291/11) من حديث الحسن البصري مرسلا.

أو بغير وضوء من غير شك لأن تلك اللصقة حائل على بعض الوجه فبقيت اللمعة تحتها بغير غسل والوجه فرض واللمعة منه فقد سترت بعض الفرض فأنت كنت في هذه المدة عاصيا لله تعالى بترك الصلاة لا عابدا له، فاستخرجه من موضعه ونزع اللصقة من عينه وجعل يعلمه ويغرم الصلاة ولولا العالم لهلك العابد بجهله وقال له لا شيء عليك في النَّظرة الأولى لأنها وقعت من غير تعمد ولو تعمدتها وندمت وتبت واستغفرت الله لكان ذلك يكفيك والسَّلام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «**تقليبة العالم في فراشه خير من عبادة الجاهل سبعين سنة**».

واعلم أنَّ الجهل المركب من أصول الكفر وهو الذي يجهل الحق ويجهل جهله به ويرحم الله سيدي محمد بن يوسف السنوسي حيث بين الجهل المركب بالتَّجنيس التَّام حيث قال: ومن أعجب الأشياء أنك لا تدري وأنَّك لا تدري بأنك لا تدري والجهل البسيط أسلم وأقرب للهداية من المركب والبسيط هو الجاهل الذي يعلم جهله لأنه يقبل كلام الناس ولا يستكبر فهذا أقرب للهداية من غيره من الجهال لأنَّ من أعظم وساوس الشيطان لعنه الله أن يوسوس للجاهل بالتَّسويف وطول الأمل في حال صغره ويقول له مازلت تكبر وتعلم العلم فيمكث على جهله إن طاوعه في ذلك فإذا كبر وأراد التَّعليم والسؤال عما يصلح به دينه فيقول له بوسوسته أنت عظيم قومك ولك جاه عند النَّاس وأنت تذل نفسك فتسأل من هو أقل منك وأذل فتصغر في عين الناس فإن طاوعه في ذلك فيموت ولا دين له والجهل العظيم يوقع صاحبه في الكفر ولا يشعر وإن كان جهلا بسيطا كما روي أن إبليس لعنه الله يصبح كل يوم يفرق جنوده على النَّاس ليضلونهم وكذلك في مساء كل يوم فلمَّا كان في بعض الأيام أرسل بعض جنوده لبعض العلماء كان كثيرا ما يرسل إليه الجنود فقالوا له: إن فلانا العالم ملكناه فهو في كل يوم يحضر مجالس السكارى ويشرب معهم الخمر ويزني ويفعل جميع الفاحش وذلك في كل يوم ولكن ما قطع قلوبنا إلا فلانا العابد الذي في شعبة كذا في كهف كذا فقال إبليس لعنه الله لهم: ذلك الرجل أسرع ما يكون للكفر فأحرى المعصية وأنا ما قطع ظهري وقلبي ورقبتي إلا فلانا العالم المذكور أنه في كل يوم يفعل ما ذكرتم من المعاصي فإذا صحى عنه السكر فإنه يندم على ما فعله ويجدد التوبة ويستغفر الله من ذنوبه ويعقد في قلبه أنه لا يعود أبدا فيغفر الله له جميع الذنوب والسَّيئات وإن عاد للمعصية فهو يعاود التَّوبة ما أتعبني ولا أهلكني إلَّا هو ولكن اليوم

نهنيكم من العابد الجاهل فانطلقوا معي فصاروا يتبعونه إلى أن بلغ للعابد فجاءوه في صور الفقراء وبيدهم التسابيح والعكاكيز فقال لهم: اذهبوا عني فلا حاجة لي بأحد من خلق الله لأنكم تشغلوني عن عبادة الله تعالى فقال له إبليس لعنه الله كذلك نحن لا حاجة لنا بك لأنَّ وقوفك معنا يشغلنا عن طاعة الله وهم كاذبون بذلك إلا أنهم يغشونه ويجلبون له الحيل من ناحية غرضه فقال لهم إن كان الأمر كذلك فما الذي أتى بكم لعندي فقال له إبليس لعنه الله: نحن اختلفنا في مسألة من العلم وجئنا إليك تنبهنا فقال العابد وما هي فاستخرج إبليس لعنه الله قشرة بيضة صحيحة فارغة مما يكون فيها فقال له: الله تعالى هل يقدر على أن يجعل الدنيا في هذه القشرة فقال لهم العابد لا يقدر على ذلك وكيف يفعله فتركوه فانصرفوا فقال لهم إبليس الآن أرحتكم منه إذ تركناه كافرا إذ لا يعرف معبوده فهو كعابد الأوثان فاتركوه ولا تأتوا إليه أبدا حتى يموت على هذه العقيدة ولكن انطلقوا معي إلى ذلك العالم فساروا إليه فوصلوا في وقت الهاجرة عند اشتداد الحر الكثير وهو مع السكارى والمومسات وهن يغنون ويشربون الخمور وباب المصرية مقفول عليهم فنقر إبليس لعنه الله الباب عليهم فقال العالم أعوذ بالله هذا شيطان قال النبي ﷺ: «**قيلوا فإن الشياطين لا تقيل**»[1] فقال إبليس لعنه الله اسمعوا قوله بهذا قطع ظهري أعني بالعلم ثم خرج إليهم وهو سكران يفوح ويطيح فلما خرج إليهم قال لهم ما حاجتكم فقال له الشيطان جئنا نسألك عن مسألة من العلم فقال لهم اسألوا ولا تكثروا فقد شغلتموني عن عملي فاستخرج له الشَّيطان تلك القشرة المذكورة فقال له هل يستطيع الله تعالى أن يجعل الدنيا كلها بجبالها وبرها وبحرها في جوف هذه البيضة فقال له: نعم الله قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء وهو الذي خلقها فلو شاء لصغر الدنيا بهيئتها وجبالها وبرها وبحرها يجعلها في جوف هذه القشرة وإن شاء أن يكبر هذه البيضة حتى تكون أكبر من الدنيا بسبعين ضعفا ويجعل الدنيا كلها في جوف هذه القشرة ولكن هذا سؤال رجل كافر فقلبي يحدثني أنك إبليس لعنه الله وهؤلاء شياطينك فقال له: نعم فقال له: وأين العابد؟ فقال له: في موضع كذا وكذا فقال له العالم وأنا تائب لله ولا أعودُ لمعصية أبدا ونمضي الآن إلى العابد

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط (13/1) من حديث أنس رضي الله عنه. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (70/11): "وفي سنده كثير بن مروان وهو متروك".

ونستخرجه من موضعه وأعلمه بمكيدتكم وقضيتكم وأعلمه كيف يخرج من ذلك ولا أزال به حتى يعلم أمر دينه ففعل العالم ذلك وتاب العابد وتعلم الأمر وانطلق مع العالم وصار له عبدا حتَّى علم أمر دينه فنجى العالم بعلمه ونجى العابد بقبوله العلم وخدمته للعالم وامتثال أمره فأي نجاة للخلق أنجى من العلم والعلم قريب أقله استماعه من أهله ولذلك قال عليه السَّلام: «**كن عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن رابعا**»[1] والرابع هو الجاهل، فعلى هذا ينبغي لك أن لا تتحرّى الجاهل بل ينبغي لك أن لا تتحرك في ظاهرك ولا في باطنك إلا على وفق الكتاب والسنة وما أجمعت عليه الأمة بعلم راسخ لا تزاحمه الشكوك لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر/22] أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه وقال تعالى في حق الجاهلين الذين لا نور لهم ومن يرد الله أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السَّماء الآية. واعلم أن من وصف العلم توسيع الخاطر ومن وصف الجهل ضيق الخاطر فاعلم ذلك فعليكم إخواني بالعلم النَّافع وهو قريب ممكن يحصل لك مِنْ أحد من خلق الله وذلك أن يداوم الجلوس مع كل موصوف بالعلم ويسأل عن كل ما يجهله من أمر دينه قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل/43] وأهل الذكر هم أهل العلم وقد عرفناكم بحكم العلم الكامل وتقريبه في المقام الأول من المقامات الخمسة التي تتقدم على التَّوبة ونكرر ذلك هنا بقصد حصول الفائدة لمن يطلب أن يجوز ذلك العلم الكامل النَّافع بغير قراءة وذلك أن ذلك مجموع في ثلاث عقائد وهي أن لا تعمل شيئا مما لا تعلم حتى تعلم حكم الله فيه بسؤالك عنه من يعلم ولا تترك شيئا ممَّا تعلم ولا تزال تتعلم فتجوز بذلك جميع العلم النّافع الأعم وتستحضر هذه الثلاث قواعد في جوارحك الظاهرة والباطنة فتفتح لك بها إن شاء الله بابا جامعا لهذه القواعد وذلك أنك متى ما تريد أن تتحرك أو تسكن في ظاهرك أو في باطنك فانظر هل أنت عارف بمراد الله منك فيها أم لا فإنه لا يخلو من

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الصغير (63/2) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك قال عطاء بن مسلم فقال لي مسعر زدتنا خامسة لم تكن عندنا قال والخامسة أن تبغض العلم وأهله.

وجهين إما أن يكون أمرا أو نهيا خيرا أو شرا فإذا علمت أنه خير أو أمر فافعله فورا من غير مهلة لئلا توسوس لك النَّفس والشّيطان بالتسويف والكسل فتقع إما في معصية مخالفة الأمر أو في الحرمان من ذلك الخير الذي أملته فيها وإن كان أمرا أو نهيا فيه شر فاتركه جازما وحازما بجيم وحاء وجاهد النَّفس والشيطان بالمخالفة وإن كنت لا تعلم فيها شيئا من هذه الأمور فوقفها واعزم بالسؤال عن ذلك حتى تعلم خير ذلك الأمر أو شره فتعلم بمقتضى العلم في الفعل والتَّرك ولا تزال تتعلم وإن كنت صالحا ولا تغلق باب الزيادة في العلم أبدا لأن الله تعالى قال: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف/76] ومنتهى العلم إلى الله العظيم وأيضا فإن من كان يتعلم ويخطئ كان معذورا ومن كان يدعي العلم ويخطئ فهو مأخوذ به ومن ترك التعلم لجل علمه كان محروما من أجر طلب العلم لأجل سده باب العلم على نفسه مع أن العلم من معظم العبادات فتحرم نفسك منه ونزيد لك بابا واسعا في ضبط العلم في جوارحك نخصص لك واحدة منها لتحملها أنت على جميع جوارحك كذلك وذلك إذا أردت أن تتكلم فاقهر نفسك عن الكلام حتى تنظر إلى تلك الكلمة فإذا لم تدر أخيرا هي أم شرا فاصمت عنها وإن علمت أنها سيئة فاصمت عنها وتعلم أن الصمت عن السيّئات واجب وإذا علمت أنها حسنة فتنطق بها محتسبا الثواب عند الله تعالى فإنه لا يخيب سعيك لقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم/39] لكن بشرط الإخلاص في النطق بتلك الكلمة بأن تقصد ألا تفعل خيرا ولا تترك شرا إلا لوجه الله تعالى وتبرأ من فعلها لأنك لا حول ولا قوة لك لا على الفعل ولا على الترك إلَّا بالله تعالى قال ابن عطاء الله رضي الله عنه في حكمه إذا أراد يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك فإذا علمت هذا أعانك العلم بها على التَّبري من حولك وقوتك وإرادتك واكتسابك وتفعل هكذا بجميع جوارحك الظَّاهرة والباطنة لتعرفها فالظاهرة أذناك وعيناك وأنفك وفمك ويداك وفرجك وبطنك ورجلاك وجميع بدنك وأمَّا الباطنة فصدرك وحسك وقلبك وروحك وعقلك وضميرك وذهنك وسرك فلا تحرك واحدة من هذه الأوصاف فيما لم تعلم ولا تعطلها فيما تعلم من سائر الطَّاعات فحينئذ تكون على بينة من ربك ثمَّ أول ما يجب عليك العلم بالله وبأمره ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما.

البابُ الثاني
في المراد بالنية

اعلم يا أخي أنَّ النية المراد بها في ابتداء الشروع في هذه الطَّهارة أن تنوي بأنَّك تغسل قلبك من ظلمات الغفلة والجهل إنَّ الله لا يتخذ وليا جاهلا وإن اتخذه علّمه وأيضا فإنَّ صاحب الجنابة الحسية لا يصح طهره إلا بعقد نية الجنابة عند بدء الطَّهارة وكذلك المتطهر من الغفلة التي هي الجنابة المعنوية فإذا انغسل قلبك من الجهل والغفلة صرت عالما وعلامة وجود العلم فيك أنَّ قوة العزم فيك على أن لا تعصي الله أبدا وأن تطيع الله أبدا وأن لا ترى ذلك منك أبدا إلا من الله تعالى فعلى هذه العقائد الثلاث عقدت نيتك أولا وهذه كيفية عقد نية الطَّهارة المعنوية فإذا أحسست بقوة العزم على ذلك فتعلم أنك حزت ثمرة العلم وهي العلامة المذكورة فيجب عليك أن لا تحل هذه العقائد أبدا ثم تعقد عقدة أخرى في كل ما تتحرك فيه من العبادات أن تخلصه لله تعالى لا تبغي بوجه الله بدلا فإنما الأعمال بالنية ولكل امرئ ما نوى ونوصيك وصية إن أنت حفظتها فإنك تتطهر من حينك فخذها واستعن بالله عليها وهي أن لا تتحرك في غير مرضات الله تعالى وترى ذلك منَّة من الله عليك.

الباب الثالث
بيان معنى قولنا: وتأخذ ماء من اليقين

اعلم يا أخي أنَّ معنى قولنا وتأخذ ماء من اليقين أعني تأخذ ماء من اليقين وهو نور التَّحقيق فتأخذه وتجعله في جميع حركاتك وسكناتك أعني لا تفعل شيئا ومعك شيء من الشَّك فتنفيه بالعلم أو بالتعليم فورا وعزما لأنه لا تصح العبادة إلا باليقين وهو المراد بماء الغيب في كلام النَّاظم واعلم أنه لا تصح العبادة مع شيء من الشّك لأنَّه لا يعبد الله تعالى بالشَّك والريب، واليقين هو الإيمان كله وقد قال الله عز وجلّ تهديدا: ﴿ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر/5] وهدد الله أقواما إذا لم يعلموا علم اليقين وأخبرهم بأن قال: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ [التكاثر/6] فلا بدّ في كل قول وفعل من اليقين يصحبه ولهذا قال صلى الله عليه وسلَّم: «**عليكم باليقين أو بعلم اليقين أو مجالسة أهل اليقين**» وقال عليه السَّلام: «**أقل ما أوتيتم اليقين فمن أوتي اليقين فقد**

أوتي خيرا كثيرا»[1] وقال عليه السَّلام: «**ما فاتكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام وإنما فاتكم بشيء وقر في صدره»**[2] وهو اليقين وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: اليقين هو الإيمان كله وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة/24] واليقين في اللغة هو نفي الشك وقد تقدم ذلك وأكثر منه والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الباب الرَّابع
في المراد بقولنا وتجعله في آنية الخوف

اعلم أن الخوف هو ثمرة شجرة اليقين لأنَّ من آمن بكتاب الله وكلام رسول الله ﷺ وكلام العلماء رضي الله عنهم فإنَّه يتيقن بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات/37 - 41] فمن تيقن هذا وتيقّن بقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة/7 - 8].

واعلم أنَّ الخير هو في فعل أوامره تعالى وأن الشر كله هو في فعل نواهيه تعالى ومجموع هذين الأمرين هو طاعة الله تعالى وذلك فعل الأوامر وترك المناهي فاعلم ذلك فتصير يا صاحب هذا المقام من الخائفين من الله تعالى أنه يحصل لك اليقين فإنك إذا فعلت مثقال ذرة مما نهاك الله عنه فشرًّا تراه فيجتمع لك بعلم هذه العقائد الخوف كله في فعل الخير والشر لأنك إذا علمت الخير فتخاف يفوتك وإذا فعلت الشر فتخاف يصيبك فتستعين بالله على فعل الخير وتستعين بالله على ترك الشر لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة/5] ولقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران/159] وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران/101] فإذا أعانك الله وهداك عليها فلا تنسب لنفسك منهما شيئا وتستبشر بقوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمان/46] فالدَّليل

---

(1) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (46/1): "لم أقف له على أصل ".

(2) سبق تخريجه.

على خوفك اتباع أمره واجتناب نهيه وأما خوف بلا فعل شيء من اتباع الأمر ولا ترك شيء من الانتهاء عن الشر فذلك متعلق بالكذب والكذب جرم على الله فإذا قلت ما تخاف إلا من الذنوب التي سلفت فتتوب إلى الله عز وجل وتستغفر الله تجد الله غفورا رحيما لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء/110] فالعبد واجب عليه أن يكون بين الخوف والرَّجاء فشرط الخوف قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ [النازعات/40 - 41] فالهوى هو جميع الشهوات المحرَّمات التي تشغل عن الطاعات فمن تركها كانت الجنَّة له مأوى وقول النبي ﷺ: «**من رجا الجنة سارع إلى الخيرات**» ومن كان يرجو بلا عمل فذلك متعلق بالأمن ولا يأمن مكر الله إلَّا القوم الخاسرون لأن الأمن مكر واستدراج وخسران وقال بعض العارفين المحققين من المتأخرين: من خاف الله لا يعصيه ومن رجا الله لا ينساه ولا ترى الأمور كلها إلَّا منه وإليه فلا يزال العبد بين الخوف والرجاء لا يغلب هذا على هذا ولا هذا على هذا إلى الممات فإذا عاين الموت يطلق الخوف ويتعلق بالرجاء هذا للعامة وأما إذا رفعه الله إلى مقام خاصة الخاصة فذلك كلام آخر سيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى.

الباب الخامس
في بيان معنى قوله وتدفيه بنار الشوق وتكون الأعواد من الرجاء محمولة من جبل الكرم وروح عليه بنسيم القرب

اعلم يا أخي أنه لما تكلمنا على الرجاء أردفناه بلوازمه وذلك أنه لا بدّ للرجاء من حب فذلك معنى قوله: تدفيه بنار الشوق اسم للحب قوله: وتكون الأعواد من الرجاء يعني التّعويد بالطلب والطمع وقوله: محمولة من حيل الكرم آمن جناب الكريم جل جلاله وتعاظم شأنه فإذا عرفت أنه كريم رجيته وقوله: وتروح عليه بنسيم القرب أي تروح باللجاء والافتقار إلى ذلك الكريم وأنشدوا في المعنى:

النّار في كبدي بالخوف تتقد	وقلبي من خشية الخطايا يرتعد
عصيت جهلا وجئت تائبا نادما	فتب علي إلهي واعف يا صمد
فليس في غير فضل الله أرجو به	عفو الإله فلا تتركْنِ منفرد

واعلم أن أحوال الخلائق على طرق شتى فمنهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون فهؤلاء خرجوا من النور إلى الظلمات فقال بعضهم لبعض: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف/23] هؤلاء هم القوم الكافرون وهم القوم الخاسرون فلا تسأل عن أصحاب الجحيم ومنهم الذين يسمعون ويتكلمون ويبصرون ولكنهم في غوغة وسوس لهم الشيطان فاتبعوه وقادتهم نفوسهم فانقادوا لشهواتها ولذاتها فأولئك هم المذنبون ومنهم الذين حققوا بالنار وعذابها وطرقها فبادروا لتركها خوفا منها وحققوا بالجنة ونعيمها وطريقها فبادروا إلى طريقها طمعا فأولئك هم عامة المسلمين التَّائبين، اعلموا علم اليقين فهم يعبدون الله لا خوفا من ناره وطمعا في جنته ومنهم الذين حققوا بالكرامات بعدما حصلت لهم الطاعات فهم يطمعون فيها بفضله ورحمته فأولئك هم الصَّالحون الذين يعبدون الله لا خوفا من ناره ولا طمعا في جنته لكن طمعا في كرامته ومنهم من حققوا بالدرجات فبادروا لطريقها وطلبها فأولئك هم عامة الأولياء الذين يطمعون في الدرجات والمنازل فهم يعبدون الله طمعا في علو الدرجات والمنازل ومنهم الذين حققوا بالمقامات فبادروا لطلبها وطريقها فأولئك هم العارفون الذين استوت مطالبهم في أعلى عليين فهم يعبدون الله طمعا في الكمال والثبوت، ومنهم الذين حققوا بالعبودية والربوبية فبادروا للاستقامة على رؤية العبودية، فأولئك هم الواصلون الذين لا يختارون مع مولاهم مراده فهم يعبدون الله على حكم الرضى والتَّفويض ومنهم الذين تحقّقوا بالأنوار والأسرار فبادروا لطريقها وطلبها فأولئك هم المقرَّبون الذين اشتاقوا لروح رياحين الحضرة ولطيب أزهارها ولحلاوة مذاق نعيمها ولحسن جمال بهاء مناظرها ولعز عناية مفاخير افتخار ساكنها ولعلو رفع ارتفاع سنائها ولكمال نعوت رونق بهجة أوصافها ولعظيم كبرياء سلطنة مالكها فهم يعبدون الله طمعا في نيلها ومنهم الذين حققوا بفنائهم عن أنفسهم لرؤية سر قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات/96]، فأولئك هم الفانون الروحانيون الربانيون الذين هم ولاهم ينظرون في عالم الملك والملكوت والجبروت بسر روح الجبار فهم يعبدون الله من الله وإلى الله ومنهم الذين حققوا بجلال الأسماء ولذة المناجاة فبادروا لأدائها فأولئك هم المستأنسون الذين هم يناجون رب العالمين بلا صوت ولا لسان إلا بمعان بيان الكلام في سر القدم فهم يعبدن الله طمعا في حلاوة

شرب كؤوسها ومنهم الذين حققوا بجمال الله جل جلاله فبادروا لتعظيمها وإجلالها وكمال محبتها فأولئك هم المحبون الذين لم يبق في عقولهم وقلوبهم وبالهم غيرها لانفراد جمالها وكمال حسنها من فعلها الذي لا يجاد مثلها ولا يخبرنا عنها غيرها الذي لا يجوز تغييرها ولا تعجيزها الذي يشغف الفؤاد بحبها قبل رؤيتها التي علت في سناء عن تقديسها وسمت على عرش كبريائها وعلت على كل أين وبين ولم يعلم لها سميا فهم يعبدون الله شوقا لمتع النظر إلى تحلياتها ومنهم الذين حققوا بكمال ذاته وكمال كبريائه وبساط وحدانيته فكساهم خلع حبه ولم يبقهم لغيرهم وحلاهم بأسارير أسرار فردانيته فلم يروا غيره وتوجهم بتاج ملكه فاصطفاهم ملوكا لحضرته فأولئك هم المحبوبون الذين أشهدهم تخصيص محبته لهم وأظهر فيهم ولايته حقا يقينا فنظروا إلى ذواتهم فيرونها منه وله وإلى علومهم وإلى محبّتهم وإلى تعظيمهم وإلى جميع أفعالهم فيرونها منه منة عليهم بفضله وتخصيصا برحمته فلم تمِل نفوسهم لدعوة فعلها لوجود تحقيقهم بفاعلها ولا يجوز لهم أن يطلبوا أجرة على فعل غيرهم ثم كفاهم عن مطالبتهم فتجلى لهم فاجتمعوا بمطالبتهم وسكن عقولهم فنالوا مرغوبهم فلم يخشوا افتقارهم فهم يعبدون الله بأن يرونها منة من الله عليهم وبشدة لهم لو كشف لهم الغطاء ما ازدادوا إلا يقينا فهذه أول درجة من درجات المحبوبين فاختصرنا الكلام هاهنا وسيأتي الكلام على بقيتها في محلها من الباب الجامع بعد تمام ذكر منازل السَّالكين إن شاء الله تعالى.

واعلم يا أخي أن كل ما ذكرنا من المقامات من مقام الخائفين إلى مقام المحبوبين فهي من الحظوظ الحسنات وعبادة أهلها فهي من العبادات المعلولات إلا مقام المحبوبين فهو أول المقامات السالمة من حظوظ النفوس الخالصات لله المصفيات أن مقام أرباب المحبوبين هم أصحاب القلوب السالمة فجعل الله في قلوبهم نور معرفته فغيبهم عما سواه وغابوا عن الطَّلَبْ والمطلب ولم يبق إلا محب ومحبوب لأجل معاني سر تفريد المحبوب لمشاهدة سر وجوده دون جلباب ولا حجوب.

الباب السَّادس
في معنى قولنا وتدخل في بيت الإرادة

فاعلم ذلك واعلم يا أخي أن الإرادة والمشيئة في اللغة شيء واحد وفي

الاصطلاح أهل الحقيقة الإرادة هي نضوض القلب في طلب الله سبحانه وتعالى ولهذا قال بعضهم الإرادة تهون كل روعة وأكثر المشايخ على أن الإرادة ترك ما عليه العادة وعادة النَّاس في الغالب الإقامة في أوطان الغفلة ولذلك جعلناها بيتا للطهارة من جنابة الغفلة لأن الطهر من الجنابة الحسية لا بدّ للمتطهر من بيت يسكنه ويستره ولا يتطهر في الفضاء وهذا مثله في الطهارة المعنوية بل هو أبلغ وأوكد فاعلمه والله الموفق. قلت أكرر هنا هذه اللفظة للإفادة فأقول الإرادة ترك ما عليه العادة وعادة الناس في الغالب الإقامة في أوطان الغفلة والسكون إلى اتباع الشهوات المضلة فمن خرج من ذلك سمي مريدا فالمريد في اللغة من له إرادة وفي اصطلاح أهل الحقيقة من لا إرادة له فلا سكون يجنح له وكل مريد مراد في الحقيقة لأنه مراد لله تعالى أن يكون مريدا لا محالة وكل مراد مريد لأنه ما أراد حتى أريد ومن لم يرد كان طريدا بعيدا قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء/78] الآية. فتبيَّن لنا هنا أن كل مريد مراد وهذا هو الصَّحيح عند بعضهم، وقال الإمام القشيري وغيره رحمهم الله: المريد المبتدي والمراد المنتهي ولا بدّ لأكثر السَّالكين من حالة ابتداء بالمجهدات والرياضات حتى يصلوا إلى درجات الانتهاء ومنهم يكاشف في ابتدائه بجليل المعاني ويصل إلى ما لم يصل إليه أرباب الرياضات رفقا من الله تعالى به وترفيها له إلا أن أكثر هؤلاء يردون إلى المجاهدة بعد هذا الرفق ليستوفي منهم ما فاتهم من أحكام أهل الرياضة وقيل كان موسى عليه السَّلام مريدا فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه/25] وكان سيدنا محمَّد ﷺ مراداً فقيل له: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح/1] إلى قوله: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح/4] وكذلك قال موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف/143] قال: ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف/143] وقال لسيدنا محمَّد ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان/45] وهذا هو المقصود من الكلام عند أهل الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان/45] ستر للقصة وتحصير الحال كذا ذكره الإمام القشيري وغيره رحمهم الله، فالمريد سائر والمراد طائر والمريد سالك والمراد مالك، وقيل بعث ذو النون البصري رحمه الله إلى أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه يقول له: يا أخي إلى متى هذا النوم والراحة والقافلة قد مضت قال أبو يزيد لرسوله: قل لأخي ذي النون الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة فقال ذو

النون: هنيئا له هذا كلام لا تبلغه أحوالنا والإرادة مطلوبة شرعا قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام/52] يريدون وجهه وقال عليه السلام: «**إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله**» قيل يا رسول الله: كيف يستعمله؟ قال: «**يوفقه للعمل الصَّالح قبل الموت**»[1] ومن صفات المريد أن لا يفتر آناء الليل وأطراف النهار بأن يكون ظاهره مجاهدة وباطنه مكابدة ومن صفاته التحنث إلى الله تعالى بالنوافل والإخلاص ونصيحة الأمّة والأنس بالخلوة والصبر على مقاساة الأحكام والإيثار على خلق الله اتباعا لأمر الله سبحانه والحياء من نظره وبذل المجهود في ما يحبه الله ويرضاه وطلب كل سبب يوصل إلى الله والقناعة بالخمول وعدم الفرار إلى أن يصل إلى الله تعالى وقيل أول مقامات المريد إرادة الحق بإسقاط إرادته فإنَّ لطفه تعالى بتربيته وبجذبه من عنان بصره ويتصرف الحق فيه فيصير له بصرا وسمعا ويدا ومؤيدا أعني به يبصر وبه يسمع وبه ينطق وبه يبطش كما جاء في الحديث الصَّحيح المشهور وقيل من علامات المريد أن يكون أكله فاقة ونومه غلبة وكلامه ضرورة وقيل المريد إذا سمع شيئا من صفاتهم به صار ذلك حكمة في قلبه إلى آخر عمره فينتفع به هو ومن يسمعه منه وإذا لم يعمل به كان ذلك حكاية يحفظها الناس ثم ينساها وقال الجنيد: الحكايات وأحوال العارفين جند من جنود الله تعالى يقوي بها قلوب المريدين دليله قوله تعالى: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود/120] وقال أيضا المريد الصَّادق عني عن علم العلماء.

وقيل آفات المريد ثلاثة: التزوج وكتابة الحديث والسَّفر.

وقيل أشد شيء على المريد معاشرة الأضداد وقيل متى رأيت المريد يشتغل بالرخص أو بالكسب فاعلم أنه لا يجيء منه شيء والله أعلم.

البابُ السَّابع
في بيان معنى قولنا وتجلس في مجلس الرضى

اعلم يا أخي أن الجلوس في مجلس الرضى هو الدخول في مقام الرضى ولذلك عبرنا بالجلوس عنه لأن الجلوس دليل على المقام وعبرنا أيضا بالمقام لئلا يتسخط

(1) رواه أحمد (106/3)، والترمذي (450/4) من حديث أنس رضي الله عنه.

المريد الرضى ويخرج منه، واعلم أن الرضى هو من علامات التّمكن في التّوحيد المحض الخالص الذي لا ريب فيه ويجب عليك أن تعلم أصول الرضى فيفتح الله لك فروعه فَأصوله خمسة وهي: أن ترضى بالله ربك وبمحمَّد ﷺ نبيك والقرآن إمامك وحجتك وترضى بأمر الله ونهيه وقضائه وقدره فإذا رضيت بالله ربك عظمته وإذا عظمته أطعته ورضيت عنه في ما أمرك وفي ما نهاك وحقيقة الرضى عن الله تعالى أن ترضى عنه في قضائه وقدره وعلامة صحة ذلك أن لا تبقي لك إرادة غير إرادته وعلامة هذا أيضا أن تستوي عندك الحالات من مدح وذم وشدة وراحة وخير وشر وصحة وسقام وفقر وغنى ومنع وعطاء والذهب والمدر والفضة والحجر والبرد والحر والنعمة والمصيبة والقبض والبسط وما يشبه ذلك فهذه علامات الرضى وحقيقة ذلك أن لا يبقى لك اعتراض ولا حرج ولا شهوة ولا حظوظ ولا غيار ولا حزن ولا ندامة ولا لو كان ولا لولا ولكن تتمنى وإذا جاءك ما تكره لا تحب زواله وإذا جاءك ما تحب لا تميل إلى بقائه فهذه كلها حقيقة الرضى وعلامة حقيقة الرضى أن تكون راضيا محبا لا تميل فرحا مسرورا منعما مهنيا لأن الرضى بلا حب لا يكون وحب بلا فرح لا يكون وفرح بلا سرور لا يكون وسرور بلا نعيم لا يكون ونعيم بلا هناء لا يكون فهذه شروط مرتبطة بعضها ببعض فإذا تعطل شرط واحد منها تعطلت الشروط كلها لأنها أضداد والأضداد لا تجتمع لأن كل ما لا يتصور في العقل وجوده فهو عدم ولا يتصور أن يجتمع الهنا والبلا فإذا استووا عندك كنت راضيا ولهذا كان السّلف الصّالح رضي الله عنهم يتلذذون بالبلاء كما يتلذذون بالنّعماء ولا تقدر على ذلك إلا إذا عرفت المبتلي فإذا عرفت المبتلي فتعلم أنه حبيبك حقا فتستحي أن ترد عليه في ما قضى وقدر والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

البابُ الثَّامن

في شرْح قولنا وتغرف الماء بالكتاب والسنة

يعني لا يكون لك حركة في هذا الرضى الذي ذكرنا ولا في غيره إلا على وفق الكتاب والسنة وما اجتمعت عليه الأمة فكل ما رضي الله ورسوله والعلماء ترضى وكل ما نهوا عنه تستحي من فعله وأنشدت في معنى ذلك:

رضيت بما يرضى إلهي من القضا ... فلا أشتهي إلا رضاه مدى الدَّهر
ولا أتسخط المضرة والشقا ... فهو الذي يبلي وهو الذي يبري

واعلم أن متابعة الكتاب والسنة مجموعة في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء/65] فاتباع رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فرض واجب على كل مؤمن وهو علينا لازم لا يسعنا تركه بحال ومخالفته تعرض دين الإسلام للزوال وقال صلى الله عليه وسلَّم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعا لما جئت به**»[1] وقال صلى الله عليه وسلم: «**من ضيع سنتي حرمت عليه شفاعتي**» وقال سيدنا محمَّد ﷺ: «**من أحيا سنَّتي فقد أحياني ومن أحياني فقد أحبَّني ومن أحبَّني كان معي يوم القيامة**»[2] وفي بعض الآثار المشهورة أنَّ التمسك بسنَّة سيد العالمين عند فساد الخلق واختلاف المذاهب كتب الله له أجر مائة شهيد[3] وقال عليه السَّلام: «**القابض على سنتي عند فساد أمَّتي كان كالقابض على الجمرة**»[4] أي لا يسعه تركها ولا إمساكها واعلم أنَّ السنَّة التي يجب التمسك بها قد عرف بها الإمام ابن زكري[5] رحمه الله في منظومته على ضبط الحديث حيث قال:

فصل في التعريف بالسنة

سكوت أو قول لسيد البشر ... أو فعله أو ما عليه قد أقر

هو الذي يدعونه بالسنة ... ذا رسمها خذه بغير منَّه

قلتُ: وما كان عليه الخلفاء الراشدون المهديون المشهود لهم بالجنة والصَّلاح أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم لقوله صلَّى الله عليه وسلم: «**عليكم بسنّتي**

(1) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (289/13): "أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات وقد صححه النووي في آخر الأربعين ".

(2) رواه الترمذي (46/5) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(3) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (200/8) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: "المستمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد" - وفي رواية عنده أيضا -: "أجر شهيد غريب ".

(4) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (119/1) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(5) أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن زكرى المغربي الفاسي المتوفى بمصر سنة 1144 له شرح على الصلاة المشيشية. (إيضاح المكنون 122/1).

وسنة **الخلفاء الراشدين من بعدي**»[1] ومن عاصرهم من الصَّحابة والتَّابعين رضي الله عنهم وما أحدث بعد ذلك فهو من البدع المحرمة التي يجب تركها ويحرم فعلها ومن البدع المستحسنة ما أحدثه الصحابة الكرام رضي الله عنهم لقوله صلَّى الله عليه وسلم: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**»[2] فلذلك لا ينبغي مخالفة ما ثبت فصحَّ عنهم فهذا دون السنة في الحرمة ويليه إجماع الأمة فلا تخالفهم في شيء مما أجمعوا عليه رضي الله عنهم وغير ذلك من البدع المحرمة يجب على مؤمن تركه لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: "**إياكم ومحدثات الأمور لأن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**"[3] والضلالة وأهلها في النار وكان الصَّحابة رضي الله عنهم ينكرون أشد الإنكار على من أحدث أمرا أو ابتدع رسما تنبيه اعلم أنَّ قولنا وتستبري بالإقلاع عن المعاصي وتغسل مواضع الأذى بالتَّوبة فقد تقدم الكلام على الاستبراء المعنوي والاستجمار والاستنجاء المعنويين في فصول متعددة.

الباب التاسع
في غسل اليدين قبل إدخالهما في الإناء ثلاثا مفترقتين

أعني ثلاثا لكل يد فيكون غسلهما ستّة فينتهي الكلام عليهما في فصول الفصل الأول بأن تنوي غسلهما معا بأن لا تؤذي بهما أحدا من خلق الله تعالى أبدا.

اعلم أن غسلهما هو ترك الأذى فإذا تركت الأذى انغسلا معا وعلامة ترك الأذى أن لا تؤذي من المخلوقات من يؤذيك وأحرى من لا يؤذيك ولذلك لم يؤذ سيدنا محمَّد ﷺ ولا صاحبه سيدنا أبو بكر رضي الله عنه الحية التي لدغت سيدنا أبا بكر رضي الله عنه في الغار ليلة الخروج للهجرة وإن كان ﷺ قد أمر بقتل الحيَّة قبل ذلك وما ذلك إلا لرؤيتهم الأشياء كلها من الله، وهذا هو الأصل في قولهم: "**حسنات الأبرار**

---

(1) رواه: أحمد (126/4)، وأبو داود (610/2)، والترمذي (44/5) وابن ماجه (15/1) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(2) قلت: قد روي من حديث ابن عباس وجابر وأبي هريرة وابن عمر، وكلها أحاديث معلة، لا تخلو من ضعف شديد، قال البيهقي: هذا حديث مشهور وأسانيده كلها ضعيفة لم يثبت منها شيء.
انظر: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الكشاف للزمخشري (229/2)، تلخيص الحبير للحافظ (462/4).

(3) هو جزء من حديث العرباض بن سارية السابق تخريجه قبل قليل.

سيئات **المقرَّبين**" فلمّا رأوا الأمور كلها من الله تعالى عظَّموها لأن كل ما يعظمه الإنسان يرضى به ولا يتأذى به فإن آذاك شيء فذلك مراد سيدك منك وإن نفعك شيء فذلك مراده منك لأنه لا يتحرك شيء إلا بما سبق في علمه سبحانه ولا مرد لأمر الله قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة/51] ولهذا قال تعالى في بعض الكتب المنزلة: [عبدي تريد وأريد فإن رضيت بما أريد أعطيتك ما تريد وأنت محمود وإن لم ترض بما نريد منعتك ما تريد ولا يكون إلا ما أريد وأنت مذموم مذحور] فإذا حققت أنَّ الأشياء كلها من الله تعالى حكم عليك الشرع ولهذا كان بعضهم يمشي في المقابر وإذا برجل جالس والزنابير يأكلون في لحمه وهو يأبى أن يزولهم فقال له السَّلام عليكم فقال له وعليك السَّلام يا فلان فقال له: ومن أين علمت أنَّني فلان؟ فقال له: إن العبد إذا أصلح ما بينه وبين الله أطلعه الله على ما يشاء من المغيبات، فقال له أنت مع الله بهذه المنزلة ولا تسأله أن يصرف عنك هذه الزَّنابير فقال: ألا تسأله أنت أن يصرف عنك شهوة الرمان الحامض، وكان هذا الرجل يشتهي رمانا حامضا، ثم جلس عنه أياما فوقف عليه فلم يجد منه إلا العظام فأكلته الزنابير على آخره، فتأمل هذه المكانة، واعلم أن من كان يتشاهد الأمور كلها من الله فهو الذي يرضى بقضاء الله حتى يقضي الله مراده ولذلك قلنا في غسل اليدين قبل إدخالهما في الإناء ألا تؤذي من يؤذيك وتجعله في حل لأنه مسلط عليك، وهو مثل العصا والضَّارب لك بها ربك فترضى بقضاء الله الفاعل لمن يشاء وإن كنت ترى الآثار للمخلوقين كنت بمنزلة الكلب لأن الكلب إذا ضربه أحد بحجارة فيترك الضَّارب ويتبع الحجر حتى يلحقه فيعض فيه لقصور نظره وكذلك أنت إذا آذيت من يؤذيك فلا شك أنك نسيت ربَّك فهذا كاف لك في غسل يديك معا مرة مرة لأن هذا الغسل يعمهما معا فصار ذلك غسلتين من ست وكذلك ما يتضمنه الفصل الذي بعد هذا لأنه يتضمن فصلين، فاعلم ذلك والله الموفق.

الفصل الرابع هنا
كذلك لأن الغسل مكرر في اليدين معا

اعلم أنه تقدم لنا بيان غسلة واحدة لكل يد فصارت غسلتين وهذه الغسلة الثانية لليدين معا فتصير الغسلات بحكم التَّفريق أربعة لتكرار الغسل لكل يد مرة فبتمام هذا

الغسل يجتمع لك أربع غسلات باعتبار اليدين لكل يد غسلتان فاعلم ذلك.

اعلم أن هذا الغسل هنا هو أن لا تسخرهما إلا فيما يرضي الله أو فيما كان مباحا لك فعله ومناولته مطلوب منك كإعانتك من يطلب منك الإعانة في أمر يحل له لا في حمل شيء من المحرمات أو المكروهات فلا تعين أحدا في ما يسخط الله تعالى واعلم أن اليدين خلقهما الله لك لإجلاب المنافع ودفع المضرات ولقتال العدو والكافر والمحاربين ولرجم من يرجمه الشرع ونحو ذلك وللطَّهارة الشرعية وللسجود إذ هما من أعضاء السجود فمن الحكمة أن تضع الأشياء في مواضعها ولا تضعها في غير مواضعها والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الفصْلُ الخامسُ

أن تغسل اليمنى بالرضى اعلم أن الغسلة الثالثة لليد اليمنى بالغسل المعنوي فإنها لا تغسل إلا بالرضى وقد تقدم بيان بعض ذلك ولا بدّ من البيان الكامل لهذا فاعلمه واعلم أن الرضى هو سرور القلب بالقضاء وقيل هو أن يتحقق العبد أنَّ الله تعالى عدل في قضائه غير متهم في حكمه وقال أبو سلمان[1]: "الرضى أن لا تسأل الله تعالى الجنة ولا تستعيذ به من النار للأدب مع الله في حكمه وذلك لا يكون إلا إذا تحقّق العبد أنه لا يلقى خيرا ولا شرا في الدنيا والآخرة إلا بحكم ما سبق له في علم الله تعالى وأن السَّابق لاحق فإن تمكنت هذه المعرفة من قلب عبد فإنه يرضى بالمقادير الحلوة والمرة". وقال الشبلي[2] بين يدي الجنيد: "لا حول ولا قوة إلا بالله هذا ضيق الصَّدر وضيق الصدر إنما يكون من عدم الرضى بالقضاء". وقيل الرضى بالله الذي لا يعترض على تقديره. قال الإمام القشيري: "الواجب على العبد أن يرضى ببعض ما يقضي به الله تعالى لا بكله لأن القضاء بالمعاصي والكفر عدم الرضى به هو الرضى إذ لا يرضى بالمعصية إلا الكافر" وهو صحيح إذ يجب على المؤمن الفرار من الكفر والمعصية

---

(1) كثيرون.

(2) أبو بكر بن جحدر الشبلي ومكتوب على قبره جعفر بن يونس خراساني الأصل بغدادي المولد، والمنشأ تاب في مجلس خير النساج كما مر، وصحب أبا القاسم الجنيد، ومن عاصره من المشايخ، وصار أوحد أهل الوقت علماً، وحالا وظرفاً. تفقه على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وكتب الحديث الكثير. عاش سبعاً وثمانين سنة، ومات سنة 334 هـ، ودفن ببغداد في مقبرة الخيزران، وقبره فيها ظاهر يزار رضي الله عنه، ورحمه. (الطبقات الكبرى ص 103).

لأننا لا نرضى إلا ما يرضي الله سبحانه لأن الكفر والمعصية قدرهما الله سبحانه ولم يرضهما، فاعلم هذه النكتة. وقال بعضهم: "علامة الرضى أن يكون العبد مريضا فلا يتمنى الصحة وإن كان فقيرا فلا يتمنى الغنى لأن الرضى لا يطلب إلا فيما تعلقت به المشيئة لا فيما تعلق به الأمر والنّهي" فهذا يؤيد ما قبله. وقيل لرابعة العدوية[1] متى يكون العبد راضيا؟ فقال: "إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة" وقال الله تعالى في وصف الذين آمنوا وعملوا الصّالحات: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ [البينة/8] وقال عليه السَّلام: «**قال الله تعالى لموسى عليه السَّلام إنك لن تتقرب إلي بشيء أحب إلي من الرضى بقضائي**»[2] وقال عليه السَّلام: «**من رضي بالقليل من الرزق رضي الله تعالى عنه بالقليل من العمل**»[3] وقال عليه السَّلام: «**من رضي عن الله رضي الله عنه**» قال الإمام القشيري رضي الله عنه: "رضى العبد عن الله لا يحصل إلا بقدر رضاء الله عن العبد" لقوله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ [البينة/8] فرضاء الله سابق ورضاء العبد لا حق واختلف العرافيون والخراسيون في الرضى هل هو من الأحوال أو من المقامات فقال الخراسيون: هو من المقامات وهو نهاية التّوكل وهو مكتسب كسائر المقامات وقال العرافيون: هو من الأحوال وليس مكتسب بل هو كسائر الأحوال ووجه التّوقيف بين القولين هو أن أوله مقام فهو مكتسب وآخره حال فليس بمكتسب وَقيل للحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أن أبا ذر[4] يقول: الفقر أحب إلي من الغنى والسقم أحب إلي من الصحة فقال رحمه الله أمّا أنا فأقول عن معنى أبي ذر من وثق بحسن اختيار الله له لم يختر غير ما اختار الله له وَسئل أبو عثمان عن قوله عليه

---

(1) كانت رضي الله عنها كثيرة البكاء والحزن وكانت إذا سمعت ذكر النار غشي عليها زماناً. وكانت تقول: استغفارنا يحتاج إلى استغفار وكانت ترد ما أعطاه الناس لها وتقول: مالي حاجة بالدنيا، وكانت بعد أن بلغت ثمانين سنة كأنها شن بال تكاد تسقط إذا مشت، وكان كفنها لم يزل موضوعاً أمامها، وكان بموضع سجودها وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها. وسمعت رضي الله عنها سفيان يقول: واحزناه فقالت له: واقلة حزناه ولو كنت حزيناً ما هناك العيش، ومناقبها كثيرة رضي الله تعالى عنها ومشهورة. (الطبقات الكبرى ص 63).

(2) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (45/5) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان (204/7).

(4) أبو ذر الغفاري، اسمه جندب بن جنادة على الأصح، اختلف في اسمه واسم أبيه خلافا كثيرا، وهو أخو عمرو بن عبسة لأمه صحابي كبير توفي عام 32 هـ بـ الربذة. (التهذيب 500/2).

السَّلام: اللهمَّ إني أسألك الرضى بعد القضاء فقال: إنما قال ذلك لأن الرضى قبل القضاء عزم على الرضا فأمَّا الرضى بعد القضاء فهو الرضى به حقيقة وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري[1] رضي الله عنه أمَّا بعد فإنَّ الخير كلَّه في الرضا فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر وقيل غضب رجل على عبده فاستشفع إليه برجل فعفا عنه فأخذ العبد يبكي فقال له الشَّفيع: أليس قد عفا عنك سيدك فما يبكيك فقال حصل لي العفو وبقي الرضى ولا سبيل إليه بشفيع ولا غيره والله الموفق سبحانه.

الفصل السَّادس

في الغسلة الثَّالثة لليد اليسرى وهي السَّادسة باعتبار غسل اليدين مفترقتين

اعلم يا أخي أنَّ غسل اليد اليسرى في الغسل المعنوي إنما هو بالتَّسليم والتَّفويض. **واعلم** أنَّ التسليم والإسلام والاستسلام المراد بذلك كله هو إظهار العبودية والتَّفويض هو أن لا يختار العبد شيئا من أمور دنياه ويكل اختيار ذلك إلى مولاه ثم لا يختار خلاف ما اختار له، وقيل: التَّفويض يكون قبل نزول القضاء والتَّسليم يكون بعده والتَّسلم، والتَّفويض من صفات أهل المعرفة وقد مدح الله تعالى بهما الأنبياء فقال في حق إبراهيم عليه السَّلام وأفوض أمري إلى الله إنَّ الله بصير بالعباد وقال عليه السَّلام: إذا أخذ أحدكم مضجعه فليقل: اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك وفوضت أمري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت فإن مات مات على الفطرة"[2]. وقال علقمة[3] رضي الله عنه: "قدمت على النبي ﷺ وأنا سابع سبعة من قومي فكلمناه فأعجبه كلامنا فقال: ما أنتم قلنا مؤمنون، قال: لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانكم، قلنا خمسة عشرة خصلة خمس أمرتنا بها وخمس أمرنا بها رسلك وخمس تحققنا بها في الجاهلية، فأما التي أمرتنا بها أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه

---

(1) عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن الأشعر، أبو موسى الأشعري صحابي جليل ذو مناقب وحكايات، توفي عام 50 هـ وقيل بعدها بـ مكة، وقيل: الثوية. (التهذيب 520/4).

(2) رواه البخاري (2362/5) ومسلم (2081/4) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(3) لعله: علقمة بن سمي الخولاني. صحابي، شهد فتح مصر، ولا تعرف له رواية. قاله ابن يونس. أخرجه ابن منده وأبو نعيم. (أسد الغابة 287/2).

ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وأمَّا التي أمرنا بها رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك وأنك عبده ورسوله ونقيم الصَّلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت إن استطعنا، وأمَّا التي تحققنا بها في الجاهلية الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء والصدق في مواطن اللقاء والرضى بمر القضاء وترك الشماتة بالأعداء، فقال عليه السَّلام: فقهاء كادوا أن يكونون أنبياء، ما أشرفها من خصال، ثم تبسم وقال: أنا أوصيكم بخمس خصال لتكمل لكم خصال الخير، لا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، وتنافسوا في ما عنه غدا ترحمون، واتقوا الله الذي عليه تقدمون وإليه ترجعون، وارغبوا في ما إليه تصيرون وفيه تخلدون[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف/82] أنه كان لبنة ذهب فيها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبا لمن يعرف الموت وكيف يضحك، وعجبا لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، وعجبا لمن يعرف القضاء والقدر كيف يتعب في طلب الرزق، وعجبا لمن يؤمن بالمثلات كيف يعمل الخطايا، لا إله إلا الله محمَّد رسول الله، والله أعلم. قُلتُ: رأيت في بعض التفاسير أنَّ المثلات هي العقوبات، انتهى.

الباب العاشر
في المضمضة المعنوية.

وفيه أربعة فصول.

اعلم يا أخي أنَّنا لمَّا رتَّبنا الطَّهارة المعنوية على الوضوء الحسي لأنه يتقدم على غسل الجسد استحبابا أعني الاستحباب في الطَّهارة الحسية وأمَّا في الطَّهارة المعنوية فعلى الوجوب فكل ما سنذكره من سنن الوضوء ومستحباته فخذه هنا على سبيل الوجوب أنّ مذهب الصوفية هو على ترك الرخص فالأوامر كلها عندهم واجبة لا مندوب فيها والمناهي كلها محرمة لا مكروه فيها وذلك لأجل المبالغة في العبادة فاعلم ذلك ولما كان غسل جميع البدن لا تكرار فيه وإنما غسلة واحدة تكفي في كل عضو على الإطلاق ومن شك في لمعة يجب عليه غسلها في مرة أخرى ولمَّا كان تقديم أعضاء الوضوء فيها مستحب فالاستحباب يتعلق في تقديم الوضوء خاصة وأما

(1) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (192/10).

فعله فينوي بالغسلة الأولى منه الوجوب وبعده مستحب كالشفع أعني في مغسولات الوضوء الشَّرعي ولما رتبنا الطهارة المعنوية على ذلك لزمنا على سبيل الوجوب تثليث أعضاء الوضوء كذلك فعلى ذلك تكون المضمضة وهي غسل الفم ثلاثا فينتهي طهارة الفم في هذه الطهارة في ثلاثة فصول.

الفصل الأول
في الغسلة الأولى من المضمضة

اعلم يا أخي أن الغسلة الأولى من المضمضة أن تنوي غسل فمك من الكذب والغيبة والنّميمة وقول الزور وهو الباطل كله والأيمان الفاجرة ونحو ذلك قوله تغسل فمك من الكذب وإخوته أعني ما ذكر بعده وما لم يذكر من جميع ما يناسب ذلك وغسل ذلك يكون بالمجاهدة والتحرز والاحتفاز من أن تفعل شيئا من ذلك ولا تنطق بكلمة حتى تعلم خيرها أو شرها فإن علمتها خيرا فانطق بها إن لم تكن جوابا بالسائل يسأل جماعة وأنت فيها فينبغي أن تمسك عن الجواب لعل بعض الحاضرين يكفيك مؤنتها وإلا فتكون أنت في الخيار إن شئت أجبت عن سؤاله وإلا فلا إن لم يتعين عليك الجواب إن كان السَّائل أهلا وإلا فالصمت عنه أولى وأفضل لقوله عليه السَّلام: «**لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها من أهلها فتظلموهم**» وهذا المعنى هو الذي راعى بعض الأئمة لما سئل عن مسألة وعلم أن السائل لا يستحقها فلم يجبه وامتنع من الجواب فقال له السائل: يا سيدي كأنك لم تعلم قول رسول الله ﷺ من سئل عن علم نافع ولم يجب ألجمه الله بلجام من النار فقال له الشيخ حط اللجام هنا فأنا مؤمن بهذا الحديث فإن جاء من يستحقه ومنعته فليلجمني به وأمَّا أنت فلا لأن سيدنا محمَّدا ﷺ قال: «**أنزلوا الناس على قدر منازلهم وحدثوهم على قدر عقولهم**» وأنا أعلم أن عقلك لا يستطيع حمل هذه المسألة لأنك لست من أهلها ومثال ذلك البعير لا يحملونه الحمير وأحمال العيس لا تقدر على حملها الغناريس، وَروي أنَّ الله تعالى لما وكل بكل إنسان ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فلمّا كتب صاحب اليمين الحسنات وكتب صاحب الشّمال السّيئات بقي كلام لم يكتبه صاحب اليمين أن لا حسنة فيه وتركه صاحب الشِّمال إذ لا سيئة فيه فاشتكى صاحب الشمال على الله تعالى فأوحى الله تعالى أن اكتب كل ما يترك لك صاحب اليمين لأن كل ما ليس بحسنة فهو سيِّئة فإذا أردت غسل فمك فجاهد أن لا تنطق إلا بما تعلم أنه حسنة ورد في نفسك ما

ليس بحسنة فيتطهَّر فوك بإذن الله تعالى واعلم أنَّ معنى قوله تغسل فمك من الكذب أعني إذا لم تكذب انغسل فمك من الكذب واعلم أنَّ أصل الشَّر كله الكذب ولهذا قال الله تعالى: ﴿ لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران/61] وقيل لرسول الله ﷺ: أيكذب المؤمن؟ قال: لا. وقال أيضا: لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يسمَّى في الأرض كذَّابا فيلعنه الله ويلعنه اللاعنون وقال رسول الله ﷺ: «**علامة المنافق ثلاثة إذا حدث كذب وإذا اؤتمن خان وإذا وعد أخلف**»[1] وفي رواية أخرى بزيادة: "إذا خصم فجر "، فالكذب هو كل ما تقول وأنت تعلم به أنه باطل وكل ما تقول بلسانك ولا لك به علم فهذا هو الكذب وروي **أن الجوارح تصيح تشتكي على اللسان وتقول له اتَّق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا وإن اعوجت اعوجنا**[2] وروي أن اللسان يقول للرأس بلسان الحال عند كل صباح كيف أصبحت أيها الرأس فيقول له بخير إن سلمت منك، وروي عن بعض الصَّالحين رضي الله عنهم كان يقول لساني سبع إذا أطلقته أكلني وأنشدت في ذلك فقلت:

عليك بحفظ الفم من كل كلمة تثير وجهي أو تثير سر الفعل
فعثرته من فيه ترمي برأسه وعثرته بالرجل تبرا على مهل

الفصل الثاني
في المضمضة الثانية

اعلم أنَّ المضمضة الثَّانية هي أن تنوي غسل فمك بالصمت قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلاً سَدِيدًا﴾ [النساء/9] الآية، وقال عليه السلام: «البلاء موكل بالمنطق»[3]، وقال سيدنا محمدٌ ﷺ: «إنَّ أكثر خطأ ابن آدم في لسانه»، وقال عليه السَّلام: «من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به»[4] وقال عليه السَّلام «ليس شيء من الجسد إلا هو يشكو

(1) رواه البخاري (21/1) ومسلم (78/1) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه أحمد (95/3) والترمذي (605/4) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه: "إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا".

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان (244/4) من حديث أنس رضي الله عنه.

(4) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (328/6) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

حدة اللسان"[1] وقال عليه السَّلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"[2] وقال عليه السَّلام: «رحم الله امرأً سكت فسلم أو قال خيرا فغنم»[3] وقال عليه السلام: «من صمت نجا»[4] وقيل لرسول الله ﷺ ما النجاة؟ فقال: «احفظ لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»[5]. وقال أهل الحقيقة: الصمت سلامة وهو الأصل والنطق عارض وأكثره ندامة وصاحبه الأذل واختلف النَّاس في تفضيل أحدهما على الآخر والأصح أن كل واحد أفضل من الآخر في بعض المواضع لكن الموفق من يعرف موضع الصمت وموضع النطق وقال بشر الحافي: إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلّم وقال لقمان لابنه: لو كان الكلام فضة لكان الصمت ذهبا ولقد ندمت على الكلام مرارا ولم أندم على السكوت مرة واحدة وقال أبو علي الدقاق: من صمت عن الحق فهو شيطان أخرس واعلم أنَّ الصمت على نوعين صمت العوام وهو إمساك اللسان عن الكذب والغيبة وصمت الخواص وهو إمساك اللسان لاستيلاء سلطان الهيبة وذلك الصمت هو من أدب الحضرة وينقسم الصمت قسمين آخرين صمت العوام وهو كف باللسان وحده وصمت الخواص وهو كف باللسان والقلب فالمتوكل صمت قلبه عن طلب الرزق والراضي صمت قلبه عن حركة الاعتراض وسئل أبو بكر الفارسي[6] عن صمت القلب فقال: اترك ذكر الماضي والمستقبل بسبب كشف نعمته فتخرس العبارة عن ذلك ويكل النطق هنالك فلا علم ولا حسن ولا نطق ولا فهم وقد آثر أرباب المجاهدة السكوت لما رأوا في الكلام من الآفات وحظ النفس منه إظهار صفة المدح وميل الإنسان بالطبع إلى أن يتميز بين

(1) رواه البزار في مسنده (161/1) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(2) رواه البخاري (2240/5) ومسلم (68/1) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت (ص: 71).

(4) رواه أحمد (159/2) والترمذي (660/4) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(5) رواه أحمد (148/4) والترمذي (605/4) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(6) أبو بكر محمد بن أحمد بن علي بن شاهويه الفارسي الفقيه الشافعي، ذكره الحاكم أبو عبد الله في " تاريخ نيسابور " وقال: أقام بنيسابور زمانا، ثم خرج إلى بخارى ثم انصرف إلى نيسابور، ورجع إلى بلاد فارس فولي القضاء بها، ثم رجع إلى نيسابور وحدث بها. وتوفي في سنة 362 هـ. (وفيات الأعيان لابن خلكان 211/4).

أشكاله بحس النطق وروي عن داود الطائي[1] رضي الله عنه أنَّ سبب توبته أنه كان يجالس أبا حنيفة[2] رضي الله عنه فقال له أبو حنيفة يوما: أيا سليمان أمَّا الأدلة فقد أحكمناها فقال له داود: أي شيء بقي؟ فقال: العمل بها قال داود: فنازعتني نفسي إلى العزلة فقلت أعتزل حتى أجالسهم سنة ولا أتكلم في مسألة مجالسهم سنة ولم يتكلم في مسألة قال وكانت المسألة تمر بي وأنا إلى الكلام فيها أشد شوقا من العطشان ولا أتكلّم، وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إذا كتب كتابا وأعجبه لفظه مزقه وكتب غيره وقال إذا نطق العبد فيما يعنيه وفيما لا بدّ منه فهو صامت وقيل إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أمسك في فمه حجرا كذا وكذا سنة ليقل كلامه وقيل أبا حمرة البغدادي كان حسن الكلام فهتف به هاتف تكلمت فأحسنت فبقي أن تسكت فتحسن فما تكلم بعد ذلك حتى مات. وربما يقع السكوت على الإنسان تأدبا له لأنه قد يكون أساء الأدب في شيء من كلامه أو يكون في المجلس من هو أحق منه بالكلام أو يكون في المجلس من الجن والإنس من لا يكون أهلا لسماع ذلك الكلام فيصونه الله عنه بالسكوت لذلك الشخص، وقال بعض الحكماء: إنما خلق للإنسان لسان واحد وعينان وأذنان ليبصر ويسمع أكثر مما يقول وقيل مثل الإنسان مثل السبع إن لم تحبسه عدا عليك، وقيل العارف إذا سكت ملك والمحب إذا سكت هلك.

---

(1) أبو سليمان داود بن نصير الطائي كان كبير الشأن في باب الزهد والورع حتى إنهم دخلوا عليه في مرض موته فلم يجدوا في بيته شيئاً غير دن صغير فيه خبز يابس ومطهرة ولبنة كبيرة من التراب هي مخدته، وكان رضي الله عنه يقول لأصحابه: إياكم أن يتخذ أحدكم في داره أكثر من زاد الراكب إلى البلاد البعيدة وقيل له مرة دلنا على رجل نجلس إليه فنربح فقال رضي الله عنه: تلك ضالة لا توجد وكان يقول إنما يطلب العلم للعمل به أولا فأولا وإذا أفنى الطالب عمره في جمعه فمتى يعمل به. (الطبقات الكبرى ص 74).

(2) النعمان بن ثابت ولد سنة 80 من الهجرة وتوفي ببغداد 150 هـ وهو ابن سبعين سنة، وكان في زمنه أربعة من الصحابة أنس بن مالك وعبد الله بن أبي أوفى وسهل بن سعد وأبو الطفيل وهو آخرهم موتاً ولم يأخذ عن واحد منهم.

وأكره رضي الله عنه على تولية القضاء وضرب على رأسه ضرباً شديداً أيام مروان فلم يل ولما أطلق قال: كان غم والدتي أشد من الضرب علي، وكان أحمد بن حنبل إذا ذكر ذلك بكى، وترحم عليه. (الطبقات الكبرى ص ذ50).

الفصل الثالث
في المضمضة في المرّة الثَّالثة بالصيام والجوع

اعلم يا أخي أنه لـمَّا كان الصيام هو الإمساك عن الأكل والجماع ومقدماته وهو الإخلاص لله تعالى لا يدخله شيء من عمل الرياء إلا إذا قصدها المتعبد لأنه من أعمال القلوب فلا يطلع عليه إلَّا الله تعالى ومعتمده الصَّبر على جميع المملوك عنه فلذلك كان ثوابه لا يعد ولا يحد لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر/10] لأنَّ حسنات الجوارح الظاهرة مقدرة فثوابها معلوم قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام /160]، والنفقة في سبيل الله تعالى ثوابها مقدر سبعمائة لقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة /261].

وأمَّا الصيام المعنوي فلا يقدر بمقدار، لأنه من أعمال القلوب، ووزن ذرة من أعمال القلوب أفضل عند الله تعالى من أعمال سبعين سنة من أعمال الجوارح الظاهرة لسلامتها من الرياء، وأنها وقعت بإخلاص محض. وبيان الصيام المعنوي هو: أن تصح جميع جوارح المؤمن الظَّاهرة والباطنة عن الوقوع في شيء من مخالفة الأمر والنَّهي، ولا يسخرها إلا في ما خلقت من أجله، فالفرْج الراد منه النكاح الشرعي للتناسل وتكثير سواد المؤمنين، فيجب على المكلَّف إمساكه عما لا يحل له، وكذلك مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة ونحو ذلك، لأنها معينة على الوقوع، واجعل هذا ميزانا تزن به جميع الجوارح، فهو معلوم، فلا نطيل بذكره، ولأجل رعاية هذا المعنى عددنا الصيام من المضمضة المعنوية.

تَنبيه: وفيه حكمة أخرى، وذلك أنه لما ثبت أنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدَّم قال عليه السَّلام: ضيقوا مسالكه بالجوع[1]، والله الموفق.

(1) قال المحدث العجلوني رحمه الله في كشف الخفاء (525/1): "ذكره في الإحياء، قال العراقي متفق عليه دون فضيقوا مجاريه بالجوع، فإنه مدرج من بعض الصوفية".

الفصل الرَّابع
في السِّواك المعنوي

اعلم يا أخي أنَّ هذا الفصل يحتوي على فصلين وذلك أنه لما كان السواك الشرعي في الفم طولا وعرضا في اللسان جعلنا له فصلين الفصل الأول من هذا الفصل في الشكر اعلم يا أخي أنَّ الشكر عند المحققين الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع على هذا يكون وصف الله تعالى بالشكر توسعا ومعناه أنه مجاز للعبد على الشكر فسمي جزاء الشكر شكرا كما سمي جزاء السَّيئة سيِئة وجزاء الاعتداء اعتداء وقيل شكره إعطاؤه الكثير من الثواب على القليل من قولهم حيوان شكور إذا ظهر من السمن فوق ما يعطى من القوت وقيل حقيقة الشكر الثناء على المحسن بذكر إحسانه وعلى هذا لا إشكال في ذلك لأن الله تعالى سمي شكورا لأنه أثنى على عبيده المطيعين بذكر طاعتهم والطَّاعات إحسان والعبد سمي شكورا لأنه أثنى على الله تعالى بذكر نعمته التي هي أعظم أنواع الإحسان وقال أبو عثمان المغربي الشكر معرفة العجز عن الشكر وقيل هو أن تعلم النعمة من الله وحده ويؤيد هذا القول ما روي عن رسول الله مُوسى عليه السَّلام أنه قال في مناجاته: إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت معه ما فعلت فكيف شكرك فقال: علم أن ذلك مني فكان ذلك شكره وقال الجنيد: الشكر ألا ترى نفسك أهلا للنعمة وقال أيضا: الشكر أن لا تستعين بنعم الله على معصيته وقال الشلبي: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة قال الرَّازي رحمه الله قلت ويؤيد هذا القول أن أيوب عليه السَّلام صبر على البلاء فقيل له نعم العبد إنه أواب لأنهما اتَّفقا في المقام بعدم الالتفات إلى النعمة والنقمة لفقدان الألم واللذة باعتبار كمال الحمد وانسلاب صفات البشرية انسلابا انقلب معه الصبر شكرا والشكر صبرا بعدم التَّمييز بينهما كما قيل:

رقَّ الزجاج ورقت الخمر ... وتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمرُ

وَالفرق بين الشَّاكر والشكور أنَّ الشَّاكر هو الذي يشكر على العطاء والشكور هو الذي يشكر على المنع، وقيل الشاكر هو الذي يشكر على النعماء والشكور هو الذي يشكر على البلاء والشكر نوعان باللسان وهو معروف وشكر القلب وهو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة وقيل هو ثلاثةُ أنواع شكر باللسان وشكر

بالقلب وشكر بجميع الجوارح على ما يليق بكل جارحة فشكر العينين غمضهما عن محارم الله وشكر الأذنين التَّصامم عن استماع عيوبهم وعن كل ما لا يحل استماعه وشكر اليدين كفهما عن إذاية الناس وعن أموالهم وشكر الرجلين كفهما عن المشي في معصية الله وعلة هذا القياس فجعل في جميع الجوارح فذلك ظاهر وقيل شكر العلم بالقول وشكر العابد بالفعل وهو الطَّاعة والعبادة وشكر العارف بالاستقامة في كل حال وقال أبو عثمان المغربي[1]: شكر العوام على الطَّعام والشَّراب ونحوهما وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني الإلهية وقيل إنَّ الشّكر على الشكر أتم من الشكر ومعناه أن ترى شكرك لله بتوفيق الله له وتعتقد أن ذلك التّوفيق من أتم النعم فتشكر على ذلك التَّوفيق الذي هو الشكر الأول ثم الكلام في الشكر الثاني كذلك إلى ما لا يتناهى وروي أن داود عليه السَّلام قال: إلهي أشكرك وشكري لك نعمة من عندك فأوحى الله تعالى إليه ألا قد شكرتني، وقيل التزم الحسن بن علي رضي الله عنهما الركن وقال: إلهي أنعمت علي بعلم الشكر وابتليتني فلم أصبر فلم تسلب النعمة لترك الشكر ولا أدمت البلاء لترك الصَّبر إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم، وقيل مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال: يا نبي الله منذ سمعت قول الله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة/ 24] وأنا أبكي خوفا أن أكون من تلك الحجارة فدعا ذلك النّبي له فأجاره الله تعالى من النَّار ثم مرَّ به بعد مدة فوجده يتفجر كما كان فتعجب منه فأنطقه الله تعالى: كان ذلك بكاء الخوف والحزن وهذا بكاء السرور والشكر، وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السَّلام يا موسى ارحم المعافى والمبتلى من عبادي فقال: يا رب أمَّا المعافى فلم قال: لقلة شكره على العافية، وقال الجنيد: الشكر فيه علة وهي طلب المزيد وذلك وقوف حظ النفس، وعن بعضهم رأيت شيخا كبيرا في بعض الأسفار فسألته عن حاله فقال: كنت في شبابي أهوى ابنة عم لي وتهواني فتزوجت بها فلما زفت إلي قلنا لو

---

(1) أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي من القيروان من قرية يقال لها كوكب أقام بالحرم الشريف مدة، وكان شيخه، وصحب أبا علي بن الكاتب حبيباً المصري. وأبا عمرو الزجاجي، ولقي النهرجوري، وأبا الحسين بن الصائغ الدينوري، وغيرهم من المشايخ، ولم ير مثله في علو الحال، وصون الوقت وصحة الحكم بالفراسة، وقوة الهيبة، ورد نيسابور، ومات بها سنة 373 هـ. (الطبقات الكبرى ص 85).

أحيينا هذه الليلة شكرا لله على نعمته بجمع شملنا ففعلنا ولم يتفرغ واحد منا لصاحبه فلمَّا كانت اللَّيلة الثانية فعلنا مثل ذلك ولنا سبعون سنة على تلك الحالة في كل ليلة يعني يشكر الله تعالى على ما من به عليهما من التَّوفيق لعبادته قبل ذلك ثمَّ اعلم أن الحمد يوضع موضع الشكر وإن كان الحمد أعم من الشكر لأن الشكرَ الثَّناء على المنعم بما أولاكَ من النعمة والحمد الثناء على الذّات بصفاتها الحميدة كائنة ما كانت وفي الحديث الصَّحيح «أول من يدخل الجنة الحامدون لله على كل حال» وفي رواية أخرى «الحمد لله على السراء والضراء» وقال عليه السَّلام: «الحمد لله شكر كل نعمة» وقيل الحمد لله على ما دفع والشكر لله على ما صنع وأنشد بعضهم:

إذا كــان شــكري نعمــةَ الله نعْمــةً ... علـيَّ لـه فـي مـثلها يجـب الـشكرُ
فكــيف بلــوغ الــشكر إلَّا بفــضله ... وإن طالــت الأيــام واتَّــسع العمــر
فمالــي عــذر غيــر أنــي مقــصِّرٌ ... وعذري في التقصير أن ليس لي عذر

انتهى الفصل الأول من هذا الفصل، يتلوه الفصل الثاني بحمد الله تعالى وحسن عونه، سبحانه لا إله إلّا هو.

الفصل الثاني منْ هذا الفصل
في حسْن الخُلُق

اعلم يا أخي أنه كان الخلق الحسن يعلم من حلاوة المنطق ورطوبة اللَّفظ والخلق السوء يعلم بعكس ذلك فلذلك جعلناه آخر غسلة في المضمضة فقلت: اعلم يا أخي أن الخلق في اللغة بضم اللام وسكونها الطَّبيعة وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو ما اختار الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلّم في قوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف/ 199]، وقيل هو مجموع خصال حميدة وصفة شريفة تتضمن اقتراب كل خير واجتناب كل شر وقيل هو قضاء الحق وقبول ما يرد عليك من جفاء الخلق بلا ضجر ولا قلق وقيل هو استقلال ما منك واستكثار ما إليك وقيل هو احتمال المكروه والابتسام في الوجوه وقيل هو كف الأذى والحلم عن من رماك بالقذى وقيل هو ترك العداوات واحتمال الأذى بحسن المدارات وقيل هو احتمال الصفا والتغافل عن الجفا وقيل ترك إذاية الإنس واحتمالُه من الجنس وغير الجنس وَاعلم أنَّ الخلق أفضل مناقب العبودية به تظهرُ جواهر الرجال والإنسان مستور بخلقه

مشهور بخلقه وقد خصَّ الله تعالى نبيه صلَّى الله عليه وسلم بما خصَّه مِن الصفات الشَّريفة ثم لم يثن عليه بشيء من صفاته الجميلة كما أثنى عليه بالخلق فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم/4] قيل إنما وصفه بالخلق العظيم لأنه جاء بالكونين واكتفى بالله وقيل لأنه لم يكن له هم إلَّا الله وقيل هو قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان/20] أنّ الظاهرة تسوية الخلق وهو قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ [الحجر/29] والباطنة تسوية الخلق وهو قوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر/ 29] وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر/4] أي خلقك فحسن وَقال عليه السَّلام: «**إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة القائم الصَّائم**»[1] وقال عليه السلام: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجوه والخلق الحسن**»[2] وقال عليه السَّلام: «**خصلتان لا يجتمعان في المؤمن البخل وسوء الخلق**»[3] وقيل كان ابن عمر رضي الله عنهما: إذا رأى أحدا من عبيده يحسن الصلاة يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة مراعاة له وكان يعتقهم فقيل له في ذلك فقال: من خدعنا في الله انخدعنا له وقال ذو النون المصري رحمه الله: أكثر الناس هما أسوؤهم خلقا وقيل الخلق السَّيّئ يضيق صدر صاحبه لا يدعه يسع غير مراده وقيل من علامة حسن الخلق أن لا يتأخر الإنسان ممن يقف في الصَّف بجنبه ولا ممن يجلس أعلا منه في المجلس ومن علامات سوء الخلق وقوع البصر على سوء خلق الفقير وقال المحاسبي[4]: ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة حسن الوجه مع الصيانة وحسن الخلق وحسن الإخاء مع الأمانة وقال بعضهم التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التَّصوف وقال وهب بن منبه[5] ما تخلَّق أحد بخلق أربعين صباحا إلا

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط (236/6) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (29/3): "أخرجه البزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات".

(3) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص: 106) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(4) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي رضي الله عنه وهو من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم الأصول وعلوم المعاملات له التصانيف المشهورة عديم النظير في زمانه وهو أستاذ أكثر البغداديين بصري الأصل. مات ببغداد سنة 243 هـ رضي الله عنه. (الطبقات الكبرى ص 73).

(5) أبو عبد الله وهب بن منبه كان رضي الله عنه يقول في التوراة علامة الرجل الصالح أن يخاصمه =

جعل الله ذلك طبيعة له قلت فعلى هذا الخلق الحسن مكتسب لا أنه سجية في الإنسان وقيل للأحنف بن قيس[1] ممن تعلّمت الحلم قال من قيس بن عاصم[2] كنت جالسا عنده فجاءت جارية له بسفود عليه شواء حار فسقط على ابن له فمات فدهشت الجارية من ذلك فقال لها: لا روعة عليك أنت حرَّة لوجه الله تعالى، وقيل لإبراهيم بن أدهم[3] رضي الله عنه هل فرحت في الدنيا قط فقال: نعم مرّتين مرة كنت قاعدا فجاء إنسان وبال علي ومرّة كنت قاعدا فجاء إنسان وصفعني، وحكي عنه أيضا أنه كان في بعض البراري فمرَّ به جندي فقال له: أين العمارة فأشار إبراهيم إلى المقابر فضرب الجندي رأسه فكسره يظنه أنه يهزأ به ثمَّ تركهُ ومضى فقيل له بعد ذلك أنه إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان فعاد إليه يعتذر فقال إبراهيم أنك لما ضربتني سألت الله لك الجنّة فقال له الجندي: ولم ذلك فقال لأنك سقت إلي ثوابا بضربك فما رضيت أن يكون نصيبي منك الخير ونصيبك مني الشَّر، وقيل لحاتم الأصم[4]: حسن الخلق أن يحمل

=

قومه الأقرب فالأقرب، وكان رضي الله عنه يقول: كان الناس ورقاً بلا شوك وأنتم اليوم شوك لا ورق فيه، إن تركهم العبد وهرب تبعوه توفي بصنعاء سنة 114 هـ رضي الله عنه. (الطبقات الكبرى ص 102).

(1) كان اسمه صخر وقد قيل إن اسمه كان الضحاك وإنما قيل له الأحنف لأنه ولد أحنف الرجلين وهو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين السعدي أبو بحر كان من سادات الناس وعقلاء التابعين وفصحاء أهل البصرة وحكمائهم ممن فتح على يده الفتوح الكثيرة للمسلمين ومات بالكوفة سنة 67 هـ في إمارة بن الزبير وصلى عليه مصعب بن الزبير ومشى في جنازته بغير رداء. (مشاهير علماء الأمصار لابن حبان 87/2).

(2) قيس بن عاصم بن سنان كنيته أبو علي المنقري أتى النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال: هذا سيد أهل الوبر. وكان من سادات الصحابة وجلة من اختط بالبصرة توفي بالبصرة وبها عقبه. (مشاهير علماء الأمصار 39/2).

(3) إبراهيم بن أدهم بن منصور أبو إسحاق كان مولده ببلخ ثم انتقل إلى بغداد ثم خرج إلى الشام طلبا للحلال المحض فأقام بها غازيا ومرابطا يلزم الورع الشديد والجهد الجهيد مع لزوم الزهادة باستعمال العبادة إلى أن مات في بلاد الروم غازيا سنة 161 هـ وكان من بكر بن وائل. (مشاهير علماء الأمصار 183/2).

(4) أبو عبد الرحمن، من مشايخ خُراسان. صحب شفيقَ ابن إبراهيم البلخي؛ وكان أستاذَ أحمد بن خَضروَيه. مات سنة 237 هـ. ولم يكن أصمَّ، وإنما جاءته امرأةٌ تسأله مسألةً، فاتفق أن خرج منها ريحٌ، فخجلت؛ فقال حاتم: "أرفعي صوتك! " وأرى من نفسه أنه أصمّ، فسرت بذلك، وقالت: "إنه لم يسمع الصوتَ! ". فغلب عليه ذلك، حكاه أبو علي الدقاق من كلامه: "الزم خدمة

=

الرجل من كل أحد فقال نعم إلَّا من نفسه وقالت امرأة لمالك يا مرائي فقال لها وجدت اسمي الذي أضلَّهُ أهل الصرة، وقال لقمان لابنه: ثلاثة لا تعرف إلا عند ثلاثة، الحلم عند الغضب والشجاعة عند الحرب والصدقة عند الحاجة، وكان لبعضهم غلام سوء فقيل له لم أمسكته ولا تبيعه فقال: لأتعلم عليه الحلم، وحكي أن رجلا دعا أبا عثمان الحريري[1] إلى ضيافة فلما وصل معه إلى باب الدار فقال له يا شيخ: ارجع فقد ندمت على طلبك فرجع الشيخ فلما وصل إلى باب داره ذلك الرجل وقال يا سيدي ارجع معي فإني ندمت على ذلك فرجع معه فلما وصل إلى باب داره قال لهُ الرجل كما قال أولا وهكذا جعل يردده أربع مرات أو خمسا حتى قال لهُ في الآخرة والله يا سيدي ما قصدت إلا اختبارك فلله در خلقك ما أحسنه فقال له الشيخ: لا تمدحني بخلق يوجد مثله في الكلب فإنهُ إذا دعي أقبل وإذا طرد انصرف، وقيل أنه مر يوما في بعض المحال فألقي عليه رماد من بعض البيوت فغضب أصحابه وبسطوا ألسنتهم بالقول فقال لهم: لا تغضبوا فإن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب وروي أنه نزل بعض الفقراء على جعفر بن حنظلة[2] ولم يكن يعرفه وكان جعفر بالغ في خدمته والفقير يقول له في كل ساعة نعم الرجل أنت لو لم تكن يهوديا وجعفر يقول له عقيدتي لا تضرك في ما تحتاج إليه من خدمتي فاسأل الله تعالى لك الشفاء ولي الهداية ولم يعرفه بنفسه، فعليك أيها المريد بترك حظوظ النفس من كل شيء تنازع فيه أبناء الدنيا التي هي أخس من الجيفة قد تسلم لبعض الكلاب ممن فيها بخلاف الدنيا فإنها لا تسلم لأحد عن المنازع فكم من نفوس فنيت في حبها

=

مولاك، تأتك الدنيا راغمةً، والأخرى راغبةً ". (طبقات الأولياء لابن الملقن ص 29).

(1) لم أجده.

(2) جعفر بن حنظلة بن زيد بن شيبان بن ذهل الشيباني الذهلي النسابة متوفى سنة 70 هـ وقيل سنة 65 هـ ذكره ابن حجر في "الإصابة القسم الأول من حرف الدال. وحرر الخلاف في صحبته. وقال ابن سيرين: كان عالماً، لكن اغتلبه النسب. وقال ابن سعد: كان له علم ورواية للنسب. ومن أمثال العرب: فلان أنسب من دغفل. وقال النديم: وقتلت دغفلاً الشراة ولا مصنف له. وعن عبد الله بن بريدة قال: بعث معاوية إلى دغفل فسأله عن العربية، وأنساب الناس والنجوم، فإذا رجل عالم، فقال: يا دغفل من أين حفظت هذا؟ فقال: حفظته بلسان سؤول وقلب عقول، وإنما غائلة العلم النسيان، قال: اذهب إلى يزيد فعلمه. (طبقات النسابين ص 2).

وأديان ذهبت في طلبها فمن أبغضها ترك حظوظه منها سلم من غيلة الحساد والمنازعة التي هي أصل كل بلاء وفتنة، وحكي أن بعض الأمراء أرق ليلة وذهب نومه بغير سبب فما زال يعالجه ولم يأته نوم فقال: ألهي نفسي بشيء لعله يذهب عني ما أنا فيه فجعل يفكر في شر الأشياء فوجد منها أشياء كثيرة ثم قال اعزل شر هذه الأشرار فعزل أشياء أشر من غيرها ولم يزل يعزل الأشر فالأشر إلى أن بقي لهُ ثلاث هي أشر الأشياء كلها فقال انظر في هذه الثلاثة هل يتبين لي أشرها فتساووا في الشر ولم يجد مرجحا لبعضها على بعض وهم جار السوء وزوجة السوء والخلق السوء فلم يزل يفكر في ذلك وينظر في الأدلة لعله يجد شر هذه الثلاثة فغلب على ظنه أن خلق السوء هو شرها ولم يقطع به لتساوي الأدلة فلما أصبح أتوه عقلاء دولته الذين كان يرجع لرأيهم أحدهما الوزير الأكبر والآخر دونه في المرتبة فأخبرهما بقصته وقال لهما انظرا لعلكما تجدان شر هذه الثلاثة فقال أحدهما الزوجة السوء هي شر هذه الثلاثة وقال الآخر جار السوء هو شر هذه الثلاثة وقال الأمير حيث تركتما خلق السوء فأنا أقول هو شر هذه الثلاثة فقالا له لا نرجع إلا لقول من يغلبنا بالحجة فلم يجدوا دليلا فاتفقوا أن يخرجوا بثلاثهم إلى خارج المدينة فمن لقيهم على ميل منها فيتحاكمون عنده وما قال لهم يرجحونه على غيره فتعاقدوا على ذلك وخرجوا بقصده فلمّا جاءوا للموضع الذي عيّنوه لقيهم فيه عبد أسود وله حمار عليه شبكة من الجرر أعني الجرة التي يحلب فيها اللبن من ضروع البقرات فقالوا هذا لا يفهم شيئا فقال الأمير لا بدّ من اختباره فإن لقيكم فلا تسلموا عليه فلما جاوزوه لم يسلم عليهم بل حدر رأسه وانصرف فرجعوا إليه فقالوا له هلا عرفتنا فقال: نعم عرفتكم هذا أمير المؤمنين وهذا وزيره الأكبر وهذا وزيره أيضا لكنه دون صاحبه في المرتبة فقالوا له ولم لم تسلم علينا فقال لهم السّلام أمان والأمان لا يكون إلا من أهل القهر والغلبة وأنا كنت أرجو السّلام منكم فلما لم تسلموا علي كنت خائفا من بأسكم وأيضا يسلم الكثير على القليل والراكب على الراجل والخارج على الداخل وهذه الأوصاف كلها فيكم وما علي منها شيء فقال الأمير هذا حكيم عنده تتحاكموا فقالوا له عندنا سؤال أردنا أن تجيبنا عنه فقال لهم أعطوني رجلا منكم يقبض لي حماري لئلا يفتتن قلبي به وكان الوزير الأكبر سيّئ الخلق فقال له يا ابن السوداء من يقبضه لك يقبضه لك الملك أم الوزير الأكبر أم الوزير الأصغر لقد تعدّيت طورك فنخس حماره وقال: ارًّا يا حمار لا حاجة لي بهؤلاء

فتعرض له الملك وقال له: قف فأنا أكلف واحداً منهما يقبض لك حمارك فنزل أحد الوزيرين عن فرسه وقبض الحمار فجلس الرجل في الأرض وربع وقال اسألوا عمَّا شئتم فأعادوا قصتهم عليه فقال خلق السوء هو شر هذه الثلاثة فقالوا له بأي دليل فقال جار السوء يمكن فراقه إما بالموت أو ببيع الدار وزوجة السوء يمكن فراقها إما بالموت أو بالطلاق وخلق السوء لا حيلة لفراقه فحيث كنت يكون معك فاستحسنوا قوله ورضوا بجواب الرجل فقال له الملك وجب علينا إكرامك فاطلب عما شئت أعطيكه إن شاء الله تعالى فقال الرجل للملك: إذا كنت أطلب منك وأنت تعطي فأنا الأمير وأنت المأمور فقال له وما وجه كرامتك فقال له أريد مسألة تنفعني ولا تضرك فقال له: وما هي؟ فقال له هذا المهرجان بقيت له خمسة أيام وأكابر دولتك يهدون لك فيه أطيب ذخائرهم فناد في البلدان لا تقبل هدية إلا ممن تكون عنده جرة من عملي مطبوعة بطابعي فقال: نعم فأمر الملك من ينادي بذلك في أزقة المدينة فجاء الناس للرجل لدكانه يشترون منه الجرار فقالوا له: بكم تبيعها؟ فقال بدينار ذهب لكل جرة فجعل الناس يشترون منه بذلك فأتى الوزير الأكبر فقال له أعطني جرة فقال له جرتك عندي مرفودة ليست كجرار النَّاس فمكنها له فأعجبته فقال له بكم تبيعها فقال له بدينار ذهب وكذلك اشتروا النَّاس فقال له يا ابن السوداء الجرة تساوي نصف درهم وأنت تبيعها بدينار ذهب فقال له لا تشتري إن لم ترد فمضى الوزير وهو يشتم أشد الشتم وانصرف فلمَّا أصبح اشتكى على الأمير فقال له اعطه ما طلب لا أقبل هدية أحد إلا بجرة ذلك الرجل فأخذ دينارا ذهبا وناوله للرجل وقال أعطني جرتي فقال له بالأمس كانت مقطوعة بذلك وأمَّا اليوم لا أبيعها إلَّا بمائة دينار فتغيظ كثيرا وقال الناس يشترون منك بدينار واحدة وأنت لا تبيعها لي إلا بمائة فقال لا تشتري إن لم ترد ثم انصرف واشتكى على الأمير فقال عاهدناه على ذلك فلا تقبل هديتك إلَّا بتلك الجرة فلما كان الغد أخذ مائة دينار وقصد دكان الرجل فقال له خذ المائة دينار وأعطني الجرة فقال له بالأمس كانت مقطوعة بذلك وأمَّا اليوم فلا أبيعها إلا بألف دينار فشتم وكثر وانصرف فاشتكى على الأمير فقال له ألسنا كنا نعطيه أكثر من ذلك لو رضيه وأنت الآن تشح عليه فلا أقبل منك هدية إلا بتلك الجرة فلمَّا كان الغد أخذ الذهب وخرج فوجد الناس جاءوا بالهدايا وكان ذلك اليوم يوم المهرجان والناس لا يهدون حتى تسبق هدية الوزير الأكبر فجعلوا ينادونه فأتى الرجل وهو في دكانه فقال له خذ الذهب فقال له بالأمس

كانت مقطوعة بذلك فقال له الوزير كف قولك فاطلب ما شئت فقال لا أبيعها لك إلا بألف دينار وتحملني على ظهرك والجرة بيدي حتى تدخلني بساط الملك ونزل عنك إن عييت فاسترح فناوله الذهب وركبه على ظهره والجرة في يد بائعها ومضى به في الأسواق والناس يضحكون عليه إلى أن أدخله بساط الملك فلما وقع بصر الملك عليهما نزل عنه سريعا وبايع الملك وقال: امزرن امزرن كلمة من عجمية الفرس وهي بالعربية صاحب خلق السوء يحمل الحمل الثقيل فكيف تفسر مالك وعندك مثل هذا لأنَّه كان علم سوء خلقه عند لقائهم إياه أول مرة فصرف عليه الملك دار الوزير الأكبر وما فيها وأجنته وجميع أمواله ورد ذلك العبد وزيرا أكبر لحسن عقله ونجابته، قلت وهكذا صاحب خلق السوء محروما من جميع المنافع ومن كذب يجرب والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الباب الحادي عشر في الاستنشاق والاستنثار المعنويين وفيه ثمانية فصول الفصل الأول تستنشق منخريك بجذب الرائحة الطَّيبة بريح الخياشم بمجالسة الأخيار من العلماء وأهل التذكير والتفكر والاعتبار لأن الجليس الصَّالح كالعطار إن لم تصب من عطره فلا تخلوا من رائحته والجليس السوء كالكيار إن لم يصبك بشرر ناره لم تنج من أوساخه وفحمه والله الموفق سبحانه.

الفصل الثَّاني
في الاستنثار

وهو دفع الماء بريح الخياشم والمعنوي هو ترك مجالسة السفهاء والأشرار ومخالطة السَّفلة والفساق والفجار وترك الأنجاس التي يجعلها هذا الزمان من الغبرة التي يتخذونها سفهاء هذا الزمان في مناخرهم ويسفونها بريح خياشمهم ويصلون بها ويصومون وهي لا شك في نجس التبغ المصنوعة لأن التبغ اختلف الفقهاء في تحليلها وتحريمها فانفصل القاضي أبو سالم سيدي إبراهيم الحبلالي[1] عن إمام المفتين من

(1) الفقيه العلامة الصالح البركة سيدي إبراهيم بن عبد الرحمان بن عيسى الجُلالي أصلا الورياجلي دارا ومنشأ الفاسي قرارا ومتبوأ ووفاة، إمام دراك له تآليف وله كلام في النوازل والأقضية والفتاوى، ذكر بعض أحواله في تأليفه المسمى " تنبيه الصغير من الولدان على ما وقع في مسالة الهارب مع الهاربة من الهذيان لمدعي الفتوى آجيليان"، مات رحمه الله عام 1047 هـ (تذكرة المحسنين لعبد الكبير الفاسي 1354/3).

الفقهاء المصريين على تحريمها وذكر سيدي إبراهيم الحبلالي رحمة الله عليه أن تسميتها بطابة حرام يجب التَّوبة منها فورا كسائر المعاصي لأن طابة اسم مدينة سيدنا محمد ﷺ فسموا دخانا أسود نارا باسمها والعياذ بالله تعالى فلما استبشعوا هذا الاسم نسميها نحن طامة باسم جهنم وقد وافق كثير من فقهاء العصر على تحريمها وذكر سيدي عبد الرحمن بن عثمان[1] خطيب مكناسة في حينه قال في عقب هذا السؤال المذكور وقد نقلت حديثا من صحيح أبي داود أنه قال صلى الله عليه وسلّم: "**كل مسكر ومفتر حرام**"[2] وهي مفترة تضوخ الدماغ وتقلب صاحبها فهي حرام على مقتضى هذا الحديث الصَّحيح وعلم أنَّ هذه الأقوال إنما هي في التبغ التي تغرس في بلاد الإسلام ورقه فبعض العلماء حرمها وهم الذين ذكرناهم وبعض الفقهاء قالوا هي ربيع والمشهور تحريمها لإجماع فقهاء المغرب على ذلك ويذمون من يسفها بريح فمه وأما من يشربها فهو كاذب لأنها ليست من المائعات فتشرب وإنما هي تسف فقط وأمَّا طامة التي تجيء من بلاد الروم ويسمونها البرزيل لأن قوما من النَّصارى يقال لهم البرزيل هم الذين استخرجوا فتلها كالحبل فحدثنا من كان يبيع ويشتري فيها أنهم أعني النصارى كانوا يبولون عليها مدة من سنة ثم يفتلونها، قال علمت ذلك من أنه كانت عنده قناطير منها ففسدت له فلمَّا سافر لبعض مدن النَّصارى ذكر لهم ذلك فقال له رجل من النصارى اجعلها في بيت منشرة وأمر أهل دارك وصبيان جيرانك وأضيافك أن يبولوا عليها سنة فإنها تصلح بذلك قال ففعلت ذلك ونسيت التاريخ فطالت لأجل ذلك نحو الثلاث سنين والقوم يبولون عليها في كل يوم وليلة فلما تفقدها قال وجدتها سوداء في أشد ما يكون من السَّواد فلما خرجها للبيع كانوا يزدحمون عليها ويبيعها بأضعاف ما كانت تباع في ذلك الزمان ولم يشتر الناس من غيره حتى نفدت من عنده وقال لبعض السفهاء افعلوا بهذه الورقة التي تغرسونها ما ذكرت لكم فإنكم تجدونها أفضل من البرزيل فهذه الرومية كلها حرام حرام لتنجيسها بالبول فهي خارجة من نجاسة ومع ذلك يسحقونها ويجعلونها غبارا في كواغيد في رؤوسهم وفي بعض ثيابهم ويصلون بها ليجعلونها في مناخرهم فأي صلاة تصح لمن هي معه في ثوبه فيصلي بها

---

(1) لم أقف له على ترجمة.

(2) رواه أحمد (309/6) وأبو داود (354/2) من حديث أم سلمة قالت: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر.

وهو حامل للنَّجاسة ويصوم وهو يتنخم النَّجاسة فلا صلاة ولا صيام لمن هذا دأبه، وأمَّا المنصوص عن الأئمة فقد وقع بيدي سؤال عنها بخط والدي رحمه الله عليه وعليه أجوبة ثلاث نص ذلك: الحمد لله وحده وصلَّى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما سيدي رضي الله عنكم ومتع المسلمين بطول حياتكم هذه طابة التي عمت بليتها الخاص والعام هل هي حلال أو حرام لأن بعض العلماء قال هي ربيع وحكمها حكم اللَّفت فما حكمها وما يجب على من يشربها ويبيع فيها ويشتري وهل تلزم التّوبة منها أم هي كالصَّغائر من الذنوب بين لنا ولكم الأجر من الله تعالى والسَّلام نص الجواب الأول بعد حمد الله تعالى والصلاة على نبينا سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم ما شاع عند أهل العصر من سفهائه وفسقته من شرب الدخان بل استفافه المشموم على أهل الإسلام حرام لا يجوز على ما أفتى به الإمام المحقق الحجة أبو سالم الشيخ إبراهيم اللقاني المصري[1] مفتي العصر بالديار المصرية وكذا التَّسمية بلفظ طابة حرام لأن تلك التّسمية إنما هي باستعمال الفسقة مستفيها لها أو تغالهم في حبها وغبطتهم في شم رائحة نتنها فسمَّوها طابة وطابة اسم مدينة النَّبي على مشرفها أفضل الصلاة والسَّلام فتغالوا والعياذ بالله فزين لهم الشيطان أعمالهم فسمَّوا دخانا منتنا أسود نارا باسمها نسأل الله السلامة وإنما اسمها تبغ أوطبق فلمَّا استبشعوا هذا اللَّفظ غلوا به إلى ما يقولونه هم من أنها طابة هكذا رأيت في بعض المقيدات لبعض المشارقة وأن ذلك كما سموا متعاطين شرب الخمر الخمر بأسماء شريفة عديدة نسأله سبحانه السَّلامة في الدين والدنيا والآخرة ومن يشاهد يا أخي أحوال متعاطيها وعدم صبرهم عليها وتكلفهم لاشترائها بأعلى ثمن يقطع بتحريمها بمجرد العقل لولا أنَّ العقل في الفروع لا يجوز ولكن المنصوص ما سمعتم والسَّلام وبه كتب إبراهيم الحبلالي[2] رحمه الله ونص الثاني فهو مقيد أسفله يليه الحمد لله الجواب أعلاه صحيح ولا مزيد على ما ذكر فيه كفاية لمن أنصف والله أعلم وبه يقول عبيد الله تعالى

---

(1) إبراهيم بن محمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن عطية القاضي برهان الدين أبو إسحاق المغربي الأصل القهوقي - بضم القاف ثم هاء وبعد الواو قاف - اللقاني ثم القاهري الأزهري المالكي. ولد في أوائل سنة 817 بالقهوقية من أعمال لقانة ونشأ، إمام عالم فقيه مؤرخ متكلم مات رحمه الله عام 873 هـ.

(2) لم أجد له ترجمة.

أحمد بن محمَّد بن جلالة[1] وفَّقه الله تعالى بمنه وكرمه ونص الثالث وهو عرضهما الحمد لله وأدل دليل على تحريمها قول النبي صلى الله عليه وسلم تسليما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر وكل مفتر وهي مفترة من أبي داود وكتب عبيد الله تعالى عبد الرحمان بن محمد بن عثمان خطيب مكناسة[2] وفَّقه الله تعالى بمنه قلتُ وقد كان مما تقدَّم في الزمان قبلنا يقع في معصية الله تعالى بجميع الجوارح وكانت أنوفهم سالمة من معصية الله تعالى فاحتال عليهم الشيطان فأوقعهم في المعصية بالمناخر نسأل الله السَّلامة فلذلك ذكرنا حكمها في الاستنثار المعنوي ليقع التحرز منها لمن يقف على هذا الكتاب والله الموفق للصَّواب سبحانه.

الفصل الثالث
في المرّة الثَّانية من الاستنشاق المعنوي

وذلك بحضور مجالس الوعظ والأذكار والصلاة والسَّلام على سيدنا محمَّد النَّبي المختار وبقراءة القرآن والاستماع له آناء الليل وأطراف النَّهار اعلم أنَّ المواعظ تحرك قلوب الغافلين بالبيان وتوقظ النائم الوسنان وتلهم القلوب لذكر الرحمان ومن جملة الأذكار قراءة القرآن والاستماع له في كل وقت مع الإمكان وبتدبر آياته تنتج النتائج الحسان ومن أفضل الذكر الصلاة والسَّلام على خاتم النَّبيين سيدنا محمَّد نخبة بني عدنان واشترط في ذلك كله كون ذلك مع مداومة الإنصات للمواعظ التي تكسر قلوب أهل الإيمان فإن تحرك قلبك من خشية الله تعالى فتعلم أنَّ هذه علامات أهل الرضى والرضوان وإن كرهت ذلك كله فكن على يقين بأن الله ساخط عليك غضبان فإن ذكرت نفسك بهذا ولم تقبل فلا شك أنَّك من أهل الوبال والخسران وأمَّا الصَّلاة والسلام على سيدنا محمّد فهي مقبولة غير مردودة وهي ضامنة للنَّجاة وبالرضى والرضوان من الله مصحوبة فلها أنوار مركبة عظيمة بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب/ 56] وقوله عليه الصلاة والسلام: «في بعض الروايات من صلَّى علي مرَّة صلَّى الله وملائكته عليه بها عشر صلوات ومن صلى علي عشرا صلى الله وملائكته عليه بها مائة

(1) لم أجد له ترجمة.

(2) لم أجد له ترجمة.

مرة ومن صلى علي مائة مرة صلّى الله وملائكته عليه بها ألف مرَّة» إلى غير ذلك من الأحاديث فذلك يوجب للمصلي على نبينا ﷺ أنوار مركبة لا يعلم قدرها إلَّا الله سبحانه فمن ذلك نور رضاء الله عند المصلي على نبيه وأكرم الخلق عليه صلَّى الله عليه وسلَّم ونور صلوات الملائكة على المصلي عليه صلى الله عليه وسلم ونور استغفارهم له ونور ورضاهم عنه لرضاء الله عنه ونور رضاء كافة المؤمنين لرضائهم على من يصلي على نبيهم ونور محبتهم له ونور محبة الجنان له ونور تزيينها للمصلي على سيدنا محمد ﷺ ونور فرح أزواجه من الحور العين به حين صلى على سيدنا محمَّد ﷺ ونور محبّتهن له ونور أشواقهن لهُ ونور عشقهنَّ له ونور تزينهن وطيبهن له ونور مدائنه في الجنة وقصوره وحجراته وبيوته وخيماته وأطعمته ونور أشجاره وخيوله وأسرته ونمارقه وصحافه وموائده وكؤوس شرابه وماله من النعم ما لا يحصى ولا يعلم قدره إلا الله ونور درجاته وغفران سيئاته ونور جميع كسبه في الجنَّة ونور رؤيته للجليل الجميل في حضرة القدس وكل هذه الأنوار ترد على المصلي على سيدنا محمَّد في القبر وحين البعث والحشر وعند حوض نبينا محمَّد ﷺ وعند أخذ الصحف بالميامين والمياسر ووزن الأعمال وعند العرض على الرحمان وعند الورود على جهنَّم وعند الجواز على الصراط لأن من كان يوم القيامة كثير الأنوار لم يكن من أهل النار وأمَّا فضائل الصَّلاة والسَّلام عليه صلى الله عليه وسلم فلا تحصيها الأسفار ولا الدفاتير الكبار وهي معلومة واضحة كالشمس في وسط النَّهار ويعلم ذلك ويتحققه الرجال والنساء والصغار والكبار فسكت عن ذكرها تأدبا معها لأنني لو كانت أعضائي كلها أقلاما وملؤ البر والبحر مرادا والملائكة والإنس والجن كتابا ما نفد فضله عليه السَّلام ولا فضل الصَّلاة عليه فلذلك سكت عن ذلك احتقارا لنفسي وزجرا لها لقصور معرفتها عن بعض ما خصَّه الله تعالى به من المناقب والأمر الواجب فأذكر نفسي وأهلي وجميع أحبَّائي وإخواني في الإيمان أن يلتزموا تعظيم قدر هذا النَّبي الكريم وأن لا يذكر اسمه قط إلا بعد ذكر سيادته مهما ذكر إلا في الأذان والإقامة خاصة وبذلك أوصانا شيخنا رضي الله عنه أنه طول حياته يذكر عقب الصلوات لا إله إلا الله سيدنا محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وعلى آله ويغتاظ على من يسقط السيادة ممن

هو داخل في زمام صحبته ومحبته وكيف لا ومولانا محمَّد ﷺ يقول: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[1] وقال أيضا عليه السَّلام: «**أنا المختار من المختارين**» وأيضا فإنَّ الله تعالى عظمه واحترمه ولا يناديه باسمه في القرآن قط بل يقول: يا أيها النبي يا أيها الرسول وغيره من الأنبياء كان الله تعالى يناديهم بأسمائهم يا موسى يا عيسى إلى غير ذلك فهذا النَّبي الكريم فخم الله قدره وعظمهُ حيث لم يناده باسمه فكيف لا يعظمه من يدعي محبته ويؤمن بما ذكرناه من تعظيم الله سبحانه له قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح/8 – 9] الآية فكيف لا نوقره ولا نعظمه ذكر سيادته قبل اسمه والله أمرنا بتعزيره وتوقيره ونهانا بقوله: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ ﴾ [النور/63] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الحجرات/2] فانظر لا يحبط الأعمال إلا شيئين الشرك بالله فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء/48] الآية وأمَّا عدم توقيره عليه الصَّلاة والسَّلام فالآية التي تقدمت ونكرر ذكرها هنا ليعلمها من لا علم له بها وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحجرات/1] أي اتقوا الله أن تقدموا بين يدي الله ورسوله وأوعظنا سبحانه وخوفنا بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات/1] بمن يعظم قدر سيدنا محمد وبمن أعرض عن تعظيمه وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات/2] لأن من أغلظ القول لديه صلى الله عليه وسلم فذلك لعدم توقيره له وكذلك من ذكر اسمه بغير السيادة فقد احتقره ومن احتقره في حياته وبعد موته ففيه نزلت هذه الآية ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات/2] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا

---

(1) رواه بهذا اللفظ: الترمذي (508/5) وابن ماجه (1440/2) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

لَهُمْ ﴾ [الحجرات/4 - 5] لأن الأعراب كانوا يردون المدينة المشرفة في حياته عليه السَّلام وينادونه من الأزقة يا محمَّد اخرج إلينا فنزلت الآية بزجرهم وزجر أمثالهم في كل زمان إلى آخر الدَّهر وقال تعالى قبل هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات/3] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح/10] اعلم يا أخي أننا عاهدنا الله على قول لا إله إلا الله سيدنا محمَّد رسول الله ﷺ وكل مؤمن عاهد الله على ذلك وأنَّ السيادة لسيدنا محمَّد ﷺ عاهد الله عليها كل مؤمن بأمر الله لنا بتعزيزه وتوقيره فلا ينكر هذا أحد من المؤمنين وعاهدنا سيدنا محمَّد ﷺ على سيادته لنا حين قال أنا سيد ولد آدم ولا فخر أي لا أفتخر بالسيادة من التَّوقير والتَّعظيم وتعظيم القدر ما لا يدخل تحت حصر فكيف يفتخر بسيادته الخلق وما قدرهم وما حجتهم فأين تعظيمهم له من تعظيم الله له فلا يفتخر بتعظيم الخلق لأنهم كالهباء في الهواء وإنما التَّوقير والتَّعظيم هو توقير الله له وتعظيمه إياه فبذلك يفتخر ويتعزز ويتعظم ولكن سيادتنا لنبينا وتعظيمنا وتوقيرنا وتعزيزنا له نحن نفتخر به ونفرح له رعاية لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح/10] ويحق لمن لم يرض بسيادة سيدنا محمَّد ﷺ ولم يذكر السيادة عند ذكر اسمه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يندب على نفسه ويبكي الدماء لئلا يبكيها في الآخرة أما من تاب تاب الله عليه فإن قلت لماذا يبكي ويندب من ترك لفظ السيادة عند ذكر اسمه عليه السَّلام جوابه حيث سجل الله تعالى الحكم عليه بقوله فمن نكث على نفسه بعد العهد السَّابق فيؤمن برسول الله ﷺ ولم يرض بسيادته فأي نكث أعظم من هذا نسأل الله السلامة فقد بينا هذا الأمر بحمد الله سبحانه والأمر في هذا الشأن كثير لكن العاقل يكفيه أقل من هذا والأحمق لا يبالي بشيء حتى يقع في ما لا نجاة له منها ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

الفصل الرَّابع

في الاستنثار المعنوي وهو بترك اللهو كله واجتناب الأحداث

اعلم يا أخي أنه لما كان من معنى الاستنثار الطَّرح والترك والنّبذ بما في المنخرين

لأجل ذلك عبرنا هنا بترك كل ما يلهي عن الحق ومن أعظم اللهو مخالطة الأحداث لأنَّ النساء والمراهقين أحداث السن من أعظم شباك الشَّيطان ومن أعظم فتنه وحيله وكل من لم يوافقك على طاعة الله وسنَّة نبيه صلى الله عليه وسلّم أو يلهيك عنهما فهو حدث ولو كان ابن سبعين سنة فيجب تركه قال ابن عطاء الله رحمة الله عليه: لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله واعلم أنَّ اللهو أيضا هو متاع الحياة الدنيا لقوله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ۝٢٠ ﴾ [الحديد/20] ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد/21] وروي أنَّ بعض التَّابعين رضي الله عنهم عمي عليهم معنى قوله تعالى: ﴿ مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد/20] فطافوا في منازل العرب لعلهم يجدون من يفسر لهم ذلك لأنَّ القرآن نزل على ألسنة العرب فمازالوا يبحثون عن ذلك إلى أن بلغوا حيا من أحياء العرب فوجدوا صبيانا يلعبون وبأيديهم حجارة يهدون بها على شيء وهم يقولون لا وزر لا وزر فقالوا هذه واحدة من مسائلنا فلما وصلوا إليهم وجدوا بين أيديهم حفرة وفيها عقرب تريد الخروج من الحفرة وكل من أرادت الخروج لناحيته يهد عليها بالحجر ويردها للحفرة وهو يقول لا وزر لا وزر فتركوهم وانصرفوا فلما وصلوا لبعض منازل العرب إذا بامرأة تقول لجارتها يا فلانة هات المدار فقال لها: آتي إليه فقالت: خفت من الغرور فقالت هو في المتاع فقالوا هذه جميع مسائلنا فإذا بها قد أخرجت الغربال الذي يقال له بلغتنا الآن، فسألوها عن ذلك فقالت الغرور هو الكلب والمتاع هي الجيفة فاعلموا يا إخواني أي عقل ودين يبقى لمن تلهيه جيفة الكلاب والله تعالى سمَّاها لعبا ولهوا والقول الجامع في اللهو هو كل ما تقول أو تفعل أو تبصر أو تسمع أو ما تلبس أو ما تأكل أو ما تشرب أو ما تجمع من مال أو سبب جمعه كالحراثة والتجارة والحياكة والخياطة والكتابة وجماع الزوجة أو الأمة وغير ذلك من بنيان مسكن أو مسجد وغيره فكل ما يلهي عن الواجب في وقته ومحله فهو لهو وكل ما يلهي عن المندوب وهو غير مندوب لهو وإن كان مندوب مطلق وحضر المندوب

المقيد فالمندوب المطلق لهو لأن المقيد يفوت بفوات وقته والمطلق لا يفوت فأحرى إذا كان محرما يلهي عن الواجب فهو معصية أعظم من اللهو فأحرى إذا كانت المعصية تلهي عن الطَّاعة والعبادة أسأل الله السَّلامة والحفظ من جميع ذلك بمنه ولا أسأل العصمة تأدبا مع الله وأوليائه إذ العصمة من خصائص الأنبياء والحفظ من المعصية يعم الأولياء المخصوصين والعامة التَّائبين فكل ما ذكرنا قبل الدعاء فهو لهو ولعبٌ وإذا وضعته حيث أمرك الله وأباحه إليك من حراثة وغيرها من الحرف ولا تلهيك عن الواجب والمندوب فهو مغفرة ورضوان وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم قال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور/37] وذكر الله هو ذكره في أوامره ونواهيه ولا تؤخر عملا عن وقته المخصوص به فقد روي أنَّ بعض الحدَّادين كان استخرج الحديدة محمية ورفع المطرقة ليضرب بها الحديد فسمع الأذان فرمى المطرقة خلف ظهره وامتثل أمر ربه فهذا من الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله لأنه لو ضرب بها الحديد وحطها بعد ذلك لا بأس به إذ لا مهلة في ذلك لكن رأى أن ذلك عمل نشأ حين أمر بالواجب فلذلك تركه رضي الله عنه، وجاهدوا إخواني في نفوسكم أن تماثلوا هذا الحداد وتقربوا من فعله فالله يهدينا وإياكم بمنه وجوده آمين.

الفصل الخامس
في الاستنشاق المعنوي في المرَّة الثالثة وهو بالذكر

اعلم يا أخي أن للذكر رائحة ذكية تكون لبعض الذاكرين حسية ولأجل هذه المناسبة ختمنا الاستنشاق المعنوي بالذكر واعلم أنَّ الذكر هو العمدة في هذا الطريق فلا يضل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام ذكره قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب/35] والذكر مأمور به فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الأحزاب/41 - 42] وقال عليه السلام: «**قال الله تعالى ابن آدم إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني**»[1] قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (200/7).

وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة/152]، وقال عليه السلام: «**خير الأعمال ذكر الله تعالى**»[1] وقال عليه السّلام: «**لكل شيء صقال وصقال القلوب ذكر الله تعالى**»[2]، وقال عليه السَّلام: «**إذا رأيتم رياض الجنَّة فارتعوا فيها**» قيل: يا رسول الله وما رياض الجنَّة؟ فقال: «**مجالس الذكر**»[3]، وقال عليه السَّلام: «**من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه**»[4]، وقال أبو علي الدقاق: الذكر منشور الولاية فمن أوتي الذكر فقد أعطى المنشور ومن سلب الذكر فقد عزل، وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: عقوبة العارف انقاطعه عن الذكر وقيل الذكر أفضل من الفكر لأنَّ الله تعالى يوصف به ولا يوصف بالفكر.

ومن خصائص الذكر أنَّ الله تعالى جعل في مقابلة الذكر ذكره تعالى للذاكرين، فقال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة/152]، وهذا من خصائص هذه الأمة لم يعطه الله لأمة قبلها كذا قاله رسول الله ﷺ حكاية عن جبريل عن الله تعالى وقال عليه السَّلام: في قوله تعالى ولذكر الله أكبر معناه ذكره الذي وعدكم به في قوله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة/152] أكبر من ذكركم له ومن خصائص الذكر أيضا أنه غير موقت بل العبد مأمور به في كل وقت باللسان وبالقلب إمَّا فرضا أو ندبا قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران/191] قال الإمام القشيري قال السقطي: مكتوب في بعض الكتب المنزلة إذا كان الغالب على عبدي ذكري عشقني وعشقته وأوحى الله تعالى إلى داود فيّ فافرح وبذكري فتنعَّم وفي الإنجيل اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب واعلم أن الذكر على ثلاثة أنواع ذكر اللسان وذكر القلب وذكر بالروح وبالأول يتوصل إلى الثاني وبالثاني يتوصل إلى الثالث الذي هو الغاية القصوى وقيل هو ثلاثة أنواع باللسان مع غفلة القلب ويسمَّى ذكر العامة وهو ذكر العوام وثمرته العقاب لأنه ذنب وذكر باللسان مع خضوع القلب ويسمَّى ذكر

---

(1) رواه: أحمد في مسنده (447/6)، والترمذي في سننه (459/5)، وابن ماجه في سننه (1245/2) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(2) رواه البيهقي في "شعب الإيمان"(396/1) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(3) رواه أحمد (150/3)، والترمذي (532/5) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(4) رواه الحاكم في مستدركه (671/1) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

العبادة وهو ذكر الخواص وثمرته الثواب وذكر بجميع الجوارح والأعضاء ويسمّى ذكر المعرفة والمحبّة وهو ذكر خواص الخواص وثمرته لا يمكن التعبير عنها ولا يعلم قدر ذلك إلّا الله تعالى وقيل حقيقة الذكر أن تذكر الله تعالى وأنت ناس لكل شيء سواه ولهذا قال ذو النون: من ذكر الله تعالى على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ الله تعالى عليه كل شيء وَأفضل الذكر لا إله إلا الله والذكر الخفي أفضل لقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف/205] الآية وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف/55] وقوله عليه السَّلام: «**خير الذكر الخفي**»[1] والمعنى فيه أنه أخلص إلى الله وأبعد عن الرياء وأكثر فائدة وثمرة بالتجربة وعن حماد المكي[2] رضي الله عنه أنه قال: ذكر القلب يضاعف سبعين ضعفا على اللسان وقيل ذكر الله بالقلب سيف الخواص والذكر باللسان سيف العوام وَقال محمّد الكتاني[3]: لولا أن ذكره لما ذكرته إجلالا له كيف يذكره مثلي ولا يغسل فمه قبل ذكره بألف توبة مقبولة وقيل لراهب أنت صائم فقال: نعم أنا صائم بذكر الله فإذا ذكرت غيره أفطرت وقال الحريري وكان بين أصحابنا رجل يكثر قوله الله الله فوقع عليه في بعض الأيام جذع فشق رأسه فجرى منه الدَّم فكتب على الأرض الله الله وكان الشّبلي ينشد هذه الأبيات:

ذكرتك لا أني نسيتك لمحة ... وأيسر ما في الذِّكر ذكر لسان

فلمّا رآني الوجد أنك خاطري ... شهدتك موجودا في كل مكان

فخاطبت موجودا بغير تكلم ... ولاحظت معلوما بغير عيان

والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

---

(1) رواه أحمد (172/1) وصححه ابن حبان في صحيحه (91/3).

(2) لم أجده.

(3) أبو بكر بن محمد بن علي بن جعفر الكتاني أصله من بغداد، وصحب الجنيد، والنوري، وأبا سعيد الخراز، وأقام بمكة، وجاور بها إلى أن مات سنة 322 هـ، وكان أحد الأئمة المشار إليهم في علم الطريق، وكان المرتعش رضي الله عنه يقول: الكتاني سراج الحرم. (الطبقات الكبرى ص 109).

الفصل السَّادس
في الاستنثار المعنوي في المرَّة الثالثة

وهو بالفقر ولـمَّا كان الفقر في العرف والشرع يدل على قلَّة ذات اليد ختمنا به الاستنثار المعنوي.

اعلم يا أخي أن المطلوب من الاستنثار هو إخراج ما في المنخرين من الرطوبة والفقر هو إخراج الدنيا من اليد كانت المناسبة بينهما بهذا المعنى والفقيرُ عند بعض أئمة اللغة من له شيء والمسكين من لا شيء له وعليه مشى صاحب المختصر من أئمة الفقهاء وعند بعضهم بالعكس وهو ظاهر لفظ القرآن بدليل قوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف/79] والسَّفينة لها ثمن كبير فقد أثبت السَّفينة للمساكين فعلى هذا الفقير هو الذي لا شيء له وأما في اصطلاح الحقيقة الفقير هو الذي لا يجد شيئا سوى الله تعالى قال الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر/15] وقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة/273] الآية وقال عليه السَّلام: «**يدخل الفقراء الجنَّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام**»[1] وقال عليه السَّلام: «**ليس المسكين الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان بل هو الذي يجد ما يغنيه ويستحي من الله أن يسأل النَّاس ولا يفطن له فيتصدق عليه**»[2] قيل معناه يستحي أن يكون كونه طالبا من غير مولاه وقال عليه السَّلام: «**مفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم جلساء الله يوم القيامة**»[3] وكان عليه السَّلام يقول: «**اللهمّ توفني إليك فقيرا، ولا تتوفني إليك غنيا، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة**»[4] والفقر شعار الأولياء وحلية الأصفياء

---

(1) رواه أحمد (451/2) والترمذي (578/4) وابن ماجه (1380/2) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه البخاري (538/2) ومسلم (719/2) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (92/4): "رواه الدارقطني في غرائب مالك وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر ".

(4) رواه الترمذي (577/4) من حديث أنس رضي الله عنه، ورواه ابن ماجه (1381/2) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

واختار الله سبحانه الفقر لخواصّه من الأنبياء والفقراء صفوة الله تعالى من عباده وموضع سره.

والفقر على ثلاثة أقسام أولها فقر الخلق إلى الحق كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر/15] وهو فقر عام بالحقيقة وهو شامل لكل مخلوق والثاني فقر العوام وهو عدم المال وإعراض الدنيا وهذا الفقر يستغنى بوجود المال والثالث فقر النَّفس وهذا الفقر لا يغنيه شيء وهو الفقر الذي تعوذ منه رسول الله ﷺ وأشار إليه بقوله: «**لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى ثالثا**»[1] والغنى أيضا على ثلاثة أقسام أولها الغنى بالله عن كل ما في الدنيا والآخرة وهو نتيجة فقر الخواص والثَّاني غنى النَّفس بالدين لا بالدنيا بل يتساوى عنده وجود الدنيا وعدمها ولذلك تقول العامة لا مزلوط إلا المزلوط من دينه فالذي هو غني بالدين لا بالدنيا فيكون في غناه مفتقر إلى ربه وفي فقره مستغنيا بربه والثَّالث الغنى بالمال وهو غنى التجار إلا أن فقر النَّفس يلازمه ولهذا قال عليه السَّلام: «**الغنى غنى النَّفس**»[2] فإذا أراد الله بعبده خيرا جعل غناه في قلبه وإذا أراد اله بعبده شرا جعل فقره بين عينيه وقال عليه السَّلام: «**إياكم ومخالطة الموتى**» فقيل: ومن الموتى يا رسول الله؟ قال: «**الأغنياء**».

واعلم أنَّ الإنسان متى كان صابرا على الفقر شاكرا لله على اختياره له صائنا لدينه وكان مستغنيا بربه في فقره لا يغنيه شيء غيره خائفا على زوال نعمة الفقر كما يخاف الغني على زوال نعمة الغنى فذلك هو الفقير الصَّادق وهو المراد بقوله عليه السَّلام: «**يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام**»[3]، وهو الفقر الذي افتخر به عليه السَّلام وحكي أن رجلا أتى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فردها فقال تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء بهذا المقدار وقال بعضهم: كان بمكة فقير عليه ثياب رثة لا يخالط الفقراء ولا يجالسهم وعليه سيم أهل المعرفة فوقعت محبته في قلبي فحملت إليه مائة درهم وقلت هذا من وجه حل فاصرفها في بعض أمورك فنظر إلي ثم قال: إني اشتريت هذه الجلسة مع الله على الفراغ بتسعين ألف دينار غير الضياع

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه البخاري (2368/5) ومسلم (726/2) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) سبق تخريجه.

والمماليك فكيف أبيعها بمائة درهم وقيل: لو لم يكن للفقير فضيلة إلا إرادته سعة حال المسلمين ورخص أسعارهم لكفاه ذلك لأنه يحتاج إلى الشراء والغني يحتاج إلى البيع وهذا لعوام الفقراء فكيف لخواصهم ورأى بعضهم فقيرا عليه مسح خلق فقال له على وجه التَّهكم بكم اشتريت هذا الثَّوب فقال: اشتريته بالدنيا فطلب مني بالآخرة فلم أبعه وكان بعضهم يقول وكان أبو بكر الوراق[1] يقول: طوبى للفقراء لا حرج عليهم في الدنيا ولا حساب في الآخرة وقيل لبعضهم أيهما أفضل الافتقار إلى الله أو الاستغناء به فقال لا أحدهما إلا بالآخر وقيل وصف الفقير ثلاثة أشياء حفظ سره وأداء فريضته وصيانة فقره وقال الشبلي: لو كان للفقير الدنيا بأسرها فأنفقها في يوم ثم خطر له كونه لم يمسك منها قوت يومه كان كاذبا في فقره وقال الأستاذ أبو علي الدقاق: تكلم النَّاس في الفقر والغنى أيهما أفضل وعندي لا أفضل أن يرزق الرجل كفايته ثم تصان فيه وقال بعضهم: سألت ابن الجلا عن الفقر فذهب ولم يجبني ثم رجع بعد ساعة وأجابني فسألته لم ذهبت ولم تجاوب ثم جاوبت فقال: كان عندي أربعة دوانيق فاستحييت من الله أن أتكلم في الفقر ومعي شيء فذهبت فأنفقت الدوانيق ثم عدت، وقال بعضهم: إظهار الغنى أحسن من إظهار الفقر، وروي أن فقيرا جاء إلى ابن عبَّاد[2] رحمة الله عليه وعلى الفقير عباءة رثة وكان ابن عباد يلبس الثياب الفاخرة فقبضه الفقير بتلابيبه وقال: أفسدت علينا طريقنا لأن هذه الطَّريق مبنية على الفقر وأنت بنيتها على الرفاهية فقال له ابن عباد: الفقر أساس هذه الطريقة ولا يقوم ما يبنى على غير أساس صحيح فقال له الفقير: كيف ذلك فقد حيرتني فقال له ابن عباد: إنَّ ثيابي تقول بلسان حالها هذا غني لا تعطوه شيئا وثيابك تقول بلسان حالها هذا فقير محتاج فأعطوه

---

(1) أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق أصله من ترمذ وأقام ببلخ لقي أحمد بن حضرويه وصحب محمد بن سعد الزاهد ومحمد بن عمر البلخي له التصانيف المشهورة في أنواع الرياضات والآداب والمعاملات. ومن كلامه رضي الله عنه لو قيل للطمع من أبوك لقال الشك في المقدور، ولو قيل له ما حرفتك لقال اكتساب الذل، ولو قيل له ما غايتك لقال الحرمان. (الطبقات الكبرى ص 90).

(2) الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي اسحق بن إبراهيم ابن أبي بكر بن عبد الله بن إبراهيم بن عباد النفزي الرندي المغربي نشأ ببلده رندة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة. وحفظ القرآن ابن سبع سنين. طلب العلوم بعده نحوا وأدبا وأصولا وفروعا حتى حصلها ورأس فيها. ثم أخذ في التصوف وبحث عن الإسرار الإلهية حتى أشير عليه. (معجم المطبوعات 157/1).

وارحموه فانصرف وهو يقول هكذا يكون الفقرُ أو يترك، وقيل الفقير أن تسبق همته خطوته لا خطوته همته وقيل من أراد الفقر لشرف الفقر مات فقيرا ومن أراده كي لا يشغله الغنى عن الله مات غنيا وقال بعضهم كانت الطرق على الله أكثر من نجوم السَّماء فما بقي منها إلا طريق واحد وهو الفقر وهو أصحها وقال الجنيد إذا لقيت الفقير فالقه بالرفق ولا تلقه بالعلم فإن الرفق يؤنسهُ والعلم يوحشه فقيل له لم يا أبا القاسم وهل يكون فقير يوحشه العلم فقال: نعم إذا كان فقيرا صادقا في فقره فطرحت عليه العلم أذبته كما يذوب الرصاص في النار وقال بعضهم الفقير هو الذي لا يكون له إلى الله حاجة قال الإمام القشيري وهذا اللفظ فيه غموض على من يسعه وهو غافل عن مرمى القوم وذلك لأنَّ القائل أشار بذلك إلى سقوط الحظ قُلْتُ ولا يصح هذا المقام إلا لمن تحقق في السَّوابق فَروي أن نبيا من أنبياء بني إسرائيل ذكر له رجل مؤمن من قومه أنه متوكل على الله قد حاز الفقر بحذافيره فقال له: ما حقيقة فقرك فقال له أيست من جميع المخلوقين فلا ينفعني بشيء لم يسبق لي في علم والله ولا يضرني بشيء لم يسبق في علم الله فأوحى الله إلى ذلك النَّبي أن قل لفلان لا تبلغ حقيقة التوكل حتى تيئس مني أن لا ننفعك إلا بما سبق لك في علمي ولا نضرك بشيء إلا بما سبق لك في علمي وهذه الحكاية تؤيد ما قبلها والله أعلم. قلتُ أيضا وذلك ينتج ثمرة التدبير والاختيار والرضى بمجاري الأقدار وقال بعضهم: وصف الفقير السكون عند العوام والإيثار عند الوجود وقيل مكث أبو جعفر الحداد[1] عشرين سنة يعمل كل يوم بدينار وينفقه على الفقراء ويصوم ويخرج بين العشاءين فيطلب من الأبواب، واعلم أن الفقر أشرف من المحبة لأنه يلازمه الانكسار وهي يلازمها النَّشاط وهذا هو الفرق بينهما مع أن كل فقير محب وكل محب فقير وهما أشرف من التَّوحيد لأن الموحد له إحساس بتوحيده وهما لا إحساس لهما بتوحدهما والله الموفق سبحانه.

الفصل السَّابع

في الأصبع الواحد من الأصبعين الذين يستنثر بهما في الوضوء الحسي وهما السبابة والإبهام

هذا فصل السبابة ما أعطيناه المراقبة.

(1) لم أجده.

اعلم يا أخي أنه لما كان التنفس الذي هو علامة الحياة إنما أخرجه غالبا من المنخرين، لأن بسدهما يضيق نفس كل حيوان فلأجل هذه المناسبة أتينا بالمراقبة والمحاسبة، لأنهما من أعظم الزواجر للنَّفس الأمارة، وهذا فصل المراقبة بمعنى المحارسة والمحافظة، والرقيب اسم من أسماء الله تعالى، لأن الرقيب هو الذي لا يجوز على علمه ذهول ولا غفلة في معلوم، وهذا الوصف لا يكون إلا من أوصاف القديم على الإطلاق الباقي على الإطلاق، وهو الله سبحانه، وإن أطلق على غيره سبحانه فهو على سبيل المجاز خاصة، والله تعالى حقيقة، والمراقبة هنا المحافظةُ على أفعال النَّفس ووساويس الشيطان لعنه الله تعالى، قال البوصيري رحمه الله تعالى:

وخالف النَّفس والشيطان واعصهما   وإن هما محضاك النصح فاتَّهم

لأنه ما خان أمين، وإذا ائتمن الخائن خان، فالنَّفس والشيطان معلومان بالخيانة، وهما ملازمان لبدن كل إنسان، فلا نجاة منهما إلا بالمحاربة والمحافظة الشديدة، ولا يغفل المؤمن الحرس أبدا ما دام به رمق في دار الدنيا، وقتالهما لا يكون إلا بالمخالفة في كل ما يبدو منهما من الوساويس والخواطير والأوهام، ولو رأيته صلاحا، فتحمل إشارتهما على الغش لأنهما متهمان، مثال ذلك: من ابتلي بجارية مبذرة مفسدة وملكها القيام بخدمة بيته فإن أهملها ولم يفتقد أفعالها أفسدت بيته وورثته للعدم وإن كان حازما متيقظا متنبها بجميع أفعالها ولا يتركها تفعل شيئا إلا بحضرته ومشاهدته ومع ذلك يكلفها بما يليق به من الأفعال لأنها تنقاد له في الفعل والتّرك ومهما يراها شرعت في علمه به فإنه ينبغي له ردها وزجرها عنه وإن رأى فيه صلاحا ففعلها محمول على الفساد فإن دوام هذه المحاربة مع النَّفس والشيطان فأرجو له النجاة إن شاء الله وَالله الموفق.

الفصل الثَّامن
في الأصبع الثَّاني وهو الإبهام المعنوي

وهو بالمحاسبة وبتمامه يتم الاستنشاق والاستنثار المعنويان.

اعلم يا أخي أنَّ محاسبة النَّفس لا تكون إلا بعد العمل قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر/ 18]، وفي هذه الآية إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ولذلك قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وروي أن رسول الله ﷺ جاءه رجل فقال: يا رسول أوصني قال «**مستوص أنت**» قال عليه السَّلام «**إذا هممت بأمر فتأمل عاقبته فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانته عنه**» [1].

واعلم أن الإنسان المؤمن كما يكون له وقت أول النهار يشارط فيه على نفسه أعمال ذلك اليوم وعلى سبيل التَّوصية بالحق فكذلك ينبغي أن يكون في آخر النَّهار ساعة يطالب فيه النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها وأفعالها وأقوالها كمحاسبة التجار عمالهم وشركاءهم عند الفراغ من أعمال الدنيا وكذلك كن أنت مع نفسك في أول النَّهار تحسب رأس المال تتفقد الربح والخسران فإن سلم لك رأس المال وهو فعل الواجبات فانظر الفضل فهو النوافل والمستحبات فإن حصل ذلك لك مع السَّلامة من الوقوع في المحرمات والمكروهات فاحمد الله واشكره على ما من به عليك من الأعمال الصَّالحات وعلى ما أسعدك به من النجاة من الأوزار والسَّيئات وإن وجدت نقصانا من رأس المال وهو فعل الواجبات فبادر لتداركه من غير مهلة واجبر مفسداتها من غير تراخ ولا عطلة وإن وجدت فعل شيء من المحرمات أو المنهيات فبادر للتَّوبة والاستغفار في سائر الأوقات ولا تمهل التوبة وإصلاح المفسدات فرد المظالم إلى أهلها وتحلل أربابها واشفق من نفسك في جميع الحالات وداوم على هذه المحاسبة والأفعال الصَّالحات مادمت في الحياة ولا تمهل محاربة النفس والشيطان إلى أن يحل بك الممات وإن كنت من الرجال فينبغي لك أن تحاسب نفسك على جميع ما تعقل من أيام العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ثمَّ بعد ذلك لا تخلو من مقاربة المعاصي أنست به النَّفس وعسر فطامها عنها فذكرها أنَّ ذلك سبب هلاكها فإن انزجرت ورجعت عن غيها فجاهد في إصلاح ما فسد بالتوبة والاستغفار ورد المظالم من مال وعرض وغيره وإلا فعاقبها فتعاقب النظر بالمنع أي فلا تنظر في ما لا يحل لك وكذلك ينبغي أن تعاقب كل عضو بعكس شهوته ومراده وَروى منصور بن إبراهيم [2] حدثه رجل من العباد أنه كلم امرأة فلم يزل حتى

(1) رواه ابن المبارك في كتاب الزهد (14/1) من حديث أبي جعفر الهاشمي معضلا.
وأبو جعفر قال إسحاق بن راهويه فيه: وكان معروفا عند أهل العلم بوضع الحديث وروايته إنما هي عن التابعين ولم يلق أحدا من الصحابة. انظر لسان الميزان (360/3).

(2) منصور بن إبراهيم بن سلامة محب الدين الدمشقي، الشيخ المسند نور الدين أبو السرور. ولد =

وضع يده على فخذها فأدركه الحياء من الله تعالى فوضع يده في النار حتى يبست وقال لها هذه عقوبتك وهكذا نفعل لكل عضو منك يا جسدي فطولوا أو قصروا واعلموا أن لله عبادا أنعم الله عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت عقولهم معادين الصفا وجوارحهم بيوت الوفا واطمأنت نفوسهم بذكر من يعلم السر وأخفى والله الموفق سبحانه.

الباب الثاني عشر
في غسل الوجه بالغسل المعنوي في المرة الأولى

اعلم أن هذا الباب يحتوي على خمسة فصول: الفصل الأول: في الغسلة الأولى، وذلك بأن تنوي غسله من التوجه لغير الله تعالى، لأن الغسل في هذه الطَّهارة والكسوة وغيرها إنما ذلك بالنية، لأن هذه الأعمال من أعمال القلوب لا من أعمال الظَّاهر، لكن قال صلى الله عليه وسلم: «**إنما الأعمال بالنية**»[1] الحديث، فلا عمل من الأعمال في الجوارح الظَّاهرة والباطنة يصح إلا بعقد النية.

قوله: "تغسله من التوجه لغير الله تعالى": يريد أن يبقى في قلبك سوى الله تعالى ولا إرادة لك غير إرادته، ولا تدبير غير تدبيره، ولا خوفا إلَّا منه، ولا طمع ولا رجاء إلا فيه، ولا قصد إلَّا له، ولا ركوب في السِّر ولا في العلانية إلَّا إليه، وما ذاك إلا لتحقيق الأمور كلها بيده لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات/96]، وقال تعالى: ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر/3]، فحينئذ تجمع همتك كلها لله، وتقطع إياسك عما سوى الله، فحينئذ يصح لك التوكل على الله، وترضى بالله وكيلا، وتفوض أمرك إلى الله، وترى ذلك من الله وإلى الله، وأنت فانٍ عن تلك الرؤية، فعند ذلك تبقى ناظرا لله وبالله، فحينئذ يذهب عنك حب الدنيا والنَّفس والهوى واتباع الشيطان والعلائق، لأنَّ

=

بدمشق ليلة الثلاثاء خامس عشر شوال سنة 902 هـ. أخذ عن القاضي زكريا، والبرهان القلقشندي، والحافظ عبد الحق السنباطي المصريين، والتقوي ابن قاضي عجلون، والسيد كمال الدين الدمشقيين، وكان من حفاظ كتاب الله تعالى. أخذ عنه ولده الشيخ محمد، والشيخ إبراهيم بن كسبائي وغيرهم. توفي يوم الإثنين سادس عشري جمادى الآخرة سنة 977 هـ. (الكواكب السائرة للنجم الغزي ص 460).

(1) رواه البخاري (3/1) ومسلم (1515/3) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ذلك كله لا يذهب عنك إلا بصحة التوجه لله تعالى، لقوله تعالى للشَّيطان لعنه الله ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [الحجر/ 42] لأنه لا يضر مع الله سواه.

واعلم أنه لا يكون توجهك إلى الله إلا بتوجه الله لك بلطائف منه وفضله، فإذا منَّ الله عليك بالعلم به والإيمان والهدى والتَّوفيق والرضى والمحبَّة فتذهب عنك الآفات، فإنَّ ذلك المنن من علامات حب الله لعبده، وإذا أحبَّ الله العبد أحبَّهُ العبد، لأن محبَّة الله متقدمة على محبَّة العبد، لأنَّ الله قديم والعبد محدث، فتعلم بذلك أن محبَّة الله لعبده سبقت له من الله في الأزل قبل أن يخلق الله العرش والكرسي والجنَّة والنَّار والدنيا والآخرة وما فيها، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة/ 54] فاعلم ذلك.

وعلامة محبَّة العبد لربه ذكره في السِّر والعلانية، وطاعته في أمره ونهيه، والرضى في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وأنشدت في ذلك فقلت:

ذكـرتك لا إنـي بذكـرك سـابق ... وذكـرك لـي قـد كـان قـبل وجـودي
تفـضَّلت بالإيمـان لـي وإنـي ... لفـضلك شـاكر لـيوم الـورود

ثـم قـلت:

إلهـي أنـت محـسن متفـضل ... غنـي عـن الإطـلاق رب كـريم
أتحرمنـي بعـد العطـاء وحـوزه ... فكـيف وأنـت بالعـباد رحـيم
فقـصر علـيك ربـي كـل مطالبـي ... فأنـت بحالـي يـا إلهـي علـيم

الفصل الثاني

في الغسلة الثانية من غسلات الوجه بالغسل المعنوي

وَذلك أن تغسله بالحياء، قال رسول الله ﷺ: «**الحياء من الإيمان**»[1]، قال ذو النون المصري رحمهُ الله: المحب ينطق والحييُ أي المستحيي يسكت، وسئل الجنيد عن الحياء، فقال: حالُه يتولد من رؤية النِّعم والتَّقصير في شكرها، وقال ابن عطاء الله: العلم الأكبر الهيبة والحياء، وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف/24] وهو الحياء من ربه مع العصمة السَّابقة له. وقيل شروط الخشوع في الصَّلاة ألَّا يعرف من على يمينه ولا من على شماله، والتَّواضع في اصطلاحهم:

(1) رواه البخاري (17/1) ومسلم (63/1) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الاستسلام للحق وترك الاعتراض على الحكم، وقيل: هو الخضوع للحق والانقياد له وقبوله من الغني والفقير، والكبير والصَّغير، والشَّريف والوضيع، والأصل في ذلك كله وفيما يأتي هو الحياء من الله ومن خلق الله تعالى، وأنشدت في ذلك:

إذا أنـت تخـش العـواقب والـرَّدى ولـم تـستحي فافعـل مـا تـشاء
فـلا خيـر فـي لدنـيا جمـيعا بأسـرها ولا الـدين إن يـذهب مـنا الحـياء

واعلم أن الخشوع والتواضع من أعظم أوصاف الحياء، وهما من أجل الأوصاف الدينية وأشرفها، وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون/1 - 2]، وقال تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء/90]، وقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج/34]، يعني أهل التواضع. وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان/63]، معناه: خاشعين متواضعين، وقال عليه السَّلام: «**لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[1]، قيل: لأنهم لا حياء لهم، لأن الكبر ضد الخشوع والخضوع، وهما من صفات الحياء، فمن كان يماثل الكلب والخنزير والقرد والحمير في الخلقة والأكل الشراب والنكاح ووجود الأمثال الكثيرة كيف يتكبر وهو يعلم أوله وآخره ووسطه كما تقدم، وينازع الله في العظمة والكبرياء، وهذا على قلة حيائه وعقله، إذ لو كان له عقل لكان له علم ولو كان له علم لكان له حياء، ولو كان له حياء لكان له دين، ولو كان له دين ما تكبر على جنسه وينازع الله في وصفه، فاعلم ذلك، وقال رجل لرسول الله ﷺ: إنَّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا فقال عليه السَّلام: «**إنَّ الله يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغَمْطُ النَّاس**»[2]، وقال عليه السَّلام: «**من تواضع لله رفعه الله**»[3]، وقال عليه السَّلام: «**طوبى لمن تواضع من غير منقصة وذل من غير مسكنة**»[4]، وكان عليه السَّلام يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة العبد ويركب الحمار مخطوما بحبل من ليف وعليه إكاف من ليف ويعلف البعير ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع الخادم

(1) رواه مسلم (93/1) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(2) رواه مسلم (93/1) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(3) رواه مسلم (2001/4) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: "وما تواضع أحد لله إلا رفعه ".
(4) رواه الطبراني في المعجم الكبير (71/5).

ويحمل معه إذا أعيا، ويحمل حاجته من السّوق إلى أهله، ويصافح الغني والفقير ويبدؤهما بالسَّلام، ولا يحتقر ما دعي إليه ولو كان حشف التمر، وكان عليه السَّلام خفيف المؤنة لين الخلق كريم الطَّبع، جميل المعاشرة، طليق الوجه، بسَّاما من غير ضحك، محزونا من غير عبوس، رقيق القلب رحيما بكل مسلم، لم يأكل قط من شبع، ولم يمد يده لطمع، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسرع في المشي، ويقال أنه أسرع للحاجة، وأبعد عن الكبر، وقال عروة بن الزبير: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى عاتقه قربة ماء، فقلت له: يا أمير المؤمنين ما ينبغي لك هذا؟ فقال: لما أتاني الوفود سامعين طائعين فدخل نفسي عجب فأحببت أن أكسرها، ومضى بالقربة إلى بيت امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها، وروى أبو هريرة وهو أمير المدينة وعلى ظهره حزمة حطب. ومن معنى قوله عزَّ وجل: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف/24]، أي البرهان رآه يوسف أنها ألقت ثوبا على وجه صنم كان في البيت، فقال لها يوسف: ما تقصد بهذا؟ فقالت: أستحي منه، فقال: يوسف أنا أولى أن أستحي من الله تعالى، وقيل في قوله تعالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص/28]، أنها إنما استحيت لأنها جاءت تدعوه إلى الضيافة، فاستحيت ألا يجيبها، وحياء الكرم من صفة المضيف.

وروي أن رجلا نائما في شعبة، فقيل له: ألا تخاف النَّوم هنا وهذا موضع السّباع؟ فقال: إنني أستحي من الله أن أخاف من غيره، وأوحى الله إلى عيسى عليه السَّلام: عظ نفسك، فإن اتعظت وإلا فاستحي أن تعظ النَّاس وأنت لم تتَّعظ، وقيل: إذا جلس الرجل يعظ الناس ناداه ملك: عظ نفسك بما تعظ به أخاك، وإلَّا فاستحي من سيدك ومولاك فإنه يراك، وقال الفضيل بن عياض: من علامات الشقاء القسوة في القلب وتسبب العين، وقلة الحياء والرغبة في الدنيا، والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

الفصل الثَّالثُ
في الغسلة الثّالثة من غسلات الوجه

وهو بالعبودية.

اعلم يا أخي أنه لما كان الوجه أشرف الجوارح وأبهاها وأعظمها قدرا والعبودية أشرف خصال العبد المؤمن جعلنا آخر غسلات الوجه بهذا الغسل بالعبودية قال الله

تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة/1]، والعقود هي العهود، لأن العبودية في اصطلاح أهل الحقيقة: الوفاء بالعهود وحفظ الحدود والرضى بالموجود والصبر عن المفقود، وقيل: هو ترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار، وقيل: هو التَّبري من الحول والقوة، وقيل: هي معانقة المأمورات ومفارقة المنهيات، وقال ذو النون المصري رحمه الله: العبودية أن تكون عبده في كل حال، وقال الحريري: عبيد النعم كثيرون، وعبيد المنعم قليلون، وقال أبو علي الدقاق: أنت عبد من أنت في أسره دينارا كان أو درهما أو امرأة أو غير، ولهذا قال عليه السلام: «**تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة**»[1]، ورأى أبو يزيد رجلا فقال له: ما حرفتك؟ فقال: حمار، فقال له: أمات الله حمارك لتكون عبدا لله لا للحمار، وقيل لبعضهم: اعبد الله، فقال: صعبت علي، فقال له: إن نفيت عنك سكونك إلى الذات، وركونك إلى الحركات، فقد أعطيت للعبودية حقها.

واعلم أنه إذا صحت لك العبودية فقد حصلت لك الحرية من كل ما سوى الله بالكلية، وقال أبو علي الدقاق: ليس شيء أشرف للعبد من العبودية، ولذلك وصف الله تعالى بها أشرف أنبيائه في أشرف أوقاته في الدنيا، وهو ليلة المعراج، فقال تعالى: ﴿ سُبۡحَـٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء/1]، وقال: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [النجم/10]، ولذلك قالوا: العبودية أتم من العبادة، والعبودة أتم منهما، فالأول العبادة ثم العبودية ثم العبودة. فالعبادة لعوام المؤمنين، والعبودية لخواص المؤمنين، والعبودة لخواص الخواص. وقال أيضا: العبادة لمن له علم اليقين، ومعاني القرآن كلها راجعة إلى شيئين: حفظ العبودية وتعظيم حق الربوبية، وقد جمعتها سورة الفاتحة ولذلك سميت أم القرآن، وقال عليه السَّلام: «**عرض علي ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت يا رب أشبع يوما وأجوع يوما فإذا جعت تضرعت بذكرك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك**»[2]، وقال عليه السَّلام: «**إنَّ أحسن أوليائي عندي منزلة رجل ذي حظ من صلاة أحسن عبادة ربه في السر وأطاعه وكان غامضا في النَّاس لا يشار عليه**

(1) رواه البخاري (1057/3) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه أحمد (254/5) والترمذي (575/4) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

بالأصابع"[1]. وقال معاذ بن جبل[2] رضي الله عنه: لا يبلغ عبد ذروة الإيمان حتَّى تكون الضعة أحبَّ إليه من الشرف، وهذا المحل يكفي من وصف العبودية، وحينئذ يصْفو وجه المتوضي من جميع الأدناس، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الفصلُ الرَّابع
في غسل العينين من محارم الله تعالى

اعلم يا أخي أن غسل العينين هو داخل في عموم غسل الوجه لكن لما كانت العينان محل النَّظر يتوصل بهما إلى ما يحل وإلى ما يحرم أفرزت لهما فصلا يخصهما ويظهرهما فغسلهما يكون بأن لا تنظر بهما في ما لا يحل لك فإذا وقع ونزل بغير إرادتك فلا شيء عليك في المرَّة الأولى لقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور/30] وما ذاك إلا البصر مسرحا للنظر فتقع منه النظرة الأولى من غير قصد ولا تعمد فإن حقق النَّظرة بعد علمه برؤية المحرَّم فذلك من النظر المحرَّم الذي يوجب عقوبة الله تعالى ولذلك أتى سبحانه بمن الدالة على التبعيض ولم يأت بها في حفظ الفروج لأن الفرج لا يقع الفعل به إلَّا عن قصد وإرادة ولذلك قال تعالى: ﴿ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور/30] ولم يقل من فروجهم فاعلم ذلك فيجب عليك من وجوب الفرائض أنك إذا وقع بصرك على محرَّم فرده بسرعة وكفه عن مراد النَّفس لرضاء الله سبحانه وإن كان لا يقع شيء من عباده إلا على وفق إرادته تعالى لكن بعض الإرادة فيها سخط الله تعالى فالعياذ بالله منها وهي الإرادة التي توقع في المحرمات والمنهيات وبعض الإرادة يعرض العبد لرضاء الله سبحانه وهي الإرادة التي يختار بها العبد فعل الطَّاعات من الواجبات والمندوبات وترك المعاصي وجميع المخالفات فالعبد يختار الفعل والترك من طاعة أو عصيان وكفر أو إيمان والفعل لله للعدل أو للفضل ولا يقعان إلا على وفق إرادة الملك الديان لكن يجب على العبد اختيار الخير وما والاه واجتناب الشر وما قاربه ودناه وقال صلَّى الله عليه وسلَّم:

---

(1) رواه أحمد (252/5) والترمذي (575/4) وابن ماجه (1378/2) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(2) معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري أبو عبد الرحمن مات بالأردن في الطاعون يعني طاعون عمواس سنة 18 هـ وله ثلاث وثلاثون سنة وكان قد شهد بدرا والعقبة. (مشاهير علماء الأمصار 50/2).

«**حرَّم الله على النار عين غضت عن محارم الله وعين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله**»[1] وأنشدت في ذلك فقلت:

أغض بك عيني عن كل منهي ... وأبكي من خشية الإله دموعا

وبت لياليا في حرس سبيله ... وان صحت لي عيناي كنت رجوعا

الفصل الخامس

في معنى قولنا تخلل شعر لحيتك بالحزن والبكاء

اعلم يا أخي أنه لما كان الدمع في الغالب سيلانه على اللحية والوجنتين ولا يكون البكاء إلا من شدة الحزن فلذلك عبرنا بتخليل اللحية في الغسل من الجنابة المعنوية ولما كان الحزن مقدما على البكاء لما تضمنه في فصلين فصل في الحزن وبعده فصل في البكاء فانظر ذلك ترشد، والله الموفق سبحانه.

الفصل الأول من الفصلين

في الحزن

اعلم أنَّ الحزن هو انكسار القلب وخشوعه وعلامته انكسار الجوارح الظَّاهرة عن الانبساط لانكسار الباطن والذي يجلب الحزن ثلاث خصال منها التَّفكر في الذنوب الماضية والتَّفكر في الموت وبطشه والنظر لمن هو أقوى منك إيمانا بالله ويقينا بالآخرة وأعظم منك طاعة ومجاهدة وقال بعضهم: الحزن من إيثار الخوف من الله تعالى وكذلك الفكر وبهما عمارة القلب كما أنَّ الفرح والغفلة خرابه بهما قال الله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص/76] وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب كل قلب حزين**"[2] وفي التوراة إذا أحبَّ الله عبدا نصب في قلبه نائحة وإذا أبغض عبدا جعل في قلبه مزمارا. روي أنَّ النَّبي ﷺ كان متواصل الأحزان دائم الفكر[3]، وكان الحسن البصري[4]: لا يراه أحد إلا ظن أنه قريب العهد بمصيبة وكان داود الطَّائي

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه الحاكم في مستدركه (351/4) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان (154/2) من حديث هند بن أبي هالة رضي الله عنه.

(4) سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري؛ كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة. وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وأمه خيرة مولاة أم =

رحمه الله الغالب عليه الحزن وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: قال السَّلف زكاة العقل طول الحزن وسئل أبو عثمان عن الحزن فقال: الحزين لا يتفرغ للسؤال عن الحزن ولا للجواب عنه وقال بعض السَّلف أكثر ما يجده المؤمن في صحيفته من الحسنات الغم والحزن ويعضد هذا القول ما روي عن النَّبي ﷺ أنه قال: «**ما من شيء يصيب المسلم من نصب أو وصب أو حزن إلا كفر الله به عنه من سيئاته**»[1] وقوله عليه السَّلام: «**إذا كثرت ذنوب العبد ألقى الله عليه الهم والحزن ليكفرها عنه**»[2] واتَّفق النَّاس على أن الحزن بسبب الآخرة محمود وبسبب الدنيا مذموم والدنيا سجن المؤمن فمن كانت الدنيا سجنه طال حزنه فإن السجن دار الأحزان ولهذا قال عليه السَّلام: «**الدنيا لا تصفو للمؤمن وهي سجنه وبلاؤه**»[3] وعن ربيعة العدوية أنها سمعت رجلا يبكي ويقول واحزناه فقالت له: لو كنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفَّس فاعلم ذلك، والله الموفق سبحانه.

الفصل الثاني من الفصلين
تخليل اللحية في البكاء

قال الله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ [الاسراء/109] وقال أيضا: ﴿ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم/59] وقال أبو أمامة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ما النجاة فقال: «**أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك**» [4] وقال عليه السلام: «**حرمت النار على ثلاثة أعين عين سهرت في سبيل الله وعين بكت من خشية الله**

=

سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وربما غابت في حاجة فيبكي فتعطيه أم سلمة، رضي الله عنها، ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه، فدر عليه ثديها فشربه. توفي عام 110 هـ (الطبقات الكبرى ص 26).

(1) رواه البخاري (2137/5) ومسلم (1992/4) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه أحمد (157/6) من حديث عائشة رضي الله عنها، بلفظ: "إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها من العمل ابتلاه الله عز وجل بالحزن ليكفرها عنه".

(3) قال العلامة المحدث العجلوني رحمه الله في كشف الخفا (298/2): "ابن لال عن عائشة، قال ابن الغرس نقلا عن شيخه: حديث حسن لغيره ".

(4) سبق تخريجه.

تعالى»[1] وسكت الراوي عن الثالثة وقد تقدم الحديث قبل هذا الفصل الذي تضمن الفصلين مكملا فانظره وقال عليه السَّلام: «**يا أيها النَّاس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها الأنهار فإذا فرغت دموعهم تسيل الدماء فلو أن سفنا أرسلت في مجاري دموعهم لجرت**"[2] وقيل كان لداود عليه السَّلام سبع حشايا من شعير محشوة بالرماد وكان يبكي حتى ينفد الدموع منهن وقيل إنما سمي نوح عليه السلام نوحا لكثرة ما ناح في الدنيا على نفسه، واعلم أن البكاء من خشية الله من أدل الأدلة على الخوف من الله تعالى والميل إلى الآخرة والجالب للبكاء شيئان الخوف والنَّدم على ما سلف من التفريط والتَّقصير في جنب الله تعالى والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الفصل الثالث عشر

في غسل اليدين إلى المرفقين بالغسل المعنوي

اعلم يا أخي أن هذا الباب يحتوي على ستة فصول لكون الغسلات ستّة ثلاثة لكل يد لكن نأتي بصفة الغسل بما يليق باليمنى ثم باليسرى في المرة الأولى وكذلك في الغسلة الثَّانية والثَّالثة لمناسبة ما يغسل به اليدين في كل مرة بعضه إلى بعض فاعلم ذلك، والله الموفق.

الفصل الأول

في غسل اليدين معا في المرة الأولى

فاليمنى تغسل بالإيمان واليسرى بالإسلام.

الفصل الأول

في معنى قوله تغسل اليمنى بالإيمان

أي تشد يديك على قواعد الإيمان وذلك أن تؤمن بها وتعتقد دوام الإيمان مادام لك عقل مختار من غير تبديل ولا تغيير حتى تلقى الله تعالى ويدك مشدودة على

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه أبو يعلى في مسنده (161/7) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. قال الحافظ الهيثمي رحمه الله في مجمع الزوائد (717/10): "وأضعف من فيه يزيد الرقاشي وقد وثق على ضعفه".

الإيمان ولا يردك عنه راد ولا يهولك مهول ولو قطعت إربا إربا، وإن سلط الله عليك من يكرهك على عدم الإيمان والخروج منه فلا تقبل رخصة المكروه ولا تكفر وإن كان ذلك سائغا لكل مؤمن فلا ترض به أصلا ومت على إيمانك تمت شهيدا مجاهدا للعدو الظَّاهر والباطن فالعدو الظاهر هو الكافر الذي غلبك وقهرك وتعتقد أن ذلك ليس منه وإنما هو مسلط عليك من مالكك الذي خلقك وصورك وأنشأك وأخرجك من العدم إلى الوجود وإنما سلط ذلك العدو عليك ليختبر صحة إيمانك ليباهي بك الملائكة فيقول تعالى انظروا لعبدي المؤمن وصبره يا من قال: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة/30] الآية واعلم أنَّ هذا معنى اختبار الله لعبده وإلا فلا والله تعالى أعلم بعبده وسره وجهره منه بنفسه وهذا الاختبار يسمى الابتلاء في اللغة لقوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك/2] فمعنى ليبلوكم ليختبركم وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد/31] فحضر هذا الأمر في ذهنك ليعينك على الصبر من عذاب العدو الذي يكرهك على تبديل الإيمان بالكفر وإن أدى ذلك إلى قتلك ففي الموت بغيتك وراحتك وسعادتك فأنا ناصح لنفسي وأولادي وأحبائي ولك ولجميع المؤمنين بذلك والتَّوفيق بالله سبحانه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وأما بيان هذه القواعد فهي أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره حلوه ومره وحقيقته أن تحب لأخيك المؤمن ما تحب لنفسك وقد تقدم في صدر هذا الكتاب بيان الإيمان والإسلام وما يتعلق بهما فانظره إن شئت والله الموفق سبحانه.

الفصل الثاني
في غسل اليد اليسرى بالغسل المعنوي في المرة الأولى

اعلم يا أخي أن غسل اليد اليسرى في المرة الأولى إنما هو بالإسلام يعني تعمل قواعد الإسلام وهي أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدا رسول الله ﷺ وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج بيت الله الحرام إن استطعت إليه سبيلا وحقيقيه أن يسلم النَّاس من لسانك ويدك وفرجك ثم تعمل بما ذكرته في الفصل قبل هذا والله الموفق.

الفصل الثالث

في غسل اليدين معا في المرة الثانية

وَذلك أن تغسل اليمنى بالشريعة واليسرى بالحقيقة.

اعلم يا أخي أن الكلام هنا لا يستقيم إلا بالكلام على الفصلين جميعا في فصل واحد فأقول الفصل الثالث والفصل الرابع في غسل اليدين معا بالشريعة والحقيقة وذلك أنك تقبض الشريعة في يمينك والحقيقة في شمالك واجعلهما كسورين مضروبين متوهمين أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك وليس لهما إلا بابين أحدهما لمدخلك في حكم الشريعة والحقيقة والثاني لمخرج من بين السورين لأول منزل من منازل الآخرة وهو القبر يريد لا تخرق الشَّريعة ولا الحقيقة حتى تموت وتقبر فالشَّريعة بفعل الأوامر وترك المناهي في الظاهر والباطن وتلتزم أقسام الشرع الخمسة وهي الوجوب والندب والتَّحريم والكراهة وتفعل من القسم الخامس وهو الإباحة الذي استوت طرفاه في الفعل والتَّرك ما تمس الحاجة إليه وما لا بدّ لك من فعله مما يقوم بأمر دينك ودنياك مع محافظتك على فعل الواجب والمندوب إن عرض لك مادمت في شأنه ومن جملة المباح التسبب بما تعلمه من الحرف التي لا دناءة فيها ولا تذهب بالمروءة وإن عرض واجب كالصَّلاة ونحوها وأنت في عمل الوكيد من حرفتك مثل الحراثة والنجارة والحياكة والخياطة والكتابة والتدريس والقراءة فتترك ذلك ونحوه حتى تفرغ من فرضك وإن نزل بك نازل في مالك وأهلك وأولادك ونفسك فاعلم أن ذلك سابق لك في علم سيدك وخالقك فيرتفع عنك التمسك بالشريعة وتعتمد على الحقيقة في جميع أحوالك فلا تقول لولا كذا لكان كذا ولولا فعلت كذا لظفرت بكذا ولو فعلت كذا لنجوت من كذا فالحقيقة تأبى ذلك كله لأنه لا ينزل بك ولا بمالك وأهلك وأولادك إلا ما قدره الله لك فلا انفكاك لك منه ولا مرد له من دون الله سبحانه لكن تمسك على حكم الشريعة بالأسباب والنجاة والظفر ولا تتركها أصلا وإن لم تظفر بالمراد فالحقيقة معك في يدك فتستريح بذلك وضربت الحكماء لذلك مثلا فقالوا: بينما رجل يحتش حشيشا وإذا بأسد عظيم قد قصده وهو على شاطئ نهر عميق شديد الصبوب وعليه قنطرة وفي العدوة الأخرى قرية متعادية مع قريته فقال كيف أصنع الأسد يتلوني والقنطرة مكسورة ولست أحسن العوم ولعلني إن قطعت النهر قتلوني أهل القرية فالشَّريعة تأمرني بالسَّبب لعل أهل القرية يخرجوني ويرحموني

فأنجو ولا أسلم نفسي للحقيقة فيفترسني الأسد فطلع على القنطرة وسعى عليها جرا ففرغت فألقى نفسه في النهر فنزل إليه العوامون من قرية أعدائه فاستخرجوه وأمنوه وهنوه بالسَّلامة فجلس مستندا بجدار من تلك القرية وجعل يحدثهم بما جرى له وبأعظم هول مما خلصه الله منه فبينما هو كذلك وإذا بالجدار قد تهدَّم عليه فمات فهذا على سعيه مشكور وفي ما نزل به من ربه معذور لأنه أعطى للشَّريعة حقها وللحقيقة حقها وكذلك كن أنت إلى آخر العمر وهذه قصة الأعرابي الذي سأل رسول الله ﷺ هل يرسل الناقة ويتوكل على الله فقال لهُ رسول الله ﷺ: «اعقل وتوكل»[1] وقد تقدم لفظ الحديث في فصل التوكل فانظره إن شئت والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الفصل الخامس

في غسل اليدين معا في الغسلة الثالثة

وذلك أن تغسل اليمنى بالعزلة والخلوة واليسرى بالمجاهدة وهذا الفصل هو فصل العزلة والخلوة اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لما يحبه ويرضاه أن العزلة والخلوة معروفتان وهما مطلوبتان شرعا قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السَّلام: ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ۝٤٩ ﴾ [مريم/48 - 49] وقال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [الفرقان/31] وقال عليه السلام: «**خير الناس رجل يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله ثم رجل يعبد الله في شعب من الشعاب ويدع الناس من شره**»[2] وقال عليه السَّلام: «**أحب النَّاس إلى الله الفرارون بدينهم يبعثهم الله مع عيسى بن مريم يوم القيامة**»[3] وقال أهل الحقيقة الخلوة صفة أهل الصفوة والعزلة أمارات الوصلة ولا بدّ للمريد في ابتداء حاله من العزلة على أبناء جنسه ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه والعزلة نوعان عزلة العوام وهي مفارقة الناس بجسده طلبا لسلامتهم من شره لا لسلامته من شرهم فإنَّ العزلة على الوجه الأول صفة الأتقياء لأنها نتيجة احتقار النفس واستصغارها والعزلة على الوجه الثاني صفة الشياطين لأنَّها

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه البخاري (1026/3) ومسلم (1503/3) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(3) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (25/1).

أنفة من خلق الله تعالى وتكبر إبليسي معناه أنا خير منه وإلى العزلة الأولى وقعت الإشارة بقوله عليه السلام في الحديث الذي تقدَّم الذي آخره ويدع النّاس من شره، وقيل لبعض الرهبان أأنت راهب؟ فقال: لا بل أنا حارس كلب عقور عن الخلق وهو نفسي، أخرجتها من بين الخلق ليسلموا منها، ومر رجل ببعض الصَّالحين فجمع ذلك الصالح ثيابه عن المار فقال الرجل: جمعت ثيابك عني وثيابي ليست بنجسة فقال له الشيخ: توهمت في ظنك أن ثيابي هي النجسة فجمعتها عنك لئلا تنجسك، والعزلة الثانية عزلة الخواص وهي مفارقة الصفات البشرية إلى الصفات الملكية وإن كان مخالطا للناس ومجاورا بهم ولهذا قالوا العارف كاين باين ومعناه كاين مع الناس بظاهره ومباين عنهم أي متباعد عنهم بباطنه وبسره وقال أبو علي الدقاق: البس مع النَّاس ما يلبسون وكل ما يأكلون وانفرد عنهم بسرك وفي العزلة فوائد منها السلامة من الغيبة والرياء والنفاق والاشتغال بزينة الدنيا ولهوها والأمان من ملل الأصدقاء وستر الفاقة عن العدو والشامت والصديق المتوجع والتفرغ للنظر في العلم واستنباط الحكمة ومن أراد العزلة فينبغي له أن يحصل قبلها ما يصحح له عقيدة توحيده لكي لا يستهويه الشيطان بوساوسه وما يصحح له فرائض الله عليه ليكون بناء أمره على أصل محكم وأساس قوي مقوم وينبغي أن يكون في عزلته خاليا من ذكر كل شيء سوى ذكر ربه ومن إرادة كل شيء في عزلته سوى إرادة ربه ثمَّ يأخذ في تأديب نفسه وتهذيبها بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات والعبادات فحاصل العزلة الحقيقية عند القوم اعتزال الصفات المذمومة ومفارقتها قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: رأيت ربي في المنام فقلت له كيف أصل إليك فقال تعالى: فارق نفسك وتعال، وقال يحيى بن معاد الرازي رحمه الله: "من كان أنسه في الخلوة ذهب أنسه إذا فارقها ومن كان أنسه في الله في الخلوة استوت عنده الأماكن كلها"، وقال أبو بكر الوراق: "وجدنا خير الدنيا والآخرة في الخلوة والعزلة وشرهما في الخلطة"، وروي أن شيخا من أرباب السلوك رأى انقطاع بعض المريدين عن طريق القوم فتفرس فيه فرأى سبب ذلك هو خلطة النَّاس فأراد أن يداويه من تلك العلة فقال له انطلق معي لحاجة وقال لأصحابه لا يتبعني أحد سواه فانطلقا في بعض الغوائط فوجد عذرة جديدة فقال له: انظر هذا وأشار إلى تلك العذرة فأنف المريد منها فقال له الشَّيخ حقق نظرك فيها فلك فيها فائدة عظيمة فامتثل أمر الشَّيخ فلما علم سكونه إليها قال له انظر يا أخي هذا كان بالأمس لحما طريا ودقيقا

خالصا نقيا وسمنا وطبخ طبخا شهيا وكان معه عسل وخبز رطب وكعك بهي فلما خالط إنسانا واحدا ليلة واحدة فانقلبت طبيعته وحسنه وبهاؤه إلى ما ترى حتى الآن، إن رضيت بالخلوة والوحدة والعزلة فأنت صاحبي وأنا عنك راض وإلا فاتركني ولا تقرب مكاني أبدا، فامتثل المريد كلام الشيخ ودخل خلوته ففتح الله عليه، وقال الشبلي رحمه الله: علامة الإفلاس الاستيناس بالنَّاس، وقيل إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطَّاعة آنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة وبصره عيوب نفسه فمن أعطي ذلك فقد أعطي خير الدنيا والآخرة واعلم أنَّ التوفيق للعزلة دليل سعادة الأبد لأن من خالط الناس داراهم ومن داراهم راءاهم ومن راءاهم نافقهم ومن نافقهم استحقَّ الدرك الأسفل من النار بنص الكتاب وعليك بمحو اسمك من صحائف القلوب وصحائف الألسن فإنَّ العرفان بلاء والمعروف ناقص والخامل كامل وطالب الاسم والرسم ظاهره عامر وباطنه خراب وطالب الحق والحقيقة باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الفصل السَّادس
في غسل اليد اليسرى في الغسلة الثَّالثة وغسله هنا بالمجاهدة

اعلم يا أخي أن المجاهدة في اللغة المحاربة وفي الشريعة محاربة أعداء الله تعالى وفي اصطلاح أهل الحقيقة محاربة النَّفس الأمارة بالسُّوء فتحملها ما يشق عليها مما هو مطلوب شرعا وقال بعضهم المجاهدة مخالفة النفس وقال بعضهم المجاهدة منع النَّفس عن المألوفات والمجاهدة على قسمين مجاهدة العوام وهي توفية الأعمال ومجاهدة الخواص وهي تصفية الأحوال فإن مقامات الجوع والسهر سهل يسير بالنسبة إلى تبديل الخلق المذمومة بالمحمودة والمجاهدة في الله تعالى أعظم أسباب الوصول إليه قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت/69] قيل من اجتهد في طاعة الله زاده الله هداية يعني من اجتهد في عمل مخلص لله زاده الله هداية وكل ما ازداد هداية زاده الله عملا صالحا وهكذا إلى ما لا نهاية له والدَّليل على صحة هذا القول قوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام/91] معناه ما عبدوا الله حق عبادته ولذلك قيل من اجتهد في عمل الله زاده الله هداية على هدايته وقيل من معنى الآية أيضا والذين اجتهدوا في طاعتنا وفي ديننا لنوفقنهم لذلك وقال عليه السَّلام:

«**المجاهد من جاهد نفسه في الله**»[1]، وقال أبو علي الدقاق: من زين ظاهره بالمجاهدة زين الله باطنه بأنوار المشاهدة.

واعلم أن المجاهدة لا بدّ منها بعد التَّوبة في ابتداء السلوك ومن لم يكن في ابتدائه صاحب مجاهدة لم يشرب من مورد القوم جرعة وقال أبو عثمان المغربي رحمه الله: من ظنه أن يفتح له باب من أبواب هذه الطريقة أو يكشف له عن شيء إلا بلزوم المجاهدة فهو غالط وقال الحسن الفران: بنيت هذه الطَّريقة على ثلاثة أشياء ألا تأكل إلا عند الفاقة ولا تنام إلا عند الغلبة ولا تتكلم إلا عند الضَّرورة وقال إبراهيم بن أدهم: لا ينال الرجل درجة الصَّالحين حتى يجوز ست عقبات: الأولى يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة، الثانية يغلق باب العز ويفتح باب الذل، الثالثة يغلق باب استعداد الراحة ويفتح باب التعب، الرَّابعة يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت، الخامسة يغلق باب الشبع ويفتح باب الجوع، السَّادسة يغلق باب النَّوم إلا من غلبه ويفتح باب السَّهر، كذلك وقال أبو علي الدقاق: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق وأمروه بالكسب قال إبراهيم الخواص: ما هالني شيء إلا ركبته واعلم أن أنواع المجاهدة كثيرة وكل مريد يليق به نوع منها لا يليق بغيره على قدر قوة المريد وضعفه ومعرفته ما هو الأشق عليه نظر إلى حاله وإلى زمان مجاهدته وغير ذلك. مثال ذلك مجاهدة بالصَّوم والصَّلاة أشق على الملوك من المجاهدة بالصَّدقة والعتق وفي حق التجار الحريصين الأمر بالعكس والمجاهدة بترك المجادلة والمنازعة وإظهار الفضل وترك التنافس في المجلس وطلب التصدر أشق على بعض فقهاء زماننا من المجاهدة بالصَّوم والصلاة والمطالعة والتكرار والمجاهدة من بعض مشايخ زماننا بترك إعطاء يديه للنَّاس ليقبلوها أشق عليه من لبس الصوف الغليظ أعني الخشين الأبتر وملازمة السجادة مدة طويلة والمجاهدة بالصوم في الصَّيف أشق من المجاهدة بالصوم في الشتاء وفي القيام الأمر بالعكس والحاصل أن تعيين أنواع المجاهدات لأنواع المريدين مفوض إلى رأي الشيخ الذي يسلكهم ويربيهم لا إلى اختيارهم لأنفسهم فإنَّ ذلك خطر عظيم والله الموفق سبحانه.

---

(1) رواه أحمد (20/6) والترمذي (165/4) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

الفصل السَّابع

في تخليل أصابع اليدين معا في الغسل المعنوي

وتخليلهما إنما يكون بالجود والسخاء.

اعلم يا أخي أن الجود والسخاء في اللغة بمعنى واحد ولا يوصف الحق سبحانه بالسخاء لعدم التوقيف وفي اصطلاح أهل الحقيقة السخي من أعطى بعض ماله وأمسك البعض والجود من بدل الأكثر وأبقى الأقل والمؤثر من يحمل المشقة والضرر وجاد بالقوت لقوله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر/9] فالإيثار أعلى المراتب ثم دونه السخاء قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر/9] وقال عليه السَّلام: «**السخي قريب من الله قريب من النَّاس بعيد من النار والبخيل بعيد من النَّاس بعيد من الله قريب من النَّار**»(1) وقيل الجود هو إجابة الخاطر الأول وكان بعض المشايخ جالسا يستبرئ في الخلاء فدعى بعض تلامذته وقال له انزع عني هذا القميص وادفعه إلى فلان فقيل له: هلا صبرت حتى تخرج فقال: خفت أن يتغير خاطري، وقيل لما سعى غلام الخليل بالصوفية إلى الخليفة فأمر بضرب أعناقهم فلما أحضروا لذلك بادر الثوري وجلس بين يدي السياف فقال له السياف: تدري ماذا تبادر قال: نعم قال: فما سبب ذلك، قال لأوثر أصحابي بحياة ساعة فعجب السياف وانتهى الخبر إلى الخليفة فأطلقهم وكان فيهم الثوري رحمة الله عليهم، وقيل خرج عبد الله بن جعفر رضي الله عنه إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم فرأى عبدا أسود يعمل فيها فأتى العبد بثلاثة أقراص هي قوته فأتى كلب ودنا من العبد فرمى إليه قرصا فأكله ثم رمى إليه قرصا آخر فأكله ثم رمى إليه قرصا آخر فقال عبد الله: كم قوتك يا غلام في كل يوم قال ثلاثة قال: فلم آثرت الكلب بها قال لأن أرضنا ليست أرض كلاب فعلمت أنه جاء من مسافة بعيدة فجاع فكرهت رده فقال له عبد الله: فما تصنع اليوم قال أطوي إلى الغد قال عبد الله: الأمر على السخاء وهذا العبد أسخى مني واشترى البستان وما فيه من الآلات والعبيد وأعتقه ووهب له جميع ذلك، وقيل أتى رجل صديقا له فدق عليه الباب فخرج إليه فقال:

---

(1) سبق تخريجه.

ركبتني أربعمائة دينا فدخل الرجل الدار باكيا ووزن المبلغ وأخرجه فتوهمت امرأته أن بكاءه حزنا على الدراهم فقالت: هلا اعتذرت بعذر فقال: إنما أبكي من تقصيري في اختبار أحوال صديقي حتى احتاج إلى مكاشفتي بحاله ابتداء منه، وقال مطرف لأصحابه وخدامه: إذا أراد أحدكم حاجة فليرفعها إلي في رقعة فأنا أكره أن أرى في وجهه ذل الحاجة وقيل كان أبو مرثد أحد الكرام فمدحه شاعر فقال له: ليس عندي ما أدفع لك ولكن قدمني إلى القاضي وادّع علي عشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها ثم احبسني فإن أهلي لا يتركونني محبوسا بل يعطونك المال ففعل به ذلك فما أمسى حتى أعطوه المال كله، وقيل لما قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة كان معه عشرة آلاف دينار فقيل له اشتر بها ضيعة فضرب خيمة خارج مكة وصب الكل تحتها وكان يعطي كل من دخل إليه قبضة حتى فرغ الكل قبل الظهر، وقيل سخاء النَّفس عما في أيدي النَّاس أفضل من سخائها بالبذل، وقيل ليس السخاء أن يعطي الواجد للمعدم بل السخاء أن يعطي المعدم للواجد والله الموفق سبحانه.

الباب الرابع عشر
في مسح الرَّأس وغسله
في أربعة فصول

الفصل الأول
في مسح الرأس بالمسح المعنوي

وإنما يمسح الرأس هنا بترك التَّدبير والاختيار مع الله تعالى.

قال ابن عطاء الله رحمه الله في حكمه: "**أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِيرِ فما قامَ بهِ غيرُكَ عنْكَ لا تَقُم بهِ لنفسِكَ**"(1). قال ابن عباد رحمه الله في هذا المحل تدبير الخلق على الوجه الذي تقوله مذموم لأنَّ الله تعالى قد تكفل لهم بذلك وقام به عنهم وطلب منهم أن يفرغوا قلوبهم منه ويقومون بحق عبوديته ووظائف تكليفاته فقط والأمر المنهي عنه هو أن يقدر العبد شؤونا لنفسه يكون علمها من أمر دنياه على ما تقتضيه شهوته وهواه ويدبر لها ما لا يليق بها من أحوال وأعمال يستعمل ويهتم العبد لأجله وهذا تعب

(1) الحكم العطائية بشرح ابن عباد، (الحكمة الرابعة)، (ص: 46).

عظيم استعمله لنفسه ولعل أكثر ما يقدره لا ينتج له فيخيب ظنه ويبطل سعيه مع ما فيه من ترك العبودية ومضادة أحكام الربوبية ومنازعة القدر وإضاعة العمر ما يحمل العاقل على تركه واجتنابه وقطع مواده وأسبابه قال سهل ابن عبد الله التستري رضي الله عنه: ذروا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على الناس عيشهم وقال سيدنا أبو الحسن رضي الله عنه: إن كان ولا بدّ من التَّدبير فدبروا أن لا تدبروا وهذه المسألة هي طريق القوم بل هي جملته وكليته والكلام فيها يطول، طويل عريض وإنما اقتصرنا فيها على هذا القدر اليسير من التنبيه لأن المؤلف وهو ابن عطاء الله رضي الله عنه أفرد في هذا المعنى كتابا سمّاه التَّنوير في إسقاط التَّدبير أحسن فيه غاية الإحسان قلتُ وهذا الكتاب ملكناه وعكفنا على قراءته سنين لكن اقتصرنا على ما نقلناه من كلام ابن عباد رحمةُ الله إذ كل ما في الكتاب المشار إليه راجع إلى هذا المعنى والله أعلم وهو الهادي والملهم سبحانه.

الفصل الثاني
في رد مسح الرأس في الطَّهارة المعنوية وذلك بالعقل

اعلم يا أخي أن معنى قولنا ترد مسح الرَّأس بالعقل أي تغسله من الجهل بحصول العلم لأن العلم نور والجهل ظلمات فإذا حصل شيء من النور ذهب ما لا يحصى من الظلمات وأمَّا العقل فهو أصل العلم الاكتسابي لأن من لا عقل له لا علم له والعقل من أحسن ما خلق الله وقيل: لمَّا خلق الله العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال له اصبر فصبر وامتثل الأمر مطلقا فقال له الله تعالى: وعزتي وجلالي لا وضعتك إلا في أحب الخلق إلي لأنني بك أعبد وبك أحمد وبك أعرف فلما سمع العقل كلام الله خر ساجدا لله فقال له ربنا عز وجل ارفع رأسك فقال له العقل بإلهام من الله وعزتك وجلالك لا أرفع رأسي حتى تغفر لمن تضعني فيه فقال له وعزتي وجلالي إني قد غفرت لمن أضعك فيه قبل أن نخلقك بألف عام فعلامة من وضع فيه العقل أن يكون كما كان العقل حين قيل له أَقْبِلْ فأقبل للطَّاعة وقيل له أَدْبِر فأدبر عن المعاصي وقيل له اصبر فصبر على المصائب واعلم أنَّ الله سبحانه قسم العقل بين عباده المؤمنين فمن الناس من أعطي من العقل القنطار والقناطير والرطل والأرطال والأوقية والأواق والحبة والحبات فأصحاب القناطير الأنبياء والمرسلون وأصحاب الأرطال الأولياء والصَّالحون وأصحاب الأواق عامة المؤمنين وأصحاب الحبة والحبات من لم

يفعل الخير إلا قليلا بدليل قوله تعالى:﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة/7 – 8] وأعطى لنبينا محمد ﷺ من العقل مثل ما أعطى لسائر المؤمنين والأنبياء والمرسلين وغيرهم وكل من أوتي جزءا من العقل فبقدره يعرف الله ويوحده ويعبده ومن أوتي منه شيئا وإن قل فإنَّ الله حرم جسمه على النار ولا يدخل النار من المؤمنين إلا من له من العقل أقل من مثقال ذرة وذلك القدر يحفظه من الخلود في النار وأمَّا الكفار فلا حظ لهم من العقل بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء/48] وصحَّ في الحديث عن رسول الله ﷺ أنَّ الله أقسم للعقل بعزته وجلاله أنه غفر لمن يضعه فيه قبل أن يخلق الخلق بألف سنة فإن قيل فالروم يتقنون جميع الصنائع أكثر من المسلمين ولولا العقل ما صنعوا شيئا ولا أتقنوه ولا شك أنهم مشركون كافرون بالله ورسوله ما وجه ذلك قُلنا جوابه ما قال الله تعالى في سورة الروم حيث قال جل من قائل: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم/7] والفرق بين علم العقل وعلم الدنيا هو امتثال الأمر وعدمه فالمشركون لو كان لهم من العقل مثقال ذرة لعرفوا الله بقدرها وامتثلوا أمره مثل ذلك وحيث حرمهم الله من العقل فعلمهم بالدنيا وأسبابها كالهباء في الهواء إذ لا إيمان لهم ألم تعلم قول النبي ﷺ: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافر منها جرعة ماء**»[1]، وانظر ما قال الله تعالى: في متاع الدنيا في سورة الزخرف حيث قال الله سبحانه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥ ﴾ [الزخرف/33 – 35] وهم الذين يتقون الشرك ولا يتَّقيه إلا من له شيء من العقل كما ذكرنا ومن لا عقل له فلا تقوى له، فالمشركون لا عقل لهم لأنهم كالبهائم لأنهم لا يعقلون إلا مصالح الدنيا من الأكل والشراب والنكاح وذلك لا يسمَّى عقلا وإنما هو تمييز الأشياء خاصة وكل أحد تمييزه على قدر حاله فلمَّا كان الآدمي أشرف من

(1) سبق تخريجه.

الحيوان البهيمي كان تمييزه فيما يليق بدنياه أعظم وأكثر من تمييز البهيمة وأما المؤمنون فقال صلى الله عليه وسلم في حقهم: «**إنَّ الله تعالى يذود عبده المؤمن عن نعيم الدنيا كما يذود الراعي النصوح غنمه من مواضع الغش والهلاك**» فاعلم ذلك فقد بينا هذا الأمر واضحا فلله الحمد وله الشكر، وسئل النَّبي ﷺ عن العقل فقال: «**هو ثلاثة ألا تحلل ما حرم الله تعالى ولا تحرم ما أحل الله تعالى ولا تزال تستعد لما بعد الموت**» والمشركون لا حظ لهم في هذه الأقسام إذ فلا عقل لهم فهذا الحديث من أعظم الشواهد لما ذكرناه، وقال بعض العارفين رضي الله عنهم أن للعقل مائة الف اسم أول اسم منها ترك الدنيا وأهلها فلمَّا خلق الله تعالى الجهل كان بضد ما ذكرناه ولهذا قلنا ترد مسح الرأس بالعقل أي تغسله من الجهل بالعلم والله الموفق سبحانه.

الفصل الثالث
في تخليل شعر الرَّأس بالتَّوحيد في الغسل المعنوي

اعلم يا أخي أن التوحيد في اللغة هو الحكم بأن الشيء واحد والعلم بأنه واحد تنال منه وحدته أي وصفه بالوحدانية كما يقال شجعته أي وصفته بالشجاعة في حق الآدمي فهذا ضرب مثال فقط وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الأفهام ويتخيل في الأوهام والأذهان ومعنى كون الله تعالى واحدا نفي الانقسام في ذاته ونفي الشبيه والشريك في ذاته وصفاته وقال الجنيد: "إذا تناهت عقول العقلاء في التَّوحيد انتهت إلى الحيرة لأنَّ الله تعالى لا يدرك بالبصر ولا بالبصيرة" وهذا معنى قولهم العجز عن الإدراك إدراك والخوض في ذات الله إشراك وقال الجنيد رحمه الله أيضا: "التوحيد معنى تضمحل فيه الرسوم وتندرس فيه العلوم ويبقى الله تعالى كما كان في الأزل ولا يزال كذلك" وقال الجنيد أيضا: "أشرف كلمة في التَّوحيد كلمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: "سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته"، وقال الإمام القشيري: "ليس مراد الصديق أنه لا يعرف بل يعرفه العبد لا بمعرفة من العبد كالمقعد كارهاً للقعود وهو موجود فيه وليس بفعل له ولا تسبب فيه كذلك العارف بالله عاجز عن معرفته والمعرفة موجودة فيه لأنها ضرورية له في الانتهاء"، وقيل التوحيد إسقاط ومعناه أن لا يقول لي وبي ومني قال الشبلي: "ما شم روائح التوحيد من تصور عنده التَّوحيد" وقيل لأبي بكر الطيلساني ما التَّوحيد فقال: "توحيد وموحد وموحَّد هذا تثليث أو توحيد وقيل "من وقع في بحار

التوحيد لا يزداد على مرور الأيام إلا عطشا" وقال الحضرمي: "أصولنا في التَّوحيد خمسة أشياء رفع الحدث وإفراد القدم وهجر الإخوان ومفارقة الأوطان ونسيان ما علم" والتَّوحيد عبارة ومعنى، فعبارته كلمة الإخلاص ومعناه الإخلاص فيها وهو التجرد عن الكونين وعن أوصاف البشرية عند ذكرها وذلك هو المراد بقوله عليه السَّلام: «**لا إله إلا الله مفتاح الجنَّة**»[1]. وقد ورد ذلك مفسرا في قوله عليه السَّلام: «من قال لا إله إلا الله خالصا مخلصا دخل الجنَّة» وقوله عليه السَّلام: في كلمتي الشهادتين خفيفتان على اللسان إشارة إلى لفظها وقوله ثقيلتان في الميزان يعني إذا قرب بلفظها الإخلاص وقيل لصوفي أين الله فقال: أعماك الله تطلب الأين مع العين ليس في الوجود غير الله الموجد لسائر الموجودات مجازا ولله حقيقة والله أعلم وهو الهادي سبحانه.

الفصل الرابع
في غسل الرَّأس من الجنابة المعنوية

بعد تقديم الوضوء الذي هو فضيلة وفعله فرض وغسله بالمعرفة.

اعلم يا أخي أن المعرفة في اللغة هي العلم وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي العلم بأسماء الله تعالى وصفاته مع الصدق لله تعالى في معاملتك له وجميع أحوالك لديه ودوام مناجاته في السر والرجوع إليه في كل شيء والتطهر من الأخلاق والأوصاف الردية وبالجملة فبمقدار أحنيتك عن نفسك تحصل معرفتك بربك وقيل المعرفة معرفتان معرفة حق ومعرفة حقيقة فمعرفة الحق معرفة وحدانية الله تعالى بما أنزل للخلق من أسمائه وصفاته ومعرفة الحقيقة لا سبيل إليها لامتناع الإحاطة به علما لقوله تعالى: ولا يحيطون به علما واعلم أن الكمال من أهل الحقيقة لَم يَتَكَلَّمُوا في المعرفة بأكثر من الاعتراف بالعجز عنها فأما من دونهم فقد تكلم فيها ولهذا قال بعضهم: "الحق سبحانه لا يعرفه سواه ومن عرفه فبه عرف ويؤيد هذا قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: "الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته" وقال أبو حفص الحداد مذ عرفت الله تعالى ما دخل قلبي حق ولا باطل وقال

(1) قال الشيخ المحدث العجلوني رحمه الله في كشف الخفاء (1321/2): "رواه أحمد عن معاذ رفعه. قال النجم: وفي لفظ " مفاتيح الجنة ". وضعفوه لكن عند البخاري عن وهب ما يشهد له".

الإمام القشيري معناه أن المعرفة توجب غيبة العبد لاستيلاء ذكر الحق عليه فلا يشاهد غيره ولا يرجع بفكره إلى سواه فكيف يدخل المعنى قلب من لا قلب له وقال غيره معناه أنه لاستيلاء ذكر الحق على لبه واستغراقه به واستهلاكه فيه لا يجد غيره طريقا إليه حقا كان أو باطلا وممَّا يشير إلى كلام أبي حفص قول أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه: "النَّاس أحوال ولا حال للعارف لأنه محيت رسومه ومحيت آثاره" وقوله أيضا حين سئل عن المعرفة فقال: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل/34] أي إذا نزلت المعرفة بالقلب خربت أوطان البشرية وقول الواسطي أيضا لا تصح المعرفة لعبد فيه افتقار إلى الله واستغناء به لأنهما أمارات بقاء العبد والعارف فني كله وقيل علامة العارف أن يكون فارغا من الدنيا والآخرة قيل علامته ثلاثة أشياء: أحب الأعمال إليه ذكر الله وأحب الفوائد إليه ما دل على الله وأحب الخلق إليه من يدعوه إلى الله وقيل غاية المعرفة شيئان: الدهش والحيرة. وقال ذو النون المصري رحمه الله: "أعرف النَّاس بالله أشدهم فيه تحيرا" وقيل من كان بالله أعرف كان له أخوف وقيل يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه وإلى ذلك أشار النبي عليه السَّلام بقوله: «**لا أحصي ثناء عليك**»[1] وقال أبو يزيد رضي الله عنه: "العارف طيار والزاهد سيار" وقال الشبلي رحمه الله: أهل المعرفة هم وحش الله تعالى في أرضه لا يستأنسون بأحد، وقال الحسين الحلاج[2]: إذا بلغ العبد إلى مقام المعرفة أوحى الله إليه بخواطره وجواهر سره عن أن به غير خاطر الحق وقيل لا يكون العارف عارفا حتى يكون لو أعطي ملك سليمان لم يشغله عن الله تعالى طرفة عين وقيل العالم يقتدى به والعارف يهتدى به وقيل العارف فَوْقَ ما يقول والعالم دون ما يقول وقيل العارف من تضيئ له أنوار العلم فيبصر بها عجائب الغيب وقيل ليس العارف من وصف بالمعرفة عند أبناء الآخرة فكيف من وصف بها عند أبناء الدنيا وقال النبي عليه الصَّلاة والسَّلام:

---

(1) رواه مسلم (352/1) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) الحسين بن منصور الحلاج، أبو مغيث البيضاوي ثم الواسطي. صحب الجنيد والنوري وغيرهما. واختلف فيه المشايخ، فرده أكثرهم. وابن خفيف والنصرآبادي وغيرهم. قتل بسيف الشرع ببغداد سنة 309 هـ. ومن كلامه: حجبهم بالاسم فعاشوا، ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا، ولو كشف لهم عن الحقيقة لماتوا ". (طبقات الأولياء لابن الملقن ص 31).

«**دعامة الدين المعرفة بالله واليقين والعقل القامع**» فقيل: وما العقل القامع؟ فقال: «**الكف عن معاصي الله والحرص على طاعة الله**»[1] وقال ذو النون المصري رحمه الله: "ركضت أرواح الأشياء في ميدان المعرفة فسبقت روح سيدنا محمَّد ﷺ أرواح جميع الأنبياء إلى روضة الوصال". واعلم أن المعرفة أشرف من الفقر والمحبة والتَّوحيد لأنها لاستهلاك العبد في الله بفنائه عن نفسه وعن كل كون وعن الله وعن الإحساس بالفناء بخلاف الفقر فإن ظاهره يشعر بافتقاره إلى شيء ففي الفقير ظمأ لذي المشاهدة والعارف ريان منها حيران مندهش في مقامها والمحب له إحساس بتلذذه لأن المحبة استهلاك في لذة المشاهدة والمحب متلذذ بفنائه في المشاهدة فكان له إحساس والعارف لا إحساس له بوجود ولا حالة أصلا والموحد أيضا له إحساس بتوحيده والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الباب الخامس عشر
في مسح صماخ الأذنين

بترك استماع الغيبة والنَّميمة والكذب وفحش القول ومزامير السوء والغناء وتغسل ذلك كله بالعلم والإنصات للقول الحسن وتدبر معناه.

الفصل الأول
في بيان ما ذكرنا من المسائل

اعلم يا أخي أنك إذا حفظت لسانك من الكذب والغيبة والنَّميمة ومن فحش القول والغناء وغير ذلك من سيّئ الأقوال، فيجب عليك أن تطهر أذنيك من استماع ذلك من غيرك، لأن المتلذذ بسماع هذه الأشياء كلها كالمتلذذ بالكلام بها، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام/68] لأنه كما كان القارئ والمستمع شريكان في الأجر كذلك الناطقون بهذه الأشياء الخبيثة والمستمعون لهم شركاء في الوزر، أسأل الله الحفظ من كل سوء بمنه.

وأمَّا قوله: ((تغسل أذنيك بالعلم)) يعني العلم هو أصل الدين قال الله تعالى: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة/12]، وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه/114]، وقالوا:

---

(1) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن عائشة.

لو اجتمع البر كله في طلب الجهاد لكان كبرقة في البحر، ولو اجتمع البر كله وطلب الجهاد في طلب العلم لكان كبرقة في البحر، وقال الله تعالى لسيدنا موسى عليه السَّلام: يا موسى أتحب أن تموت وأنت عالم، قال له: نعم يا رب، قال له: خذ علم النَّاس وزده إلى علمك ولو كنت عالما. فعلامة وجود العلم فيك الهيبة والخشية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر/28].

قلتُ: ومن لم يخش الله تعالى فليس بعالم ولو تعلم علم العلماء كلهم، فإنه ليس بعالم لأنه من المحرومين، نسأل الله السَّلامة بجوده ومنه، آمين.

الفصل الثَّاني
في السَّماع على طريقة أهل الحقيقة

قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر/17 - 18].

اعلم يا أخي أنَّ السَّماع في اللغة مصدر، كقولك سَمِعَ يَسْمَعُ، وفي الاصطلاح هو معروف مشهور، واختلاف العلماء في إباحته وتحريمه مشهور أيضا، وممن قال بإباحة سماع الأشعار والألحان: مالك بن أنس[1] وابن جريج وأهل الحجاز كلهم، وأمَّا سماع الأشعار بغير لحن فهو جائز إجماعا، وكذلك قول الحداء وسماعه، وتفصيل ذلك وذكر الأدلة فيه من الطَّرفين موضعه الكتب المطولة من الفقه والدقائق، وكتب الفقه أحق بذلك، لأن علم الحقيقة والطريقة لم يكن على المجادلة والقيل والقال، بل على ترك ذلك كله.

ولنصدر الباب بشيء من القرآن والحديث على طريق التبرك، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر/ 18]، والقول محلى بالألف واللام، فيكون ظاهره العموم، فيتناول أقوال القوالين مدحهم باتباع أحسنه، فيدل ذلك

(1) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي وكان أبو عامر جد مالك حليف عثمان بن عبيد الله التيمى القرشي كان مولد مالك سنة 93 هـ، وكنيته أبو عبد الله من سادات أتباع التابعين وجلة الفقهاء والصالحين ممن كثرت عنايته بالسنن وجمعه لها وذبه عن حريمها وقمعه من خالفها أو رام مباينتها مؤثرا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على غيرها من المخترعات الداحضة قائلا بها دون الاعتماد على المقايسات الفاسدة مات سنة 179 هـ. (مشاهير علماء الأمصار 140/2).

على ندبه أو إباحته، مع أن الحسن من الأمور الإضافية، فقد يكون حسنا بالنسبة إلى شخص دون شخص، ومستند النسبة الأغراض، فإذا السماع يختلف باختلاف أحوال المستمع، فإن كان بعيدا عن الأغراض البشرية والمقاصد البهيمية فهو لا يسمع إلا بالحق من الحق، لقوله تعالى: ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم/15]، جاء في التفسير[1] أنه السَّماع بالقول والعين، وقيل في قوله تعالى: ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر/1] أنه الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا[2]، وقال عليه السَّلام: «لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن»[3]، وقال: إن داود عليه السَّلام كان يستمع لحسن قراءته الإنس والجن والوحش والطير إذا قرأ الزبر، وكان يحمل من مجلسه في بعض الأوقات أربعمائة جنازة، فمن قد مات في مجلسه من لذة سماع صوته وطيب قراءته[4].

وروى الإمام القشيري أنه كان يحمل من مجلسه هذا المقدار وأنشد:

إذا كـنت تنكـرن للألحـان فائـدة ونفعـا
فانظـر إلـى الإبـل اللواتـي هـنَّ أغلـظ مـنك طـبعا
يحلـو لهـا نغـم الحـدات فـتقطع البـيداء قطعـا

وقال أبو بكر محمد بن داود الرقني: كنت بالبادية فوافيت قبيلة من العرب فأضافني رجل، فرأيت على باب خيامه غلاما أسود مقيدا وجمالا ميتة، فقال لي

(1) قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (486/6): "وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبه وهناد بن السري وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والخطيب في تاريخه عن يحيى بن أبي كثير ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال: لذة السماع في الجنة.

وأخرج عبد بن حميد عن يحيى بن أبي كثير في قوله (يحبرون) قيل: يا رسول الله ما الحبر؟ قال: اللذة والسماع.

وأخرج ابن عساكر عن الاوزاعي في قوله {في روضة يحبرون} قال: هو السماع، إذا أراد أهل الجنة أن يطربوا أوحى الله إلى رياح يقال لها: الهفافة فدخلت في آجام قصب اللؤلؤ الرطب فحركته فضرب بعضه بعضا فتطرب الجنة فاذا طربت لم يبق في الجنة شجرة إلا وردت " انتهى.

(2) انظر: سنن المهتدين للعلامة المواق (ص: 202).

(3) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (293/7) قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (354/7): "فيه إسماعيل بن عمرو البجلي وهو ضعيف ".

(4) ذكره الغزالي رحمه الله في الإحياء، وقال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلا. [انظر: تخريج الإحياء (228/2)].

الغلام: أنت ضيف كريم على مولاي فعساك تشفع لي عنده، فإنه لا يردك، فقلت لمولاه: لا آكل طعامك حتى تشفعني في هذا العبد، فقال: إنه قد أفقرني وأتلف مالي، فقلت: كيف أفقرك؟ فقال: له صوت طيب، وكنت أعيش من ظهر هذه الجمال فأحمِّلها أحمالا ثقالا، وحدا لها بصوته الحسن، فقطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم واحد، فلما حط عنها الأحمال ماتت كلها من التعب، ولكن قد شفعتك فيه، وحلَّ قيده، فلمَّا أصبحنا أحببت أن أسمع صوته، فسألته ذلك فأمر الغلام أن يحدو بجمل على بئر هناك يستقي لهم الماء، فحدى له فهام الجمل على وجهه وقطع حباله ووقعت أنا على وجهي، حتى أشار عليه بالسكوت، فما أظن أني سمعت صوتا أطيب منه. وقال: إذا تغنت الحور العين في الجنة توردت الأشجار. وقال الجنيد: "سبب اضطراب الإنسان عند السماع أنَّ الله تعالى لما خلق الذَّر في الميثاق الأول بقوله ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ تشربت الأرواح عذوبة سماع ذلك الكلام، وتفلقت كليتها بسماعه، فإذا جاء السماع هيجها ذكر ذلك السَّماع". وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: السَّماع علم استأثر الله تعالى به لا يعلمه إلَّا هو. وقال الجنيد: السماع فتنة لمن طلبه وترويح لمن صادفه، وسئل الشبلي عن السَّماع فقال: ظاهره فتنة وباطنه عبرة، وقال الجنيد: إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أنَّ فيه بقية من البطالة، وسئل أبو علي الروذباري عنه فقال: ليتنا خلصنا منه رأسا برأس، وسئل أبو سليمان الداراني عنه فقال: كل قلب يريد الصوت الحسن فهو ضعيف يداوى به كما يداوى به الصبي إذا أراد أن ينام، والصوت الحسن لا يدخل في القلب شيئا إنما يحرك ما كان ساكنا فيه، وقال الإمام القشيري: "سألت الأستاذ أبا علي الدقاق غير ما مرة طلب رخصة في السَّماع، فكان يجيبني بما يمنع، ثم بعد طول المعاودة، قال لي إن المشايخ قالوا: ما جمع قلبك إلى الله تعالى فلا بأس به. وقيل رأى رجل النبي ﷺ في المنام فقال له: الغلط في السَّماع أكثر. وقال إبليس لبعض المشايخ في المنام: ما رأيت شيئا أدخل به عليكم إلَّا السَّماع. قلت: لكن نصيحة إبليس لعنه الله تحمل على الغش وإن كان صادقا، فطرح هذا القول من أصله كان أولى. وقال الإمام القشيري رحمه الله: "رأيت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم، مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم، مستحب لأصحابنا لطهارة قلوبهم. ويروى هذا القول عن ابن الأنماطي أيضا. وسئل ذو النون المصري رحمه الله عن الصوت الحسن، فقال مخاطبا لي: الإشارات أودعها كل طيب

وطيبة. وسئل عن السَّماع فقال: وارد حق يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق. وقيل: لا يصلح السَّماع إلا لمن له نفس ميتة وقلب حي، وقال أبو عثمان المغربي: "من ادعى السَّماع ولم يسمع من الطيور وصرير الباب وتصفيق الرياح فهو مدع كذاب"، وقال الحضرمي: "ما أصنع بسماع ينقطع بسكوت المسمع بل السماع الحقيقي مالا ينقطع"، وقال أيضا: ينبغي أن يكون صاحب السَّماع دائم الشرب دائم الظمأ، فكلما ازداد به شربا زاد عطشه. وقال أبو سهل الصعلوكي: "المسمع من استتار وتجلى، فالاستتار يوجب الاحتراق، والتجلي يوجب الترويح، والأول يتولد منه حركات المريد وهو محل الضعف، والثاني يتولد منه سكون الواصلين وهو محل الاستقامة والتمكين، وذلك صفة أهل الحضرة، لأنه ليس فيها إلا الذبول تحت موارد الهيبة". قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ [الأحقاف/29] وقال بندار بن الحسين: "السماع على ثلاثة أقسام: سماع بالطبع، ويشترك فيه الخاص والعام، فالجبلة البشرية في استلذاذ الصوت الطيب، وسماع بالحيلة، وصاحبه يتأمل ما يرد عليه من ذكر خطاب أو عتاب أو تصديق بوعيد أو نقض لعهد أو ذكر اشتياق أو خوف فراق أو فرح بوصال أو نحو ذلك، وسماع بحق لا بحظ وصاحبه يسمع بالله لله، ولا يتَّصف بشيء من هذه الأحوال التي هي ممزوجة بالحظوظ البشرية بل بصفات التوحيد". وسئل إبراهيم الخواص: ما بال الإنسان يتحرك عند استماع الألحان ما لا يتحرك عند استماع القرآن؟ فقال: "سماع القرآن صدقه لا يمكن أحد أن يتحرك فيه لشدة عليه، وسماع الألحان ترويح فيتحرك فيه" قال ابن الجلا: كان بالمغرب شيخان يقال لأحدهما جبلة، والآخر زريق، وكان لهما أصحاب وتلامذة، فزار زريق وأصحابه في بعض الأيام جبلة وبات، فلمَّا أصبحوا قال جبلة لزريق: أين الذي قرأ بالأمس؟ فقال: حاضر، فقال: ليقرأ آية، فقرأ فصاح جبلة صيحة فمات القارئ، فقال جبلة: واحد بواحد والبادي أظلم. وحكى عن الجنيد أنه دخل يوما على السري فوجد عنده رجلا مغشيا عليه فقال: ما لهذا؟ فقال له: سمع آية من كتاب الله، فقال الجنيد: اقرؤوا له آية أخرى فقرئ له فأفاق، فقال السري للجنيد: من أين لك هذا؟ فقال: إن قميص يوسف ذهب به بصر يعقوب لما جاءوا عليه بدم كذب، ثم عاد بسببه لمَّا جاء به البشير، فأعجب السري قوله، وكان شاب يصحب الجنيد فإذا سمع شيئا من الذكر صاح، فقال له الجنيد يوما: إن صحت بعد اليوم لم تصحبني فكان إذا سمع يتغير ويضبط نفسه

مغلوبا حتى كانت تقطر كل شعرة من بدنه قطرة فغلب يوما وصاح صيحة عظيمة فمات رحمة الله عليه. وقيل: السماع فيه نصيب لكل عضو، فما يصيب العين يتولد منه البكاء، وما يصيب اللسان يتولد منه الصياح، وما يصيب اليد يحدث منه تمزيق الثياب وما يصيب الرجل يحدث منه الرقص. سمع الشبلي قائلا يقول: الخيار عشرة بحبة، فصاح وغشي عليه، فلما أفاق قيل له في ذلك، فقال: إذا كان الخيار عشرة بحبة فكيف يكون الشرار. وكان جماعة من الصوفية في بيت الحسن الفران، ومعهم قوال يقول شيئا وهم يتواجدون، فأشرف عليهم ممشاد الدينوري فسكتوا، فقال: ارجعوا إلى ما كنتم فيه، فلو جمعتم ملاهي الأرض ما شغلتم همي، ولا شُفيت من بعض ما بي. قال الإمام القشيري: وهذه صفة الأكابر، إنهم لا يرد عليهم وارد وإن كان قويا إلا كانوا أقوى منه. وقيل: إن موسى عليه السَّلام قص في بني إسرائيل فمزق أحد منهم قميصه، فأوحى الله تعالى له: يا موسى، قل له: مزق لي قلبك ودع قميصك. وقيل قص موسى في بني إسرائيل أيضا فصاح واحد منهم، فأنكر عليه موسى، فأوحى الله إليه: يا موسى باحوا وبحبي ناحوا، وبوجدي صاحوا، فلم تنكر على عبادي.

قلتُ: وقد اختلف النَّاس في حكم السَّماع اختلافا كثيرا؛ فمنهم من جوزه، ومنهم من كرهه، ومنهم من حرمه، ومنهم من كفر من حرمه، وهو الإمام الغزالي رحمه الله حسبما كتب إلي بذلك الفقيه النّبيه العلامة النَّزيه أبو عبد الله سيدي محمَّد بن عبد الله بن محمَّد الكنكسي الخطيب الآن بالجامع الأعظم بقصر كتامة وفقنا الله وإياه وجعل جنّة الفردوس مأوانا ومأواه آمين قال في كتابه: وعندنا أي عند بعض أصحابنا العدول تأليفا للشَّيخ أبي حامد الغزالي[1] رحمه الله تعالى ورضي عنه أفرده في تكفير من حرم السَّماع فقال وسمى الكتاب رضي الله عنه بوارق الإلماع في تكفير من حرم السماع بناه على حديث مسلم[2] في صحيحه المرفوع لأبي بكر الصديق رضي الله قال: أتيت بيت عائشة ابنتي زوج النبي ﷺ يوم مِنى فسمعت جاريتين يغنيتان

(1) الكتاب ليس للإمام أبي حامد الغزالي، وإنما هو لأخيه أبي الفتوح أحمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي، واسم كتابه "بوارق الإلماع، في تكفير من يحرم السماع، وتبيين شرفه بالإجماع".

(2) صحيح مسلم (607/2)، ورواه أيضا البخاري في صحيحه (1430/3) من حديث عائشة رضي الله عنها أيضا.

وهما يضربان بالدف فجعلت أقول اسكتوا أمزمار الشيطان في بيت رسول الله ﷺ حتى دخلت عليهن فإذا رسول الله ﷺ يخرج رأسه في ثوب فقال: دعهن يا أبا بكر لكل قوم عيد وهذا عيدنا[1].

قُلت: فعلى هذا فهو سنة حيث أقرهن عليه صلى الله عليه وسلم إذ سكوته عليه السَّلام عن فعل هو سنة فأحرى انتصاره لهنَّ بنهي أبي بكر قال سيدي أحمد بن زكري رحمه الله في منظومته على التوحيد في تعريفه بالسنة حيث قال:

سكوت أو قول السيد البشر | أو فعله أو ما عليه قد أقر
هو الذي يدعونه بالسنة | ذا رسمها خذه بغير منَّه

قال الغزالي رحمه الله في الكتاب المذكور: من حرَّم الحلال فقد كفر، قلت: هذا في حق من حرَّم الجائز وكيف بمن اعترض على رسول الله ﷺ وحرم السنة فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقد حشى الغزالي هذا الكتاب بهذا المعنى فانظره. قلت: وما رأيت أحدا بالغ في إنكار السماع مثل ما أنكر الفشتالي الذي نسبه هو أو بعض الكذابين لأبي الحسن الصغير، حتى إنه قال المسجد الذي تلقى فيه الحضرة لا تجوز صلاة فيه أصلا حتى تحرق البسط وتحفر أرضه مثل ذراع أو كما قال، وقد ألف الفقيه العلامة سيدي أبو القاسم بن خجو كتابا في الاعتراض على الفشتالي ورد أقواله كلها مسألة بمسألة إلى آخر كتابه، وبين في الانتقاد عليه الحجج المبطلة لكلام الفشتالي من السنة، والكلام في هذا المعنى كثير فلنكتفي بهذا القدر، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

وقال أبو علي المعلولي: يا شبلي ربما تطرق سمعي آية من كتاب الله تعالى فتحملني على ترك الأشياء كلها والإعراض عن الدنيا، ثم أرجع إلى أحوال النَّاس وعادتهم، فقال الشبلي: ما اجتذبك الله به فهو عطية منه عليك ولطفا بك، وما ردك به إلى ناصيتك من الدنيا فهو شفقة منه عليك، لأنك لم يصح لك التَّبري من الحول والقوة في التوجه إليه، والله الموفق والملهم سبحانه.

فصل

في قوله تغسل جلدتي أذنيك

إلى أن قال آخره واستماع آخره واستماع القول الحسن كله والإنصات إليه

(1) رواه البخاري (1430/3) ومسلم (607/2) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والتدبر في معانيه.

اعلم يا أخي أن هذا الفصل الذي فرغنا منه، بل هذه الأشياء فائدته ونتائجه وثمرته والأمر فيه طويل، لكن نقتصر على ما تمس الحاجة إليه وما لا بدّ للتّائب منه.

اعلم يا أخي أن القول الحسن هو القرآن وحديث النّبي المختار، لأنه من الوحي لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم/3 - 4]، فما صح من حديث المصطفى ﷺ فهو في الحرمة ووجوب العمل به كالقرآن الكريم، وأما غير ذلك من كلام الخلق وآثارهم وزماميرهم وصنوجهم فلا عبرة بها، لأنها من جملة الحوادث الفانية، والمحدث لا يقارب القديم ولا يماثله، كيف ولذة استماعه تنقطع بسكوت المتكلم به، ويترك الضّارب نقره في الطنانير ونحوها، اللهم إلا إذا كنت في درجة من يستمع الأصوات ولو من الطيور والأشجار، فترد معنى الكلام على قلبك، كأنك سمعته من خالقك لا إله إلا هو، إذ هو الخالق لتلك الأصوات على الإطلاق، ولا تلتذ به إن سمعته من المؤنث بل تنسب الأشياء لخالقها، على شرط وهو: أن تتدبر معنى كل كلمة، وتقلبها على أربعة أوجه من المعاني، ولا تأخذها بظاهر اللّفظ، وهو ما يعطيه اللّفظ من معاني ظاهره فقط، إلا إذا كان له معنى موافقا لما جاء به نبينا ﷺ، وإن قصرت عبارتك وفهمك، فخذ من القرآن والحديث وغيرهما من الكلام ما وافق السنة، ولتؤمن بما لم تفهمه من الحديث والقرآن، ولا تتعرض لتفسيرهما، وخذ ما تعرف من كلام الخلق، ودع ما تنكر، ولا تغتب قائله، فهذه جملة شافية، والله الموفق سبحانه.

الباب السّادس عشر
في غسل جميع البدن

بصب الماء والتّدلك بجميع البدن فالماء هو الصبر وتدلكه بالبلاء.

اعلم يا أخي أنَّ غسل جميع البدن ينتهي الكلام عليه في خمسة عشر فصلا كاملة والله الموفق سبحانه.

الفصل الأول
في صب الماء وهو الصّبر

قال الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ [المعارج/5]، وقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا

صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل/127] الآية، وقال الجنيد: "الصبر تجرع المرارة من غير تعبيس، وقيل: هو ترك الشكوى من ألم البلوى، وقيل هو: استقبال البلايا بالرضا والثبات عليه، وعلامته أن يكون بين أصحابه لا يفرق بينه وبينهم وهو في غمرات البلاء، ولهذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ [المعارج/5]، وقيل: علامته هي أن يستوي حاله عند النعمة والنقمة، وقال إبراهيم الخواص: الصبر هو الثبات على أحكام الكتاب والسنَّة، وقد أمر الله سبحانه بالصبر فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران/200]، الآية ومدح الصابرين فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص/44] الآية، وأوعد الصَّابرين بالثواب الكثير الذي لا حصر له فقال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر/10]، وبشر الصابرين بحلول صلواته ورحمته تعالى عليهم وشهد لهم بالهداية فقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة/155 - 156]، وشهد لهم سبحانه بالصدق والتَّقوى فقال: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة/177]، وقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان/17]، وشهد لهم الجليل جل جلاله بأفضل من ذلك كله فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة/153]، فمن كان الله معه لا يخذل ولا يضل ولا يزيغ ولا يزل ولا يحقر ولا يغلب، وقال عليه السَّلام: «**الصبر نصف الإيمان**»[1]، وقال عليه السلام: «**الإيمان الصبر والسَّماحة**»[2]، وقال عليه السَّلام: «**انتظار الفرج بالصَّبر عبادة**»[3]، وقال إمامنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»، وقال أيضا: «الصَّبر مطية لا تركب إلا بقدر ما أعطي العبد من التوفيق»، وقيل: الصبر أفضل من الشكر لأن الشاكر مع المزيد قال الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم/7]، والصَّابر مع الله قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة/153].

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (123/7) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) رواه أحمد (385/4) من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما الإيمان؟ فقال: الصبر والسماحة.

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان (204/7) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والصبر على خمسة أقسام: صبر لله، وصبر في الله، وصبر بالله، وصبر مع الله.

فالصبر لله تعالى غناء، والصبر فيه بلاء، والصبر به بقاء، والصبر معه وفاء، والصبر عنه صفاء.

والفرق بين الصبر والمصابرة، فالصَّبر تقدم بيانه وهو ترك الشكوى من ألم البلوى، والمصابرة هو: الصبر على مرارة الصبر حتى يستغرق الصَّبر في الصبر، ويستمد الصَّبر من الصَّبر إلى أن يفر الصَّابر إلى الصَّبر، وقيل في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران/200]، إنَّ الصبر دون المصابرة، والمصابرة دون المرابطة، فمعناه: اصبروا في نفوسكم على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله، ورابطوا بأسراركم على الشَّوق إلى الله و، إن كنت في أشد البلاء وأتمه، وقيل: معناه اصبروا في الله، وصابروا بالله، ورابطوا مع الله، وقيل: إنما قال الله تعالى في حق أيوب عليه السَّلام: ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾ [ص/44] ولم يقل صبورا، والصبور أبلغ في معنى الصَّبر، لأنه من المصابرة. **فالجواب** عنه: أنَّه كان في جميع أحواله يتلذذ بالبلاء ويستعد به، ولذلك كان الدود يطيح منه وهو يرده لجسده، فلا يكون في ذلك الحال مصابرا، والمصابرة لا تكون إلا مع عظيم المشقَّة والكراهة.

فإن قيل: كيف شكى أيوب فقال: ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، وقد قلتم: إنَّ الصَّبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى. **فجوابُه**: أنه ورد في الخبر أنَّ الله تعالى كان يعود أيوب في أسحار أيام البلاء بغير واسطة ولا قطع مسافة، ويقول: حبيبي أيوب كيف أنت في بلائي وحلول دائي، فلمَّا شم أيوب رائحة العافية تأوه حسرة على مفارقة أنس تلك العبادة، فاستوحش لذلك وشكى. وقيل: إنما قال في شكواه ﴿ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ولم يقل: ارحمني حفظا للأدب، فطلب الراحة تعريضا لا تصريحا. وقيل: الأحسن للعابد الصَّبر، وللمحب ترك الصبر، ولهذا وعد يعقوب عليه السَّلام بقوله: فصبر، ثمَّ لم يمسي حتى قال ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. وسئل أبو سليمان الداراني رحمه الله عن الصبر فقال: والله ما نصبر على ما نحب، فكيف نصبر على ما نكره، وسئل السري السقطي رحمه الله عن الصَّبر فأخذ يتكلم فيه، وعلى رجله عقرب، وأخذت تضربه المرة بعد المرة وهو ساكن، فقيل له: هلا ألقيتها، فقال: استحييت من الله أن أتكلم في الصَّبر ولا أصبر. ووقف رجل عند علي الشبلي، فقال له: أي الصَّبر أشد على

الصَّابرين؟ فقال: الصَّبر في الله، فقال: لا، قال: الصبر لله، قال: لا، قال: الصَّبر مع الله، قال: لا، قال الشبلي: فأي صبر هو؟ قال: الصَّبر عن الله، فصرخ الشبلي صرخة كادت تخرج روحه معها. وقال بعضهم: تجرع الصبر، فإن قتلك قتلك شهيدا، وإن أحياك أحياك عزيزا. وقال بعضهم: دخلت بلاد الهند فرأيت شيخا بفرد عين يسمى الصَّبور، فسألت عن حاله، فقيل إنه في شبابه سافر صديق له فخرج لوداعه، فدمعت إحدى عينيه ولم تدمع الأخرى، فقال للتي لم تدمع: ما لكِ لم تدمعي على فراق صاحبي؟، فأنا أحرمك نظر الدنيا وغمضها منذ ستين سنة، فلم يفتحها إلى الآن. وقيل: الصّبر ثلاث؛ على طاعة الله، وصبر على معصية الله، وصبر على البلاء، وهم متفاوتون بعضهم أشد من بعض، أهونهم الصَّبر على الطاعة، ثم الصبر عن المعصية، لأنه يوجد كثير من يصبر على الطَّاعة ولا يصبر على المعصية، والثالث الذي هو الصَّبر على البلاء أشد من الثاني، لأننا نجد من يصبر على الطَّاعة ويصبر عن المعصية، ولا يصبر على البلاء، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الباب الثاني
في التدلك لجميع أعضاء البدن وهو بالبلاء.

قال الله تعالى: ﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة/214] وقال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف/168] وقال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء/35].

اعلم أن البلاء على ثلاثة أقسام: **أحدها**: البلاء على المخلطين وهو نقمة وعقوبة، **والثاني**: على الأتقياء وهو تكفير الذنوب، **والثالث**: البلاء على الصديقين والأنبياء وهو اختبار وامتحان. قال بعضهم: البلاء محنة للغافلين ومنحة للعارفين وقال عليه السلام: "**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**"(1)، وقيل في الأمراض والأوجاع أربعة فوائد تطهير من الذنوب وتذكير بالآخرة ومنع من المعاصي وإخلاص في الدعاء وقال عليه السَّلام: «**إن أهل العافية يودون يوم القيامة أن لو كانت جلودهم قرضت**

---

(1) رواه الترمذي (601/4) وابن ماجه (1334/2) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

بالمقاريض في الدنيا لما يشاهدونه من ثواب البلاء»[1]، وقال عليه السَّلام: «**إنَّ الله يتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بالغذاء**»[2] والله يمن على من يشاء بما يشاء وهو الموفق سبحانه.

الفصل الثالث

في غسل العنق بتقليل مؤن الدنيا وأثاثها وحوائجها

قال ابن عطاء الله رحمه الله ورضي عنه في حكمه: "**ليقلَّ ما تفرح به يقلّ ما تحزن عليه**"[3]. قال ابن عباد رحمه الله: درء المفاسد عند اللقاء أهم من جلب المصالح، فمن زوى الله عنه فضول الدنيا فرضي بذلك وقنع منها باليسير، ولم يتطلع إلى زيادة من مال أو جاه، فهو كامل العقل حسن النظر لنفسه، لأنه دفع عن نفسه مفسدة وجود الحزن فتركه لما لا يفيد حصول مصلحة الفرح الذي يزول عن قريب، وعوض من ذلك الراحة الدائمة كما قيل، ومن سره أن لا يرى أمرا يسوءه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدان، واعلم أن إصلاح دنيا المرء ترجع كلها لفساد. وقيل لبعضهم: لم لا تغتم؟ فقال: لأنني لا أقتني ما يغمني فقده، فالمفروح به هو المحزون عليه، إن قليل فقليل، وإن كثير فكثير، كما قيل في المعنى:

على قدر ما أولعت بالشيء حزنه ... ويَصعب نزع السَّهم مهما تمكنا

ويحكى أنه حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجوهر، ولم ير له نظير، ففرح الملك به فرحا شديدا، فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا؟ قال: أراه مصيبة وفقرا، قال: وكيف ذلك؟ قال: إن انكسر كانت مصيبة لا جبر لها، وإن سرق صرت فقيراً ولم تجد مثله، فاتفق أن انكسر القدح يوما فعظمت مصيبة الملك، وأمثال هذه المصيبة وأعظم منها نازل بكل من له علاقة بشيء من أسباب الدنيا، فإنها إن نزعت منه بغصب وسرقة أو جائحة نازلة، وإلا فلا بدّ أن يؤخذ هو عنها بالموت هادم اللذات المنغص للشَّهوات، فإن كان له ألف محبوب مثلا نزل به عند الموت ألف مصيبة في وقت واحد، لأنه كان يحبها كلها وقد سلبت منه في كرة واحدة، ولذلك كان

---

(1) رواه الترمذي (603/4) من حديث جابر رضي الله عنه.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان (231/7) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(3) الحكم العطائية بشرح ابن عباد، (الحكمة السادسة والعشرين بعد المائتين)، (ص: 82).

الزهد في الدنيا من فضائل العقل، وهذا القدر يكفي في ذلك، والله الموفق سبحانه.

الفصل الرَّابع
في غسل الكتف الأيمن والعضد الأيمن

بالمحبَّة لأنَّ من لم تكن له محبَّة لم يكن له تعظيم.

اعلم يا أخي أن المحبة في اللغة المودة، وفي اصطلاح العلماء هي الإرادة، وفي اصطلاح أهل الحقيقة محبة الله تعالى للعبد إرادته كثرة الإنعام عليه والإحسان إليه بتقريبه وإعطائه الأحوال السنية والمقامات العلية، وإرادته عز وجل صفة واحدة لكنها تختلف باختلاف متعلقاتها، فإذا تعلقت بالغضوبة سميت غضبا، وإذا تعلقت بعموم النعمة سميت رحمة، وإذا تعلقت بخصوص النعمة سميت محبّة. وأمَّا المفهوم من صفات محبَّة الخلق كالميل إلى المحبوب والاستيناس به ونحو ذلك فالله تعالى منزه عنه.

وعلامة محبة الله تعالى للعبيد حب العبد له، ومحبة العبد لله تعالى هي حالة تجد ما في قلبه تلطف عن العبارة، ولا توصف المحبة بوصف، ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبّة، وتكلم النَّاس في اشتقاقها لغة، فقيل إنها مشتقة من الحب، وهو صفاء بياض الأسنان ونضارتها، فتكون على هذا اسما لصفاء المودة، وقيل: من الحباب، وهو ما يعلو الماء من النفاثات مثل القوارير عند صب مائع عليه، فتكون على هذا اسما لغليان القلب وفورانه عند العطش والهياج إلى لقاء المحبوب، وقيل: من حباب الماء وهو معظمه، فتكون على هذا اسما لأعظم ما في القلب، وقيل: أصلها من اللزوم والثبات من قوله: "حب البعير " إذا برك ولم يقم، فهكذا المحب لازم ثابت لا يبرح قلبه من ذكر محبوبه، وقيل: من الحب وهي الخابية لأنه لا يسع غير ما ملأه من الماء، وكذلك القلب لا يسع غير ما ملأه من الحب. هذا كله قول أرباب اللغة. وأمَّا قول المشايخ فيه؛ فقال بعضهم: محبَّة العبد لله تعالى هي التَّعظيم وإيثار الرضى وقلة الصَّبر عنه وكثرة الاستيناس بذكره دائما، وقيل: هو المبادرة إلى أداء الطَّاعات فرضا ونفلا وشدة اجتناب المعاصي، ويؤيد ذلك قوله عليه السَّلام حكاية عن الله تعالى: **"ما تقرب إلي المقرَّبون بأفضل من أداء ما افترضت عليهم ولا يزال عبد**

يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا"[1]، قال بعضهم: حقيقة المحبَّة الميل الدائم بالقلب الهائم، وقيل: إيثار المحبوب على جميع المصحوب، وقيل: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب: وقيل: موافقة القلب لمراد الرب وقيل بمحو المحب من صفاته وإثبات المحبوب بذاته، وقيل: هو أن يهب العبد كله لله تعالى ولا يبقي منه لنفسه شيئا، وقيل: هي أغصان تغرس في القلب فتثمر على قدر العقول وقيل هي حالة لا تنقص بالجفاء ولا تزيد بالبر، وقيل: هي مسلك إلى الله تعالى بكليتك وإيثارك له على نفسك وأهلك ومالك وموافقتك له سرا وجهرا ثمَّ اعترافك بالتَّقصير في حبه، وقيل: هي نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب، وقيل: هي هتك الأستار، وقيل: هي سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ثم السكر الذي يحصل له عنها مشاهدته لا يوصف، وقيل: المحبَّة إيثار المحبوب كامرأة العزيز لما صدقت في المحبَّة قالت في الانتهاء أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصَّادقين: فنادت على نفسها بالخيانة: وفي الابتداء قالت: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف/25]، وقيل هو فتنة تقع في الفؤاد من المراد، وقال الشبلي: أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك، وقيل: المحبَّة الخروج عن البدن والروح، وقيل: إن الحب مركب من حرفين حاء وباء فالباء فيه إشارة إلى الخروج عن البدن فما لم يتحقق الخروج عنه لا يتحقق المحبَّة. وأما الخلة فهي مشتقة من إدخال الشيء في الشيء، وسمي الخليل خليلا لتخلل خليله في قلبه، فوجده مستهلكا في وجوده، فإذا تكلم فبه، وإذا سكت فبه، فهو نصب عينيه في كل حال، ولقد أحسن من أنشد في ذلك حيث قال:

تخللـــت مـــسلك الـــروح منـــي ... وبـــذا سـمي الخلـيل خلـيلا
أنـــت همـــي وهمتـــي وحديثـــي ... ورقـــادي إذا أردت مقـــيلا

ولا يوصف العبد بالعشق لله تعالى، لأن العشق مجاوزة الحد في المحبَّة، ولا يجاوز أحد في محبة الله تعالى قدر استحقاقه، بل لا يبلغ إلى ذلك القدر ولو اجتمعت

---

(1) رواه البخاري في صحيحه (2384/5) من حديث أبي هريرة، ولفظه: "وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه.".

لهُ محبة الخلق كلهم.

واعلم أن المحبة حالة شريفة وهي مطلوبة شرعا قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران/31] وقال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة/54] وقال النبي ﷺ: «**أحبوا الله لما أسدى إليكم من نعمه**»[1]، وقال عليه السَّلام: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**»[2]، وقال عليه السَّلام: «**إذا أحبَّ الله العبد قال لجبريل عليه السَّلام ناد إنَّ الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء فيوضع له القبول في الأرض**»[3]، وقال عليه السَّلام: «**من آثر محبة الله على محبة الناس كفاه الله مؤنة الناس**»[4]، وقال عليه السلام: «**إذا أحب الله تعالى المؤمن حماه من الدنيا نظرا له وشفقة عليه كما يحمي المريض أهله من الطَّعام**»[5]، وقيل أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: أني إذا اطلعت على قلب عبد من عبيدي ولم أجد فيه حب الدنيا ملأته من حبي، وقال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء/36] أي لا تحبوا غيره. وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: يقول الله تعالى: كذب من ادعى محبَّتي ونام عني أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله: «**علامة حب الله تعالى حب ذكره**»[6]، وقال أبو يعقوب السوسي: لا تصح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة وقال السري السقطي: لا تصح المحبة من اثنين حتى يقول أحدهما لصاحبه: "يا أنا"، أشار بذلك إلى الاتحاد، كما روي أن اثنين متحابين ركبا سفينة في البحر فلمَّا توسطوه وغاب عنهم البر من كل ناحية أراد المحبوب الوضوء، فزهقت رجله، فسقط في البحر، فسقط الآخر فورا فاستخرجوهما أرباب المركب بعد مشقة، ثم سئل المحب: ما بالك سقطت في البحر؟ فقال: لما

---

(1) رواه الحاكم في مستدركه (162/3) والبيهقي في شعب الإيمان (366/1) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) رواه البخاري (2386/5) ومسلم (2065/4) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(3) رواه البخاري (1175/3) ومسلم (2030/4) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) رواه القضاعي في مسند الشهاب (275/1) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان (321/7) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(6) قال العلامة المحدث العجلوني رحمه الله في كشف الخفاء (1349/2): "رواه أبو نعيم والديلمي عن عائشة رضي الله تعالى عنها مرفوعا ".

سقط محبوبي سقطت معه ظننت هو الذي سقط بنفسي لفنائها في محبته، وقيل: إذا قال الصاحب لصاحبه: انطلق معي، فقال: إلى أين؟ فقد سقطت المحبة بينهما، وقال السري السقطي أيضا: "المحب إذا سكت والعارف إذا نطق هلك، وقال سحنون: "ذهب المحبوب بشرف الدنيا والآخرة لأن النبيَّ ﷺ قال: **"المرء مع من أحب"**[1] فهو مع الله تعالى"، وقال ابن مسروق: "رأيت سحنونا يتكلم في المحبة فتكسر قنديل المسجد، وقال إبراهيم بن مقاتل: "رأيت سحنونا يتكلم في المحبة فجاء طائر صغير فقرب منه حتى جلس على يده ثم نزل وضرب منقاره الأرض حتى سال منه الدم ومات، وقيل أن شابا أشرف على الناس من موضع عال في يوم عيد وقال يا قوم من مات عاشقا فليمت لا خير في عشق بلا موت ثم ألقى نفسه من ذلك المكان فسقط ميتا، وقيل ادعى رجل محبة شخص والفناء فيه فقال له المحبوب كيف وقع لك معي هذا وأخي أحسن مني وجها وأوتي جمالا فرفع الرجل رأسه يلتفت إلى أخيه وكانوا على سطح فألقاه المحبوب على السَّطح وقال له: من يدَّعي هوانا كيف ينظر إلى سوانا ولهذا قال بعض المشايخ "أوله تحمل وآخره قتل" ويؤيد هذا ما سبق من قول بعض المشايخ المحبَّة الخروج عن البدن والروح جميعا، وقيل كتب يحيى بن معاد الرازي رحمه الله إلى أبي يزيد البسطامي رحمه الله سكرت لكثرة ما شربت من كأس محبّته فكتب إليه أبو يزيد وغيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بل لسانه خارج من العطش وهو يقول: هل من مزيد، وكان سحنون يقدم المحبَّة على المعرفة وأكثر المشايخ يقدمون المعرفة على المحبَّة لأن المحب يتهالك في لذة والمعرفة شهود في حيرة وفناء في هيبة والله أعلم.

الفصل الخامس
في الكتف الأيسر والعضد الأيسر بالشّوق

اعلم يا أخي أننا لما غسلنا العضد الأيمن بالمحبة رأيت أن تغتسل العضد الأيسر بالشوق، ليكون السَّالك بين محبة تزعجه وشوق يطيره، ليحصل للحضرة سريعا إن وفقه الله، **واعلم** يا أخي أنَّ الشوق في اللغة اهتياج القلب إلى لقاء المحبوب، وكذلك في اصطلاح أهل الحقيقة، حتى قال بعضهم: هو احتراق الأحشاء وتلهب القلوب

(1) سبق تخريجه.

وتقطع الأكباد وقيل: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات، وقيل: علامته حب الموت مع كون الإنسان في العافية والراحة كما صنع يوسف عليه السلام، فإنه لما ألقي في الجب لم يقل ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف/101]، ولما دخل عليه أبوه وخر إخوته له سجدا وأوتي الملك وجمع الشَّمل وكمال النعمة قال: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [يوسف/101]، فمات عليه السَّلام، وقيل بعضهم: هل تشتاق؟ قال: لا، لأن الشوق إنما يكون إلى غائب وهو حاضر سبحانه، وقيل: شوق أهل القرب أتم من شوق المحجوبين، ولهذا قيل: أفرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الخيام من الخيام، وقال السري السقطي رحمه الله: الشَّوق أجل مقام العارف، وقال بعضهم: "الشوق على الدرجات في أعلى المقامات فإذا بلغه الإنسان استطاب الموت شوقا إلى لقاء ربه والنظر إليه".

والشوق ثمرة المحبَّة، فبقدر المحبَّة يكون الشَّوق، ويؤيد ذلك ما روي أن رجلا سأل ابن عطاء الله: هل الشَّوق أعلى أم المحبة؟ فقال: المحبَّة لأن الشَّوق يتولد منها، قلت: ولذلك جعلت المحبَّة يغسل بها الكتف الأيمن والعضد الأيمن والشَّوق يغسل به الكتف الأيسر والعضد الأيسر، إشارة إلى أن اليد اليمنى أقوى من اليسرى، وإن كان الشَّوق أعلى من المحبة قدرا، فهي أثبت منه أصلا، وذلك كنسبة الأثمار من الأشجار، والله أعلم.

واعلم أنه لا فرق بين الشَّوق والاشتياق، وفرّق بينهما أهل الحقيقة وفي اللغة، فقال أبو علي الدقاق: "الشوق يسكن باللقاء والاشتياق يزيد به"، وقال النصرآبادي: "الخلق كلهم مقام الشَّوق وليس لهم مقام الاشتياق وهو أعلى"، وقال أبو علي الدقاق في قول موسى عليه السَّلام: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه /84] أراد شوقا إليك فستره، وقيل مكتوب في التوراة: شوقناكم فلم تشتاقوا، وخوفناكم فلم تخافوا، ونحنا لكم فلم تنوحوا، وقال مالك بن دينار رضي الله عنه: "قرأت في التَّوراة شوقناكم فلم تشتاقوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا" وفي الخبر: "**اشتاقت الجنة إلى ثلاث علي وعمار وسلمان الفارسي رضي الله عنهم**"[1]، وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ

(1) رواه الحاكم في مستدركه (148/3) من حديث أنس رضي الله عنه.

علمه هذا الدعاء وأمر أن يتعاهد به زوجته وأهله في كل صلاة وهو: "**اللهمّ إني أسألك الرضى بالقضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة**"[1] إشارة إلى ما ذكرنا في قصة يوسف عليه السَّلام. قال أبو علي الدقاق في قوله عليه السَّلام: وأسألك الشَّوق إلى لقائك كان الشَّوق مائة جزء فتسعة وتسعون له عليه السَّلام والجزء الباقي لأمته مقسوم عليهم بحسب مراتبهم فغار عليه السَّلام من الشركاء في الشَّوق وطلب الكل، والله أعلم، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الفصل السَّادس
في غسل الجانب الأيمن بالغسل المعنوي بالغيرة

اعلم يا أخي أن الغيرة في اللغة هي مشاركة الغير، وكذلك هي في اصطلاح أهل الحقيقة، وقال بعضهم الغيرة وصف أهل البداية، وأمَّا المنتهى فإنه لا يرى الغير، ولا يعترض في المملكة لفقد اختياره فالحق أن الغيرة لله تعالى حق، وهي أن لا يجعل العبد شيئا من أحواله وأنفاسه لغير الله، وإن وقعت له فلتة في شيء من أقواله وأفعاله وأخلاقه أو شيء من جميع أحواله في غير رضاء الله فيغير عليه، ويصلح ذلك الباب الذي انفتح له في ما لا يرضي الله لشدة غيرته على ذلك مما يغير على زوجه أو ابنته أو أحد النساء من أقاربه أن يتكشف عليها غير القريب منها فعلى ذلك فالغيرة لله توجب تعظيم حقوقه وجميع أوامره ونواهيه وينتج عن الغيرة في الله تصفية الأعمال من الرياء لأنه يكره المشاركة، وقال عليه السلام: «**اقتلوا من لا غيرة له**».

والغيرة على ثلاثة أقسام: غيرة على الزوجات والبنات وشبههن من بنات العم والخالات والعمات، فهذه غيرة حسنة يثاب عليها المؤمن لأجل صيانة العرض والدين، فهذه غيرة العامة. وغيرة على الأقوال والأفعال أن يقع شيء منها في غير رضاء الله تعالى، فهذه غيرة الخاصة. وغيرة على القلوب والأوهام والخطرات أن يخطر فيها ما لا يرضي الله تعالى. وهذه غيرة الخاصة، وزاد أهل الحقيقة اسما رابعا وهو أعلاها وأفضلها وهو أن يغير العبد على سره أن يلتفت لغير الله سبحانه وهذه غيرة خاصة الخاصة.

---

(1) رواه أحمد في مسنده (191/5).

واعلم أنَّ الغيرة من لوازم المحبَّة، ولذلك خصصناها بالجانب الأيمن لأن المحبّة من خصائص الميامن كما تقدم قبل هذا الفصل والذي قبله، قال أبو علي الدقاق في قوله عليه السلام: "**حبك للشيء يعمي ويصمي**"[1]، أي عن الغير غيرة وعن المحبوب هيبة وقيل الغيرة على الله تعالى جهل وربما أفضت إلى الكفر وغيرة الحق على العبد أن لا يجعله للخلق بل يضربه عليهم وقال الشبلي الغيرة غيرتان غيرة البشرية على النفوس وغيرة الإلهية على الأنفاس لا تضيع فيما سوى الله تعالى، قال أبو القاسم الشاطبي رحمه الله في شطر بيت من رجز الأماني: فيا ضيعة الأعمار تمضي تبهللا. قال الإمام القشيري رحمه الله: مثاله آدم عليه السَّلام لما وطن نفسه على الخلود في الجنة وطيباتها أخرجه الله منها غيرة عليه، وإبراهيم لما أعجبه إسماعيل عليهما السَّلام أمره بذبحه حتى أخرجه من قلبه فلما أسلما وتله للجبين صفا سره وأمره بالفداء عنه، وقيل: مرضت ربيعة العدوية فقيل لها: ما سبب علتك؟ فقالت: نظرت إلى الجنة بقلبي فغار علي قلبي فأدبني وقد آليت ألا أعود، وقيل لبعضهم: تريد أن تراه، فقال: لا، فقيل: لم؟ فقال: أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي، وسئل الشبلي متى تستريح؟ فقال: إذا لم أر له ذكرا، وسمع أبو الحسن رجلا يؤذن فقال له طعنة وسما الموت غيرة لله كيف ذكره المؤذن بلسانه مع غفلة قلبه عنه، وأذن الشبلي مرة فلمَّا انتهى إلى شهادتي النَّبي صلَّى الله عليه وسلم قال: إلهي لولا أنك أمرتني ما ذكرت معك غيرك، وكان أبو الحسن الحرقاني رحمه الله يقول: لا إله إلا الله من داخل القلب ومحمَّد رسول الله من الفرط قلت ما أدري ما أرادوا بهذه الأقوال ونحن نقول ما نعرفه ولكن نسلمه لأربابه لكن الإمام القشيري رحمه الله وجد ذلك بوجه حسن فقال: ولا يتوهم أن هذا منهما استخفافا بالنَّبي عليه السَّلام بل مع عظمته وكل مخلوق لا خطر له بالإضافة إلى الله تعالى فاعلم ذلك والله الموفق.

الباب السَّابع

في غسل الجانب الأيسر في الغسل المعنوي بالصحبة

لقوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ﴾ [النساء/36].

اعلم يا أخي أنه إذا كانت الغيرة أعلى درجة من الصحبة جعلناها للجانب الأيمن،

(1) رواه أبو داود (755/2) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

والصحبة لضعفها بالنسبة لما قبلها جعلناها للأيسر للمناسبة القوي للقوي والضعيف للضعيف.

واعلم أن الصحبة في اللغة والحقيقة بمعنى واحد، وهي عند أهل الحقيقة على ثلاثة أقسام: صحبة مع من فوقك وهي في الحقيقة خدمة، وصحبة مع من دونك تقتضي رحمة من المتبوع وشفقة عليه وتوجب على التَّابع الوفاء والحرمة وصحبة الأكفاء والنصراء وهي مبنية على الإيثار والفتوة، فمن صحب شيخا فوقه في الرتبة فأدبه ترك الاعتراض عليه ظاهرا وباطنا وحمل ما يبدو منه على وجه جميل، ومن صحب مثله فسبيله التعامي على عيوبه وتأويل ما ينكر منه بأحسن التأويلات مهما أمكن فإن لم يجد له وجها عاد إلى نفسه بالتوبة واللَّوم قلتُ هذا إذا لم يخش أن يكتسب من أخلاقه أخلاقا سيئة تقطعه وتبعده من رضاء الله تعالى وأمَّا إذا خشي الوقوع في شيء من ذلك فيجب عليك تركه ومباعدته ويرحم الله القائل حيث قال:

وكنا كغصني بانة ليس واحد … يزول على الحالات من رأي واحد

فبدلني خلّا فبدلت غيره … وبدلته لما أراد تباعدي

ولو أن كفي لم تردني قطعتها … ولم يصحبها بعد ذلك ساعدي

وقال أبو محمد العسقلاني رحمه الله وكان من مشايخ الجنيد: صحبت أقواما فأكرموني فقلت لبعضهم مرة أين إزاري فسقطت من أعينهم والمعنى إذا حصلت الصحبة لم يبق بينهما شيء يختص به أحدهما حتى يضيفه إلى نفسه، ولهذا قال إبراهيم بن شيبان: كنا لا نصحب من يقول نعلي، وقال رجل لسهل بن عبد الله: "أريد أن أصحبك فقال: إذا مات أحدنا فمن يصحب الثاني منا فقال الله تعالى قال سهل فليصحبه من الآن"، ومثله ما روي أن رجلا سأل ذا النون المصري رحمه الله: لمن نصحب؟ فقال: أصحب من لا تكتمه شيئا يعلمه الله منك، وفي رواية أخرى: أصحب من إذا مرضت عافاك، وإذا أذنبت تاب عليك، وقال ذا النون: الصحبة مع الله بالموافقة، ومع الخلق بالمناصحة، ومع النفس بالمخالفة، ومع الشيطان بالعداوة، وكان إبراهيم ابن أدهم إذا صحبه إنسان شرط عليه ثلاثة أشياء: أن تكون الخدمة والأذان على إبراهيم، وأن لا تختصَ عليه شيئا من الدنيا، وقيل: كل صاحب يقال له قم، فيقول إلى أين فليس بصاحب.

واعلم أن ركن الصحبة شيء واحد وهو أن يقصد كل واحد منهما أن يكون الربح

مع الآخر في كل حال، ويتفرع من ذلك النصح والشفقة والإيثار والجود بالنفس والمال إلى غير ذلك، ولما أثبت الله تعالى للصديق رضي الله عنه من الصحبة مع النَّبي ﷺ ما أثنى عليه لا تحزن إن الله معنا، وحكي عن أبي علي الرباطي قال: صحبت عبد الله الجريري، وكان عادته أن يدخل البادية بلا زاد فلما صحبته خيرني أن أكون أميرا أو مأمورا فاخترت أن أكون مأمورا، ثمَّ دخلنا إلى البادية فأخذ المطر ليلة فوقف إلى الصبح على رأسي وعليه كساء يمنع به عني المطر، وكلما سألته أن يقعد قال لي: أنا الأمير وعليك الطاعة، فمازلت أقول ليتني لم أفوض إليه الإمارة ولم يزل يخدمني في تلك السفرة، ثم قال لي عند مفارقته: "إذا صحبت أحدا فاصحبه كما رأيتني صحبتك فهذه رتبة عالية فعليك بها" والله الموفق سبحانه.

الفصل الثَّامن
في غسل الصَّدر بالغسل المعنوي وغسله هنا بالتَّصوف

اعلم يا أخي أن التصوف في أهل الحقيقة التخلق بأخلاق الصوفية، والتوصل بأوصافهم إلى الانتظام في سلكهم والصوفية جمع صوفي، قال الإمام القشيري: فليس لهذا الاسم في العربية قياس ولا اشتقاق فالأظهر فيه أنه كاللقب، وقيل للشبلي: لم سميت هذه الطَّائفة بهذا الاسم؟ فقال: لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ولولا ذلك لما تعلقت عليهم تسمية، وقال بعضهم: التصوف مشتق من الصوف، قال: تصوف الرجل إذا لبس الصوف وكان ممن لم يلبسه، كذا يقال: تقمص الرجل إذا لبس القميص، الصوفي منسوب إلى الصوف، ولهذا القول وجه من حيث العربية إلا أن القوم لم يخصوا بهذا الاسم لابس الصوف، وقيل هو منسوب إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ وأخذهم طريقة سكانه على عهده عليه السَّلام، وكانوا سبعون رجلا ليس لهم مأوى ولا قرار إلا ذلك الموضع من المسجد، وكان الغرباء ومن لا دار له ينزلون عليهم، وهم قوم معرفون بأسمائهم وأوصافهم في غير هذا الكتاب رضي الله عنهم، فكل من يدعى بهذا الاسم بعدهم فهو يسمى بهذا الاسم لأخذه طريقة أهل الصفة من التجريد وغيره، وقيل اشتقاقه من الصفا، وقيل من الصف لأنهم من الصف الأول فقلوبهم مع الله في المحاضرة، وهذه الأقوال الثلاثة قريبة من حيث المعنى بعيدة من حيث اللفظ، فإنَّ النسبة إلى الصفة صفي، وإلى الصفاء صفائي، ويرحم الله الشيخ والدي رحمة عامة حيث استشهد على هذا الأمر في تأليفه "بشرى السعادة في طريقة أهل

الإرادة" ببيتين من شعر لغيره لكن وجدت نقصا بالبيت الثاني فأصلحته وهذا هو الشعر المذكور:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنوا أنه مشتق من الصوفِ
وليس ذاك إلا امرؤ قد صفا زيد صفاء صفا فسمي الصوفى

وقد اختلف أهل الحقيقة في تفسير التَّصوف اصطلاحا، فقيل: التصوف هو الخروج من كل خلق دني والدخول في كل خلق سني، وقيل: هو مزاحمة الأحوال ولزوم الأدب، وقيل: هو شغل كل وقت بما هو الأهم فيه، وقال الجنيد: هو الكون مع الله بلا علاقة، وقال أيضا: هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به، وقال أيضا: هو عنوة لا صلح فيها، وقال أيضا: هو ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع أي فهم مع استماع وعمل مع اتباع، وقال الشبلي رحمه الله: هو الجلوس مع الله بلا هم، وقيل هو الإناحة عند باب الحبيب وإن طردك، وقيل: هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التَّصوف، وقيل: هو إسقاط الجاه وسواد الوجه في الدنيا والآخرة مما يضمحل معها معالم الإنسانية، وقال الأستاذ أبو علي الدقاق: أحسن ما قيل في ذلك قول بعضهم التَّصوف طريق لا يصلح إلا لقوم كنس الله بأنفسهم المزابل، وقيل: الصوفي من لا يملك شيئا ولا يملكه شيء إلَّا الله، وقيل: الصوفي من يرى دمه هدرا وملكه مباحا، وقال الحضرمي الصوفي: من لا تقله الأرض ولا تظله السَّماء، وقال الإمام القشيري رحمه الله: أشار إلى حال المحو وقيل: علامة الصوفي الصَّادق أن يفتقر بعد الغنى ويذل بعد العز ويخمل بعد الشهرة وعلامة الصوفي الكاذب ضد ذلك، وقال الجنيد: الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح، وقال أيضا: الصوفي كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالسَّحاب تظل كل شيء وتسقي كل شيء وقال أيضا: إذا رأيت الصوفي ظاهره بلا علم، وقال الشبلي: الصوفي منقطع عن الخلق غير متَّصل بالحق كما قال الله تعالى لموسى عليه السَّلام: واصطفيتك لنفسي قطعه عن كل غير، ثم ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف/143]، وقيل: الصوفي لا يكدره شيء ويصفوا به كل شيء، وقيل: الصوفي يكون مع الواردات لامع وارد، وقيل: التَّصوف السكون عند العدم والإيثار عند الوجود، وقيل: الصوفي وحداني الذَّات لا يعبده أحد ولا يقتله أحد، وقال حمدون القصار: اصحب الصوفية فإنَّ للقبيح عندهم وجوها من المعاذير وليس للحسن عندهم موقع، ومعناه اعتادوا فعل الحسن فلم يبق عندهم غريبا

ذا موقع لأنهم صار لهم كالفعل الطَّبيعي الذي لا يحمد عليه الإنسان كالسمع والبصر والفهم ونحو ذلك والله الموفق سبحانه.

الفصل التَّاسع

في غسل ظاهر القلب بالغسل المعنوي

وغسله يكون بالحرية والفتوة ويحتوي هذا الفصل على فصلين الفصل الأول منهما في الحرية.

اعلم أن الحرية في اصطلاح أهل الحقيقة: الخروج عن الكائنات وقطع جميع العلائق، ولهذا قال إبراهيم بن أدهم: الحر من خرج من الدنيا قبل أن يخرج منها: وعلامة الحر سقوط التمييز عن قلبه بين أمور الدنيا والآخرة فلا يسترقه عاجل دنياه ولا آجل عقباه: كما قال عليه السَّلام: «**عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها**»[1]: فالحر يؤثر الخلق بجميع الكائنات من الدارين ولا يكون له سؤال ولا قصد ولا أرب ولا حظ ومقام الحرية عزيز: ومعظم الحرية في خدمة الفقراء، وقيل: أوحى الله تعالى لداود عليه السَّلام: إذا رأيت لي طالبا فكن له خادما، وقال عليه السَّلام: «**سيد القوم خادمهم**» والأحرار هم الذين قال الله تعالى فيه ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر/9] وإنما آثروا على أنفسهم لتجردهم عما خرجوا عنه وآثروه، وقال عليه السَّلام: «**إنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه**»[2] وإنما يصير إلى أربعة أذرع وشبر وإنما يرجع الأمر إلى آخره، ولا بدّ لكل مخلوق أعني من الآدميين من ذلك في الغالب إذ لا يقبر إلا الآدميين، ولذلك قلنا في الغالب لأن بعض الآدميين لا يقبر في هذا المقدار المعلوم كمن يفترسه الأسد والوحوش والطيور والحيتان وغير ذلك، فحيث كان الأمر محققا أنه لا بدّ من ذلك على كل حال فالحرية

---

(1) ليس هذا من كلامه عليه الصلاة والسلام، وإنما هو من كلام حارثة في حديثه المشهور، لما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا مؤمن حقا، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: وما حقيقة إيمانك؟ " قال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها. الحديث. أخرجه البزار من حديث أنس والطبراني من حديث الحارث بن مالك. انظر: تخريج أحاديث الإحياء للعراقي (103/4).

(2) رواه أبو نعيم في الحلية (139/1) ولكن من كلام ابن مسعود رضي الله عنه موقوفا عليه.

الموصوفة أولى بكل مؤمن ومؤمنة. **واعلم** أن كمال الحرية هو كمال العبودية، فمن صدقت لله عبوديته خلصت عن رق الكائنات حريته، والله الموفق سبحانه.

الفصل الثاني من هذا الفصل
في الفتوة

اعلم يا أخي أن الفتوة في اللغة: السخاء والكرم، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي: إيثار الخلق بنفسك بعد أن تؤثرهم بالدنيا والآخرة، وذلك أن تجعل نفسك لكل خسيس ونفيس فيما يريد وتمكنها من التصرف فيك بالدنيا والآخرة، وقيل: هو الصفاء والسخاء، وقيل: هو أن تضع المعروف مع أهله ومع غير أهله غيره وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: "**لا يزال الله تعالى في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه**"[1] وقيل: هو الصفح عن عثرات الإخوان وستر عيوبهم، وقيل: هذا أقل درجات الفتوة وقيل الفتوة أن لا ترى لنفسك فضلا على غيرك وقيل هي أن تنصف ولا تنتصف، وقيل: هي حسن الخلق وقيل هي الإعراض عن الكونين والأنفة عنها وقال الجنيد: "هو كف الأذى وبذل النّدا"، وقيل: هي اتباع السنة، وقيل هي إظهار النعمة وكتمان المحنة، وقال أحمد ابن حنبل: هي ترك ما تنهى لما تخشى، وقيل: الفتى من لا خصم له، وقيل: الفتى من كسر الصنم الأكبر وهي النَّفس أخذا من قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السَّلام لما كسر الأصنام: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء/60] فهذه ستة عشر قولا في تفسير الفتوة.

والفتوة على قسمين: فتوة الخواص وهي ما بيناه في أول الفصل، وفتوة العوام وهي أن لا تربح على صديقك أي إذا اشترى منك صديقك شيئا، فتبيع له برأس مالك خاصة ولا تطلب منه ربحا زائدا على ذلك، وقال أبو علي الدقاق: كمال وصف الفتوة والإيثار لم يكن لأحد من البشر إلا لسيدنا محمد ﷺ، فإن كل نبي يقول يوم القيامة: نفسي نفسي، وهو عليه السلام يقول أمتي أمتي، وقيل أصل الفتوة الإيمان، ولذلك سمّى الله تعالى أصحاب الكهف فتية لـمَّا آمنوا بربهم، فقال تعالى: إنهم فتية آمنوا بربهم، وقيل إنما سماهم فتية لأنهم آمنوا بربهم بغير واسطة، وقال الجنيد: "الفتوة بالشام واللسان بالعراق والصدق بخراسان" ثم اعلم أن الحرية أشرف من الصدق

(1) رواه البخاري (862/2) ومسلم (1996/4) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والفتوة أشرف منهما، والمروءة شعبة من الفتوة، والفرق بين الزاهد والفتى فالزاهد من آثر عند الغنى والفتي من آثر عند الحاجة قال الله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر/9].

وسأل شقيق البلخي جعفر بن محمَّد الصَّادق الشريف الحسني رضي الله عنه عن الفتوة، فقال له: قل أنت، فقال شقيق: إن أعطينا شكرنا وإن منعنا صبرنا، فقال له جعفر: الكلاب عندنا بالمدينة يفعلون هكذا، فقال له شقيق: قل أنت يا ابن رسول الله ﷺ إن أعطينا آثرنا وإن منعنا شكرنا، وكان يقول للنصرآبادي كثيرا أن عليا القوال يشرب بالنهار، وكان لا يسمع فيه ما يقال فاتَّفق أنه كان يمشي يوما، ومعه من كان يذكر ذلك عن علي، فقال ذلك الرجل: كم أقول للشيخ عنه وهو لا يصدق فيه، فنظر إليه الشَّيخ نظر غضب، وقال له: احمله على رقبتك إلى منزله، ففعل الواشي، ففعل ذلك ولم يجد منه بدا، والله الموفق سبحانه.

الفصل العاشر
في غسل باطن القلب
بمعرفة القلب والروح والنَّفس وعجائبها

اعلم يا أخي أن النفس والروح في اللغة بمعنى واحد، والنفس بمعنى الجسد، والقلب في اللغة هذه المضغة المعروفة، وقد يعبر به عن العقل، وبه فسر الفراء قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق/37] وقال ابن فارس: وخالص كل شيء وأشرفه قلبه، وفي اصطلاح الحكماء أيضا لا فرق بين النفس والروح كما قال أهل اللغة، وعند الأطباء النَّفس قوة كلية مدبرة للبدن منصرفة في أنواع قوة الجزئية، والروح عندهم بخار الدَّم ولطيفه، وعند بعض أهل الحقيقة النفس والروح والقلب بمعنى واحد وهو الإرادة المتعلقة بهذه المضغة المعروفة وذلك المعنى هو المراد بقوله عليه السَّلام: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[1] وعند بعض أهل التَّحقيق من أهل السنة الروح هي الحياة وهي غير مكيفة قلت وقد وضعت قبل هذا عقيدة في

(1) رواه البخاري (28/1) ومسلم (1219/3) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

تنزيه الجليل جل جلاله قلت في تسميتها هذا البيت:

سميتها ببهجة النفوس للمبتغي التنزيه للقدوس

وقلت في تاريخ كمال مبيضتها وعدة أبياتها:

أبياتها تنهي لنقط رده في يب قعدة من عام شظه

أعني أبياتها مائتي بيت وتسعة أبيات البيت في التّاريخ معلوم، وجاءت عقيدة عجيبة حسنة فيها من التنزيه لله تعالى وتعظيمه مالا يوجد في غيرها من الكتب، ولا يعجز عنها بعد العلم بتسميتها وفائدتها إلا محروم، ونسأل الله السّلامة.

ولنرجع لما كنا بصدده من قول أهل السّنة، الروح هي الحياة، وعند بعضهم هي عين لطيفة مودعة في هذه القوالب تلازمها الحياة عادة ولها ترو في حالة النّوم ومفارقة البدن، ثمّ لها رجوع إليه حالة اليقظة، والإنسان هو مجموع الروح والنّفس والجسد، وقد سخر الله تعالى هذه الجملة بعضها لبعض، والجسد يكون للجملة، وكذا العقاب والثواب، والأرواح مخلوقة، ومن قال بقدمها فهو مخطئ خطأً عظيما.

وقال الإمام القشيري: النّفس في اصطلاح أهل الحقيقة ما كان محمودا ومذموما من أوصاف العبد وأفعاله وأقواله، ويحتمل أن تكون النفس الطيبة مودعة في قالب البدن، وهي محل للأخلاق المذمومة كما أن الروح لطيفة مودعة فيه، وهو محل الأخلاق المحمودة، ومثال الروح والنّفس من الأجسام اللّطيفة للملائكة والشياطين، والروح أشرف من القلب، والنّفس على ثلاثة أقسام: النّفس الأمارة وهي الأخلاق المذمومة كالشهوة والغضب والكبر والحرص والحسد والبخل والرياء، والنّفس اللوامة ويأتي بيانها، والنّفس المطمئنة وهي نور من أنوار القدس فائض على جوهر القلب، والنفس اللّوامة هي النفس المطمئنة إذا تدنّست بأوساخ المعاصي تلوم صاحبها على ما فعل، والنفس بمعنى الجسد هو العالم الأصغر، وهو أنموذج واسطرلاب لجميع ما في العالم الأكبر من الآثار العلوية والصور السفلية فيها من العجائب لا يدركها إلا الراسخون في العلم، ولذلك وقعت الإشارة الإلهية بقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات/21]، فنظير الأفلاك السّبعة الرأس واليدان والفخدان والساقان على الترتيب من الأشرف إلى الأدنى كما في الأفلاك، ونظير البروج الاثنا عشر منافذ الإنسان وهي الأذنان والعينان والمنخران والفم والسرة والأنثيان والسّبيلان، وكل ما كان من هذه المنافذ زوجا فإن أحدهما شمالي والآخر جنوبي كما في البروج، فإن ستة

منها شمالية، وستة منها جنوبية، ونظير السَّبعة السيارة القوى السبعة السيارة في البدن، وهو قوة البصر والسمع والذوق والشم والنطق واللمس والفهم، ونظير عقدة الرأس والذنب من الأفلاك سوء المزاج وصلاحه يجامع خفائها، وظهور الأثر منها بقدر، المؤثر وهو الله تعالى وحركات القوى في البدن كحركات الكواكب وطلوعها، ومؤنث القوى كغروب الكواكب واستقامتها كاستقامتها وأمراض القوى كآفات الكواكب والعقل في الجسد كالشَّمس والعلم كالقمر، ولما كان القمر يستمد من نور الشَّمس وبقربه وبعده منها تظهر الزيادة والنقصان والمحاق في القمر، وكذلك العلم يستمد من العقل فعلم كل أحد على قدر عقله ومن لا عقل له فعلمه ممحوق كالقمر في الاحتراق وهو علم الكافر ودينه لأنهما ممحوقان بظلمات الشرك بالله لقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر/65] والله هو العالم بحقيقة ذلك، والأرواح في الأبدان كالملائكة في الأفلاك ونظير المنازل الثمانية والعشرين أصابع اليدين والرجلين، وهم عشرون، والذكور من الذكور والثديان من الإناث والكتفان والتراقيان والعنق فهذه ثمانية وعشرون، فهذا وجه مشابهة الجسد للعالم العلوي ووجه مشابهة الجسد للعالم السفلي أيضا أن الجسد بمشابهة الأرض، والعظام فيه كالجبال، والأمخاخ فيه كالمعادن والبطن كالبحر، والأمعاء والعروق كالأنهار والجداول وهم السواقي واللحم فيه كالتراب والشعور كالنَّبات، والأيدي والأرجل كالأشجار، والأظفار كالأغصان، والوجه كالمشرق والقفا كالمغرب واليمين كالجنوب والشمال كالجوف، وهو النجم الثَّاقب وناحيته هي ناحية الشمال ومن ها هنا هي المشابهة أعني بجهة الجوف وهو الشمال وأمام ووراء كالقبل والدبر والأنفاس كالرياح والكلام كالبرق والأصوات كالرعود والصواعق والفرح كالنور والهم كالظلمات والبكاء كالمطر والضحك كإشراق الشمس واليقظة كالحياة والنوم كالموت وأيام الصبا كالربيع والشباب كالصَّيف والكهولة كالخريف والشيخوخة كالشتاء وكما أن في النَّبات ما يغلب عليه بعض الكيفيات ومنها ما هو معتدل فكذلك أعضاء الإنسان وأجزاؤه وكذلك في الأجسام ما ينمو وما لا ينمو وكذلك في الإنبات ومنها ما ينتف وما يحصد وكذلك في الأجساد ينتف شعر الإبطين ونحوها وما يحصد كشعر الرأس ونحو ذلك ولـمَّا كان في الأشجار ما يقطع وينمو بعد القطع نظيره في الإنسان الأظفار، ولما كان بعض الأشجار إن قطع رأسه مات كالنخل وكذلك الأجساد إن قطعت رؤوسها ماتت وأمَّا طباع الحيوانات وأخلاقها فتوجد كلها

في الإنسان أيضا في اختلاف أحواله فتارة يكون شجاعا كالأسد وتارة جبانا كالأرنب وتارة كالكلب وتارة متملقا كالهر وتارة متكبرا كالنَّمر وتارة أنيسا كالحمام وتارة محتالا كالثعلب وتارة سليما هينا كالشَّاة وتارة عجولا كالظبي وهو الغزال وتارة عزيز النفس كالفيل وتارة خسيسا كالجمل وتارة جهولا كالحمار وتارة ذكيا كالفرس وتارة مختالا كالطَّاووس وتارة أخرس كالسمك وتارة ناطقا كالهزار وتارة ختالا كالذيب وتارة حريصا كالخنزير وتارة مشؤوما كالبوم وتارة ميمونا كالببغاء وتارة نافعا كالنّحل وتارة ضارا كالفأر قلتُ فعلى هذا الإنسان هو العالم الأوسط الأصغر، لأن العوالم ثلاثة العالم العلوي والعالم السفلي والعالم الأوسط فالعالم العلوي هو السماوات وما تحتها والعالم السفلي الأراضي وما تحتها والإنسان هو العالم الأوسط الأصغر لأنه أصغر منهما وهو متوسط بينهما وفيه جميع ما فيهما مثاله مع العوالم كالفيل والبعوضة لأن فيها جميع ما في الفيل من الزلومة وغيرها مع عظم الفيل وصغر البعوضة وزادت عليه بالجناحين والفيل ليس له جناح وكذلك الإنسان زاد على السموات والأرضين بالإيمان والكفر لأن تلك العوالم لا توصف بإيمان ولا بكفر وبهذه النسبة يشابه الجنة والنار لأن الجنة واسعة بهية منورة ذات أثمار وخيرات لا تنحصر وموصوفة بأعلى عليين ونظيره في الإنسان الإيمان واسع بهي منور ذو أثمار كثيرة من العلوم والمعارف والعلو والعظمة والرفعة والروائح الطيبة ومحل الرضى ونظير الكفر جهنم معلومة بالضيق والحرج والظلمات والنتن ومحل السخط والغضب فهذه بعينها أوصاف الكفر والعياذ بالله ومن شرف الإنسان أنَّ الله تعالى خلق جميع المجودات ولم يثن على نفسه كخلق الإنسان لغرائب صفاته وعجائب ذاته فقال تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ [الرحمن/1 - 4]، ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون/12] إلى قوله ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون/14]، وقال بعض أهل الحقيقة: القلب نور له شعبتان شعبة ممتدة إلى عالم الملكوت وشعبة ممتدة إلى عالم الكون والفساد، فلهُ بالشعبة الأولى نسبته إلى الملائكة، وله بالشعبة الثانية نسبة إلى أهل الأرض، وبالشعبة الأولى يصلح معاده، وبالثانية يصلح معاشه فمتى أدركته العناية الأزلية إلى لقاء الحق يذوق حلاوة اللَّذات القدسية غلبت الشعبة الأولى على الثانية غلبة يحصل معها الفناء عن عالم الحس والبقاء في عالم القدس فيصير مكاشفا مشاهدا

لما في العالم العلوي من العجائب والغرائب، وتلك فضيلة يخص الله تعالى بها من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم.

الفصل الحادي عشر
في غسل البطن بالغسل المعنوي

وغسله هنا بالورع.

اعلم يا أخي أن الورع والتقى في اللغة بمعنى واحد وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو اجتناب المشبهات خوفا من الوقوع في المحرمات وقيل هو الوقوف مع ظاهر الشرع من غير تأويل وقيل هو ترك كل شبهة ومحاسبة النَّفس في كل طرفة وقال الشبلي: الورع ترك ما سوى الله تعالى وقد ندب النبي ﷺ إلى الورع فقال: «**الحلال بين والحرام بين وبينهما طرق مشتبهات فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» وفي رواية أخرى: «**وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من النَّاس فمن اتقى الشبهة استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهة وقع في الحرام**» فقال عليه السَّلام: «**ألا وان لكل ملك حمى وحمى الله محارمه فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع**»[1] وقال عليه السَّلام: «**الورع سيد العمل**»[2] وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: لم يتقرب المتقربون إلي بمثل الورع، وقال بعض أولاد مولانا علي رضي الله عنه وكرم وجهه: ملاك الدين الورع وآفته الطَّمع، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: كنا ندع سبعين باب من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام، وقال الحسن البصري رحمة الله عليه: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصَّلاة، وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: الورع أول الزهد كما أن الرضى أول القناعة، وقال إسحاق بن ساق: الورع عن الكلام أشق من الورع عن الذهب لأنهما يبذلان في طلب الرياسة، وقال بشر الحافي: أشق الأعمال ثلاثة: الجود في القلة والورع في الخلوة وكلمة الحق عند من يخاف أو يرجى، وقيل وقع لعبد الله بن مروان فلس في المرحاض فاكترى عليه بثلاثين دينارا حتى أخرجه فقيل له في ذلك فقال كان فيه اسم الله، وحمل إلى عمر بن عبد العزيز

---

(1) سبق تخريجه، انظر الحديث السابق.

(2) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الورع (ص: 43) وأبو نعيم في حلية الأولياء (386/2) والقضاعي في مسند الشهاب (59/1) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

مسك من الغنائم فمسك على أنفه وقال إنما ينتفع من هذا بريحه وأنا أكره أن أشم ريحه دون سائر المسلمين، وقيل إن مالك بن دينار أقام بالبصرة أربعين سنة ولم يأكل من تمرها ولا من رطبها شيئا حتى مات رحمة الله عليه وكان إذا انقضى وقت الرطب قال يا أهل البصرة هذا بطني ما نقص منه شيء ولا زاد في بطونكم شيء وقال إن ابن المبارك رجع من بعيد ليرد ما استعاره وقيل من يده فنزل على الدابة ورجع إلى السوط فأخذه ثم جاء وركب فقيل له لم لا رجعت إلى السوط راكبا قال إنما استأجرت الدابة لأمضي بها لا أرجع، وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه لا يجلس في ظل شجرة لغريمه ويقول كل قرض جر منفعة فهو ربا وحكي أن أبا يزيد البسطامي اشترى بهمدان قرطا وسافر إلى بسطام فوجد نملتين فرجع إلى همدان ووضع النملتين، ومر عيسى بن مريم بمقبرة فأحيا ميتا فقال له: من أنت فقال أنا حمال كنت أحمل للنَّاس فحملت لإنسان يوما حطبا فتخللت بعود منه فأنا مطالب به منذ مت، وروي أن رجلا كتب رقعة وهو في بيت بالكرا وخطر بباله أن يتربها من جدار البيت فوقع في قلبه أنه لا يجوز له لأنه ملك الغير ثم وقع في قلبه أن ذلك لا خطر له ولا قيمة فأتربها فسمع هاتفا يقول فسيعلم المستخف بالتراب ما يلقاه غدا من الحساب.

واعلم أن المتورع تورعا كاملا هو الذي يتورع بقلبه ولسانه وسمعه وبصره وسائر أعضائه وجوارحه عن المباح المحض بأن لا يسخر عضوا من أعضائه إلا بقدر الضَّرورة بحسب الجواز المحض قلت وسمعت حكاية من بعض الفقراء قال تاب رجل وجعل يسأل النَّاس من يعلمه الورع لأنه حفظ حديثا من أحاديث المصطفى ﷺ وهو قوله: «**ملاك الدين الورع**»[1] الحديث، فقيل له اذهب إلى البصرة وسل عن الحسن البصري، فما أعلم أحدا أورع منه في هذا الزمان فانطلق إليه، فوجده فقال يا شيخ أنا جئتك مقصدا من بلد كذا، فقال له: في ماذا قصدتني؟ قال: إنني تبت إلى الله تعالى أن أبني أموري على الورع، لأن نبينا قال عليه السَّلام: «**ملاك الدين الورع**»، فجئتك تعلمني الورع، فقال: كان شيء يسمع به النَّاس فذهب ولم يبق لي منه شيء، قال: كان لي صديقا ومضيت لزيارته ببلد بعيد من البصرة، فلمَّا لقيته ببلده فرح بي

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (53/5) من حديث عائشة رضي الله عنها، والطبراني في المعجم الكبير (38/11) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ورحب بي وأخذ بيدي وأدخلني منزله، وقدم لي طعاما فأكلت شيئا منه، ورأيت أثاثا عنده أنكرها قلبي، فسألته: ما مراده بجمع هذه الأثاث، فقال: لما فارقتك ودخلت بلدي استخدمني أمير هذه البلاد فأنا من عماله فخرجت وما معي من الورع شيء فقال له الرجل: وهل تعلم متورعا في زماننا هذا، فقال له الحسن البصري: أعرف رجلا ببغداد، فقال له: أبو عبد الله الصياد فهو في الدجلة يصطاد السمك ويتقوت منه، فما أعلم متورعا غيره، فمضى الرجل إليه، فلما وصل الدجلة سأل عنه، وأرشد إليه فقال له: يا شيخ أنا جئتك قاصدا، فقال له: فيم قصدتني؟ فقال: كانت قصتي كذا وكذا، فقصدني الحسن البصري إليك لتعلمني الورع لما ذهب ورعه، فقال: يا أخي كان شيء يسمع به النَّاس فذهب ولم يبق عندي منه شيء، فقال: وما أذهبه؟ فقال: موضعي أصطاد فيه فبينما أنا أصطاد يوما وإذا برجل جلس بمقربة مني واستخرج مزودا كان معه فاستخرج طعاما مزعفرا بزعفران كثير وجعل يأكل منه ويرمي الفتاة في الدجلة فوقع لي شيء، فسألته من أين ذلك الطعام، فقال: أنا ساعي من سعاة الملك آتيه بالأخبار فزودني بهذا الزاد فذهب ورعي ولم يبق منه شيء، فقلت: بماذا وأنت لم تذق من طعامه؟ فقال: هيهات إنَّ السمك أكل من فتاتِ الرجل، وأنا أكلت من السمك، فقال له الرجل: وهل تعلم رجلا متورعا في زماننا؟ قال: نعم، اذهب للقادسية واسأل عن فلان رجل سمَّاه له، فإن له بستانا بسور عظيم وعنده بقرة وفحل في البستان فلا يقتات إلا من لبن تلك البقرة، قال: فوصلت الرجل، وقلت له جئتك قاصدا تعلمني الورع كان من قصتي كذا وكذا، ولكل أحد يعيد القصة من أولها، فقال له صاحب البستان: هيهات كان شيء يسمع به الناس فذهب ولم يبق لي منه شيء، فقال له الرجل: وما أذهبه لك؟ فقال: نسيت باب البستان يوما مفتحا فخرجت البقرة والفحل يوما فتبعتهما فدخلا أرض جاري وكان أثر المطر فأخذا طينا بأرجلهما ودخلا بستاني فاختلط تراب الغير مع ترابي بغير إذن صاحبه، فأنبت التراب الكلأ، وأكلته البقرة، وأنا شربت اللبن، فقال له الرجل وهل تعلم متورعا في زماننا هذا، فقال: نعم اذهب إلى الكوفة، واسأل عن أخوين فرانين لهما غيطة موروثة عن أبيهما فبنيا فرنا وحفرا فيها بئرا، فهم يحتطبان من غيطتهما ويحصدان من زرعهما ويخبزان بفرنهما ويشربان من مائهما، فذهب الرجل فلما وصل البلد وسأل عنهما، فأرشد لغيطتهما فوجد فرنهما، قد تهدم فمه، وهما يحتطبان من غيطتهما، فقال الرجل أصلح لهما فم الفرن لوجه الله

تعالى الماء ماؤهما والطين طينهما ولا هنا ما يضر فأصلح ذلك فلما فرغ وإذا بهما جاءا لموضعهما فقال لهما أنا جئتكما مقصدا لتعلماني الورع وكان من قصتي كذا وكذا ذكر لهما القصة من أولها إلى آخرها فقالا له كان شيء يسمع به الناس فمضى ولم يبق منه شيء فقال: وما أذهبه لكما؟ قال له: أنت أذهبته لنا فقال: بم؟ فقالا له: إننا لا نعالج طعامنا بشيء مسته يد غير متورعة فقال لهما إن كان الأمر كما تزعمان فورعكما لم يذهب فإنكما لم تلمسا شيئا مسته يد غير متورعة فنظرا إليه وقالا: حكيم ورب الكعبة فقال لهما الرجل: علماني الآن لأن ورعكما لم يذهب فقالا له: يا عجبا أنت علمتنا الورع وتطلب تعليمه منا فأنت إلى الآن لم تتعلم ففتح الله عليه ووصل للورع الكامل وذهب وتركهما فقال: هؤلاء كلهم ما أفسد ورعهم إلا خلطة النَّاس وأنا أسأل الله أن يبلغني لجزيرة بالبحر المحيط أعبد الله فيها حتى يأتيني اليقين فخطا خطوة فانخرقت له العادة فجاز البحر وإذا هو بجزيرة لم يدخلها بعده بشر إلا أن شاء الله فخطر بباله زيارة المصطفى ﷺ فوجد نفسه بمسجد النبي ﷺ، فزار ورجع لمحله أسرع من طرفة العين وإذا هو قد رأى النَّاس أصابهم القحط واستغاثوا ولم يغاثوا فلما دخل موضعه وجد المطر ينزل في البحر ولم ينزل في البر شيء فاختلج خاطره ولم يتكلم أن قال لو طاح هذا الماء لانتفع به الناس وتبدلت خواطره ونسي ذلك الخاطر إلى أن اشتاق للطواف فاهتم به على عادته فوجد نفسه في محله فقام وتخطى خطوات فوجد نفسه في عادته القديمة فعلم أنه حجب عن مقامه بسبب ذنب ولم يدر ما هو ليتوب منه فجعل يبكي على خطيئته ويسأل الله أن يعلمه بذنبه ليتوب منه فبقي على تلك الحالة أربعين يوما فإذا برجل يقول له ارفع رأسك وتب لله من الفضول فقال: يا سيدي وأي فضول هو وأنا في موضع لا بشر معي فيه فقال: ألست كذا وكذا في يوم كذا في حال كذا فقال له: نعم لم أذكره بلساني فقال له أما علمت أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فتاب الرجل وغفر الله له ورجع لمقامه وانصرف الرجل ولم يسأله عن اسمه هيبة منه وخشية الفضول والله أعلم والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الفصل الثاني عشر
في غسل الظهر بالغسل المعنوي

وغسله يكون بشيئين بترك الطمع وترك الغيبة لأنهما من سيئات الظواهر.

اعلم يا أخي أن هذا الفصل يحتوي على فصلين: الفصل الأول منها في

ترك الطَّمع.

اعلم يا أخي أن الطَّمع من أعظم آفات النفوس وعيوبها القادحة في عبوديتها، بل هو أصل جميع الآفات، لأنه محض تعلق بالنَّاس والالتجاء إليهم والاعتماد عليهم وعبودية لهم، وفي ذلك من الذلة والمهانة ما لا مزيد عليه، ولا يحل لمؤمن أن يذل نفسه، والطمع مضاد لحقيقة الإيمان الذي يقتضي وجود العزة والعزة التي اتصف بها المؤمنون، إنما تكون برفع همتهم إلى مولاهم وطمأنينة قلوبهم بذكره وثقتهم به دون من سواه، فهذه هي العزة التي منحها الله لكل مؤمن، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون/8] الآية، وإلى الذلة التي تقدم ذكرها الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة/20] الآية، قال أبو بكر الوراق الحكيم: "لو قيل للطمع من أبوك لقال الشك في الرازق والشك في المقدور، ولو قيل له ما حرفتك لقال اكتساب الذلة ولو قيل له ما غايتك لقال الحرمان. وقال أبو الحسن النيسابوري: "من أشعر نفسه بمحبة شيء من الدنيا فقد قتلها بسيف الطَّمع ومن طمع في شيء ذل ومن ذل هلك وقديما قيل في الطمع شعر منه هذا:

أتطمع في ليلى وتعلم أنَّه تقطع أعناق الرجال المطامع

فالطَّامع لا محالة قليل الدين مفلس من أنوار اليقين، وهو أعظم نواقض الطَّهارة، قال ابن عطاء الله في كتابه التنوير في إسقاط التدبير: وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر ما تفتقد أحوالك، وتطهر من الطَّمع في الخلق مثل تطهرك من جنابة الغفلة، فلو تطهر الطَّامع فيهم ببحور الدنيا كلها، وبكل ما ذكرناه من أوصاف هذه الطَّهارة لم يتطهر إلا باليأس منهم ورفع الهمة عنهم، قيل قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى البصرة، فدخل جامعها فوجد القصاص يقصون، فأقامهم حتى جاء الحسن البصري فقال: يا فتى إني سائلك عن أمر فإن أجبتني عنه أبقيتك وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك، وقد كان رأى عليه سمتا وهديا، فقال له الحسن: سل عمَّا شئت، فقال له: ما ملاك الدين؟ قال: الورع، قال: فما هلاك الدين؟ قال: الطَّمع، قال: اجلس فمثلك يتكلم على النَّاس، وقيل جاء بعضهم إلى شيخه تقي الدين وأنا في ابتداء أمري وهو بثغر الإسكندرية فسمعته يقول جئت إلى بعض من يعرفني فاشتريت منه بنصف درهم فقلت في نفسي لعله لا يأخذه مني فهتف بي هاتف السَّلامة على الدين بترك الطَّمع في المخلوقين

قال: وسمعته يقول صاحب الطَّمع لا يشبع أبدا ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة والطاء والميم والعين ط م ع ثم قال بعد هذا فعليك أيها المريد برفع الهمة عن الخلق كلهم ولا تذل لهم وتهتم في رزق سبقت قسمته وجودك فاعلم أن ما سبق لك في علم الله من الرزق فلا بدّ من حصوله بالتَّقدير السَّابق في الأزل قبل أن يخلق الله تعالى الخلق بما لا يحصى من السنين فما كتب لماضغك أن يمضغه فلا يمضغه غيرك وما كتب لك أن تلمسه بيدك فلا بدّ أن تلمسه شئت أو أبيت وإن كان من رزق غيرك وقوت له فإنك وإن رفعته إلى فيك فإنه يطير بسبب أو بغير سبب من يدك ويأكله غيرك.

حكي لي حكاية سمعتها من بعض الفقراء أن والده كان ببلاد الأندلس حين ملكها الروم وأمنوهم على رقابهم وأولادهم وأنه كان قليل ذات اليد ولم يجد قدرة على الجواز لبلاد المسلمين وابتلي بالفقر الشديد في بلاد العدو حتى كانت خدمته لا تقوم بقوته وقوت أولاده فرأى ليلة في النَّوم رجلا وهو يقول له اذهب لفاس تربح أعني المدينة الإدريسية بالمغرب وجعل في كل ليلة يقف عليه في النوم ويقول له امش لفاس تربح فذكر ذلك لزوجته فقوته على السفر لمدينة فاس بلا زاد ولا نفقة لأنه لم يكن بيده شيء من الدنيا ولم يزل هذا يلمه وهذا يدفعه إلى أن وصل لمدينة فاس ولم يعرف فيها أحد إلا الله سبحانه فبينما هو في سوق من أسواقها وإذا هو بحبة عنب واحدة مفردة فاخرة فأخذها ومسح عنها الأذى بثوبه وأكلها فجعل أهل السوق يضحكون منه ويتعجبون في حاله فقال لهم: ما شأنكم؟ فقالوا له: هذه الحبة الآن ألقاها كلب من جوفه فتعجبنا من رزقك أخرجه الله من جوف كلب وصار لك قوتا بعد ما كان في جوفه فجعل يبكي ويلطم وجهه ويقول: يا ويله هذا هو الربح الذي قطعت البحر من أجله فأشفق منه رجل فأطلعه إلى دكانه وأحسن إليه وأطعمه وسقاه بحسب الكفاية وسأله عن حاله فأخبره الخبر فقال له: لا بأس عليك أنت الآن من ضيافي وغدا إن شاء الله نصرفك لبلدك ببغيتك فأضافه الرجل ضيافة حسنة ثم سأله بأي مدينة أنت فقال: بغرناطة بحومة كذا بدرب كذا ووصف له الدار من داخلها وخارجها فاستخرج له بطاقة كانت بخزانته مع بعض كتبه فقرأها عليه وهو يقول تلك الدار بعينها كانت دارنا وثقل علينا مال فجعلناه في صندوق وملأناه ذهبا ودفناه في تلك الدار في موضع كذا والعلامة كذا فعلم الرجل الموضع فقال له خذ هذه البطاقة ونحن كنا نطمع أن

يرد الله البلاد للإسلام ونستخرج مالنا والآن فهو صدقة عليك لئلا يجده المشركون إن طال الزمان ولكن أمانة الله عندك لا تأكله إلا في بلاد المسلمين فأخذ الرجل البطاقة وزوده الرجل وانصرف إلى أن بلغ إلى داره وهو كان يسكن فيها بالكراء فسألته زوجته عن حاله فقال ربحنا إن صدق الرجل الفاسي ولا أظنه يكذب ومخايل الصدق لاحت بأمارات وصفها لي في الدار وأنا سكنتها منذ سنين ولم نعلم هذه العلامة حتى الآن فلما جنَّ الليل أغلق باب الدار وجعل هو وزوجته يحفران في الموضع فوجدا ذلك الصندوق فرد الدار والحفرة على بابها بعد أن استخرجوا جميع ما في الصندوق فشرع في إيجاد ما يستخرجه لبلاد المسلمين من الآلات والاستجارات على نفسه وأولاده وما معه من ماله فرزقه الله التيسير فوصل سالما لبلاد المسلمين وأولاده الآن بمدينة تطوان أحد مدائن الهبط بالمغرب الأقصى مسيرة ثلاثة أيام من بلدنا وروى مثل ذلك أن رجلا أكل شيئا من اللحم فشرق به ولم تهبط لمعدته ولم تخرج من حلقه ثلاثة أيام فلما كان في اليوم الرابع ألقاها من حلقه وطاحت أمامه على بساط فوصل حينئذ رجل غريب جائعا فوجد الطرف من اللحم فأخذه وأكله فلما كان ذلك اللحم من رزق ذلك الغريب لم يجز لمعدته ولم يلقه قبل وصول صاحبه الذي هو له واعلم أن رزقك لا يأكله غيرك وقد سبق تقديره ووقت أكله ووصوله ليدك قبل أن يخلق الله السّموات والأرض بسبعين ألف سنة فإن تيقنت بهذا فكل رزقك بعز ولا تأكله بذل وكله من حلال ولا تأكله من حرام ولا متشابه قال ابن عباد رحمه الله في شرح الحكم قد تقدم الآن من كلامه في التنوير ذكر الورع في مقابلة الطمع وكذلك في جواب الحسن البصري لإمامنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه لما سأله مستخبرا عن صلاح الدين وفساده في الكلام الذي حكاه عنهما ولا شك أنَّ الورع الظاهر لعامة الناس وهو ترك المتشابهات والتخرج من اقتحام المشكلات لا يقابل الطمع كل المقابلة وقد ذكرنا الطمع ما هو وإنما يقابله ورع الخاصة وهو عندهم صحة اليقين وكمال التعلق برب العالمين ووجود الشكوى إليه وعكوف الهم عليه وطمأنينة القلب به ولا يكون له ركون إلى غيره ولا انتساب إلى خلق ولا كون فهذا هو الورع الذي يقابل الطمع كل المقابلة وقد ذكرنا الطمع ما هو وإنما يقابله ورع الخاصة المفسد وبه يصلح كل عمل مقرب وحال مبعد كما نبه عليه الحسن البصري في جوابه المذكور وقال يحيى بن معاد الرَّازي رحمه الله: الورع على وجهين ورع بالظاهر وهو أن لا

تتحرك إلا لله وورع في الباطن وهو أن لا يدخل قلبك إلا الله وذكر أن بعضهم كان حريصا على أن يرى أحدا ممن هذه صفاته فجعل يجتهد في طلبه ويحتال على التوصل إليه بأن يأخذ الشيء بعد الشيء من ماله ويقصد به الفقراء والمساكين ويقول لمن يعطيه منهم حين المناولة خذ لا لك فكانوا يأخذون ولم يسمع من أحدهم جوابا مطابقا لما أراده من كلامه إلى أن ظفر ذات يوم ببغيته وحصل على مقصوده ومنيته فقال له: خذ لا لك فقال: آخذه لا منك فإن كان للعبد استشراف إلى خلق أو سبقية نظر إليهم قبل مجيء الرزق أو بعده بمقتضى هذا الورع والواجب في حق الأدب أن لا ينيل نفسه شيئا ممَّا يأتيه على هذا الحال عقوبة لنفسه في نظره إلى أبناء جنسه، قصة ابنة الحمال مع أحمد بن حنبل وهي معروفة وكما روي عن الشيخ أبي مدين[1] أنه أتاه حمال بقمح فنازعته نفسه يا ترى من أين هذا؟ فقال لها: أنا أعرف من أين هو يا عدوة الله وأمر بعض أصحابه أن يدفعه لبعض الفقراء عقوبة لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق وقد قيل أحل الحلال ما لا خطر لك على بال ولا سألت فيه أحد من النساء والرجال وقد صرَّح بهذا المعنى وأوضح الغرض الذي قصدناه شيخ الطَّريقة وإمام أهل الحقيقة من المتأخرين أبو محمد عبد العزيز المهدوي فإنه قال اعلم أن الورع لا يكون بينك وبين الخلق نسبة في أخذ وإعطاء أو قبول أو رد وأن يكون السبق لله تعالى وهو أن تأتي إليه طاهرا من جميع الأشياء ومن العلم والعمل كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام/94] الآية. وقال أيضا الورع أن لا يخطر الرزق بالبال ولا يكون بينه وبينه لا في التحصل ولا في المباشرة لأنه لا يدري أيأكله أم لا، وقد أجمع العلماء أن الحلال المطلق ما أخذ من يد الله بسقوط الوسائط وهذا مقام التوكل، ولهذا قال بعضهم: الحلال هو الذي لا يتمنى فيه إلى غير هذا من العبارات التي عبر بها في هذا المعنى، وقال بعض هذه الطَّائفة العبيد كلهم يأكلون أرزاقهم ثمَّ يفترقون في المشاهدات فمنهم من يأكل رزقه بذل ومنهم من يأكل رزقه بامتهان ومنهم من يأكل رزقه بانتظار ومنهم من يأكل

---

(1) شعيب بن حسين الأندلسي الزاهد أبو مدين. شيخ أهل المغرب توفي سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بتلمسان. جال وساح، واستوطن بجاية مدة، ثم تلمسان. ذكره ابن الآبار، وأثنى عليه، قال: "مات في نحو التسعين وخمسمائة بتلمسان، وكان من آخر كلامه: "الله الحي! ثم فاضت نفسه".

رزقه بعز بلا مهنة ولا انتظار ولا ذلة، فأما الذين يأكلون رزقهم بذل في السؤال يشهدون أيدي الخلق فيبذلون لهم وأما الذين يأكلون أرزاقهم بانتظار فالتجار ينتظر أحدهم نفاق سلعته فهو متعوب القلب معذب بانتظاره وأمَّا الذين يأكلون أرزاقهم بامتهان فالصناع يأكل أحدهم رزقه بمهنته وكده، وأما الذين يأكلون أرزاقهم بعز من غير مهلة ولا انتظار ولا ذل فهم الصوفية يشهدون العزيز فيأخذون قسمتهم من يده بعز من شدّة اليقين بأنهم لا يصل إليهم من الرزق وغيره إلا ما سبق لهم عنده ولا يخطئهم من مكتوبهم شيء خيرا كان أو شرا، وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: "ليس مع الإيمان أسباب إنما الأسباب في مقام الإسلام".

تنبيه: واعلم قال ابن عطاء الله رضي الله عنه: "لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطي فيهم مولاك فإذا كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم"[1].

قال ابن عباد رحمه الله: في هذه المحال هذه قاعدة عظيمة يحتاج إليها السَّالكون المتجردون ليبنوا عليها أحوالهم فما يصل إليهم من الرفق على أيدي الخلق، وقد ذكرها المؤلف بعبارة بديعة مجودة موجزة، جمع فيها جملة المعاني التي يحتاج إليها من ذكرناه، فلنبسط كلامه في ذلك على حسب عاداتنا معه، وعلى الوجه الذي ذكرناه في مقدمة هذا التنبيه، وهذا قصدنا في جميع ما تكلمنا عليه من مسائل كتابه، فنقول على حسب ذلك: اعلم يا أخي أن أرزاق العبادة المعتادة لهم تنقسم إلى قسمين: أحدهما رزق يصلون إليه بأسباب وأعمال وتصرفات، كالتجارات والصناعة وغيرها، وهذا حال أرباب التَّجريد، وكل أحد من القسمين له أدب وأحكام تخصه، فأحكام القسم الأول أي أدبه لم يتعرض لها المؤلف، وهي مذكورة في فن الفقه وغيره، فواجب على كل من عمل في شيء من الأسباب تحصيل عمله وطلبه من حيث هو، وأحكام القسم الثاني وأدبه هي التي تعرض لها المؤلف، وأجمل جميع ذلك في مراعاة الشرطين، وجعلها من شرط صحة الأخذ، الشرط الأول أن لا يرى العطاء إلا من مولاه تعالى، وهو الأصل، وإنما اشترطه على الأخذ لأنه مقتضى حاله من تحقيق التَّوحيد وتخلص التَّجريد، وبه يصح له مقام القناعة والتوكل ويسقط عن قلبه هم الرزق وتزول به عنه علاقات الخلق، وإن لم يكن على هذا الوصف كان عبدا للنَّاس مولها قلبه إليهم

(1) الحكم العطائية بشرح ابن عباد، (الحكمة التسعين بعد المائة)، (ص: 76).

فيكثر طمعهم فيه ورغبته في ما في أيديهم واستشرافه إليهم فيقع بسبب ذلك في كبائر الذنوب من معاصي القلب والجوارح مثل المداهنة والنفاق والرياء والتصنع والتلبيس والغش وعدم النَّصيحة وقلة الشفقة وغير ذلك من الصفات المذمومة النَّاقصة للعبودية لله تعالى، وقال عيسى بن معاذ الرازي رحمه الله: "من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين"، ولا يكفي في تلك الرؤية المذكورة أن تكون إيمانا فقط، بل ولا بدّ أن تكون حالا وذوقا، دعى بعض الناس شقيقا البلخي وكان في طائفة من أصحابه نحو خمسين رجلا فوضع الرجل طعاما واسعا وأنفق نفقة كثيرة، فلما قعدوا قال له شقيق: إن هذا الرجل يقول من لم يرني صنعت هذا الطَّعام وأنا الذي قدمته إليه فطعامي عليه حرام، قال: فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا كان فيهم نقصت مشاهدته عنهم، فقال صاحب المنزل لشقيق رحمك الله: ما أردت بهذا؟ قال: أردت أن أختبر توحيد أصحابي أي كلهم لا يرونه فيما صنع ولا ينظرون فيه إلى من قدمه إليهم إلا ذلك الرجل وحده، وإنما اشترطنا في رؤية العطاء من الله تعالى أن يكون حالا وذوقا لأن ذلك هو اللائق بحال المتجرد كما ذكرناه لأن التجريد حال شريف لا يدخل بالاختيار والتعمل لأن ذلك من اتباع هوى النَّفس وطلب الحظ والراحة وإنما يقيم الحق تعالى فيه من أراده به من أهل التَّقوى والمراقبة بعد كمال شغله بالله تعالى وحده في الهرب من كل ما يقطعه عن الله فحينئذ سلبه الحق تعالى من تدبيره واختياره ويكاشف بوحدانيته تعالى في إيراده وإصداره ويكون تركه للأسباب بحكم الوقت وإشارة الحال، كما روي أن أبا حفص النيسابوري كان حدادا وكان غلامه يوما ينفخ عليه الكير فأدخل أبو حفص يده في النار وأخرج الحديد من النَّار، فغشي على الغلام فترك أبا حفص وأقبل على أمره، وكان يقول تركت العمل فرجعت إليه فتركني العمل فلم أرجع إليه، وقال إبراهيم الخواص: لا ينبغي للصوفي أن يتعرض للقعود عن الكسب إلا أن يكون رجلا مغلوبا قد أغناه الحال عن التكاسب، وأما من كانت الحاجة له قائمة ولم يقع له عزوب يحول بينه وبين التكسب فالعمل أولى له والكسب ينبغي له وهو أجل وأبلغ، لأن القعود لا يصلح لمن لم يستغني عن التكلف، وقال بعض المنقطعين كنت إذا صبغت حلية فأريد تركها فحاك في صدري من أين المعاش فهتف بي هاتف قال: لا أراك تنقطع إلي وتتهمني في رزقي على أن أخدمك وليا من أوليائي أو منافقا من أعدائي، وقيل اشترط رسول الله ﷺ في صحبته قبول العطا عدم

الاستشراف إلى الناس ولا يكاد يحصل هذا الشرط لمن ذكرناه من أهل التجريد إلا بهذه الرؤية المذكورة. روى زيد بن خالد الحميري قال قال رسول الله ﷺ: «**من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه**»[1] روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من وجه إليه شيء من هذا الرزق من غير سؤال ولا إشراف فليأخذه وليوسع في رزقه فإن كان عنه غنيا فليدفعه إلى من هو أحوج منه**»[2] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول له أعطه يا رسول الله أفقر إليه مني فقال رسول الله ﷺ: "**خذه فتموله أو تصدق به وما جاءك من هذا الحال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك**". قال سالم: فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئا ولا يرد شيئا أعطيه[3]، فالاستشراف إلى الناس مذموم قادح في التوحيد، فلا ينبغي أن يأخذ المريد عطاء على هذا الحال. روي أن أحمد بن سهل خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقا ولم يكن بالموضع من يحمله فوافى أيوب الحمال فحمله ودفع إليه أحد أجرته، فلما دخل الدار بعد إذنه اتفق أن أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدَّقيق وتركوا الخبز على التنور ينشف، فرآه أيوب وكان يصوم الدهر، فقال أحمد لابنه صالح: ادفع لأيوب من الخبز فدفع إليه رغيفين فردهما، قال أحمد: ضعهما، ثم صبر قليلا ثم قال لابنه: خذهما والحقه بهما فلحقه فأخذهما فرجع صالح متعجبا: فقال أحمد: عجبت من رده وأخذه قال: نعم: قال رجل صالح لـمَّا رأى الخبز فاستشرفت نفسه إليه فلما أعطيناه مع الاستشراف رده ثم أيس فرددناه إليه بعد الأيس قبله: وأمَّا الاستشراف إلى الرزق مع قطع نظره عن الخلق فلا يضره ذلك لأنه خلق ضعيف استشرف لرزقه فأخذه وهذا معلوم: لأن الاستشراف إلى الرزق في الحقيقة استشراف إلى الرازق ولا ينافي ذلك حقيقة العبودية ولكن إن كثر من الاستشراف إلى الرزق شغل صاحبهما عن دوام المحاضرة والمناجاة مع الحقّ فليصرفها عنه صرفا جميلا ولينتهج مناهج التّعلق والتوثق بالله تعالى سلما. قال الشَّيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوي: كنت في بدايتي واقفا بين العشاءين أصلي وأنا فارغ بلا سبب حتى جاءتني النَّفس فقالت لي السَّلام

(1) رواه ابن حبان في صحيحه (195/8) من حديث خالد بن عدي الجهني رضي الله عنه.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان (281/3) من حديث عائذ بن عمرو المزني رضي الله عنه.

(3) رواه البخاري (2620/6) ومسلم (723/2).

عليك فقلت: وعليك السَّلام قالت أين العشاء فأدهتني بداهية فوقفت ثم ألهمني الله تعالى أن قلت لها أتدري له موضعا فقالت لا فقلت لها: أتدري أي شيء هو أو متى هو قالت لا قلت لها أنا رب أو عبد قالت عبد قلت لها فالعبد يقدر على شيء أو لا قالت لا قلت لها وما هذا الشرك والكفر الذي أتيتني به اهربي إلى خالقك فاطلبي منه العشاء لأنه خالقك وهو القادر على كل شيء فيعطيك ويجيب لك ما طلبت فتطعمي وتأكلي فمالك وإياي فما هذه الحيرة قال فهربت إلى خالقها فجاء عشاء متمكن كثير فأكلنا قال وكذا يحتج عليها ومن هنا زلت الأقدام ثبتت الأقدار وذكر أيضا مسألة عظيمة مقيدة تتضمن كيف يكون حال الفقير بالنسبة إلى الرزق وما تحتاج إليه بنيته من الرفق وجعلها من قواعد الفقير والإرادة فرأينا ذكرها في هذا الموضع من الواجب المتعين ليتحقق بالعمل فيها كل مريد متدين قال اعلم أن الفقير لا يخلو إما أن يكون جالسا أو ماشيا أما قاعدة الجالس فإن جلسته موضع اليتيمة وهو مكانه وزمانه طرف سجادته لا يتعداها ولا يكون التفاته لوقت ولا إلى سبب معلوم لأنه لا يدري الأوقات ما هي ولا يجدها ولا يدري متى هو ولا وقتها ويعلم أن جميع الأشياء تطلبه وتحتاج إليه لأنها خلقت من أجله وهو خليفة فيها وقد فرغ من جميعها والالتفات والآمال في ما يكون هدفا للأقدار تجري عليه ولا كسب له ولا سبب في التَّحصيل ثمَّ قال وأمَّا الماشي من الفقراء الذي يكون في سفر أو غيره فلا تجوز همته خطواته مثاله أن يكون ماشيا فيخطر له الغير ولا التفات إليه من بلد أو شخص أو مطعم أو مشرب فيهلك ويظفر به العدو وتزل قدمه فإن تمادى في التعلق بشيء من هذه القواطع والشواغل ومشى إلى شيء منها وفقده ومات قاتل نفسه وذلك أنه يكون في يوم صائف ووهج قد أصابه العطش الشديد فيعرض خيال ماء فيجيء العدو فيجوز له عليه إن أسرع ليلحق ذلك الماء فيشرب منه فيزول عطشه فإن مشى راكبا لهذا التخاطر فيجيء للموضع فيجده سرابا فهناك يظفر به ويقول له الآن تموت فيقتله قاتل نفسه إذا كان جاهلا بربه وآياته ولم يعرف دواء من دائه ولا تعلم العلم ولا سأل العلماء لبقائه مع نفسه قال: فحكمه إذا جاءه هذا الخاطر بالترويح عن العدو في سفره من السرعة إلى الماء والركون إلى الأغيار من منازل أو اغضاض أو غير ذلك أن تعرض على العدو وإن الله

تعالى بمكن أن يتوفاه قبل لحوقه إلى الماء فبالضرورة يطيعه العدو في ذلك يسلمه ويقول له أيضا قال النبي ﷺ: «من مشى فليمش رويدا"[1] وقال: **من تأنّى أصاب أو كاد ومن أعجل أخطأ أو كاد**"[2]، و" العجلة من الشيطان"[3]، ومن هذا كثير فلا يشك شاك أنه كما يحتج لنفسه والشيطان بهذه القواعد من العلم أنهم ينقطعون ولا حجة لهم بعد الاستعانة بالله تعالى والتعلق به، ثم يقول له أيضا أتنكر أن الله تعالى قادر على أن يطعمني ويسقيني إن شاء تنبع لي هنا عينٌ السَّاعة قبل وصولي لذلك الماء فيقول له الشيطان بالضرورة نعم فإذا كان هذا كذلك فالله سبحانه أعلم بمصالح ومنافع عباده من كل مخلوق فإذا جهل هذا العلم جعل يمشي متأنيا لا تجاوز همته خطواته ناظرا لما يرد عليه من ربه فإن وصل إلى ما خطر له أولا أو رآه من بعد ولم يجده ماء ولم يجد ما تعلق به خاطره أولا من صاحب أو طعام أو شراب بقي على العلة لا تقيم عنده ولا ترحل وظفر بعدوه وقتله كما فعل الشيطان إنما يغره ضده. انتهى ما أوردناه من كلام هذا الإمام، وهو عندي من نفيس الكلام المقرب غاية المرام لما تضمنه من المعاني البديعة والأنفاس الرفيعة ولما فيه من تجريد التَّوحيد والأدب العريض من العبد فهو جدير يكتب ويرسم ويكمل به الغرض الذي تقدم، والله تعالى أعلم.

الشَّرْط الثَّاني: لا يأخذ إلا ما يوافق العلم وهذا شرط لازم للمتجرد أيضا، قال الشيخ أبو طالب المكي: وينبغي لمن لا يعلم عنده من الأسباب شيئا أن يتفرغ في أخذها ويتخير المعطيين له كما يتخير في الاكتساب لأن الله تعالى حكم في كل شيء والقعود عن المكاسب يعطي أحكامها والقعود عن الطلب لا يسقط عنه أحكام الطلب ولا العمل عمل يحتاج إلى علم ولم تكن بسيرة الفقراء الصالحين أن يأخذوا من كل أحد ولا في كل وقت ولا يأخذون كل ما يعطون مما يزيد على كفايتهم إلا أن يكون ممن يخرجه إلى غيرهم انتهى فبموافقة العلم التي ذكرها المؤلف على قسمين موافقة العلم الظاهر وموافقة العلم الباطن أما موافقه العلم الظاهر فلا يأخذ إلا من يد عاقل بالغ تقي وقد جاء في الحديث: "**لا تأكلوا إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي**"[4]

---

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب (146/1).

(2) رواه الطبراني في المعجم الكبير (310/17).

(3) رواه الترمذي في سننه (367/4).

(4) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (175/1): "أخرجه أبو داود (675/2) والترمذي =

ولا تأخذ من يد ظالم ولا عامل بالربا ولا جاهل ما يحل ويحرم من وجوه المكسب ولا تأخذ من يد صبي ولا عبد غير مأذون لهما ولا معتوه" وأمَّا موافقة العلم الباطن فلا مأخذ إلا ما كان على وجه الرفق والمعونة فلا يأخذ إلا ما هو مفتقر إليه في الحال ولا غنى له عنه من ضرورياته وحاجته من غير إسراف ولا إقتار ولا بأس أن يأخذ ما زيد على ذلك في خلقه سخاء وإيثاراً وتخلق بمحاسن الأخلاق ولا يتوصل به إلى حظ عاجل من جاه أو رياسة أو قبول عند الناس ولا يأخذ ما يعطاه على جهة الابتلاء والاختبار أما الابتلاء بأن يأتيه قبل وقته وزائد على حاجته فإن أخذه فليخرجه في السر ليأمن بذلك من آفات الإظهار أما الاختبار بالإباحة فلا يأخذ شيئا كان قد نوى تركه لله تعالى وليدفع ذلك عن نفسه ومن شهوة كان مشابها قد ملكته وأسرته ومنعته القيام بحقوق ربه فليوف بعهد الله تعالى وليدفع ذلك عن نفسه إن خاف انحلال عزمه وفساد نيته وإن لم يخف ذلك فليأخذه وليخرجه إلى غيره وهذا أشد شيء على النَّفس وهو من أعظم درجات الزهد ولا يأخذ من منافق ولا فخور ولا مظهر لعطيته ولا يأخذ ممن يثقل على قلبه قبول عطيته فقد قيل لا تأكل إلا طعام من يرى أنه وديعة عنده، روي أنه أهدي لرسول الله ﷺ سمن وأقط وكبش فقبل السَّمن والأقط ورد الكبش[1]، وكان يقبل من بعض النَّاس ويرد على بعض وقال: "**لقد هممت أن لا أقبل إلا من قرشي وأنصاري أو تقي أو دوسي**"[2] قال أبو طالب المكي: وفعل هذا جماعة من التابعين جاءت إلى فتح الموصلي صرَّة فيها خمسون درهما فقال حدثني عطاء أنَّ النبي ﷺ قال: «**من آتاه الله تعالى رزقا من غير مشقة فرده فإنما يرد على الله تعالى**»[3] ثم فتح

=

(600/4) من حديث أبي سعيد بلفظ: "لا تصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي ".

(1) قلت الحديث فيه أنه أهدي إليه سمن وأقط وضب وليس كبشا، والحديث رواه أحمد في مسنده (259/1) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وضب فأكل السمن والأقط ثم قال للضب: إن هذا الشيء ما أكلته قط فمن شاء أن يأكله فليأكله قال فأكل على خوانه.

(2) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (413/6) من حديث طاووس مرسلا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد هممت أن لا أقبل إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقفي.

(3) رواه بنحوه البيهقي في شعب الإيمان (281/3) ولكن من كلام أبي الدرداء موقوفا عليه، وله شواهد من المرفوع سبق ذكرها.

الصرة وأخذ منها درهما ورد سائرها وكان الحسن يروي هذا الحديث عن رسول الله ﷺ وحدثنا عنه أن رجلا أهدي له كيس فيه ألوف ورزمة فيها من دينق خراسان فرد ذلك فقال له بعض أصحابه في ذلك فقال: "من جلس مثل مجلسي هذا وقبل من النَّاس مثل هذا لقي الله تعالى يوم القيامة وماله عنده من خلاق" وكان الحسن رضي الله عنه يقبل من أصحابه وكان إبراهيم التيمي يسأل أصحابه الدرهم والدرهمين ويعرض عليه المائتين فلا يأخذها وكان بعض العباد إذا دفع إليه بعض أهل الدنيا شيئا قال له: ضعه عندك واعرض على قلبك حالي كيف أنا عندك بعد الأخذ أفضل أو دون ذلك واصدقني فإن قال له أنت عندي الآن أفضل منك قبل ذلك قبل منه وإن أخبره بنقصانه لم يقبل منه وكان بعضهم يرد على أكثر النَّاس صِلاتهم فعوتب في ذلك فقال: ما أرد لهم إلا إشفاقا عليهم ونصحا لهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم ويروى عن الأعمش أنه قال جاء شاب من العرب إلى إبراهيم النّخعي بألفي درهم فقال: يا أبا عمران خذ هذه الدراهم والله ما هي من ذي سلطان ولا من كذا ولا من كذا فقال له إبراهيم بارك الله لك وجزاك خيرا فلمَّا ولى قلت له يا أبا عمران ما منعك أن تأخذها ما لامرأتك قميص فقال صدقت يا سليمان ولكن هذا شاب من العرب لم يحتكم السن ولم يحتكم الأدب فكرهت أن يجلس في حيه فيقول أعطيت إبراهيم ألفي درهم فيحبط الله أجره وتذهب دراهمه وممَّن ذهب إلى هذا سفيان الثوري كان يشترط على بعض من كان يأخذ منه أن لا يذكره لإشفاقه عليه لا من أجله بل من خشية ذهاب أجره لأنه في معنى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة/264] قال: المن أن يذكره والأذى أن يظهره وقال الجنيد: للرجل الخراساني الذي جاءه بالمال وسأله أن يأكله فقال الجنيد بل أفرقه على الفقراء فقال الرجل: أنا أعلم بالفقراء منك ولم أختر هذا فقال الجنيد وأنا أؤمل أن أعيش حتى آكل هذا فقال إني لم أقل لك أنفقه في الخل والبقل وإنما قلت لك أنفقه في الطيبات وألوان الحلاوات فكلما نفد سريعا كان أحب إلي فقال الجنيد: ومثلك لا يحل أن يرد عليه فقبله فقال الرجل ما أحد ببغداد أعظم منه على هيبة منك فقال الجنيد: ما أحد ببغداد ابتغى أن نقبل منه إلا من كان مثلك، وكان السري السقطي رحمه الله يوصل إلى أحمد بن حنبل الشيء فيرده فقال له السري: يا أحمد احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ فقال له أحمد: أعد علي ما قلت فأعاده فقال أحمد أعد

علي ما قلت فأعاده فقال أحمد: ما رددت عليك إلا وعندي قوت مشتهر فاحبسه لي عندك فإذا كان بعد شهر فانفذه إلي وعلى الجملة فلا ينبغي أن يأخذ المريد إلا من يد زاهد عارف فبذلك يسلم من الآفات ويكفى من جميع المؤونات، قال أبو بكر: منذ أربعين سنة أصحب هؤلاء فما رأيت رفقا لأصحابنا إلا من بعضهم لبعض أو ممن يحبهم ومن لم يصحب التّقوى والورع في هذا الأمر أكل الحرام النص وإن أراد أن يسأل مثل هؤلاء فليفعل قال أبو طالب المكي رحمه الله كان بشر بن الحارث لا يقبل من الناس شيئا وكان بعضهم يقول: أحب أن أعلم من أين يأكل فقال له: من يخبر أمره أنا أدري من أين يأكل كان له صديق عاقل يعني نظيره في العقل والدين لأنَّ بعضهم كان لا يقبل إلا من النظراء ولا يقبل من الأتباع وهذا هو الصديق العاقل الذي كان يقوم بكفايته ولم يكن يظهر أمره ولم يلتق معه هو السري بن مغلس السقطي قال بشر ما سألت قط شيئا من الدنيا إلا السري السقطي لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم من بقائه عنده فيكون قد أعنته على ما يحب وكان السري يتوجه إلى أحمد بن حنبل في حاجته فيقبل منه وكان إذا ذكر عنده أحمد بن حنبل ذلك الفتى المعروف بطيب الغذاء انه ليعجبني أمره وإن بلغت به الحاجة كل مبلغ وأشرف على الضعف وتحققت الضَّرورة وسأل مولاه ولم يقدر له بشيء ووقته يضيق عن الكسب لشغله بحاله فعند ذلك يقرع باب السبب ويسأل من دون هؤلاء فمن جعل حاله جاء في الأثر من جاع فلم يسأل فمات دخل النَّار وقد سأل النَّاس عند الحاجة والفاقة نبي الله موسى والخضر عليهما السَّلام لقوله تعالى: ﴿ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف/77] وكان أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد يسأل من باب أو من بابين بين العشاءين ويكون ذلك معلومه إلى بعد حاجته من يوم أو يومين وكان له مقام في الزهد والتوكل قال أبو طالب ولم يعب هذا عليه عموم ولا خصوص ونقل عن أبي سعيد الخراز أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول ثم شيء لله ونقل عن إبراهيم بن أدهم كان معتكفا بجامع البصرة وكان يفطر في كل ثلاثة أيّام ليلة وليلة إفطاره يطلب من الأبواب وكان أبو الحسن النوري يسأل في البوادي إلى صنعاء اليمن وكنت أذكر لهم حديثا في الضيافة قال فيخرجون إلي طعاما فأتناول منه حاجتي وأترك ما يبقى ويجتنب المريد الأكل بالدين وقبول ارفاق النسوان فإن قيل كيف يرد ما يعطاه في الوجه الذي حكمتم عليه بعدم الأخذ فيه وهو إنما يأخذ من يد ربه كما تقدم وهل

الراد لذلك إلا راد على الله تعالى فكيف يستقيم ذلك فالجواب أن القيام بحق الشريعة والطّريقة لا بدّ منه والتوحيد لا ينافي ذلك وقد قيل الكامل من لا يطفي نور معرفته نور ورعه وكل باطن من العلم يخالف ظاهرا من الحكم فهو مردود ووجه صحة الرَّد العطاء عند مشاهدة التوحيد ظاهرا إذ لا فرق في ذلك بين المعطي والآخذ فكما شهد الأخذ من الله تعالى في المنع عند بدء نفسه بالرد مخالفة العلم فلا يأخذه ولا يقبله إتباعا لنهي الله تعالى عن[1]...

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر/28] فبيَّن أن الخشية تلازم العلم وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [القصص/80] ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران/7] ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه/ 114]، وقوله عليه السلام: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»[2] وقوله: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[3] وقوله هاهنا: «**طالب العلم تكفَّل الله برزقه**»[4] إنما المراد بالعلم في هذا الموضع العلم النَّافع القاهر للهوى القامع وذلك متعين بالضَّرورة لأن كلام الله سبحانه وكلام رسوله عليه الصَّلاة السَّلام أجل من أن يحمل على غير هذا وقد بينا ذلك في غير هذا الكتاب والعلم النَّافع هو الذي يستعان به على طاعة الله ويلزمك المخافة من الله والوقوف على حدود الله وهو علم المعرفة بالله ويشتمل العلم النَّافع بالعلم بالله والعلم بما أمر الله إذا كان تعلمه لله انتهى.

تنبيه:

هذا معيار على صحة دعوى التعلم لله قال في لطائف المنن الموت ميزان على الأقوال والأفعال والأحوال كما هو ميزان في دائرة الرتب يعني أنَّه علامة صحة مرتبة الولاية وأمَّا الأفعال والأحوال فإذا التبس عليك أمر لا تدري هل يرضي الله تعالى تركه

---

(1) هنا بتر ص: 236 - 239 في النسختين.

(2) رواه: أحمد (239/4) وأبو داود (341/2) والترمذي (48/5) وابن ماجه (81/1) من حديث صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه.

(3) رواه: أحمد (196/5) وأبو داود (341/2) والترمذي (48/5) وابن ماجه (81/1) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(4) رواه المرهبي في "فضل العلم" عن زياد الصدعي مرفوعا. انظر: "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" للسيوطي (612/5).

أو فعله أو حالة أنت بها لا تدري هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال فكل حالة وعمل يثبت مع تقدير وارد الموت عليها ولم تنهزم فهي حق وكل حالة وعمل هزمها الموت فهي باطل إذ الموت حق والحق يهزم الباطل ويدمغه لقوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء/18] الآية، قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد وما كنت فيه قائما بحق لم يهزمه الموت إذ هو حق والموت حق والحق لا يهزم الحقَّ قال ابن عطاء الله رحمه الله وقد تماريت الكلام أنا وبعض من يشتغل بالعلم في أنه ينبغي إخلاص النية فيه وأن لا يشتغل به إلَّا لله فقلت الذي يقرأ العلم لله هو الذي إذا قلت له غداة تموت لا يضع الكتاب من يده. قال ابن عباد رحمه الله وهذا هو فصل الخطاب ونهاية الصَّواب فإن العبد في هذه الحالة لا يصدر منه إلَّا العمل الصَّالح الخالص من شوائب الرياء وممازجة حظ النَّفس واتباع الهوى وهذا هو المطلوب من العبد ولا يستتم له ذلك إلا أن يلحق ما يقدره من حلول الموت وحصول الفوت وهذا هو معنى قصر الأمل الذي هو أصل حسن العمل وهو أن لا يقدر لنفسه وقتا ثانيا يكون فيه حيا وعند ذلك يخلص عمله من الآفات ويتطهر من أنواع الرعونات لأن موقع الموت في كل نفس ولحظة عنه جميع ذلك كما ذكره المؤلف وكل عمل استرسل فيه صاحبه غافلا عن تقدير وقوع ذلك إن لم يكن متحققا به لا يسلم ممَّا ذكرناه فإذا بعيد من الإخلاص من يأخذ في علم غير متعين عليه الأخذ فيه لا يجتني ثمرته إلا في ثاني حال ويكون في حاله الراهنة متمكنا من إيقاع طاعة تريد مصلحتها على مصلحة ما أخذ فيه من العلم يوفر بثوابها وينتج له حصول التقرب بها لأن في ذلك قوة نفسه ووفارة حظه وآية ذلك أنه قد يعرض له في حال أخذه فيه عرض دنيوي ويكون احتظاء نفسه به أكثر فيقدمه على ما كان آخذا به ومشاغلا به من غير موالاة بما يفوته من ذلك وإنَّما عبر بلفظ الأخذ ليدخل فيه تعلم المتعلم وتعليم المعلم فإن الأمر فيهما واحد وكل عمل لا إخلاص فيه فهو ليس بالله ولا لله وهو مردود على صاحبه مضروب به وجهه وبهذا يتبين لك غرور كثير الخلق في علومهم وأعمالهم إلا من رحم الله تعالى ولهذا يشاهد أكثر النَّاس عند نزول الموت بهم يندمون على ما سلفوه من عمل ويودون أن لو زيد لهم في الأجل وهيهات هيهات فنعوذ بالله من الغفلة في زمان المهلة فإنها مبدأ كل عمل فاسد ومنشأ وجود الغرة من الجهالة

لكل عالم عامل ثم قال وعلامة الصافي وجود اتهامه وعدم اعتماده على عقله وحدسه ومن لم يكن متَّصفا بذلك فالكلام معه هذيان فاسد وأنه كمن يضرب في حديد بارد. وقال الشَّيخ أبو عبد الرحمن السلمي كل علم لا يورث صاحبه الخشية والتواضع والنَّصيحة للخلق والشفقة عليهم ولا يحمله على حسن معاملة الله ودوام مراقبته وطلب الحلال وحفظ الجوارح وأداء الأمانات ومخالفة النَّفس ومباينة الشهوات فذلك هو العلم الذي لا ينفع ووصف الله تعالى العلماء بالخشية فقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ﴾ [فاطر/28]الآية، وقال رجل للشعبي أيها العالم فقال له: اسكت العالم من يخشى الله تعالى وقال بعض السَّلف رضي الله عنهم من ازداد علما فليزدد رجعا وقال رجل للجنيد أيُّ العلم أنفع؟ قال ما دلك على الله وبعدك عن نفسك قال والعلم النَّافع ما يدل صاحبه على التواضع ودوام المجاهدة ورعاية السر ومراقبة الظَّاهر والخوف من الله والإعراض عن الدنيا وعن صاحبها والتقلل منها ومخالفة أبواب أربابها وترك ما فيها على من فيها من أهلها والنَّصيحة للخلق وحسن الخلق معهم ومجالسة الفقراء وتعظيم أولياء الله تعالى والإقبال على ما يعنيه لأن العالم إذا أحب الدنيا وأهلها وجمع منها فوق الكفاية فإنه يغفل عن الآخرة وعن طاعة الله بقدر ذلك قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الروم/7]، وقال النبي ﷺ: «**من أحب دنياه أضرَّ بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه ألا فآثروا ما يبقى على ما يفنى**»[1] وقال الفضيل بن عياض: العالم طبيب الدين ودوام الدنيا فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه فمتى يبرئ داء غيره فإذا وفق عالم من العلماء إلى الإقبال على الله وعلى أوامره والإعراض عن الدنيا وما فيها ومن فيها أول ما يلزمه أن يعرف نعم الله عليه في ذلك ويقوم بواجب الشكر ويزيد تواضعا واجتهادا ويعلم أنه محمول على ذلك وأنَّ ذلك بتوفيق الله لا بمجاهدته منه فإن مجاهدته أيضا ومعرفته لنعم من الله عليه بزيادة توفيق فإذا كان العالم بهذا المحل من الدين كان إماما يقتدى به في أحكام الظَّاهر وأحوال الباطن يهتدي بدوره كل من صحبه ويستقضي بعلمه كل من اتبعه ويكون حجة لله على عباده وبركة في بلاده ومن قاده علمه إلى طلب الدنيا وطلب العلو فيها وطلب الرياسة واستتباع الخلق فهو العلم الذي هو غير النافع وهو العالم المفتي ولا حسرة أعظم من

(1) سبق تخريجه.

يهلك العالم بما يرجو به نجاته ونحن نعوذ بالله من الخذلان. ثم عبَّر المؤلف بعبارة أخرى في معنى ما تقدم فقال العلم إن قارنته الخشية وإلا فعليك. فالعلم الذي تلازمه الخشية لك لأنك تنتفع به في دنياك وآخرتك وليس ذلك إلا ما ذكرناه والعلم الذي لا خشية فيه عليك تستضر به فيهما وهذا هو الفرق بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا من حيث أن علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة وعلماء الدنيا موسومون بالأمن والغرة، وقد بيَّن علماؤنا حال الفريقين وأوضحوا أمرهم بالنعوت والعلامات وأطالوا في ذلك التَّفسير لما شاهدوا من انتشار الفساد في الأرض بسبب جهل النَّاس بالعلم النَّافع أي شيء هو؟ فمن أراد الشفاء في ذلك واستشفاء الكلام عليه وما في ذلك من الأخبار والآثار فعليه بالنَّظر في كتاب العلم من كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي رحمه الله ولباب ذلك ما ذكره المؤلف ها هنا وقد ذكر قول الفضيل بن عياض رحمه الله كان العلماء ربيع النَّاس إذا نظر إليهم المريض لم يسره أن يكون صحيحا وإذا نظر إليهم المريض لم يود أن يكون غنيا وقد صار اليوم فتنة على النَّاس قال هذا في زمانه الصَّالح فكيف لو أدرك زماننا هذا فإنا لله وإنا إليه راجعون واعلم أنه قد ورد في الكتاب والسنَّة من فضل العلم والعلماء ما لا يحصى كثرة ولا يرجى حصول ذلك إلا لمن صحت فيه نيته وصحة نيته في ذلك أن يكون غرضه في طلب مرضاة الله تعالى واستعماله في ما ينفع عنده وإيثاره الخروج عن ظلمات الجهل إلى نور العلم فهذه هي النية الصَّحيحة التي تحمد عاقبتها آجلا ويجتني ثمرة ما في طاعة الله عاجلا قال رسول الله ﷺ: «**كل يوم لا أزداد فيه علما يقربني إلى الله تعالى فلا بورك في طلوع شمس ذلك اليوم**»[1] قال الجنيد رحمه الله: كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه ولباسه وبصره ولسانه وصلاته وهديه وزهده وكان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون خيرا له من الدنيا بما فيها لو كانت له فيضعها في الآخرة وليأتين على الناس زمان يشتبه فيه الحق والباطل فإذا كان ذلك لم ينفع فيه إلا دعاء كدعاء الغريق وقال سفيان الثوري: إنما يتعلم العلم ليتقى به الله وأيضا فضل العلم عن غيره لأنه يتقى الله به فإن اختل هذا المقصد وفسدت نية طالبه بأن يبتغي به التوصل إلى أمل دنيوي من مال أو جاه فقد بطل أجره وحبط عمله وخسر خسرانا مبينا

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (367/6) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى/20] وقال رسول الله ﷺ في ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**من تعلم علما لا يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»[1] يعني ريحها وكان الحسن يقول والله ما طلب هذا العلم أحد إلا كان حظه منه ما أراد به وقال الحسن عقوبة العالم موت القلب قيل له: وما موت القلب قال له طلب الدنيا بعمل الآخرة فإن انضاف إلى هذا الغرض أن يقصد به تولي الأعمال السلطانية كائنة ما كانت أو يتوصل به إلى اكتساب فان من جاه وشبهة فقد تعرض لغضب الله وسخطه وباء بإثمه وبإثم المقتدين به وكان الجهل إذ ذاك خيرا من العلم وأحمد عاقبة. قال أبو عمر بن عبد البر وروينا عن الأوزاعي قال: اشتكت النواويس إلى الله تعالى ما تجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه قال وروينا عن فضيل بن عياض وأسد ابن الفرات قال: بلغنا أنَّ الفسقة من العلماء ومن حملة القرآن يبدؤهم قبل عباد الأوثان قال فضيل بن عياض لأن من علم ليس كمن لم يعلم قال ابن عباد والغالب على طالب العلم في هذه الأعصار هذا الوصف المذموم لأن حب الدنيا قد استولى عليهم والحرص على التقدم والتَّولية قد ملكهم وأعماهم ولذلك أمارات وعلامات لا تحصى ولا تخفى قلت: وفي هذا حال ذلك الزمان الصالح فكيف بهذا الزمان الفاسد الذي نحن فيه فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم إنا لله وإنا إليه راجعون ما أعظمها مصيبة قد استبدل الياقوت بالرَّوث اللهمَّ احفظنا ووفقنا أجمعين فإنا تائبون إليك يا ربنا فحقق توبتنا بفضلك يا أرحم الراحمين آمين. قال ابن عباد رحمه الله وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يخرج في آخر الزمان رجال يحتون الدنيا بالدين يلبسون للنَّاس جلود الضَّأن من اللين ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله تعالى: أبي تغترون أم علي تجرءون فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيران**» رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه[2] وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**أنزل الله في بعض الكتب أوحى الله إلى بعض**

---

(1) رواه أحمد (338/2) وأبو داود (346/2) وابن ماجه (92/1).

(2) رواه الترمذي (604/4)، وقال: وفي الباب عن عمر.

الأنبياء قل للذين يتفقهون لغيري ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة فيلبسون للنَّاس مسوك الكياس وقلوبهم كقلوب الذياب ألسنتهم أحلى من العسل وعملهم أمر من الصبر إياي يخادعون أو بي يستهزئون لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران» وفي بعض الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**يأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه ومن الإسلام إلا اسمه قلوبهم خربة من الهدى ومساجدهم عامرة من أبدانهم شر من تظل السَّماء يومئذ علماؤهم منهم تخرج الفتنة وعليهم تعود**".

واعلم أن العلم النَّافع المتَّفق عليه فيما سلف وخلف إنما هو العلم الذي يؤدي صاحبه إلى الخوف والخشية وملازمة التواضع والذلة والتخلق بأخلاق الإيمان وتوافق الإسرار والإعلان إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها وإيثار الآخرة عليها والموالاة في الله والمعاداة فيه والحرص على التفطن والأسباب الباعث له على الاستقامة ولزوم الأدب بين يدي الله تعالى فيراعيها حفظا وطلبا ومعرفة الأسباب الصادة له عن ذلك فيوسعها رفضا وهربا إلى غير ذلك من الصفات العلية والمناحي السنية فهذا كله يحصل له فوائد العلم وثمرته الدنيوية والأخروية فإن خلا طالب العلم عنها وعن بعضها فإن كان ما يطلبه علما حقيقيا كان حجة عليه وإن كان رسميا كان وبالا واصلا إليه والعياذ بالله من ذلك قال في لطائف المنن وربما غر الغافل من طلبة العلم من قال طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله وليس في قول هذا الغافل ما يستروح إليه من طلب العلم للرياسة والمنافسة وإنما أخبر هذا القائل عن أمر مر به عليه وفتنة سلمه الله منها لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره وذلك بمثابة من به مرض مزمن في المعنى أعيا علاجه وضاق عليه خلقه فأخذ خنجرا وضرب به مران بطنه ليقتل نفسه فصادف ذلك المعنى فقطعه فخرج ذلك الداء منه فهذا لا يستصوب العقلاء بفعله وإن نجحت عاقبته وليست سالمة العواقب رافعة للعتاب عن الملقين أنفسهم إلى التهلكة ليس المغرور محمود وإن سلم وقال في موضع آخر ولا يغرنك أن يكون به انتفاع للبادي والحاضر فقد قال عليه السَّلام: «**إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[1] ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من رفع العذرة بملعقة

---

(1) رواه البخاري (114/3) ومسلم (105/1) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من الياقوت فما أشرف الوسيلة وما أخس المتوسل إليه ومثل من قطع الأوقات في طلب العلم فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدة يتطهر ويجدد الطَّهارة ولم يحصل صلاة واحدة إذ مقصود العلم العمل كما أن المقصود بالطهارة وجود الصَّلاة وقد سأل رجل الحسن البصري عن مسألة فأفتاه فيها فقال الرجل للحسن قد خالفك الفقهاء فزجره الحسن فقال: ويحك وهل رأيت فقيها إنما الفقيه الذي فقه عن الله أمره ونهيه قال وسمعنا شيخنا أبا العبَّاس يقول الفقيه من انفقأ الحجاب عن عين قلبه والرجل الذي سأل البصري هو فرقد السخي والله أعلم. وقد روي عنه في صفة الفقهاء كلام أتم ممَّا ذكره صاحب كتاب لطائف المنن قال فرقد السخي سألت الحسن عن مسألة فأجابني عنها فقلت: إنَّ الفقهاء يخالفونك فقال لي: ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت فقيها بعينك إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف بطنه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم النَّاصح لجماعتهم المجتهد في العبادة المقيم على سنة المصطفى عليه السَّلام الذي لا ينبذ من هو فوقه ولا يسخر ممن هو دونه ولا يأخذ على علم علمه له حطاما قلت أعني ابن عباد وعلى المعلم أن يتفقد أحوال من يتعلم منه فلا يبذل علمه إلا لمن توهم فيه الخير والصَّلاح إذ بذلك تستفتح له النية والمقاصد التي ذكرناها ولا يبذله لمن سوى هذا ممن علم حاله أو جهله قال سفيان الثوري رحمه الله لو أنك نشرت ما معك من العلم رجوت أن ينفع الله به بعض عباده وتؤجر على ذلك فقال سفيان والله لو أعلم بالذي يطلب العلم لا يرد به إلا ما عند الله لكنت أنا الذي آتيه في منزله فأحدثه بما عندي ممَّا أرجوا أن ينفعه الله به وقيل سئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال له السَّائل أما سمعت أن رسول الله ﷺ قال: "**من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من النار**"[1] فقال له اترك اللجام واذهب فإن جاء من يستحقه وكتمته فليلجمني به وجاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء/5] تنبيه على أن من حفظ العلم فلا يعلمه من يفسد به ويستضر به وترك تعليمه أولى كما قيل:

ومن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

(1) رواه أحمد (499/2) وابن ماجه (97/1) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقد حكي عن بعض الأمم السَّالفة أنهم كانوا يختبرون المتعلم مدة في أخلاقه فإن وجدوا فيه خلقا رديا منعوه من التَّعلم أشد المنع وقالوا إنه يستعين بالعلم على الخلق الرديء فيصير العلم آلة شر في حقه وقد قالت الحكماء زيادة العلم في الرديء السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل كلما ازداد ريا ازداد مرارة وهذا كله صحيح مجرب فينبغي إذا للعالم أن لا يهمله بل يراعيه ويمتثله ولا اعتبار بما في تعليمهم من وجوه المصالح على تقدير حصول توفيق الله تعالى لهم لأن يعملوا ببعض ما يعلمونه من العلم الصَّحيح إن كانت لهم ولاية حكم أو غير ذلك فإن المفاسد التي تقع بسبب ذلك لهم في خاصة أنفسهم والمفاسد التي تتعدى منهم إلى غيرهم أكثر ودرء المفاسد أهم عند العقلاء من جلب المصالح أمَّا الفاسد الذي يختص بهم فهو تقوية صفاتهم الذميمة وأخلاقهم اللَّئيمة بما يطلبونه من العلم لأنهم يستشعرون بذلك التَّوصل إلى جميع مطالبهم الدنيوية على غاية الكمال والتَّمام فإذا استشعروا ذلك توجهوا بهممهم إليه وعكفوا بالجد والاجتهاد عليه ولولا هذا الاستشعار لم يتصور منهم ذلك فإذا حصلوا على شيء من ذلك وظهرت لهم مخايل وصولهم إلى أغراضهم المذكورة فرحوا بذلك واغتبطوا به وكلما ازدادوا علما ازدادوا فرحا واغتباطا بما هم فيه وهذا الفرح والاغتباط في غاية الذم منه لأن ذلك متعلق بأسباب الدنيا وهو بمنزلة السم القاتل الذي يوجب موت قلوبهم وقسوتها وبعدها عن التأثير بالمواعظ كما قيل إذا قسى القلب لم تنفعه المواعظ كالأرض إذا سبخت لم ينفع المطر وعند ذلك تتعثر وتتقوى صفاتها وتظهر آثار ذلك على ظواهرهم من التكالب على الدنيا والركون إلى من هي عنده من أبنائها المنزفين وليس لهم ما يتوسلون به إليهم سوى علمهم فيحتالون على تحصيل إقبالهم وصرف وجوههم إليهم والتنفق عندهم بأنواع من الحيل ولا يسلمون ذلك من الرياء والتصنع من النفاق والدهان ويجرهم ذلك إلى أنواع من المحظورات وضروب من العصيان مع ما يحل بهم في ذلك من الذل والهوان فإذا نالوا ذلك أو بعضه حصل لهم مقصود نفوسهم وتمكنوا من جميع حظوظهم فخرجوا من الحرية إلى استعباد الأغيار واستبدلوا بالعلم النافع الجهل الضَّار وقد قال الفضيل بن عياض: لولا أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وشحوا على دينهم وأعزوا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس وكانوا لهم تبعا وعز الإسلام وأهله ولكنهم أذلوا أنفسهم ولم يبالوا بما نقص من دينهم إذ أسلمت لهم

دنياهم فبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك ما في أيدي النَّاس ولله در الشاعر حيث يقول:

يقولــون لــي فــيك انْقِــباضٌ وإنمــا رأَوا رجـلاً عـن موقـفِ الـذُّلِّ أحْجَمَـا
إذا قــيل هــذا مَــوْرِدٌ قلــتُ قــد أرَى ولكــنَّ نَفْــسَ الْحُــرِّ تحــتمِلُ الظَّمَــا
ولـم أبْتذِلْ في خدمةِ العلمِ مُهْجَتِي لأخــدُم مَــن لاقــيْتُ إلَّا لأُخْــدَمَا
أأغرِسُـــهُ عِـــزّاً وَأَجْنِـــيهِ ذِلَّـــةً إذاً فاتِّــباعُ الجهــلِ قــد كــان أحْـزَمَا
ولـو أنَّ أهـلَ العلـمِ صَـانُوه صـانَهُمْ ولــو عظَّمــوه فــي الــنفوسِ لَعُظِّمَــا
ولكـــنْ أهانُـــوه فهَـــان ودَنَّـــسُوا مُحَــيَّاه بالأطْمَــاعِ حتــى تجهَّمَــا

وقال وهب بن منبه[1] لعطاء الخراساني كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم وكانوا لا يلتفتون إلى دنيا غيرهم وكانوا أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم وقال ذو النون المصري رضي الله عنه كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا في الدنيا وتركا لها فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حبا لها وطلبا لها وكان الرجل ينفق ماله على علمه ويكسب الرجل مالا وكان يرى على طالب العلم زيادة في باطنه وظاهره فاليوم يرى على كثير من أهل العلم فسادا في الظاهر والباطن فانظر إلى ما ذكره هؤلاء الفضلاء تجده لازما لطلبة هذا الزمان وليس الخبر كالعيان ثم بعد وقوع هذه المفاسد بهم وتوغلهم بها في سوء آدابهم يتعذر عليهم سلوك طريق الحق لما استحكم في قلوبهم من علاقة الخلق فقد قيل التعمق في الباطل قطع لآمال الرجوع عنه فكل ما كان بعد المسافة من الخواتم كان الإياس من الرجعة أوجب وأعظم الوبال عليهم اغترارهم بحالهم واستحسانهم لسيّئ أعمالهم واعتقادهم أنَّهم سالكون سبيل النجاة في الدار الآخرة ونيل الثواب فيها وأنهم هم الذين جازوا الرتب الشَّريفة والمناقب المنيفة التي اختص بنيلها العلماء الذين هم رثة الأنبياء وليس عندهم من المعرفة بعلوم التَّحقيق ما

(1) أبو عبد الله وهب بن منبه كان رضي الله عنه يقول في التوراة علامة الرجل الصالح أن يخاصمه قومه الأقرب فالأقرب، وكان رضي الله عنه يقول: كان الناس ورقاً بلا شوك وأنتم اليوم شوك لا ورق فيه، إن تركهم العبد وهرب تبعوه توفي بصنعاء سنة 114 هـ رضي الله عنه. (الطبقات الكبرى ص 102).

يخرجون به من هذا الغرور لأنهم لم يسلكوا طريق ذلك ولم يهتدوا لما هنالك فهذا هو الفساد الذي يختص بهم ولا يشاركون غيرهم فيه وأمَّا الفساد الذي يتعدى إلى غيرهم فاظهر من كل ظاهر وناهيك من كل من ملكته نفسه أشد ملك واستعبدته أتم استعباد هل يبقى عليه شيء من الشر أو نوع من أنواع الفساد إلا ويقع فيه إذا تمكن منه ومن دقيق ما يسري عنهم من الفساد من غير قصد منهم لذلك وقوع الاغترار للجهلة بشاهد حالهم فإنهم يشاهدونهم قد حازوا من رتب الدنيا ما أرادوه ويتوهمون أنهم نالوا شرف الآخرة بما أفادوا واستفادوا فيحملهم ذلك على الاقتداء بهم في طلب العلم إن كانوا ممن فيه قابلية فيقعون فيما وقعوا فيه من المهالك أو يؤديهم ذلك إلى محبَّتهم وموالاتهم واتخاذهم أربابا يسمعون منهم ويطيعونهم في أوامرهم ونواهيهم ثم يخرج بهم استحسان حالهم إلى الدَّاء الدفين وهو مسارقة طباعهم الدنية وأخلاقهم الردية فإن نفوس العامة قابلة لذلك ومهيأة له بمنزلة الصبيان الذين ترشح فيهم أخلاق آبائهم ومذاهبهم وغير ذلك يبطل في حقهم ما هو مقصود في بعثة الرسول من التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة وحب الفقر والمسكنة وإيثار التواضع والذلة والتخلق بأخلاق الإيمان والإسلام وشدة الحزن من ارتكاب المناهي والآثام ثم يؤول ذلك بهم إلى الشرك الخفي والجلي ويحيق بهم المكر السيئ والعياذ بالله ويكون وبال جميع ذلك راجعا إلى المعلم لتيسر أسباب ذلك على يديه ولقد صدق ابن المبارك حيث يقول:

فَهَــلْ أَفْـسَدَ الـدِّينَ إِلَّا المُلُـو ... كُ وَأَحْـبَار سـوءٍ ورُهْـبَانُها
أَضَـاعُوا الـنُّفُوسَ وَلَـمْ يَـرْبَحُوا ... وَلَـمْ يَغْـل فِـي البَـيْعِ أَثْمَانُهَـا
لَقَـدْ وَقَـعَ الـنَّاسُ فِـي جِـيفَةٍ ... تَبَـيَّنَ لِلـنَّاسِ إِنْـتَانُهَا

روي عن حذيفة بن اليمان أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه ثم قال إنَّ الذين استضاءوا إضاءة هذه ثم أخذ كفا من تراب ثمَّ جعل يدره على الحصاة حتى واراها ثم قال والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين هكذا كما دفنت هذه الحصاة ولتسلكن سبيل الذين كانوا من قبلكم الغدة بالغدة والنعل بالنعل قلت ومنشأ وجود هذه المفاسد خراب بواطنهم وظلمة قلوبهم بسبب فقد اليقين منها وانكشاف أنوار الإيمان فيها وإفلاسهم من حقائق ذلك وعدم احتظائهم بشيء منه فصاروا بذلك مأسورين لأهوائهم منقادين لأغراضهم وآرائهم ففسدت بذلك نياتهم ومقاصدهم

والأعمال بالنيات فإذا كانت النية صالحة كانت الأعمال صالحة وترتبت عليها آثار صالحة وانقطعت من ذلك على القلوب من يد اشراف وحميد أخلاق يؤذن ذلك بوجود القرب من الله تعالى ونيل درجات الحب منه وإذا كانت النية فاسدة كانت الأعمال أيضا فاسدة وانعطف على القلوب زيادة وظلمة ورداءة همة ويقتضي البعد من الله تعالى وحصول المقت منه وطلب العلم وعمل من الأعمال معرض للصحة والاعتلال وليت شعري هؤلاء الذين استغرقوا أعمارهم في طلب العلم والأثر وأتعبوا أنفسهم بالدراسة والنَّظر وقطعوا لياليهم وأيامهم بالجوع والسهر وسمحت نفوسهم بفراق ملذوذاتها والبعد عن جميع مألوفاتها هل بعثهم على ذلك باعث الهوى ولا شك أن باعث الدين غير متصور منهم بل هم محال في حقهم لما قدمنا من خراب البواطن وظلمات القلوب وكيف يتصور ذلك منهم وهم لم يعملوا على التخلص من التكاليف الواجبة عليهم في ظواهرهم وبواطنهم بل لم يعرفوا ذلك البتة وإن ادعوا لهم على أحوال لا يجب عليهم فيها حكم يحتاجون إلى تعرفه والقيام له فهم مخدوعون ومن أين لهم ذلك والعلم به لا يحصل ضرورة فلا بدّ لهم من استعادته ولا نهاية لهم أيضا إنما كان يتصور منهم باعث الدين لو توفَّرت عليهم أغراضهم كلها عليهم ووصلوا إلى ما يمكنهم الوصول إليه من شهواتهم ولذَّاتهم بسبب من أسباب الدنيا ثم يصرفون ما فضل من أوقاتهم عن محاولة هذه المطالب ونيلها إلى طلب العلم عوضا عن البطالة التي يتبرم بها صاحبها ويدعه فراغه من اشتغال دنياه إلى قطع ذلك الوقت بلهو أو بحب وارتكاب معصية وذنب إلا البطالة التي تكون فيها استراحة لنفسه واستجمام بعقله وحسه ففي هذا الحال قد يصح باعث الدين من أمثال هؤلاء وأمّا الحال التي وصفناها فلا يتصور عليها باعث إلا الدنيا المجردة المجاورة في الذم والمقت بمنزلة من هو حريص على الاتساع في الدنيا والفضول على غاية فإنه يعمل فيما يوصله إلى ذلك وإن كان فيه هلاكه فتراه يرتكب الأخطار ويخوض البحار ويجوب البراري والقفار ويهون عليه في جنب ما يوصله كل مشقة تصيبه وبلية تنزل به ولو لم يفعل هذا لم يحصل إلا على سد الرمق والاقتصار على البلغ والعلق فكذلك هؤلاء الذين كلامنا فيهم لو لم يتصور في خواطرهم الحصول على كلية أغراضهم من اتساع مالهم وجاههم في دنياهم ووصولهم مع ذلك إلى رفيع الدرجات في عقباهم لم يبلغوا المبلغ في الاجتهاد ولا اقتصروا على بعضه وهذه كلها أمور بينة لا إشكال فيها عند من له

أدنى تمييز وفهم وليس المانع لأكثر من ينسب للعلم من العمل بمقتضى ما ذكرناه جفاءه عليهم كيف وهم يعتقدون صحَّته ويسلمون حاصله وحقيقته في الإيماء من عند من انجلى عن قلوبهم بعض كلماتها وتزحزح عن عظيم عمداته إما بتذكر المذكر من الخلق أو وعظ واعظ في قلوبهم من قبل الحق سبحانه ثم يرجعون في سائر أوقاتهم إلى مألوفاتهم ومعتاداتهم وإنَّما المانع لهم من ذلك انفراد الله تعالى بالمشيئة والقدرة واستيثاره بالخذلان والنصرة فإذا أراد الله تعالى أن يضل عبدا من عباده لم ينصره عقل ولا ينفعه علم قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة/41] الآية ولا يغتر أحد بعلمه ولا بكثرة عبادته ولا بمقامه بموضع صالح كمكة والمدينة وبيت المقدس ولا برفيق صالح إذ لو كانت المواضع الصالحة تطهر صاحبها والمقيم بها لما كفر من قريش أحد لكونهم خلقوا بمكة ونشأوا بها وقضاء الله وقدره لا يرد فانظر وفكر واعتبر فلا موضع أصلح من الجنة ولقد لقي آدم فيها من مخالفة الأمر ما لقي ولو كان العلم ينجي صاحبه فلا عالم أعلم من بلهام ابن باعورا روي أنه كان يعرف الاسم الأعظم ويدعو به ويستجاب له ومع ذلك انسلخ من جميع علومه وفي قصته نزلت الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف/175] إلى قوله ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف/176] ولو كانت العبادة تنجي صاحبها لنجى برهيص العابد وحكايته معلومة وفكر في إبليس لعنه الله إذ لا أعبد منه في الدنيا ومع ذلك لقي ما لقي ولا تغتر بخلطة رجل صالح فلا أحد أصلح من رسول الله ﷺ ولم ينتفع به أقاربه ولا أحبابه في الجاهلية فقريش كلهم كانوا يحبونه قبل ظهور نبوته ورسالته ولما جاء القدر لقي الكافر منهم ما لقي فالواجب علينا امتثال الأمر وشدة الخوف والرجاء ويغلب الخوف في حال الصحة كما يغلب الرجاء في حال المرض فإذا عاين الموت فيطلق الخوف كله ويتمسك بالرجاء ليموت وهو حسن الظن بالله تعالى قال رحمه الله وفي مثل هذا الموطن تبطل أحكام الانتساب ويتحقق أرباب الحقائق العظمة والجلال والعزة والكمال لرب الأرباب فليعنى بما ذكرناه أرباب الأبصار وليسلموا أحكام الواحد القهار لعلهم بذلك يهتدون إلى منهاج التَّحقيق حين يضل غيرهم عن سواء الطَّريق مصائب قوم عند قوم فوائد وليقل العبد المؤمن إذا نظر إليهم واعتبر بما جرى من سوء القضاء

عليهم الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاهم به وفضلني فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من رأى مبتلى فقال الحمد الذي عافاني مما ابتلي به هذا وفضلني عليه وعلى كثير ممن خلق تفضيلا عافاه الله من ذلك البلاء كائنا ما كان**»[1] فعلى المعلم النَّاصح لنفسه السالم في عقله وجسمه العامل على تصحيح أعماله وهمه المشفق على دينه الذي هو منوط بلحمه ودمه أن يتأمل هذه المفاسد ويقيس بها ما توهمه من المصالح الناشئة عن تعليمه بزعمه ويدقق النظر في ذلك كما يدققه في أكثر المسائل التي لا يحتاج إليها ولا يقدم على التعليم في هذه الأزمنة ذوات العلل المزمنة حتى يقطع بوجوب ذلك عليهم من غير تردد ولا تجويز ونوع خطا في نظره ولا سبيل له إلى هذا ولا يتبعه خلاف ذلك إن كان منصفا قال بعضهم رأيت سفيان الثوري حزينا فسألته عن ذلك فقال: وهو يدمدم ما أمرنا إلا متجرا لأبناء الدنيا قلت: وكيف ذلك قال يلزمنا أحدهم حتى إذا عرف بنا وحمل عنا يجعل عاملا أو حاجبا أو قهرمانا أو جائبا فيقول حدثنا سفيان الثوري وعليه أيضا أن يحرص على مخالفة نفسه فيما توعده إلينا من التعليم لأن كل ما تستحمل النَّفس ويوافق غرضها مصحوب بالآفات والعلل الذي تقدم في الإخلاص وإخلاص الأعمال شرط في وجوب القبول وعند ذلك يذهب عمله باطلا ولا ينال بسعيه طائلا وقد تقدم من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه كونوا لقبول العمل أشد اهتماما ما للعمل عند قوله ما قل عمل يعني في الحكم وقد تقدم الكلام أيضا على اتهام النَّفس عند قوله إذا التبس عليك أمر وليتعلم الحزم في ذلك روي عن بشر بن الحارث الحافي كان يقول: أنا أشتهي أن أحدث ولو ذهب عني شهوة الحديث لحدثت وكان سبب تركه طلب الحديث أنه سمع أبا داود الطيالسي يحدث عن شعبة أنه كان يقول: الإكثار من الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصَّلاة فهل أنتم منتهون فلما سمعه منه قال: انتهينا ثم ترك الدجلة في طلب الحديث وأقبل على العبادة وروي أيضا مثل هذا الكلام فإذا كان الإكثار من الحديث لهذه المثابة عند إمامي المحشر في زمانهما مع ما فيه من الفوائد الأخروية فما ظنك بغيره من محدثات العلوم ومبتدعاتها ولقد ذكر الشيخ الحافظ أبو عمر بن عبد البر بإسناده إلى عبد الله بن مسلمة القعنبي قال: دخلت على مالك فوجدته باكيا فسلمت عليه فرد

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (108/4) من حديث عمر رضي الله عنه.

علي ثمَّ سكت عني يبكي فقلت: يا أبا عبد الله ما الذي أبكاك فقال لي: يا ابن قعنب أنا والله أبكي على ما فرط مني ليتني تجلدت بكل كلمة تكلمت بها في هذا الأمر سوطا ولم يكن فرط مني ما فرط من هذا الرأي وهذه المسائل وقد كان لي سعة في ما سبقت إليه قال هذا في ما كان أخذ فيه من المسائل المحققة المبينة على أصول صحيحة غير ملفقة فما الظن بما انتشر بعده من الهذيان الذي صار بحكم العادة واقتضاء المعصية النَّاس على الضلال وتقليد الرؤساء الجهال دينا قويما وصراطا مستقيما وعلى كل واحد من العالم والمتعلم أن يشتغل بما عليه مما هو مأمور به ومسؤول عنه من مراقبة ربه وإصلاح نفسه وقلبه فله في ذلك شغل شاغل عما يفرق ويقصي قلبه وينسيه ذكر ربه قال ابن وهب ذكر طالب العلم عند مالك بن أنس[1] فقال: إن طلبه لحسن إذا صحت فيه النية ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي ومن حين تمسي إلى حين تصبح فلا تؤثرن عليه شيئا وكان الثوري يقول لأهل العلم الظَّاهر طلب هذا ليس من زاد الآخرة وكان يقول ليس طلب الحديث من الاستعداد للموت لكنه علة يتشاغل بها الرجل وكان يقول لولا أن للشياطين فيه نصيب ما ازدحمتم عليه يعني العلم فهذه نبذة قصدت إلى بثها في الموضع اللَّائق بها من هذا الكتاب لينتبه بها من سبق له من الله زوال العمى عن بصره وبصيرته ومراجعة خوفه من المعلمين والمتعلمين والله الموفق سبحانه.

الفصل الرابع عشر
في غسل مخابع الجسد كتحت الحلق وما تحت الإبطين والسرة وما بين الرفغين والإليتين

بالولاية.

اعلم يا أخي أن وجه المناسبة بينهما أن هذه المخابع مخفية والولاية مخفية لقوله

---

(1) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي وكان أبو عامر أبو جد مالك حليف عثمان بن عبيد الله التيمي القرشي كان مولد مالك سنة 93 هـ، وكنيته أبو عبد الله من سادات أتباع التابعين وجلة الفقهاء والصالحين ممن كثرت عنايته بالسنن وجمعه لها وذبه عن حريمها وقمعه من خالفها أو رام مباينتها مؤثرا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على غيرها من المخترعات الداحضة قائلا بها دون الاعتماد على المقايسات الفاسدة مات سنة 179 هـ. (مشاهير علماء الأمصار 140/2).

عليه الصلاة والسَّلام: «**أخفى الله تعالى ثلاثاً في ثلاث أخفى الله تعالى رضاه في طاعته فلا تحقر من طاعة الله شيئا وأخفى غضبه تعالى وسخطه في معصيته فلا تحقر من معصية الله شيئا وأخفى وليه في خلقه فلا تحقر من خلق الله أحدا**» وقد تقدم ذلك ولكن من علم هذه الطَّهارة وحفظ على العمل بها فليعلم أنه نال الولاية الخاصة وبمحافظته على الكسوة التي تذكر بعد أن تحصل الولاية المنسوبة لخاصة الخاصة واعلم أن الولي في اللغة ضد العدو وفي اصطلاح أهل الحقيقة له معنيان فعيل بمعنى مفعول كقتيل وجريح وهو الذي يتولّى الله رعايته وحفظه فلا يكله إلى نفسه لحظة كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف/196] والثاني فعيل مبالغة من فاعل كرحيم وعليم وهو الذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته فيأتي بها على التوالي من غير أن يتخللها عصيان أو فتور وكلا المعنيين شرط في الولاية فمن شرط الولي أن يكون محفوظا كما أن من شرط النَّبي أن يكون معصوما فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع هكذا ذكره الإمام القشيري وغيره من أئمة الطَّريق قال وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله ورضي عنه يقول: قصد أبو يزيد البسطامي بعض من وصف بالولاية فلمَّا وافى مسجده رآه قد تنخم في المسجد فرجع ولم يسلم عليه وقال: من لا يؤمن على أدب من أدب الشَّرع كيف يؤمن على أسرار الحق واختلف أهل الحقيقة هل يجوز أن يعلم الولي أنه ولي أم لا قال بعضهم: لا ولو ظهر له من الكرامات لجاز أن يكون ذلك مكرا من الله تعالى له لأن العاقبة هي الأصل وهي مجهولة فكم من رجل انعكس عليه حاله وحاله مبد آماله وإلى هذا ذهب جماعة من شيوخ أهل الطَّريقة لا يحصون منهم الإمام أبو بكر بن فورك وقال بعضهم: يجوز أن يعلم أنه ولي باطلاع الله تعالى على عاقبة أمره ودوام حاله بطريق الكرامة والدليل عليه العشرة المبشرة بالجنة وإلى هذا ذهب الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله وقال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه: أولياء الله تعالى عرائسه ولا يرى العرائس إلا المحارم فهم محذورون عنده في حجاب الإنس لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة وقال عليه السَّلام: «**إن من عباد الله تعالى عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء**» قيل: من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم قال: «**هم قوم تحابوا بروح الله تعالى على غير أموال وأنساب وجوههم**

نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف النَّاس ولا يحزنون إذا حزنوا ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يوسف/62]»[1] قال أهل الحقيقة سبب انتفاء الخوف والحزن عنهم أن الخوف متعلق بمستقبل من توقع حصول مكروه أو فوات محبوب والحزن متعلق بالماضي والولي ابن وقته فلا ماضي له ولا مستقبل فلذلك لا حزن له ولا خوف ولا رجاء أيضا لما قلنا ووجه آخر وهو أن الحزن من خزونة الوقت ومن كان ضياء الرضى ورداء الموافقة فأنى له حزن وقيل علامة الولي ثلاثة أشياء: أن يكون همه لله وفراره إلى الله وشغله بالله وقيل علامته أن يكون أبدا ناظرا لنفسه بعين الصغار والهوان خائفا من سقوطه عن المرتبة التي هو فيها لا يثق بكرامة تظهر له ولا يغتر بها وقيل نهايات الأولياء بداية الأنبياء وقال أبو يزيد: حظوظ الأولياء مع تباينها من أربعة أشياء الأول والآخر والظاهر والباطن فمن استغنى عنها بعدما استثبتها فهو الكامل التَّام فمن كان حظه من الاسم الظاهر لاحظ عجائب قدرته ومن كان حظه من اسمه الباطن لاحظ ما حرى في السَّرائر من أنواره ومن كان حظه من اسمه الأول كان شغله بما سبق ومن كان حظه من اسمه الآخر كان مرتبطا بما يستقبل قال الشيخ أبو يزيد رحمه الله فكل يكاشف على قدر طاقته إلا من تولاه الله سبحانه وتعالى وقام عنه بنفسه قال الإمام القشيري وكلام أبي يزيد يستقر إلى أنَّ الخواص ارتقوا عن هذه الأقسام كلها فلا العواقب هم في فكرها ولا السوابق هم في ذكرها ولا الطوارق هم في أسرها فأصحاب الحقائق محوا عن نعوت الخلائق وقال أبو سعيد الخراز إذا أراد الله أن يتولى عبدا فتح عليه باب ذكره فإن استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ثم رفعه إلى مجالس الأنس ثم أجلسه على كرسي التَّوحيد ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردنية وكشف له ستور الجلال والعظمة فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هو وصار فانيا فوقع في حفظ الله وبرئ من دعاوي نفسه وصار وليا ولا يسقط الخوف عن الولي بل هو الغالب عليه فإن زال عن بعض الأولياء فنادر لكن الهيبة لا تفارقه ويجوز أن يكون الولي وليا ثم تبطل ولا يته وقيل لا يجوز والأول هو المختار والغالب على الولي في أوان صحوة صدقه في أداء حقوق الله ثم رفقه وشفقته على خلقه في كل حال ثم دوام التحمل منهم بجميل الخلق وطلب

(1) رواه أبو داود (310/2) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي الباب عن غيره.

الإحسان من الله تعالى لهم ابتداء من غير أن يسألوه ذلك وتعليق الهمة بنجاتهم وترك الانتقام منهم وكف النَّفس عن أموالهم والسؤال عنهم بكل حال والتعامي عن مساوئهم ولا يكون خصما لأحد في الدنيا ولا في الآخرة والله أعلم.

الفصل الخامس عشر

في غسل الركبتين

بالهيبة والأنس.

اعلم يا أخي أن وجه المناسبة بين الهيبة والركبتين حتى شرحنا غسلهما بذلك ما روي في الأخبار الصَّحيحة من أنه ليس في القيامة من تقله قدماه سوى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله حتى الخليل عليه السَّلام يكون على ركبتيه من شدة الهيبة مما شاهد في ذلك الحال من نعوت العظمة والجلال ولا أحد من الأنبياء عليهم السلام إلا وهو يقول نفسي نفسي لا أسألك يا إلهي اليوم إلا نفسي إلا سيدنا ومولانا محمد ﷺ يقول أمتي أمتي يا إلهي لا أسألك اليوم إلا أمتي فهذا وجه المناسبة واعلم أن الهيبة والأنس هما حالتان فوق القبض والبسط فوق الخوف والرجاء فالهيبة مقتضاها الغيبة والدهش فكل هائب غائب حتى لو قطع قطعا لم يحضر من غيبته إلا بزوال الهيبة عنه والأنس مقتضاه الصحو والإفاقة ثم إنهم متفاوتون في الهيبة وفي الأنس وقيل أدنى مراتب الأنس أنه لو ألقي في النار لم يكدر عليه أنسه وقال الجنيد: سمعت السري يقول: العبد من الهيبة والأنس إلى أن لو ضرب بالسيف لم يشعر وكان في قلبي شيء من ذلك حتى بان لي أن الأمر كذلك واعلم أن الأنس يتولد من السرور بالله ومن صح له الأنس بالله استوحش من كل شيء سواه وقيل لبعضهم متى يذوق العبد حلاوة الأنس؟ فقال: إذا قطع العلائق ورفض الخلائق وغاص في الحقائق مطلعا على الدَّقائق وقال الأصمعي مررت بأعرابية في كوخ فقلت لها: من يؤنسك هنا؟ فقالت: الذي يؤنس الموتى في قبورهم قلت: فمن أين تأكلين؟ فقالت: يطعمني من يطعم الذرة وهي أصغر مني وقال الشلبي: من استأنس بالله استوحش من خلقه ومن استوحش من خلقه صار فردا بين يديه وحالة الهيبة والأنس وإن خفيتا فأهل الحقيقة يعدونها نقصا لتضمنها بغير العبد فإن أهل التمكين سمت أحوالهم عن التغير فلهم كمال المحو في وجود العبد هيبة لهم ولا أنس ولا علم ولا حسن وارتقاؤهم عن هذا المقام بالوجود وسيأتي ذكره إن شاء الله وحكى عن أبي سعيد الخراز أنه قال: تهت مرة في البادية فكنت أقول

شعرا:

أتيه فلا أدري من التيه من أنا ... سوى ما يقول الناس فيّ وفي جنسي
أتيه على جن البلاد وأنسها ... فإن لم أجد شخصا أتيه على نفسي

فهتف بي هاتف وهو يقول:

أيا من يرى الأسباب أعلى وجوده ... ويفرح بالتيه الدنى وبالانس
فلو كنت من أهل الوجود حقيقة ... لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي
وكنت بلا حال مع الله واقفا ... عن التذكار للجن والإنس

والله الموفق وهو الهادي والملهم سبحانه.

الفصل السادس عشر
في غسل السّاقين

بالسفر في طاعة الله.

اعلم يا أخي أن وجه المناسبة هنا ظاهر، **واعلم** أنه لمَّا كان رأي كثير من أهل الحقيقة اختيار السفر جعل له باب على حدته وهم مختلفون فمنهم من اختار الإقامة ولم يسافر إلا لحجة الإسلام كالجنيد وسهل بن عبد الله وأبي يزيد البسطامي وأبي جعفر وغيرهم رضي الله عنهم ومنهم من اختار السفر ولم يزل عليه حتى خرج من الدنيا كأبي عبد الله المغربي وإبراهيم بن أدهم رضي الله عنهما ومنهم من سافر في حال الشباب وابتداء الحال وأقام في حال الشيخوخة كالشلبي وأبي عثمان الخيري وغيرهما ولكل منهما أصول بنى عليها طريقه واعلم أن الذين اختاروا السفر على الإقامة إنما اختاروه لما فيه من زيادة الرياضة وليكونوا من أورادهم في السفر شيئا وقالوا الرخص لمن يسافر ضرورة ونحن نسافر اختيارا وقيل إنما سمي السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجل أي يكشف عنها وعن مالك بن دينار أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السَّلام أن اتخذ نعلين من حديد وعصي من حديد وسح في الأرض فاطلب الآثار والعين وقال فقير لمحمد الكتاني أوصني قال: اجتهد أن تكون كل ليلة ضيف مسجد وأن لا تموت من منزلين وقال الحضر في جلسة خير من ألف حجة أراد جلسة تجمع الهم بوصف الشهود خير من ألف حجة بوصف الغيبة، وقال أبو عبد الله النّصيبي سافرت ثلاثين سنة ما حطت لي خرقة على مرقعة ولا عدلت إلى موضع علمت أن لي

فيه رفيقا ولا تركت أحدا يحمل لي شيئا.

تنبيه: والسفر نوعان:

سفر بالبدن وهو الانتقال من صفة إلى صفة وذلك قليل الوجود وسمي الأول سفر الأرض والثاني سفر السماء وكان النبي عليه السَّلام إذا استوى على بعير خارجا إلى سفر كبر ثم قال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف/13 - 14] ثم يقول: **اللهم إني أسألك في سفرنا هذا البر والتّقوى ومن العمل ما ترضى هون علينا سفرنا اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال» فإذا رجع من سفره قالهن وزاد آيبون تائبون لربنا حامدون»**[1] والله الموفق سبحانه.

الفصل السَّابع عشر
في غسل القدمين

بالاستقامة.

اعلم يا أخي أنَّ وجه المناسبة هنا التَّفاؤل بأن تثبت استقامته على منهج النبي ﷺ وهو سبيله وصراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه هو الذي تستقيم قدماه وتثبت على الجواز على الصراط المضروب على متن جهنم أعاذنا الله منه بفضله وجوده وكرمه آمين.

واعلم يا أخي أن الاستقامة في اللغة ضد الاعوجاج وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي الوفاء بالعهود كلها وملازمة الصراط المستقيم والصراط المستقيم رعاية حال التَّوسط والعدل في كل الأمور في الطعام والشراب واللباس والنكاح وكل أمر ديني ودنيوي فذلك هو الصراط المستقيم في الدنيا كالصراط المستقيم في الآخرة ومن هدي إلى الصراط المستقيم في الدنيا كان ذلك سببا لنجابته عند مروره عليه في الآخرة والهداية إلى معرفته من أعظم نعم الله تعالى على العبد قال الله تعالى: ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس/25] وقال في حق النبي عليه السَّلام: ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

(1) رواه مسلم (978/2) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح/2]، وقيل الاستقامة أن لا تختار لنفسك غير ما يختار الله لك ولا تدبر أمرا وقال الشلبي: هي أن تشهد الدنيا قيامة قلت يعني كأنها يوم القيامة فخذ منها ما يوافقك يوم القيامة وما تحب أن يكون معك فيها واترك من الدنيا ما تكره أن ينسب إليك منها يوم القيامة أنها محل الزاد النافع للآخرة والأعمال المهلكة في الآخرة فهذا ميزان عدل مستقيم فحاسب نفسك به وزن جميع أفعالك وأقوالك وأحوالك وأخلاقك وجميع معاملاتك في صلاتك وصيامك وصدقاتك وطاعتك ومعصيتك فإن الدنيا صالحة للأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة ولا بدّ من رحيلك عنها عاجلا ولا بدّ من الجزاء على أعمالك فيها قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ [الزلزلة/7 - 8] أسأل الله التَّوفيق والهداية لأفضل طريق السلامة من كل سوء وضيق بفضله وجوده ثمَّ قال قد مدح الله تعالى المستقيمين قال جل من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت/30] الآية قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه معناه لم يشركوا بالله شيئا وقال عمر رضي الله عنه معناه لم يروغوا روغان الثعلب فقول أبي بكر محمول على مراعات أصول التوحيد وقول عمر محمول على ترك طلب التَّأويل وقيل معناه استقاموا بأفعالهم كما استقاموا بأقوالهم وأفعالهم وقال سيدنا محمد ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصَّلاة**»[1] وقال أبو علي الدَّقاق: الاستقامة لها ثلاثة مدارج أولها التقويم وهو تأدب النَّفس وثانيها الإقامة وهي تهذيب القلوب وثالثها الاستقامة وهي تقريب الأسرار واعلم أن الاستقامة درجة بها تمام الأمر وكماله وهي مقام لا يطيقه إلا الأكابر حكي عن بعض المشايخ أنه رأى النَّبي ﷺ فقال له يا رسول الله روي عنك قلت شيبتني سورة هود فما الذي شيبك فيها قصص الأنبياء وهلاك الأمم فقال: لا ولكن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود/112] وقيل الاستقامة توجب دوام الكرامة وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝﴾ [الجن/16] إشارة إلى الدوام لأن معنى أسقيناه جعلت له سقيا أي مشربا بخلاف

(1) رواه مالك في الموطأ (34/1) بلاغا، ووصله أحمد في مسنده (276/5) وابن ماجه في سننه (1/ 101) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

سقيناه والله الموفق سبحانه.

الفصل الثامن عشر
في الفور في جميع ما تقدَّم

اعلم يا أخي أن الفور في الطهارة الحسية هو الموالاة من غير فترة ولا توقف فإذا نسي فعل الطَّهارة وتوقف عن الفعل بحديث مع الغير ونحوه ولم يتذكر الطهارة حتّى جفت الأعضاء بتقدير الزمان المعتدل والشخص المعتدل السن وهو الكهل فقد فسدت تلك الطهارة وبطلت فيبتدئ الوضوء من أوله وكذلك هذه الطَّريقة فهذه الطريقة المعنوية يبطلها التوقف والفترة لأن خير الأعمال ما كان ديمة قال رسول الله ﷺ: «**عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا**»[1] ولذلك كان الفور في الطَّهارة المعنوية المراد أن تسرع بكل ما أمرت به في الأوقات التي أمرت بالفعل فيها كأوقات الصلوات والصيام والحج إن بلغك الله تعالى للإحرام به والزكاة وغير ذلك، وانظر قضية الحداد التي تقدمت في هذا الكتاب ولا تضر إعادتها هنا بالاختصار، روي أن حدادا حمى حديدا واستخرجه ليضربه فرفع المطرقة ليضرب بها فسمع المؤذن فرمى المطرقة من يده من ناحية ظهره وانصرف للصَّلاة فهذا معنى الفور فينبغي لمن استعمل هذه الطَّهارة واعتقد التَّوبة والرجوع إلى الله تعالى أن يكون في جميع أوامره الظَّاهرة والباطنة مثل هذا الحداد رضي الله عنه فإذا لم تخرج العبادة عن أوقاتها المعلومة شرعا فقد آتيت بالفور وكذلك في كل فعل وقول وحال وخلق من جميع أحوال هذه الطَّهارة ولا تخرج شيئا من ذلك عن وقته المعين كالتَّوبة مثلا فلا تؤخرها واستعجل بها عند وقوع المعصية من غير إسراع عليها وكذلك غيرها من جميع الطاعات والعبادات فذلك هو الفور المطلوب هنا فاعلمه واعمل به ترشد إن شاء الله وأنشدت في ذلك فقلت:

أسير على الأحداق والشوق قائدي ... فصرت أطير في رضائك خالقي

فأسعى بك إليك يا غاية المنى ... بغير توقف إن شئت يا رازقي

فأنت إلهي بغيتي وطويتي ... وأنت مسرتي

فهذا الذي ذكرت واجب في الطهور المعنوي لأنه لا يصح العلم إلا بالنية ولا نية

---

(1) رواه البخاري (1/186) ومسلم (1/540).

إلا باليقين ولا يقين إلا بالخوف ولا خوف إلا بالحب ولا حب إلا بالرجاء ولا يرجى إلَّا الكريم ولا كريم على الدَّوام إلا من خزائنه لا تنفد إلا الحي الذي لا يموت سبحانه لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه فهذا هو الله الذي يعبد ويحمد ويطاع ولا يعصى ولا يخفر له عهد ويقدس ويمجد ولا ينبغي أن ينظر لغيره أحد فمن عرفه كيف يتوقف عن طاعته لكن لا يطاع ولا يعصى إلا بإرادته وتقديره ولا يؤمن ولا يكفر إلا بهدايته وتضليله من يهدي الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وقال تعالى لسيد الخلق سيدنا محمد ﷺ لما كان حريصا على عمه أبي طالب خفف الله عنه ما هو فيه ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ فقد قيل لما أنزلت هذه الآية أيس رسول الله ﷺ من هدايته حينئذ هداه الله ومات مؤمنا بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة/213] وربما يكون داخلا في هذه المشيئة والمشهور خلافه والله تعالى أعلم لكن حيث قلنا لا يرجى إلَّا الكريم لا يرجى إلا بالقرب ولا قرب إلا بالرضى ولا رضا إلا بالاستبراء من المعاصي ولا استبراء منها إلا بالتَّوبة ولا توبة إلا بالكتاب والسنة ولا كتاب ولا سنة إلا بالعقل ولا عقل إلا بحسن الخلق ولا حسن الخلق إلا بالتوجه إلى الله تعالى ولا توجه إلا بالحياء ولا حياء إلا بالعلم ولا علم إلا بالإحسان ولا إحسان إلا بالإيمان ولا إيمان إلا بالإسلام ولا إسلام إلا بالتوحيد ولا توحيد إلا بالتَّحقيق ولا تحقيق إلا بالصبر ولا صبر إلا بترك المعاصي ولا ترك للمعاصي إلَّا بترك الرياء فهذه شروط مرتبطة بعضها ببعض والله الموفق وهو الهادي والملهم سبحانه.

الفصل التاسع عشر
في شرح قوله " وتجفف بمنديل الكرم"

يعني أن لا يبقى في جوارحك الظاهرة والباطنة مثقال ذرة من البخل عن كل ما ذكرنا من أوصاف هذه الطَّهارة المعنوية شيء ولا تبخل بالقدرة التي أعطاك الله تعالى عن عبادته بها ولا بالعلم والحكمة عن نصيحة نفسك بهما ثم تبذل النَّصيحة لجميع عباد الله تعالى مؤمنهم وكافرهم ولا تبخل بها عليهم ولا بالمال عن إطعام الأضياف والفقراء والمساكين ولا بالدعاء الصَّالح لأهل طاعة الله أجمعين وللعاصي من المسلمين وللمهمومين والمكروبين من المؤمنين ولا تبخل عن ذكر الله تعالى بالسر والعلانية ولا بالصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى

جميع أنبياء الله وملائكته ولا بالرضاء عن الصَّحابة والتابعين والأولياء والعلماء والصَّالحين والله الموفق انتهت الطهارة المعنوية بحمد الله وعونه وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله والله الموفق وهو الهادي والملهم سبحانه.

الباب الثامن عشر
في نواقض هذه الطهارة
قياسا على نواقض الوضوء الشرعي

اعلم يا أخي أن نواقض الوضوء شرط في وجود الوضوء وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط ولذلك عبرنا بنواقض الطَّهارة عن شروطها فمن شروط صحة هذه الطَّهارة فهذا الباب يحتوي على فصلين الفصل الأول في نواقض الطَّهارة والفصل الثاني في شروطها فاعلم ذلك وهو أمر مؤكد فاعلمه.

الفصل الأول
في نواقض الوضوء المعنوي

اعلم يا أخي أن هذا الوضوء الذي قال فيه الشيخ الجنيد رحمه الله توضّأ بماء الغيب وقد وصفناه إلى تمامه كما ترى من أول الكتاب إلى هذا الباب ينقضه ويفسده أمور شتى وهي الدعوى بأن يدعي التَّقوى والعلم والمعرفة والصلاح والولاية لأن هذه الأمور كلها مفسدات للعبادة لأن هذه المسائل كلها ما فيها إلا حظ النَّفس الأمارة لا غير وخصوصا دعوى الولاية فقد قيل لا يموت مدعيها على ملة الإسلام والعياذ بالله من ذلك ومنها أي من النَّواقض الرياء وهو الشرك الخفي وهو محبط لجميع الأعمال كالشرك الجلي لأن الله تعالى لا يقبل عمل مرائي وقد تقدم التَّحذير منه ومنها الكبرياء فالتكبر على الأقران مبطل للعبادة لأن المتكبر ينازع الله جل جلاله في وصفه الذي لا يليق إلا به تعالى وهذا ظاهر بين فلا نطيل بذكره وقد تقدم الكلام عليه ومنها الغضب لأن الغضب مفسد للعبادة لأنه يرى لنفسه مزية وينصرها على أشرف منه ولو بخصلة من خصائل الخير قال الشيخ الولي الصالح سيدي موسى بن المعرف رحمه الله في بعض قصائده ما نصه:

لأنَّ العــــارف بــــالله خائــــف ... مـــسلما للخلـــق لا مـــصانف
فلـــم يـــر عيـــبا ســـوى لنفـــسه ... وذلـــك مـــن معـــرفات ربـــه

عـــــرفها بأنهـــــا رديـــــة مقـــيم عـــن دســـائس خفـــية

فكـــن لهـــا محاســـبا فـــيما خفـــى واجـــذبن بهـــا إلـــى بحـــر الـــصفا

لأن مـــن عـــرف أمـــر نفـــسه قـــد اســـتفاد معـــرفات ربـــه

ولكن المؤمن شديد الغضب سريع الرضى، وقال الولي الصَّالح المجاهد الأنجد سيدي محمَّد بن أحمد العياشي رحمه الله ورضي عنه من فعل به ما يغضبه ولم يغضب فهو حمار في طبعه ومن غضب ولم يرض فهو جاهل متكبر وهذا الوصف الأخير هو المعدود في النواقض فاعلمه ومنها الحسد فقد تقدم الكلام عليه وعد في النواقض أنه وصف نفسه بالعلم ووصف ربه بالجهل والخطأ لأنه رأى المحسود أنه غير مستحق لما أعطاه الله تعالى والعياذ بالله من ذلك ومنها الغل وهو نوع من الحقد بل الغل هو الحقد وهما أعني الغل والحقد مقيل الشيطان ومأواه ومنها الطمع وهو مفسد للعبادة لكون الطامع شاكا في الرازق وقد تقدم الكلام عليه ومنها العجب وهو مفسد للعبادة لكونه جعل نفسه شريكا في العمل الذي خلقه الله تعالى وأظهره على يده لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات/96] وفيه عيوب منها ما ذكرناه الآن والثاني الغير بزعمه أنه لم يقدر على ذلك العلم والعمل أحد من خلق الله سواه ولو علم أن غيره يعلم ذلك أو يعمله ما عجب به منها أنه يقول بلسان حاله لغيره هل رأيتم من يعلم هذا ويعبد هذه العبادة أو يعمل هذا العمل أحدا غيري فالعجب يشارك الرياء من هذا الوجه ومن يتبع النظر فيه وجد أكثر من ذلك وكلها مفسدات للعبادة ومنها حب الرياسة وهو الداء العضال الذي لا دواء له وهو سبب عداوة إبليس لعنه الله لآدم عليه السَّلام وذلك أنه كان رئيسا لأربعة آلاف من الملائكة الذين بعثهم الله تعالى للأرض يقاتلون قبائل الجن الذين كانوا يفسدون ويسفكون الدماء بالأرض فلمَّا قتلوهم وفرَّ الباقون لجزائر البحور ومكث إبليس ومن معه من الملائكة بالأرض لأنهم في طاعته وتحت أمره فلمَّا عجبته الإمارة وهي المراد بالرياسة وكل من أخذ منها شيئا فهو رئيس قوم لا انفكاك له من حب ذلك فلمَّا قال الله تعالى للملائكة حسبما تضمنته الآية وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة/30] فاستشعر إبليس لعنه الله أنه معزول من الإمارة وجعل يرتقب ما يحدثه الله تعالى من ذلك فلما

صور الله تعالى آدم من الطين قال هذا هو الخليفة المعهود به فاعتقد بعضه وعداوته فعداوة إبليس لآدم وذريته قديمة حين كان آدم لا روح فيه ولا دم ولا لحم فأحرى بعد ذلك فكيف لا تتخذوه عدوا والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر/6] وأصل هذه العداوة هو حب الرياسة ومنها حب الجاه وهو نوع من الرياسة ومنها خوف وتزكية النَّفس وحب المدح والمحمدة وحب الثناء عليه بالصلاح ورؤية أن له مع الله جاها أو مقاما على قيامه بالطاعة وقلة الاقتداء بأئمة الجماعة وهذه الأشياء كلها مفسدات عظيمة في الدين لقوله صلى الله عليه: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**»[1] وقد اكتفينا بما تقدم من الكلام عليها ومنها الميل لما في أيدي النَّاس وهو نوع من الطَّمع وقد تقدم الكلام على الطَّمع فيما فيه كفاية ومنها فساد النية وتهدد النَّفس بالرجوع لما كان عليه قبل فهذان الأمران فسادهما ظاهر لا يحتاجان لتنبيه على سوء حال صاحبهما ومنها عدم اليقين بالشك في أمر من الآخرة فمن عدم اليقين فلا طهارة له ولأننا ذكرنا أن اليقين هو ماء الغيب الذي يتطهر به فاعلمه ومنها قذف المحصنات والإصرار على السيئات وتحريف مقتضى العلم والمعرفة بالآيات والروايات والكذب والتكذيب وقطع مواصلة الأحباب والإعراض عن الوقوف بالباب وقلة الزهد والورع والازدراء بمن وافق واتَّبع وأكل عرض النَّاس وترك حسنة من الحسنات خوفا أن تذمه النَّاس والاستحياء بالطَّاعات وانتظار دائرة السوء على الجماعة والبحث لمحاسنهم والجهل المركب والحكم بالعادة بالمخالفة للشرع والقطع في طريق الله والدعوى بعدم العلم والعلماء بعدم الحلال مطلقا والقيام للطاعات بالكسل والبخل والملل والحرص وطول الأمل والطعن في الدين وصحبة المفسدين وأخذ النّصيحة من الجاهلين وتحريم ما أحل الله للمسلمين والتخلق بأخلاق المجرمين والمنافقين وبعض أهل الصيام واستغراق الليل بالنَّوم وعدم القيام وحب المفسدين والعمل بهواء النفس في الدين والفرق بين الشريعة والحقيقة والطهر في مذهب من المذاهب الأربع وفي مذهب الصوفية أهل الطَّريقة وجحد التَّعليم وخوف اللائمين وتصديق النمامين وتضييع سنة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام بدوام ملك رب العلمين والإياس من روح الله والأمن من مكر الله وسوء الظن بالله والطعن في جميع الصحابة والتّابعين وهذه نواقض

---

(1) سبق تخريجه.

هذا الوضوء المعنوي مفصلة ومجملة فاختر سواها يا من يريد سلوك منازل الأولياء العارفين والله الموفق سبحانه.

الفصل الثاني من هذا الباب
في شروط هذه الطّهارة

اعلم يا أخي أن هذه شروط تحتوي على سبعة فصول وتنبيه.

الفصل الأول من فصول الفصل الثاني

في بيان معنى قوله ((أن ترى هذه الأمور كلها _ أعني ما تقدم منها وما يستقبل أنها كلها _ من الله تعالى من بها عليك)) لقول ابن عطاء الله رضي الله: "**إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك**"[1]، فإن أردت النجاح وصحة الأعمال والفلاح فانسب جميع الأشياء إلى خالقها والعبادات إلى بارئها والتوفيق إلى من أهداه إليك والهداية إلى من منّ بها عليك ولا تنسب شيئا من ذلك لنفسك والزم الأدب مع ربك وتبرأ من حولك وقوتك وانسب الحول والقوة والتّوفيق إلى خالقك وتيقن بأن العبد وماله وولده وأهله لسيده متعه بذلك كيف شاء وسلبه منه متى شاء وترى جميع ذلك من الله وبالله وإلى الله وترى أنك مملوك لخالقك ورازقك ألم تعلم بأن العبد وماله وولده لسيده من غير عوض ولا غرض فأحرى مع علمك بأن الله تعالى اشترى منك نفسك الخسيسة ومالك القليل الذي لو ملكت الدنيا بأسرها التي تزن عند الله تعالى جناح بعوضة بالثمن الذي لا قيمة له إلا بفضل الله تعالى بأن عقد مع عبده صفقة البيع في نفسه وماله الذي لا قيمة لها من شأن الذلة والخساسة بالجنة التي لا قيمة إلا لها من العزة والكرامة والرفعة والنَّفاسة وما ذلك إلا لينبهك من غفلتك ويعلمك بأنك مملوك لئلا تنسب الأفعال لنفسك فتصير ممقوتا وأنت تعلم بان الممقوت متروك فإذا علمت ما ذكرناه فإنك تعلم ضرورة أن العبد لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا حركة ولا سكونا لأنه لا يدري متى يسخره سيده وربما يكون مشغولا بعمل فيسخره سيده في عمل آخر فيتركه ولا يتوعص عليه هذه الأوصاف فيمن كان آدميا مماثلا له في جميع الأوصاف ولا له على عبده خلق ولا رزق بل الله هو الرزاق ذو القوة المتين

(1) الحكم العطائية بشرح ابن عباد، (الحكمة الثالثة والعشرين بعد المائة)، (ص: 66).

فينبغي لأن تكون مع سيدك كذلك وأعظم طاعة له سبحانه فتعلم في كل نفس أنك عبد مملوك لا تقدر على شيء ولا تملك لنفسك موتا ولا حياة ولا نشورا ولا خيرا ولا شرا ولا ضرا ولا نفعاً ولا حركة ولا سكونا ولا سمعا ولا بصرا ولا كلاما ولا صحة ولا سقما ولا غنى ولا فقرا ولا عزا ولا ذلا ولا بردا ولا حرا ولا نوما ولا يقظة ولا طاعة ولا معصية وما أشبه ذلك فهذه الأشياء كلها حكمة الله يسيرك فيها كيف يشاء لقوله تعالى: ﴿ لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ والله الموفق سبحانه.

الفصل الثاني
في شرح قوله وتحمل الأذى كله

اعلم يا أخي أن من يتحقق بما ذكرناه في الفصل قبل هذا فإنه يرى الأشياء كلها من الله لا من غيره فيحمله ذلك على أن يجعل كل من يؤذيه في حل ويدعوا له بالخير والتوفيق لئلا يؤذي غيره أحدا من خلق الله ولا ينتصر لنفسه لأنها مملوكة لغيره وهو الله تعالى الذي اشتراها منه فلذلك يحق عليك ما ذكرناه فقد روي عن بعض المحققين بل عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله في أخباره عن كيفية سلوكه في حكاية طويلة أنه قال في آخرها ثم كوشف لي فرأيت الخلق موتى فكبرت عليهم أربعا يعني أن الميت لا يرجى منه خير ولا شر ولا يخشى منه ضرر فلأجل ذلك لا يتألم ممَّا يصيبه من الإذاية والضرر من أحد من خلق الله تعالى وحشا كان أو آدميا أو غيره فينبغي لمن بلغ هذا المقام أن لا يكون كالكلب يضربه الرجل بحجر فيترك الضَّارب ويتبع الحجر فيعض فيه ومن يشاهد الأفعال كلها من الله تعالى خيرا كانت أو شرا فيعلم أن الخلق كالحجارة والعيدان والضارب بها هو الله تعالى فيسكن العبد تحت القضاء والقدر فلذلك يجعل كل من يؤذيه في حل ويحمله ذلك على تحمل الأذى كله وهذا القدر يكفي في هذا المحل والله الموفق سبحانه وتعالى.

الفصل الثالث
في بيان معنى قوله ولا يبقى لك في قلبك ذكر غير ذكر الله

اعلم يا أخي أن هذا المعنى مستفاد من قوله عليه السَّلام: "**من أحب شيئا أكثر من**

ذكره"[1] فإن كنت تدعي محبة الله تعالى وفنيت عن النظر لغيره لأنَّ الله موجود والغير عدم والوجود نور والعدم ظلمة فإن تحققت بذلك فلا يبقى لك ذكر في قلبك ولا في لسانك ولا في سرك ولا في علانيتك إلا ذكر الله تعالى والله الموفق.

الفصل الرابع
في بيان معنى قوله ولا تهوى لغيره وأن تحب الصَّالحين من أجله وأن تحب فيه

اعلم يا أخي أنَّ هذه الأشياء كلها الأصل فيها هو محبَّة الله تعالى لأن من يحب الشيء يحب جميع أحبابه والمنسوبين إليه ويبغض جميع أعدائه لبغض حبيبه وهذا هو الحب في الله والبغض في الله من غير شهوة لنفسك في حب شيء ولا في بغضه بل كل شيء يصدر منك لا يكون منك إلا من أجله سبحانه وبذلك تصح محبتك في الله تعالى وتلك علامة صحة محبتك فيه لأنك إذا أحببت من أحب وأبغضت من أبغض فتلك موافقتك له والموافقة علامة حصول المحبَّة من الله تعالى لعبده كما أن مخالفة الأمر تدل على العداوة إذ لولا ما سبقت محبته تعالى للعبد في الأزل ما وافق العبد أوامر خالقه ونواهيه وحب من يحبه تعالى وبغض أعدائه والعكس مفهوم ممَّا ذكرناه فحب الصَّالحين من أجله وبغض الكافرين والفجار من أجله تعالى هو الحب في الله والبغض في الله وذلك يصح للعبد بأن يكون لِغير شهوة لنفسه في حب العباد ولا بعضهم ولا سبب إلا مجرد وجه الله تعالى لقول رسول الله ﷺ: «**أي عرى الإيمان أوثق**"، قالوا: إقامة الصَّلاة، قال: «حسن وليس عن هذا سألتكم» قالوا: الحج، قال: «**حسن وليس عن هذا سألتكم**»، قالوا: الجهاد، قال: «**حسن وليس عن هذا سألتكم**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال صلى الله عليه وسلم: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**»[2] وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن لله تعالى رجالا عن يمين العرش على منابر من نور أجسامهم**

---

(1) قال المحدث الشيخ العجلوني في كشف الخفا (1349/2): "رواه أبو نعيم والديلمي عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا ".

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان (45/1) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وهو عند الإمام أحمد في مسنده (286/4) من حديثه، ولكن بلفظ: "أي عرى الإيمان أوسط ".

وثيابهم من نورهم ناظرون للرب الغفور يغبطهم الأنبياء والشهداء وليس هم بأنبياء ولا شهداء» فقال أعرابي: ناس من النَّاس يغبطهم الأنبياء والشهداء يا رسول الله قال: نعم قال: صفهم لنا يا رسول الله ﷺ قال: **«هم من بلاد شتى لم يجتمعوا على دنيا ولا غرض إلا محبة في ذات الله وجلاله اجتمعوا على ذلك وتفرقوا عليه»** قال الراوي: فإن خصنا شيء من الألفاظ لم يخصنا شيء من المعاني واعلم أن هذه الدرجة العالية لا تنال بغير المحبة وأن أهل الجنّة يخرجون في كل عشية وليس في الجنَّة غدو ولا عشية ولا ليل ولا نهار وإنما ذلك على قدر تسمية الأوقات فيخرجون يتنزهون في أنوار ياقوت المتحابين في ذات الله وجلاله فينظرون إلى تلك الياقوت في العلو كما تنظرون إلى النجوم في السَّماء وقيل أن ضياء الجنة كله من نور تلك الياقوت فتأمل نبهنا الله وإياك حين يخرجون أهل الجنَّة من قصورهم يتنزهون في حسن الياقوت كيف يكون أربابها وكيف تكون قصورهم وحسنهم وحسن منظرهم وحسن أزواجهم وخدمهم واعلم أنك إذا أحببت رجلا بنيتك وهو يحبك بظاهره ولم يحبك بنية فقد نلت درجة المحبين دونه فيجب عليك إذاً أن تحب كل من أحب الله تعالى ليصح صدقك وقال الله تعالى في بعض الكتب المنزلة وجبت محبتي للمتحابين فيّ وللمتجالسين فيّ وللمتجاورين فيّ والمتبادلين فيّ فتأمل محبَّة الله لك واعرف قدرها إن كنت لبيبا وابذل فيها نفسك ومالك إن كنت رشيدا والكلام في هذا الباب كثير فاختصرناه هاهنا وسنصفه إن شاء الله تعالى في السفر الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى مطولا على ما ينبغي وصفه والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الفصل الخامس
في بيان معنى قوله ولا تستعين بغيره

اعلم أن الاستعانة لا تفيد بمن يستعين بالضعيف مثله إذ لم يقدر على شيئه كيف يقدر على من لا شيء له فيه ولا تحسن الاستعانة إلا بالقوي القادر على كل شيء بلا كلفة ولا مشقة وليس ذلك إلا الله تعالى وقد علمنا الجليل جل جلاله كيفية طلب الاستعانة منه وأوجب علينا ذكرها في كل يوم سبعة عشر مرة ليرسخ ذلك في قلوبنا ونعتقده بأفئدتنا وننطق به بلساننا في كل يوم ست مرات جهرا وأحد عشر مرة سرا وذلك في قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ معناه والله أعلم لا تعبد إلا

إياك ولا نستعين إلا بك يفهم منه كما لا نعبد غيرك فلا ينبغي أن نستعين بسواك فهذه السبعة عشر مرة عدد ركعات الصلوات المفروضات فأحرى المسنونات والمستحبات والإشارة بذكر ذلك في ست مرات جهرا وأحد عشر مرة سرا ليكون الجهر بمنزلة التذكير والسر بمنزلة الاعتقاد والله أعلم فينبغي للمؤمن أن لا يستعين في جميع أموره وجميع أحواله كلها إلا بالله تعالى ولا يعبد غيره أبدا ومعنى عبادة الغير هي عبادة المرائي فإنه أشرك في عبادته غير الله تعالى أنه يفعل الفعل ويقصد رؤية ومن ذلك أن الإنسان إذا كان وحده واعتقد العبادة لله خالصا ربما لم يحسنها فإذا أحس بأحد دخل عليه فيجتهد في الإحسان وهو إتقان أفعال الصلاة وأقوالها وتمام ركوعها وسجودها فتصير صلاته صورة ميتة لا روح فيها ولذلك قال ابن عطاء الله رضي الله عنه الأعمال صورة قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها فينبغي للمؤمن الموحد أن يلزم التفريد في جميع أقواله وأفعاله فلا يعمل عملا مشتركا لله لغيره لأنَّ الله تعالى لا يقبل إلا عمل المخلصين لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة/5] وقد تقدم الكلام في الإخلاص بما فيه كفاية وهنا أردنا الكلام على فصل فانجر بنا الكلام لغيره بسبب المجانسة وكل ذلك مفيد لمن يكون سديدا فإياك ثم إياك أن تستعين بغير الله تعالى في ظاهرك وباطنك وإن اضطرك الحال لرفع حمل مشطاح لك عن بهيمة مثلا فاستعن بالله فهو يهدي من يرفعه معك ولا يناقضه طلب الغير في مثل ذلك أو قتال عدو ونحوه فاعتقد في كل شيء الاستعانة بالله فتقول أبدا ولو مرة في اليوم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم مع اعتقاد معناها بأن تقول لا حول لي عن معصيتك إلَّا بعصمتك ولا قوة لي على طاعتك إلا بتوفيقك فمعنى قوله ولا تستعين بغيره يعني لا ترى حول ولا قوة لغيره تعالى ولا لنفسك فإذا لم تر حول ولا قوة لغيره وأنت من حملة الغيار فإنك تعتمد عليه تعالى وتقطع إياسك عمن سواه والله الموفق سبحانه.

الفصل السَّادس
في بيان معنى قوله ولا تحب الدنيا الغرارة

قال شيخنا سيدي عبد السلام بن الناصر الجابري أصلا الفاسي منشئا وتربية ووفاة توفى عفا الله عنا وعنه بسبب الوباء السَّالف الذي كان سنة أربع وخمسين وألف وكنا

نسمع منه التدريس إذ ذاك بمدرسة السلطان أبي عنان المريني فقال الشيخ رحمه الله قصيدة وسنأتي بها هنا بطولها لمناسبتها لما نحن بصدده فقال:

دنيا الدناءة لا ينزاح عنها الكرب	اخسس لمادحها ومن لها قد خطب
شمطاء طال بقاها في الغواية كم	ظاهر خدعت ذا اللب حتى انسلب
من عقله دينه عرض ومال وما	يعد نفعا عليه من تلاد ثتب
جذما مقطعة برصاء منتنة	بجيفة أثر لها المثال ضرب
ردية الأصل والنسل فليس لها	أم لها شرف الانحطاط لاب
فالكافرون بنوها واللّعين اب	هو لإخراج آدم وحوا سبب
من الجنان عداوة فكيف يرى	صهر لأبناء آدم بذات النعب
ملعونة لم تزن عند الإله جنا حاً	من بعوضة ولو قيست به ما كسب
منها الكفور فتيلا من طعام ولا	جرعة ماء سقى في ظما أو سغب
ما هي إلا نساء والبنون وعير	والحيوان وأنعام وحرث يجب
إن قوبلت كلها بالنزر من نعم	الأخرى تلاشت وما بالرَّأس قيس ذنب
لذاتها لم تدم ومع ذا اشتبهت	عند امتحان لها لذات حك الجرب
إن أضحكت ساعة أبكت طويلا وإن	جادت ففي الحين تبخل إن هذا عجب
وإن بين عدلها يوما ففي غده	تأتي بجور ولا حال لها يصطحب
فانظر تعاقب بسط وجوى فرقة	جمع وعسر ويسر صحة ووصب
لم يقض حاجته منها حريص ولا	قط انتهى ارب إلا لذلك الارب
كم جاهل مالك دورا وكم عالم	لم يلق بيت الكرى إلا بعيد التعب
قالت بنى الجهول عندما سئلت	عن رفعة وانخفاض علم ذي نسب
كم لعبت بالذي يبغي السرور بها	والعز معتقدا أن حسنها قد نهب
أهل التقى العلماء بالله ما لمحوا	ذاك الهبا قط إذ أوتوا كمال الأدب
وخشية الله والتّوفيق ثم القنا	عة وما منهم فردٌ إليها انتسب
ولا تضر يد من حلها ملئت	إن انتفى الحرص والإكثار ليس يجب
كذاك من له أسباب أبيحت ولا	تلهيه عن طاعة فنعم هذا السبب

لكن عليه بطرح الاعتماد على ... الأسباب في رزقه وليحملن في الطلب
من فر عنها فرار العزم مبتغيا ... رفعا لهمته لم يكس ثوب نصب
تنح عنها وعن طلابها فمتى ... للبعض تركن من ذاك فذات لهب
تذيب جسمك فاحترص من شرهم ... ورافق الزهد لتنجى من كل وصب
ومن دعتك للقياه الضرورة من ... أبناء وقتك فاردده بلين تتب
جاهد لعلك أن تحظى بمنزلة ... شريفة هي في التَّحقيق أعلى الرتب
وراقب الله سرا والعلانية ... وأخلص السَّعي وارج مع فعل القرب
ولازم الفقر أو عامل العلما ... واترك معاملة الأنذال فهي شغب
واترك أجاود خيل الصَّبر دأبا وجر ... أعنة الصمت تأمن من نزول النوب
يا رب يا حي يا قيوم يا من عنت ... له الوجوه أيا من للدعاء ندب
وفقتني للدعا ومسَّني ضرر ... وأنت أرحم يا أكرم مولى وهب
للخير جر بنواصينا وبرضى ... عنا ولا تخزنا يوم اشتداد الغضب
وامنن بمعرفة واعطف بمغفرة ... والطف بعبد ضعيف في المعاصي نشب
وارحم بفضلك مضطرا إليك لجا ... وماله حيلة إلا افتقار وجب
واختم بخاتمة الحسنى لنا وجنى ... دار النَّعيم المقيم والمنى والطرب
ولا تخيب رجاء من دعا راغبا ... ومن دعاك أيا مولاي حال الرهب
مقدما لك في جيس الدعا وبه ... أمته فضلت وأمنت من عطب
سر الوجود وروح الكون خير الورى ... نور البصائر والأنصار مزنا سكب
سيف الإله أمينا هدى ... مدينة العلم من به فخار العرب
إمام خيرة خلق الله من رسل ... ومن ملائكة ماحي الريب
أجل من وطئ الثرا ومن نرتجي ... يوم القيامة شافعا مزيل الكرب
قطب النَّبيين تاج العارفين سرا ... ج العارفين عروس المؤمنين النخب
أصل الفضائل محمود الفعائل من ... عطير رتبته فاق جميع الرتب
ذا معجزات ومنها الذكر أعظمها ... لم يحصِ جملتها كتب ولا من كتب
عبد لأعلى العلا أسري به ليلة ... من قال ما زاغ بعد قوله ما كذب
من نبع الماء من بين أنامله ... ومن بكفه سبَّح الحصا وذهب

مـــن ضـــرر الكافـــرين وشـــكى إلـيه مـن حـنَّ مـن بعـده جـذع خـشب
ومـــن أتـــت لـــه أشـجار دعاهـــا ومـــن شُـق لـه الـبدر وانهـل الحيا إذ رغـب
فـــي ســنة القحــط مــن كلمــه الـــذئب والظبي كذا كل عجمي والجماد وضب
ومـــن نهـــاه عـــن الأكـــل ذراع بـــه سـم ومـن أبـرأت مـن علـل ونكـب
يـــراه صـــلى الله علـــيه مـــا طلعـــت شمس المعارف في أفق النهى اقترب
مـــن جـــنة الخلـــد حـــورها وولـــدانها ومـا سـقت قهـوة الـدين اقـاح الـشبب

كملت القصيد بعون الله تعالى

واعلم يا أخي أنَّ التحذير من حب الدنيا وقع كثير في الكتاب والسّنة وفي نصائح أكابر الأئمة لأنها تخمر القلوب بسكرتها ولذلك وصفها رسول الله ﷺ بأنها رأس كل خطيئة، وأنها كالخمر، لأنه رأس كل معصية فهما شريكان في تغطية العقول لأن القلوب ليس لها إلا وجهة واحدة فإذا توجه بها العبد لشيء شريف أو خسيس فإن العقل يتصرف في تلك الوجهة فلا يصدر من صاحبه إلا ما يوافق تلك الوجهة لكن إن توجه القلب إلى محبة الدنيا وتعظيم أهلها فإنَّ العقل يغميه سكرتهما فلا يتصور منه تَسَرْبَلَ العقلُ نوراً والعمى ظلمة والضدان لا يجتمعان فإذا تعمر بيت القلب بظلمات الدنيا فإن العقل يخرج ويذهب كما يذهب النور إذا أطفئ السراج وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب/4] وأمَّا إذا تفرغ القلب من حب الدنيا وعمر الله تعالى يده بها مع تصرفه فيها بما يرضي الله ورسوله فلا يضره ذلك ولا ينقص له من عمله الصَّالح خردلة وذلك من أسباب مباحة يكتسب بها معاشه مع النصح للمسلمين وعدم الغش والخديعة فنعم هذا السبب إن كان لا يلهيه عن الواجبات فإنه يؤجر على القيام بهذا السَّبب وليس ذلك من حب الدنيا وإنما حبها هو الفرح بوجودها والحزن على فقدها والحرص على جمعها وحب ما يلهي عن ذكر الله تعالى وحب المحرمات والمكروهات وحب التكاثر منها لأنه يلهي عن طاعة الله تعالى وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر/1 - 2] وحب الدنيا أيضا هو الفخر بها والتنافس فيها وحب البقاء ونسيان الأجل وكراهية الموت وتعظيم أهل الدنيا والركون إليهم والاعتماد على ما في يدك منها والركون لأصحابك وأسبابك ونحو ذلك والله الموفق سبحانه.

الفصل السَّابع
في بيان معنى قوله وتجمع حبَّك في ما يرضيه

اعلم يا أخي أن حب الله تعالى إذا حل بقلب عبد من عباده فإنه يعمر القلب ولا يسع مثقال ذرة من حب غيره أبدا، روي أنَّ رجلا كان تلميذا لشيخ من أهل هذه الطَّريقة فوجد ابن شيخه يعشق شخصا فنهاه فلم ينته فغضب عليه ومضى للشيخ فشكى له حال ولده وأنه يهوى ففرح الشيخ بذلك وسر سرورا عظيما وخلع ما عليه من الثياب وأعطاها للتلميذ وقال له هذه بشارة حيث بشرتني أنَّ قلب ولدي حيا إذ لو كان ميتا لم يهو شيئا لأن من كان حي القلب يهوى ما يعجبه ويستحسنه فإذا رأى أبهى منه انتقل حبه وهواه إليه ولا يزال ينتقل هواه إلى أن يعرف الله تعالى فإذا عرفه فإنه يهواه ويحبه فإذا أحبَّ الله تعالى لا يحب سواه أبدا وميت القلب لا هواء له فيبقى في موضعه يتخبط خبط عشواء تظل تخبط بجناحيها ولم تنتقل من موضعها فكان أمر الولد كذلك لأنَّه إذا حصلت محبة الرب سبحانه في قلب العبد فحينئذ لا يحب إلا الله تعالى وحب ما يحب الله تعالى لأن غير الله تعالى باطل لأنه أخرج من العدم وسائر إلى العدم ومن ذلك وصفه لا يثبت على حال فإنه لا يخلو من غيبته عنه بالسفر ونوم كل واحد في بيته أعظمها غيبة الموت فالذي تلازمه الغيبة والفراق لا بدّ من فتور محبته ونقصانها والله تعالى حاضر غير غائب وحي لا يموت فمحبته تزيد ولا تنقص وأيضا محبة الحق سبحانه حق ومحبة ما سواه باطلة والباطل لا يثبت مع الحق والعبد أحب الله تعالى ومن ذلك محبة رسول الله ﷺ لقوله عليه الصلاة والسلام في حديث أنس بن مالك[1] رضي الله عنه: "**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين**"[2] وفي حديث سيدنا عمر رضي الله عنه في قوله: أنت يا

---

(1) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الخزرجي النجاري قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهو ابن عشر سنين فأهدته أمه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كي يخدمه فخدم نبي الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وانتقل من المدينة بعد أن بصرت البصرة أيام عمر بن الخطاب وسكنها وكان يصفر لحيته بالورس وتوفى سنة 91 هـ وكنيته أبو حمزة. (مشاهير علماء الأمصار 37/2).

(2) رواه البخاري (14/1) ومسلم (67/1)، وليس فيه لفظ " من نفسه "، وهي عند الإمام احمد في مسنده (233/4) من حديث عمر رضي الله عنه.

رسول الله ﷺ أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي التي بين جنبي فقال له عليه السلام: "**لا تكون مؤمنا حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك التي بين جنبك** "، فقال رضي الله عنه: والذي أنزل عليك الكتاب أنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي، فقال له رسول الله ﷺ " **الآن تم إيمانك يا عمر**"[1]، فحب الله تعالى هو غاية الغاية فإذا حصلت محبة الله تعلى في قلب العبد لم يجد في قلبه متسعا لغيره وعلامة ذلك طاعته جل وعلا وترك مخالفة أمره وموافقته في محبوبه ومكروهه ويكون إذا هبَّ نسيم حكم الطَّاعة فيسرع العقل على فهم مراد الحبيب فيرد ذلك المفهوم على القلب فيحرك القلب جميع الجوارح الظاهرة والباطنة على وفق العلم الذي هو دليل جميع الجوارح وقائدها فلا يقع بين المحب ومحبوبه مخالفة فتلك علامة محبة العبد لربه وعلامة محبة الله لعبده أن يحرك العقل بنسيم الهيبة والعظمة والجلال فيفهم عن الله سبحانه أوامره ونواهيه أيضا فيلقي ذلك للإيمان وهو كالملك في قصبة مملكته وهو القلب فيأمر بتسخير جميع الجوارح الظاهرة والباطنة لخدمة الله تعالى بطاعته أمرا أو نهيا على وفق العلم فلا يزال العبد يراعي الأمر والنهي في جميع الأوقات والأحوال من غير استهزاء ولا تراخي لما يشاهد من سر العظمة والجلال فيتولى الله تعالى رعايته وحفظه من الوقوع في المعاصي والسَّيئات فتلك علامة محبة الله تعالى لعبده وهي الدوام على طاعته والحفظ له من الوقوع في معصيته وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة/54] فمحبَّة الله تعالى لعبده سبقت محبة العبد لله تعالى لأنه قديم والعبد محدث فأي محبة للحادث وأي خصوصية له لولا العناية السَّابقة له في الأزل فمحبَّة الله لعبده حقيقة ومحبَّة العبد لربه مجاز لأن الله أحب نفسه بأن خلق المحبَّة في عبده فاعلم ذلك سر الخصوصية بسر قوله تعالى: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران/74] والله الموفق.

تنبيه وإعلام: في خصوصية أمَّة سيدنا محمد عليه من الله أزكى التَّحية وأطيب السَّلام

اعلم يا أخي أنَّ فوائد محبة الله تعالى لعبيد لا تنحصر ولا تدخل تحت قياس فمن

(1) رواه البخاري (2445/6).

ذلك أنَّ الله تعالى لما سبق في أزليته محبة سيدنا محمد ﷺ وسبق أيضا في علم الله محبَّة سيدنا محمد ﷺ لأمته وشفقته عليهم وتعظيمه قدرهم فلذلك خصّهم الله تعالى بخصائص لم يخص بها أحد من الأمم الماضية رعاية لمحبَّته لنبيهم عليه السَّلام فيهم فلذلك سواهم الله تعالى في كتابه المبين والبعض من سنَّة سيد المرسلين مع أربعة من سادات المرسلين فسواهم الله تعالى مع حبيبه سيّدنا محمد ﷺ في اثني عشر خصلة وسواهم الله مع كليمه سيدنا موسى عليه السَّلام في اثني عشر خصلة وسواهم الله مع روحه سيدنا عيسى عليه السَّلام في اثني عشر خصلة وسواهم الله تعالى مع سادتنا المذكورين الأربعة وجميع المرسلين في موضعين من كتاب الله تعالى فينتهي الكلام على هذا التنبيه في خمسة فصول فاعلم ذلك ترشد والله الموفق سبحانه.

الفصل الأول من هذا التنبيه

في تسوية أمة سيدنا محمَّد ﷺ مع نبيهم سيدنا محمَّد ﷺ في اثني عشر شيئا، قال بعض أهل العرفان العارفين ببعض معاني القرآن أنَّ الله تعالى سوى أمة سيدنا محمَّد ﷺ مع حبيبه ورسوله إليهم سيدنا محمَّد ﷺ في اثني عشر شيئا:

الأول: قال الله تعالى لحبيبه سيدنا محمَّد ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب/56] وقال لأمته رضي الله عنهم ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب/43]، وأمر الله تعالى سيدنا محمَّداً ﷺ أن يصلي على أمته رضي الله عنهم كما أمرهم بالصَّلاة عليه في الآية قبل، فقال لسيدنا محمَّد ﷺ بصيغة الأمر: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة/103]، ونهاه عن الصلاة على المنافقين الذين لم يصلوا عليه بقلوبهم، فقال لسيدنا محمَّد ﷺ بصيغة النهي ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ ﴾ [التوبة/84] فظهر من هذا تسويته صلى الله عليه وسلم في هذه الخصوصية صلاة الله وملائكته عليه وصلاة المؤمنين بصيغة الأمر، كما خص الله تعالى أمته بصلاة الله تعالى وملائكته وصلاة نبيهم عليه السَّلام.

والثَّاني: قال في حق حبيبه سيدنا محمَّد ﷺ: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب/38]، وقال في حق أمته رضي الله عنهم: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى

ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج/78].

والثالث: قال في حق حبيبه سيدنا محمد ﷺ: ﴿ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ [الفتح/2]، وقال في حق أمته رضي الله عنهم: ﴿ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة/3].

والرابع: قال في حق حبيبه سيدنا محمَّد ﷺ: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء/41]، وقال في حق أمته رضي الله عنهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة/143].

والخامس: قال في حق حبيبه سيدنا محمد ﷺ: ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح/3]، وقال في حق أمته رضي الله عنهم: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم/47].

والسَّادس: قال في حق حبيبه سيدنا محمد ﷺ: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلاً﴾ [الإسراء/74]، وقال تعالى في حق أمته رضي الله عنهم: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم/27].

السَّابع: قال في حق حبيبه سيدنا محمَّد ﷺ: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح/2]، وقال في حق أمته رضي الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر/53] قال علماؤنا: المراد بقوله تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ يعني المتقدم والمتأخر والماضي والمستقبل والعمد والخطأ.

والثَّامن: قال في حق حبيبه سيدنا محمَّد ﷺ: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى/5]، وقال في حق أمته رضي الله عنهم قوله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ [المائدة/119].

والتَّاسع: قال في حق حبيبه سيدنا محمَّد ﷺ: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ [القلم/3]، وقال في حق أمته رضي الله عنهم: ﴿ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾[التين/6].

والعاشر: قال في حق حبيبه سيدنا محمَّد ﷺ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾

[مريم/97]، وقال في حق أمته رضي الله عنهم: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر/17].

والحادي عشر: قال في حق حبيبه سيدنا محمَّد ﷺ: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح/1]، وقال في حق أمته رضي الله عنهم: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر/22].

والثاني عشر: قال الله تعالى في حق حبيبه سيدنا محمد ﷺ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر/36]. وقال في حق أمَّته صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب/25].

فهذه اثنا عشر في حق نبينا، واثنا عشر آية في معناها في حق أمته صلى الله عليه وسلَّم، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الفصل الثاني من هذا التنبيه

في تسوية أمة سيدنا محمَّد ﷺ مع سيدنا إبراهيم الخليل في اثني عشر شيئا.

اعلم يا أخي أنَّ الله تعالى سوى خليله سيدنا إبراهيم عليه السَّلام مع أمة سيدنا محمد ﷺ في اثني عشر شيئا.

الأول منها: قال تعالى في حق خليله سيدنا إبراهيم عليه السَّلام: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم/37]، وقال في حق أمة حبيبه سيدنا محمد ﷺ رضي الله عنهم: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان/7].

والثاني: قال في حق خليله سيدنا إبراهيم عليه السَّلام: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة/130]، وقال في حق أمة حبيبه سيدنا محمد ﷺ ورضي الله عنهم: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر/32].

والثالث: قال في حق خليله سيدنا إبراهيم عليه السَّلام: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ [النحل/121]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد رضي الله عنهم: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج/78] الآية.

والرابع: قال في حق خليله سيدنا إبراهيم عليه السَّلام: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ

وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت/27]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم رضي الله عن أمته: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء/105].

والخامس: قال تعالى في حق خليله سيدنا إبراهيم عليه السَّلام: ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل/121]، وقال تعالى في حق أمة حبيبه سيدنا محمَّد ﷺ رضي الله عنهم: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج/54].

والسَّادس: قال تعالى في حق خليله عليه السَّلام: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات/81]، وقال في حق أمة حبيبه سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وأمته: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان/63]، وقال أيضا: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم/31] ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ [الزمر/10].

والسَّابع: قال تعالى في حق خليله عليه السَّلام: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات/ 28]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس/2] وقال أيضا: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب/47].

والثامن: قال تعالى في حق خليله عليه السَّلام: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء/69]، وقال لأمة حبيبه سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران/103]، فانظر فإن الله تعالى نجى إبراهيم على نبينا عليه الصلاة والسَّلام من نار الدنيا ونجى أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته من نار الآخرة.

والتاسع: قال في حق خليله عليه السَّلام: ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة/128]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [الأحزاب/73] من غير سؤال.

والعاشر: قال تعالى في حق خليله عليه السَّلام: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات/109]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد ﷺ: ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ [النمل/59].

والحادي عشر: قال في حق خليله عليه السَّلام: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ﴾ [البقرة/127]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته بغير سؤال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ [الأحقاف/16]، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى/25].

والثاني عشر: قال في حق خليله عليه السَّلام لجبريل الأمين: قال هل لك من حاجة فأجاب الخليل أمَّا إليك فلا ثم قال حسبنا الله ونعم الوكيل، وقال الله تعالى حكاية عن أمة سيدنا محمَّد صلى اله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ [آل عمران /173]، والله الموفق.

الفصل الثالث من هذا التَّنبيه

في تسوية أمة سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم مع كليم الله موسى عليه السَّلام في اثني عشر شيئا.

اعلم يا أخي أن الله تعالى سوى أمة سيدنا محمَّد ﷺ مع كليمه موسى بن عمران عليه السَّلام في اثني عشر شيئا.

أولها: قال الله تعالى في حق سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه/26]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة/185].

والثاني: قال في حق كليمه عليه السَّلام: ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات/114] وقال في حق أمة حبيبه سيدنا محمد صل الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [آل عمران/164].

والثالث: قال الله تعالى حكاية عن كليمه سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ وَعَجِلۡتُ

إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه/84]، وقال في حق أمة حبيبه سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح/18] فموسى عليه السلام طلب رضاء الله باستعجاله، وأمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله ورضي عنهم بغير سبب ولا علة.

والرابع: قال الله تعالى في حق موسى وأخيه هارون عليهما السَّلام: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه/46]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة/12].

والخامس: قال الله تعالى في حق كليمه سيدنا موسى عليه السَّلام: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص/31]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام/82].

والسَّادس: قال الله تعالى في حق كليمه سيدنا موسى عليه السَّلام: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس/89]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر/60].

والسَّابع: قال الله تعالى إخبارا عن كليمه سيدنا موسى عليه السَّلام: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف/155]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان/32].

والثامن: قال الله تعالى في حق كليمه سيدنا موسى عليه السَّلام: ﴿ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم/52]، وقال في حق المؤمنين من أمة سيدنا محمد صلَّى اله عليه وعلى آله وأمته: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق/16].

والتَّاسع: إن الله تعالى كلم أمة سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته كما كلم رسوله سيدنا موسى عليه السَّلام، وذلك في الحديث المشهور أن سيدنا موسى عليه السلام سأل ربه أن يريه أمة سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله

وأمته فقال: إنك لن ترهم، ولكن إن أحببت أن تسمع كلامهم قال: بلى يا رب، قال الله تعالى: يا أمة محمَّد صلى الله عليه وسلَّم فأجابوه بصيحة واحدة: اللهمَّ لبَّيك.

والعاشر: قال تعالى في حق كليمه عليه السَّلام: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه/68]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران/139].

والحادي عشر: قال تعالى لسيدنا موسى عليه السَّلام: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه/39] وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة/54] وقال تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران/31].

والثاني عشر: روي أن الله تعالى قال لسيدنا موسى عليه السَّلام إني لا أحجب التوبة عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته ماداموا يقولون لا إله إلا الله فخر موسى ساجدا، وقال: اللهم اجعلني من أمة[1] سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته، والله الموفق سبحانه.

الفصل الرابع من هذا التنبيه

في تسوية أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله مع روحه سيدنا عيسى عليه السَّلام في اثني عشر شيئا.

اعلم يا أخي أن أول هذه الأشياء قال الله تعالى في حق روح الله سيدنا عيسى عليه السَّلام: ﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة/110]، وقال في حق سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة/22].

والثَّاني: قال لروحه سيدنا عيسى عليه السَّلام: ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران/55]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وعلى آله وأمته: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة/11].

(1) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (18/6) من كلام كعب الأحبار.

والثالث: قال الله تعالى لروحه سيدنا عيسى عليه السَّلام: ﴿ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران/45]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وعلى آله وأمته ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ ﴾ [الواقعة/10 - 11].

والرابع: قال الله تعالى لروحه سيدنا عيسى عليه السَّلام: ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران/52]، وقال لأمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وعلى آله وأمته: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران/123] وقال: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم/47].

والخامس: قال الله تعالى حاكيا عن أم عيسى عليه السَّلام: ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم/26]، وقال لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأمته: ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء/4]، وقال: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة/24].

والسَّادس: قال الله تعالى حكاية عن عيسى عليه السَّلام: ﴿ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة/114] فأنزل الله المائدة عقوبة لقوم عيسى عليه السَّلام، وقال في أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وعلى آله وأمته: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾ [الفتح/4].

والسابع: قال الله تعالى لسيدنا عيسى عليه السَّلام: ﴿ إِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة/110]، وقال في أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [فاطر/32].

والثامن: قال سيدنا عيسى عليه السَّلام: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم/30] وقال تعالى في حق أمة سيدنا محمّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر/42].

والتاسع: قال تعالى حكاية عن عيسى السَّلام: ﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم/31]، وقال لأمة سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه

وأمته: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء/131] وقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت/8].

والعاشر: قال الله تعالى حاكيا عن عيسى عليه السَّلام: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مريم/32]، وقال في حق أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة/83].

والحادي عشر: انَّ الله كان وهب لنبيه عيسى عليه السَّلام: يا عيسى إني باعث من بعدك أمة إذا أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا، وإذا أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، قال: يا رب كيف يكون هذا ولا علم ولا حلم؟ قال: أعطيتهم من حلمي وعلمي[1].

والثاني عشر: قد ورد في الأحاديث الصحاح أنَّ الله تعالى ينزل عيسى عليه السَّلام في آخر الزمان إلى الأرض ويقيم بها الدين ويصلي خلف رجل من أمة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته إكراما لسيد المرسلين وإظهارا لفضل شريعته على جميع شرائع الأنبياء أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الخامس من هذا التنبيه

في تسوية أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله مع جميع المرسلين منهم حبيبه وخليله وكليمه وروحه وجميع المرسلين في شيئين:

اعلم يا أخي أنني بعدما ثبت عندنا ما تقدم منقولا من كلام الشيوخ فتأملت كتاب الله تعالى هل أجد فيه شيئا آخر من ذلك المعنى فألحقه بهذا الشرح في هذا المحل قبل شروعي في هذا التَّأليف، فوجدت فيه شيئان استوى فيهما جميع المرسلين، ويعم ذلك ساداتنا الأربعة المذكورين وجميع المؤمنين من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته فضمنت ذلك في هذا الفصل.

الشيء الأول: قال الله تعالى في حق المرسلين كلهم والمؤمنين كلهم في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ

(1) رواه أحمد (450/6) والحاكم في مستدركه (499/1) والطبراني في الأوسط (311/3) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعا.

ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس/103].

والثاني: في آية واحدة أيضا تعم جميع المرسلين وجميع المؤمنين وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر/52] الآية. قلت ومن تأمل القرآن وتدبر آياته ربما يجد فيه غير ذلك والله أعلم، ولينظر العاقل هذه العناية الربانية التي سبقت لهذه الأمة المحمدية عند خالقهم في الأزل وفيما لا يزال، وهذه نتيجة قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة/54] فمحبة الله تعالى هي السَّابقة ومحبة المؤمنين لربهم هي اللاحقة، فمن تأمل هذا وتحققه فلا يحتقر أحدا من هذه الأمة الشريفة، يا عجبا كيف يحتقر من نور الله تعالى في كتابه الحكيم بتعظيمه رعاية لعظمة حبيبه سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته، وينبغي لكل مؤمن ممن يطلع هذه الأخبار ويسمعها من غيره أن يؤمن بها على سبيل الوجوب إذ من كذب بشيء من ذلك فهو من الكافرين المكذبين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور/11] وكرر سبحانه هذه الآية في القرآن كثيرا، وينبغي له أيضا أن لا يحب الدنيا التي تفسد له محبة سيده وتفتنه وتلهيه عنها ويتمسك بالزهد واليقين وبهذه الطهارة وبهذه الكسوة التي ذكرها بعد إن شاء الله تعالى والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الباب العشرون
في خاتمة الطَّهارة المعنوية

في بيان معنى قوله وترفع طرفك إلى السَّماء وتقول اللهمَّ يا من قضى بهذا وهداني إليه اقبله مني وأدمني عليه وتقول يا الله يا الله يا الله وتنوي في قلبك ما تريد وتستحي أن تعلمه بما تريد.

اعلم يا أخي تضمن الحض على الدعاء والنَّدب إليه لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر/60] وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف/180] وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان/77] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/186] وقال عليه

السَّلام: «**الدعاء مخ العبادة**»[1]، وقال صلَّى الله عليه وسلم: «**أفضل الدعاء الحمد لله**»[2].

واختلف الناس في الأفضل هل الدعاء أم السكوت والرضى فقيل الدعاء أفضل لأنه عبادة في نفسه لما تضمنته الآيات المصدر بها هنا والحديث بعدها ولأنه مستحق لله تعالى لما فيه من إظهار رفاقة العبودية وذلها ولهذا ذم الله تعالى قوما لا يدعونه فقال تعالى: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة/67] قيل معناه لا يمدونها إليه بالسؤال وقيل السكوت والخمود تحت جريان الحكم أتم رضى مما سبق لما فيه من اختيار الحق وإرادته وقال عليه السَّلام خبر عن الله تعالى: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته ما أعطي السَّائلين**»[3] وقال قوم يحب أن يكون العبد دعاء بلسانه صاحب رضى بقلبه ليجمع بين الأمرين وقال الإمام القشيري رحمه الله الأولى أن يقال أن الأوقات مختلفة ففي بعضها الدعاء أفضل وفي بعضها السكوت أفضل والفاصل بينهما الإشارة فمتى وجد في قلبه إشارة فهم وقته كزيارة قبور الصَّالحين والحضور في رمضان الإجابة كأدبار الصلوات وبعد الفراغ من الطواف وفي حال الوقوف بعرفة وحين الورود على ضريح المصطفى وعند خاتمة القرآن ونحوها من المشاهد وكذلك إن كان في ضيق أو شدة وحسن من قلبه التوجه إلى الدعاء فهو وقته ومتى وجد في قلبه إشارة إلى السكون فهو وقته ويجوز أن يكون الفاصل بينهما ما يجده من البسط في قلبه فإن وجد الدعاء يوجب البسط دعا وإن وجده يوجب القبض سكت فإن لم يجد لا هذا ولا ذاك وكان الحال عنده سواء فتخير إن كان العلم والمعرفة في ذلك الوقت سواء عنده وإن غلب عليه العلم ترجح الدعاء وإن غلبت المعرفة ترجح السكوت والسكون وقال أيضا ويجوز أن يقال ما كان للعباد فيه نصيب أو لله فيه حق فالدعاء به أولى وما كان فيه حظ نفس الداعي فالسكوت عنه أولى وفي الخبر: "**أنَّ العبد يدعو الله تعالى وهو يحبه فيقول: يا جبريل لا تجب حاجة عبدي فأنا أحب أن أسمع صوته وإن العبد يدعو الله**

---

(1) رواه الترمذي (456/5) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: "هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة ".

(2) رواه الترمذي (462/5) وابن ماجه (1249/2) وصححه ابن حبان في صحيحه (126/3).

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان (413/1) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

تعالى وهو يبغضه فيقول يا جبريل اقض حاجة عبدي فأنا اكره أن أسمع صوته"[1]. قلتُ فعلى هذا يجب على من دعا الله تعالى وتأخرت إجابته أن يفرح لذلك رجاء أن يكون ممن يحبه الله تعالى وإن كان ممن يستجاب له الدعاء إذا دعى الله تعالى فينبغي له الحزن وتجديد التوبة إذ لعله أن يكون ممن يبغضه الله تعالى وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه لما كان في زمن رسول الله ﷺ كان رجل يتجر من الشام إلى المدينة ومن المدينة إلى الشَّام ولا يصحب القوافل توكلا منه على الله تعالى فبينما هو آت من الشام يريد المدينة إذ عرض له لص على فرس فصاح بالتاجر قف فوقف فقال له شأنك ومالي وخل سبيلي فقال له اللص قصدي أقتلك والمال هو لي فقال له التَّاجر أمهلني حتى أتوضأ وأصلي وأدعوا ربي فقال أمهلك فقام التاجر وتوضأ وصلَّى أربع ركعات ورفع يديه إلى السَّماء وقال: يا ودود يا ودود يا ذا العرش المجيد يا مبدئ ويا معيد يا فعال لما يريد أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك وأسألك بقدرتك التي قدرت بها على خلقك وبرحمتك التي وسعت كل شيء لا إله إلا أنت يا مغيث أغثني يا مغيث أغثني فلمَّا فرغ من دعائه رأى فارسا على فرس أشهب وعليه ثياب خضر وبيده حربة من نور فلما نظر اللص إلى الفارس ترك التاجر ومر نحو الفارس فلما دنا منه حمل عليه الفارس فطعنه طعنة رماه عن فرسه ثم قال للتَّاجر قم فاقتله فقال: التاجر ما قتلت أحدا قط ونفسي لا تطيب بقتله فقتله الفارس فقال له التاجر من أنت؟ فقال له: أنا ملك من السماء الثَّالثة أكرمني الله تعالى بقتل هذا وذلك أنك دعوت الأولى سمعت لأبواب السماء قعقعة فقلت أمر حدث ثم دعوت الثَّانية ففتحت أبواب السماء ولها شرار كشرر النار ثم دعوت الثالثة فهبط جبريل علينا من قبل الله تعالى وهو ينادي من لهذا المكروب فدعوت ربي أن يوليني قتله فأجابني واعلم يا عبد الله أن من دعا بدعائك هذا في كل كربة وشدة ونازلة فرج الله عنه وأعانه وجاء التَّاجر إلى المدينة سالما فأخبر النبي ﷺ بالقصة فقال له النبي ﷺ: **"لقد لقنك الله تعالى أسماءه الحسنى التي إذا دعي بها أجاب وإذا سئل أعطى"**[2].

وحكى عن الليث أنه قال رأيت عقبة بن نافع ضريرا ثم رأيته بصيرا فقلتُ له بم

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (211/7) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(2) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب " مجابو الدعوة "(ص: 64).

رد عليك بصرك فقال رأيت قائلا يقول في المنام قل يا قريب يا مجيب يا سميع الدعاء يا لطيف لما يشاء رد علي بصري فقلته فرد علي بصري وحكي عن محمد بن خزيم قال لما مات أحمد بن حنبل كنت بالإسكندرية فاغتممت بموته فرأيته في المنام فقلت ما فعل الله بك فقال غفر لي وتوجت وألبست نعلين من ذهب وقال يا أحمد ادعني بالدعاء الذي بلغك عن سفيان الثوري وكنت تدعوني به في الدنيا فقلت يا رب كل شيء بقدرتك وأنت على كل شيء قدير اغفر لي كل شيء ولا تسألني عن شيء فقال يا أحمد هذه الجنة فادخلها وقيل هذا الدعاء مجرب لجمع الضَّالة يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع علي ضالتي وعلم الخضر رجلا دعاء لشفاء المرض فقال دع يدك على موضع الوجع وقل بالحق أنزلناه وبالحق نزل ففعله الرجل فعوفي ومن الأدعية المجربة يا سبب كل سبب ويا مؤمل كل مطلب رد علي ما ذهب دعا به أعرابي مات جمله فأحياه الله تعالى وقال الكتاني رأيت النَّبي صلى الله عليه فقلت ادع الله لي لا يميت قلبي فقال قل كل يوم أربعين مرة يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت وقيل تعلق شاب بستار الكعبة وقال إلهي لا شريك لك فيؤتى ولا وزير لك فيرشى إن أطعتك فبفضلك ولك الحمد وإن عصيتك فبجهلي ولك الحجة علي فبإثبات حجتك علي وانقطاع حجتي لديك إلا غفرت لي فسمع هاتفا يقول الفتى عتيق من النار وقيل الدعاء سلم المذنبين وقيل لسان المذنبين دموعهم وقيل الدعاء لسان الحبيب وقيل الدعاء يوجب الحضور والعطاء يوجب الصرف والمقام على الباب أشرف للعبيد وقال صالح المري من أدمن قرع الباب فتح الله له فقالت له رابعة العدوية ومتى أغلق الباب حتى يفتح فقال: شيخ جهل وامرأة علمت وقال رجل لبعضهم ادع لي فقال كفاك من الأجنبية أن يجعل بينك وبينه واسطة. ومن أدب الدعاء حضور القلب ومن شروطه حل المطعم فقد قيل الدعاء مفتاح الحاجة وأسنان المفتاح لقم الحلال والله تعالى أعلم. قوله: وتستحي أن تعلمه بما تريد أنه يعلم ذلك وهو حركك له قلت ودعاؤك وإرادتك الدعاء هو الذي خلقها لك وسبق لك ذلك في علمه قبل أن يخلق السموات والأرض ثم تعلمه بحاجتك ولا تستحي منه قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك/14] وهذا المعنى هو الذي فهم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسَّلام علمه بحالي أغناني عن سؤالي والواجب على المؤمن أن يقتدي في ذلك بالخليل عليه السَّلام وممَّا رضيت لنفسي من الدعاء ما وجدت بخط والدي رحمه الله معزوا للشَّيخ

سيدي عبد الله الهبطي رحمه الله تعالى لأنه دعاء يوجب الحضور من غير شك والتوحيد المحض لمن وفقه الله تعالى قال رحمه الله اللهم يا حي يا قيوم لك أصلي ولك أصوم وبك نقعد وبك نقوم فأحي بمعرفتك قلبي واغفر لي بفضلك ذنبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت اللهم إنك ناظر إلى حاضر لدي قادر علي أحطت بي علما وسمعا وبصرا فارزقني أنسا بك وهيبة منك إنك قريب مجيب اللهم بك آمنت فقو بك يقيني وبك اعتصمت فأصلح لي ديني وعليك توكلت فارزقني ما يكفيني وبك لذت فنجني مما يؤذيني أنت حسبي ونعم الوكيل اللهم رضني بقضائك وقنعني بعطائك وألهمني شكر نعمائك واجعلني من أوليائك إنك أنت الولي الحميد اللهم أسكني في جوارك ومتعني بخطابك وإن كنت أنا لست أهلا فأنت أهل لذلك وصل اللهم على مولانا محمَّد وعلى آله وصحبه وبارك.

كمل الباب الأول من أصول هذا الكتاب المتضمن معنى قول الشَّيخ الجنيد رحمه الله توضأ بماء الغيب، وبتمامه تم السفر الأول من سراج الغيوب في أعمال القلوب يتلوه في أول السفر الثاني إن شاء الله الباب الثاني في معنى قوله: إن كنت ذا سر، وهذا الباب شرط في جميع ما تقدَّم والله أعلى وأعلم، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

قلت: ولما انتهت الطهارة المعنوية ثم عزمت أن أتكلم على العبادة المعنوية في السفر الثاني فرأيت أن أختم السفر الأول بعبادة مستحبة حسية مروية عن رسول الله ﷺ وهي ممَّا لا ينبغي أن تهمل وينبغي للمؤمن أن يواظب عليها العمل وإن كان غير مشترط وهذا مما نقلته من كتاب الدرة الفاخرة في أخبار الآخرة للشيخ العالم العلامة المفسر الولي الصالح القطب النَّاصح أبي زيد سيدي عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي الجزيري رحمه الله تعالى قال رحمه الله: **فصل**: وجدت في بعض الكتب ما نصه روى أبو عائشة السعودي وأبو حفص الصوفي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: من صلى صلاة المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين لم يتكلم بشيء فيما بينهما ذلك من أمور الدنيا يقرأ في الركعة الأولى بأم القرآن وعشر آيات من أول البقرة وهي إلى قوله تعالى مصلحون وآيتين من وسطها وهما وإلهكم إله واحد إلى تعقلون وقل هو الله أحَد خمس عشرة مرة ثم يركع ويسجد فإذا قام إلى الركعة

الثانية قرأ فيها بأم القرآن وآية الكرسي وآيتين بعدها إلى قوله أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون وثلاث آيات من آخر سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ [البقرة/284] إلى آخرها و﴿ قل هو الله أحد﴾ خمس عشرة مرة بنى الله له في جنة عدن ألف مدينة من الدر والياقوت في كل مدينة ألف قصر في كل قصر ألف دار في كل دار ألف حجرة في كل حجرة ألف صفة في كل صفة منها ألف خيمة في كل خيمة منها ألف سرير من أصناف الجواهر على كل سرير ألف فراش بطائنها من استبرق وظواهرها من نور منضود وألف مرفقة من هذا الطرف إلى الطَّرف الآخر فوق ذلك الفراش زوجة من الحور العين لا توصف بشيء إلا زادت عليه جمالا وكمالا قد ملأ جمالها ما بين طرفي السرير على كل زوجة منهن ألف حلة لا توازي حلةٌ حلةً ولا توازي الحلل كلها جلدها يرى بعضها من تحت بعض ويرى مخ ساقها من تحت الحلل كما يرى السلك من الياقوتة لكل زوجة منهن ألف وصيف ومائة ألف جارية ومائة ألف قهرمان على قصورها وضياعها هدي لها خاصة سوى خدمة زوجها، في كل خيمة نهر من التسنيم ونهر من الكوثر وعين من الكافور وعين من الزنجبيل وعين من السلسبيل وغصن من شجرة طوبى وغصن من شجرة المنتهى، في كل خيمة مائة ألف مائدة من الدر والياقوت أدنى مدينة منها مثل استدارة الدنيا مرتين في كل مائدة منها ألف صحفة مكللة بالدرر والجوهر، في كل صفحة منها ألف لون من الطَّعام مختلفة الألوان والطعم والرائحة والمذاق واللذة، ويعطي الله عز وجل وليه المؤمن من القوة ما يأتي على تلك الأطعمة ومثلها من الأشربة، ويأتي على تلك الأزواج كلهنَّ من الحور في مقدار يوم من أيام الدنيا[1].

قال الثعالبي: قلتُ: قوله "مثل استدارة الدنيا مرتين" لا يستغرب هذا إن صح به

---

(1) قلت: قد ورد أيضا بنحوه أنه يصلى ذلك ليلة الأحد من غير تقييد بصلاة المغرب، وشواهد الوضع عليه لائحة. انظر: الموضوعات لابن الجوزي (120/2)، واللآلئ المصنوعة للسيوطي (45/2)، وتنزيه الشريعة لابن عراق الكناني (84/2).

وكون الحديث باطلا لا يعني منع كون ذلك النعيم في الجنة، فقد صح في الحديث: "إن في الجنة ما لا خطر على قلب بشر "، وذلك الثواب والنعيم قد خطر على قلب بشر، فيكون وجوده أمرا كائنا، كما أفاد ذلك المصنف رحمه الله تعالى في تعليقه على هذا الحديث، وهو تنبيه عظيم جدا، فلله دره!!.

الحديث فقدرة الله أوسع من ذلك وأحوال الآخرة لا مدخل للعقل فيها. اللهمَّ ارزقنا هذا النعيم وأفضل منه فإنَّك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير فإنك نعم المولى ونعم النَّصير هذا محل الحاجة منه.

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب المذكور: الجنة التي عرضها السَّموات والأرض إنما هي كلها لمؤمن واحد ولكل مؤمن مثله لأنَّ الإنسان لا يفرح إلا بما يملك لا بما يملك غيره وقدرة الله صالحة لذلك كله وملكه تعالى أوسع وأعظم هذا محل الحاجة منه والسَّلام.

قلتُ - أعني مؤلف هذا الكتاب -: اعلم يا أخي أن هذا كله وأكثر منه يؤخذ من معنى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: «**في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[1] معناه في الجنة فوق ما سمعت الآذان أو ما تسمع من سائر الخلق كلهم أولهم وآخرهم وفوق ما رأت كل عين وفوق ما يخطر بقلوب الآدميين كلها فأحرى هذه الحكايتين لأنهما خطرتا على قلب مؤلفها إن لم يصح الحديث وعلى قلب من نقل ذلك قلبه وسمعت آذان كل من سمع لفظه فذلك حق وكائن في الجنة قطعا بالحديث الصَّحيح الذي ذكرته الآن وهو قوله عليه السَّلام: "**في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت**" ويتضمَّن ذلك أن الله يقول: لو جعلت الجنة كلها لمؤمن واحد لم ينقص ذلك من ملكي شيئا، وهذا بالمعنى، وهو مسلم بالعقل، ويؤخذ ذلك أيضا من الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف/71] ولا يبعد أن يشتهي ذلك كله مؤمن واحد ومؤمنون كثيرون فيعطون ذلك من غير أن يصلون الركعتين المذكورتين هذا إذا كان الحديث موضوعا، وأما إن صح الحديث فقد ارتفع النزاع، والله أعلم.

واعلم أن هذه النعم كلها وأعظم منها تتلاشى وتنسى عند لحظة واحدة من رؤية الله سبحانه، فاعلم ذلك، وسنأتي بشيء من هذا المعنى وما نبينه ونحققه في رجز ننظمه بعد هذا إن شاء الله تعالى أسميه "بهجة السرور" إن شاء الله تعالى ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم وصلَّى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليما.

---

(1) رواه أحمد (369/2) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كمل السفر الأول من شرح قول الجنيد رحمه الله توضأ بماء الغيب الأبيات الثلاث
وصلى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وذريته وأمته
وسلم كثيرا إلى يوم الدين
والحمد لله رب العالـمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمّد وآله وصحبه سلّم

هذا مبدأ السفر الثّاني من سراج الغيوب في أعمال القلوب شرح الأبيات الثلاث التي أولها "توضأ بماء الغيب" شيخ الطّريقة ومحيي الحقيقة أبي القاسم الجنيد مما عني بتأليفه عبد الكبير بن عبد المجيد الشريف الحسني المدعو عليوات الزجني كان الله له وغفر ذنوبه

آمين

الباب الثاني من أصول هذا الكتاب

قوله رضي الله عنه: "إن كنت ذا سر":

اعلم أن "ذا" بمعنى صاحب سر، و"إن" المصدر بها شرطية، وأن هذا السر المشار إليه شرط صحة في جميع ما تقدم في السفر الأول وسأبين هذا السر إن شاء الله تعالى.

اعلم أن السر هو ضد الجهر والعلانية، وقيل: هو الشيء الذي يستحق الكتمان مما لا ينبغي إفشاؤه، ومنه إذا تكلم أحد لديك بكلمة وأوصاك بكتمانها فهي عندك أمانة، فإن كتمتها حفظت الأمانة وإن فهت ضيعتها، وقيل: إذا تكلم معك أحد بكلمة والتفت خلفه فهي أمانة عندك وإن لم يوصك بكتمانها وحفظها، فهذا هو المراد بالسر عند أهل اللغة.

وأمّا في اصطلاح أهل الحقيقة، فهو: الشيء الرفيع النَّفيس الذي لا قيمة ولا ثمن له في الدنيا ولا عِوض عنه في الآخرة وهو الإسلام، ومعظمه النطق بالشهادتين

باللسان، واعتقاد معناهما بالقلب، بحيث لا يكذب القلب اللسان كنطق المنافقين والزنادقة الذين هم أشد عذابا من الكافرين بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء/145] ولن تجد لهم نصيرا، لأنهم في الدنيا يظهرون الإسلام ويخفون الكفر، فقلوبهم في تلك الحالة تكذب ألسنتهم فلا ينتفعون بالنطق بالشهادتين إلا إذا تابوا وغسلوها بقلوبهم من الكفر وتابوا توبة صادقة مخلصة، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله غفورا رحيما، وإلى الإسلام الخالص الإشارة بقول الشيخ "إن كنت ذا سر" وأوجه الشرطية ظاهرة، لأنه قدرنا وجود زنديق خبيث القلب أو كافر خبيث السر والعلانية فعلى جميع ما ذكرناه من أول الكتاب إلى هنا فأمَّا الزنديق فلا ينتفع بذلك لأنه لا سر له، أي: لا إيمان له، ومن لا إيمان له فهو محبوط الأعمال. وأمَّا الكافر الصَّريح فإن وجد راهبا تعبَّد بجميع ما ذكرناه بإخلاص القلب والنية فإنه لا ينفعه شيء من ذلك لا توحيد ولا غيره، لأنه غير صاحب سر لكونه غير مسلم ولا يثبت الإسلام إلا بالنطق والاعتقاد الخالص من غير شك ولا رياء، وإن يكن النطق بالشهادتين معا فلو نطق واعتقد أحدهما دون الأخرى فإنه ليس بمسلم يعني فإن نطق "بلا إله إلا الله" ولم يعتقد معنى قولنا "محمد رسول الله" أو بالعكس فإنه كافر صريح ولا سر له. ومن نطق بالشهادتين معا واعتقد معناهما فهو المسلم المالك للسر المشار إليه في مثل هذا هي الإشارة بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم/87] والعهد هو قول: "لا إله إلا الله محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم" لقوله صلى الله عليه وسلَّم: «**من مات وهو يقول لا إله إلا الله دخل الجنة**»[1] يعني يقولها بلسانه أو يعتقد معناها بقلبه إن لم يساعده لسانه فهو مؤمن مخلد في الجنان بفضل الله تعالى وإليه الإشارة، أي: لهذا الصنف بقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة/7 - 8] وهذا الصنف هم أصحاب السر، أي: المستحقون الأسرار الربانية والمواهب الإلهية والعلوم اللدنية من الفراسة والكرامة وانغراق العادة، وسأبينها إن شاء الله تعالى في أبواب وفصول، وهذه الأمور النفيسة هي التي يجب على صاحبها كتمانها عن الآباء والأبناء فأحرى الأصحاب والأنساب وإلى

---

(1) سبق تخريجه.

ذلك أشرت بقولي في هذه الأبيات:

أيا مودعي الأسرار يبغي اكتشافها فسرك محفوظ وليس له ذكر
لأنه مستور في القلب مغيب كأنه ميت وصدري له قبر
وإن كانت الأموات يرجى نشورها فسرك لم يحشر إلا متستر
إلا أن يشاء الله جل جلاله حسابا عليه ثم لا بدّ ينشر
وإن شاء كشفه الحكيم متى يشاء فالحكم منفذ وليس له قدر
على هذه الأشياء ما دخل وإلا لا فصن سرك عنا فقد ظهر العذر

وفي معنى ذلك نظمت وصية لإخواني المؤمنين بكتمان الأسرار فقلت في ذلك:

أيا من له السر في صدره فبالله لا تبده للبشر
وكن كاتما له تحظى به فليس يصيبك منه ضرر
وكن حافظا له بين الورى لتنظر فيهم ولا تنتظر
وماثل به الحوت مع جنسه فالحوت لا يبدي للغير خبر
أسيرك سرك في كتمه وأنت أسير له إن ظهر
فأنت له أهل إن صنته وإلا فأنت السَّفيه الأغر
فاقبل وصيتي تنج بها فسرك سترك إن استتر
وإلا فمكشوف أنت ترى بغير ثياب كمثل البقر
لغيرك لا تبد سرا به خصصت ولا تأمنن الغدر
فالسر كطائرة سجنت تطير إذا سرحت للوعر
فالسر مسجون وسط الفؤاد فإن به فهت فلا للوكر
يعود وأنت تصير به سريعا سرى للعدا وانتشر
فيستفيدون بلا كلفة وشمتوا بك لكي تحتقر
فأغلق منافذ سر خفى في صدرك اجعله له كالقبر
وإن منه لفظة منك بدت فروج كلاما كذاك الخبر
وكثر وباعدن معنى الذي تريد استتاره عمن حضر
ولا تنه خلقا عن ذكر الذي تفلت منك فلا يختبر
لعله ينس وكن عالما بوجه المكايد حد النَّظر

فـــــاللفظ الموصـــــى بكـــــتمانه يـــشيع فـــي الخلـــق ولا يتنكـــر
كأنـــــه وصـــــى بالـــــنطق بـــــه وبالـــصمت تـــنجا مـــن كـــل كـــدر

واعلم يا أخي أنني بهذه الوصايا وصيت نفسي وأهلي وجميع الصَّالحين من أهل جنسي. واعلم أن هذه الأسرار المشار إليها يجب على المريدين كتمانها وسترها حتى عن الولد والوالد، لأنه قيل: إن كشف أسرار الربوبية كفر إلا أصل هذه الأسرار كلها وهو الإسلام، فإننا مخاطبون بنشره وإشاعته وإظهاره والقتال وبذل المهج عليه، وبذلك أمر سيدنا محمَّد ﷺ وأمر بدليل قوله صلى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته: «**أمرت أن أقاتل النَّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[1] يعني "ومحمد رسول الله" كذلك صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته وهذا ما علم من الدين ضرورة فجاحد ذلك أو باغضه حكمه حكم المرتد يقتل بعد الاستتابة، ولذلك أشار الشيخ الجنيد بشرطيته في صدر الأبيات المشروحة هنا وهي قوله: "توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر" فهذا شرط في جميع الطَّاعات والعبادات والفوائد التي تستفاد من الكرامات وسكنى الجنان، نيل الثواب والدرجات والأمن من الخلود في الجحيم والسعير والدركات، فالسر الذي هو قول "لا إله إلا الله محمَّد رسول الله صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته" باتفاق والظواهر والبواطن عليه شرط محتم في جميع ما ذكروا ما لم يذكر من أنواع الفضل والإحسان ورؤية الملك الديان في أعلى درجات الجنان كل ذلك مشروط يقول هاتين الكلمتين الشريفتين بشرط اعتقاد معناها ظاهرا وباطنا، والله الموفق وهو الهادي والملهم سبحانه لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه القديم الأزلي الدائم الأبدي جل ثناؤه وتعاظم قدره وتقدست صفاته وأسماؤه.

فصل
في الشروع في ذكر ما يسر مما يتعلق بهذه الأسرار المصونة

اعلم يا أخي أن سر الأسرار هو الإسلام، أسأل الله تعالى أن يحيينا عليه ويديمنا عليه ويتوفانا عليه ويحشرنا في زمرة السَّابقين بالخيرات من أهله آمين يا رب العالمين.

---

(1) رواه البخاري (153/1) ومسلم (51/1) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والحديث له طرق بلغ معها درجة المتواتر، انظر: نظم المتناثر من الحديث المتواتر لمحمد بن جعفر الكتاني رحمه الله (ص: 22، حديث رقم: 9).

واعلم أن أحكام الإسلام مقررة في كتب الفقه كما ينبغي أن يعلم به، وأما هذه الأسرار الربانية والحضرة الإلهية لا يحصر وصفها بالعبارات ولا تنتهي إليها الإشارات، لأن كل من يتكلم فيها يوصي بكتمانها وحفظ نفائسها، وأيضا كل من يتكلم فيها وأذن له في التعبير عن بعض أسبابها إنما يحوم على معرفة الله تعالى بالتوحيد المحض الذي يكون قولا وفعلا واعتقادا وحالا، ومعرفة الله تعالى لا تدرك كما أن عبادته تعالى حق قدره لا تدرك، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام/91] فلذلك صار الكلام في هذه الطريقة متسع، وكل من صنف فيها إنما يعبر عن ذوقه مع التحرز من إفضاح السر لغير أهله وعلامة الإذن في ذلك التيسير ومن لا إذن له فالأمر يكون عليه عسير مع أن كل من يتكلم فيها وإن بالغ في الوصف مقهور وإن كوشفت له الأستار فلا يزال مستور، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ [يس/68] على أحد التأويلات فانظر الكراس الثاني من أول السفر الأول ما حكي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعن إمامنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه وعن أبي هريرة رضي الله عنه فقد بينوا العذر فيه لكاتم هذه الأسرار في مكتوبه، وأنَّ الله تعالى أوحى لسيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته في تبليغ الرسالة لخلقه تعالى ولا يكتم منها شيئا فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وخصه الله تعالى بعلوم لا يسعها غير صدره وأمره تعالى بتبليغ بعض العلوم ببعض الأصحاب معينين وخيَّره في تبليغ بعض العلوم لمن يرى أنه من أهل التصديق والتمكين، روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: وجدت علي بن أبي طالب رضي الله وكرم وجهه يتكلم مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه في علم من العلوم بكلام عربي مبين وطال كلامهما في ذلك ولم يكتماه عني والله ما علمت من ذلك حرفا واحدا ولا أدري كانا يخوضان كأنني بينهما أعجمي، أو كما قال فنقلت ذلك هنا بالمعنى لا باللفظ وهذا وجه الستر لمن خصه الله تعالى بالعلم اللدني قال رسول الله ﷺ: «**لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها من أهلها فتظلموهم**»[1] شعر حسن لغيرنا رحم الله قائله:

ومن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

(1) رواه الحاكم في مستدركه (301/4) من حدث ابن عباس رضي الله عنهما.

فهذا سبب كتمان الأسرار عن غير أهلها ومن لم تكن فيه قابلية لفهم فذلك أدل دليل على أنه ليس من أهله لقول نبينا صلى اله عليه وسلم وعلى آله وأمته: «**أنزلوا النَّاس على قدر منازلهم وحدثوهم على قدر عقولهم**»[1] وقال بعض الحكماء: من جعل النَّاس سواء ليس لحمقه دواء.

وحدثني بعض الشرفاء أنه استضاف بعض المرابطين في رابطته وكان له خدم وأعوان وتلاميذ خشان الطَّبع، قال: فعرفته بحسبي ونسبي فعرفني وعرف موضعي، فلمَّا دفع الطعام للنَّاس جملة من غير تخصيص ولا تفصيل فكرهت الأكل مع تاركين الصَّلاة من العبيد والرعاة وغيرهم فقبضت يدي على الأكل، فلم يبالِ بحالي، فلمّا كان الغد قال لي: رأيتك البارحة لم تأكل كأنك صائم بالليل؟ فلمَّا علمت أنه يهزأ بي قلت له: ليس من شريعتنا الصيام بالليل، ولكن آليت على نفسي ألا آكل طعام جاهل، فقال: وما علامة جهلي؟ قلت له: قال الله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف/199] كنت أظن جهلك بسيطا لعله يداوى فإذا جهلك مركب لا دواء له، فقال: ظننت أنك ما جفيتني ولم تأكل طعامي إلا حيث أجلست معك العبيد والرعاة؟ فقلت: نعم، فقال: أنا بنيت طريقتي على أنَّ الخلق كلهم سواء ولا فضل لأحدهم على الآخر ولا أبالي بمن اغتاظ منهم ولا بمن رضي، فقلت له: لعل جهلك بسيط فأجاوبك الآن، فقال: وما ذاك؟ فقلت له: يا حمار مد يدك فمد يده فقبضته من أصابعه وقلت له: انظر هذه الأصابع خلقها الله أم لا؟ فقال: الله خلقها كما خلق جميع الأشياء، فقلت له: انظر لم يجعلهم الله سواء وفضل بعضهم على بعض فجعل بعضهم طويلا وبعضهم قصيرا وبعضهم متوسطا والبعض قصيرا غليظا متحيزا منفردا عن إخوته هذا في يدك تنظره كل يوم وليلة وفي كل لحظة ولم توافق الله في فعله، ألم تعلم أن الكلب خلقه الله ولا أراك ترضى الأكل معه، فقال: ذلك حق ولكن أستقذره لأنه يأكل الأنجاس، فقلت له: نشدتك بالله هلا تعلم أن من أجلست معي يأكلون الأنجاس؟ فقال: وكيف يرضى الآدمي أن يأكل الأنجاس؟ فقلت له: أي نجس أنجس من الخمر وقد كان هذا عن يميني وهذا عن يساري وقد كادا أن يقتلاني برائحة الخمر، كيف تركت الكلب لأجل النجس الذي يأكله يوما بعد يوم فكيف لا أترك الأكل مع من يشرب النجس في كل

---

(1) سبق تخريجه.

يوم مرة أو مرات. فأراد أن يقوم عني فقبضته وقلت: لا تبرح حتى أملي عليك حديثا صحيحا من أحاديث المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله وأمته قال: «أنزلوا الناس على قدر منازلهم» الحديث وأنت لم تمتثل أمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأمته، وقولك: النّاس كلهم خلق الله وهم كلهم سواء، فلم يجعل الله الرسل عليهم السلام سواء فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة/153] الآية إلى قوله: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ [البقرة/253] فعلى مذهبك المؤمن يستوي مع الكافر، والطّائعون مع العصاة، قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة/19] وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر/9] فسكت فقمت وانصرفت ولم يعتذر، فعلمت أن الرجل غلب عليه جهله ولم تنفع فيه موعظة وسماه لي باسمه ولقبه فعرفت أن حال الرجل كذلك.

فإذا تبين هذا فالناس ليسوا سواء، وهذا لفظ القرآن مما يرد به على الرجل الجاهل ومن كان مثله، فحيث لم يكن سواء فإمدادهم وإعطائهم غير سواء، فلذلك يكشف العلم والمعرفة لبعض ويستر عن بعض، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح/23] الآية. فلذلك هذا الأمر مكتوم وستره عن غير أهله محتوم وكل من يتكلم فيه إنما يتكلم فيه بالرمز والإشارة، لأنّه بالقهر ملجوم. وأيضا فهذا العلم ليس بعلم التّدريس فيعلم بالقصص والأخبار، ولا بعلم اليقين والتجسيس فينال بمخالطة الأخيار، ولكنه علم نفيس لا ينال إلا بفضل الله العالم الستار ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام/124] وهو العالم بمن يستحق الحكمة فيمده بالذّوق والفهم في آياته قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر/2] الآية.

اعلم أن ما نريد أن نتكلم عليه فيه من هذه الأسرار فلا أخرق فيه الحجب والأستار ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص/68] لكن نبين مبناه ليسهل على الناظر في هذا الكتاب معناه. والله أسأل أن يمنح الناظر فيه والمستمع له بعفوه ورضاه، وأن يمن علينا بفهم معناه، وأن يعاملنا بالفضل والرضى يوم الحساب، وأن لا يجعلنا من أهل العدل المستوجبين لمناقشة الحساب وشدة العذاب آمين.

فتلخص لنا من ذلك كله أن قوله: "إن كنت ذا سر"، أي صاحب إيمان وإسلام، لأنَّ الإيمان أصل والإسلام فرع، ووجه الشرطية في هذا اللفظ أن من لم يكن مسلما مؤمنا مصدقا موحدا فهو مشرك، والمشرك أعماله محبوطة لقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر/65] فلا فائدة لأعمال الظواهر وأعمال البواطن مع عدم النطق والاعتقاد، فلذلك جعلنا هذا الباب من الأصول، لأنه من أصول كلام النَّاظم وكل ما ننزله عليه من النقول وغيرها فهو فروع ذلك الأصل فاعلمه.

تنبيه في فروع هذا الباب

اعلم يا أخي أن هذا التنبيه يحتوي على تبيان فروع هذا الأصل وهي عشرة أبواب:

الباب الأول في ذكر الأسرار الموهوبة من الله جلَّ جلاله لأمة سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته وتخصيصهم بها دون غيرهم من سائر الأمم جعلنا الله منهم.

الباب الثاني: من فروع هذا في آداب الداخلين في هذه الطريقة من المؤمنين التّائبين.

الباب الثالث: في كرامة الأولياء والصَّالحين.

الباب الرابع: في فراسة خاصة الخاصة من الأولياء الواصلين العارفين.

الباب الخامس: في بعض وصايا الواردين المحبين.

الباب السَّادس: في حفظ قلوب المشايخ السالكين المسلكين.

الباب السَّابع: في رؤيا القوم من الأبرار والمقربين.

الباب الثامن: في أحوالهم عند الموت والورود على رب العالمين.

الباب التاسع: في بعض أخلاق سيد المرسلين سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وعلى آله وأمته المؤمنين ويشتمل هذا الباب على ثلاثة عشر فصلا:

الفصل الأول: في تأديب الله تعالى له بالقرآن صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته.

الفصل الثاني: في بعض محاسن أخلاقه صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل الثالث: في بعض آدابه وأخلاقه صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل الرابع: في كلامه وضحكه صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل الخامس: في آدابه وأخلاقه في الطعام صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل السَّادس: في آدابه وأخلاقه في اللباس صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل السَّابع: في بيان عفوه مع القدرة صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل الثامن: في إغضائه عما يكره صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل التاسع: في بيان بعض سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل العاشر: في بيان شجاعته وبأسه صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل الحادي عشر: في بيان تواضعه وحسن خلقه صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل الثاني عشر: في بيان وصف صورته وخلقته صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل الثالث عشر: في بيان بعض معجزاته وآياته صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

فهذه نبذة من شمائله صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته تؤذن بفضله وخصوصيته بالأسرار والمواهب الغزار وأمته الأخيار من أجل هذا النَّبي المختار صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته، وهذه الشمائل كان مجبولا عليها من أول نشأته صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

البابُ العاشرُ: في بيان ما أمرنا الله تعالى به من توقيره وتعزيره والبرور بآله والصَّلاة عليه صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

ويشتمل على دفاتير من أحسن معاني الكلام والفوائد، وما لا يحصى عددا من الأشعار والقصائد ممَّا أجمع على إيجاده فرسان البلاغة، وعني بنقله من الآثار، ومن معاني القرآن الجهابذة ليوث البراعة، فرأيت أن أضع هنا ما خف علينا نقله من النصوص، وما أتخيره من الجواهر والفصوص، فمن ذلك ما أورده الفقيه العلامة الحبر المشارك البحر الفهامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي رحمه الله تعالى في كتابه

الشفا ما لا مزيد على ذكره، ولا تطيق الأفكار أن تعثر على شيء فوق ما عثر عليه، لكن أنقل منه بعض ما يناسب هذا المشروح في هذا المحل وفيما بعده، ليقع الدواء على الجروح، وليرضى به إن شاء الله من صدره بالإسلام مشروح، فنضعُ هنا منه فصولا بكمالها. وهذا أولها:

الفصل الأول من الباب الرابع من القسم الثاني من كتاب الشفا للقاضي أبي الفضل عياض رحمه الله ورضي عنه في حكم الصَّلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته.

الفصل الثاني: في المواطن التي تستحب فيها الصَّلاة والسَّلام عليه صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل الثالث: في كيفية الصَّلاة على النبي ﷺ.

الفصل الرابع: فضيلة الصلاة على النَّبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل الخامس: في ذم من لم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل السَّادس: في الاختلاف في الصَّلاة على غير النبي وسائر الأنبياء عليهم السلام.

الفصل السابع: في حكم زيارة قبره عليه السلام، وفضيلة من زاره وسلم عليه وكيف يسلم عليه ويدعو لدى زيارة قبره عليه السَّلام.

الفصل الثامن: فيما يلزم من دخل مسجد النبي صلَّى الله عليه وسلَّم من كتاب مفاخر الإسلام في فضل الصَّلاة على سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله.

الفصل التَّاسع: في كون الصَّلاة على النَّبي صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته من ذكر الله تعالى، وأن ذكره سبحانه أفضل ما يتقرب إليه جل وعلا.

الفصل العاشر: في الأمر بالصَّلاة على النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته.

الفصل الحادي عشر: في الأمر بالإكثار من الصلاة على النَّبي ﷺ.

الفصل الثَّاني عشر: في ثواب من أكثر الصلاة على النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم.

الفصل الثالث عشر: في الأمر بسؤال الوسيلة بعد الصلاة عليه صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته.

الفصل الرابع عشر: في صلاة الأنبياء على النبي صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته.

الفصل الخامس عشر: في صلاة النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته على نفسه عليه السَّلام.

الفصل السَّادس عشر: في صلاة الجن على النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته.

الفصل السَّابع عشر: في صلاة الحيوان على النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته.

الفصل الثامن عشر: في استغفار الملائكة للمصلي على سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته.

الفصل التاسع عشر: في كون الصلاة على النَّبي ﷺ تنقل الرجل من دركات الغافلين إلى درجات المحققين.

الفصل الموفي عشرين: في كون الصَّلاة على النَّبي ﷺ تدرك الرجل وولده وولد ولده.

الفصل الحادي والعشرين: في الصلاة على سيدنا ومولانا ونبينا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم عند نزول أمر مهم.

الفصل الثاني والعشرين: في شفاعته صلَّى الله عليه وسلَّم يوم القيامة.

الفصل الثالث والعشرين: في كون الصلاة على سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته تسهل جواز الصِّراط، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الباب الأول في ذكر الأسرار الموهوبة لأمَّة سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وعلى آله وأمته المخصوصة بها دون الأمم

اعلم يا أخي أن أعظم الخصوصية التي خص الله تعالى بها هذه الأمة وأشرف الأسرار والمواهب والخصائص كلها التي خصهم الله سبحانه بها دون غيرهم من سائر الأمم رضي الله عنهم أن جعلهم الله سبحانه أمة لأحب الخلق إليه سيدنا محمد سيد ولد آدم أجمعين ورفقائه في الحشر والجنان، فأي مزية وخصوصية أعظم من هذه المزية ومن هذه الخصوصية التي صار المرسلون يغبطونهم فيها، حتى أن سيدنا موسى كليم الله سأل الله تعالى أن يجعله من أمة سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله

وأمته في الحديث الذي ذكرناه في فصول التَّسوية، فانظره قبل قريبا إن شئت، وهذه الخصوصية سبقت لنا بمجرد فضل الله سبحانه من غير اكتساب ولا أسباب، ولا حول لنا ولا قوة، فله الحمد وله الشكر كما ينبغي أن يحمد ويشكر، لا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه.

ومن الخصائص أيضا أن جعل الله تعالى بمحض فضله هذه الأمة خيارا عدولا أقامهم الله تعالى شهودا على سائر الأمم يوم القيامة، يوم يقول كل نبي: "نفسي" إلا سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته يقول: "أمَّتي أمَّتي"، وهذه أيضا خصوصية أخرى لم تكن لغير هذه الأمة، فحينئذ تشهد هذه الأمة لجميع المرسلين على أممهم لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة/143] قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أي خيارا عدولا وشهادة نبيهم عليهم تزكية لهم حين يريدون الكفار من سائر الأمم الدفع والمقال في شهادة هذه الأمة ويقولون: "يا ربنا كيف تجوز شهادة أمة سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته ونحن كنا في أول الزمان وهم في آخره ولم يرونا ولا رأيناهم قط، والشهادة فيما لا يعلم النَّاس ممنوعة شرعا؟" فيقول الله تعالى: يا أمة محمد كيف شهادتكم على هؤلاء وأنتم لم تروهم ولم يروكم قط؟ فتقول هذه الأمة: يا ربنا نشهد أنك أرسلت إلينا سيدنا محمدا صلَّى الله عليه وسلم فبلغ إلينا رسالتك، وأنزلت عليه كتابك القرآن الحكيم فآمنا بك يا ربنا وبكل ما جاء به نبينا فآمنا به واتبعناه وصدقناه، وقرأنا كتابك فأخبرتنا فيه يا ربنا بقصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم فقلت يا مولانا في حق نوح عليه السَّلام: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح/1] فيقرؤونها إلى آخر السورة.

وقلت يا مولانا في حق إبراهيم كذا، وفي حق لوط كذا، وفي حق موسى كذا، وفي حق شعيب كذا، وفي حق هود كذا، وفي حق صالح كذا، وفي حق عيسى كذا، فيقرؤون جميع قصص الأنبياء وأخبارهم فيزكيهم نبيهم صلَّى الله عليه وسلَّم ويقول: "وأنا أشهد أن أمتي قد صدقت". فيقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة/ 143] الآية. وسوى الله تعالى هذه الأمة مع المرسلين حسبما تقدم في فصول التَّسوية قبل قريبا، وفي تسويتهم مع جميع المرسلين غير سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم

وعلى آله وأمته في تزكيته لسيد المرسلين وتصديقه إياهم كما صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في تزكيته لجميع المرسلين وتصديقهم إياهم كما صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته وزكاهم قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء/41] وكان من حق هذه التسوية في الفصل الخامس من فصول التسوية لكن لم يتبين لنا وجه الخصوصية لأمة سيدنا محمَّد ﷺ حتى بلغنا لهذا المحل، فالحقيقة هنا كما ترى، وذلك لأجل الشهادة على الأمم، فظاهره لكون الله تعالى أقام من كل أمة شهيدا وهم المرسلون ولم يجعل من غير الأنبياء شهيدا من سائر الأمم إلا هذه الأمة، ونبيهم سيدنا محمَّد عليه السَّلام شهيد عليهم جميعا وعلى جميع الأنبياء.

ومن الخصوصية التي خص الله بها هذه الأمة أن جعل الله لهم الحسنات بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلى ما لا نهاية له، وجعل سيئاتهم سبحانه بواحدة فقال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام/160]. وقال تعالى في حق هذه الأمة في سبيل الله الدرهم بسبعمائة: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة/261] وقال تعالى في حق الصَّابرين: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر/10].

ومنها: أن جعل الله تعالى لهذه الأمة الأرض طهورا ومسجدا يصلون فيها حيث شاؤوا من الفيافي والعمران، ومن قبلهم من سائر الأمم كانت لا تجوز صلاتهم إلا في الكنائس والبيع، فالكنائس لليهود والبيع للنَّصارى، وكانوا لا تقبل عبادتهم في غير ذلك.

ومنها: شهور رمضان فلم يجعل الله تعالى صيامه لأمة غير هذه الأمة لكثرة ما جعل الله فيه من العتقاء من النار وكثرة الثواب والأجور.

ومنها: ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ومقدارها ثلاثة وثمانون سنة وثلث السنة.

ومنها: قلة أعمارهم قال عليه السَّلام: "**أمتي من الستين إلى السبعين ولا يبلغ**

المائة إلا القليل"[1]، وجعل ثوابهم كثيرا، فقلة العمر لقلة الأوزار والسيئات، وتعظيم الأجور والتضعيف ليكونوا أكثر الأمم ثوابا وأقلهم ذنوبا، فليلة القدر من قامها من هذه الأمة كأنه عاش ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر وجوزها كلها في عبادة الله تعالى ولم يعص طرفة عين، هذا في ليلة واحدة كيف وهي تتكرر في كل سنة ليلة منها.

ومنها: أن جعل الله توبة هذه الأمة بالكلام قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء/110] وجعل توبة من كان قبلهم بالقتل قال تعالى في حق بني إسرائيل: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة/54]، وكان من قبل هذه الأمة يمسخ بالذنب وتكتب أعمالهم على أبواب دورهم ويفضحهم الله تعالى بها. ومن فضل هذه الأمة وفضل نبيها ارتفاع المسخ عنهم وعن جميع أهل الأرض، لأنه عليه السَّلام مرسول للكافة.

ومنها: أن شرائع الأمم الماضية كلها نسخت بشريعة هذه الأمة وشريعتنا لم تنسخ إلى آخر الدهر، حتى أن سيدنا عيسى بن مريم عليه السَّلام أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته أنه ينزل في آخر الزمان ويكون ناصرا للإسلام، ويقاتل النَّاس على شريعة نبينا عليه الصَّلاة والسَّلام، ويكون مجددا لديننا، وحاكما بشريعتنا، ويصلي مأموما خلف رجل صالح من أئِمتنا رعاية لفضل سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته.

ومنها: أنَّ الله تعالى حرم الغنائم على جميع الأنبياء والأمم وأحلها لنبينا وأمته قال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال/69].

ومنها: ما خصنا الله تعالى به من الجمعة والجماعة والجمع ولم يجعل ذلك لأحد ممن كان قبلنا.

ومنها: أن جعل الله تعالى أناجيل هذه الأمة في صدورهم وغيرهم في صحفهم.

ومنها: أن جعل الله تعالى الكعبة قبلة لهذه الأمة دون غيرها من الأمم، ومن كان قبلهم كانت قبلتهم لبيت المقدس، ولا شك أنهما معا من حرمات الله تعالى والكعبة أفضل، وقد جعل الله لصدر هذه الأمة الاستقبال لقبلتين واختار لآخرها أفضلهما وهي

---

(1) رواه الترمذي (553/5) وابن ماجه (1415/2) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الكعبة قال تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ ﴾ [البقرة/144].

ومنها: أنَّ الله تعالى نصر هذه الأمة بالرعب قال تعالى: ﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر/14] الآية، وتراهم باقين على تلك الحالة حتى الآن، وما سمعنا قط بجمع للكفار نصر على هذه الأمة بالبراري إلا أن يبدل أهل ذلك البلد أو يغيروا في الدين، وما خرج جيش الكفر لهذه الأمة قط إلا هلك.

فإن قيل: إن الأندلس غلبوا على بلادهم وأنهم من هذه الأمة ومعظمها؟ قلنا: قد كانت الغلبة والقهر لهم ماداموا يستغيثون بالمسلمين، فانظر غزوة زلاقة في تلك العدوة مع يوسف بن تاشفين فقد أذل الله جموع الروم كلها وملك الفنش ملك الروم وكان جيشه - والله أعلم - عشر مائة ألف مقاتل دون الأتباع، وعرض للبيع فيمن يزيد سبعة أيام وهو يدلل بيد السمسار بحبل في عنقه في محال المسلمين وخيامهم ولم يساو درهما واحدا، إلى أن بلغ لمحلة أهل فاس فقام رجل متهكم منهم فقال: هذا الكلب لم يساو شيئا؟ فقال السمسار: لم يساو شيئا، فقال الرجل الفاسي: اجعل له كلبة ضارية على الصيد فضحك الناس من قوله واستحسنوه. ولـمَّا بدلوا وغيروا ودخل بينهم الخلاف، وجعلت كل فرقة منهم تستغيث بمن والاهم من الكفار، ووقع القتال بينهم على تلك الحالة، فغلب جيش الكفار جيش الفجار، وخمدت جمرة من بينهم من أهل الإسلام، فهذا كان سبب غلبة الكفر على المسلمين بالأندلس، فهم الذين تسببوا في هلاك أنفسهم بكثرة خلاطهم، فانتقم الله منهم لأجل ذلك ولا حجة علينا بسبب غلبتهم، كيف والله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ ﴾ [آل عمران/123] تفسيره والله أعلم: وأنتم أقلة. وقال تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة/149]، ومن كان الله معه لا يغلب، كيف والله تعالى يقول: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم/47]، والله تعالى يقول: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة/7] وقال تعالى: ﴿ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ

مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران/124] وقال: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [آل عمران/125 - 126]الآية، فالنصر لهذه الأمة ليس هو بالقوة ولكن بالتقوى والصبر لقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة/249] ومن كان الله معه لا يغلب.

وبالله الذي لا إله إلا هو لقد حضرت موطنا كنت فيه حاضرا بنفسي وشاهدته بعيني، وها أنا أحكيه لكم يا إخواني ليزداد المؤمنون إيمانا، وذلك أنني سافرت للجهاد فرأيت في الطريق رؤيا تدل على النَّصر من الله تعالى، فقصصتها على رفقتي نحو العشرين فارسا، فاستبشر بها أصحابي واطمأنوا بها، فبلغنا طنجة حين كانت دار قوم كافرين فدخلنا كمائنها بستة عشر فارسا وانعزل الباقون لموضع يستشرفون فيه على البلد، فخرج جيشها بخيله ورجاله وهي ثلاثة آلاف مقاتل، فلما رأينا القوم زحفوا لنا جيشا ونحن غائبون عن أعينهم، فقال بعضنا لبعض: انطلقوا بنا لجبل نتمنعُ فيه، فقال وأين رؤية فلان؟ والله لا رجعنا عن قتالهم أو نقتل عن آخرنا، ولكن نتعاهد ونأخذ الموثق من بعضنا ألا ننهزم أمامهم ولا نولّهم الأدبار أصلا ويكون موضع اجتماعنا حوض النبي صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته، ومن كان غرضه في الحياة الفانية فليخرج الآن ولا بأس ولا حرج عليه، وسمحنا فحملنا عليهم بخمسة عشر رجلا ولم يتأخر أحد سوى رجل كان به ألم بجسمه سائرا نحونا إلى أن خلط علينا في المعركة، فقتلنا منهم جماعة وأخذنا سلبهم وفرسا واحدا بلأمته، وانقهر الجميع ولم يتعرض لنا أحد منهم بسوء حتى كأنهم موتى، ونحن نخوض حول جيشهم إلى أن انصرفنا عنهم سالمين غانمين ولم يصب منا أحد بسوء سوى فرس واحد لبعض أصحابنا مات بكورة مدفع كبير، وركب صاحبه على فرس للروم، فلما رأينا ذلك النصر تيقنا أن النصر مقرون بالصبر ولا شك في ذلك والحمد لله على ذلك.

أليس هذه الأسرار كلها مواهب من الله سبحانه؟ وما ذكرنا من الأسرار الإلهية والخصائص الربانية إلا قليلا فنكست عما هو أعظم من ذلك، لأنه لا تحمله العقول، ولولا من كان معنا في تلك الحملة على العدو باقي في الحياة حتى الآن ما ذكرت منها شيئا، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الباب الثَّاني
في آداب الداخلين في هذه الطَّريقة من المؤمنين التَّائبين

اعلم يا أخي أن الآداب في اصطلاح أهل الحقيقة هو اجتماع خصال الخير. وقيل: هو أن تعامل الله تعالى بالمستحسن سرا وجهرا. وقيل: هو معرفة النفس. وقيل في قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم/17] معناه أنه حفظ آداب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم/6] معناه: فقهوهم وأدبوهم. وقال عليه السَّلام: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[1] وقيل: أدب أهل الدنيا الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم الرقيقة. ولهم في هذا الأدب تآليف كثيرة وأشعار ظريفة والعالم بذلك يسمى أديبا، فاعلم الفرق بين الأدبين، وعليك بالأدب النافع فاعلمه.

وأما أدب أهل الدين فهو رياضة النفوس، وأدب الجوارح وحفظ الحدود، وترك الشّهوات.

وأدب الخواص طهارة القلوب، وحفظ الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب في مواقيت الطلب وأوقات الحضور في مقامات القرب.

وقيل: كمال الأدب لا يصفو إلا في الأنبياء والصديقين. وقيل: يصل العبد بطاعته إلى الجنَّة، وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى، وبأدب أهل الدنيا يصل إلى أرباب الدنيا وينقطع عن خالق الدنيا فشتان ما بين الأدب والأدب.

وكان أبو علي الدقاق لا يستند إلى شيء قط. وقال الحريري: منذ عشرين سنة ما مددت رجلي وقت جلوسي في الخلوة، فإن حسن الأدب مع الله أولى. وقيل لابن

---

(1) قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى في الدرر المنتثرة من الأحاديث المشتهرة (ص: 11): "حديث) " أدبني ربي فأحسن تأديبي ". أبو سعيد بن السمعاني في أدب الإملاء من حديث ابن مسعود والعسكري في الأمثال وابن الجوزي في الأحاديث الواهية من حديث علي وقال لا يصح وصححه أبو الفضل بن ناصر

قلت: وأخرج ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن جده: "أن أبا بكر قال: يا رسول الله لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك؟ قال: أدبني ربي ونشأت في بني سعد "انتهى".

سيرين: أي الأدب أفضل مع الله؟ فقال: المعرفة بربوبيته والعمل بطاعته والشكر على السراء والضراء. وقال الحسن البصري: أنفع الأدب عاجلا وأوصلها آجلا التفقه في الدين والمعرفة بالله والاعتراف بمنة الله عليك. وقيل: ثلاثة خصال ليس معها غربة: مجانبة أهل الريب، وحسن الأدب، وكف الأذى. وقيل: مدَّ عطار رجله بين أصحابه وقال: ترك الأدب مع أهل الأدب. وقال الجنيد: إذا صحت المحبة سقط شرط الأدب. وقال أبو عثمان الصوفي: إذا صحت المحبة تأكدت على المحب ملازمة الأدب. وقال أبو علي الدقاق: إنما قال أيوب عليه السّلام: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء/83] ولم يقل: ارحمني يا رحيم، إنما ذلك منه حفظ لأدب الخطاب. وكذا قول عيسى عليه السَّلام: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة/118] وقال أيضا: ﴿ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ ﴾ [المائدة/116] ولم يقل: لم أقل، فهذه فوائد من أدب أهل الحقيقة يجب على المريد أن يستعمل فيها نفسه ويريضها على ذلك والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الباب الثالث
في كرامات الأولياء الصَّالحين

اعلم يا أخي أن كرامات الأولياء هي ما يكرمهم به الله تعالى من الأمور الخارقة للعادات. ووقوع الكرامة جائز عند جمهور أهل العلم والمعرفة. وفائدتها معرفة الولي الصَّادق من المدعي الكاذب بتعريف الله تعالى. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله عليه منها رداء يعرف به. ولا بدّ من كونها فعلا خارقا للعادة في زمن التكليف. والفرق بين المعجزة والكرامة، قيل: بدعوى النبوءة، واختاره القاضي أبو بكر وهو المعتمد. وقيل: وجوب الإظهار في المعجزة ووجوب الإخفاء والستر في الكرامة. وقيل: بالقطع وعدمه فالرسول يقطع بكون ذلك معجز ولا يقع له تخلف إن تحدى بها، ومن وقع له التخلف مع التحدي فليس بنبي، وإنما هو ساحر، وهذا الفرق بين المعجزة والشطارة كما وقع لسحرة فرعون فإنهم ادعوا وجود تلك الأفعال فأبطلها الله لهم بمعجزة موسى عليه السَّلام فأسلموا وحسن إسلامهم، لعلمهم بأن ذلك الفعل الذي أظهر الله لموسى بإحيائه له العصا فأكلت جميع حبالهم وعصيهم وحصل لهم الإيمان بما سبق لهم من العلم بالسحر فعلموا أن

جميع أفعالهم إنما هي تخيَّل، والفعل الذي أظهره الله على يد موسى حقيقة هـ.

ثمَّ قال الرَّازي رحمه الله تعالى: فالنَّبي يقطع بكون ذلك معجزة، والولي يجوز كون ذلك مكرا واستدراجا قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف/182 - 183] قال سهل بن عبد الله التستري: "المعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء والمعونات للمريدين والتمكن لأهل الحضور". وقال أبو علي الروذباري: كما أظهر الله تعالى على الأنبياء إظهار المعجزات فرض على الأولياء كتمان الكرامات لئلا يفتتن بهم الخلق. وقيل: عقوبة الأنبياء حبس الوحي والمعجزات، وعقوبة الأولياء إظهار الكرامات، وعقوبة المريدين التَّقصير في الطَّاعات. ثمَّ ظهور الكرامات تارة يكون بقصد الولي وتارة بغير قصده.

واعلم أن نهايات مقام الأولياء منقطعة عن مبادي مقامات الأنبياء، فالولي وإن جل حاله لا يصل إلى شيء من مقامات النبوءة دق أو جل، لأن الولي متبع والنبي متبع الأول بكسر الباء والثاني بفتحها، ومتى يقاوم الفرع الأصل أو يدانيه وبه قوامه وإليه مرجعه، ومن ظن خلاف ذلك فقد ظن خلاف الحق. وكرامات الأولياء معجزة لنبيها لأنَّهم تبع لهم وصدق التابع يدل على صدق المتبوع، ورتبة الولي من رتبة النبي ما ذكر أبو يزيد قال رحمه الله تعالى: ومثال ما حصل للنبي عليه السَّلام كزق مملوء عسلا رشحت منه قطرة فتلك القطرة تعدل كل شيء حصل لجميع الأولياء، والذي في الزق مثل ما حصل لنبينا سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

واختلف أهل الحقيقة في جواز معرفة الولي كونه وليا واختار الأستاذ أبو علي الدقاق جواز ذلك، قال الإمام القشيري: وبه نقول، خلافا لابن فورك. ومن عرف منهم ذلك كانت معرفته كرامة له، وعلم كل ولي بذلك ليس بموجب بل كل منهم له نوع كرامة ولو لم تكن له كرامة في الدنيا أصلا فلا يقدح ذلك في كونه وليا. ومن الدليل على جواز ظهور الكرامات قول صاحب سليمان عليه السلام: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل/40] ولم يكن نبيا. وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خطبته يوم الجمعة: "يا سارية الجبل" بلغ صوته إلى سارية في تلك السَّاعة فأخذ حذره من العدو، وكان سارية رضي الله عنه أميره على بعض جيوش المسلمين ببلاد المشركين بمصر من أمصار فارس فارتحل بجيشه بغزاة له وكان بإزاء جب منيع، وقد

كان العدو في جيش عظيم قاصدا نحو المسلمين فحذر عمر رضي الله عنه أميره وهو يخطب بمسجد نبينا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته فأمر سارية الجيش أن يلتجئ هنالك بجبل، فلما أخذ المسلمون مواضعهم من الجبل ظهر لهم العدو فقاتلهم، فهزم الله سبحانه المشركين، وركب المسلمون أكتافهم وغنموا غنيمة عظيمة ببركة عمر رضي الله عنه، فهذا دليل مكاشفة الولي. وقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران/37] وقوله تعالى: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم/25]ولم تك مريم نبية. وقصة أهل الكهف وتكليم الكلب لهم.

والذي يجوز كونه كرامة مثل إظهار طعام في غير وقته، أو ماء في وقت عطش، أو قطع مسافة بعيدة في مدة قريبة، أو تخلص من عدو، أو سماع خطاب من هاتف، أو نحو ذلك. بخلاف حصول إنسان لا من أبوين، وقلب الجماد حيوانا ونحو ذلك، فإنه لا يجوز ظهوره كرامة أصلا. وأمَّا رؤية الله تعالى في الدنيا فكذلك للإجماع ولابن فورك فيه قولان.

وممَّا جاء في إثبات كرامات الأولياء من الأحاديث الصَّحيحة ما جاء في الحديث الصَّحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وآله أنه قال: **"لم يتكلم في المهد إلَّا ثلاثة عيسى عليه السَّلام وصبي في زمن جريج وصبي آخر، فأما عيسى فقد عرفتموه، وأما جريج فراهب نسب إليه من ولد زنى فأنطق الله الصَّبي وقال: إني ابن فلان الراعي وبرأ جريج منه، وأما الآخر فصبي كان يرضع في حجر أمه فمر بها شاب جميل ذو شأوة فقالت: اللهمَّ اجعل ابني مثله. فقال الصبي: اللهم لا تجعلني مثله لأنه جبار من الجبابرة. ثم مرت بها امرأة ذكروا أنها زنت وسرقت فَقالت: اللهمَّ لا تجعل ابني مثل هذه. فقال: اللهم اجعلني مثلها، لأنها لم تزن ولم تسرق"**[1].

ومن ذلك حديث الغار، وهو مشهور في الصحاح[2]، وانفتاحه بدعاء الثلاثة بعد انصباب الصخرة على بابه وهو طويل فلم نشرحه.

وقال عليه السَّلام: **"بينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها إذ التفتت البقرة إليه**

(1) رواه البخاري (1268/3) ومسلم (1976/4) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(2) رواه البخاري (771/2) ومسلم (2099/4) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وقالت: **أنا لم أخلق لِهذا وإنما خلقت للحرث. فقال النَّاس: سبحان الله، فقال النبي عليه السَّلام: آمنت بهذا وكذا أبو بكر وعمر**"، وهذا حديث صحيح[1].

وذلك حديث أويس القرني وما شاهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه من حاله وقصته، وهو مشهور [2]، فتركت شرحه.

روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان في بعض الأسفار فلقي جماعة وقفوا في الطريق من خوف السبع فطرد السبع عنهم ثم قال: إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه، ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء وهذا من المشهور.

وقد ظهر من السَّلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم رضي الله عنهم من الكرامات ما بلغ حد الاستفاضة.

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي في غزاة، فحال بينهم وبين الموضع قطعة من البحر فدعا الله سبحانه وتعالى باسمه الأعظم فمشوا على الماء[3].

وروي أن عباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته ليلا فأضاء لهما عصا أحدهما كالسراج فمشيا في طريقهما، فلما افترقت بهما الطَّريق أضاء لكل واحد منهما عصاه[4].

وروي أنه كان بين يدي سليمان وأبي الدرداء قطعة فسبحت وسمعا تسبيحها.

واتفق أهل تستر على أن السباع كانت تأتي إلى سهل بن عبد الله التستري فيدخلها بيته ويضيفها باللحم ثم يخرجها.

وقال الحسن البصري: كان بعبادان فقير أسود يأوي الخراب فحملت معي شيئا وطلبته، فلما وقعت عيناه علي تبسم وأشار بيده إلى الأرض فرأيت الأرض كلها دقيقا يلمع، ثمَّ قال: هات ما معك فناولته، وسألني أمره فهربت.

وحكي عن الثوري أنه خرج ليلة إلى شاطئ دجلة فالتقى طرفها له، فقال: وعزتك لا أجوز هنا إلا في زورق ثم رجع.

وقيل لأبي يزيد: فلان يمشي إلى مكة في ليلته، فقال: الشيطان يمشي في ساعته

(1) رواه البخاري (1339/3) ومسلم (1857/4) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه مسلم (1968/4) وغيره من حديث عمر رضي الله عنه.

(3) رواه اللالكائي في كرامات الأولياء (ص: 150).

(4) رواه أحمد في مسنده (190/3) وابن حبان في صحيحه (376/5).

من المشرق إلى المغرب.

وقال سهل بن عبد الله: أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاقك بخلق محمود. وحكي عن أبي عمران الواسطي أنه قال: انكسرت السَّفينة فبقيت أنا وزوجتي على لوح فاشتكت إلي العطش، فقلت: الماء كما رأيتِ، فرفعت رأسي فإذا برجل جالس في الهواء وفي يده سلسلة من ذهب فيها كوز من ياقوت أحمر فدلاه إلي وقال: اشربا فأخذت الكوز وشربنا منه شرابا أطيب من المسك وأبرد من الثلج وأحلى من العسل. فقلت له: من أنت يرحمك الله فقال عبد لمولاه. فقلت: بم وصلت إلى هذا؟ فقال: تركت هواي لرضاه فأجلسني في الهواء، ثم غاب عني. وفي رواية تركت هواي لهواه فأجلسني على هواه.

وقال ذو النون المصري: كنت في سفينة فسرقت ياقوتة نفيسة فاتهموا بها رجلا رث الحال. فقلت لهم: دعوه حتى أرفق به فدنوت منه وهو نائم في عباية فأخرج رأسه منها، فقلت له في ذلك المعنى، فقال لي: تقول هذا: "أقسمت عليك يا رب أن لا تدع واحدة من الحيتان إلا جاء بجوهرة مثل التي ضاعت في هذه السَّفينة". قال: فرأيت وجه الماء كله حيتان في أفواهها جواهر، ثمَّ ألقى نفسه في البحر ومر إلى السَّاحل.

وعن آدم بن بشر قال: كنت في عسقلان وبها شاب يقعد معنا ويخالطنا، فقال يوما: أريد الإسكندرية، وودعنا فخرجت معه وناولته دريهمات فأبى أن يأخذها فألححت عليه فألقى كفا من الرمل في ركوة واستقى من ماء البحر فيها شيئا من الماء ثم ناولني، فقال: اشرب، فشربت فإذا هو سويق وسكر، فقال: من كان حاله معه هكذا يحتاج إلى دراهمك.

وقيل: إن معروف الكرخي كان يأتي في الليل من بغداد إلى مكة فيطوف بها ثمَّ يرجع في ليلته.

وقيل كان حبيب العجمي يرى يوم التروية بالبصرة ويوم عرفة بعرفة.

وقيل: كان الفضيل على جبل منى فقال: لو أن أولياء الله تعالى أمروا هذا الجبل أن يميد لماد، فتحرك الجبل، فقال له: اسكن لم أرد إلا ضرب المثال.

وقيل: كان عامر بن قيس يأخذ عطاءه ولا يستقبله أحدا إلا أعطاه شيئا، فكان إذا أتى منزله رمى إليه بالدراهم فتكون بقدر ما أخذ لهم.

وقيل إن واصلا الأجرب قرأ قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

[الذاريات/22] فقال: رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض والله لا طلبته أبدا، فدخل خربة ومكث يومين ولم يأته شيء فاشتدَّ ذلك عليه، فلمَّا كان في اليوم الثالث إذا بدوجلة رطب قد سقطت عليه، وكان له أم فجلست عنده على تلك النية فكان الساقط دوجلتين، ولم يزل ذلك حالهما حتى ماتا رحمهما الله تعالى.

وقال بعضهم: أشرفت على إبراهيم بن أدهم وهو في بستان يحفظه وقد أخذه النّوم، فإذا حية في فمها طاقة نرجس وهي تروحه بها.

وقال بكر ابن عبد الرحمان: كنا مع ذي النون المصري رحمه الله في البادية فنزلنا تحت شجرة أم غيلان فقلنا: ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رطب، فتبسم ذو النون وحرك الشجرة ودعا فتساقطت رطبا جنيا فأكلنا حتى شبعنا، ثم نمنا وانتبهنا فحركناها فتناثرت علينا شوكا.

وكان أبو سعيد الخراز يمشي على ساحل البحر فتوجه إلى الصين فرأى شابا حسن الصورة وبيده ركوة ومحبرة وعليه مرقعة فنظر إليه أبو سعيد منكرا إذ حمل المحبرة فقال: يا فتى كيف الطريق إلى الله تعالى؟ فقال: يا أبا سعيد أعرف إليه طريقين: طريق عام وطريق خاص، فالطَّريق العام هو الذي أنت عليه والطَّريق الخاص هو هذا فهلم إليه ومضى على وجه الماء في البحر حتى غاب.

وقال حاتم الأسود: كنت مع إبراهيم الخواص في البادية فبتنا عند شجرة فجاء السبع فصعدت الشجرة وبت فيها إلى الصباح لم يأخذني نوم والسبع يشم إبراهيم من رأسه إلى قدمه زمانا طويلا ثم تركه ومضى، فلما كانت الليلة الثانية بتنا في مسجد قرية فقرصته في وجهه نملة فأنَّ من وجعها فقلت: هذا عجب، البارحة لم تجزع من الأسد والليلة تقلق من النَّملة؟ فقال: تلك الحالة كنت فيها بالله تعالى وهذه أنا فيها بنفسي.

وقال أبو سُليمان الداراني: خرج عامر بن قيس إلى الشام ومعه شكوة يحمل فيها ماء ليشرب منه ويتوضأ به للصَّلاة وإذا بشاب صب منها لبنا يشربه.

وقيل: كان أبو معاوية الأسود قد ذهب بصره، فإذا أراد أن يقرأ في المصحف فتحه فرد الله عليه بصره، فإذا فرغ كف بصره.

وقال أحمد بن الهيثم: رأيت بشرا الحافي يمشي على الماء فسألته الدعاء لي فدعا لي، ثم قال: استر علي فما ذكرت حتى مات.

وقد كان أبو تراب النخشبي مع أصحابه في طريق مكة فعطش بعض أصحابه

فضرب الشيخ برجله الأرض فانفجر منها عين ماء زلال، فقال الفتى: أحب أن أشربه في قدح، فضرب الشيخ بيده الأرض فناوله قدحا من زجاج أبيض كالبلور، فشرب وسقى أصحابه ومازال القدح معهم إلى مكة.

وجاء جماعة من أصحاب عبد الرحمان ابن زيد وشكوا إليه الضيق والفاقة، فرفع رأسه إلى السَّماء وقال: اللهم إني أسألك المرتفع الذي تكرم به من تشاء من أوليائك وتلهمه الصفي من أحبائك أن تأتينا برزق من عندك نقطع به علائق الشيطان من قلوب أصحابنا هؤلاء فأنت الحنان المنَّان القديم الإحسان، فتناثرت عليهم من السقف دارهم ودنانير فقسمها بينهم ولم يأخذ منها شيئا.

وقال إبراهيم بن شيبان: صحبني شاب حسن الإرادة فمات فاشتغل قلبي به جدا، وتوليت غسله، فلمَّا أردت غسل يديه بدأت بشماله من الدهشة فأخذها مني وناولني يمينه.

وقال أبو يعقوب النهرجاني: كنت بمكة فجاءني فقير ومعه دينار فقال لي: إذا كان غدا فإني أموت فجهزني بهذا الدينار، فعجبت من قوله، فلما كان الغد جاء وطاف ثم مضى وتمدد ومات رحمة الله عليه، فجهزته كما أمرني.

وحكي عن علي بن سهل الأصبهاني البقال: ترون أني أموت كموت الناس مرض وعيادة إنما أُدعى فأجيب. وكان يمشي يوما فقال: لبيك، ومات.

وقال حاتم الأسود: كنت مع إبراهيم الخواص بالبادية فبقيت سبعة أيام طويا فضعفت فقال: أيما أشهى إليك الماء أو الطعام؟ فقلت: الماء. فقال: الماء وراءك فالتفت فإذا خلفي عين ماء كأنها الحليب فشربت منها وتطهرت، وإبراهيم ينظر إلي ولم يقربه هو، فلما أردت القيام دنوت لأتزود منه فقال: أمسك فإنه ليس مما يزود به.

ومن المشهور أن عبد الله الوراق كان مقعدا وكان إذا أظهر به في السماع وجد قام.

وقال الخواص: كنت بالبادية مرة فقِلت على ماء تحت شجرة فإذا سبع عظيم قد أقبل فاقترب مني رأيته يفرخ بجسم وبرك بين يدي ووضع يده في حجري، فنظرت فإذا يده مشبخة فيها دماء وقيح فأخذت عودا وفجرتها وشددت عليها خرقة فقام ومضى، فإذا به بعد ساعة قد أقبل ومعه شبلان يبصبصان لي ومعهما رغيف فوضعاه بين يدي.

وقيل: كان أبو عبد الله الديلمي إذا نزل منزلا في السفر قال لحماره في أذنه: كنت

أريد أن أشدك فتركتك ترعى في هذه الصحرى فاذهب وإذا أردت الرحيل فتعال، فكان الحمار يذهب فإذا كان وقت الرحيل جاء.

وقال أبو عبد الله بن خفيف: دخلت بغداد قاصدا الحج وفي رأسي نخوة الصوفية ولم آكل الخبز أربعين يوما، ولم أدخل على الجنيد، وخرجت ولم أشرب، إلى أن بلغت - زيالة - وهو اسم موضع وكنت على طهارتي فرأيت ظبيا على رأس بئر وهو يشرب منها وكنت عطشانا فلمَّا دنوت من البئر ذهب الظبي وغار الماء إلى أسفل البئر فمضيت، وقلت: فمالي محل هذا الظبي، فسمعت هاتفا يقول: جربناك فوجدناك ما تصبر ارجع واشرب الماء، فرجعت فإذا البئر ملآنة فشربت وملأت ركوتي ومضيت وبقي الماء فيها فمازلت أشرب منها وأتوضأ وهو لا يفرغ حتى بلغ المدينة، قال: ولما استقيت سمعت هاتفا يقول: الظبي جاء بلا ركوة ولا حبل وأنت جئت بهما، فلما رجعت من الحج دخلت الجامع فأول من رأيت الجنيد فقال لي: لو صبرت ساعة لنبع الماء من تحت رجلك.

وقال أبو الحسن القراضي: زرت أبا الخير السناني فلما ودعته خرج معي إلى باب المسجد وقال: يا أبا الحسن أنا أعلم أنك لا تحمل معك معلوما ولكن احمل هاتين التفاحتين، فأخذتهما ووضعتهما في جيبي فسرت ولم يفتح لي بشيء ثلاثة أيام فأخرجت واحدة منهما وأكلتها، ثم أردت أن أخرج الأخرى فإذا هما جميعا في جيبي، فكنت آكلها وتعودان هكذا إلى باب الموصل، فقلت في نفسي: إنهما يفسدان علي حال التوكل إذ صارتا معلومتين فأخرجتهما من جيبي فنظرت فإذا فقير ملفوف في عباءة يقول: أشتهي تفاحة، فناولته إياهما فلمَّا عبر عني وقع إلي أنَّ الشيخ إنما بعثهما إليه فرجعت إلى الفقير فلم أجده.

قلتُ: وتتبع حكاية الصَّالحين لا تتناهى كما أن فضل الله على أوليائه لا يتناهى، ولكن لا تظهر كرامة الولي إلا للمصدقين من أهل زمانه لكثرة مخالطتهم إياه، وأما المكذبون والمنكرون فلم يشاهدوها وإن سمعوا بها، حتى أنهم إن رأوها وشاهدوا بأبصارهم فإنهم يكذبون بها ويحملونها على السحر. قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح/23] الآية.

وانظر أنه ما كان رسول قط ولا نبي ولا ولي إلا وافتراق الناس فيه فرقتين: فرقة مصدقة وفرقة مكذبة، فالمصدقون يحبونهم ويقتدون بهم ويؤمنون بهم ويتبعونهم،

والمكذبون يكذبونهم ويبغضونهم ويتباعدون عنهم ويؤمنون بهم ويجحدون ما يظهر الله على أيديهم. قال بعض العارفين: من علامة الصديقية كثرة الأعداء وقلة المبالاة بهم، لكن لا يقع الاتفاق على الولي إلَّا بعد موته، وهذه سنة الله في الأنبياء والأولياء والصديقين.

فانظر إلى سيدنا ومولانا محمد ﷺ مع قريش الذين هم أقرب النَّاس نسبا، كيف بغضوه بعد المحبَّة، وكيف جحدوه بعد المعرفة، وكيف اختلفوا في تصديقه، فمنهم المصدقون والمكذبون، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الطور/11] وهو صلَّى الله عليه وسلَّم مع قلة أصحابه وانفراده لأجل هجرتهم وكثرة أعدائه لم يزل يقرعهم بالآيات والمعجزات والتوبيخ لهم في كل الحالات ولم يبال بكثرتهم وشدة بأسهم إلى أن أظهر الله أمره، وقهر الله أعداءه ونصره، وأظهر الله دينه على الأديان، وقهر قريشا وردهم للإسلام بالسَّيف، وكسر الأصنام، فأيد الله الصديقين وأعلى درجاتهم في أعلى عليين، وخذل الله الجاحدين، وقطعت رقاب الكافرين، وسفهت أحلام المكذبين، وأسكنهم الله في دركات الجحيم إلى أسفل سافلين، وهكذا حال أولياء الله بعده إلى يوم الدين، هذا مصدق يشيع ذكرهم، وهذا مكذب يجحدهم ويخفي بركاتهم وشأنهم، لكن المصدقون يرفعهم الله، والمنكرون يخسؤون بمَكر الله، ولا يزال الأمر هكذا في كل زمان بأمر الله.

قال والدي عبد المجيد بن يوسف الشريف الحسني المدعو عليوات الزجني في تأليفه بشرى السعادة في طريقة أهل الإرادة حين انجر به الكلام إلى ما ذكرناه هنا قال رحمه الله: ومن ينظر الخلق بعين الحقيقة رآهم يتقلبون في قبضة القدرة {ليس لك من الأمر شيء}، ومن رأى الظواهر حجب عن البواطن، والذي ينكر على الأولياء يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان/31] هذا النبي فأحرى الولي ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح/23] ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ﴾ [الذاريات/ 52 - 53] الآية. ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ ﴾ [الزخرف/ 7] لكن جعل الله تعالى لحوم الأنبياء ولحوم الأولياء مسمومة من مسها بسوء أثرت فيه بانتصار الله لهم لا بانتصارهم لأنفسهم، وقد تختلف الأحوال بسبب الأوقات كما قلنا

قبل. انظر بشرى السعادة المذكورة هـ.

فقال هنا رحمه الله: مثل سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو أحد العشرة لما ادعت عليه امرأة أنه أخذ من بستانها شيئا فقال: اللهمَّ إن كذبت علي فاعمها وأمتها من يومها. فعميت من وقتها ثم أرادت الرجوع إلى منزلها فسقطت في بئر وماتت من يومها[1].

قال سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله: إنما عجل عليها الصحابي لأنها أرادت أن تظهر الباطل في بحبوحة الحق، وإذاية الصحابة رضوان الله عليهم إذاية لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله.

قال تاج الدين في لطائف المنن: اعلم أن الأولياء في بدايتهم تسلط عليهم الخلق ويردهم الله إليه بهم حتى لا يبقى لهم نظر لغير وجهه الكريم، ولهذا قيل: من آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود أمثاله لقوله عليه السَّلام: "**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها**"[2] قال أبو الحسن: فروا من خير النَّاس أكثر ممَّا تفرون من شرهم، فعدو تصل به إلى الله خير من حبيب يقطعك عن الله. وكان كثيرا يقول في دعائه: اللهمَّ إن القوم حكمت عليهم بالذل حتى عزوا وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا فكل عز يمنع دونك فنسألك ذلا تصحبه لطائف رحمتك وكل وجد يحجب عنك فنسألك بدله فقدا تصحبه أنوار محبتك.

وكم من آية في القرآن تدل على تسليط الخلق على أهل الله تعالى منها قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف/110].

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص/5] ومنها قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة/214] وقوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾ [الأحزاب/11 – 12] فسنَّة الله في خلقه تسليط الخلق على الأولياء بالإذاية،

(1) رواه مسلم في صحيحه (1230/3).

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان (481/6) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولن تجد لسنة الله تبديلا، والسنة هنا هي العادة، لكن أكثر ذلك غالبا إنما يكون في البداية وقد يكون في البداية والنهاية وقد يكون في النهاية دون البداية كما قدمناه، فسنة المصدقين لا تنقطع إلى قيام السّاعة، وكذلك عادة المنكرين لا تنقطع إلا بانقطاع أهل الله، وأهل الله لا ينقطعون من الأرض إلى قيام السّاعة، فلكل عصر رجال، ولكل رجال أحوال، ولكل حال مصدق ومنكر لا سيما القراء المداهنين والمتصوفة الجاهلين والجبابرة المتكبرين فهم أشد عليهم من غيرهم من النّاس.

قلت: وإن كان الأولياء يخفون الكرامات فقد أظهرها الله تعالى على أيديهم ظهور نار القرى ليلا على علم حسبما ذكرنا بعض ذلك هنا.

وأما لو قال بعض المنكرين والمكذبين: قد انقطع الأولياء الآن ولو بقي منهم أحد لظهر على يده مثل ما ظهر على يد المتقدمين، ولو ظهر شيء من ذلك لذكره مؤلف هذا الكتاب ليحتج على أن الأولياء موجودون في هذا الزمان. قلت: والله إن الأولياء لموجودون في هذا الزمان وغيره، وكيف ينقطعون وهم ركائن الدنيا، لكن أخفاهم الله تعالى فلم يطلع عليهم إلا أمثالهم، والله لقد سمعنا من بعض تلاميذ المتأخرين من وجوه الكرامات ما لا يحصى عددا، لكن الصديقون يشيعونها ويذكرونها ويثبتونها، والمنكرون يكذبون بها ويهزؤون بصاحبها وذاكرها، وربما يفتخر الأبناء بكرامات الآباء ويعتمدون عليها ويقعون في مخالفة الشرائع ويقعون في المعاصي والبدائع، وذلك هو الذي ردنا عن ذكر ما يثبت عندنا من كرامات والدنا ووالده وأخته وعمه ممّا تلقيته من أصحابهم وأحبابهم والمعاصرين لهم لكن ردنا عن ذكر ذلك أمر، منها أن شهادة الأبناء للآباء ساقطة شرعا وممقوتة طبعا، وأيضا تفسد الذرية ويقعون بها في البدعة والرزية، لأن الفخر بالأنساب لم يزل في هذه الأمة وإن كان منهيا عنه وناقضا للمروءة والحرمة، فنذكر هنا قصيدة من نظمنا يكون فيها موعظة للأولاد ولمن يهديه الله من الفقراء والشرفاء الأنجاد، إذ لعلها تنقذهم من الزيغ والفساد، وينقادون بها إن شاء الله تعالى للسداد والرشاد فقلت في ذلك:

أيا من له جد ولي مورّ ... أو والده قطب حوى رتبة الخير

إذا لم تزاحم والديك على الهدى ... ولم تقتف الأخيار في عمل البر

ولم تخش رب الخلق فيما أريده ... ولم تذكر المولى في سر ولا جهر

ولم تنه نفسك الخبيثة عن هوى ... ولم تترك الدنيا ولا عمل الشر

فأنــت رئـيس الــشر لا شــك هالــك فـلا تـرج خيـرا يـا خبيـث مـدى الدهـر
أبــوك هــو الــشيطان إن أطعــت أمــره وأنـت مـن حـزب الغـي والـزيغ والخـسر
فــلا تــنفع الأنــساب إن كــنت عــاقلا فكـل رهـين الكـسب فـي الـشر والخيـر
فـــلا يـــنفعن والـــد ولا غيـــره إلا بعـــد إذن الله يـــشفع ذو البـــر
فلـست بـناج يـا أخـي مـن الـردى ولـو كـنت أنـت القطـب حقـا بـلا نكـر
وهـب جـدك مـثل الـسراج فـي نـوره فيـسرج ألفـا مـن بـيوت ذوي الخيـر
فهـل يـنفع المـصباح مـن كـان خارجـا من البيت وهو في ظلام الهوى يسري
وأحـــرى بالـــوزر والعـــيب أكمـــه وسـار فـي سـبل الـشر فـي بلـد وعـر
ومـــن يقتفـــي ذا الـــنور ســار بــسيره حمـيدا لـه أو كـان مـن بلـد الكـور
فلـــم ينـــتفع بالـــنور إلا رفـــيقه فـذو نـسب كالغيـر فـي الـنَّفع والـضر
ولـو كـنت مـصباحا فـي الـسورة مـثله بكـونك مـن نـسل الولـي بـلا نكـر
فـإن كـنت مـن أهـل الهدايـة يرتجـى لـك الخيـر مـن فـضل الإلـه بـلا عـسر
وإن كـنت مـن أهـل الغـواية والـردى فلـم تنـتفع بالـوالدين مـدى الدهـر
فـــلا تغتـــر بالمثلـــية بجـــسمه فمـــصباحه يـــضوي بـــدهن مقـــدر
وأيـن لـك الأدهـان يـا خبـث الـورى وقـد ذهبـت يـا صـاح مـن كثـرة الـوزر
ومـا مـصباح بـيدي لـذي الجهـل نـوره مـع فقـده الأذهـان إذ هـو ذو حـصر
ولا أنـــه يمـــد دهـــنا لنفـــسه وأحـرى لغيـره كـذا الجـد فلـتدر
ورب المـــصابيح الجمـــيع بفـــضله هـو معطيها الادهـان فـي البـر والبحـر
فطعــه ولا تعــصيه إن كــنت ســالكا سـبيل الـنجاة سـر مـع مـن لـه يـسر
ولا تـشرك المخلـوق فـي فعـل خالـق فالجـد وغيـره موصـوفون بالفقـر
فالمعطـــي هـــو الإلـــه جـــل جلالـــه لعـبد تقـي لا لـذي الفـسق والـضر
والفاعـــل هـــو اللـــه مـــن دون غيـــره فـي كـل الأمـور لا لعـبد ولا حـر
فكـــل شـــريف أو دنـــي فـــي قهـــره يخـص الـذي يـشاء بالخيـر والـشر
فـلا والـذي ينجـيك مـن أسـد شـره إذا شـاءه الإلـه قـصر مـن الفخـر
فـــلا تأثيـــر ولا اختـــيار لغيـــره ولكـــنما التأثيـــر لله ذي القهـــر
فـــثِق بالإلـــه يـــا أخـــي ولـــذ بـــه ودع عـنك جـاه الـوالدين مـدى الدهـر

فــلا معطـــي الخيـــرات إلا إلهـــنا فهـو الـذي يبلـي وهـو الـذي يـبدي
ولا تـــتعاظم بالـــذي هـــو هالـــك ولكــن تعـزز بالإلـه الـذي يـدري
فــلا ولــد ينجــي بطاعــة والــد ولا ولــد ينـضر مــن أب ذي شــر
وكـل امـرئ مـرهون فـي سـر كـسبه فأكــرمكم أتقــاكم بــنص الذكــر
ألـيس لكـل الـنَّاس إلا مـا قـد سـعوا ألا فاكتــسب خيــرا لتظفــر بالأجــر
ودع عــنك حــظ الـنفس كلـه جملـة وفخـرك بالأنـساب مـن أعظـم الـوزر
كـــمن يفتخــر بــالعلم أو بعــبادة فـذلك محـروم مـن الأجـر والخيـر
ففخـــرك بالأنـــساب لـــيس بـــنافع ولكـــنه ينــضر مـــنه ذوو الفخـــر
فنـــسبة مـــسلم دنـــي لفاخـــر لعلهــا خيــر مــن أثنــى لــذي قــدر
لأن الـــذي يـــسمو لأرفـــع منـــصب بـلا حجـة يهـوي سـريعا ولا يـدري
وأمـــا صـــغير القـــدر لا عـــز عـــنده تجـــده قـــريبا للـــنجاة بـــلا نكـــر
لأن الإســلامي لــيس يرجــى لنفــسه سوى سيد الكونين في السر والجهر
فهــل هــذا خيــر أم رجــال تعلقــوا بآبــائهم والفعــل خــال مــن الخيــر
فمـــن يـــستند لله يكفـــيه ربـــه ومــن يـستند للغيـر قـد بـاء بالخـسر
فهـــذي وصـــية لنفـــسي وضـــعتها وللأهـل والأصـحاب مـع مـن بهـا يقـر
وصـــلى إلـــه الخلــق جــل جلالــه على سيد الكونـين في موقـف الحـشر
محمَّـــدنا خيـــر النَّبيـــين كلهـــم علـيهم سـلام الله فيـضا بـلا حـصر
وآلــه والأصــحاب مــع كــل تابــع لـــسنة والله يهديـــنا للخيـــر

وصلى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليما.

قلت: وإنما جاء الجحد والإنكار في كرامات المعاصرين لأهل هذا الزمان، لكون الكرامات أمر أصحابها بكتمانها وهي بخلاف المعجزات التي أمر المرسلون بإظهارها لإظهار الحجج على المنكرين والمكذبين والجاحدين الكافرين، فلما كانت الكرامات من خير الأخفى فإنهم كانوا رضي الله عنهم إن أظهر الله على أيديهم بعض الكرامات فإنهم يصونوا من حضر بكتمانها ويخوفونهم، فمن أفشى هذا السر في حياتنا يكون له كذا وكذا، فيخشى الناس ذلك ويسترونه، والأمر المستور كأنه من حيز العدم لا يثبت بالبينة، لا سيما وقد خوف من يعلم ذلك أن ينطق به فأحرى الشَّهادة وتأديتها فهذا أمر

لا يكون.

وقد قال والدي رحمه الله تعالى حين تعرض لذكر هذا المحل في تأليفه بشرى السعادة قال رحمه الله: فإن قال قائل: إن الأولياء الماضين ظهرت على أيديهم الكرامات وخوارق العادات الصحيحات حتى اتفق عليهم، وهذا الزمان لم تظهر الكرامات على أحد فيه كما كانت تظهر على من تقدم. فالجواب: الذين ظهرت الكرامات عليهم فيما تقدم لم يرها عليهم إلا تلاميذهم المتبعين لهم الملازمين محضرهم في السفر والإقامة، وإلا فانظر حكايات أعيانهم رضوان الله عليهم كيف كان حالهم مع المنكرين عليهم، فانظر إلى سيدي الحلاج[1] رضي الله عنه كيف قتلوه، وإلى سيدي أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه كيف جادلوه، وإلى سيدي عبد القادر الجيلاني[2] رضي الله كيف أخرجوه وإلى سيدي أبي العباس السبتي[3] رضي الله عنه كيف زندقوه، وإلى سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه كيف سجنوه، وإلى سيدي بهلول المجنون[4] رضي الله عنه كيف أهانوه، وإلى سيدي علي بن حرازم[5]

(1) الحسين بن منصور الحلاج، أبو مغيث البيضاوي ثم الواسطي. صحب الجنيد والنوري وغيرهما. واختلف فيه المشايخ، فرده أكثرهم. وابن خفيف والنصرآبادي وغيرهم. قتل بسيف الشرع ببغداد سنة 309 هـ. ومن كلامه: حجبهم بالاسم فعاشوا، ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا، ولو كشف لهم عن الحقيقة لماتوا ". (طبقات الأولياء لابن الملقن ص 31).

(2) أبو صالح سيدي عبد القادر الجيلي وهو ابن موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين ولد رضي الله عنه سنة 470 هـ، وتوفي سنة 561 هـ، ودفن ببغداد رضي الله تعالى عنه وقد أفرده الناس بالتآليف. (ص 125).

(3) أحمد بن محمد بن أحمد اللخمي الفقيه المحدث الرئيس أبو العباس بن الخطيب أبي عبد الله السبتي المعروف بالعزفي بالعين مفتوحة والزاي مفتوحة والفاء سمع الكثير وأجاز له ابن بشكوال وكان ذا فضلٍ وصلاح صنف كتاباً في " مولد النبي " صلى الله عليه وسلم وجوده، وكان ذا فنون، وألف في الحديث أجزاء مفيدة، وتوفي سنة 633 هـ. (الوافي بالوفيات 500/2).

(4) بهلول المجنون اجتمع به هارون الرشيد فقال له الرشيد كنت أشتهي رؤيتك من زمان فقال لكني أنا لم أشتق إليك قط، فقال له عظني فقال بم أعظك هذه قصورهم وهذه قبورهم ثم قال: كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق تعالى بين يديه فسألك عن النقير والفتيل والقطمير وأنت عطشان جيعان عريان، وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون! فخنقته العبرة وكان بهلول مجاب الدعوة وأمر له الرشيد بصلة فردها عليه. (الطبقات الكبرى ص 65).

(5) سيدي علي حرازم بن العربي برادة المغربي، الفاسي، التيجاني. صوفي من أهل الطرق، من =

كيف سجنوه، وإلى سيدي أبي عزة رضي الله عنه كيف جهلوه. وانظر إلى أئمة الظاهر منهم سيدنا مالك بن أنس رضي الله عنه كيف جلدوه، وإلى سيدي أحمد بن حنبل رضي الله عنه، إلى غير ذلك من السادات الذين حكاياتهم مشهورة هـ.

قلتُ: وانظر إلى مولانا عبد السَّلام بن مشيش[1] رضي الله عنه كيف قتلوه، وإلى سيدي محمد بن الحلاج كيف قتلوه وقطعوا رأسه، وإلى أئمة المتأخرين المعاصرين لنا منهم سيدي أبو عزة بن شحموط كيف قتلوه، وإلى سيدي أحمد فازار كيف قتلوه وغيبوا قبره، وبعد موتهم لم يزل الناس يتحدثون بكراماتهم الكثيرة وخوارق العادات التي ظهرت على أيديهم العديدة. وانظر إلى سيدي عبد الرحمن المجذوب رحمه الله كيف ضربوه في القصر وركلوه وأخرجوه بأمر الحاكم والقاضي والخطيب والفقهاء والعامة وفي ذلك قال رحمه الله تعالى:

أَلْـي يقـول اللـه اللـه يطـردوه القـصْريـينْ
أيخـرجوه مـن بـاب الـواد ويبيـتـوه الحليـينْ

وانظر كيف وقع الاتفاق عليهم جميعا بعد موتهم رضي الله عنهم، قال والدي رحمه الله تعالى في الكتاب المذكور في هذا المحل: فانظر إلى الطاعنين في هؤلاء السادات كيف كانت عاقبتهم، ولم يكن الطاعن فيهم إلا أهل دولة زمانهم. وانظر إلى هؤلاء السادات كيف أظهر الله تعالى مذمتهم فمن لم يتعظ بهؤلاء لم تنفعه موعظة، فالسعيد من اتعظ بغيره، والشَّقي من اتعظ بنفسه. فانظر إلى هؤلاء هل لم ينتفعوا بموعظة، وانظر إلى هؤلاء هل سمعوا بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات/12] وإلى

=

تصانيفه: جواهر المعاني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني فرغ منها في أواسط ذي القعدة سنة 1214 هـ، والإرشادات الربانية بالفتوحات الإلهية من فيض الحضرة الأحمدية التيجانية. (معجم المؤلفين 57/7).

(1) عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر منصور بن علي الإدريسي الحسني، أبو محمد: ناسك مغربي، اشتهر برسالة له تدعى " الصلاة المشيشية " شرحها كثيرون، وأحد شروحها مطبوع. ولد في جبل العلم، بثغر تطوان، وقتل فيه شهيدا، قتله جماعة بعثهم رجل يدعى ابن أبي الطواجين الكتامي (ساحر متنبئ) ودفن بقنة الجبل المذكور. ولأبي محمد عبد الله بن محمد الوراق رسالة في مناقب ابن مشيش. (الأعلام 9/4).

قوله تعالى: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر/28] وقوله صلَّى الله عليه وسلم: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[1] فمن لم ينته من كلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته فهو عدو لله، فهكذا جرى في الأولياء، وهكذا جرى في الأنبياء.

ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران/146 - 147] فمن يسمع بخيبة المنكرين في الأنبياء والأولياء ويتبع طريقتهم، فمن غرق في بحر الخذلان والعياذ بالله، ومن سمع بطريقة المصدقين في الأنبياء ولم يتبعها فقد وقع في بحر الحرمان. فكما لم يروا المنكرين في ذلك الزمان تلك الكرامات الواضحات التي ظهرت على الأنبياء والأولياء في تلك الأعصار، أي: في زمانهم، فكذلك لم يروا أهل الإنكار في هذا الزمان الكرامات التي ظهرت على يد أهل الزمان.

واعلم أن المنكر لم يكن له الإنكار والتكذيب إلَّا ظنا لإصلاح الدين لا أنهم كانوا يعتقدونه كفر مبين، فهذا عذر عن المنكرين، ولكن لأجل ذلك هم من المحرومين مع ما وقعوا فيه من الجهل العظيم الظاهر المبين لمنع المنكر خصوصية رب العالمين لأحد من المؤمنين، ألم يسمعوا قوله تعالى: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران/74] فمن حدد مشيئة الله فهو جاهل بلطف الله، ومن كان جاهلا بلطف الله فهو جاهل بالله، ومن كان جاهلا بالله وبأحكام الله فقد كاد أن يكون كافرا وهو لا يشعر لقول النَّبي صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: «**كاد الجهل أن يكون كفرا**». ويبين لك جهله كونه يطمع أن يصلح دين غيره، وهل الصلاح في الدين يكون مما لم يصلح دينه؟ ولم يصلح دينه إلا من كان الله وليه لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف/196] فإن زعم أنه قد أصلح دينه فيكون إذا وليا، كيف وهو يقول بانقطاع

---

(1) سبق تخريجه.

الأولياء، وإن شهد على نفسه بفساد دينه فيكون قد حاز نقطة الجهل كلها، لأنه لم يقدر على إصلاح نفسه فكيف يطمع في إصلاح غيره، فلم يبق إلا أن يكون ذلك زيادة في فساده وضلالته فيكون يتكلم برأيه وشهوة نفسه وهواه والعلم عنه بمعزل، فيكون يرى النقص في عين الكمال ولا يدري، فيكون يظن أنه يصلح في الدين وهو يسعى في فساده وهو لا يشعر هـ.

ثم قال بعد ذكر وجوه كثيرة في احتمال كلامه وبيان فساد تلك الاحتمالات كلها تركناها لئلا يطول الأمر في ذلك، ومن أراد كثرة الكلام في هذا المعنى فلينظر كتاب الأصول لأبي علي صالح[1] رحمه الله.

ثم قال الوالد رحمه الله: فانظر في أي مهوى يهوي الطَّاعن في أحد من المؤمنين والعياذ بالله، هذا إن كان كلامه لشخص معيَّن. وأما إن كان عاما فظاهر كلامه حيث قال: ما بقي في هذا الزمان ولي، أنه نقص بأمة سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته وأتباعهم جميعا وزول منهم البركة التي جعل الله فيهم بدليل قوله صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: «أمتي كالمطر لا يدرى أوله خير أو آخره» وأنه قطع عن الله تعالى أن يتولى أحدا منهم، فيا عجبا بأي دليل قطع على الله؟ وبأي قلب اعتقد ذلك؟ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج/46]. ألم يتدبر قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى/13] فهل سمع في ذلك تحديدا لزمان؟ وقد خرج عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: «**لا يزال في أمتي سبعة لا يدعون الله بشيء إلا استجاب لهم بهم ينصرون وبهم يمطرون**» قال: وأحسبه أنه قال: «وبهم يرفع عنهم البلاء»[2] فانظر فيما يكون جوابه يوم السؤال حين قال صلَّى الله عليه وسلم: "لا يزال". وقال الطاعن: انقطعوا، فيا لها من رزية هـ.

وقد اختصرت بعض كلام أبي علي صالح أصلح الله حالنا وحاله آمين أنه قال بمعنى قوله لا بلفظه: فالقائل بانقطاع الأولياء يقع في تكذيب القرآن وذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

(1) لا أظن أنه أبو علي صالح بن محمد الأسدي البغدادي جزرة الحافظ الكبير فليتبين من يكون؟.

(2) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء (ص: 30).

وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الواقعة/10 – 14] وقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص/24] وقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ/13] وقال صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: «**في كل زمان من أمتي سابقون**»[1] والقائل بانقطاع الأولياء كأنه يرد معنى هذه الآيات والحديث المذكور وهو مع ذلك يفرح بحسن رأيه وفهمه الخبيث والعياذ بالله، ولكن أردت أن أتكلم معه هنا، أي: ومع كل من يقول هذا القول فنقول له: كأنك اطلعت على أهل المشرق والمغرب وسائر الأمة، واطلعت على اعتقادهم وما بينهم وبين الله تعالى من الهدي والضَّلال، وفتشت القلوب كلها فلم تجد في الدنيا وليا، فأمَّا الاطلاع على أمة سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته وعلى جميع أهل البلاد كلها ومعرفتهم وهو لم يدخلها ولم ير أهلها، وكذلك الاطلاع على القلوب وما فيها فذلك كله بحسب العادة محال، وهو لا يتصور في العقل وجوده، فلا يتصور في العقل أن يطلع على جميع أهل الدنيا وهو لم يدخلها وعلى ما في القلوب وهو لم يدخلها، والاطلاع أيضا على ما في القلوب وهو لم يدخلها والدخول في القلوب محال وأيضا فهو بحكم العادة لا يعلم ما في قلوب أهل مجلسه، فأحرى أهل بلده ووطنه، وأحرى ما لا يدخله من البلاد وما لا يراه من المسلمين فبهذا يسفه قوله ويطرح من أصله.

قلنا وإن قال: ما سفهتم قولي وطرحتموه إلا بحكم العادة، وأما بنور المكاشفة الصَّحيحة فقد اطلعت بها على أهل الدنيا كلهم فلم نجد فيهم وليا. فيقال له: المكاشفة العامة السَّالمة لا تكون إلا لولي وتمتنع أن تكون لغير ولي. فإن قال: وأنا ولي، فيقال له: وكيف تقول بانقطاع الأولياء وأنت ولي؟ فيكون حاله يكذب مقاله. وهذا ما تيسر لنا من كلام أبي علي صالح رضي الله عنه، ومن أراد أن يطالعه بلفظه وطوله فلينظر كتابه المذكور فهو عجيب والله أعلم وهو الموفق سبحانه.

الباب الرابع
في فراسة الواصلين العارفين

اعلم يا أخي أن الفراسة في اللغة: التثبت والنظر، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي مكاشفة ومعاينة الغيب. وقيل: مطالعة الغيوب بنور اطلاع الله تعالى على القلب، وإلى

(1) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (8/1) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ذلك أشار النبي عليه السَّلام: «**المؤمن ينظر بنور الله تعالى**» وفي رواية أخرى «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**»[1] وقيل: هي خاطر يهجم على القلب فيبقى ما يضاده وله على القلب حكم اشتقاق من فريسة الأسد. وقيل: هي سواطع أنوار تلمع في القلوب وتمكين معرفة يحمل السرائر في الغيوب.

والفراسة على حسب قوة الإيمان، فمن كان إيمانه أقوى كان أحدَّ فراسة. وقيل: إن الفراسة تتولد من قوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر/29] فمن كان حظه من ذلك النور أتم كانت فراسته أحد وأصدق.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر/75] أي: للمتفرسين وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام/122] أي: ميت الدهن فأحياه الله تعالى بنور الفراسة. ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ ﴾ [الأنعام/122] أي: نورا يتجلى، والمشاهدة ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام/122] أي: كمن هو غافل بين أهل الغفلة.

وقال عليه السَّلام: «**إن لله تعالى عبادا يعرفون الناس بالتوسم**»[2] وقال شاه الكرماني[3]: من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه من الشهوات وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة وعود نفسه أكل الحلال لم تخطئ فراسته.

وقيل: كان محمد بن الحسن[4] والإمام الشافعي[5] رضي الله عنهما جالسين في

---

(1) رواه الترمذي (298/5) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، والطبراني في الكبير (102/8) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وأبو نعيم في حلية الأولياء (94/4) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (207/3) من حديث أنس رضي الله عنه.

(3) أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني كان من أولاد الملوك صحب أبا تراب النخشبي وأبا عبيدة البسري وكان من أجل الفتيان وعلماء هذه الطائفة وله رسالات مشهورة. (الطبقات الكبرى ص 89).

(4) محمد بن الحسن الشيباني مولى لبني شيبان، مات بالري سنة 187 هـ وهو ابن ثمان وخمسين سنة. حضر مجلس أبي حنيفة سنتين ثم تفقه على أبي يوسف، وصنف الكتب الكثيرة ونشر علم أبي حنيفة. (طبقات الفقهاء للشيرازي ص 135).

(5) محمد بن إدريس بن العباس أبو عبد الله الشافعي الإمام، ولد بغزة من بلاد الشام وقيل بعسقلان وقيل باليمن ونشأ بمكة وكتب العلم بها وبمدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقدم بغداد =

الحرم فدخل رجل فقال محمد بن الحسن: أتفرس فيه أنه نجار، وقال الشافعي: أتفرس فيه أنه حداد. فسألاه فقال: كنت قبل هذا حدادا والآن أنا نجار.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: جالسوا الصوفية بالصدق فإنهم جواسيس القلوب.

وقال الزبيدي: كنت بمسجد ببغداد مع جماعة من الفقراء فلم يفتح علينا بشيء أياما فأتيت إبراهيم الخواص لأسأله شيئا، فلما رآني قال: الحاجة التي جئتني لأجلها يعلمها الله تعالى أم لا؟ قلت: يعلمها، قال: فلا تبديها لأحد، فرجعت ولم أبدها، فلم يكن قليلا إلا وقد فتح الله علينا بما فوق الكفاية.

وقال الإمام القشيري: كنت في ابتداء وصلتي بالأستاذ أبي علي الدقاق أعقد لي مجلسا في مسجد المطرز فاستأذنته وقتا في الخروج إلى نسا فأذن لي، فخطر لي ببالي ليته ينوب عني في المجالس مدة غيبتي، فالتفت إلي وقال: أنوب عنك أيام غيبتك فمشيت معه قليلا ثم خطر ببالي أنه عليل يشق عليه أن ينوب عني في الأسبوع مرتين فليته يقصر على مرة واحدة، فالتفت إلي وقال: إن لم يمكني في الأسبوع أنوب يومين نبت يوما واحدا، فمشيت قليلا فخطر ببالي شيء ثالث فالتفت إلي وصرح به مفصلا.

ويروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلت على عثمان بن عفان رضي الله عنه وكنت رأيت امرأة في الطريق فتأملت مجلسها، فقال لي عثمان: يدخل علي أحدكم وأثر الزنا ظاهر في عينيه. فقلت: أوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لا ولكن تبصرة وبرهانا وفراسة صادقة.

وقال أبو سعيد الخراز: دخلت المسجد فرأيت فقيرا يسأل شيئا، فقلت في نفسي: مثل هذا يسأل؟ فنظر إلي وقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة/235] قال فاستغفرت الله في نفسي، فناداني وقال لي: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى/25] وقال أبو موسى الديبولي: سألت عبد الرحمن بن يحيى[1] عن

=

مرتين وخرج إلى مصر فنزلها إلى حين وفاته. سمع مالك بن أنس وإبراهيم بن سعد وسفيان بن عيينة وغيرهم واجتمع مع أحمد وسمع منه وذاكره ونقل عنه وحاضره ذكر ذلك الأئمة الحفاظ، مات سنة 231 هـ. (طبقات الشافعي 20/1).

(1) عبد الرحمن بن يحيى بن الرَّبيع بن سليمان أبو القاسم بن الشيخ أبي علي بن الرَّبيع من أهل
=

التوكل فقال: هو أن تكون لو أدخلت يداك في فم التيس إلى الرسغين لا تخف مع الله غيره. فقال: ذهبت إلى أبي يزيد لأسأله عن التوكل فلما رآني قال لي قبل أن أسأله: لك في قول عبد الرحمان كفاية. قال أبو موسى: وأقمت مدة عند أبي يزيد شهرا وكان لا يخطر لي شيء إلا حدَّثني عنه، فلمَّا أردت وداعه قلت له أفدني فائدة: قال لي: عليك بأكل الحلال.

وقال خير النساج[1]: كنت جالسا في بيتي فوقع لي أن الجنيد بالباب فلم أخرج، فوقع لي ذلك ثانيا وثالثا فخرجت فلقيته بالباب، فقال لي: لم لم تخرج مع الخاطر الأول؟

وهذا فيه كفاية من هذا النَّوع والله الموفق.

الباب الخامس

في بعض وصايا المريدين المحبين

اعلم يا أخي أن أول قدم المريد في هذا الطريق ينبغي أن يكون على الصدق ليصح البناء على أصل صحيح، فإن المشايخ قالوا: إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول. قال الإمام القشيري: ويفتح للمريد الانتساب إلى مذهب من ليس من أهل الطَّريق لأن النَّاس إما أصحاب النقل والآثار، وإما أرباب العقول والأفكار، وشيوخ هذه الطريقة ارتقوا عن هذه الجملة فالذي للناس غيوب لهم ظهور، والذي لغيرهم من المعارف مقصود فلهم من الله موجود، فهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال كما قيل شعر حسن:

=

واسط قرأ الفقه والخلاف على والده وعلى أبي القاسم ابن فضلان وتوجَّه رسولا من جهة الخليفة إلى غزنة ثم إلى خوارزم وحدث هناك بالإجازة عن أبي الفتح ابن البطِّي وأبي زُرعة المقدسي مولدُه سنة 560 هـ وتوفي في شهر رمضان سنة 602 هـ. (طبقات الشافعية الكبرى 93/8).

(1) خير بن عبد الله النساج، أبو الحسن. من " سر من رأى "، ونزل بغداد، وصحب أبا حمزة البغدادي، ولقى سرياً السقطي. وكان من أقران النوري. وعمر طويلا، وصحب الجنيد، وابن عطاء. وتاب في مجلسه إبراهيم الخواص والشبلي، وكان أستاذ الجماعة. مات سنة 322 هـ، عن مائة وعشرين سنة.

ليلـــي بـــوجهك مـــشرق وظلامـــه فـــي الـــناس ســـار
فـالـــنَّاس فـــي ســـرف الظـــلا م ونحـــن فـــي ضـــوء الـــنهار

ولم يكن عصر من الأعصار الإسلامية شيخ من شيوخ هذه الطَّريقة إلا وأئمة ذلك العصر من العلماء يتواضعون له ويتبركون به ويقدمونه على أنفسهم، ولولا مرتبته واختصاصه لكان الأمر بالعكس.

وروي أن أحمد بن حنبل كان جالسا عند الشافعي رضي الله عنهما فجاء شيبان الراعي فقال أحمد: أريد أن أنبه هذا على نقصان علمه ليشتغل بتحصيل بعض العلوم، فقال له الشافعي: لا تفعل، فلم يقبل وقال لشيبان: ما تقول فيمن نسي صلاة من الخمس صلوات في يوم وليلة ولا يدري أي الخمس هي ماذا يصنع؟ فقال شيبان: يا أحمد هذا قلب غافل عن ذكر الله عز وجل فينبغي أن يؤدب حتى لا يعود إلى غفلة، فغشي على أحمد، فلما أفاق قال له الشَّافعي: ألم أقل لك لا تتعرض له. وشيبان كان أميا، فإذا كان حال الأمي منهم هذا فما ظنك بأئمتهم.

ويجب على المريد بعد صدقه وعزمه ونيته أن يحصل من علم الشرع بالحفظ أو السؤال ما يؤدي به فرضه، فإن اختلفت عليه فتوى الفقهاء أخذ بالأحوط، ويقصد أبدا الخروج عن الخلق ويحذر الرخص فإنها للضعفاء وأهل الحوائج والأشغال، وأهل هذه الطَّريقة لا شغل لهم سوى القيام بحقه سبحانه وتعالى.

ويجب عليه أن يتأدب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان، وقال أبو علي الدقاق: الشجر إذا نبت بنفسه ولم ينبته أحد فيورق ولا يثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتحرج ولا يجيء منه شيء.

وكان رحمه الله تعالى يقول: أخذت هذه الطَّريق عن النصربادي وهو عن الشبلي وهو عن الجنيد وهو عن السري وهو عن معروف الكرخي وهو عن داود الطَّائي وداود الطَّائي لقي التابعين.

ثم إذا أراد السلوك بعد تحصيل هذه الشروط فليتب من كل زلة سرا وجهرا، ويجتهد في إرضاء خصومه أولا، ومن لم يرض خصومه لا يفتح له من هذه الطَّريقة شيء، هذا طريق القوم.

ثم بعد ذلك يسعى في قطع العلائق والشواغل، فإن فراغ القلب أصل في الطريق، وأولها الخروج عن المال فإنه هو الصاد عن الحق، ولم يوجد مريد دخل في الطَّريق

ومعه علاقة من الدنيا إلا عاد عن قريب بسببها إلى ما كان فيه، وإذا خرج عن المال فليخرج بعده عن الجاه أيضا، فإنه قاطع عظيم فما لم يستو عند المريد إقبال الخلق وإعراضهم لا يفلح، ومتى توقع إقبالهم عليه أو تركهم له أو شهرته بالزهد لم تصلح له.

ثم يلتزم مع الله تعالى أن لا يخالف شيخه في كل ما يشير عليه به، ولا يعترض عليه بقلبه في شيء، ومتى خطر ببال المريد أن له قدرا أو قيمة أو في الأرض أحد لم تصح له إرادة ويكون اجتهاده أبدا ليعرف ربه لا ليزيد قدره، وفرق بين من يريد الله وبين من يريد جاها في الدنيا أو في الآخرة.

ثم يجب عليه حفظ سره عن زوره لا عن شيخه، وإن كتم عن شيخه نفسا من أنفاسه فقد خانه في صحبته، فإن وقع في خاطره مخالفة شيخه فيما أشار به فينبغي أن يقر له بذلك في وقته، ثم يمتثل ما يأمره به من سفر أو أمر شاق كل ذلك عقوبة له على حضور الخيانة المخالفة بباله.

ولا يجوز للمشايخ التجاوز عن زلات المريد لأن ذلك تضييع لحقوق الله عز وجلّ.

ولا يجوز لهم أن يلقنوا المريد شيئا من الأذكار ما لم يتجرد عن كل علاقة، ويشهد قلب الشيخ له بذلك، فإذا شهد قلبه له بصحة العزم وقطع العلائق، ورأى دلائل ذلك منه شرط عليه الرضى بما يجري عليه في هذه الطَّريق من تصريف القضاء كالذل والضر والفقر والاسقام والألم وترك الرخص عند الفاقة والضَّرورة ومجانبة الراحة والكسل فإنهما سبب للوقفة والفترة، والفرق بين الفترة والوقفة أن الفترة خروج عن الإرادة بالكلية، والوقفة سكون عن السير باستطالة الراحة والكسل، وكل مريد وقف في ابتداء إرادته لا يجيء منه شيء، وإذا جربه الشَّيخ وبدأ في تلقينه للذكر فيختار له من الأذكار ما يراه، ويأمره بذكر ذلك الاسم بلسانه ثم بقلبه مع لسانه ويقول له: إن أمكنك أن لا تجري على لسانك غير هذا الاسم فافعل. ويأمره بأن يكون أبدا على طهارة، ولا يكون نومه إلا غلبة، وقلل غذاءه بالتدريج شيئا بعد شيء كما تقدم في باب الرياضة حتى يقوى على الجوع ولا يترك عادته بمرة، ثم يأمره بإيثار الخلوة والعزلة ويأمره بالاجتهاد في صرف خواطر السوء عنه في خلوته، فإنه قل ما يخلو المريد في ابتدائه في حال خلوته من ذلك، ولا سيما إذا كان ذكيا كيسا، فإنه يتوسوس في الاعتقاد كثيرا

وهو من الامتحانات للمريد، فإن قدر الشيخ أن يدفع عنه ذلك بالأدلة العقلية فعل، فإن العلم يقطع ذلك، وإن توسم فيه قوة وثباتا في الطَّريق أمره بالصَّبر واستدامة الذكر حتى يسطع في قلبه أنوار القبول وتشرق شموس الوصول، وعن قريب يكون ذلك وهذا النوع من المريدين قليل، بل الغالب منهم أن يرجعوا عن ذلك بعلم الأصول.

ومن فضائل حال المريد الإقامة في مواضع إرادته، وترك السفر حتى يقوى في الطريق، فإن السفر قبل ذلك له سم قاتل وهذا في حق مريد يرجى له الوصول، فأما من لا يرجى له ذلك فالسفر أليق به، بل هو واجب لأن الإقامة ربما تريحهم فتعينهم على الشهوات والمعاصي، وهؤلاء غايتهم حج بحصونه أو زيارة مكان شريف أو شيخ يتبركون به أو يخدمونه خدمة ظاهرة، وحصول هذه الغاية لهم في الأسفار أقرب. وينبغي للمريد في ابتدائه أن يكون أبدا في قيد إيصال الراحة، ويكون خصما للفقراء على نفسه لا خصما لنفسه عليهم، ويرى لكل أحد عليه حقا واجبا، ولا يرى لنفسه حقا واجبا على أحد، ويجب أن لا يخالف أحدا وإن علم أنَّ الحق معه سكت، ويطلب الموافقة لكل أحد وكل مريد يكون فيه محل مما يراه فلا يجيء منه شيء.

وإذا كان مع جمع في سفر أو حضر فينبغي أن يوافقهم في الأكل والصَّوم والسكون والحركة بظاهره، وأمَّا بباطنه فيكون مع الله محافظا على ما يجب، وإذا كان صائما وأشار عليه بالأكل أكل لقمة أو لقمتين ولا يطيع الشهوة في الأكل. وليس من أدب المريد كثرة الأوراد بالظاهر فإنه مشغول بتبديل الأخلاق ونفي الغفلة على القلب، بل يقتصر على الفرائض والسنن الراتبة، فإذا فرغ من ذلك وأراد التنفل فاستدامة الذكر بالقلب أتم له من كل ذلك.

ورأس مال المريد الاحتمال من كل أحد بطيب نفس ممَّا هو حظ له، ومن لم يصبر على ذلك فليدخل السوق، فإذا أدام المريد الذكر ولازم بخلوة فوجد فيها شيئا ناقصا للعادة من خطاب يسمع أو معنى يشاهد فينبغي أن لا يشتغل بذلك البتة ولا يسكن إليه، ولا ينبغي أن ينظر حصول أمثال ذلك فإن ذلك كله شاغل عن الحق تعالى، ولا بدّ له إذا أراد ذلك أن يصفه لشيخه ليفرغ قلبه منه، ويجب على الشيخ أن يكتم سره ويصون عن غيره أمره ويصغر ذلك في عينيه، فإن ذلك كله اختبار وامتحان، والسكون إليه مكر، فليحذر المريد وليجعل همته فوق ذلك، وأضر الأشياء بالمريد أن يقع في خاطره أن ذلك من تقريب الحق له واصطفائه وتخصيصه إياه بذلك وتحقيق ذك بأكثر

مما ذكرناه يتعذر إيقاعه في الكتب.

ومن حكم المريد إذا لم يكن معه في موضعه من يؤدبه أن يهاجر إلى من يصيب في وقته لإرشاد المريدين ثم يقيم عنده إلى وقت الإذن. ومن حكم المريد إذا زار شيخا الدخول عليه بالحرمة والحشمة، فإن أهله الشيخ لشيء من الخدمة عد ذلك من جزيل النعمة. ولا ينبغي له أن يعتقد في المشايخ العصمة، بل يذرهم وأحوالهم فيحسن بهم الظن ويراعي مع الله حدوده فيما يتوجه عليه، وكل مريد بقي لشيء من عروض الدنيا في قلبه أثر، فاسم الإرادة له مجاز، وإذا بقي له اختيار فيما يريد أن يخرجه من ملكه فأراد أن يخص به نوعا من أنواع البر أو شخصا دون شخص فهو متكلف في ماله، وربما عاد إلى الدنيا من قريب.

وينبغي أن يكون قصد المريد في حذف العلائق الخروج منها إلى السعي في أعمال البر، وقبول قلوب المشايخ للمريد أدل شيء على سعادته وأصدق شاهد، ومن رده قلب شيخ من المشايخ فإنه يرى غب ذلك لا محالة ولو بعد حين، ومن ترك حرمة الشيوخ فقد أظهر رقم شقاوته وذلك لا يخطئ.

ومن أصعب الآفات في هذه الطَّريق صحبة الأحداث ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع الشيوخ ذلك عبد أهانه الله وخذله وعن نفسه شغله، ولولا كرامة أهله، وأصعب من ذلك تهوين ذلك واعتقاد أنه يسير قال الله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور/15] قال الواسطي: إذا أراد الله تعالى هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأقذار والجيف. وقال فتح الموصلي: صحبت ثلاثين شيخا كانوا يعدون من الأبدال كلهم أوصوني عند فراقي لهم فقال: اتق معاشرة الأحداث.

ومن ارتقى في هذا الباب عن حال الفسق وأشار إلى أن ذلك من قذاء الأرواح وأنه لا يضر فيما قالوه من وسواس القائلين بالشاهد، وما يرونه من الحكايات عن الشيوخ مما كان الأولى به ستره وإخفاؤه فهو نظير الشرك وقرين الكفر، فليحذر المريد مجالسة الأحداث ومخالطتهم، فإنَّ اليسير منه يفتح باب الخذلان ويبدأ حال الهجران ونعوذ بالله من قضاء السوء.

ومن آفات المريد حسده الخفي للإخوان على ما خصهم الله تعالى به من المقامات والأحوال التي ليس له مثلها. وإنما يتخلص من ذلك باكتفائه بوجود الحق وقدمه عن وجوده ونعمته، وكل من رأى أن الحق رفع رتبته فعليه أن يحمل غاشيته،

فإن الطرفان من القاصدين على ذلك استمرت طريقتهم وسنتهم لعلمه أن ذلك كله يقسمه الله تعالى.

ومن حكمه إذا وقع في جمع إيثار الكل بالكل، فيقدم الجائع والشبعان على نفسه، ويتلمذ بكل من أظهر عليه المشيخة وإن كان هو أعلم منه، ولا يصل إلى ذلك إلا بتبريته من حوله وقوته وتوصله إلى ذلك بطول الحق ومننه.

وأمّا أدبه في السّماع فلا يتحرك فيه اختيارا البتة، ومتى تحرك غلبة وقهرا ثم زال ذلك القهر وجب عليه القعود والسكون لا محالة، وإن أشار عليه الشيخ بالحركة فتحرك بإشارته فلا بأس به إذا كان الشيخ ممن يحكم على أمثاله. وبالجملة فالحركة الاختيارية تنقص من حال كل متحرك مريدا كان أو شيخا، فإن أشار عليه الفقراء بالمساعدة في الحركة ساعدهم بالقيام وبأدنى ما لا بدّ منه مراعاة لقلوبهم ودفعا لاستيحاشهم، ثم صدقه في حاله يمنع قلوبهم من السؤال ثانيا. وأما طرح الخرقة فحق للمريد أن لا يرجع في شيء خرج منه البتة، إلا إن أشار عليه شيخ بالرجوع فيه فيأخذه بنية العارية بقلبه ثم يخرج عنه بعد ذلك من غير إيحاش قلب ذلك الشيخ، فإن حصر مع قوم عادتهم طرح الخرقة والرجوع فيها، فإن لم يكن فيهم شيخ تجب حرمته وحشمته، وكان طريق هذا المريد أن لا يعود، فلا يحسن أن يساعدهم في الطَّرح ثم يؤم بها للقوال إذا رجعوا هم، وله أن لا يطرح ولا يسلم للمريد البتة الاقتراح على القوال، لأنه إن كان صادقا فصدق حاله يحمل القول على التكرار بعمل غيره على طلب التكرار، ومن تبرك بمريد فقد جاز عليه لأنه يضر لقلة قوته.

وإن ابتلي مريد بجاه أو معلوم أو صحبة حدث أو ميل إلى امرأة أو اعتماد على معلوم وليس عنده شيخ يدله على حيلة يتخلص بها من ذلك جاز له السفر تشويشا لتلك الحال، ولا شيء أضر للمريد من حصول الجاه لهم قبل خمود بشريتهم.

ومن أدب المريد أن لا يسبق علمه منازلته ومعاملته ولهذا قال المشايخ: إذا حدث العارف عن المعارف فجهلوه، ومن غلب علمه على منازلته فهو صاحب علم لا صاحب سلوك.

ومن شأنه إذا كان طريقه خدمة الفقراء والصبر على جفاهم، وأن يعتقد بذل روحه في خدمتهم ثمّ لا يحرمون له فعلا فيعتذرون أبدا من تقصيره ويقر على نفسه بالجناية وإن كان بريئا تطبب لقلوبهم. قال الإمام القشيري: سمعت الإمام أبا بكر بن فورك

رضي الله عنه يقول: إذا لم تصبر على المطرقة لما صيرت سنداناً.

ومبنى هذا الطريق وملاكه حفظ أدب الشريعة، وصون النَّفس عن الحرام والشبهات، وحفظ الحواس عنها، وعد الأنفاس مع الله تعالى عن الغفلات، وأن لا يستحل سمسمة فيها شبهة عند الضرورة فكيف عند الاختيار.

ومن شأنه دوام المجاهدة في ترك الشبهات، وأقبح الخصال رجوع المريد إلى شهوة تركها لله تعالى.

ومن شأنه حفظ ما عاهد الله عليه، فإن الرجوع عن ذلك كالردة عند القوم. ولا ينبغي أن يعاهد الله على شيء اختيارا خوفا من ذلك، فإن من لوازم الشرع ما يستنفد كل وسع وطاقة إذا حقق معرفة ذلك. قال الله تعالى في صفة قوم ابتدعوا شيئا من عبادته تعالى ثمَّ لم يوفوا بها ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ ﴾ [الحديد/27].

ومن شأنه قصر الأمل، فإن الفقير ابن وقته، ومتى كان له أمل لم يصل أبدا. ومن شأنه أن لا يكون معه معلوم وإن قل، لا سيما إذا كان بين الفقراء، فإنَّ ظلمة المعلوم تطفئ نور الوقت. ومن شأنه قبول بر النسوان ورفقهم لا محالة، والتباعد عن أبناء الدنيا فإن صحبتهم سم مجرب، لأنهم ينتفعون به وهو يتضرر بهم. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الكهف/28] الآية. فالزهاد يخرجون المال من الكفين تقربا إلى الله تعالى، وأهل المعرفة يخرجون الخلق والمخلوقات من قلوبهم اكتفاء بالله عمن سواه. قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام/91] وسئل الشيخ العالم العامل العارف الكامل المحقق أبو العبَّاس سيدي أحمد ابن أحمد بن محمَّد بن عيسى البرنسي ثمَّ الفاسي عرف بزروق نور الله ضريحه عن أصل طريقته فقال رضي الله عنه: الحمد لله أصول طريقتنا خمسة أشياء: تقوى بالله في السر والعلانية، واتباع السنة في الأقوال والأعمال، والإعراض عن الخلق في الادبار والاقبال، والرضى عن الله في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء.

فتحقيق التقوى بالورع والاستقامة، وتحقيق السنَّة بالتحفظ وحسن الخلق، وتحقيق الاعراض عن الخلق بالصَّبر والتوكل، وتحقيق الرضى عن الله تعالى بالقناعة والتَّفويض، وتحقيق الرجوع إلى الله تعالى بالحمد والشكر في السراء واللجوء إليه في الضراء.

وأصول ذلك كله خمسة أشياء: علو الهمة، وحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، ونفوذ العزيمة، وتعظيم النعمة. فمن علت همته ارتفعت رتبته، ومن حفظ حرمة الله حفظت حرمته، ومن حسنت خدمته وجبت كرامته، ومن أنفذت عزيمته دامت هدايته، ومن عظمت النعمة في عينه شكرها، ومن شكرها استوجب المزيد من النعم بما وعده الصادق.

وأصول المعاملة خمسة: طلب العلم للقيام بالأمر، ومحبة المشايخ والإخوان للتبصر، وترك الرخص والتَّأويلات للتحفظ، وضبط الأوقات بالأوراد للحضور، واتهام النَّفس في كل شيء للخروج عن الهوى والسلامة من الغلط.

فآفات طلب العلم صحبة الأحداث سنا وعقلا ودينا ممن لا يرجع لأصل ولا قاعدة، وآفات صحبة المشايخ الاغترار والفضول، وآفات ترك الرخص والتأويلات الشفقة على النَّفس، وآفات ضبط الأوقات اتساع النظر في العمل بالفضائل، وآفات اتهام النَّفس الأنس بحسن أحوالها واستقامتها. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٍ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ ﴾ [الأنعام/70] وقال الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم على نبينا وعليهم الصَّلاة والسَّلام: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف/53] وأصول ما تداوى به النَّفس خمسة أشياء: تخفيف المعدة من الطَّعام، واللّجوء إلى الله سبحانه فيما يعرض عند عروضه، والفرار من موقف ما يخشى وقوع الأمر المتوقع فيه، ودوام الاستغفار مع الصلاة على رسول الله صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله بخلوة واجتماع، وصحبة من يدل على الله أو على أمر الله وهو معدوم.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أوصاني محبي فقال: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبا من معصية الله، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينا وقليل ما هم، أو كلاما هذا معناه.

وقال أيضا رضي الله عنه: اجعل التقوى وطنك ثم لا يضرك مرح النفس ما لم ترض بالعيب، وتصر على الذنب، وتسقط منك الخشية بالغيب.

قلتُ: وهذه الثلاثة هي أصول البلايا والآفات.

وقد رأيت فقهاء هذا الوقت ابتلوا بخمسة أشياء: إيثار البدعة على السنة، واتباع أهل الباطل دون أهل الحق، والعمل بالهوى في كل أمر أو في كل الأمور، وطلب النزاهة دون الحقائق، وظهور الدعاء دون صدق. فظهروا بذلك بخمسة: الوسوسة في العبادات، والاسترسال مع العادات والسماع، والاجتماع في عموم الأوقات، واستمالة الوجوه بجميع الأمكان، وصحبة أبناء الدنيا حتى النساء والصبيان، واغتروا في ذلك بوقائع القوم وذكروا أحكامهم، ولو لحظوا لعلموا أن الاسترسال رخصة الضعفاء والمقام بها بقدر الحاجة بغير زيادة فلا يسترسل معها إلا بعين من الله، وأن السماع رخصة المغلوب أو الكافل وهو انحطاط في بسط الحق إذا كان بشروطه من أهله ومحله وأدبه، وأن الوسوسة أصلها جهل بالسنَّة أو خيال في العقل، وأمَّا التَّوجه لإقبال الخلق إدبار عن الحق لا سيما مداهن أو جبار غافل أو صوفي جاهل، وأن صحبة الأحداث ظلمة وعار في الدنيا والدين وقبول إرفاقهم أعظم وأعظم، وقد قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: الحدث من لا يوافقك على طريقك ولو كان ابن سبعين سنة.

قلتُ: وهو الذي لا يثبت على حال ويقبل كل ما يلقى إليه ويولع به، وأكثر ما تجد هذا في أبناء الطوائف وطلبة المجالس، فاحذرهم بغاية جهدك.

وكل من ادعى حالا مع الله ثم ظهر منه أحد خمسة أشياء فهو كذاب أو مسلوب والعياذ بالله من ذلك: إرسال الجوارح في معاصي الله، والتمتع بطاعة الله، والطَّمع في خلق الله، والوقيعة في أهل الله، وعدم احترام المسلمين على الوجه الذي أمره الله، وقليل أن يختم له بالإسلام والعياذ بالله. انتهى محل الحاجة منه هنا وسيأتي تمامه بمحله بالباب الذي بعد هذا يليه والله الموفق.

ومن بعض رسائل ابن عباد رضي الله عنه قال: وقد بلغنا منكم كتاب صحبة فلان، وتعرفت منه ما كتبتم به وتعرفت من كتاب فلان أنكم في غاية الكرب ونهاية الضر، فها أنا أذكر لكم ما تستعينون به على الصَّبر والرضى عن الله تعالى فيه، والله ولي التَّوفيق، واعلمُوا أنَّ العبد لو كان لا يلقى الله تعالى إلا بعلمه والعبادات الظاهرة لما كان له في ذلك منتفع ولكانت صحائف حسناته خالية خاوية، لأن قبول عبادة العبد مشروط بإخلاصه فيها ونفيه الآفات عنها، وكيف يسلم أمثالنا من ذلك مع حبنا للدنيا وإيثارنا طاعة الهوى؟ فمن نعمته علينا ورحمته بنا أن ابتلانا بالمصائب والنوائب والهموم والغموم ليحصل لنا بذلك في العاجل رقة وافتقارا بالقلب ودعاء ما ابتهل باللسان

وذلك من أعظم العبادات وأفضل القربات ويحصل بذلك في الأجل تكفير السَّيئات وترفيع الدرجات من غير أن تخشى عليها آفة ولا عاهة، فقروا عينكم بذلك. وليكن لكم أسوة حسنة في الأنبياء وخواص الأولياء، فإنهم أعظم الناس بلاء، لأنهم أعظم عند الله ثوابا وجزاء، ولو لم يرد في هذا المعنى إلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر/10].

﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة/155 - 157] لكان ذلك كافيا فالله تعالى يرزقنا وإياكم الصبر على ما أبلانا به والعافية مما لم يبلنا به، وإن لم يكن من رجال البلاء فينبغي لنا أن نسأل الله تعالى العافية في الدين والدنيا والآخرة، فهذا مما يخفف وقع المصائب عليكم ويحليها لكم. وممَّا يخففها أيضا على العبد توقع نزول الموت في كل نفس، وفي بعض الآثار: أكثروا من ذكر هادم اللذات فإنكم إن كنتم في ضيق عيش وسعه عليكم فإن رضيتم به أوجزتم وإن كنتم في سعة نقصها عليكم فإن زهدتم فيها.

ومثال هذا مثل رجل حبسه السلطان في محبسه على نية أن يخرجه للقتل والصلب في أي وقت أراد، فإنه في حال كونه هالك فإنه لا يجد لذة الشهوة ولا متعة، ولا يجد ألما لضربة ولا خدشة، لأنه يتوقع نزول ذلك الأمر العظيم به وتفريقه بين روحه وجسده، ولا شك أن الإنسان في هذه الدار مسجون محبوس، وهو مرتقب في كل نفس أن ينزل به ملك الموت فينزع روحه عن جسده ويصير جيفة من الجيف، وأي فرق بين هذين الأمرين لمن كان عاقلا، فإذا شعر الإنسان خاطره بذلك وطاوله بفكره وألزم تذكيره قلبه لم يتصور منه وجود غم ولا حزن لشيء من مصائب الدنيا كائنة ما كانت. ومما يخففها أيضا على العبد أن يعتقد أن في مقدور الله تعالى ما هو أعظم مما ابتلاه به قد صرف الله تعالى ذلك عنه وابتلى به عبيدا لا يحصون كثرة وعافاه منه وقد كان السلف الصَّالح رضي الله عنهم يتعاهدون في كل وقت حضور ديار المرضى والزمنى، ويتفقدون مواضع إقامة الحدود والعقوبات على الجنايات وأرباب الجرائم من قطع أو ضرب أو قتل كل ذلك ليتذكروا نعم الله تعالى عليهم فتحملهم رؤيتها على الشكر لربهم عزّ وجل إذ عافاهم مما ابتلى به غيرهم مما ذكرناه، ويقفون على حدود

الأدب بين يديه وصدق المعاملة له، وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه قال: "**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**"[1] أو كما قال صلّى الله عليه وسلم.

وأنتم إذا نظرتم في هذا الأمر بعين البصيرة وجدتم من هو أدنى منكم أكثر من أن يحصى في أمور الدنيا وفي أمور الدين، وأنكم تفوقونهم لا محالة بنعم دينية ودنيوية ولا يمكنكم إنكارها، أمَّا النعم الدنيوية فظاهرة، ولو لم يكن من ذلك إلا صحة أبدانكم وخفة ظهوركم من تباعات الأهل والعيال، وأمَّا النعم الدينية فعندكم بحمد الله منها شيء كثير وذلك مثل ملازمتكم لمذهب أهل السنة ومجانبتكم لأرباب الضلال والبدعة، وجواركم من الظلم والعدوان والانهماك في متابعة الشيطان، وما رزقكم الله من محبَّة الخير وأهله، وتهمة النفس وسوء الظن بها، والخوف من الذنوب والحزن عليها، وابتلاء الله تعالى لهم بالفقر والفاقة الذين هم من شعار الصَّالحين، وملازمة الذل والانكسار الذين هما من أخلاق المؤمنين، إلى غير ذلك من النعم التي لا يمكنهم إنكارها ولا جحودها، ويكفيكم من ذلك ما تقدم لكم من موالاة سيدي سليمان رحمه الله تعالى ونفعنا به وخدمتكم له إلى أن فارق الدنيا، وقد كنتم إذ ذاك تَتَقَلَّقُونَ إلى السفر والقدرة تحبسكم حتى بلغتم من ذلك غاية الأمل والمرغوب، والرجل المذكور من أولياء الله تعالى المحقق ولا يتهم. وقد أنعم الله عليكم بجميع ذلك من غير حول منكم ولا قوة، وكثير من النَّاس معدوم منهم هذه الصفات والأحوال مع كونهم غرقى في بحار التِّيه والضلال، فهذه كلها أدوية قامعة لمادة العلل التي حدثت عنكم، فإذا استعملتموها حمدتم عاقبتها إن شاء الله تعالى، والله تعالى يفرج عنكم ويجعل ما أصابكم تكفيرا لذنوبكم وترفيعا لدرجاتكم، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الباب السَّادس
في حفظه قلوب المشايخ السَّالكين المسلكين وترك مخالفتهم

قال الله تعالى في قصة موسى مع الخضر عليهما السَّلام: ﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ ﴾ [الكهف/ 66] الآية. لما أراد الصحبة حفظ شروط الأدب فاستأذن فيها أولا، فاشترط عليه

(1) رواه أحمد (254/2) والترمذي (665/4) وابن ماجه (1387/2) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الخضر ألا يعارضه في شيء بقوله: ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ فلمَّا خالفهُ تجاوز عنه في المرة الأولى والثَّانية، فلمَّا انتهى إلى الثلاثة وهي أول مرتبة الكثرة سأل منه الفرقة بقوله: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف/78] وقال النبي عليه السلام: "**ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه**"[1]، وقال المشايخ: عقوق الأستاذين لا توبة له.

وقال أبو سهل الصعلوكي[2]: من قال لأستاذه لِمَ؟ لم يفلح. وقيل إن شقيقا البلخي وأبا تراب النخشبي قدما على أبي يزيد وعنده شاب يخدمه فحضر الطَّعام فقال للشاب كل معنا فقال: أنا صائم. فقال له أبو تراب: كل ولك أجر صوم شهر، فأبى فقال له شقيق: كل ولك أجر صوم سنة، فأبى فقال له أبو يزيد: دعوا من سقط من عين الله، فأخذ ذلك الشاب في السرقة بعد سنة وقطعت يده.

وقيل ما استصغر أحد أحدا إلا حرم فائدته.

وقال الإمام القشيري لم أدخل على الأستاذ أبي علي الدقاق في ابتداء حالي إلا صائما مغتسلا، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة وأرجع من الباب احتشاما له، وإذا تجاسرت مرة ودخلت كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصيبني شبه حزن، حتى لو غرزت فيَّ إبرة لعلي كنت أحس بها، فإذا جلست لا أسأله عن واقعة كانت وقعت لي لم أحتج أسأله، بل كان يبتديء شرح واقعتي كلما أقعد، وغير مرة جرى منه هذا علينا. ولم يخطر ببالي مرة ترددي إليه ولم أعترض عليه في شيء إلى أن خرج من الدنيا رحمة الله عليه. انتهى

قلتُ: وهذا تمام جواب سيدي أحمد زروق عن مبنى طريقته في الباب الذي قبل هذا متصلا بذاك من غير فصل بشيء. قال رحمه الله: وشرط الشيخ الذي يلقي إليه المريد نفسه: علم صحيح، وذوق صريح، وهمة عالية، وحالة مرضية، وبصيرة نافذة. ومن فيه خمسة لا تصح مشيخته: الجهل بالدين، وإسقاط حرمة المسلمين، والدخول

---

(1) رواه الترمذي (372/4) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) أبو سهل محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان بن هارون الصعلوكي الحنفي من بني حنيفة، صاحب أبي إسحاق المروزي. مات في آخر سنة 369 هـ، وكان فقيهاً أديباً شاعراً متكلماً مفسراً صوفياً كاتباً. (طبقات الفقهاء ص 115).

فيما لا يعني، واتباع الهوى في كل شيء، وسوء الخلق من غير مبالاة.

وآداب المريد مع الشيخ والإخوان خمسة: اتباع الأمر وإن ظهر خلافه، واجتناب النهي وإن كان فيه حتفه، وحفظ حرمته غائبا وحاضرا حيا وميتا، وقيام بحقوقه بحسب الإمكان بلا تقصير، وعزل عقله وعلمه ورياسته إلى ما يوافق بجلد من شيخه، ويستعين على ذلك بالإنصاف والنصيحة وهي معاملة الإخوان إن لم يكن شيخ، وإن وجد نقص من الشروط الخمسة اعتمد فيها على علم وعمل بالأحوط في الباقي اهـ. والسَّلام.

قلت: والأمر المؤكد على من دخل هذه الطريقة أن يكتب هذه الوصية - أعني وصية سيدي أحمد زروق - من أولها وهو في أواخر الباب الذي قبل هذا ويلحقها بما وضعناه هنا من آخرها من شروط الشيخ إلى آخرها، ويداوم النظر والتأمل فيها في كل يوم مرتين أو مرة، وإلا ففي كل جمعة حتى تنطبع معانيها في النفس ويقع تصرفك على مقتضاها، فإن فيها غنيمة وغنية عن كثير من كتب هذا الفن وعن كثير من الوصايا، لأنه قيل قبل: ما حرموا الوصول إلَّا لتضييعهم الأصول، ومن تأملها عرف ذلك. ثم لا تزال تتأمل هذه الأصول وتجاهد النفس على موافقة العمل بمقتضاها إلى وقت وفاتك، والسَّلام. والله الموفق سبحان والملهم.

الباب السابع
في رؤيا القوم وهم الأبرار والمقرَّبون

قال الله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ [يونس/64] وقيل: هي الرؤيا الصَّالحة يراها الرجل في النوم أو ترى له كذا روي عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته[1]. وقال: "**الرؤيا من الله تعالى والحلم من الشيطان فإذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها فليتفل عن يساره وليتعوذ بالله فإنها لا تضره**"[2]، وقال عليه السَّلام: "**من رآني في المنام فقد رآني فإنَّ الشيطان لا يتمثل في صورتي**"[3].

واعلم أن الرؤيا الصَّادقة نوع من أنواع الكرامات، وحقيقتها خواطر ترد على

---

(1) رواه الترمذي (534/4) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال: "حديث حسن، وفي الباب عن عبادة بن الصامت ".

(2) رواه البخاري (1198/3) ومسلم (1771/4) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(3) رواه البخاري (52/1) ومسلم (1775/4) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

القلب وأحوال تتصور في الوهم، وهي تارة تكون من قبل الشيطان، وتارة تكون من قبل هواجس النَّفس، وتارة بالهام الملك، وتارة تعريفا من الله تعالى يخلق تلك الأشياء في القلب بغير واسطة.

والنوم على أنواع، أي على أقسام: نوم غفلة وعادة وهو مذموم، لأنه أخو الموت كذا روى في بعض الأخبار، وإليه أشار الله تعالى بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام/60] وقوله: ﴿ وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر/42] وقيل: لو كان في النَّوم خير لكان في الجنة.

وقال: لما قال إبراهيم لإسماعيل عليهما السَّلام: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات/102] قال: يا أبت هذا جزاء من نام عن حبيبه لو لم تنم ما أمرت بذلك.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السَّلام: كذب من ادعى محبتي ونام عني إذا جنه الليل.

وقال الشبلي: نعسة في ألف سنة فضيحة. وقال الشبلي أيضا: اطلع الحق علي فقال: "من نام غفل ومن غفل حجب" وكان الشبلي بعد ذلك يكتحل بالملح حتى لا ينام.

وقيل: إن كنت حاضرا فلا تنم، لأن النوم في الحضرة سوء الأدب، وإن كنت غائبا فأنت من أهل الحسرة، فتكون في مصيبة، والمصاب لا يأخذه النَّوم.

وأمَّا أهل المجاهدة فنومهم صدقة من الله تعالى عليهم، وأن الله تعالى يباهي بالعبد إذا نام على السجود فيقول للملائكة: انظروا عبدي روحه عندي وجسده بين يدي يعني روحه في محل النجوى وبدنه على بساط العبادة.

وقيل: كل من نام على طهارة فيؤذن لروحه أن تطوف بالعرش وتسجد لله تعالى.

وقيل: لا شيء أشد على إبليس لعنه الله من نوم العاصي يقول: متى ينتبه حتى يعصى الله تعالى.

وقيل: كيف لا يستحي العبد أن ينام ومولاه لا ينام. وقال بعضهم: النَّوم أفضل من اليقظة من جهة أن النَّائم لا يعصي الله تعالى في حال نومه، وأنه محل لرؤية النبي عليه السَّلام والصحابة والأولياء وغيرهم، وربما رأى الحق تعالى في النَّوم، وتلك منزلة عظيمة.

وقال الكتاني: رأيت النبي ﷺ في النَّوم فقلت له: ادع الله أن لا يميت قلبي، قال: قل كل يوم أربعين مرة يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت.

ورأى الحسن بن علي كرم الله وجههما عيسى عليه السَّلام في النَّوم فقال له: إني أريد أن أتخذ خاتما فما الذي أكتب عليه قال: لا إله إلَّا الله الملك الحق المبين، فإنه آخر الإنجيل.

وقيل: رأى أحمد ابن حصرويه في النَّوم رب العزة فقال: يا أحمد كل النَّاس يطلبون مني إلا أبا يزيد فإنه يطلبني.

وقيل دخل الحسن البصري مسجدا ليصلي المغرب فوجد إمامهم حبيبا العجمي فلم يصل خلفه خوفا من اللَّحن فرأى تلك الليلة في المنام قائلا يقول: لو صليت خلفه لغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

ورؤي مالك بن أنس رضي الله عنه في المنام فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بكلمة حفظتها عن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يقولها إذا رأى جنازة: "سبحان الحي الذي لا يموت". ورؤي الحسن في النوم فقيل ما فعل الله بك؟ فقال: صاحت تلك الإشارات وبادت تلك العبارات وما نفعنا إلا التسبيحات التي كنا نقولها في الغدوات.

وقال ابن الجلا: دخلت المدينة وبي فاقة فرأيت النبي ﷺ في النَّوم فأعطاني رغيفا فأكلت نصفه وانتبهت وفي يدي نصفه.

وقيل: رأى أبو أيوب السجستاني جنازة عاص فدخل دهليزا في داره حتَّى لا يصلي عليها فرؤي ذلك الميت في المنام فقيل: ما فعل الله بك فقال: غفر لي، وقال: قل لأيوب السجستاني لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي.

وقال الإمام القشيري رأيت الأستاذ أبا علي الدقاق في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: ليس للمغفرة عنده كبير خطر أقل من حضر هنا خطرا أعطاه كذا وكذا.

وقال الإمام القشيري وقع لي في المنام أن ذلك الشخص الذي عينه الأستاذ قتل نفسا بغير حق.

وقال أبو بكر الرشيدي الفقيه: رأيت محمد الطوسي في المنام فقلت له ألك حاجة فقال قل لأبي سعيد الصفار شعر:

وكـنا علـى أن لا يحـول عـن الهـوى فقـدْ وحياه الحـب حلـتم ومـا حلـنا
لعـل الـذي يقـض الأمـور بعلمـه سـيجمعنا بعـد الممـات كمـا كـنَّا

قال: فانتبهت. وقلت لأبي سعيد ذلك قال: كنت أزور قبره كل يوم جمعة فلم أزره هذه الجمعة.

وقيل: رؤي أبو سليمان الداراني في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وما كان علي شيء أضر من إشارات القوم.

وقيل: رؤي الشبلي في المنام فقيل ما فعل الله بك؟ قال: ناقشني حتى أيست فلمَّا رأى إياسي تغمدني برحمته، وهذا كما قال بعضهم، وقد قيل له: ما فعل الله بك؟ قال حاسبونا فدققوا ثم منوا فوفوا والله يعفوا عنا بفضله وجوده.

الباب الثامن

في أحوالهم عند الموت والورود على رب العالمين

اعلم يا أخي أن أحوال الأولياء عند الموت مختلفة، فمنهم من تغلب عليه الهيبة، ومنهم من يغلب عليه الرجاء، ومنهم من كوشف في تلك الحال عما يوجب له السكون وجميل الثقة. وكان الشبلي ليلة خروجه من الدنيا يكرر هذين البيتين وهما:

أرى بيـتا أنـت سـاكنه غيـر محـتاج إلـى الـسرج
وجهـك المأمـول حجتـنا يـوم تأتـي الـنَّاس بـالحجج

وقيل لبشر الحافي وقد احتضر: كأنك تحب الحياة؟ فقال: القدوم على الله تعالى شديد.

وقيل: فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال: ﴿ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ [الصافات/61] وقيل لذي النون المصري عند موته: ما تشتهي؟ قال: أن أعرفه قبل موتي بلحظة.

وقال بعضهم: كنت عند ممشاد الدينوري عند وفاته فقيل له: كيف تجد العلة؟ فقال: سلوا العلة عني. فقيل له: قل: "لا إله إلا الله" فحرك وجهه إلى الجدار وقال:

أفنـيت كلـي بكلـك هـذا جـزا مـن يحـبك

وقيل للشبلي عند وفاته: "لا إله إلا الله" فأنشد:

قــــال ســــلطان حــــبه أن لا أقــــبل الرشــــاء

فــــسلوه فديــــته أن يفعلــــن مــــا يــــشاء

وقال أبو عمران الاصطخري[1]: رأيت أبا تراب النخشبي في البادية قائما ميتا لا يمسكه شيء.

وقال أبو علي الروذباري[2]: دخلت مصر فرأيت الناس يقولون: كنا في جنازة فتى سمع قائلا يقول:

كبــــرت همــــة عــــبد طمعــــت فــــي أن يــــراك

فشهق شهقة ومات.

قيل: وكان سبب موت ابن بناني[3] أنه ورد على قلبه وارد فهام على وجهه ودخل تيه بني إسرائيل فوقف في الرمل وقال: أربع فهذا مربع الأحباب وخرجت روحه.

وقال أبو سعيد الخراز: كنت بمكة فجزت يوما باب بني شيبة فرأيت شابا حسن الصورة ميتا فنظرت في وجهه فتبسم وقال: يا أبا سعيد أما علمت أنَّ الأحباب أحياء وإن ماتوا وإنما ينقلون من دار إلى دار. أماتنا الله على أكمل حالة من دين نبينا ومولانا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام وعلى آله وأمته.

(1) لم أجده.

(2) أبو على أحمد بن محمد الروذباري البغدادي ثم المصري. مات سنة 322 هـ، وقال السمعاني: سنة 323 هـ.

وروذبار يقال لمواضع عند الأنهار الكبار؛ وهذا الموضع عند طوس كما قال السمعاني؛ وقال الطلحي: "قرية من بغداد ". (طبقات الأولياء ص 8).

(3) لم أجده.

الباب التَّاسع
في ذكر بعض أخلاق سيد المرسلين محمَّد صلَّى الله عليْه وسلَّم وَعلى آله وأمَّتِه

ويحتوي هذا الباب على ثلاثة عشر فصلا.

الفصلُ الأول منها
في تأديب الله تعالى له بالقرآن صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في إحياء علوم الدين في كتاب العشرين من ربع العادات فنقله هنا كله بلفظه مواليا لتضمنه ما أردناه من ذلك بأوجز عبارة وأحسن إشارة ولا أزيد على قوله رضي الله عنه عدا الفصول ليعلم ما تضمنه قوله وما احتوى عليه لفظه فقال في هذا الفصل رضي الله عنه [1]: بيان تأديب الله لحبيبه وصفيه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم بالقرآن كان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال بمحاسن الأدب ومكارم الأخلاق، فكان يقول في دعائه: "**اللهمَّ كما حسَّنت خلقي فحسن خلقي**"[2]، ويقول: "**اللهم جنبني منكرات الأخلاق**"[3]، واستجاب الله دعاءه بقوله ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ [غافر/60] فأنزل عليه القرآن وأدبه فكان خلقه القرآن العظيم وقال سعيد ابن هاشم دخلت على عائشة رضي الله عنها فسألتها عن أخلاق رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قالت: أما تقرؤون القرآن قلت: بلى قالت: كان خلقه القرآن وإنما أدبه بالقرآن مثل قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف/199] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل/90] وبقوله: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ

---

(1) إحياء علوم الدين (358/2).

(2) رواه أحمد (403/1) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه ابن حبان في صحيحه (239/3).

(3) رواه الترمذي (575/5) من حديث قطبة بن مالك رضي الله عنه، وصححه ابن حبان في صحيحه (240/3).

أَصَابَكَ﴾ [لقمان/17]وبقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ [الشورى/43] وبقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة/13]وبقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ [النور/22]وبقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون/96] وبقوله: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران/134] وبقوله: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات/12] ولما كسرت رباعيته يوم أحد جعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسحه ويقول: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدَّم وهو يدعوهم إلى ربهم**» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران/128] (1) تأديبا له وأمثال هذا التأديب في القرآن لا ينحصر وهو المقصود الأول بالتأديب والتَّهذيب ثم منه يشرق النور على كافة الخلق فإنه أدب بالقرآن وأدب الخلق به ولذلك قال عليه السَّلام: «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(2)، ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق في كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق فلا نعيدها ثم لما أكمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم/4] فسبحانه ما أعظم امتنانه انظر إلى عميم فضله كيف أعطى ثم أثنى فهو الذي زينه بالخلق الكريم ثمَّ أضاف إليه ذلك فقال: وإنك لعلى خلق عظيم، ثمَّ إن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بيَّن للخلق أنَّ الله تعالى يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها(3)، وقال علي رضي الله عنه: يا عجبا لرجل مسلم يحفظ أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا كان ينبغي له أن يتسارع إلى مكارم الأخلاق، فإنها ما يدل في سبيل النجاة فقال له رجل: سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم وما هو خير منه، لما أتى بسبايا طيء وقفت جارية في السبي، فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فإني بنت سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني، ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط أنا ابنة حاتم الطائي، فقال صلى الله عليه وسلم: يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباها

---

(1) رواه البخاري (1493/4) ومسلم (1417/3) من حديث أنس رضي الله عنه.

(2) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (670/2) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

(3) رواه الحاكم في مستدركه (112/1) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

كان يحب مكارم الأخلاق، وإن الله يحب مكارم الأخلاق، فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله الله يحب مكارم الأخلاق، فقال: والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق[1]. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ: إن الله تعالى حفَّ الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ومن ذلك حسن المعاشرة ومكارم الصنيعة ولين الجانب وبذل المعروف وإطعام الطَّعام وإفشاء السَّلام وعيادة المريض المسلم برا كان أو فاجرا وتشييع جنازة المسلم وحسن الجوار لمن جاورت مسلما كان أو كافرا وتوقير ذي الشيبة المسلم وإجابة الطعام والدعاء عليه والعفو والإصلاح والجود والكرم والسماحة والابتداء بالسَّلام وكظم الغيظ والعفو عن الناس وإذهاب الإسلام اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها وكل ذي وتر وكل ذي دخل والغلبة والكذب والغيبة والبخل والشح والخنا والخديعة والنميمة وسوء ذات البين وقطع الأرحام وسوء الخلق والتكبر والفجر والاحتيال والاستطالة والمدح والفحش والتفاحش والحقد والحسد والطيرة والغنى والعدوان والظلم، قال أنس: فلم يدَع صحبة جميلة إلا قد دعانا إليها وآمنا بها، ولم يدع غشا أو عيبا ولا شيئا إلا قد حذرنا ونهانا عنه؛ ويكفي من ذلك كله هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل/90][2].

قال معاذ: أوصاني رسول الله ﷺ فقال: "يا معاذ، أوصيك باتقاء الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وتقصير الأمل، ولزوم الأمان، [والتفقه][3] في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وحفظ الجناح. وأنهاك أن تسب حليما، أو تكذب صادقا، أو تطيع آثما، أو تعصي إماما عادلا، أو تفسد أرضا. وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر ومدر وشجر، وأن تحدث بكل ذنب توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية"[4].

---

(1) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (359/2): "أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد فيه ضعف".

(2) قال الحافظ العراقي رحمه الله في تخريج أحاديث الإحياء (260/2): "لم أقف له على أصل ".

(3) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(4) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (185/3)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (435/8). ورواه أيضا (175/20) بنحوه من حديث أبي سلمة عن معاذ، وهو أيضا منقطع.

فهكذا أدَّبَ عباد الله، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأدب، والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

الفصل الثَّاني: في بيان بعض محاسن أدبه صلَّى الله عليه وسلم وآله وأمته

التي جمعها بعضُ العلماء والتقطها من الأخبار فقال:

كان رسول الله ﷺ أحلم وأشجع وأعدل الناس وأعطف النَّاس، لم تمس يدُه امرأةً لا يملك رقَّها أو عصمةَ نكاحها أو تكون ذاتَ محرم منه[1]؛ أسخى النَّاس، لا يبيت عنده دينار[2] من يحتاج إليه، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوتَ عامه فقط من اليسير ما يجد من التمر والشعير، ويضع سائر ذلك في سبيل الله.

لا يسأل شيئا إلا أعطاه، ثم يعود إلى قوت عامه، فيوثر منه حتّى ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يبق شيءٌ.

وكان يخصف النعل - أي يخرز النعل -، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم معهنَّ.

أشدَّ النَّاس حياءً، لا يثبت بنظره في وجه أحد، يجيب دعوة الحر والعبد، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافئُ عليها ويأكلها؛ ولا يأكل الصدقة، ولا يستكبر على إجابة الأَمَة والمسكين.

يغضب لربه تعالى ولا يغضب لنفسه، ويُنفِذ الحقَّ وإن عاد ذلك بالضرر عليه وعلى أصحابه؛ وعُرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان يزيده في عدد من معه فأبى وقال: "أنا لا أنتصر بمشرك"[3].

ووجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يَحف عليهم ولا زاد

---

(1) رواه البخاري (2637/6)، ومسلم (1489/3) من حديث عائشة.

(2) يظهر لي أن هنا سقط فليتحقق وليراجع الإحياء.

(3) روى مسلم في "صحيحه" 1450/3 ح 1817 عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بدر، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه. فلما أدركه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: جئت لأتبعك وأصيب معك. قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تؤمن بالله ورسوله؟"، قال: لا. قال: "فارجع فلن أستعين بمشرك".

على أمر الحق، بل وداه مائة ناقةً، وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به.

وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد، ولا يتورع من مطعم حلال، وإن وجد تمرا دون خبز أكله وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به، وإن وجد رُطبا وبطيخا أكله[1].

لا يأكل متكئا[2]، ولا على خوان[3]، منديله باطن قدميه، لم يشبع من خبز ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله، إيثارا على نفسه لا فقدا ولا بخلا.

يجيب الوليمة، ويعود المريض ويشهد الجنائز، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس، أشد الناس تواضعا وأسكتهم في غير كبر، وأبلغهم من غير تطويل. قلت: يريد أي أفصحهم بالكلام اهـ ، وأحسنهم بشرا.

لا يهوله شيء - قلت: لا يفزعه شيء - من أمر الدنيا، ويلبس ما وجد، فمرة شملة، ومرة برد حبرة يمانيا، ومرة جبة صوف؛ ما وجد من المباح لبس، وخاتمه من فضة يلبسه في خنصره الأيمن، وربما الأيسر.

يردف خلفه عبدَه أو غيره، يركب ما أمكنه مرة فرسا، ومرة بعيرا، ومرة بغلة شهباء، ومرة حمارا، ومرة يمشي راجلا، حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة يعود

---

(1) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (2: 391): "هذا كله معروف من أخلاقه، ففي الترمذي من حديث أم هانئ دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أعندك شيء "، قلت: لا، إلا خبز يابس وخل، فقال " هات "، وفي كتاب الشمائل لأبي الحسن بن الضحاك بن المقري من رواية الأوزاعي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما أبالي ما رددت به الجوع " وهذا معضل، ولمسلم من حديث جابر: أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أهله الأدم، فقالوا: ما عندنا إلا خل فدعا به. الحديث. وله من حديث أنس: رأيته مقعيا يأكل تمرات، والترمذي وصححه من حديث أم سلمة أنها قربت إليه جنبا مشويا فأكل منه. الحديث. وللشيخين من حديث عائشة: ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا خبز بر حتى مضى لسبيله. لفظ مسلم وفي رواية له: ما شبع من خبز شعير يومين متتابعين. والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث ابن عباس: كان أكثر خبزهم الشعير. وللشيخين من حديث عائشة: كان يحب الحلواء والعسل. ولهما من حديث ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب لبنا فدعا بماء فمضمض. والنسائي من حديث عائشة كان يأكل الرطب بالبطيخ وإسناده صحيح" انتهى.

(2) رواه البخاري (2062/5) من حديث أبي جحيفة مرفوعا: "لا آكل متكئا".

(3) رواه البخاري (2059/5) والترمذي (581/4) من حديث أنس: ما علمت النبي صلى الله عليه وسلم أكل على سكرجة قط ولا خبز له مرقق قط ولا أكل على خوان قط.

المريض في أقصى المدينة.

يحب الطيب، ويكره الرائحة الرديئة، يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، يكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف.

يصل ذا رحمه من غير أن يوفرهم على من هو أفضل منهم، ولا يجفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه، يمزح ولا يقول إلا حقا، يضحك من غير قهقهة، يرى اللعب المباح فلا ينكره، ويسابق أهله، وترفع الأصوات عليه فيصبر، وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها.

وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في المأكل والملبس، ولا يمضي له وقت في غير عمل لله وفيما لا بدّ من صلاح نفسه، يخرج إلى بساتين أصحابه، لا يحقر مسكينا لفقره وزمانته، لا يهاب ملكا لملكه، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء واحدا، فقد جمع الله له السيرة الفاضلة والسياسة التَّامة، وهو أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل والسحارين في فقر وفي رعاية غنم، يتيما لا أب له ولا أم فعلمه الله جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة، وأخبر الأولين والآخرين، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الدنيا لزوم الواجب وترك الفضول.

وفَّقنا الله لطاعته في أمره والتأسي به آمين يا رب العالمين.

الفصل الثالث

في بيان جملة أخرى من أخلاقه و آدابه صلى الله عليه وسلم وعلى آله و أمته

مما رواه أبو البختري قال: ما شتم رسول الله ﷺ أحدا من المؤمنين بشتمة إلا جعل له كفارة ورحمة[1].

وما لعن امرأة قط ولا خادما بلعنة. وقيل له - وهو في القتال -: لو لعنتهم يا رسول الله قال: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا»[2].

وكان إذا سُئل يدعو على أحد مسلم أو كافر عاما أو خاصا عدل عن الدعاء عليه

(1) رواه البخاري (2339/5) ومسلم (2007/4) من حديث أبي هريرة مرفوعا: اللهم إنما أنا بشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له زكاة ورحمة.

(2) رواه مسلم (2006/4) من حديث أبي هريرة بلفظه.

إلى الدعاء له.

وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب لها في سبيل الله، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنهك حرمات الله، وما خُيِّر بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم، فيكون أبعد النَّاس من ذلك[1].

وما كان يأتيه أحد حرا أو عبدا أو أمة إلا قام معه، قال أنس: والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء كرهه لم فعلته ولا لامني أحد من أهله إلا قال: دعوه، إنما كان هذا بكتاب وقدر[2].

وقالوا: وما عاب رسول الله ﷺ مضطجعا إن فرشوا له، وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض. وقد وصف الله تعالى في التوراة قبل أن يبعثه في السطر الأول فقال: محمد رسول الله عبدي المختار لا فظٌّ غليظ ولا صخاب في الأسواق - قُلتُ: يعني ولا صياح في الأسواق -، ولا يجزئ بالسيئة السيئة، لكن يعفوا ويصفح، مولده بمكة وهجرته بطابة، وملكه بالشام، يأتزر على وسطه. وهو ومن معه دعاة للقرآن والعلم، يتوضأ على أطرافه... وكذلك نعته في الإنجيل.

وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسَّلام، [ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف][3]، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، وكان إذا لقي أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثمَّ شدَّ قبضته، وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله، وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفَّف صلاته وأقبل عليه فقال: ألك حاجة؟ فإذا فرغ من حاجته أعاد صلاته.

وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه ويمسك بيديه عليها شبه الحبوة، ولم يكن يعرف مجلسه من مجالس أصحابه، لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس. وما رؤي قط ماداً رجله بين أصحابه حتى يضيق بها على أحد، إلا أن يكون المكان واسعا لا ضيق فيه، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة، وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما

---

(1) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (368/1) وابن حبان في صحيحه (240/2) من حديث عائشة.

(2) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ص: 37)، ولكن بلفظ: دعوه فلو قدر شيء كان.

(3) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه[1].

كان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تكون تحته فإن أبى أن يقبله عزم عليه - أي ألزم وغلظ عليه - حتى يفعل، وما [استصفاه][2] أحد إلا ظن أنه أكرم النَّاس عليه، حتى يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه، حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مجلسه وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة[3]. قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران/159].

ولقد كان يدعو أصحابه بكُناهم إكراما لله واستمالة لقلوبهم[4]، ويكني لهم من [ليس][5] له كنية، وكان يدعى بما كناه بها، وكان يكني أيضا النساء التي لهن الأولاد والتي لم تلدن يبتدئ لهن الكنيا، ويكني الصبيان بما ستليق به قلوبهم.

وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضى، وكان أرأف الناس بالناس، وخير الناس للناس وأنفع النَّاس للنَّاس، ولم يكن يرفع الأصوات. وكان إذا قام من مجلسه قال: سبحانك اللهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك أستغفرك وأتوب إليك. ثم يقول: علمنيهنَّ جبريل عليه السَّلام[6].

والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الفصل الرابع في بيان كلامه وضحكه صلَّى الله عليه وعلى آله وأمَّته

اعلم يا أخي أنه كان عليه السَّلام أفصح الناس منطقا وفي رواية: أحسن النَّاس

---

(1) رواه البيهقي في الشعب (462/7) من حديث أنس.

(2) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(3) رواه الترمذي في الشمائل (ص: 278) والبيهقي في الشعب (154/2) من حديث علي الطويل.

(4) هذا معلوم من هديه صلى الله عليه وآله وسلم، كندائه لعلي بن أبي طالب بقوله: قم أبا تراب، ونداءه لأبي بكر بكنيته، وقوله لعمر: يا أبا حفص أبصرت وجه عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما رواه الحاكم في المستدرك (247/3).

(5) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(6) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (41/6) والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص: 321) من حديث أبي العالية قال: قال قالوا يا رسول الله ما كلمات سمعناك تقولهن قال: كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام كفارة المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وهو مرسل.

منطقا وأحلاهم كلاما، ويقول: "أنا أفصح العرب"[1]، وإن أهل الجنَّة يتكلمون فيها بلغات محمَّد ﷺ، وكان نزارَ الكلام. - قلت: يريد نزر الكلام هو قليل الكلام - سميح المقالة - أي سهل المقالة - إذا نطق ليس مهذارا - قلت: والمهذار في الكلام أكثر هـ -، وكان كلامه كخرزات النَّظم، قالت عائشة رضي الله عنها[2]: كان لا يسرد الكلام سردكم هذا كان كلامه نزرا - قلتُ: معناه قليلا هـ - وأنتم تنثرون الكلام نثرا، وكان أوجز الناس كلاما، وبذلك جاءه جبريل عليه السَّلام، وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد، وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير، كلام يتبع بعضه بعضا، بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه، وكان جهير الصَّوت أحسن النَّاس نغمة - قلت نغمة أي صوتا هـ -، وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة، ولا يقول المنكر، ولا يقول في الغضب والرضى إلَّا الحقَّ، يعرض عمن يتكلم بغير جميل، ويكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره، وكان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده في الحديث، يعظ بالجد والنصيحة، ويقول: "لا تضربوا القرآن بعضه ببعض، فإنه أنزل على وجوه"[3]، وكان أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعجبا ممَّا تحدثوا به وخلطا لنفسه بهم، ولربَّما ضحك حتى تبدو نواجذه، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له، قالوا: ولقد جاءه أعرابي يوما وهو عليه السَّلام متغير ينكره أصحابه، فأراد أن يسأله، فقالوا: لا تفعل يا أعرابي، فإنا ننكر لونه، فقال: دعوني فوالذي بعثه بالحق لا أدعه حتى يتبسم، فقال: يا رسول الله بلغنا أن المسيح الدجال يأتي بالثريد وقد هلكوا جوعا، أفترى بأبي أنت وأمي أن أكف عن ثريده تعففا وتنزها حتى أهلك هزالا أم أضرب ثريده حتى إذا تضلعت شبعا آمنت بالله وكفرت به - قلت: قالوا: تضلع الرجل: امتلأ شبعا وريا هـ - قال: فضحك رسول ﷺ حتَّى بدت نواجذه، ثمَّ قال: لا بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين[4]. وقالوا: وكان من

---

(1) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (282/2): "أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي سعيد الخدري: أنا أعرب العرب. وإسناده ضعيف والحاكم من حديث عمر قال: قلت يا رسول الله ما بالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ الحديث: وفي كتاب الرعد والمطر لابن أبي الدنيا في حديث مرسل: أن أعرابيا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما رأيت أفصح منك؟ ".

(2) رواه البخاري (1307/3)، ومسلم (1940/4).

(3) رواه أحمد في مسنده (181/2) والطبراني في الأوسط (227/3) بنحوه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي.

(4) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (286/2): "وهو حديث منكر لم أقف له على أصل ".

أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر النَّاس أو يخطب خطبة عظة، وكان إذا سُرَّ رَضِيَ فهو أكثر النَّاس رِضًى، وكان إذا وعظ وعظا بجد، وإن غضب لم يقم لغضبه شيء ولم يغضب إلا لله ولم يكن يغضبه شيء، وكذلك كان في أموره كلها، كان إذا نزل به الأمر فوض الأمر وتبرأ من الحول والقوة واستبرأ الهوى، فيقول[1]: "اللهمَّ أرني الحق حقا فاتبعه وأرني المنكر منكرا وارزقني اجتنابه، وأعذني من أن يشتبه علي فأتبع هواي بغير هدى منك، وأجعل هواي تبعا لطاعتك، وخذ رضى نفسك من نفسي في عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي إلى صراط مستقيم "، والله الموفق سبحانه.

الفصل الخامس في بيان أخلاقه و آدابه في الطَّعام صلَّى الله وسلم عليه وعلى آله

اعلم يا أخي أنه صلى الله عليه وسلم كان يأكل ما وجد، وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف - قلت: أي ما كثرت عليه الأيدي هـ -، وكان إذا وضعت المائدة قال: باسم الله اللهمَّ اجعلها نعمة مشكورة تتصل بها نعمة الجنَّة، وكان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وقدميه كما يجلس المصلي، إلا أن الركبة فوق الركبة والقدم فوق القدم، ويقول: "أنا عبد آكل كما يأكل العبيد، وأجلس كما يجلس العبيد"[2]، وكان لا يأكل الحار، ويقول: "إنه غير ذي بركة، وإن الله لم يطعمنا نارا، فأبردوه"[3]، وكان يأكل مما يليه بأصابعه الثلاث وربما استعان بالرابعة، ولم يأكل بأصبعين ويقول: "إن ذلك أكلة الشيطان"[4]، وجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه بالفالوذج فأكل منه، وقال: ما هذا يا عبد الله؟ قال: بأبي أنت وأمي نجعل السّمن والعسل في البرمة، ونضعها على

---

(1) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (287/2): "لم أقف لأوله على أصل وروى المستغفري في الدعوات من حديث أبي هريرة. كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول "اللهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك فأعطنا منها ما يرضيك عنا" ومسلم من حديث عائشة فيما كان يفتتح به صلاته من الليل "اهدني لما اختلف فيه" إلى آخر الحديث".

(2) رواه أبو يعلى في مسنده (318/8) من حديث عائشة، والطبراني في الكبير (200/8) من حديث أبي أمامة.

(3) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (113/7).

(4) رواه الطبراني في الكبير (126/11)، قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (23/5): "فيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح ".

النار، ثم نغليه، ثمّ نأخذ مخ الحنطة إذ أطحنت فنلقيه على السمن والعسل، ثم نسوطه حتى ينضج، فيأتي كما ترى، فقال عليه السَّلام: هذا طعام طيب[1]، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، وكان يأكل القثاء بالرطب والملح، وكان أحب الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب، وكان يأكل البطيخ بالخبز والسكر، وربما أكل بالرطب، ويستعين باليدين جميعا، كان يوما يأكل رطبا كان في يمينه ويحفظ النوى في يساره، فمرت شاة فأشار إليها بالنوى، فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة[2]، وكان ربما أكل العنب فرطا - قلت: رأيت في بعض الطرر ملأ الفم هـ - يرى زؤانه على لحيته كخرز اللؤلؤ، وهو الماء الذي يقطر منه، وكان أكثر طعامه التمر واللّبن، كان يتمجع اللّبن بالتمر - قلت: المجيع ضرب من الطَّعام تمر يعجن بلبن هـ -، ويسميهما الطيبان، وكان أحب إليه اللَّحم، ويقول: هو يزيد في السمع، وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة[3]، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل، وكان يأكل الثَّريد باللَّحم والقرع، وكان يحب القرع، ويقول: إنَّها شجرة أخي يونس، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقول يا عائشة إذا طبختم قدرا فأكثروا فيها من الدباء، فإنه يشد قلب الحزين[4]، وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد، وكان يتبعه ولا يصيده، ويحب أن يصاد له ويؤتى به فيأكله، وكان إذا أكل اللحم لم يطأطئ رأسه إليه ورفعه إلى فيه رفعا ثم ينتهشه انتهاشا، وكان يأكل السمن والخبز، وكان يحب من الشاة الذراع والكتف،

---

(1) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (290/2): "قلت: المعروف أن الذي صنعه عثمان: الخبيص رواه البيهقي في الشعب من حديث ليث بن أبي سليم قال: إن أول من خبص الخبيص عثمان بن عفان قدمت عليه عير تحمل النقي والعسل. الحديث. وقال هذا منقطع وروى الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن سلام: أقبل عثمان ومعه راحلة عليها غرارتان. وفيه: فإذا دقيق وسمن وعسل. وفيه: ثم قال لأصحابه كلوا هذا الذي تسميه فارس الخبيص. وأما خبر الفالوذج فرواه ابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث ابن عباس قال: أول ما سمعنا بالفالوذج أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن أمتك تفتح عليهم الأرض ويفاض عليهم من الدنيا إنهم ليأكلون الفالوذج قال النبي صلى الله عليه وسلم: وما الفالوذج؟ قال: يخلطون السمن والعسل جميعا. قال ابن الجوزي في الموضوعات هذا حديث باطل لا أصل له ".

(2) رواه أبو بكر الشافعي في فوائده من حديث أنس بإسناد ضعيف، كما في تخريج الإحياء (291/2).

(3) رواه ابن ماجه في سننه (1099/2) من حديث أبي الدرداء.

(4) رواه أبو بكر الشافعي في فوائده، قال العراقي: ولا يصح، انظر: فيض القدير (206/5).

ومن القدر الدباء، ومن الصباغ الخل، ومن التمر العجوة، ودعا للعجوة بالبركة، وقال: هي من الجنة، وشفاء من السم والسحر [1]، وكان يحب من البقل الهندباء والباذروج والبقلة الحمقاء - التي يقال لها الرجلة - وكان يكره الكليتين لمكانهما من البول، ولا يأكل من الشاة سبعا؛ الذكر والأنثيين والمثانة والمرارة والغدة والحيا والدم، ويكره ذلك، وكان لا يأكل الثوم والبصل والكراث، وما ذم طعاما قط، ولكن إن أعجبه أكل وإن كرهه ترك وإن عافه لم يبغضه إلى غيره وكان يعاف الضب والطحال ولا يحرمهما، وكان يلعق الصفحة، ويقول: آخر الطَّعام أكثر بركة[2]، وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر، كان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة، ويقول: فإنه لا يدري في أي الطعام البركة [3]، فإذا فرغ قال: اللهمَّ لك الحمد أطعمت وأشبعت، وسقيت وأرويت، لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه [4]، وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلا جيدا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه، وكان يشرب في ثلاث دفعات، له فيها ثلاث تسميات، وفي آخرها ثلاث تحميدات، وكان يمص مصا ولا يعب عبا، وربما كان يشرب في نفس واحد حتى يفرغ، وكان لا يتنفس في الإناء بل ينحرف عنه، وكان يدفع فضل سؤره إلى من على يمينه - فإن كان من على يساره أجل رتبة قال للذي على يمينه: السنة أن تعطى، فإن أحببت آثرتهم، وأوتي بإناء فيه لبن وعسل فأبى أن يشربه، وقال شربتين وإدامين في إناء واحد، قال عليه السلام: لا أحرمه ولكن أكره الفخر بفضول الدنيا وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه الله [5]، وكان في بيته أشد حياء من العاتق، لا يسألهم طعاما ولا يتشهاه عليهم، إن أطعموا له أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب، وكان ربما قام فيأخذ ما يأكل ويشرب بنفسه، والله الموفق.

---

(1) رواه أحمد (301/2)، والترمذي (400/4)، وابن ماجه (1142/2) وغيرهم.

(2) رواه أحمد (293/1)، والبيهقي في شعب الإيمان (81/5).

(3) رواه مسلم (1606/3).

(4) رواه أحمد (236/4).

(5) رواه الدارقطني في الأفراد كما في الكنز (433/3).

الفصل السادس في بيان آدابه وأخلاقه في اللباس صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته

اعلم يا أخي أنه كان عليه السلام يلبس ما وجد من الثياب، من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك، وكان يعجبه من اللباس الأخضر، وكان أكثر لباسه الأبيض، ويقول: ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم[1]، وكان يلبس القباء المحشو للحرب وغيره المحشو، وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه، وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين، ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق، وكان قميصه مشدود الإزار وربما حل الإزار في الصلاة وغيرها، وكانت له لحيفة مصبوغة بالزعفران، وربما صلى بالنَّاس فيها وحدها، وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول: إنما ألبس كما يلبس العبيد، وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة، وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره، يعقد طرفه من كتفه، وربما أم به النَّاس على الجنائز، وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتحفا بين طرفيه، ولم يكن ذلك الإزار الذي جمع فيه يومئذ، وربما صلى في الليل في الإزار ويرتدي ببعض الثوب مما يلي هدبه ويلقي البقية على بعض نسائه ويصلي كذلك، ولقد كان له كساء أسود فوهبه، فقالت له أم سلمة: بأبي أنت ولأمي ما فعل ذلك الكساء الأسود؟ قال: كسوته، قالت: ما رأيت شيئا قط كان أحسن من بياضك على سواده، قال أنس: وربما رأيته يصلي الظهر في شملة عاقدا بين طرفيها، وكان يتختم، وربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يستذكر به الشيء، وكان يختم به على الكتاب، ويقول: الخاتم على الكتاب خير من التهمة[2]، وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة، وربما نزع قلنسوة من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثمَّ صلَّى إليها، وربما لم تكن العمامة فشد العصابة على رأسه وجبهته، وكانت له عمامة تسمَّى السحاب، فوهبها من علي فربما طلع علي فيها، فيقول صلى الله عليه وسلم: أتاكم علي في السحاب[3]، وكان إذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه، ويقول: الحمد لله الذي كساني

---

(1) رواه أبو داود (401/2)، والترمذي (319/3)، والنسائي (34/4).

(2) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (304/2): "لم أقف له على أصل ".

(3) رواه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (390/6).

ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي[1]، وإذا نزع ثوبه خرج من مياسره، وكان إذا لبس جديدا أعطى خلف ثيابه مسكينا، ثمَّ يقول: ما من مسلم يكسو مسلما من سمل ثيابه ولا يكسوه إلَّا لله إلا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حيا وميتا[2]، وكان له فراش من أدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر أو أقل، وكانت له عباية تفرش له حيثما تنقل تثنى طاقين تحته وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره، وكان من خلقه تسمية سلاحه ودوابه ومتاعه، كان اسم رايته العقاب - قلتُ: رأيت في تفسير العقاب: هو العلام الضخم -، واسم سيفه الذي يشهد به الحروب ذو الفقار، وكان له سيف يقال له المخذم، وآخر يقال له الرسوب، وآخر يقال له: القضيب، وكانت قنبعة سيفه - قلت رأيت تفسيره قبضته - فضة، وسيفه حلي بالفضة، [وكان يلبس][3] المنطقة من الآدم فيها ثلاث حلق من فضة، وكان اسم قوسه الكتوم، وجعبته الكافور، وكان اسم ناقته: القصوى، وهي التي يشرب لبنها عينة، وكان له مطهرة من فخار يتطهر ويتوضأ فيها ويشرب منها، فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد عقلوا فيدخلون على رسول الله ﷺ فلا يدفعون عنه، فإذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا على وجوههم وأجسادهم، وهم يبتغون بذلك البركة، والله الموفق سبحانه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأمته.

الفصل السَّابع في بيان عفوه مع المقدرة صلَّى اله عليه وعلى آله وأمَّته

اعلم يا أخي أنه كان عليه السَّلام أحلم الناس وأرغبهم في العفو مع القدرة، حتى أوتي بقلائد من ذهب وفضة وقسمها بين أصحابه، فقام رجل من أهل البادية، فقال: يا محمَّد والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل، فقال: ويحك من يعدل عليك بعدي، فلما ولى، قال: ردوه علي رويدا[4]. وروى جابر أنه كان عليه السَّلام كان يقبض للناس يوم حنين [من فضة][5] في ثوب بلال فقال له رجل: يا نبي الله اعدل، فقال: ويحك

(1) رواه أحمد (44/1)، والترمذي (558/5)، وابن ماجه (1178/2).

(2) رواه الحاكم في مستدركه (214/4)، والبيهقي في الشعب (181/5).

(3) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(4) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآدابه (ص: 239).

(5) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

فمن يعدل إذا لم أعدل، لقد خبت إذا وخسرت إن كنت لا أعدل، فقام عمر وقال: ألا أضرب عنقه فإنه منافق، فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس بأني أضرب عنق أصحابي [1]. وكان عليه السلام في حرب فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل حتَّى قام على رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: الله تعالى، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، وقال: من يمنعك مني؟ فقال: كن خير آخذ، فقال: قل أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: لا غير أني لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فرجع إلى قومه، فقال: جئتكم من خير النَّاس [2]. وروى أنس أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ليأكل منها، فجيء بها النَّبي ﷺ فسألها عن ذلك، فقال: أردت قتلك، فقال: ما كان الله ليسلطك على ذلك، قالوا: أفلا تقتلها؟ قال: لا [3]. وسحره رجل من اليهود فأخبره جبريل بذلك حتى استخرجه وحل عقده فوجد خفة وما ذكر ذلك لليهودي ولا أظهره عليه قط [4]، وقصة حاطب بن أبي بلتعة إلى آخرها [5]، وقسم عليه السلام فقال رجل من الأنصار: هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فاحمر وجهه، وقال: رحم الله أخي موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر [6]، وكان عليه السَّلام يقول: لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا، أنا أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصَّدر [7].

الفصل التاسع في بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وعلى آله وأمَّته

اعلم يا أخي أنه كان عليه السَّلام أجود النَّاس وأسخاهم، وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئا، وكان علي رضي الله عنه إذا وصف النبي ﷺ قال: كان أجود النَّاس كفا وأوسع الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم

(1) رواه مسلم (741/2).

(2) رواه البخاري (1065/3) ومسلم (576/1).

(3) رواه البخاري (923/2) ومسلم (1721/4).

(4) رواه النسائي من حديث زيد بن أرقم بإسناد صحيح.

(5) رواه البخاري (1095/3) ومسلم (1941/4).

(6) رواه البخاري (1148/3)، ومسلم (739/2).

(7) رواه أحمد (395/1) وأبو داود (681/2) والترمذي (710/5).

عريكة - قلت: معناها طبيعة -، وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبَّه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله صلَّى الله عليه وسلم، ما سئل قط على شيء إلا أعطاه، وإن رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: أسلموا، فإن محمَّدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة[1]، وما سئل شيئا قط فقال: لا، وحمل إليه تسعون آلاف درهم فوضعها على حصير، ثمَّ قام إليها يقسمها، فما رد سائلا حتى فرغ منها، وجاءه رجل فسأله، فقال: ما عندي شيء، ولكن ابتع علي، فإذا جاءنا شيء قضيناه، فقال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره عليه السَّلام ذلك، فقال الرجل: أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا، فتبسم رسول الله ﷺ وعرف السرور في وجهه[2]. ولما قفل من حنين جاء الأعراب يسألونهُ حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه، فوقف عليه السَّلام، وقال: أعطوني ردائي، لو كان في عدد هذه العضاه غنما لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا [3]، والله الموفق سبحانه.

الباب العاشر في بيان شجاعته صلى الله عليه وعلى آله وأمته

اعلم يا أخي أنه كان صلَّى الله عليه وسلم أنجد النَّاس وأشجعهم، قال علي رضي الله عنه: لقد رأيتموني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد النَّاس بأسا يومئذ[4]، وقال أيضا: إذا حضر البأس ولقي القوم اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه[5]، وكان عليه السَّلام قليل الحديث قليل الكلام فإذا أمر النَّاس بالقتال تشمر، وكان من أشد النَّاس بأسا، وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدو، وقال عمران بن حصين: ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب[6]، قالوا: وكان قوي البطش، فلما غشيه المشركون

---

(1) رواه مسلم (1806/4).
(2) رواه الترمذي في الشمائل المحمدية (ص: 294).
(3) رواه البخاري (1038/3).
(4) رواه أحمد في مسنده (86/1).
(5) رواه أحمد (126/1).
(6) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآدابه (ص: 327).

نزل وجعل يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، فما رئي يومئذ أحد كان أشد منه صلَّى الله عليه وعلى آله.

الفصل الحادي عشر في بيان تواضعه صلى الله عليه وعلى آله وأمته

اعلم يا أخي أنه كان صلَّى اله عليه وسلَّم أشد النَّاس تواضعا في علو منصبه، وكان يركب الحمار موكفا عليه قطيفة، وكان مع ذلك يستردف، وكان يعود المريض، ويتبع الجنائز، ويجيب دعوة المملوك، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، وكان يصنع مع أهله في حاجتهم، وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوه من كراهته ذلك، وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم، وأتى عليه السلام برجل فأرعد من هيبته، فقال: هون عليك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد[1]، وكان يجلس مع أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل عنه، حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسا يعرفه الغريب، فبنوا له دكان من طين فكان يجلس عليه، وقالت له عائشة رضي الله عنها: كل جعلني الله فداك متكئا فإنه أهون عليك، قال: فأصغى برأسه كاد أن يصيب جبهته الأرض، ثمَّ قال: بل آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد[2]، وكان لا يأكل على خوان - قلتُ: الخوان المائدة هـ -، ولا في سكرجة حتى لحق بالله، وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال: لبيك، وكان إذا جلس مع أصحابه إن تكلموا في الآخرة أخذ معهم، وإن تحدثوا في طعام أو شراب يحدث معهم، وإن تحدَّثوا في الدنيا تحدث معهم، رفقا بهم وتواضعا لهم، وكانوا ينشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيتبسم هو إذا ضحكوا، ولا يزجرهم إلا عن حرام.

الفصل الثاني عشر في بيان صورته وخلقه صلى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته

اعلم يا أخي أنه كان من صورته صلَّى الله عليه وسلم أنه لم يكن بالطويل البائن

---

(1) رواه ابن ماجه (11101/2).

(2) رواه بنحوه أبو يعلى في مسنده (318/8).

ولا القصير المتردد، بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده، ومع ذلك فلم يماشه أحد من الناس طويلا إلا طاله صلّى الله عليه وسلم، وربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما، فإذا فارقاه نسبا إلى الطول ونسب هو عليه السلام إلى الربعة، ويقول هو عليه السّلام: جعل الخير كله في الربعة. وأمّا لونه فكان أزهر اللون ولم يكن بالأدم ولا شديد البياض، والأزهر هو البياض النّاصع الذي لا يشوبه صفرة ولا حمرة ولا شيء من الألوان، ونعته أبو طالب عمه فقال:

وأبيض يستقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة الأرامل

ونعته بعضهم بأنه مشرب بحمرة، فقالوا: إنما كان المشرب منه بالحمرة ما ظهر للشمس والرياح كالوجه والرقبة، والأزهر الصافي عن الحمرة، وكان عرقه في وجهه كاللؤلؤ الطيب من المسك الأذفر. وأمّا شعره فكان رجل الشعر وحسنه، ليس بالسبط ولا الجعد القطط، وكان إذا مشطه بالمشط يأتي كأنه حبك الرمل، وقيل كان شعره يضرب منكبيه، وأكثر الروايات إلى شحمة أذنيه، وربما جعل غدائره أربعا، تخرج كل أذن من بين غديرتين، وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوالفه تتلألأ تلؤلؤاً، وكان شيبه في الرأس واللحية سبعة عشر شيبة ما زاد على ذلك، وكان أحسن الناس وجها وأنورهم، لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر، وكان يرى رضاه وغضبه في وجهه بصفاء بشرته، وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه حين يقول:

أمين مصطفى للخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام

وكان واسع الجبهة أزج الحاجبين سابغهما، وكان أبلج مابين الحاجبين كأن بينهما الفضة الخالصة، وكانت عيناه كحلا ويرى دعجهما، وكان في عينيه يمزج في حمرة، وكان هادب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها، وكان أقنى العرنين - أي مستوي الأنف -، وكان مفلج الأسنان أي متفرقهما -، وكان إذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سن البرق إذا تلألأ، وكان من أحسن عباد الله شفتين، وألطفهم حتم فم، وكان أسهل الخدين صلتهما، ليس بطويل الوجه ولا المكلثم، كث اللحية، وكان يعفي لحيته ويأخذ شاربه، وكان من أحسن النّاس عنقا لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر ما ظهر من عنقه للشمس والرياح، كأنه إبريق فضة مشرب ذهبا يتلألأ في بياض الفضة وفي حمرة الذهب، وكان عريض الصدر لا يعدو لحم بعض بدنه بعضا، كالمراية في استوائه،

وكالقمر في بياضه موصول ما بين لبته وسرته بشعر منقاد متقارب كأنه قضيب، لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره. قلتُ: وهذا الوصف هو الذي يسميه بعضهم دقيق المسربة، وكانت له عكر ثلاث يغطى بالإزار منها واحدة ويظهر اثنتين، وكان عظيم المنكبين أشعرهما، ضخم الكراديس - أعني رؤوس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين -، وكان واسع الظهر ما بين كتفيه خاتم النبوءة وهو مما يلي منكبه الأيمن فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات، كأنها من عرف فرس، وكان عبل العضدين والذراعين طويل الزندين رحب الراحتين أي واسع الكفين سائل الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة، كفه ألين من الخز، كأن كفه عطار طيب مسها بطيب أو لم يمسها، يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحته على رأسه، وكان عبل ما تحت الإزار من الفخد والسَّاق، وكان معتدل الخلق في السمن بدن في آخر زمانه، وكان لحمه متماسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن.

وأما مشيه فكان يمشي كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب يخطو تكفيا ويمشي الهوينا بغير تبختر، والهوينا تقارب الخطا، كان يقول: أنا أشبه النَّاس بآدم، وكان أبي إبراهيم أشبه النَّاس بي خلقا وخلقا، وكان يقول: إن لي عند ربي عشرة أسماء أنا محمَّد أنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، والعاقب الذي ليس بعدي نبي، وأنا الحاشر الذي يحشر العباد على قدمي، وأنا رسول الرحمة ورسول التَّوبة ورسول الملاحم، والمقفى قفيت النَّاس جميعا وأنا قثم"[1]. قال البحتري: والقثم: الكامل الجامع صلّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

الفصل الثَّالث عشر في بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته

اعلم أن من شاهد أحواله أو أصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق وهدايته إلى ضبطهم، وتألف أصناف الخلق، وقوده إياهم إلى طاعته، مع ما يحكى من عجائب أجوبته في مضايق الأسئلة، وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر

(1) رواه ابن عدي في الكامل (65/7).

الشَّرع الذي تعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم لم يبق له ريب ولا شك في أن ذلك لم يكن مكتسبا بحيلة تقوم بها القوة البشرية، بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوي وقوة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا لملبس، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه، حتَّى أن العربي القح كان يراه فيقول: والله ما هذا وجه كذاب، فكان يشهد له بالصدق مصادره وموارده، وإنما أوردنا بعض أخلاقه ليعرف محاسن الأخلاق، ولينتبه لصدقه وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله إذا آتاه الله تعالى جميع ذلك، وهو رجل أمي لم يمارس العلم، ولم يطالع الكتب، ولم يسافر قط لطلبه، ولم يزل بين أظهر الجهال من الأعراب يتيما ضعيفا مستضعفا، فمن أين حصل له محاسن الأخلاق ومعرفة مصالح الفقه مثلا فقط دون غيره من العلوم، فضلا عن معرفته بالله وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوءة لولا صريح الوحي، ومن أين للبشر الاستقلال بذلك فلو لم يكن إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية، وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصل، فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار، واشتملت عليه الكتب الصحاح، إشارة إلى مجامعها من غير تطويل بحكاية تفصيل.

فقد خرق الله العادة على يديه غير مرة، إذ انشق له القمر بمكة لما سألته قريش، وأطعم الكثير في منزل جابر وفي منزل أبي طلحة ويوم الخندق، ومرة أطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق وهو من أولاد المعز، ومرة أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس في يده، ومرة أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير بيدها فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم.

ونبع الماء من بين أصابعه فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش، وتوضؤوا من قدح صغير ضاق أن يبسط عليه السَّلام يديه فيه، وأهرق عليه السَّلام وضوءه مرة في عين تبوك لا ماء فيها، ومرة أخرى في بئر الحديبية، فجشت بالماء فشربوا من عين تبوك أهل الجيش وهم ألف حتى رووا، وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيه قبل ذلك ماء. وأمر عليه السَّلام عمر بن الخطاب أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان في ربضة البعير، وهو موضع بركها فزودهم كلهم، وبقي فحبسه، ورمى الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم، ونزل بذلك القرآن ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال/ 17]، وأبطل الله الكهانة بمبعثه فعدمت وكانت ظاهرة، وحن

الجدع الذي كان يخطب عليه إليه لما عمل المنبر للنبي ﷺ حتى سمع حنينه جميع أصحابه مثل صوت الإبل، وضمه إليه فسكن. ودعا اليهود إلى تمني الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك وعجزوا عنه، وهذه الآية مذكورة [في سورة][1] يقرأ بها في جميع جوامع الأمم من شرقها إلى غربها يوم الجمعة تعظيما للآية التي فيها.

وأخبرنا بالغيوب، وأنذر عثمان بأن تصيبه بلوى بعدها الجنّة، وبأن عمر تقتله الفئة الباغية، وأن الحسن يصلح الله به الفئتين، وأخبرنا بأن رجلا قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار فظهر ذلك بأن قتل ذلك الرجل نفسه، وهذه كلها أشياء لا تعرف البتة بشيء من وجوه تقدمها المعرفة لا بنجوم ولا بكتب ولا بخط ولا بزجر، وبإعلام الله تعالى له ووحيه إليه وأتبعه سراقة بن جحشم فساخت قدما فرسه في الأرض وأتبعها دخان حتى استغاث فدعا له فانطلق الفرس، وأنذره بأن سيوضع في ذراعه سوار كسرى، فكان كذاك، وأخبر بمقتل العنسي الكذاب ليلة قتله بصنعاء اليمن وأخبر من قتله، وخرج على مائتين من قرش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم فلم يروه، وشكى إليه البعير بحضرة أصحابه وتذلل له، وقال لنفر من أصحابه: أحدكم في النار ضرسه مثل أحد فماتوا كلهم على الاستقامة وارتد واحد منهم فقتل مرتدا، وقال للآخرين منهم: آخركم موتا في النار فسقط آخرهم موتا في النار فاحترق فيها ومات، ودعا شجرتين فأتتاه فاجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا، ودعا النصارى إلى المباهلة فامتنعوا وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك هلكوا فعلموا صحة قوله فامتنعوا، وأتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وهم عازمين على قتله فحيل بينهما وبين ذلك ودعا عليهما فهلك عامر بغدرة وهلك أربد بصاعقة أحرقته، وأخبر أنه يقتل أبي بن خلف الجمحي فخدشه يوم أحد خدشا لطيفا فكانت فيه منيته، وأطعم عليه السَّلام السم فمات الذي أكل معه وعاش هو بعده أربع سنين، وكلمه الذراع المسموم، وأخبر يوم بدر بمصارع قريش، ووقفهم على مصارعهم رجلا رجلا، فلم يتعد أحد منهم ذلك الموضع، وأنذر عليه السَّلام بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك، وقال: زويت لي الأرض الخبر. - قلتُ: تمام الحديث فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

رأيت منها[1] -. قال بعض شراح الحديث: ولذلك امتدت عمارة المسلمين فيما بين المشرق والمغرب، ولم تمتد في الجنوب والشَّمال مثل ذلك، لأن الجنوب فيه عمارة السودان وهم كفار، وقيل أن بلادهم مسيرة ثمانية عشر سنة، ولا فيها مسلم قط إلا مقدار مسيرة ثلاثة أيام، بمقربة مدينة تمكنا، والله أعلم، والشمال فيه عمارة الروم ويأجوج وكلهم كفار، وهذا مصداق الخبر المتقدم هـ. قال: فكان كما أخبر، فقد بلغ ملكهم من بلاد الترك إلى آخر المغرب من بحر الأندلس وبلاد الجريد ولم يتسعوا في الجنوب ولا في الشمال كما أخبر سواء، وأخبر فاطمة ابنته بأنها أول أهله لحاقا به فكان كذلك، وأخبر نساءه بأن أطولهن يدا أسرعهن لحوقا به، فكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهن يدا بالصدقة فكانت أولهنّ لحاقا به، ومسح ضرع شاة حائل لا لبن فيها فدرت فكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود، وفعل ذلك مرة أخرى في خيمة أم معبد الخزاعية، ونذرت عين بعض فسقطت فردها عليه السَّلام بيده فكانت أصح عينيه وأحسنها، وثفل في عين أرمد يوم خيبر فصح من وقته وبعثه بالراية، وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه، وأصيبت رجل بعض أصحابه فمسحها بيديه فبرئت من حينها، وقل زاد جيش كان معه فدعا بجميع ما بقي فاجتمع شيء يسير فدعا فيه بالبركة ثمَّ أمرهم فأخذوا فلم يبق وعاء في العسكر إلا ملئ من ذلك.

وحكى الحكم بن العاصي مشيته مشية ريافة فقال له كذلك فكن فلم يزل يرتعد حتى مات، وخطب عليه السَّلام امرأة فقال أبوها: إن بها برصا امتناعا من خطبته واعتذارا ولم يكن بها برص فقال عليه السلام: فليكن كذلك فبرصت، وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر. هـ.

قلت: وهذا بعض ذلك منقول من الشفا للقاضي عياض من فصول متفرقة على غير التوالي.

قال أبو الفضل رحمه الله تعالى[2]: فصل: اعلم أن الله عز وجل اسمه قادر على خلق المعرفة في قلوب عباده، والعلم بذاته وأسمائه وصفاته وجميع تكليفاته ابتداء دون واسطة لو شاء، كما حكى عن سننته في بعض الأنبياء، وذكره بعض أهل التفسير

---

(1) رواه ابن ماجه في سننه (1304/2).

(2) الشفا (192/1).

في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى/ 51]، وجائز أن يوصل إليهم جميع ذلك بواسطة تبليغهم كلامه، ويكون ذلك الواسطة إما من غير البشر كالملائكة مع الأنبياء عليهم السَّلام أو من جنسهم كالأنبياء مع الأمم، ولا مانع لهذا من دليل العقل، وإذا جاز هذا ولم يستحل وجاءت الرسل بما دل على صدقهم من معجزاتهم وجب تصديقهم في جميع ما أتوا به، لأنّ العجز مع التحدي من النَّبي ﷺ قائم مقام قول الله: صدق عبدي فأطيعوه واتبعوه، وشاهد على صدقه فيما يقوله، وهذا كاف، والتطويل فيه خارج عن الغرض.

ثم قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: وأنا أقول صدعا بالحق أن كثيرا من هذه الآيات المأثورة عنه عليه السَّلام معلومة بالقطع، أما انشقاق القمر فالقرآن نص بوقوعه، وأخبره عن وجوده، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، فلا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل عن الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك على قلوب ضعفاء الموقنين، بل يرغم بهذا أنفه، وتبيد بالعراء سحقه. وكذلك قصة نبع الماء وتكثير الطَّعام رواها الثقات عن الجم الغفير عن العدد الكثير من الصَّحابة رضوان الله عنهم، ومنها ما رواه الكافة عن الكافة متَّصلا عن من حدث بها من جملة الصحابة وأخبارهم أن ذلك كان في موطن اجتماع الكثير منهم يوم الخندق وغزوة بواط وعمرة الحديبية وغزوة تبوك وأمثالها من محافل المسلمين ومجمع العساكر، ولم يوثر أحد من الصَّحابة مخالفة للراوي فيما حكاه، ولا إنكار على من ذكره منهم أنه رواه كما رواه، فسكوت الساكت منهم كنطق الناطق، إذ هم المنزهون عن السكوت على باطل، والمداهنة في كذب، وليس هناك رغبة ولا رهبة تمنعهم، ولو كان ما سمعوه منكرا عندهم وغير معروف لديهم لأنكروه كما أنكر بعضهم على بعض أشياء رأوها من السنن والسير وحروف القرآن، وخطأ بعضهم بعضا ووهنه في ذلك مما هو معلوم، فهذا النوع كله يلحق بالقطعي من معجزاته لما بيناه.

ثمَّ قال في فصل إعجاز القرآن[1]: اعلم وفَّقنا الله وإياك أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة أوجه؛ أولها: حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك

(1) الشفا (197/1).

أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام قد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأتوا من جزالة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب، جعل الله تعالى لهم ذلك طبعا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون بيديها في المقامات وشديد الخطاب، ويرتجزون بين الطعن والضراب، ويمدحون ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون ويضعون، فيأتون بذلك السحر الحلال، ويطوفون من أوصافهم أحمل من سمط اللآل، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب.. إلى أن قال: ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل والتصرف في القول القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية، وكلا البابين لهما في البلاغة الحجَّة البالغة، والقوة الدامغة، والقدح الفالج، والمهيع الناهج، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم والبلاغة ملك قيادهم قد حووا فنونها، واستنبطوا عمومها، ودخلوا من كل باب من أبوابها.

ثم قال: فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتظاهر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وغارت في الحس مطالعه ومقاصده، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه، وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالا، وأشهر في الخطابة رجالا، وأكثر في السجع والشعر سجالا، وأوسع في الغريب واللغة مقالا، بلغتهم التي بها يتحاورون، ومنازعهم التي عنها يتناضلون، صارخا بهم في كل حين، ومقرعا لهم بضعا وعشرين عاما على رؤوس الملأ أجمعين، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس/ 38]، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة/ 23 - 24].

قلت: المعجزة العظيمة هي قوله تعالى ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ لأنه تعالى نفى وجود فعلهم مع ما كانوا فيه من الفصاحة والبراعة المذكورة قبل هذا، بل تركنا من نقل فصاحتهم الأكثر فطالعها إن شئت في الشفا، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يكذبوه

صلى الله عليه وسلم بكلام يكون مقداره واحدا وأربعين حرفا عدد حروف سورة ﴿ إنا أعطيناك الكوثر﴾ لأن حروفها أقل جميع سور القرآن، فلم يقدروا أعداء الله بالإتيان بمثل ذلك ولو بالافتراء مع شدة حرصهم على تكذيبه صلَّى الله عليه وسلم. هـ.

قال هنا القاضي عياض رحمه الله تعالى ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء/ 88] أي معينا، ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود/ 13]، وذلك أن المفترى أسهل، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب، واللَّفظ إذا تبع المعنى الصَّحيح كان أصعب، ولهذا قيل فلان يكتب كما يقال له، وفلان يكتب كما يريد، وللأول على الثاني فضل، وبينهما شأو بعيد، ولم يزل يقرعهم صلَّى الله عليه وسلم أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وآباءهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، مخادعون أنفسهم بالتشعيب بالكذب والإغراء بالافتراء؛ إن هذا إلا سحر يوثر، وسحر مستمر، وإفك افتراه، وأساطير الأولين، والمباهنة والرضى بالدنية، كقولهم: قلوبنا غلف، وفي أكنة مما تدعوننا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون، والإدعاء مع العجز بقلوبهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وقد قال لهم الله تعالى فما فعلوا وما قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة الكذاب كشف عواره لجميعهم، وسلبهم الله ما ألقوه من فصيح كلامهم، والألم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا من جنس بلاغتهم، بل ولّوا عنه مدبرين، وأتوا إليه مذعنين، من بين مهتد وبين مفتون، ولهذا لما سمع المغيرة من النَّبي ﷺ ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل/ 90]، الآية قال: والله إنَّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر.

ذكر أبو عبيد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر/ 94] فسجد، وقال: سجدت لفصاحته. وسمع آخر رجلا يقرأ ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف/ 80] فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام. وحكى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوما نائما في المسجد، فإذا بقائم على رأسه يشهد بشهادة الحق، فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم، ممن يحسن كلام العرب وغيرها،

وأنه سمع قوما من أسرى المسلمين يقرؤون آية من كتابكم، فتأملتها فإذا قد جمع فيها ما أنزل على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور/ 52]. وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية قال لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: أو بعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص/ 7] الآية فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين. فهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته، غير مضاف إلى غيره على التَّحقيق والصحيح من القولين.

قلتُ: فمعجزات نبينا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم لا تتناهى كثرة، ومعجزات الأنبياء عليهم السَّلام انقرضت بموتهم عليهم السَّلام، ومعجزات نبينا صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته باقية إلى آخر الدهر، قاهر لكل مكابر ومعاند، ووجه الإعجازية لا يحصى، فمن ذلك كل أحد وأربعين حرفا منه معجزة لا يستطيع الخلق أن يأتوا بمثلها، لأنَّها مثل مبلغ عدد حروف ﴿ إنا أعطيناك الكوثر﴾ لوقوع التحدي بسورة واحدة كما تقدم، وأما باعتبار الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وحلاوة كلمه وما احتوى عليه من الأمر والنهي وخبر القرون الماضية وقصص أنبيائها والتَّحذير والتبشير وأخبار الدنيا والآخرة وأحوال القيامة والجنة والنَّار وغير ذلك ممَّا لا يستطاع ذكره ولا يقدر على جمعه فلا يحصي ذلك إلَّا الله تعالى، وهذا ألف وسبعة وتسعون سنة من هجرته صلَّى الله عليه وسلم وهو لم يستطع أحد أن يقاومه أو يضاده أو يغير فيه نقطة واحدة أو شكلة، فأحرى حرفا منه، لما أخبر الله تعالى بحفظه فقال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج/21 - 22] وأي معجزة أعظم من هذه المعجزة، فالمؤمنون والحمد لله مصدقون نبيهم عليه السَّلام بحكم المعجزة الظاهرة لديهم لا بالتقليد للآباء والجدود، فالحمد لله والشكر على ذلك، وهذا بعض ما احتوى عليه الوجه الأول من معجزات القرآن، ومن أراد الوقوف على جميعها فليطالع كتاب الشفا، فيجد فيه شفاء أسقام قلبه، والله الموفق.

ونذكر بعض معجزاته صلَّى الله عليه وسلم من الشفا فقط للتبرك بها والعناية بسمعها قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120] أحرى أنباء سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمَّته.

فمن ذلك انشقاق القمر فقال علي من رواية أبي حذيفة الأرحبي: انشق القمر

ونحن مع رسول الله ﷺ. وعن أنس: سأل أهل مكة النَّبي ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما. رواه عن أنس قتادة، وفي رواية معمر وغيره عن قتادة عنه: أراهم القمر مرَّتين صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأمَّته أجمعين.

تنبيهات

الأول في منبع الماء من بين أصابعه، وتكثير بركاته صلَّى الله عليه وسلم

أمَّا الأحاديث في هذا فكثيرة جدا، روى حديث نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلَّم جماعة من الصحابة، منهم أنس وجابر وابن مسعود رضي الله عنهم، وأتى القاضي عياض بحديث مسند عنه يرفعه لأنس بن مالك رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس النَّاس الوضوء فلم يجدوه، فأوتي رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخره. ورواه أيضا عن أنس قتادة وقال: بإناء فيه ما يغمر أصبعه أو لا يكاد يغمر، قال: كم كنتم؟ قال: زهاء ثلاثمائة، وفي رواية عنه: وهم بالزوراء، ورواه أيضا حميد وثابت والحسن عن أنس، وفي رواية حميد: قلت كم كانوا؟ قال: ثمانين، ونحوه عن ثابت عنه. وعنه أيضا: وهم نحو سبعين رجلا.

وأمَّا ابن مسعود، ففي الصَّحيح عنه من رواية علقمة: بينما نحن مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: اطلبوا من معه فضل ماء، فأوتي بماء، فصبَّه في إناء، ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ.

وفي الصحيح[1] عن سالم بن أبي الجعد عن جابر: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله صلَّى الله عليه وسلم فتوضأ منها، وأقبل النَّاس نحوه، وقالوا ليس عندنا ماء إلا في ركوتك، فوضع رسول الله ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه

(1) صحيح البخاري (1526/4).

كأمثال العيون فيه، فقلت: كم كنتم؟ قالوا: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة. وروى مثله عن أنس عن جابر، وفيه: أنه كان بالحديبية، وفي رواية الوليد بن عبادة بن الصَّامت عنه في حديث مسلم الطَّويل في ذكره غزوة بواط قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا جابر نادي الوضوء، وذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجد إلا قطرة في عزلاء شجب، فأوتي به النبي ﷺ فغمره وتكلم بشيء لا أدري ما هو، وقال: نادي بجفنة الركب فأتيت بها فوضعت بين يديه، وذكر أنَّ النبي ﷺ بسط يده في الجفنة وفرق أصابعه وصب جابر عليه، وقال: بسم الله، قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثمَّ فارت الجفنة واستدارت حتى امتلأت، وأمر النَّاس بالاستقاء فاستقوا حتى رووا، فقلت: هل بقي أحد له حاجة، فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة، وهي ملأى. وعن الشعبي: أوتي النبي ﷺ في أسفاره بإداوة ماء، وقيل: ما معنا يا رسول الله ماء غيرها، فسكبها في ركوة، ووضع أصبعه وسطها وغمسها في الماء، وجعل النَّاس يجيئون ويتوضَّؤون ثمَّ يقومون، قال الترمذي رحمه الله: وفي الباب عن عمران بن حصين رضي الله عنه، ومثل هذا في هذه المواطن الحفيلة، والجموع الكثيرة، لا تنطرق التهمة إلى المحدث به، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه لما جبلت عليه النفوس من ذلك، ولأنهم كانوا ممَّن لا يسكت على باطل، فهؤلاء قد رووا هذا وأشاعوه، ونسبوا حضور الجم الغفير له، ولم ينكر أحد من النَّاس عليه ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه، فصاروا كتصديق جميعهم لهم، لا سيما والمنافقون كانوا في تلك المحافل كثيرين، وهم أشد النَّاس حرصا على تكذيبه صلَّى الله عليه وسلَّم، فلم يؤثر عن أحد منهم أنه طعن في شيء من ذلك والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

التنبيه الثَّاني من معجزاته
صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمَّته

تفجير الماء ببركاته وانبعاثه بمسه ودعوته: مما روى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك: وأنهم وردوا العين وهي تبض بشيء من ماء مثل الشراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله ﷺ وجهه ويديه، وأعاده فيها، فجرت بماء كثير، فاستقى الناس. قال في حديث ابن إسحاق: فانخرق من الماء ماله حس كحس الصواعق، ثمَّ قال: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد مُلِئ جنانا. وفي حديث البراء وسلمة بن الأكوع وحديثه أتم في قصة

الحديبية: وهم أربع عشرة مائة، وبئرها لا تروي خمسين شاة، فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فقعد رسول الله ﷺ على جباها، قال البراء: وأوتي بدلو منها فبصق فدعا، وقال سلمة: فإمَّا دعا وإمَّا بصق فيها، فجاشت فرووا أنفسهم وركابهم، وفي غير هاتين الروايتين في هذه القصَّة من طريق ابن شهب في الحديبية: فأخرج بينهما من كنانته فوضع في قعر قليب ليس فيه ماء، فروى النَّاس حتى ضربوا بعطر، وعن أبي قتادة: وذكر أنَّ النَّاس شكوا إلى رسول الله ﷺ العطش في بعض أسفاره، فدعا بالميضأة فجعلها في ضبنه، ثم التقم فمها، فالله أعلم نفث فيها أم لا، فشرب النَّاس حتى رووا، وملؤوا كل إناء معهم، فخيل إليه أنها كما أخذها مني، وكانوا اثنين وسبعين رجلا. وروى مثله عمران بن حصين، وذكر الطبري حديث أبي قتادة على غير ما ذكروه أهل الصَّحيح، وأنَّ النَّبي ﷺ خرج بهم ممدا لأهل مؤتة عندما بلغه قتل الأمراء، وذكر حديثا طويلا فيه معجزات وآيات للنَّبي ﷺ، وفيه إعلامهم أنهم يفقدون الماء بعد، وذكر حديث الميضأة، قال: والقوم زهاء ثلاثمائة، وفي حديث مسلم أنه قال لأبي قتادة: احفظ على ميضأتك فإنه سيكون لها نبأ، وذكر نحوه، ومن ذلك حديث عمران بن حصين رضي الله عنه حين أصاب النَّبي ﷺ وأصحابه عطش في بعض أسفارهم، فوجه رجلين من أصحابه وأعلمهما أنهما يجدان امرأة بمكان كذا معها بعير عليه مزادتان الحديث، فوجداها وأتيا بها إلى النبي ﷺ فجعل في إناء من مزادتيها، وقال: ما شاء الله أن يقول، ثمَّ أعاد الماء في المزادتين، ثم فتحت عزاليهما، وأمر الناس فملؤوا أسقيتهم حتى لم يدعوا شيئا إلا ملؤوه، فجمع للمرأة من الأزواد حتى ملأ ثوبها، وقال: اذهبي فإنا لم نأخذ من مائك شيئا، ولكن الله سقانا، الحديث بطوله. وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: هل من وضوء؟ فجاء رجل بإداوة فيها نطفة فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقة أربع عشرة مائة، وفي حديث عمر رضي الله عنه في جيش العسرة وذكر ما أصابهم من العطش حتى أنٰ الرجل لينخر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، فرغب أبو بكر إلى رسول الله ﷺ في الدعاء، فرفع يديه فلم يرجعا حتى مالت السماء فاستقيت فملؤوا ما عندهم من آنية ولم تجاوز العسكر، وعن عمرو بن شعيب أنَّ أبا طالب قال للنَّبي ﷺ وهو رديفه بذي المجاز: عطشت وليس عندي ماء، فنزل النبي ﷺ وضرب بقدمه الأرض فخرج الماء فقال: اشرب والحديث في هذا الباب كثير، ومنه الإجابة بدعاء الاستسقاء وما جانسه صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمَّته.

التَّنبيه الثَّالث: في بعض معجزاته عليه السَّلام تكثير الطعام ببركته ودعائه صلَّى الله عليه وسلم

روى هنا القاضي عياض في الشفا[1] في هذا المحل حديثا مسندا رفعه لجابر رضي الله عنه قال: إن رجلا أتى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم يستطعمه، فأطعمه بشطر وسق شعير، فمازال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى كاله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: لو لم تكله لأكلتم منه، ولقام بكم، ومن ذلك حديث أبي طلحة المشهور وإطعامه صلَّى الله عليه وسلم ثمانين أو سبعين رجلا من أقراص من شعير جاء به أنس تحت يده أي إبطه فأمر بها ففتتت، وقال فيها ما شاء الله أن يقول، وحديث جابر في إطعامه صلَّى الله عليه وسلَّم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق، قال جابر: فلأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي وأن عجيننا ليخبز، وكان رسول الله ﷺ بصق في العجين والبرمة وبارك، رواه عن جابر سعيد بن ميناء وأيمن، وعن ثابت مثله عن رجل من الأنصار وامرأته ولم يسمهما قال: وجيء بمثل الكف، فجعل رسول الله ﷺ يبسطها في الإناء، ويقول ما شاء الله، فأكل من في البيت والحجرة والدار، وكان ذلك قد امتلأ ممَّن قدم معه صلَّى الله عليه وسلم لذلك، وبقي بعدما شبعوا مثل ما كان في الإناء. وحديث أبي داود أنه صنع رسول الله ﷺ ولأبي بكر من الطعام زهاء ما يكفيهما، فقال له النَّبي ﷺ: ادع ثلاثين من أشرف الأنصار فدعاهم فأكلوا حتى تركوه، ثم قال: ادع ستين فكان مثل ذلك، ثم قال: ادع تسعين فأكلوا حتى تركوه، وما خرج منهم أحد حتى أسلم وبايعوا، قال أبو أيوب: فأكل من طعامي مائة وثمانون رجلا. وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه: أتى النبي ﷺ بقصعة فيها لحم فتعاقبوها من غدوة حتى الليل، يقوم قوم ويقعد آخرون. وَمن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكر: كنا مع النَّبي ﷺ ثلاثين ومائة، وذكر في الحديث أنه عجن صاع من طعام وصنعت شاة فشوى سواد بطنها، قال: وأيم الله ما من الثلاثين ومائة إلا وقد حز له حزة من سواد بطنها، ثم جعل منها قصعتين فأكلنا منهما أجمعون، وفضل في القصعتين فحملته على البعير. ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري عن أبيه ومثله لسلمة بن الأكوع وأبي هريرة وعمر بن الخطاب رضي الله

---

(1) الشفا (220/1).

عنهم، فذكروا مخمصة أصابت النَّاس مع النبي ﷺ في بعض مغازيه، فدعا ببقية الأزواد فجاء الرجل بالحشوة من الطَّعام وفوق ذلك وأعلاهم الذي أتى بالصَّاع من التَّمر فجمعه على قطع، قال سلمة: فحزرته كربضة العنز، ثم دعا النَّاس بأوعيتهم فما بقي في الجيش وعاء إلا ملؤوه، وبقي منه الصفة فتتبّعتهم حتى جمعتهم، فوضعت بين أيدينا صحفة فأكلنا ما شئنا وفرغنا وهي مثله حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وكانوا أربعين منهم قوم يأكلون الجذعة ويشربون المر، فصنع لهم مدا من طعام فأكلوا حتَّى شبعوا، وبقي كما هو، ثم دعا بعضاً فشربوا حتى رووا وبقي كأنه لم يشرب، وقال أنس: أن النبي ﷺ حين بنى بزينب أمره أن يدعو له قوما سمَّاهم وكل من لقيت حتى امتلأ البيت والحجرة، وقدم إليهم ثورا فيه قدر مد من تمر جعل حيسا فوضعه قدامه وغمض ثلاث أصابعه وجعل القوم يتغدون ويخرجون وبقي الثور نحوا مما كان وكان القوم أحدا أو اثنين وسبعين، وفي رواية أخرى: في هذه القصة أو مثلها أن القوم كانوا زهاء ثلاثمائة وأنهم أكلوا حتَّى شبعوا، وقال: لترفع فلا أدري حين وضعت كانت أكثر أو حين رفعت كانت أكثر، وفي حديث جعفر بن محمَّد عن أبي الحسن علي: أن فاطمة طبخت قدرا لغذائها، ووجهت عليا إلى النبي ﷺ ليتغذى معهما، فأمرها فغرفت منها لجميع نسائه صحفة صحفة، ثمَّ له عليه السَّلام ثم لعلي ثم لها ثمَّ رفعت القدر وإنها لتفيض، قالت: فأكلنا منها ما شاء الله، وأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزود أربعمائة راكب من أحمس فقال: يا رسول الله ما هي إلا أصوع، قال: اذهب، فذهب فزودهم منها، وكان قدر الفصيل الرابض من التمر وبقي بحاله من رواية دكين الأحمسي، ومن رواية جرير، ومثله من رواية النعمان بن مقرن الخبر بعينه، إلا أنه قال: أربعمائة راكب من مزينة، ومن ذلك حديث جابر في دين أبيه بعد موته، وقد كان بذل لغرماء أبيه أصل ماله ولم يقبلوه، ولم يكن في ثمرها سنتين كفاف دينه، فجاءه النَّبي ﷺ بعد أن أمره بجذها وجعلها بيادر في أصولها، فمشى فيها ودعى، فأوفى منه جابر غرماء أبيه، وفضل مثل ما كانوا يجدون كل سنة، وفي رواية: مثل ما أعطاهم. قال: وكان الغرماء يهود فعجبوا من ذلك، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: أصاب الناس مخمصة، فقال لي رسول الله ﷺ: هل من شيء؟ فقلت: نعم شيء من التمر في المزود، فقال: إيتني به، فأدخل يده صلَّى الله عليه وسلَّم، فأخرج قبضة فبسطها ودعا بالبركة، ثمَّ قال: ادع عشرة فأكلوا

حتى شبعوا، ثم عشرة كذلك حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا، وقال: خذ ما جئت به وأدخل يدك واقبض منه ولا تكله، فقبضت على أكثر ممَّا جئت به فأكلت منه، وأطعمت في حياة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر إلى أن قتل عثمان فانتهب مني فذهب، وفي رواية: فقد حملت من ذاك التمر كذا وكذا من وسق في سبيل الله، وذكرت مثل هذه الحكاية في غزوة تبوك، وأن التمر كان بضع عشرة تمرة، ومنه أيضا حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين أصابه الجوع، فاستتبعه رسول الله ﷺ، فوجد لبنا في قدح أهدي إليه، فأمره أن يدعو أهل الصفة، فقلت: ما هذا اللبن فيهم؟ كنت أحق أن أصيب منه شربة أتقوى بها، فدعوتهم، وذكر أمر النبي ﷺ له أن يسقيهم، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يروى، ثمَّ يأخذه الآخر حتى روي جميعهم، قال: فأخذ النبي ﷺ القدح، وقال: بقيت أنا وأنت، أقعد فاشرب، فشربت، ثمَّ قال: اشرب، وما زال يكررها حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكا، فأخذ القدح فحمد الله وسمَّى وشرب الفضلة. وفي حديث خالد بن عبد العزَّى: أنه أجزأ النبي ﷺ شاة، وكان عيال خالد كثيرا، يذبح الشاة فلا تبد عياله عظما عظما، وأن النبي ﷺ أكل من هذه الشاة وجعل فضلتها في دلو خالد، ودعا له بالبركة، فنثر ذلك لعياله، فأكلوا وأفضلوا، ذكر خبره الدولابي. ومن حديث الآجري في نكاح النَّبي ﷺ لعلي فاطمة: أنَّ النبي ﷺ أمر بلالا بقصعة من أربعة أمداد أو خمسة ويذبح جزوراً لوليمتها، قال: فأتيته بذلك فطعن في رأسها، ثم أدخل الناس رفقة رفقة يأكلون منها حتى فرغوا، وبقيت منها فبارك فيها وأمر حمله إلى أزواجه، وقال: كلن وأطعمن من عيشكن، وفي حديث تزوج النبي ﷺ: فصنعت أي أم سلمة حيسا فعلته في ثور بعثتني به إلى رسول الله ﷺ، فقال: ضعه وادع لي فلانا وفلانا ومن لقيته فدعوتهم، ولم أدع أحدا لقيت إلا دعوته، وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة حتى ملؤوا الصفة والحجرة، فقال لهم النَّبي ﷺ: تحلقوا عشرة عشرة، ووضع النَّبي ﷺ يده على الطعام فدعا فيه، وقال: ما شاء الله أن يقول، فأكلوا حتَّى شبعوا كلهم، فقال: ارفع فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت.

وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة في الصحيح، وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل بضعة عشر من الصَّحابة، رواه عنهم أضعافهم من التابعين، ثم من لا ينعد بعدهم، وأكثرها في قصص مشهورة وجوامع مشهودة، لا تمكن التهمة عنها إلَّا بالحق، ولا يسكت الحاضر لها على ما يتكرر.

التَّنبيه الرَّابع:
في كلام الشجر وإجابتها دعوته عليه السَّلام

في حديث رفعه عياض لابن عمر رضي الله عنهما قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فدنا منه أعرابي، فقال: يا أعرابي أين تريد؟ قال: إلى أهلي، قال: هل لك إلى خير؟ قال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّدا عبده ورسوله، قال: من يشهد على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة السمرة وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تخر الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثا فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها.

وعن بريدة: سأل أعرابي النَّبي ﷺ آية، فقال له: قل لتلك الشجرة رسول الله يدعوك، قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقها، ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغيرة حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت: السَّلام عليك يا رسول الله، قال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها، فرجعت، فدلت عروقها في ذلك الموضع فاستوت، فقال الأعرابي: إيذن لي أن أسجد لك، قال: لو أمرت أحدا أن يسجد إلى أحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها، قال: فايذن لي أقبل يديك ورجليك، فأذن له.

وفي حديث جابر بن عبد الله الطَّويل: ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فلم ير شيئا يستتر به، فإذا بشجرتين بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى أحدهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: انقادي علي بإذن الله، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يطاوع قائده، وذكر أنه فعل بأخرى مثل ذلك، حتّى إذا كان بالمنصف بينهما، قال: التئما بإذن الله، فالتأمتا، وفي رواية أخرى فقال: يا جابر قل لهذه الشجرة يقول لك رسول الله ﷺ ألحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما، ففعلت فرجعت حتى لحقت بصاحبتها فجلس خلفهما، فخرجت أحضر وجلست أحدث نفسي، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ مقبلا والشجرتان قد افترقتا كل واحدة منهما على ساق، فوقف رسول الله ﷺ وقفة، فقال برأسه هكذا يمينا وشمالا، وروى أمامة بن زيد نحوه، قال: قال لي رسول الله ﷺ في بعض مغازيه: هل - يعني مكانا لحاجة رسول الله ﷺ - فقلت: إن الوادي ما فيه موضع بالنَّاس، فقال: هل ترى من نخل أو حجارة؟ قلت: أرى نخلات متقاربات، قال: انطلق وقل لهن أن رسول الله ﷺ يأمركن أن تأتين لمخرج

رسول الله ﷺ، وقل للحجارة مثل ذلك، فقلت ذلك لهن، فوالذي بعثه بالحق لقد رأيت النخلات يتقاربن حتى اجتمعن، والحجارة يتعاقدن حتى صرن ركاما خلفهن، فلمّا قضى حاجته قال لي: قل لهن يفترقن، فوالذي نفسي بيده لرأيتهن والحجارة يفترقن حتى رجعن إلى مواضعهنّ، قال يعلى بن سبابة رضي الله عنه: كنت مع النبي ﷺ في مسير، وذكر نحواً من هذين الحديثين، وذكر فأمر فانضمتا، وفي رواية أشاءتين، وعن غيلان بن سلمة الثقفي مثله في غزاة حنين، وعن يعلى بن ضرة وهو ابن سبابة أيضا، وذكر أشياء رآها من رسول الله ﷺ، فذكر أن طلحة أو سمرة جاءت فطافت به، ثم رجعت إلى منبتها، فقال رسول الله ﷺ أنها استأذنت أن تسلم علي، وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أذنت النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا له شجرة، وعن مجاهد عن ابن مسعود في هذا الحديث: أن الجنّ قالوا من يشهد لك، قال: هذه الشجرة، تعالي يا شجرة، فجاءت تجر عروقها لها قعاقع، وذكر مثل الحديث الأول أو نحوه، ويعضد هذه الأخبار حديث أنين الجذع وهو في نفسه مشهور منتشر، والخبر به متواتر خرجه أهل الصحيح، قلت: لكونه وقع يوم الجمعة، والصحابة مجتمعون للصّلاة رضي الله عنهم، فلا نطيل بذكره. وقال علي رضي الله عنه: كنا بمكة مع رسول الله ﷺ، فخرج إلى بعض نواحيها، فما استقبله شجرة ولا جبل إلا قال له: السّلام عليك يا رسول الله. وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ: لما استقبلني جبريل بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال السّلام عليك يا رسول الله. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: لم يكن رسول الله ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له. وفي حديث العبّاس رضي الله عنه: إذا اشتمل عليه النبي ﷺ وعلى بنيه بملاءة ودعا لهم بالستر من النار كسترته إياهم بملاءته، فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت آمين آمين. وعن جعفر بن محمّد: مرض النبي ﷺ فأتاه جبريل عليه السّلام بطبق فيه رمان وعنب، فأكل منه صلّى الله عليه وسلّم فسبح. وعن أنس: صعد النّبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان أحدا فرجف بهم، فقال: اسكن أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان. ومثله عن أبي هريرة في حراء، وزاد معه: وعلي وطلحة والزبير، وقال: فإنما عليك نبي أو صديق أو شهيد، والخبر في حراء أيضا عن عثمان قال: ومعه عشرة من أصحابه أنا فيهم، وزاد عبد الرحمن وسعد قال: ونسيت الاثنين، وفي حديث سعيد بن زيد أيضا مثله، وذكر عشرة وزاد نفسه، وقد روى أنه

حين طلبته قريش قال له: ثبير[1] اهبط يا رسول الله فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله، فقال حراء: إلي رسول الله، وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن النَّبي ﷺ قرأ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام/ 91] ثم قال: يمجد الجبار نفسه، أنا الجبار، أنا الجبار، أنا الكبير، أنا الكبير المتعال، فرجف المنبر حتى قلنا ليخرَّن عنه. وعن ابن عباس: كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة، فلمَّا دخل رسول الله ﷺ المسجد عام الفتح جعل يشير بقضيب إليها ولا يمسها، ويقول: ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء/ 81]، فما أشار لوجه صنم إلا وقع لقفاه، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه، حتَّى ما بقي منها صنم. ومثله في حديث ابن مسعود قال: فجعل يطعن ويقول: ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ/ 49].

ومن ذلك حديثه مع الراهب في ابتداء أمره، إذ خرج تاجرا مع عمه، وكان الراهب لا يخرج لأحد، فخرج وجعل يتخللهم حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ، فقال: هذا سيد العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك به؟ فقال: إنه لم يَبْقَ شجر وحجر إلا خر ساجدا له، ولا تسجد إلَّا لنبي، وذكر القصة ثمَّ قال: وأقبل صلَّى الله عليه وسلم وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم سبقوه إلى فيء الشجرة، فلمَّا جلس سال الفيء إليه صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

التنبيه الخامس في الآيات في ضروب الحيوانات: أخبرنا أبو الفضل عياض رحمه الله بحديث مسند رفعه لأم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: كان عندنا داجن، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قرَّ وثبت مكانه، فلم يجيء ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب. وروي عن عمر رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابي قد صاد ضبا، فقال: من هذا؟ قالوا: نبي الله، فقال: واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب، وطرحه بين يدي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: يا ضب، فأجابه بلسان عربي مبين يسمعه القوم جميعا: لبيك وسعديك يا خير من وافى القيامة، قال: من تعبد؟ قال: من في السماء

(1) بمثلثة مفتوحة فموحدة مكسورة: جبل المزدلفة وللعرب جبال أربعة أخرى حجازية، كل منها يسمى ثبيرا.

عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنَّة رحمته، وفي النار عقابه. قال: من أنا؟ قال: رسول رب العالمين وخاتم النَّبيين، قد أفلح من صدَّقه، وخاب من كذبه، فأسلم الأعرابي.

ومن ذلك قصة كلام الذئب المشهورة؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: بينا راعي يرعى غنما عرض الذيب لشاة منها، فأخذها الراعي منه، فأقعى الذئب، وقال للرَّاعي: ألا تتقي الله حلت بيني وبين رزقي، قال الراعي: العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس، فقال الذيب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك، رسول الله بين الحرتين يحدث النَّاس بأنباء ما سبق، فأتى الراعي النَّبي ﷺ فأخبره، فقال النَّبي ﷺ، فحدثهم ثمَّ قال صدق. الحديث فيه قصة، وفي بعضه طول. وروى حديث الذيب عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي بعض اطرق عن أبي هريرة رضي الله عنه: فقال الذيب: أنت أعجب، واقفا على غنمك وتركت نبياً لم يبعث الله نبيا قط أعظم منه عنده قدرا، قد فتحت له أبواب الجنَّة وأشرف أهلها على أصحابه ينظرون قتالهم، وما بينك وبينهم إلا هذا الشعب، فتصير في جنود الله، فقال الراعي: من لي بغنمي؟ قال: أنا أرعاها حتَّى ترجع، فأسلم الرجل إلى الذيب غنمه ذكر قصته وإسلامه ووجده النَّبي ﷺ يقاتل، فقال له النبي ﷺ: عد إلى غنمك تجدها بوفرها، فوجدها كذلك، وذبح للذيب شاة منها. وعن أهبان بن أوس أنه كان صاحب القصة والمحدث بها ومكلم الذيب، وعن سلمة بن عمرو بن الأكوع وأنه كان صاحب القصة أيضا، وسبب إسلامه بمثل أبي سعيد، وقد روى ابن وهب مثل هذا أنه جرى لأبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية مع ذيب وجداه أخذ ظبيا، فدخل الظبي الحرم، فانصرف الذيب، فعجبا من ذلك، فقال الذيب: أعجب من ذلك محمَّد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النَّار، فقال أبو سفيان: واللات والعزى لئن ذكرت هذا بمكة لتتركنها خلوفا، وقد روى مثل هذا الخبر، وأنه جرى لأبي جهل وأصحابه، وعن عباس بن مرداس رضي الله عنه: لمَّا تعجب من كلام ضمار صنمه وإنشاده الشعر الذي ذكر فيه النَّبي ﷺ، فإذا طائر سقط وقال: يا عباس أتعجب من كلام ضمار، ولا تعجب من نفسك أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام وأنت جالس، فكان سبب إسلامه. هـ.

قلت: وقد تقدم لنا ذكر إسلام عباس بن مرداس ناقصا، وهنا كمال القصة، وذلك أنه كان له صنَم اسمه ضمار في البادية في موضع خلاء لقبيلة سليم كلها، فمضى يوما

لوثنه، فرأى ثعلبين يتسابقان إليه، فوقف ينظر ما يصنعان، فإذا هما بلغا للوثن فبالا عليه، فقال شعر:

أرب يـــبول الثعلـــبان برأســـه لقـد ذل مـن بالـت علـيه الـثعالب
بـرئت مـن الأصـنام والـشرك كلـه وأيقـنت أنَّ الله لا شـك غالـب

قد تقدمت هذه الرواية في السفر الأول.

وروى صاحب كتاب مفاخر الإسلام ابن معاذ التلمساني رحمه الله تعالى في الفصل الثاني في صلاة الجن على النَّبي ﷺ من حديث أبي بكر محمَّد بن شهاب الزهري أحد حفاظ التابعين رحمه الله عن عبد الرحمن بن أنس السلمي عن أبي الفضل عباس بن مرداس السلمي رضي الله عنه قال: كان سبب إسلام عباس بن مرداس أنه رأى نفسه أنه كان في لقاح له نصف النهار إذ طلعت نعامة بيضاء عليها راكب عليه ثياب مثل اللبن، فقال لي: يا عباس بن مرداس ألم تر أن السماء كتفت أحراسها، وأن الحرب خمدت أنفاسها، وفي رواية: خدعت أنفاسها - وأن الخيل وضعت أحلاسها، وأن الذي ينزل بالبر والتَّقوى ينزل يوم الاثنين صاحب الناقة القصوى، قال: فراعني ما رأيت وسمعت وخرجت مذعورا حتَّى جئت وثنا لنا كان يدعى الضمار كنَّا نعبده ونكلم من جوفه هـ. قال في غير هذه الرواية: فمضيت للوثن، فرأيت ثعلبين كما تقدم ذكرهما. هـ. وفي هذه الرواية قال: ابن صاعد في تمام حديث ابن شهاب الزهري: لأننا رجعنا إليه من حيث خرجنا لغيره، قال: يعني من بول الثعلبين ونحو ذلك، قال: ثم تمسحت به وإذا بصائح يصيح من جوفه، وقال شعر:

قـل للقـبائل مـن سـليم كلهـا هلـك الـضمار فـاز أهـل المـسجد
هلـك الـضمار وكـان يعـبد مـرة قـبل الـصلاة علـى النبـي الممجـد

انتهى. قال: فارتعدت من قوله، وأتيت قومي، وقصصت عليهم القصة، وأخبرتهم الخبر، وأنشدتهم البيتين الذي أولهما: أرب يبول الثعلبان برأسه، فقضى الله تعالى بالتوفيق، فأجمع رأي القوم على الخروج إلى رسول الله ﷺ فأتيته بالمدينة ومعي ثلاثمائة رجل من قومي من بني حارثة، فدخلت المسجد، فلمَّا رآني رسول الله ﷺ تبسَّم، وقال: أي عباس كيف كان إسلامك؟ فقصصت عليه القصة، قال: صدقت، وسر بذلك رسول الله ﷺ.

وذكر ابن القطان في كتابه في العجائب حديث إسلام أبي رقية تميم بن أوس

الداري رضي الله عنه، وفيه قال تميم الداري: كنت بالشام زمن بعث رسول الله ﷺ فخرجت إلى بعض حاجاتي فأدركني الليل، فأخذت بعادة القوم، وقلت أنا في جوار عظيم هذا الوادي اللَّيلة، فلما أخذت مضجعي ناداني مناد أسمعه ولا أراه، وقال: استعذ بالله، فإن الجن لا يجير أحدا على الله تعالى، فقلت: ما تقول؟ فقال: قد خرج رسول الأميين محمَّد ﷺ فآمنا به وأسلمنا وصلينا وراءه بالحجون، وقد ذهب أمر الجن ورميت بالشهب، فانطلق إلى محمد ﷺ، قال تميم: فلما أصبحت ذهبت إلى دير، فسألت راهبا هنالك، وأخبرته بالخبر، فقال: صدقوك تجده يخرج من الحرم ومهاجره الحرم، وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه، فأتيته صلَّى الله عليه وسلم فأسلمت وآمنت والحمد لله رب العالمين.

ومن حديث الزهري في إسلام أبي يحيى خزيم بن فاتك الأسدي رضي الله عنه قال: قال خزيم بن فاتك: أضلت إبلا لي فخرجت في طلبها، حتى إذا كنت ببارق العراق عقلت راحلتي وأنشأت أقول: أعوذ بحرمة هذا الوادي، أعوذ بسيد هذا الوادي، أعوذ بعظيم هذا الوادي، ثم توسدت ذراع ناقتي ونمت، فإذا هاتف يهتف بالليل ويقول:

عذ مخلصا بالله ذي الجلال منزل الحرام والحلال
ووحد الله ولا تبال قد صار كيد الجن في سفال
إن التقى وصالح الأعمال أفضل ما أملت للآمال

فانتبهت فزعا مرعوبا وفكرت فيما سمعت، وقلت مستفهما مسترشدا:

يا أيها الهاتف ما تقول أرشدا عندك أم تضليل

فأجابني:

هذا رسول الله ذو الخيرات بيثرب يدعوا إلى النجاة
يأمر بالصوم وبالصَّلاة ويزجر النّاس عن الهبات
ينكر في الأنام منكرات يأمر بالمعروف والصَّلاة

مبشرا بغرف الجنَّات

قال خزيم بن فاتك: فوقع قوله في قلبي، وقمت إلى راحلتي، فحللت عقالها، ثمَّ علوت سنامها، وناديت: من أنت أيها الهاتف؟ فقال: أنا ملك من ملك سيد الجن، أتيت النبي ﷺ وآمنت به، وأرسلني إلى أهل نجد أدعوهم إلى طاعة الله وإجابة داعيه،

فالحق به يا خزي، وأسلم تسلم، قال خزيم: نعم لقبول قوله، وانطلقت حتى أتيت المدينة يوم جمعة، فوفيت النَّبي ﷺ يخطب على المنبر، فقلت: أقيم على باب المسجد فإذا صلى دخلت، فإذا أنا واقف إذا أبو ذر خرج إلي فقال: يا خزيم مرحبا بك، قد بلغني إسلامك، ادخل فصل مع النَّاس، فدخلت فصليت وأخبرت رسول الله ﷺ خبري، فقال: قد وفى لك صاحبك، وقد بلغ الإبل في أهلك، فكان كما أخبر به صلَّى الله عليه وسلم.

ومن حديث أبي محمد سعيد بن جبير رحمه الله قال: بينما أنا أسير ذات يوم برمل عالج إذ غلبني النَّوم، فقلت: أعوذ بعظيم هذا الوادي من أذى الجن، ونمت فرأيت في منامي رجلا شابا بيده حربة يريد أن يضعها في نحر ناقتي فانتبهت مذعورا، ونظرت فلم أر شيئا، ثمَّ غفوت فرأيت ناقتي تضطرب وإذا برجل شاب كالذي رأيت في المنام بيده حربة ورجل شيخ يمسك بيده ويرده عنها ويقول:

يا مالك بن مهلهل بن دثار ... مهلا فذلك فإزاري وإزاري
عن ناقة الإنسي لا تعرض لها ... واختر بها ما شئت من أثواري
فلقد بدا لي منك ما لم أحتسب ... إلا رعيت قرابتي وذماري
تسموا إليه بحربة مسمومة ... تبا لفعلك يا أبا العيزاري

فأجابه الشاب بقوله:

أردت أن تسموا وتخفض قدرنا ... في غير موجبة أبا العيزاري
ما كان منكم سيد فيما مضى ... إن الخيار هم بنو الأخيار
فاقصد لقصدك يا معيكرا إنما ... كان مهلهل بن دثار

قال: فبينما هم كذلك إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش، فقال الشيخ للفتى: خذ يا أخي أيها شئت فداء لناقة الإنسي، فأخذ ثورا وانصرف، ثمَّ التفت إلى الشَّيخ، وقال: هذا إذا نزلت واديا فجئت أهله وهوله، فقل أعوذ بالله رب محمَّد صلَّى الله عليه وسلم من هول هذا الوادي، ولا تعذ بأحد من الجن فقد بطل أمرها، فقلت: من محمَّد؟ فقال: نبي عربي لا شرقي ولا غربي، بعث يوم الاثنين، قلت: أين مسكنه؟ قال: يثرب ذات النخل، قال رافع: فركبت راحلتي حتى لحقت المدينة فرآني النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم فحدثني بحديثي قبل أن أذكره له، فأسلمت له وآمنت به صلَّى الله عليه وسلم.

قال سعيد بن جبير: كنا نرى أن أبا رافع هو الذي في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ

رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن/ 6] الآية.

وذكر الإخباريون إسلام أبي غياث الجارود بن عمر سيد عبد القيس رضي الله عنه حديثا طويلا تناقله الرواة، وتناقله مسند الثقات، أتينا به مطولا لاشتماله على عجائب وآيات، وروى المحدث الحافظ أبو محمَّد الحسن بن القطان في أحكامه، والمقرئ الفاضل الرحالة أبو محمد القاسم بن داود الصديني في رحلته[1]، كلاهما عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قدم الجارود بن عبد الله وكان سيدا في قومه مطاعا، عظيما في عشيرته، رفيع القدر، عظيم الخطر، ظاهر الأدب، شامخ النسب، بديع الجمال، حسن الفعال، ذا منعة ومال، في وفد عبد القيس من ذوي الأخطار والأقدار، والفضل والإحسان، والفصاحة والبرهان، كل رجل منهم كالنَّخلة السحوق، على ناقة كالفحل الفنيق، قد جنبوا الجياد، وأعدوا للجلاد، مجدين في مسيرهم، حازمين في أمورهم، يسيرون ذميلا، ويقطعون ميلا فميلا، حتَّى أناخوا في مسجد النَّبي ﷺ، فأقبل الجارود على قومه والمشايخ من بني عمه، فقال: يا قوم هذا محمَّد الأغر، سيد العرب، وخير ولد عبد المطلب، فإذا دخلتم عليه، ووقفتم بين يديه، فأحسنوا عليه السَّلام، وأقلوا عليه الكلام، فقالوا بأجمعهم: أيها الملك الهمام، والأسد الضرغام، لا نتكلم إذا حضرت، ولا نجاوز إذا أمرت، فقل ما شئت فإنا سامعون، واعمل ما شئت فإنا تابعون، فنظر الجارود في كل كمى صنديد، قد دوموا العمائم، وتردوا بالصَّوارم، يجرون أسيافهم، ويسحبون أذيالهم، يتناشدون الأشعار، ويتذاكرون مناقب الأخيار، لا يتكلمون ولا يسكتون إلا سكوتا جميلا، إن أمرهم ائتمروا، وإن زجرهم انزجروا، كأنهم أسد غيل يقدمها [ذو لبؤة][2] مهول، حتى مثلوا بين يدي النَّبي ﷺ، فلما دخل القوم المسجد، وأبصرهم أهل المشهد، [دلف][3] الجارود بين يدي النّبي ﷺ وحسر لثامه وأحسن [سلامه][4]، ثم أنشأ يقول:

---

(1) رواه أيضا البيهقي في دلائل النبوة (478/1)، من حديث ابن عباس، وقال: قد روي من وجه آخر، عن الحسن البصري، منقطعا، وروي مختصرا من حديث سعد بن أبي وقاص، وأبي هريرة، وإذا روي حديث من أوجه وإن كان بعضها ضعيفا دل على أن للحديث أصلا والله أعلم، وصرح الحافظ السيوطي (169/1) في اللآلئ ببطلانه.

(2) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(3) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(4) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

يــا نبــي الهــدى أتــتك رجــال قطعــت فدفــدا وآلا فــآلا
وطــوت نحــوك الــصحاصح طــرا لا تخــال الكــلال فــيك كــلالا
كــل دهمــاء يقــصر الطــرف عــنها أرقلــتها قلاصــنا إرقــالا
وطــوتها الجــياد تجمــح فــيها بكمــاة كــأنجم تــتلالا
تبتغــي دفــع بــأس يــوم عــبوس أوجــل القلــب ذكــره ثــم هــالا

فلمّا سمع رسول الله ﷺ شعره فرح فرحا شديدا، وقربه وأدناه، ورفع مجلسه وجاه، وأكرمه وأجمل قراه، وقال: يا جارود لقد تأخر بك وبقومك الموعد، وطال بكم الأمد، قال: والله يا رسول الله لقد أخطأ قصده من أخطاك، وعدم رشده من صد عنك، وتلك وايم الله أكبر خيبة، وأعظم حوبة، والرائد لا يكذب أهله، ولا يغش نفسه، لقد جئت بالحق، ونطقت بالصدق، والذي بعثك بالحق واختارك للمؤمنين وليا، لقد وجدت وصفك في الإنجيل، ولقد بشر بك ابن البتول، فطول التحية لك، والشكر لمن أكرمك وأرسلك، لا أثر بعد عين، ولا شك بعد يقين، مد يدك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك محمّد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأمّته، قال: فقام الجارود وآمن من قومه كل سيد، فسر النبي ﷺ سرورا، وابتهج حبورا، وقال: يا جارود هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف قسا بن ساعدة، قال: كلنا يعرفه يا رسول الله، وأنا من بين قومي كنت أقفو أثره، وأطلب خبره، كان سبطا من أسباط العرب، صحيح النسب، فصيحا إذا خطب، [يتحسى في تقفره][1] بيض النعام، ويأنس بالوحوش والهوام، يلبس المسوح، ويتبع السياح على منهج المسيح، لا يفتر من الرهبانية، مقر لله بالوحدانية، يضرب بحكمته الأمثال، وتكشف به الأهوال، ويتبعه الأبدال، أدرك رأس الحواريين سمعان، فهو أول [من تأله][2] من العرب، وأعبد من تعبد في الحقب، وأيقن بالبعث والحساب، وحذر سوء المنقلب في المآب، ووعظ بذكر الموت، وأمر بالعمل قبل الفوت، الحسن الألفاظ، الخاطب بسوق عكاظ، العالم بشرق وغرب، ويابس ورطب، وأجاج وعذب، كأني أنظر إليه والعرب بين يديه، يقسم بالرب الذي هو له، ليبلغن الكتاب أجله، وليوفين كل عامل عمله، ثمّ أنشأ يقول:

---

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.
(2) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

هـــاج للقلـــب مـــن جـــواه ادكـــار ولــــيال خلالهـــــــن نهــــــار
ونجـــــوم يحـــــثها قمـــر اللـــيل وشـــمس فـــي كـــل يـــوم تـــدار
ضــــــوءها يطمـــــس العـــــيون ورعـــاد شـــديد فـــي الخافقـــين مطـــار
وغـــــلام وأشـــــمط ورضـــــيع كلهـــم فـــي التـــراب يـــوما يـــزار
وقـــصور مـــشيدة حـــوت الخيـــر وأخــــرى خلـــت فهـــن قفـــار
وكثيــــر ممـــــا يقـــصر عـــنه جوســـة الناظـــر الـــذي لا يحـــار
والـــذي قـــد ذكـــرت دل علـــى الله نفوســــا لهــــا هـــــدى واعتـــبار

فقال النبي ﷺ: على رسلك يا جارود، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل له أورق، وهو يتكلم بكلام مؤنق، ما أظن أني أحفظه، فهل فيكم يا معشر المهاجرين والأنصار من يحفظ لنا منه شيئا، فوثب أبو بكر الصديق رضي الله عنه قائما، وقال: يا رسول الله إني أحفظه، وكنت حاضرا إذ ذاك اليوم بسوق عكاظ حين خطب فأطنب، ورغب ورهب، وحذر وأنذر، وقال في خطبته: أيها النَّاس اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر وإنبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات، وجمع وأشتات، وآيات بعد آيات، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا هناك فناموا؟ أقسم قس قسما حقا لا حانثا به ولا آثما، إن لله دينا أحب من دينكم الذي أنتم عليه، ونبيا قد حان حينه، وأضلكم أوانه، وأدرككم إبانه، فطوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه وعصاه، ثم قال: تبا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية، يا معشر العباد، أين الآباء والأجداد، وأين المريض والعواد، وأين الفراعنة الشداد، أين [من](1) بنى وشيد؟ وزخرف ونجد، وغره المال والولد، أين من بغى وطغى، وجمع فأوعى، وقال: أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا، وأبعد منكم آمالا، وأطول منكم آجالا، طحنهم الثرى بكلكله، ومزَّقهم بتطاوله، فتلك عظامهم بالية، وبيوتهم خالية، عمرتها الذياب العاوية، كلا بل هو الله الواحد المعبود، ليس بوالد ولا مولود ثمَّ أنشأ يقول:

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

فــــي الذاهبـــــين الأولـــــين مــــن القـــرون لــــنا بــــصائر
لمـــا رأيـــت مـــواردا للمـــوت لـــــيس لهـــــا مــــصادر
ورأيـــــت قومـــــي نحـــوها يمـــضي الأصـــاغر والأكابـــر
لا يـــرجع الماضـــي إلـــي ولا مـــــن الباقـــين غابـــر
أيقـــنت أنـــي لا محالـــة حـــيث صـــار القـــوم صـــائر

قال: ثمَّ جلس. فقام رجل من الأنصار بعده كأنه قطعة جبل، [ذو هامة][1] عظيمة، وقامة جسيمة، قد دوم عمامته، وأرخى ذؤابته، منيف أنوف أشرق حسن الصوت، فقال: يا سيد المرسلين، وصفوة رب العالمين، لقد رأيت من قس عجبا، وشهدت منه مرغبا، فقال: ما الذي رأيت منه وحققت عنه؟ فقال: خرجت في الجاهلية أطلب بعيرا لي شرد مني، أقفو أثره، وأطلب خبره، في فيافي حقائف، ذات دعادع وزعازع، وليس للراكب فيها مقيل، ولا لغير الجن سبيل، وإذا بموئل مهول في طود عظيم ليس به إلا البوم، وأدركني الليل فولجته مذعورا [لا آمن][2] فيه حتفي، ولا أركن إلى غير سيفي، فبت بليل طويل، كأنه بليل متصل، أرقب الكوكب، وأرمق الغيهب، حتى إذا الليل عسعس، وكاد الصبح أن يتنفس، إذا بهاتف يقول:

يـــا أيهـــا الـــراقد فـــي اللـــيل الأحـــم قـــد بعـــث الله نبـــيا فـــي الحـــرم
مـــن هاشـــم أهـــل الـــوفاء والكـــرم يجلـــو دجـــنات الدياجـــي والـــبهم

قال: فأدرت طرفي فما رأيت له شخصا، ولا سمعت له فحصا، فأنشأت أقول:

يـــا أيهـــا الهاتـــف فـــي داجـــي الظلـــم أهـــلا وســـهلا بـــك مـــن طـــيف ألـــم
بـــين هـــداك الله فـــي لحـــن الكلـــم مـــاذا الـــذي تدعـــو إلـــيه يغتـــنم

قال: فإذا بنحنحة وقائل يقول: ظهر النور، وبطل الزور، وبعث الله عز وجل محمّدا بالحبور، صلّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمَّته، صاحب النجيب الأحمر والتاج والمغفر، والوجه الأزهر، والحاجب الأقمر، والطَّرف الأحور، وصاحب قول شهادة أن لا إله إلَّا الله، فذلك محمد المبعوث إلى الأسود والأبيض أهل المرر والوبر. ثمَّ أنشأ يقول:

---

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.
(2) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

الحمــــــــــد لله الــــــــــذي　　لــــم يخلــــق الخلــــق عــــبث

لــــم يخلــــنا حيــــنا ســــدى　　مــــن بعــــد عيــــسى واكتــــرث

أرســــــل فيــــــنا أحمــــــدا　　خيــــر نبــــي قــــد بعــــث

صــــــلى علــــــيه الله مــــا　　حــــج لــــه ركــــب وحــــث

قال: فذهلت عن البعير، واكتنفني السرور، ورمت المسير، ولاح الصباح، واتَّسع الإيضاح، فتركت المورا، وأخذت الجبل، فإذا أنا بالفنيق يستنشق إلى النوق، فملكت خطامه، وعلوت سنامه، فخرج طاعة، وهززته ساعة، حتى إذا لغب، وذل منه ما صعب، وحميت الوسادة، وبردت المزادة، فإذا الزاد قد هش إليه الفؤاد، فتركته فترك، وأذنت له فبرك، في روضة خضرة، ناضرة عطرة، ذات حوذان وعتيرا، كأنما قد بات الجو بها مطيرا، وباكرها المزن بكورا، فحلالها متجر، وقرارها أنور، فجعل يربع أبا، وأصيد ضبا، حتى أكلت وأكل، ونهلت ونهل، وعللت وعل، حللت عقاله، وعلوت جلاله، فاغتنم الحملة، ومر كالنبلة، يسبق الريح، ويقطع عرض الفسيح، حتَّى أشرف بي على واد من شجر عاد مورقة مونقة، فدنوت فإذا أنا بقس ابن ساعدة في أصل شجرة، بيده قضيب من أراك ينكث به الأرض وهو يترنم شعرا، يقول فيه:

يــا ناعــي المــوت والملحــود فــي　　جــدث عليهم مــن بقايا بــزهم خــرق

دعهــم فــإن لهــم يــوما يــصاح بهــم　　فهــم إذا أنــبهوا مــن نــومهم فــرقوا

حتــى يعــودوا لحــال غيــر حــالهم　　خلقــا جديــدا كمــا مــن قــبله خلقــوا

مــنهم عــراة ومــنهم فــي ثــيابهم　　مــنها الجديــد ومــنها المــنهج الخلــق

قال: فدنوت منه وسلمت عليه، فرد علي السَّلام، وإذا أنا بعين خرارة، في أرض حوارة، ومسجد بين قبرين، وأسدين عظيمين يلوذان به ويتمسحان بأثوابه، وإذا أحدهما سبق الآخر إلى الماء فتبعه الآخر يطلب الماء، فضربه بالقضيب الذي بيده، وقال: ارجع ثكلتك أمك حتى يشرب الذي ورد قبلك، فرجع ثم ورد بعده، فقلت له: ما هذان القبران؟ فقال: هذان قبرا أخوين لي كانا يعبدان الله عز وجل معي في هذا المكان، لا يشركان بالله عز وجل شيئا فأدركهما الموت فقبرتهما، وها أنا بين قبريهما حتى ألحق بهما، ثمَّ نظر إليهما فغرورقت عيناه بالدموع فانكب عليهما، وجعل يقول:

خليلــي هــبا طالمــا قــد رقــدتما　　أجــدكما لا تقــضيان كــراكما

ألــم تــريا أنــي بــسمعان مفــرد　　ومالــي فــيها مــن خلــيل ســواكما؟

مقيم على قبريكما لست بارحا	طوال الليالي أو يجيب صداكما
أبكيكما طول الحياة وما الذي	يرد على ذي عولة إن بكاكما؟
أمن طول نوم لا تجيبان داعيا	كأن الذي يسقي العقار سقاكما
كأنكما والموت أقرب غاية	بروحي في قبريكما قد أتاكما
فلو جعلت نفس لنفس وقاية	لجدت بنفسي أن تكون فداكما

فقال رسول الله ﷺ: رحم الله قسا، إني لأرجو أن يبعثه الله أمَّة وحده.

وخرَّج ابن الضحاك بسنده عن الزاهد محمد بن غيلان قال: سمعت محمدا ابن المبارك: يقول بينا أنا أسير نحو جبل اللثام، إذ خال بي الطريق عن الجادة، فملت نحو شجرة، ونمت في روح نسيمها، وحملني النوم إلى هدأة من الليل، فاستيقظت وقلت مغتبا لنفسي: لو بت في هذا المكان حتى أصبحت وطلبت ما فاتني من الطَّريق، فأجابني صوت يدل على موضعي، وهو يقول: نم مكانك، لا روع عليك، فقد حللت في بقاع الزهاد والعباد، وأهل الخوف وانفراد أمم من الإنس والجن، أحلهم اليقين بالوعد بالتغرب من الأوطان إلى هذه الجبال والقفار، يسألون الجبار العتق من النار في آناء الليل والنَّهار، فقلت: يا حبيبي وكيف بالقوم أو كيف بالنظر إليهم؟ فقال: بت مكانك فإن يشأ الله أن يجمع بينك وبينهم فإنه ولي ذلك والقادر عليه، قال: فبت بليلة طال فيها غمي وحزني، فلما انتصف الليل مرت وحش فقمت واتبعتها، وقلت: لعلها تدل بي على القوم، حتَّى جاءت إلى واد بعيد غرره، فنزلت فشربت منه الماء، ثمَّ إنها بعدت فداخلني من ذلك رعب شديد، فقلت: أين الناصحون له من خلقه؟ أين الذين قد طفئت فنظروا بأبصار القلوب إلى ما تضمنته حجب الغيوب؟ قال: فإذا أنا بصوت: ما كفى البطال أن حل في بقاع الزهاد والعباد حتى أطمع النظر إليهم وبمحادثتهم، فقلت: يا حبيبي أما علمت أن رُبَّ هارب من الله رجع إليه، وإن موعظة عاص خير من اجتهاد المجتهدين وانقطاع المنفردين، قال: إنا لنعلم أن هذا هكذا، وما علمت أن رب عباد نجباء من خلقه قد استفرغتهم الولاية، فهم كانوا لها أهلا، فقلت: يا حبيبي ما عليك لو أريتني وجهك، قال: فسمعت حركة وجماعة، فقالوا: يا هذا وما ترانا كما نراك، فقلت، فقالوا: ليس ذلك إلينا، وذلك إلى سيدنا ومولانا لو شاء أن يرفع الحجب التي بيننا وبينك لأبصرت، قلت: أوصوني بوصية تكون لي ذكرا في الدنيا والآخرة، قال قائلهم: أو تقبل الوصية؟ قلت: نعم إن شاء الله، ثمَّ قال: أوصيك ونفسي بتقوى الله في

أمرك كله، ففيه النجاة غدا، وفيه الفرج والمخرج، وإيثارك الله على من سواه والصبر في المواطن كلها، وكثرة الذكر والشكر على كل حال، فإن أول من يدعى يوم القيامة الحامدون لله على كل حال، وعليك بلزوم الصبر فإن الله يحب الصَّابرين والمجانبين دار الغرور والمنبين إلى دار الخلود، والنَّصيحة للخلق أجمعين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه يقال ما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا مثل تفلة تفلها أحدكم في بحر لجي، وعليك بحسن صحبة صاحبيك الكرام الكاتبين، وانظر من الذي وجههما إليك، ووكلهما بك، فاعرف حقوقهما ولا تنطق بينهما بشيء يكرهانه، ولا تدخلهما موضعا لا يحبانه، ولتكن عند الصباح والمساء صائما تائبا راغبا، ناصحا نفسك ولأهل قبلتك أجمعين، راضيا بما قسم الله لك، فإن أردت أن ترضي ربك فأسخط نفسك، وعليك بحفظ ما بين شفتيك، فلا تخرجن من القول إلا طيبا، ولا تدخلن من الطعام إلا حلالا، ولا تدع مع كل طرفة ومن كل نفس الصَّلاة على محمَّد ﷺ قال ابن المبارك: وانقطع عني كلامهم وحسهم. وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأمَّته.

ابن القطان في المعجزات [1]: روى ذابل بن طفيل بن عمرو الدوسي أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قعد في مسجده منصرفه من الأبطح، فقدم عليه خفاف[2] بن نضلة رضي الله عنه فأسلم وقال:

كم قد تحطمت القلوص بي الدجا	في مهمه قفر من الفلوات
حتى أتاني في المنام مساعد	من وحش قفر كان قبل موات
يدعو إليك لياليا ولياليا	ثم احزأل وقال ليس بآت
فركبت ناجية أضر بينها	حجر تخم به على الأكمات
حتى وردت إلى المدينة جاهدا	كي ما أراك تفرج الكربات

وقال: فاستحسنها رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وأمته، وقال: إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة، قال خفاف: يا رسول الله كنت شاعرا راجزا، وكان لي

---

(1) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (260/2)، والخصائص الكبرى للسيوطي (174/1)، والسيرة الشامية للصالحي (213/2).

(2) في الأصل: جندبة، والصواب ما أثبته.

صاحب من الجن فأتاني يوما فدهمني، وقال:

هـب فقـد لاح سـراج الـدين بـصادق مهـذب أمـين

فارحـل إلـيه علـى نجيـتك التـي تمـشي علـى الـصحيح والحـزون[1]

قال: فانتبهت مذعورا، فقلت: ماذا، نفسي فداؤك، فقال: وساطح الأرض وفارض الفرض لقد بعث محمَّد ﷺ في الطول والعرض، وانتبهت، وقلت:

يـا أيهـا الهاتـف يـوما بالهـدى أنـت شـافهت النّبـي محمَّـدا

أم طـارق أنـت مـن مجنون قـد سـدى بـين هـديت لا عـدمت الملهجـا

فقال: أنا رفيق، وعليك شفيق، فقد وضحت لك السراج، وأبنت لك المنهاج، فقلت: أبن لي قراره وأرضه، فقال: نشأ في المحرمات العظام، بين مذم المقام، وهاجر إلى المدينة طيبة الأمينة، آمن به الأتقياء، ونصره الأولياء، وكذب به الأشقياء، فقلت: من أنصاره؟ قال: أسد عراك، عند تلاطم الصكاك، ثمَّ سرت فإذا بهاتف يقول:

يـا راكـب العـيس يـزجيها ويزجـرها خـوف الظـلام عـناء غيـر متَّـئد

لا تزجـر العـيس واردهـا لمـربعها وارجـع إلـى الـلات والعـزَّى ولا تخـز

فسمعت هنيمة عظيمة، واضطرابا شديدا، ثمَّ هدأت الحركات، فسمعت الهاتف الأول يقول:

يـا أيهـا الـراكب المزجـي مطيـته نحـو الرسـول لقـد وفقـت للرشـد

سـر للرسـول الـذي كانـت إجابـته فرضا على الناس في الأدنى وفي البعد

قال جندبة: فساعدني القدر إلى موافاتك يا خير البشر. وصلّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وأمته.

وأمَّا صلاة الحيوان على النَّبي ﷺ: فقال ابن صعاد في مفاخر الإسلام: حدَّث الإخباريون من أهل الأثر، والمصنفون في علم السير، أنه لمَّا ورد أبرهة لهدم الكعبة خرج عبد المطَّلب في جماعة من سادات قومه أهل البيت الحرام، للقاء أبرهة عليه

---

(1) الأبيات وردت في السيرة الشامية هكذا:

هـب فقـد لاح سـراج الـدين بـصادق مهـذب أمـين

فارحـل علـى ناجـية أمـون تمـشي علـى الصحـصح والحـزون

لعنة الله الملك العلام، فوصل إليه بقومه ليستفهموه عن أمره، فلما دخلوا عليه هاب أبرهة عند المطلب، وعظم أمره، وذل وخضع إجلالا للنور المحمَّدي، وأظهر إعزازه وإكرامه، ثمَّ قال أبرهة لقائد الفيل: أخرج الفيل قاصدا بذلك إرهاب عبد المطلب وأصحابه، فأخرجه سائقه وقد زين بكل زينة، فلمَّا نظر الفيل إلى وجه عبد المطلب برك كما يبرك البعير، وخرَّ له ساجدا، ثمَّ نادى بلسان الآدميين: السلام على النور الذي في ظهرك ووجهك، يا عبد المطلب معك العز والشرف، لا تذل ولا تغلب أبدا. صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمته.

وقال ابن صعاد: قال المؤلف عفا الله عنه: سألت شيخنا الإمام المبرز في الحفظ والإتقان أبا عبد الله التونسي نازل بلدنا المحروسة تلمسان لأنها بلاده رحمة الله عليه على الجمع بين هذا الخبر، وبين قول ابن إسحاق وغيره من المحدثين أنَّ مولد النبي ﷺ كان عام الفيل، فأفاد رضي الله عنه بأنَّه قد قيل مولد النَّبي ﷺ أنه كان بعد الفيل بثلاثين سنة، واحتَّج لهذا القول بوجوه. انظرها في مفاخر الإسلام فيما يريد جمعه من أخبار النبي ﷺ وأخبار العشرة الصحابة.

وقال أن صعاد التلمساني رحمه الله في ذلك المحل الذي نقلنا عنه: وعن أبي رجاهية الله بن عمر والشيرازي قال: حدثنا أبُو الحسين أحمد بن محمَّد الصدفي قال: سمعت أبا عبد الله الروذباري يقول: كنت في البادية فعثر الجمل بي، فقلت: الله فقال الجمل: الله وصلى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وأمته. هـ.

وقال في مفاخر الإسلام أيضا في سلام الجمادات على النبي ﷺ: قال محمد بن إسحاق في كتاب السير[1]: روي لنا أن رسول الله ﷺ حين أراده الله عز وجل بكرامته، وابتدائه برسالته، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تنحسر عنه البيوت، ويقضي إلى شعاب مكة وبطون الأودية، فلا يمر صلَّى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر، إلا قال: السَّلام عليك يا رسول الله، قال: فيلتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى أحدا إلا الشجر والحجارة تكلمه وتصلّي عليه، صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

---

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (233/1).

روى مسلم[1] عن أبي عَبد الله جابر ابن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن، صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

وحدث الحافظ أبو عروبة الحسين بن أبي معشر السلمي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إني لأمشي مع النَّبي ﷺ في جبال مكة، فما من حجر ولا شجر إلا قال: السَّلام عليك يا رسول الله، صلَّى الله عليك وعلى آلك، قال: وأنا أسمع[2].

ومن حديث محمَّد بن شهاب الزهري رحمه الله أنه قال: إذا كان يوم القيامة رفع الله الكعبة البيت الحرام إلى بيت المقدس، فتمر بقبر النبي صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته في المدينة، فتقول: السَّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فيقول صلَّى الله عليه وسلَّم: وعليك السَّلام يا كعبة الله، ما حال أمَّتي؟ فتقول: يا محمد أما من وفد إليك من أمَّتك فأنا القائمة بشأنه، وأما من لو يرد عليك من أمَّتك فأنت القائم بشأنه. وصلَّى الله وسلَّم على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وأمَّته.

قلتُ: ولنرجع لما بقي من كلام أبي الفضل في الشفا، من حيث انفصلت عنه في هذه الأحاديث المروية من مفاخر الإسلام.

قال عياض رضي الله عنه[3]: وعن جابر بن عبد الله: أن رجلا أتى النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وآمن به وهو على بعض حصون خيبر وكان في غنم يرعاها لهم، فقال: يا رسول الله كيف بالغنم؟ فقال: احصب وجوهها، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك، ويردها إلى أهلها، ففعل فصارت كل شاة حتى دخلت إلى أهلها [4].

وعن أنس رضي الله عنه: دخل النبي ﷺ حائط أنصاري وأبو بكر وعمر ورجل من الأنصار وفي الحائط غنم فسجدت له، فقال أبو بكر رضي الله عنه: نحن أحق بالسجود لك منها.. الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: دخل النَّبي ﷺ حائطا فجاء بعير فسجد له وذكر مثله.

---

(1) صحيح مسلم (1782/4).

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (322/5).

(3) الشفا (232/1).

(4) رواه الأصفهاني في دلائل النبوة (188/1)، والحاكم في مستدركه (148/2).

ومثله في الجمل عن ثعلبة بن مالك وجابر بن عبد الله ويعلى ابن مرة وعبد الله بن جعفر قال: وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شد عليه الجمل، فلما دخل عليه النبي ﷺ دعاه فوضع مشفره في الأرض، وبرك بين يديه فخطمه، وقال: ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس. ومثله عن عبد الله بن أبي أوفى في حديث الجمل.

وفي خبر آخر في حديث الجمل أن النَّبي ﷺ سألهم عن شأنه، فأخبروه أنهم يريدون ذبحه - وفي رواية - أنه شكى إلي أنكم أردتم ذبحه بعد أن استعملتموه في شق العمل، فقالوا: نعم. قد روي في قصة العضبى وكلامها للنبي ﷺ وتعريفها له بنفسها ومبادرة العشب إليها في الرعي وتجنب الوحوش عنها، وقولهم لها: إنك لمحمَّد وأنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته عليه السَّلام حتى ماتت. ذكره الاسفرايني.

وروى ابن وهب: أن حمام مكة أظلَّت النبي ﷺ يوم فتحها، فدعا لها بالبركة.

وروي عن أنس وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم ليلة الغار: أمر الله شجرة فنبتت تجاه النَّبي ﷺ فسترته، وأمر حمامتين فوقفتا في فم الغار.

وفي حديث آخر: أن العنكبوت نسجت على بابه، فلما أتى الطَّالبون له ورأوا ذلك، قالوا: لو كان فيه أحد لم تكن الحمامتان ببابه، والنَّبي ﷺ يسمع كلامهم فانصرفوا.

وعن عبد الله بن قرط: قرب إلي رسول الله ﷺ بدنات خمس أو ست أو سبع لينحرها يوم عيد، فازدلفن إليه بأيهن يبدأ. قلتُ: يزدلفن معناه يتقاربن، ومنه الازدلاف المعلوم في جهل الشهور العربية والعجمية، وهو تقارب مدخل يناير ومحرم، وأقل من فضلة ما بينهما. هـ.

وعن أم سلمة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ في صحراء فنادته ظبية - قلت: يريد غزالة -، فقالت: يا رسول الله، قال: ما حاجتك؟ قالت: صادني هذا الأعرابي ولي خشفان في ذلك الجبل، فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وأرجع، قال: وتفعلين؟ قالت: نعم، فذهبت ورجعت فأوثقها، فانتبه الأعرابي، وقال: يا رسول الله لك حاجة؟ قال: نعم تطلق هذه الظبية فأطلقها. فخرجت تعدو في الصحراء، وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله

وأشهد أنك رسول الله [1].

ومن هذا الباب: ما روي من تسخير الأسد لسفينة مولى رسول الله ﷺ إذ وجهه إلى معاذ باليمن، فلقى الأسد، فعرفه أنه مولى رسول الله ﷺ ومعه كتابه، فهمهم وتنحى عن الطَّريق، وذكر في منصرفه مثل ذلك. وفي رواية أخرى: أنَّ سفينة تكسرت به فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد، فقلت: أنا مولى رسول الله ﷺ فجعل يغمرني بمنكبه حتى أقامني على الطَّريق[2].

وأخذ عليه السَّلام بأذن شاة لقوم من عبد القيس بين أصبعيه ثم خلاها، فصار لها ميسما، وبقي ذلك الأثر فيها وفي نسلها بعد.

وروي عن إبراهيم بن حماد بسنده من كلام الحمار الذي أصابه بخيبر، وقال له اسمي يزيد بن شهاب، فسمَّاه النبي ﷺ يعفورا، وأنه كان يوجهه إلى دور الصحابة فيضرب عليهم الباب برأسه ويستدعيهم، وأن النبي ﷺ لما مات تردى في بئر فمات[3].

وفي حديث الناقة التي شهدت عند النبي ﷺ لصاحبها أنه ما سرقها وأنها ملكه، وفي العنز التي أتت رسول الله ﷺ في عسكره وقد أصابهم عطش، ونزلوا على غير ماء وهم زهى ثلاثمائة فجبلها رسول الله ﷺ فأروى الجند، ثم قال لرافع: املكها وما أدارك، فربطها فوجدها قد انطلقت، رواه ابن نافع وغيره، وفيه قال رسول الله ﷺ أن الذي جاء بها هو الذي ذهب بها، وقال لفرسه عليه السَّلام وقد قام إلى الصلاة في بعض أسفاره: لا تبرح بارك الله فيك حتى نفرغ من صلاتنا، وجعلها قبلته، فما حركت عضوا حتى صلى صلَّى الله عليه وسلَّم.

ويلحق بهذا الباب: ما رواه الواقدي أن النبي ﷺ لما وجه رسله للملوك، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، فأصبح كل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثهم إليه، والحديث في هذا الباب كثير، وقد جئنا بالمشهور من ذلك، وما وقع في كتب الأئمَّة من ذلك. هـ. والله الموفق وهو الملهم سبحانه. وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

التنبيه السَّادس في إحياء الموتى وشهادتهم له بالنبوءة: اعلم يا أخي أن أبا الفضل

---

(1) دلائل النبوة للبيهقي (35/6)، والسيرة الشامية للصالحي (95/9).

(2) دلائل النبوة (45/6)، الخصائص الكبرى (108/2).

(3) الخصائص الكبرى (100/2).

عياض[1] رضي الله عنه أتى في هذا الفصل بحديث مسند رفعه لأبي هريرة رضي الله عنه: أن يهودية أهدت للنَّبي صلَّى الله عليه وسلم بخيبر شاة مصلية سمتها، فأكل صلَّى الله عليه وسلم وأكل القوم، وقال: ارفعوا أيديكم، فإنها أخبرتني أنها مسمومة، فمات بشر بن البراء، وقال لليهودية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: إن كنت نبيا لم يضرك الذي صنعت، وإن كنت ملكا أرحت الناس منك، قال: فأمر بها، فقتلت[2].

وقد روى هذا الحديث أنس، وفيه قالت: أردت قتلك، فقال: ما كان الله ليسلطك علي، فقالوا: ألا نقتلوها؟ فقال: لا وكذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه من رواية غير وهب، قال: فما عرض لها. ورواه جابر بن عبد الله: وفيه أخبرتني به هذه الذراع، قال: ولم يعاقبها، وفي رواية الحسن: إن فخذها يكلمني أنها مسمومة.

وكذلك ذكر الخبر ابن إسحاق[3]، قال: وفيه قال: فتجاوز عني.

وفي الحديث الآخر عن أنس أنه رضي الله عنه قال: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي مات منه: ما زالت أكلة خيبر تعادني فالآن أوان قطعت أبهري.

وحكى ابن إسحاق: وإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيدا مع ما أكرمه الله تعالى من النبوءة. وقال ابن إسحاق: أجمع أهل الحديث أن رسول الله ﷺ قتل اليهودية التي سمته في رواية ابن عباس رضي الله عنهما أنه دفعها لأولياء بشر بن البراء فقتلوها، وروى أنه قتلها الحديث.

وروى البزار عن أبي سعيد فذكر مثله، إلا أنه قال في آخره: فبسط يده، وقال: كلوا باسم الله فأكلنا، وذكر اسم الله فلم يضر أحدا منا. قلت: عدا بشر بن البراء، لعله مات قبل التسمية.

قال القاضي أبو الفضل عياض: وقد خرج حديث الشاة المسمومة أهل الصحيح وخرجه الأئمة وهو حديث مشهور، واختلف أئمة النَّظر في هذا الباب، فمن قائل يقول هو كلام يخلقه الله تعالى في الشاة الميتة أو الحجر أو الشجر وحروف وأصوات

---

(1) الشفا (236/1).

(2) الخصائص الكبرى (279/2)، دلائل النبوة للبيهقي (261/4)، السيرة الشامية للصالحي (134/5).

(3) السيرة النبوية لابن هشام (337/2).

يحدثها الله تعالى فيها ويسمعها منه دون تغيير أشكالها ونقلها عن هيئتها، وهو مذهب الشيخ أبي الحسن القاضي أبي بكر رحمهما الله، وآخرون ذهبوا إلى إيجاد الحياة فيها أولا ثم الكلام بعده، وحكى أيضا هذا عن شيخنا أبي الحسن وكان محتملا، والله أعلم إذا لم يجعل الحياة شرطا لوجود الحروف والأصوات، إذ لا يستحيل وجودها مع عدم الحياة بمجردها. وانظر بقية الكلام في الشفا[1]. والله الموفق سبحانه.

ثمَّ قال[2]: وروى وكيع رفعه عن فهد بن عطية أن النَّبي ﷺ أتى بصبي شب ولم يتكلم قط، فقال له: من أنا؟ فقال: رسول الله. وروى عن معرض بن معيقب رضي الله عنه: رأيت من النبي ﷺ عجبا، جيء بصبي يوم ولد فذكر مثله، وهو حديث مبارك اليمامة، ويعرف بحديث شاصونه اسم راويه، وفيه: فقال له النبي ﷺ: صدقت بارك الله فيك، ثمَّ إن الغلام لم يتكلم بعدها حتَّى شب، فكان يسمى مبارك اليمامة، وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع.

وعن الحسن: أتى رجل النّبي ﷺ وذكر أنه طرح بنينا له في واد كذا، فانطلق معه إلى الوادي، وناداها: يا فلانة أجيبي بإذن الله، فخرجت وهي تقول: لبيك وسعديك، فقال لها: إن أبويك قد أسلما، فإن أحببت أن أردك عليهما، فقالت: لا حاجة لي فيهما، وجدت الله خيرا لي منهما.

وعن أنس رضي الله عنه: أن شابا من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء فسجيناه، وعزيناه، فقالت: مات ابني، قلت: نعم، قالت: اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن يعينني على كل شدة فلا تحملن علي هذه المصيبة، فما برحنا أن كشفنا الثوب عن وجهه فطعم وطعمنا.

وروى عن عبد الله ابن عبيد الله الأنصاري: كنت فيمن دفن ثابت بن قيس بن شماس، وكان قتل باليمامة، فسمعناه حين أدخلناه القبر يقول: محمَّد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الشَّهيد، وعثمان البر الرحيم، فنظرناه فإذا هو ميت.

وذكر عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: أن زيد بن خارجة خر ميتا في بعض أزقة المدينة، فرفع وسجي، إذ سمعوه بين العشاءين والنساء يصرخن له، يقول: أنصتوا،

---

(1) الشفا (236/1) فما بعد.

(2) المصدر السابق.

فحسر عن وجهه، فقال: محمَّد رسول الله النبي الأمي وخاتم النبيين، كان ذلك في الكتاب الأول، ثم قال: صدق صدق، وذكر أبا بكر وعمر وعثمان، ثمَّ قال: السَّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثمَّ عاد ميتا كما كان رحمه الله تعالى. وصلَّى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

الفصل السَّابع
في إبراء المرضى وذوي العاهات

أول حديث أبي الفضل عياض[1] في هذا الفصل مسندا رفعه إلى سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ناولني السهم لا نصل إليه، فيقول: ارم به وقد رمى رسول الله ﷺ يومئذ عن قوسه حتى اندقت، وأصيبت يومئذ عين قتادة يعني ابن النعمان حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ فكانت أحسن عينيه. وروى قصة قتادة عاصم بن عمرو بن قتادة، ورواها أبو سعيد الخدري عن قتادة. وبصق على أثر سهم في وجه قتادة في يوم ذي قرد قال: فما ضرب علي ولا قاح، وروى النسائي[2] عن عثمان بن حنيف أن أعمى قال: يا رسول الله ادع لي أن يكشف عن بصري، قال: فانطلق فتوضأ ثم صلَّى ركعتين، ثمَّ قال: اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بالنبي محمد نبي الرحمة، يا محمَّد إني أتوجه بك إلى ربي أن يكشف عن بصري، اللهم شفعه في، قال: فرجع فكشف الله عن بصره.

وروى أن ابن ملاعب الأسنة أصابه استسقاء، فبعث إلى النَّبي ﷺ فأخذ بيده حثوة من الأرض، فثفل عليها، ثم أعطاه رسوله، فأخذها متعجبا يرى أن قد هزئ به، فأتاه بها وهو على شفا فشربها فشفاه الله.

وذكر العقيلي عن حبيب بن فريك ويقال فويك أن أباه ابيضت عيناه فكان لا يبصر بهما شيئا، فنفث رسول الله ﷺ في عينيه فأبصر، فرأيته يدخل الخيط في الإبرة وهو ابن ثمانين سنة.

ورمي كلثوم بن حصين بيوم أحد في نحره، فبصق رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فيه فبرئ. وثفل على شجة عبد الله بن أنيس فلم تمد. وثفل في عيني علي يوم خيبر

(1) الشفا (240/1).

(2) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (ص: 417).

وكان رمدا فأصبح برئاً، ونفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر فبرئت، وعلى ساق علي بن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت فبرئ مكانه وما نزل عن فرسه، واشتكى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فجعل يدعو فقال النبي ﷺ: اللهمَّ اشفه أو عافه، ثمَّ ضربه برجله فما اشتكى ذلك الوجع بعد، وقطع أبو جهل لعنه الله يوم بدر يد معود بن عفراء فجاء يحمل يده فبصق عليها رسول الله ﷺ وألصقها فلصقت، رواه ابن وهب. ومن روايته أيضا أن حبيبا ابن سناف أصيب يوم بدر مع رسول الله ﷺ بضربة على عاتقه حتى مال شقّه فرده رسول الله ﷺ، ونفث عليه حتى صح، وأتته امرأة من خثعم معها صبي به البلاء لا يتكلم فمضمض فاه وغسل يديه، ثمّ أعطاها إياه وأمرها بسقيه ومسحه به فبرئ الغلام وعقل عقلا يفضل عقول النَّاس، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: جاءت امرأة بابن لها به جنون، فمسح صدره [فثع ثعة][1] فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فسعى، وانكفأت القدر على ذراع محمد بن حاطب وهو طفل فمسح عليه ودعا له وثفل فيه فبرئ لحينه، وكانت في كف شرحبيل الجعفي سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدَّابة فشكاها للنَّبي ﷺ فما زال يطحنها بكفه حتى رفعها ولم يبق لها أثر، وسألته جارية طعاما وهو يأكل فناولها من بين يديه وكانت قليلة الحياء، فقالت: إنما أريد من الذي في فيك، فناولها ما في فيه ولم يكن صلى الله عليه وسلم يُسأل شيئا فيمنعه، فلمَّا استقر في جوفها ألقى إليها من الحياء ما لم تكن امرأة بالمدينة أشد حياء منها، وصلَّى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وأمته.

التنبيهُ الثامن: في إجابة دعائه صلَّى الله عليه وسلم وأمته قال[2]: وهذا باب واسع جدا، وإجابة النبي ﷺ لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتر على الجملة، معلوم ضرورة، وقد جاء في حديث حذيفة: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده، وأتى أبو الفضل عياض رحمه الله هنا بحديث مسند رفعه لأنس قال: قالت أمي: يا رسول الله خادمك أنس ادع الله تعالى له، قال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته»، ومن رواية عكرمة قال أنس رضي الله عنه: فو الله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليعادون اليوم على نحو المائة، وفي رواية: وما أعلم أحدا

---

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(2) الشفا (242/1).

أصاب من رخاء العيش ما أصبت، ولقد دفنت بيدي هاتين مائة من ولدي لا أقول سقطا، ولا ولدَ ولداً. ومنه دعاؤه صلَّى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف بالبركة، قال عبد الرحمن رضي الله عنه: فلو رفعت حجرا رجوت أن أصيب تحته ذهبا لوجدته، وفتح الله عليه ومات فحفر الذهب من تركته بالفؤوس حتى [مجلت][1] فيه الأيدي، وأخذت كل زوجة ثمانين ألفا، وكن أربعا، وقيل مائة ألف، وقيل: بل صولحت إحداهنَّ أنه طلقها في مرضه على نيف وثمانين ألفا، وأوصى بخمسين ألفا بعد صدقاته الفاشية في حياته وعوارفه العظيمة أعتق يوما ثلاثين عبدا، وتصدق مرة بعير فيها سبعمائة [بعير][2] وردت عليه تحمل من كل شيء، فتصدق بها وبما عليها، وبأقتابها وأحلاسها، ودعا لمعاوية رضي الله عنه بالتمكين في البلاد فنال الخلافة، ولسعيد بن أبي وقاص أن يستجيب الله دعوته فما دعا على أحد إلا استجيب له، ودعا بعز الإسلام بأحب العمرين إلى الله تعالى: عمر بن هشام، وهو أبو جهل لعنه الله، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاستجاب الله بعمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحين، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال: وقال لأبي قتادة: أفلح وجهك، اللهم بارك له في شعره وبشره، فمات وهو ابن سبعين سنة وكأنه ابن خمس عشرة، وقال للنَّابغة: لا يفضض الله فاك، فما سقطت له سن، وفي رواية: فكان أحسن النَّاس ثغرا إذا سقطت له سن نبتت له أخرى، وعاش عشرين ومائة سنة، وقيل أكثر من هذا. ودعا لابن عباس رضي الله عنهما: اللهمَّ فقهه في الدين وعلمه التأويل، فسمي الحبر وترجمان القرآن، ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه، فما اشترى شيئا إلا ربح فيه، ودعا للمقداد بالبركة فكانت عنده غرائر من المال، ودعا مثله لعروة بن أبي الجعد فقال: لقد كنت أقوم بالكناسة فما أرجع حتى أربح أربعين ألفا، وقال البخاري في حديثه: فكان لو اشترى التراب لربح فيه. وروى مثل هذا لغرقدة أيضا. وندت له صلى الله عليه ناقة فدعا فجاءه بها إعصار ريح حتى ردها عليه، ودعا لأم أبي هريرة فأسلمت، ودعا لعلي رضي الله عنه أن يكفى الحر والقر، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصَّيف، وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يصيبه حر

---

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(2) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

ولا برد، ودعا لفاطمة ابنته رضي الله عنها ألا يجيعها، قالت: فما جعت بعد. وسأله الطفيل ابن عمرو آية لقومه، فقال: اللهم نور له، فسطع له نور بين عينيه، فقال: يا رب أخاف أن يقولوا مثله، فتحول إلى طرف سوطه، فكان يضيء في الليلة المظلمة، فسمي ذا النور. ودعا على مضر فأقحطوا حتى استعطفته قريش فسقوا، ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق ملكه فلم تبق له باقية، ولا بقت لفارس يابسة في أقطار الدنيا، ودعا على صبي قطع عليه الصّلاة أن يقطع الله أثره فأقعد، وقال لرجل رآه يأكل بشماله: كل بيمينك، فقال: لا أستطيع، فقال: لا استطعت، فلم يرفعها إلى فيه، وقال لعتبة ابن أبي لهب: اللهمَّ سلط عليه كلبا من كلابك فأكله الأسد، وقال لامرأة: أكلك الأسد فأكلها - وحديثه المشهور من رواية عبد الله بن مسعود دعائه على قريش حين وضعوا السلاسل على رقبته وهو ساجد مع الفرث والدَّم وسمّاهم، قال: ولقد رأيتهم قتلوا يوم بدر. ودعا على الحكم بن العاص وكان يختلج بوجهه ويغمز عند النبي ﷺ أولا، فرآه فقال: كذلك كن، فلم يزل يختلج إلى أن مات. ودعا على محلم بن جثامة فمات لسبع فلفظته الأرض، ثم وُورِي فلفظته مرات، فألقوه بين صلدين وردموا عليه بالحجارة. - الصلد جانب الوادي -. وجحده رجل بيع فرس وهي التي شهد فيها خزيمة للنّبي ﷺ، فرد الفرس بعد النبي ﷺ على الرجل، وقال: اللهم إن كان كاذبا فلا تبارك له فيها، فأصبحت شاصية برجلها أي رافعة، وهذا الباب أكثر من أن يحاط به. وصلّى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وأمَّته.

التنبيه التاسع: في كراماته وانقلاب الأعيان له في ما لامسه أو باشره صلّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته: وللقاضي عياض رحمه الله أول هذا الفصل[1] حديث مسند رفعه إلى أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أهل المدينة فزعوا مرة، فركب رسول الله ﷺ فرسا لأبي طلحة، كان يقطف أو به قطاف، وقال: وجدت فرسك بحرا، فكان بعد لا يجارى. ونخس جمل جابر وكان قد أعيا فنشط حتى كان لا يملك زمامه، وصنع مثل ذلك بفرس لجعيل الأسجعي خفقها بمخفقة معه وبارك عليها فلم يملك رأسها نشاطا، وباع من بطنها باثني عشر ألفا، وركب حمارا قطوفا لسعد بن عبادة فرده هملاجا لا يساير، وكانت شعرات من رأسه صلّى الله عليه وسلم في قلنسوة خالد بن

(1) الشفا (245/1).

الوليد رضي الله عنه فلم يشهد بها قتالا إلا رُزق النصر، وفي الصَّحيح عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنها [أخرجت][1] جبة طيالسة، وقالت رسول الله ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها. قال حدثنا القاضي أبو علي عن شيخه أبي القاسم بن المأمون قال: كانت عندنا قصعة من قصاع النَّبي ﷺ، فكنا نجعل فيها الماء للمرضى، فكانوا يستشفون بها، وأخذ جهجاه الغفاري القضيب من بعد عثمان رضي الله عنه ليكسره على ركبته، فصاح النَّاس به فأخذته فيه الأكلة فقطعها، ومات قبل الحول. وسكب صلّى الله عليه وسلَّم فضل وضوئه في بئر قباء، فما نزفت بعد، وبصق في بئر كانت في دار أنس فلم يكن بالمدينة أعذب منها، ومر على ماء فسأل عنه، فقيل بيسان وماؤه ملح، فقال: بل هو نعمان وماؤه طيب فطاب، وأوتي عليه بدلو من ماء زمزم فمج [فيه فصارت][2] أطيب من المسك، وأعطى الحسن والحسين عليهما السَّلام لسانه فمصاه، وكانا يبكيان عطشا فسكتا، وكان لأم مالك عكة تهدي فيها للنَّبي ﷺ سمنا، فأمرها النبي ﷺ أن لا تعصرها - ثم دفعها إليها فإذا هي مملوءة سمنا، فيأتيها بنوها يسألونها الإدام وليس عندهم شيء فتعمد إليها، فتجد فيها سمنا، فكانت تقيم إدامها حتى عصرتها، وكان يتفل في أفواه الصبيان المراضع فكان يجزيهم ريقه إلى الليل.

ومن ذلك بركة يده عليه السَّلام فيما لمسه، وغرسه لسلمان حين كاتب مواليه على ثلاثمائة ودية يغرسها لهم كلها تعلق وتطعم، وعلى أربعين أوقية من ذهب، فقام عليه السلام وغرسها بيده إلّا واحدة غرسها غيره، فأخذت كلها إلا تلك الواحدة فقلعها النبي ﷺ وغرسها فأطعمت من عامها، وأعطاه مثل بيضة الدجاجة من ذهب بعد أن أدارها على لسانه، فوزن منها لمواليه أربعين أوقية، وبقي عنده مثل ما أعطاهم. وفي حديث حنش بن عقيل رضي الله عنه قال: سقاني رسول الله ﷺ شربة من سويق شربت أولها وشربت آخرها، فما برحت أجد شبعها إذا جعت، وريها إذا عطشت، وبردها إذا ظمئت. وأعطى قتادة بن النعمان وصلى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة عرجونا، وقال: انطلق به فإنه سيضيء لك من بين يديك عشرا، ومن خلفك عشرا، فإذا دخلت

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(2) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

بيتك فسترى بين يديك سوادا فاضربه حتى يخرج، فإنّه الشّيطان، فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته، ووجد السواد فضربه حتى خرج.

والحديث في هذا الباب وغيره من المعجزات كثير، والأخبار منوعة لا تحصى، ولولا الإطالة وقلة النظر لأتيت من ذلك بما يعمر الدفاتير، ولكن من أراد بعض ذلك فعليه بمطالعة كتاب الشفا للقاضي عياض رحمه الله، والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

واعلم أن من جملة الأسرار التي تدخل فيما تقدَّم الصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وعلى آله، ونأتي ببعض ما يتعلق بها في باب واحد، يشتمل على خمسة فصول، وهو باب في فضل الصَّلاة على النَّبي صلَّى الله عله وسلَّم.

الفصل الأول

في فضل الصلاة على النبي والتسليم والدعاء له

قال القاضي عياض في الشفا[1] في حديث صدر به مسند رفعه إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، وصلوا علي، فإنّه من صلى علي مرة صلّى الله عليه عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة ". وروى أنس بن ملك أنَ النبي ﷺ قال: "من صلى علي صلاة صلَّى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات "، وفي رواية: "وكتب له عشر حسنات "، وعن أنس عنه عليه السَّلام: أن جبريل عليه السَّلام ناداه، فقال: من صلى عليك صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ورفعه له عشر درجات، وفي رواية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنْه عنه عليه السَّلام: "لقيت جبريل عليه السَّلام، فقال لي: أبشرك إنَّ الله يقول: من سلم عليك سلَّمت عليه، ومن صلى عليك صليت عليه "، ونحوه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، ومالك بن أوس بن الحدثان وعبيد الله بن أبي طلحة. وعن زيد بن الحباب: سمعت النَّبي ﷺ يقول: "من قال اللَّهم صل على سيدنا وأنزله المنزل المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي "، وعن أبي مسعود رضي الله عنه: أولى النَّاس بي يوم القيامة أكثرهم علي

(1) الشفا (62/2).

صلاة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عنه عليه السَّلام: "من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب "، وعن عمر بن ربيعة: سمعت النَّبي صلَّى الله عليه وسلم يقول: "من صلى علي صلاة صلت عليه الملائكة ما صلى علي، فليقلل من ذلك عبد أو ليكثر "، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام، فقال: يا أيها النَّاس اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، فقال أبي بن كعب: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: ما شئت، قال: الربع؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير، قال: النصف؟ قال: ما شئت وإن زدت فهو خير، قال: الثلثين؟ قال: ما شئت وإن زدت فهو خير، قال: يا رسول الله فأجعل صلاتي كلها لك، قال: إذا تكفى ويغفر لك.

وعن أبي طلحة رضي الله عنه: دخلت على النَّبي ﷺ فرأيت من بشره وطلاقته ما لم أره قط، فسألته، فقال: وما يمنعني؟ وقد خرج جبريل آنفا فأتاني ببشارة من الله تعالى: إن الله بعثني إليك أبشرك أنه ليس أحد من أمتك يصلي عليك إلا صلَّى الله عليه وملائكتُه بها عشرا. وعن جابر بن عبد الله رضي الله قال: قال رسول الله ﷺ: من قال حين يسمع النداء والإقامة اللهمَّ رب هذه الدعوة التامَّة، والصلاة القائمة، آت محمَّدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة. وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمَّدا عبده ورسوله، رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا غفر له، وروى ابن وهب أن النبي صلى الله عليه وسلَّم قال: من سلم علي عشرا فكأنما أعتق رقبة، وفي بعض الآثار: ليردن علي أقوام ما أعرفهم إلا بكثرة صلاتهم علي، وفي آخر: إن أنجاكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها أكثركم علي صلاة. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: الصلاة على النَّبي ﷺ أمحق للذنوب من الماء البارد للنَّار، والسلام عليه أفضل من عتق الرقاب. صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأمَّته.

الفصل الثاني في المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسَّلام على النَّبي &

من ذلك في تشهد الصَّلاة، قال عياض: وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء، قال القاضي أبو علي رحمه الله بقراءتي عليه حديثا مسندا رفعه إلى فضالة بن عبيد رضي الله عنه يقول: سمع النَّبي ﷺ رجلا يدعو في صلاته، ولم يصل على النَّبي ﷺ،

فقال النَّبي ﷺ: عجل هذا، ثمَّ دعاه، فقال له ولغيره: إذا صلَّى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم ليصل على النَّبي ﷺ بعدها ما شاء. ويروى من غير هذا السَّند: بتمجيد الله، وهذا أصح. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: الدعاء والصَّلاة معلق بين السَّماء والأرض لا يصعد إلى الله منه شيء حتى يصلى على النبي ﷺ، وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ بمعناه، وقال: وعلى آل محمد، وروى أن الدعاء محجوب حتى يصلي الداعي على النبي ﷺ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إذا أراد أحدكم أن يسأل الله فليبدأ بحمده والثناء عليه بما هو أهله، ثمَّ يصلي على النَّبي ﷺ، ثمَّ ليسأل فإنَّه أجدر أن ينجح، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: لا تجعلوني كقدح الراكب، فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه، ويرفع متعه، فإذا احتاج إلى شراب شربه، أو الوضوء توضأ، وإلا أهرقه، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره.

قال ابن عطاء الله: الدعاء له أركان وأجنحة وأسباب وأوقات، فإن وافق أركانه قوى، وإن وافق أجنحته طار في السَّماء، وإن وافق مواقيته جاز، وإن وافق أسبابه نجح، فأركانُه حضور القلب والرقة والاستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصَّلاة على النَّبي ﷺ، وفي الحديث: الدعاء بين الصَّلاتين علي [لا يرد][1]. وفي حديث آخر: كل دعاء محجوب دون السَّماء، فإذا جاءت الصلاة عليَّ صعد الدعاء، وفي دعاء ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه عنه حنش، وقال في آخره: واستجب دعائي، ثمَّ تبدأ بالصَّلاة على النَّبي ﷺ، [فتقول: اللهم إني أسألك] أن تصلي على محمَّد عبدك ونبيك ورسولك أفضل ما صلَّيت على أحد من خلقك أجمعين. آمين.

ومن مواطن الصَّلاة عليه عند ذكره وسماع اسمه وكتابته أو عند الأذان، وقد قال عليه السلام: رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي، وكره ابن حبيب ذكر النبي ﷺ عند الذبح، وكره سحنون الصلاة عليه عند التعجب، وقال: لا يصلى عليه إلا على طريق الاحتساب وطلب الثواب. قال أصبغ عن أبن القاسم: موطنان لا يذكر فيهما إلَّا الله تعالى: الذَّبيحة والعطاس، فلا يقال فيهما بعد ذكر الله: محمَّد ﷺ، ولو قال بعد

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

ذكر الله: صلَّى الله على محمَّد لم تكن له تسمية مع الله، وقاله أشهب وقال: ولا ينبغي أن يجعل الصلاة على النبي ﷺ فيه استنانا.

وروى النسائي عن أوس بن أوس عن النَّبي ﷺ الأمر بالإكثار من الصَّلاة عليه يوم الجمعة ﷺ.

ومن مواطن الصَّلاة والسلام: دخول المسجد، قال أبو إسحاق بن شعبان: وينبغي لمن دخل المسجد أن يصلي على النبي ﷺ وعلى آله، ويترحم عليه وعلى آله، ويبارك عليه وعلى آله، ويسلم عليه تسليما، ويقول: اللهمَّ اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج يقول مثل ذلك، ويجعل موضع رحمتك فضلك. وقال عمر بن دينار في قوله ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور/61] قال: إن لم يكن في البيت أحد فقل: السَّلام على النبي ورحمة الله وبركاته، السَّلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين، السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته، قال ابن عباس: المراد بالبيوت هنا المساجد، وقال النخعي: [إذا لم يكن في المسجد أحد فقل: السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا لم يكن في البيت أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وعن علقمة] (1): إذا لم يكن في البيت أحد فقل: سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته صلَّى الله وملائكته على محمَّد، ونحوه عن كعب إذا دخل وإذا خرج، ولم يذكر الصَّلاة. واحتج ابن شعبان لما ذكره بحديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ كان يفعله إذا دخل المسجد، ومثله عن أبي بكر بن عمرو بن حزم، وذكر السَّلام والرحمة. قال عياض: وقد ذكرنا هذا الحديث آخر القسم، والاختلاف في ألفاظه.

ومن مواطن الصَّلاة التي مضى عليها عمل الأمة، ولم تنكره السنة: الصَّلاة على النَّبي ﷺ وعلى آله في الرسائل، وما كتب بعد البسملة: ولم يكن هذا في الصدر الأول، وأحدث عند ولاية بني هاشم، فمضى به عمل النَّاس في أقطار الأرض، ومنهم من يختم به أيضا الكتاب.

---

(1) سقط، وما بين المقعوفتين [ ] من الشفا (54/2).

ومن مواطن السَّلام على النَّبي ﷺ: تشهد الصَّلاة، وروى عياض هنا أعني في الشفا حديثا مسندا رفعه إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: إذا صلَّى أحدكم فليقل التحيات لله الزاكيات لله والصلوات الطيبات، السَّلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته، السَّلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين، فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح في السَّماء والأرض. هذا أحد مواطن السَّلام عليه، وسنة أول التشهد. وقد روى مالك عن عمر أنه كان يقول ذلك إذا فرغ من تشهده وأراد أن يسلم، واستحب مالك [في المبسوط أن][1] يسلم [بمثل][2] ذلك قبل السَّلام. قال محمَّد بن مسلمة: أراد ما جاء عن عائشة وابن عمر رضي الله عنهم، أنهما كانا يقولان عند سلامهما: السَّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السَّلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين، السَّلام عليكم، واستحب أهل العلم أن ينوي الإنسان عند صلاته كل عبد صالح في السماء والأرض من الملائكة وبني آدم والجن، وقال مالك في المجموعة: واجب على المأموم إذا سلم إمامه أن يقول: السَّلام على النَّبي ورحمة الله وبركاته، السَّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السَّلام عليكم.

الفصل الثالث

في بعض كيفيات الصَّلاة على النَّبي صلَّى الله وسلم

اعلم يا أخي أنَّ الصلاة والسَّلام على سيدنا محمَّد ﷺ من أفضل الأسرار والمواهب، التي تفضل بها الجليل جل جلاله على هذه الأمة، التي اصطفاها الله تعالى على جميع الأمم، لما يترتب عليها من الثواب وعلو الدرجات والتقرب من رب الأرباب، واعلم أن الفقيه القاضي أبا الفضل عياض رحمه الله أتى في هذا الفصل من الشفا[3] بحديث مسند رفعه إلى أبي حميد الساعدي رضي الله عنهم أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمَّد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم،

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(2) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(3) الشفا (58/2).

إنك حميد مجيد، والسَّلام كما قد علمتم. وفي رواية مالك عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آله كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمَّد وعلى آل محمَّد كما باركت على [آل][1] إبراهيم، إنك حميد مجيد. وعن عقبة بن عمرو رضي الله عنه في حديثه: اللهمَّ صل على محمَّد النبي الأمي وعلى آل محمَّد، وفي رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: اللهم صل على محمَّد عبدك ورسولك وذكر معناه. وحدثنا القاضي عياض رحمه الله من كتابه الشفا قال فيه: حدَّثنا القاضي أبو عبد الله التَّميمي سماعا عليه، وأبو علي الحسن بن طريف النَّحوي بقراءتي عليه، قالا: حدثنا أبو عبد الله بن سعدون الفقيه، قال: حدثنا أبو بكر المطوعي، قال: حدثنا أبو عبد الله الحاكم عن أبي بكر بن أبي دارم الحافظ، عن علي بن أحمد العجلي، عن حرب بن الحسن، عن يحيى بن المشاور، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي بن الحسين، عن أبيه علي، عن أبيه الحسين، عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وكرم وجهه قال: عدهن في يدي رسول الله ﷺ، وقال: عدهن في يدي جبريل عليه السَّلام، وقال: هكذا نزلت من عند رب العزة: اللهمَّ صل على محمَّد وعلى آل محمَّد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم وترحم على محمَّد وعلى آل محمَّد كما ترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهمَّ وتحنَّن على محمد وعلى آل محمَّد كما تحننت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهمَّ وسلم على محمَّد وعلى آل محمَّد كما سلمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وعن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ: من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صل على سيدنا محمَّد النبي الأمي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته أهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، ومن رواية خارجة بن زيد الأنصاري رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ كيف نصلي عليك؟ فقال: صلوا عليَّ واجتهدوا في الدعاء، ثم قولوا: اللهم بارك على محمد وعلى آل محمَّد كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد.

---

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

وعن سلامة الكندي رضي الله عنه: [كان علي][1] يعلمنا الصَّلاة على النَّبي ﷺ: اللهمَّ داحي المدحوات، وبارئ المسموكات، وجبار القلوب على فطرتها، اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة تحننك على محمَّد عبدك ورسولك، الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ [الجيشات][2] الأباطيل كما حمل، فاضطلع بأمرك لطاعتك، مستوفرا في مرضاتك، واعيا لوحيك، حافظا لعهدك، ماضيا على نفاذ أمرك، حتى أورى قبسا لقابس آلاء الله تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم، وأنهج موضحات الأعلام ونائرات الأحكام ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة، ورسولك بالحق رحمة، اللهمَّ افسح له في عدنك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك، مهنّئات له غير مكدرات، من فوز ثوابك المحلول، وجزيل عطائك المعلول، اللهم أعلى على بناء النَّاس بناءه، وأكرم مثواه لديك ونزله، وأتمم له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة ومرضي المقالة، ذا منطق عدل، وخطة فصل، وبرهان عظيم. وعنه أيضا في الصلاة على النَّبي ﷺ ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب، الآية/ 56] لبَّيك اللهم ربي وسعديك، صلوات الله البر الرحيم، والملائكة المقربين، والنَّبيين والصديقين، والشهداء والصَّالحين، وما سبَّح لك من شيء يا رب العالمين، على محمَّد بن عبد الله خاتم النَّبيين، وسيد المرسلين، وإمام المتَّقين، ورسول رب العالمين، الشَّاهد البشير النَّذير، الداعي إليك بإذنك السراج المنير، وعليه السَّلام. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: اللهمَّ اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين، وإمام المتَّقين، وخاتم النَّبيين، محمَّد عبدك ورسولك، إمام الخير، ورسول الرحمة، اللهمَّ ابعثه مقاما محمودا، يغبطه فيه الأولون والآخرون، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمَّد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمَّد وعلى آل محمَّد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وكان الحسن البصري يقول: من أراد أن يشرب بالكأس الأوفى من حوض المصطفى فليقل: اللهمَّ

---

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(2) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

صل على محمَّد وعلى آله وأصحابه وأولاده وأزواجه وذريته وأهل بيته وأصهاره وأنصاره وأنسابه وأهل محبَّته وأمَّته وعلينا معهم أجمعين يا أرحم الراحمين. وعن طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه كان يقول: اللهم تقبل شفاعة محمَّد الكبرى، وارفع درجته العليا، وآته سؤله في الآخرة والأولى، كما آتيت إبراهيم وموسى. وعن وهب بن الورد أنه كان يقول في دعائه: اللهمَّ اعط محمَّدا أفضل ما سألك لنفسه، واعط محمَّداً أفضل ما سألك له أحد من خلقك، واعط محمَّدا أفضل ما أنت مسؤول له إلى يوم القيامة. وعن ابن مسعود أنه قال: إذا صليتم على النَّبي ﷺ فأحسنوا الصَّلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه، وقولوا: اللهمَّ اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك علي سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النَّبيين، محمَّد عبدك ورسولك، إمام الخير، وقائد الخير، ورسول الرحمة، اللهمَّ ابعثه مقاما محمودا، يغبطه فيه الأولون والآخرون، اللهمَّ صل على سيدنا محمَّد كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

وما يؤثر في تطويل الصلاة وكثير الثناء على أهل البيت وغيرهم كثير.

وقوله صلَّى الله عليه وسلم: "كما قد علمتم "، هو ما علمهم في التَّشهد، وهو قوله: السَّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السَّلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين. وفي تشهد علي رضي الله عنه وكرم وجهه: السلام على نبي الله، السَّلام على أنبياء الله ورسله، السَّلام على رسول الله، على محمَّد بن عبد الله، السَّلام علينا وعلى المؤمنين والمؤمنات، من غاب منهم ومن شهد، اللهمَّ اغفر لمحمَّد وتقبل شفاعته، واغفر لأهل بيته، واغفر لي ولوالدي وما ولدا، وارحمهما، السَّلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين، السلام عليك أيها النَّبي ورحمة الله وبركاته.

قلت: هذا التشهد مذهب علي، لم يأخذ به مالك بن أنس رضي الله عنه في الصَّلاة، وإنما مذهبه كما قدَّمناه قبل هذا الفصل، وأمَّا في السَّلام على النَّبي صلَّى الله عليه وسلم في غير الصَّلاة والدعاء له فمستحب مطلوب هـ.

قال عياض في الشفا: جاء في هذا الحديث عن علي رضي الله الدعاء للنَّبي ﷺ في الغفران، وفي حديث الصَّلاة عنه أيضا قبل الدعاء له بالرَّحمة، ولم يأت في غيره من الأحاديث المرفوعة المعروفة، وقد ذهب أبو عمر بن عبد البر وغيره إلى أنه لا يدعى للنَّبي صلَّى الله عليه وسلم بالرحمة، وإنَّما يدعى له بالصَّلاة والبركة التي تختص

به، ويدعى لغيره بالرحمة والمغفرة، وقد ذكر أبو محمد بن أبي زيد القيرواني في الرسالة[1] في الصلاة على النَّبي ﷺ: اللهمَّ ارحم محمَّدا وآل محمَّد كما ترحَّمت على إبراهيم وآل إبراهيم، ولم يأت هذا في حديث صحيح، وحجة قوله في السَّلام: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. هـ كلام عياض في هذا المحل.

وقال في مفاخر الإسلام في ذكر الكيفية الواردة عنه عليه الصَّلاة والسَّلام في الصحاح والحسان: روى أبو الحسن مسلم بن الحجاج في كتابه المسمّى الصَّحيح[2] عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنَّينا أنه لم يسأله، ثمَّ قال رسول الله ﷺ قولوا: اللهم صل على سيدنا محمَّد وعلى آل محمَّد كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمَّد وعلى آل محمَّد كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين إنَّك حميد مجيد، والسَّلام كما قد علمتم. وفي بعض طرق هذا الحديث زيادة، فروى الإمام أحمد في مسنده[3] عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أقبل رجل حتَّى جلس بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول أمَّا السَّلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا، صلى الله عليك، قال: فصمت صلَّى الله عليه وسلَّم حتى أحببنا أن الرجل لم يسأله، فقال: إذا أنتم صليتم فقولوا: اللهمَّ صل على محمَّد النَّبي الأمي وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، ورواه أيضا بهذه الزيادة الحاكم أبو عبد الله بن الربيع في استدراكه على البخاري ومسلم في صحيحهما[4] عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيني أبو محمَّد كعب بن عجرة الأنصاري رضي الله عنه فقال: ألا أهدي لك هدية؟؛ خرج علينا رسول الله ﷺ، فقلنا: عرفنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمَّد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمَّد وعلى آل محمد كما باركت

(1) الرسالة لابن أبي زيد القيرواني (ص: 30).

(2) صحيح مسلم (305/1).

(3) مسند أحمد (119/4).

(4) المستدرك على الصحيحين (160/3).

على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وفي صحيح البخاري[1] ومسلم[2] وسنن النسائي[3] وابن ماجه[4] وقاسم بن أصبغ عن أبي حميد المنذر بن سعد السَّاعدي رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال رسول ﷺ: قولوا: اللهم صل على محمَّد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمَّد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنَّك حميد مجيد، وروى البخاري[5] ومسلم[6] والنسائي[7] عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا يا رسول الله هذا السَّلام عليك قد عرفناه، فكيف الصَّلاة؟ قال: قولوا اللهمَّ صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمَّد وآل محمَّد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وفي سنن النسائي[8] عن أبي مسعود الأنصاري رضي اله عنه قال جاء رجل إلى النَّبي ﷺ فقال: السَّلام عليك قد عرفناه، فكيف الصَّلاة عليك صلَّى الله عليك وسلَّم؟ قال: تقولون: اللهم صل على محمَّد النَّبي الأمي كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد. قاسم بن أصبغ عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية، قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على محمَّد وآل محمَّد، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمَّد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. أبُو الحسن علي بن عمر الدارقطني[9] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: علمنا رسول الله ﷺ التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن؛ التحيات لله والصلوات والطيبات، السَّلام على النبي ورحمة الله وبركاته، السَّلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين، أشهد أن لا له إلا الله وأشهد أن محمَّدا عبده

(1) صحيح البخاري (1332/3).
(2) صحيح مسلم (306/1).
(3) المجتبى من السنن للنسائي (49/3).
(4) سنن ابن ماجه (293/1).
(5) صحيح البخاري (2339/5).
(6) لم أقف عليه في صحيح مسلم، والله تعالى أعلم.
(7) المجتبى من السنن للنسائي (49/3).
(8) المجتبى من السنن للنسائي (47/3).
(9) سنن الدارقطني (354/1).

ورسوله، اللهمَّ صلِّ على محمَّد وعلى أهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم صل علينا معهم، اللهم بارك على محمَّد وعلى أهل بيته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك علينا معهم صلوات الله وصلوات المؤمنين على محمَّد النبي الأمي، السَّلام علينا ورحمة الله وبركاته. أبو داود: عن موسى بن طلحة عن عبيد الله رضي الله عنه قال: سألت صاحب رسول الله ﷺ زيد بن حارثة عن صفة الصَّلاة على النبي ﷺ قال: أنا سألت رسول الله ﷺ فقال: صلوا علي واجتهدوا في الدعاء، وقولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله. ومنه[1] عن أبي هريرة رضي اله عنه قال: قال رسول الله ﷺ من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت، فليقل: اللهم صل على محمَّد النَّبي وأزواجه أمَّهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد. النسائي[2]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهمَّ صل على محمَّد وعلى آل محمَّد، وبارك على محمَّد وعلى آل محمَّد، كما صليت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد. الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل[3]: عن بريدة المرادي رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله قد علمنا السَّلام عليك، فأخبرنا كيف الصَّلاة عليك؟ قال: تقولون اللهمَّ اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمَّد وعلى آل محمد كما جعلتها على إبراهيم إنك حميد مجيد. أبُو أحمد الجرجاني الحافظ: عن أم سلمة هند بنت أبي أمية أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ لفاطمة: ايتني بزوجك وابنيك، فجاءته بهم، فألقى عليهم رسول الله ﷺ كساء كان تحتي، أصبناه من خيبر، فقال لهم: هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمَّد كما جعلتها على إبراهيم إنك حميد مجيد، قالت أم سلمة: فرفعت الكساء لأدخل معهم، فجذبه رسول الله ﷺ من يدي، وقال: إنك على خير. وفي كتاب شرف المصطفى ﷺ قال دينار النوني: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سألت رسول ﷺ كيف الصلاة عليك تامة؟ قال: نعم اللهمَّ صل على محمَّد كما أمرتنا أن نصلي عليه، وصل على محمَّد كما ينبغي أن يصلى

(1) سنن أبي داود (323/1).

(2) السنن الكبرى للنسائي (17/6).

(3) مسند أحمد (353/5).

عليه. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: من صلى علي في كل يوم مائة صلاة حين يصلي الصبح قبل أن يتكلم قضى الله له مائة حاجة، عجل له منها ثلاثين حاجة، وأخر له سبعين، وفي المغرب مثل ذلك. قال: وكيف الصَّلاة عليك يا رسول الله؟ قال: ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، اللهمَّ صل عليه حتى تعد مائة مرة، وعن أبي محمَّد القاسم بن محمَّد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان الذي علمني رسول الله ﷺ من الصَّلاة عليه أن قال: يا عائشة إن أحببت أن تبلغيني أفضل ما يصلي علي أحد من الملائكة أو غيرهم من بني آدم، فقولي: اللهمَّ صل على محمد عبدك ورسولك الرسول النَّبي الأمي الذي آمن بك وبكتابك، واعطه أفضل رحماك، وآته الشرف على خلقك يوم القيامة، واجزه خير الجزاء، والسَّلام عليه ورحمة الله وبركاته.

قال مؤلف مفاخر الإسلام ابن صعاد التلمساني رحمه الله تعالى بعد تمام هذا الفصل: هذه الكيفيات الواردات عنه صلى الله عليه وسلَّم اختلاف طرقها بالزيادة واسع، وإن تعيين شيء منها لا يجب، وإنما المقصود أن يؤدي الواجب والمستحب من الصَّلاة على النَّبي ﷺ بلفظ الصلاة، لا بلفظ الرحمة، والثناء مثلا على كيفيات غير مخصوصة، والله أعلم. وقد استحب جماعة من العلماء منهم النووي الشافعي رحمه الله وغيره أن يلتزم في الدَّعوات والأذكار ما ورد عن النَّبي ﷺ، قال النووي: وكذلك الصَّلاة على النَّبي ﷺ يلتزم فيها ما ورد عن النَّبي ﷺ على طريق الأولى والأفضل. هـ. وانظر تواطؤ المؤلفين من الفقهاء والمحدثين المتقدمين منهم والمتأخرين لم يزالوا ملتزمين للصَّلاة على النَّبي ﷺ بلفظه عليه الصلاة والسَّلام. قلت: من غير زيادة ولا نقصان على لفظه عليه الصلاة والسَّلام، والله أعلم هـ.

قال المؤلف المذكور: وأما لفظ عليه السَّلام وغيرهما من الكيفيات المختصرات كاد أن يكون من قبل الإجماع والتواتر على سعة القول في ذلك، وكثرة استعمالهم لهذا اللَّفظ وهو صلى الله عليه وسلَّم فيه من البلاغة والإيجاز الموفي بالمقصود على أكمل وجه، وقد وجب وعين اختياره وعين ترجيحه وإيثاره والله أعلم.

قلت: فإن قال قائل: كيف يثاب الإنسان على الخبر في الحمدلة والصَّلاة، وذلك فعل الغير وإنما ذاكره هكذا مثلا يحمد لله وصلى الله على محمَّد وسلام الله على محمَّد

وسلم عليه، فهذه الألفاظ كلها بمعنى الخبر، إذ كون ذاكرها كأنه يخبر بأن الله حمد نفسه، وصلى على نبيه، وسلَّمَ عليه، والظَّاهر أن الإنسان لا يثاب إلا على الإنشاء لا على الخبر، فيقول في إنشاء الحمد لله: لك الحمد لك الثناء والشكر، فها أنا أحمدك بجميع المحامد، ونحو ذلك، والله أعلم. وتقول في إنشاء الصلاة والسلام على محمَّد عليه السَّلام: اللهم صل على سيدنا محمَّد، أو يقول: اللهم سلم على محمَّد وغيرهما من الكيفيات المذكورات في هذا الفصل وغيره، لأن الإنشاء في ذلك كله ظاهر، والعبد إنما يثاب على عمله لا على خبره، والله أعلم.

فالجواب عن ذلك - والله أعلم -: أنَّ الحمد لله والصلاة على نبيه بلفظ الخبر، والمراد بهما الإنشاء لا الخبر، لأن ذاك الحمد لله معتقد بأن المحامد كلها لله تعالى وحده على الإطلاق بهذا اللفظ وغيره، ونحن مأمورون بذكر الحمد لله، والسلام على المصطفى بصيغة الخبر لقوله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل/ 59] الآية، فقد أمرنا بذكر الحمد والسَّلام على عباد الله بلفظ الخبر، ونحن ممتثلون لأمر الله تعالى في ذلك، والذي يمتثل أمر الله فلا يختلف في إثابته، لأن العبادات كلها لا تصح إلا بالاقتداء والامتثال للأوامر، وهذا أمر ظاهر لا إشكال فيه. ومنه الصَّلاة على سيدنا محمَّد ﷺ، إذ الصَّلاة والسَّلام عليه يشتركان في المعنى، وأن من صلى على نبينا محمَّد ﷺ، وقال: صلى الله عليه وسلَّم فإنَّه يثاب على هذا اللَّفظ وإن كان بصيغة الخبر، كما يثاب على غيره من الألفاظ التي تقتضي الإنشاء، فهما في المعنى واحد، أن المصلي بقوله: صلَّى الله عليه وسلم يقصد به الإنشاء، وذلك ثابت في اعتقاده وقصده، لقوله عليه السَّلام: «إنما الأعمال بالنية ولكل امرئ ما نوى»[1]. ألم تر أن من قال: اللهم صل على سيدنا محمَّد وعلى آله بلسانه دون قلبه وقد نافق بذلك، ولم يعتقد رسالته وفضله عليه السلام، فهذا لا يثاب على هذا الإنشاء لأنه غير مقصود، وعمله كله محبوط مردود عليه لكفره بقلبه، وكذلك ذاكر الله بقوله: الحمد لله والشكر لله والثناء كله لله وصلى الله على سيدنا محمَّد، فهذه الألفاظ كلها بصيغة الخبر، والمراد بها الإنشاء، فيثاب عليها ذاكرها قطعا لقصده بها التَّعظيم والمحبة والامتثال لأمر الله، جعلنا الله وإياكم من الذاكرين الله بقوله: الحمد لله، ومن الشَّاكرين الله بقلوبهم ذلك مع

---

(1) رواه البخاري (3/1)، ومسلم (1515/3).

التَّصديق والإخلاص. آمين، والله الموفق سبحانه.

وهذا فصل مفيد فيما يضاهي الصَّلاة والسلام على النبي سيد المرسلين وحبيب الرب الحميد: اعلم يا أخي أنه يلحق بالصَّلاة والسَّلام على نبينا محمَّد ﷺ: الأضحية عنه عليه الصَّلاة والسَّلام في كل عام جديد، يظهر ذلك من وصيته بها لإمامنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حسبما يأتي ذلك مبينا في هذا الفصل، حسبما ذكره الفقيه المؤقت الفرضي الحيسوبي: سيدي علي بن محمَّد الدادسي رحمه الله تعالى في شرحه على المواقيت له عند ذكره المواليد، فنأتي بكلامه هنا مطولا بلفظه حيث قال: فصل وممَّا يلحق بهذا الفصل يعني مولد النبي ﷺ الأضحية عنه. قال الإمام أبو عبد الله في مختصره: وتتأكد أضحية عنه صلى الله عليه وسلَّم، قال الإمام السيوطي: على ذلك ابن العربي من المالكية، وأبو الحسن العبادي والبقال من الشافعية، ولا يأكل المضحي منها شيئا، قال ابن العربي: لأن الذابح لا يتقرب بها عن نفسه، بل على غيره، فلم يجز له أن يأكل من حق الغير، وكذا قال الترمذي وابن المبارك، فإن ضحى فلا يأكل منها شيئا ويتصدق بكلها. وذكروا أن عليا رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ أوصاني أن أضحي عنه فلا أدعه أبدا. راجع فتاوي السيوطي[1].

نعم لا شك أنَّ هذه الغرفة أظن خفاءها عن كثير ممَّن يظن به العلم فضلا عن العامة، فانظر هل يصح إيقاعها لمن لا يملك إلا شاة واحدة، أو قيمتها فيريد أن يجعلها أضحية عن نبيه صلَّى الله عليه وسلم أو لا يصح إلا بعد أن يملك شاتين؟ والظَّاهر من وجوب إيثاره عليه الصَّلاة والسلام بالنَّفس والمال الجواز. ثم قال بعد كلام له: ومراده منا صلَّى الله عليه سلم بالتضحي كمراده منا بإدمان الصلاة عليه والسَّلام، ووصل الحبل بيننا وبينه مخافة علينا أن نقتطع دونه، فجزاه ربنا أفضل ما جزى به أحدا من المقربين، لكن لما كان شأن الذكر مما يحق على اللسان آزره بشيء ممَّا يثقل على النفس وهو المال، فخلف فينا وصيته بهذه الشاة في العام، فانظر تمامه فيه. انتهى كلامه رحمه الله.

قلتُ: والإشارة بقوله فانظر تمامه فيه لعله في كتاب الأسئلة للسيوطي رحمه الله، وانظر ما أحسن هذا الفصل، لو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذا الفصل لكان فيه فائدة

(1) الحاوي للفتاوي (238/1).

عظيمة، لكونه ميزانا يزن فيه محبة أحبائه بإيثاره عليه السَّلام بهذه الشاة، فمن شح بها عليه مع الإمكان فلا محبَّة له فيه، ولو عمر أوقاته بذكر الصَّلاة والسَّلام عليه دائما، ومن عمل بهذه الوصية مع وجود الإمكان فذلك دليل وجود محبته في نبينا عليه الصلاة والسَّلام، وهذا بين والله أعلم. هـ.

قلتُ: وها أنا أذكر هنا بعض صلاة أهل بيته صلَّى الله عليه وسلم. قال في مفاخر الإسلام: حدث الإخباريون أن الحسن بن علي رضي الله عنهما كان يقول في كيفية الصلاة على النَّبي ﷺ: اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على آل محمَّد، كما جعلتها على إبراهيم، إنك حميد مجيد، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ومغفرة الله ورضوان الله، اللهم اجعل محمَّدا من أكرم عبادك عليك، ومن أرفعهم عندك درجة، وأعظمهم خطرا، وأمكنهم عندك شفاعة، اللهم اتبعه من أمته وذريته ما تقر به عينه، واجزه عنا خير ما جازيت نبيا عن أمَّته، واجز الأولياء خيرا، والسَّلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

وقال قبل ذلك: روى ابن السبع والسقراطسي في كتابيهما الشفا والإعلام عن يعقوب بن جعفر بن سليمان عن أبيه عن جده سليمان بن علي قال: كان أبي علي بن عبد الله بن عبَّاس حبر القرآن إذا فرغ من صلاته بالليل حمد الله وأثنى عليه، ثم يصلي على النَّبي ﷺ، فيقول: اللهمَّ إني أسألك بأفضل مسألتك، وبأحب أسمائك إليك، وأكرمها عليك، وبما مننت على سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم، استنقذتنا به من الضَّلالة، وأمرتنا بالصَّلاة عليه، وجعلت صلاتنا عليه درجة وكفارة، ومنّا ولطفا من إعطائك، فأدعوك تعظيما لأمرك، واتباعا لوصيتك ولموعدك كما تحب لسيدنا محمَّد ﷺ علينا في أداء قبلنا إذ آمنا به، واتبعنا النور الذي أنزل معه، وقلت ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾، وأمرت العباد بالصلاة على نبيهم صلى الله عليه وسلم فريضة افترضتها عليهم، وأمرتهم بها، فنسألك بنور وجهك ونور عظمتك، وبما أوجبت على نفسك للمحسنين، أن تصلي أنت وملائكتك على محمَّد عبدك ورسولك، ونبيك وصفيك، وخيرتك من خلقك، إنك حميد مجيد. اللهم ارفع درجته، وأكرم مقامه، وثقل ميزانه، واجزل ثوابه، وأبلج حجته، وأظهر مسألته، وأضئ نوره، وأكرم كرامته، وألحق به من ذريته وأهل بيته ما تقر به عينه، وعظمه في النَّبيين الذين خلوا قبله. اللهمّ اجعل محمدا أكرم النَّبيين تبعا،

وأكثرهم ارواء، وأفضلهم كرامة ونورا، وأعلاهم درجة، وأفسحهم في الجنة منزلا. اللهمَّ اجعل في السَّابقين غايته، وفي المنتخبين منزلته، وفي المقربين داره، وفي المصطفين منزلته، اللهم اجعله أكرم الأكرمين عندك منزلا، وأفضلهم ثوابا وأقربهم مجلسا، وأثبتهم مقاما وأصوبهم كلاما، وأنجحهم مسألة، وأفضلهم لديك نصيبا، وأعظمهم فيما عندك رغبة، وأنزله في غرفات الفردوس من الدرجة العلا التي لا درجة فوقها، اللهمَّ اجعل محمَّدا أصدق قائل، وأنجح سائل، وأول شافع وأفضل مشفع، وشفعه في أمته شفعة يغبطه بها الأولون والآخرون، وإذا ميزت عبادك لفصل قضائك فاجعل محمَّدا في الأصدقين قيلا، والأحسنين عملا، وفي المهديين سبيلا، اللهمَّ اجعل نبينا لنا فرطا، واجعل حوضه لنا موردا لأولنا وآخرنا، اللهم احشرنا في زمرته، واستعملنا بسنَّته، وتوفنا على ملته، وعرفنا وجهه، واجعلنا في زمرته، اللهمَّ اجمع بيننا وبينه كما آمنا به ولم نره، ولا تفرق بيننا وبينه حتى تدخلنا مدخله، وتوردنا حوضه، وتجعلنا من رفقائه، من المنعم عليهم من النَّبيين والصديقين والشهداء والصَّالحين وحسن أولئك رفيقا. اللهم صل على سيدنا محمد نور الهدى، والقائد إلى الخير، والداعي إلى الرشد، نبي الرحمة، وإمام المتَّقين، ورسول رب العالمين، كما بلغ رسالتك، ونصح لعبادك، وتلى آياتك، وأقام حدودك، ووفى بعهدك، وأنفذ حكمك، وأمر بطاعتك، ونهى عن معاصيك، ووالى وليك الذي تحب أن تواليه، وعادى عدوك الذي تريد أن تعاديه، اللهمَّ صل على جسده في الأجساد، وعلى روحه في الأرواح، وعلى موقفه في المواقف، وعلى مشهده في المشاهد، وعلى ذكره إذا ذكر، صلاة منا على نبينا، اللهم بلغه عنا السَّلام كما ذكر السَّلام، والسَّلام على النبي ورحمة الله وبركاته، اللهمَّ صل على ملائكتك المقرَّبين، وعلى أنبيائك المطَّهرين، وعلى رسلك المرسلين، وعلى حملة عرشك أجمعين، وعلى جبريل وميكائيل وملك الموت ورضوان ومالك وصل على الكرام الكاتبين، وصل على أهل طاعتك أجمعين، من أهل السموات والأرضين، اللهمَّ آت أهل بيت نبيك صلَّى الله عليه وسلم أفضل ما آتيت أحدا من بيوت المرسلين، واجز أصحاب نبيك محمَّد ﷺ أفضل ما جازيت أحدا من أصحاب المرسلين، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم، وصلى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه

وسلم تسليما. انتهى.

وروى جماعة منهم السراقسطي عن أبي عبد الله جعفر الصَّادق عن أبيه أبي جعفر محمَّد الباقر قال: كان زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم إذا أراد أن يصلي على جده صلَّى عليه وسلَّم يقول - والنَّاس يسمعونه -: اللهمَّ صل على محمَّد في الأولين، وصل على محمّد في الآخرين، وصل على محمد في النَّبيين، وصل على محمَّد في المرسلين، وصل على محمَّد في الملأ الأعلى إلى يوم الدين، اللهم صل على محمَّد شابا زكيا، وصل على محمد كهلا مرضيا، وصل على محمَّد بعد الرضى، وصل على سيدنا محمَّد رسولا نبيا، اللهم صل على سيدنا محمَّد كما أمرتنا بالصَّلاة عليه، وصل على محمَّد كما يجب أن يصلى عليه، وصل على محمَّد كما أمرت أن يصلى عليه، اللهم صل على سيدنا محمَّد عدد خلقك، وصل على محمَّد رضى نفسك، وصل على محمَّد زنة عرشك، وصل على سيدنا محمَّد مداد كلماتك التي لا تنفد، اللهم اعط محمَّدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرَّفيعة، وشرف شأنه، وعظم برهانه، وأبلج حجته، وبلغ مأموله في أهل بيته وأمَّته، اللهمَّ اجعل صلواتك ورأفتك ورحمتك على محمد حبيبك وصفيك، وعلى أهل بيتك الطيبين الطَّاهرين، اللهم صل على محمَّد عدد الثرى والبرا والورى، اللهمَّ وارحم محمَّدا مثل ذلك، اللهم وبارك على محمَّد مثل ذلك، وصل وارحم مثل ذلك، وصل على أهل بيته وذريته، اللهمَّ صل على محمد في الليل إذا يغشى، وصل على سيدنا محمَّد في النهار إذا تجلى، وصل على محمد في الآخرة والأولى، اللهم صل عليه وعلى آله، واعطه المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، اللهم صل على عبدك ورسولك وصفيك وخيرتك من بين خلقك، اللهم صل على محمد الطيب الطاهر الخير الفاضل، اللهم صل على محمَّد الصَّلاة التَّامة، وبارك على محمَّد البركة التَّامة، وارحم محمدا الرحمة التّامة، وسلم على محمَّد السَّلام التام، اللهم صل على قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة، اللهمَّ صل على محمد أكبر وأفضل وأكثر وأجلى وأخص وأعم وأشفى وأتم وأسنى ما صليت على أحد من خلقك، اللهم صل على محمد إذا استقر في الجنَّة، اللهم صل على محمَّد أبد الأبدين ودهر الداهرين، اللهم صل على محمد المختار وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار، اللهم صل على محمَّد نبي الرحمة وإمام الهدى، اللهم صل على محمد الصَّادق المصدق، اللهم صل على محمَّد النبي الأمي،

العربي القرشي، الهاشمي الأبطحي التهامي، المكي المدني، صاحب التاج والهراوة، صاحب الخير، صاحب السرايا والعطايا، والغزو والجهاد والمغنم والمقسم، صاحب الآيات والمعجزات والعلامات الباهرات، صاحب الحج والحلق والتلبية، صاحب الصفا والمروة والمشعر والمقام، والقبلة والمحراب والمنبر، صاحب المقام المحمود والحوض المورود، والشّفاعة والسجود للرب المعبود، صاحب رمي الجمرات والوقوف بعرفات، صاحب العلم الطويل والكلام الجليل، صاحب كلمة الإخلاص، اللهمَّ صل على محمد ملء الدنيا والآخرة، اللهم صل على محمد الصادق النَّاطق، اللهمّ صل على محمد خير المرسلين وخاتم النَّبيين ورسول رب العالمين وقائد المحجلين إلى جنة النَّعيم، اللهم صل على محمد بعدد من صلى على محمَّد، وصل على محمد بعدد من لم يصل على محمَّد، اللهمَّ صل على محمد القمر المنير، وبارك على القمر المنير محمد البشير النذير، اللهمَّ بلغ الصلوات كلها والبركات كلها والرحمة كلها والسلام كله والرفعة كلها والعز كله والسناء كله والكرامة كلها إلى قبر سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى أهل بيته وذريته الطيبين الطَّاهرين، اللهم آمين، اللهمَّ آمين، وصلى الله عليه وسلم والصحابة والتَّابعين وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين فلا تحصى كثرة، ودلائل الخيرات حوى من ذلك جزءا وافرا، فعليكم بالاعتكاف عليه تربحوا وتفلحوا، والله الموفق.

وأما قوله عليه الصلاة والسَّلام: "كما قد علمتم " يريد ما علمتم في تشهد الصَّلاة، وهو قوله: السَّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السَّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، والله الموفق.

الفصل الرَّابع في ذم من لم يصل على النبي صلى الله عليه وسلَّم وعلى آله

روى عياض في الشفا[1] هنا حديثا مسندا رفعه لأبي هريرة رضي الله عنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي، ورغم أنف رجل دخل رمضان وانسلخ قبل أن يغفر الله له، ورغم أنف رجل أدرك أبواه عنده فلم يدخلاه

(1) الشفا (64/2).

الجنة"، قال عبد الرحمن: وأظنه قال: أو أحدهما. وفي حديث آخر[1] أنَّ النبي ﷺ صعد المنبر فقال: آمين، ثمَّ صعد فقال: آمين، ثمَّ صعد فقال: آمين، سأله معاذ عن ذلك، فقال: إن جبريل عليه السلام أتاني، فقال: يا محمد من سمِّيت بين يديه فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله، قل آمين، فقلت: آمين، وقال لي: من أدرك رمضان فلم يقبل منه فمات مثل ذلك، ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات مثله. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عنه عليه السَّلام أنه قال: "البخيل الذي ذكرت عنده فلم يصل علي"[2]، وعن جعفر بن محمَّد رضي الله عنه عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من ذكرت عنده فلم يصل علي أخطأ طريق الجنَّة"[3]، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: أيما قوم جلسوا مجلسهم ثمَّ تفرقوا قبل أن يذكروا الله ولم يصلوا على النَّبي ﷺ كانت عليهم من الله ترة، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم [4]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من نسي الصلاة علي نسي طريق الجنة [5]، وعن قتادة عنه عليه السلام أنه قال: من الجفاء أن أذكر عند الرجل فلم يصل علي [6]، وعن جابر رضي الله عنه عنه عليه السَّلام أنه قال: ما جلس قوم مجلسا ثمَّ تفرقوا منه على غير صلاة على النبي ﷺ إلا تفرقوا منه أنتن من ريح الجيفة [7]، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة، لما يرون من الثواب[8].

وذكر أبو عيسى الترمذي[9] رحمة الله عليه عن بعض أهل العلم قال: إذا صلى

---

(1) رواه الطبراني في الكبير (82/11) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) رواه الترمذي في سننه (551/5).

(3) رواه الطبراني في المعجم الكبير (128/3)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (255/10): "وفيه بشير بن محمد الكندي، وهو ضعيف".

(4) رواه الترمذي (461/5)، والبيهقي في شعب الإيمان (213/2).

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان (215/2).

(6) رواه عبد الرزاق في مصنفه (217/2).

(7) رواه النسائي في الكبرى (20/6).

(8) رواه أحمد في مسنده (463/2) ولكن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(9) سنن الترمذي (550/5).

الرجل على النَّبي ﷺ مرة في المجلس أجزأته ما كان في ذلك المجلس. وصلَّى الله على سيدنا محمَّد وآله.

الفصل الخامس
في الصلاة على النَّبي & عند نزول أمر مهم

قال في مفاخر الإسلام: قال الطبراني: عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: من كان له إلى الله عز وجل حاجة فليتوضأ ويحسن وضوءه، وليركع ركعتين، وليثن على الله عزَّ وجلَّ، وليصل على النَّبي ﷺ، وليقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسَّلامة من كل ذنب، لا تدع لي هما إلا فرجته، ولا ذنبا إلا غفرته، ولا حاجة لك فيها رضى إلا قضيتها [1]. انتهى.

وعنه قال: وحكى صاحب كتاب الوصول إلى مرضاة الرسول أبو بكر بن عبد الرحمن قال: أخبرني بعض البغداديين أنه كان رجل من تجار بغداد موسرا، فذهبت النعمة عنه وافتقر، واستدان ديونا، فرفعه إلى القاضي بعض من كان له عليه حق في ثلاثة آلاف دينار، فأقر بها وأجل له القاضي ثلاثين يوما، فانصرف وأقبل على محرابه وابتهل إلى الله عز وجل أن يقضي عنه ما عليه من الدين، وأكثر الصلاة على النَّبي ﷺ، فلما كان ليلة سبع وعشرين رأى في المنام سيدنا ومولانا محمداً ﷺ وهو يقول: اغتممت لدينك، فقال: نعم يا رسول الله، فقال: يقضيه الله عنك، اذهب إلى علي بن عيسى الوزير، وقل له: أنا رسول رسول الله ﷺ إليك، ويقول لك رسول الله ﷺ: اقض عني ثلاثة آلاف دينار، قال: فانتبهت من منامي وبي من الفرح والسرور ما شاء، ثمَّ رجعت إلى نفسي، فقلت: إذا مضيت إليه ويقول لي ما تصديق ما تقوله، فما أفعل؟ فحبست نفسي ذلك اليوم عن المسير إليه، فلمَّا كانت الليلة الأولى فأصبحت فرحا مسرورا، ثم رجعت بطبع البشرية، وقلتُ: إذا مضيت إليه، وقال لي: ما تصديق ذلك؟ بم أجاوبه فحبست نفسي أيضا ذلك اليوم عن المسير إليه، فلمَّا كان في الليلة الثالثة رأيت رسول الله ﷺ في النَّوم، وقال لي: مضيت إلى علي بن عيسى، فقلت: لا يا

(1) الحديث رواه أيضا: الترمذي (344/2)، وابن ماجه (441/1) في سننيهما.

رسول الله، فقال: وما منعك؟ فقلت: يا رسول الله صلَّى الله عليك إذا قال لي ما تصديق ما تقوله بم نجاوبه؟ فقال لي: أحسنت، اذهب إليه، فإذا قال لك ذلك فقل له الأمارة من رسول الله ﷺ في ذلك ما لا يعلمه إلا الله والكرام الكاتبون، وذلك أنك تصلي علي في كل يوم وليلة من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس خمسة آلاف مرَّة، فإذا ذهبت إليه وذكرت له ذلك فإنه يقضي عنك ذلك ويصدقك، فانتبهت فرحا مسرورا، ثمَّ خرجت إلى باب علي بن عيسى فدخلت مع النَّاس فلما انفض الناس عنه، قال لي: لك حاجة؟ فدنوت منه فقلت: إن رسول الله صلَّى ﷺ أرسلني إليك، فقال لي: بماذا؟ فقصصت عليه قصتي، فقال: وما قدري حتى يكون رسول الله ﷺ يرسل لي بمثل هذا، وما تصديق ذلك؟ فقلت له: إني قلت لرسول الله ﷺ ما أنت قائله، فقال لي: أحسنت، تعلمه بإمارة لا يعلمها أحد غيره وغير الله والكرام والكاتبون، إنك تصلي علي في كل يوم من وقت طلوع الفجر إلى طلوع الشمس قبل أن تكلم أحدا خمسة آلاف مرة، فلمَّا سمع علي بن عيسى الكلام مني ابتهج سرورا، وأقبل علي وقبل بن عيني، وقال: مرحبا برسول رسول الله ﷺ، يا غلام هات المال والميزان، فوزن لي ثلاثة آلاف دينار، فقال لي: هذه اقض بها دينك، ثم وزن ثلاثة آلاف دينار فقال لي: اشتر بها ربعا لأهلك، ثم وزن ثلاثة آلاف دينار فقال لي: هذه تتجر بها، ثم حلفني ألا أنقطع عنه وأن أكلفه جميع حوائجي، فخرجت بتسعة آلاف دينار، وأتيت بيتي فدفعت ستة آلاف إلى أهلي، وأتيت القاضي وكنت أول داخل عليه، فقال لي القاضي: أحسنت، اجلس، ثم كثر النَّاس فدخل صاحبي كالملهوف، وقال للقاضي: ابعث في حاجتي، فقال له القاضي: صاحبك قد أتى بمالك، قال: فقمت وجلست بين يديه، وأخرجت المال، وقلت له: والله ما أصبحت اليوم عندي درهم واحد وأخبرته القصة، فقال القاضي: ولا كرامة لعلي بن عيسى بل أنا أتولى قضاء دينك، إذ الحكم بين يدي، يا غلام هات المال فوزن له ثلاثة آلاف دينار، ثمّ قال لصاحب الدين: اقبض مالك، فقال صاحب الدين: ولا كرامة لك يا قاضي، أنا أخليها لله عز وجل ولرسوله ﷺ، قال: فهممت بالقيام، فقال لي القاضي: خذ مالك واحمله معك واستعن به على دينك، فوالله لا رجعت في شيء أخرجته لله تعالى ولرسول الله ﷺ، فأخذت الثلاثة آلاف دينار، وانصرفت إلى بيتي وأنا صاحب اثنا عشر ألفا. سبحان الكريم الوهاب، لا إله غيره، وصلى الله على الذي ببركة الصَّلاة عليه تنحل العقد، وتنكشف الكرب، وسلم عليه وعلى آله تسليما كثيرا كثيرا.

ومن دلائل محبّة علي بن عيسى الوزير في نبينا محمَّد ﷺ: ما رواه ابن صعاد التلمساني رحمه الله في مفاخر الإسلام في موطن غير هذا، حيث قال فيه: وعن ابن مجاهد قال: جاءني رجل من الفقراء وقال لي: أحب أن تذهب بي إلى علي بن عيسى الوزير، فإن لي حاجة عنده، قلت: وما ذاك؟ قال: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله رق حالي ولي صبيان، فقال لي: اذهب إلى علي بن عيسى، وقل له بالعلامة التي كنت تصلي علي كل ليلة جمعة ألف مرة هذه الجمعة دعاك فلان الخادم وكان بقي عليك ثلاثمائة فلما رجعت أتممتها، قال ابن مجاهد: قلت أنا لا أقول من هذا شيئا، ولكني أذهب معك إليه، قال: فدخلنا عليه، وقلت: هذا رجل مستور وله إليك حاجة، فقال: اذكر، فذكر الرجل القصة فبكى، وقال له: صدقت، وكتب له رقعة إلى ولده في الديوان أن اخرج إليه من مالي خاصة دون مال السلطان ألفا، ولم يعين دينارا ولا درهما، وارجعا إليه، فرجعنا الله فجعل الألف ألفين، فأتينا ولده فقال: ما ميز شيئا، ولكن زادكم ألفا كأنه استحيا منكم، ولا أدفع شيئا إلا بعد كتاب آخر، فأتينا والده فخرق الرقعة، وكتب إذا أتاك برقعة فادفع إليه ثلاثة آلاف دينار، فلما رأى ذلك علم أنّه صحيح، ودفع لنا ثلاثة آلاف دينار. قال ابن مجاهد: لم يرض النَّبي ﷺ بدون الثلاثة آلاف دينار صلّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمته.

وفي كتاب الشفا لابن سبوع: وعن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من صلى علي يوم الجمعة ألف مرة، ويقول: اللهمَّ صل على محمَّد النّبي الأمي، فإنه يرى من ليلته ربه في المنام أو نبيه أو منزله من الجنة، فإن لم يره فليفعل ذلك من جمعتين أو ثلاث أو خمس.

وحكى المحدث الحافظ أبو محمد الحسن بن القطان المراكشي في كتابه الكبير المؤلف في المعجزات: أنه كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه جارية اسمها زائدة، كانت فيمن يأتي النَّبي ﷺ، فأتته يوما بكرة، فقالت: يا رسول الله أستأنس، فقال: استأنسي يا زائدة، إنك لموفقة، فقالت: بأبي أنت وأمي، عجنت عجينا لأهلي، فخرجت من وراء دار سيدي أحتطب حطبا، فلما شددت حرفتي سمعت وقع فرس ولم أر في ذلك المكان فارسا قبل ذلك، فالتفت فإذا بفارس لم أر قط فارسا أحسن مركوبا ولا أحسن وجها ولا أحسن ثوبا ولا أطيب رائحة منه، فقال: يا زائدة كيف أنت وكيف محمد ﷺ؟ قلت: بخير وإن محمَّدا ليحذر وينذر بأيام الله، فقال: يا زائدة، إن

حملتك رسالة تبلغيها محمّدا صلَّى الله عليه وسلم، فأقرئيه مني السلام، وقولي له: إن خازن الجنة رضوان يقول لك: يا محمد ما فرح أحد بمبعثك ما فرحت به أنا، وإن الله قد قسم الجنة لأمتك ثلاث أثلاث، ثلث يدخلونها بغير حساب، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا، وثلث تشفع فيهم فتشفع، ثمَّ ذهب، فذهبت لأحمل حطبي فثقل علي، فارتعدت فرائسي، فالتفت إلي، وقال: يا زائدة ثقل عليك حطبك؟ قلت: نعم، فأخذ قضيبا أخضر كان بيده فغمز به الحطب، ثم نظر فإذا هو بصخرة نابتة، فقال لها: أيها الصخرة أقبلي فأقبلت، حتى انتهت إليه فقال: احملي هذا الحطب مع زائدة إلى باب عمر بن الخطاب، فحملته فألقته على باب عمر، فوالله يا سول الله لقد رأيتها تذكرك بين يدي حتَّى جاء عمر، فخر رسول الله ﷺ ساجدا وهو يبكي، وقال: الحمد لله الذي لم يخرج نفسي من الدنيا حتى بشرني رضوان خازن الجنّة بالخير لأمتي، ثمَّ قال لأصحابه: قوموا بنا لباب عمر، فأتوا باب عمر، ونظر رسول الله ﷺ وأصحابه إلى أثر الصخرة مقبلة ومدبرة. اللهمَّ صل وسلم عليه وعلى آله وسلم كثيرا، والأخبار في هذا الباب كثيرة وبركة الصلاة والسَّلام على نبينا محمَّد ﷺ لا تحصى، وفوائدها دنيا وأخرى لا تتناهى، فاكتفينا بهذا المقدار من ذلك، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

تنبيه حسن، ختم به هذا الباب المستحسن، في ذكر لا إله إلا الله الحافظة لذكرها في حال السر والعلن، وبعض معانيها لمن يرد الإيمان والأمن: ويشتمل هذا التنبيه على مقدمة وتمجيد الأنهار خلال رياض سر الأسرار، وثلاثة فصول.

قال ابن معاد التلمساني في خاتمة مفاخر الإسلام: مقدمة في الحض على ذكر الله في جميع الأحوال: اعلم جعلني الله وإياك ممن واصل ذكره، وظفر بقربه، وفاز بمعرفة الحق سبحانه وعلق بحبه، أن ذكر الله تعالى أفضل ما يتقرب به إليه، وأجل الوسائل الموصلة إلى حلائل النعم التي لديه، ولقد طلب الحق سبحانه الإكثار منه فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب/ 41]، ثم وعد سبحانه على ذلك بالمغفرة والثواب فقال: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب/ 35]، وروينا في جامع الترمذي[1] وسنن النسائي[2] عن أبي سعيد

(1) سنن الترمذي (5/458).

(2) لم أقف عليه عند النسائي، ولم يعزه إليه في كنز العمال، وإنما اقتصر على عزوه إلى أحمد والترمذي، والله أعلم.

الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيرا، قال: قلت: ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله كثيرا أفضل درجة منه " إلى غير ذلكِ من فضائل الذكر، التي هي أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر، وليس ذكر الله محصورا في محو التسبيح والتقديس والاستغفار، بل الصَّلاة على النّبي ﷺ نوع من ذلك، وذكر من أذكار ربنا الحق، وبيان ذلك وجوه:

الوجه الأول: في بعض الأخبار أنَّ الله تعالى قال: يا محمَّد من أحبك فقد أحبني، ومن ذكرك فقد ذكرني، ودعوى محبته صلى الله عليه وسلم لا تصح إلا بدوام ذكره بالصَّلاة والسَّلام عليه، فذكره صلَّى الله عليه وسلم وسيلة إلى حبه، وحبه صلَّى الله عليه وسلم وسيلة إلى اتباعه، واتباعه عليه السَّلام واجب، ووسائل الواجب واجبة.

الوجه الثاني: أنَّ كلَّ كيفية من الكيفيات المستعملات في الصلاة على النبي ﷺ مشتملة على اسم من أسمائه تعالى، أو صفات من صفات ذاته العلية، جل جلاله.

الوجه الثالث: أن الصلاة على النبي ﷺ هي طلب تعظيمه من الله تعالى، وذلك مناجاة بين العبد وربه، وذكر للحق تعالى يوصلنا إلى قربه.

الوجه الرّابع: أن المصلي على النّبي ﷺ ممتثل لأمر الله تعالى عزّ وجل، إذ قد أمر تعالى بالصَّلاة عليه، والقائم بالمأمورات ذاكر للأمر بها سبحانه.

الوجه الخامس: أن العبد الطالب لطريق النَّجاة لا بدّ له من دليل يتمسك بركابه، ويتعلق بأسبابه، ولا دليل كحب رسول الله ﷺ واتباعه، ولا مطمع في حبه واتباعه لمن قصر في ذكره.

وبالجملة إنَّ الصَّلاة على النَّبي ﷺ ذكر لله تعالى، وهو الطريق الموصل إلى معرفة الملك الحق لا إله إلا هو سبحانه، ثمَّ إذا تأملت فوائد الصَّلاة على النَّبي ﷺ وحصرت ثمارها، وجدتها بحرا لا ساحل له، ولم تجد عملا يزن ما ورد من فضائلها وكراماتها، وهذه إشارة إلى شيء من تلك الكرامات التي من فوائدها، في هذه الدار السعادة والارتقاء، وفي الآخرة النعيم والبقاء، صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمَّته.

فمن كراماتها: أن الرب سبحانه وتعالى تكفل للمصلي على النَّبي ﷺ صلاة أن يصلي بها عليه عشرا، وهذا غاية الشرف لك أيها المؤمن، إذ من صلى عليه عظم قدره، وثبت له العز الدائم الأبدي.

ومنها: أن المصلي على النبي ﷺ تصلي عليه الملائكة الكرام، وتبلغ صلاتنا عليه لنبينا صلَّى الله عليه وسلَّم عبادة منهم لله تعالى، والتماسا للخير ببركة هذه الصَّلاة، فأي شرف وأي فخر يكفي كفاية هذا الخير الحاصل للمؤمن بسبب الصَّلاة على النَّبي ﷺ؟

ومنها: صلاة النَّبي ﷺ على المصلي عليه، أمره الله تعالى بالصلاة علينا على ما تقدَّم في أواخر السفر الأول، وما كان صلى الله عليه وسلَّم ليترك ما أمر به في حق أمَّته المصلين، إذ هو بهم رؤوف رحيم، فكيف مع الأمر من العلي الأعلى، حيث يقول: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة/ 103] ما في هذه الصلاة الشريفة من محو السَّيئات، ورفع الدرجات، وقضاء الحاجات، وقبول الشفاعات، ودخول الجنات، إلى غير ذلك من الكرامات، التي لا تعد ولا تحصى، ولا يأتي عليها العد والاستقصا.

قلت: وفيما نقلناه من ذلك هنا بعض ذلك، وشيء ممَّا هنالك، فتأمل أيها المؤمن وفَّقني الله وإياك هذا الخبر الوارد عليك، والشرف الثابت لك، بالصَّلاة والسَّلام على نبيك وحبيبك وشفيعك، صلَّى الله عليه وسلّم وعلى آله وأتباعه من أمَّته، إذ جعل الله تعالى لمن يصلي صلاة واحدة عليه صلَّى الله عليه وسلم، بأن يصلي عليه الحق سبحانه بها عشر صلوات مقبولة غير مردودة، لأن الصَّلاة على النَّبي ﷺ مقبولة على كل حال، ولا تدخلها علة الرياء، إذ لا يصلي عليه إلا مؤمن كامل الإيمان، وهي تخالف غيرها من سائر العبادات بهذا المعنى، فأي تجارة أنفع من هذه التجارة؟ وأي طهارة من الذنوب أنقى من هذه الطَّهارة؟ وأي ربح ذلك، فقد زاد الله تعالى للمصلي على سيد المرسلين وشفيع المذنبين تشريفا وتفخيما وتعظيما بصلاة الملائكة عليهم السَّلام على المصلي عليه صلَّى الله عليه وسلم، وإن كانت في صلاة الله عليه كفاية وتشريف، بل زاده الله التَّشريف والتعظيم ببركة صلاة الملائكة عليه، مادام يصلي على نبيه صلَّى الله عليه وسلّم، وباستغفار الملائكة لمن يكتب الصلاة عليه صلَّى الله عليه وسلّم مادام اسمه عليه السَّلام في ذلك الكتاب، فإذا حصل لك يا أخي هذا الخبر وصدقت بصحته، فأنت مؤمن حقا، وصار مقامك بالصَّلاة عليه صلّى الله عليه وسلَّم أعلى مقام، وحالك في الدنيا أسنى حال، وفي الآخرة أنجح وسيلة، فتح الله لنا بالصَّلاة والسلام على نبينا صلَّى الله علي وسلم أبواب الذاكرين، وأدخلنا في زمرة الصديقين، آمين يا رب العالمين.

فصل في تفجير الأنهار خلال رياض سر الأسرار: اعلم يا أخي أن سر هذه الأسرار بأسرها، ومشكاة هذه الأنوار وأصلها، هو قول لا إله إلّا الله محمَّد رسول الله، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا كثيرا، فاعلم يا أخي أن معاني هذه الكلمة المشرفة بحر زاخر لا حد له ولا حصر، وقد تكلم الشيوخ في بعض معانيها، وما تبين لهم منها إلا القليل، وفاتهم منها كل جليل وخطير، ولقد طالعت كتاب مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح في ذكر الله الكريم الفتاح، لتاج الدين ابن عطاء الله رحمة الله عليه، فرأيته قد أتى من ذلك بأبحاث كثيرة، وحجج وتقديرات، ودلائل وأصول وتوجيهات، وفضائل وتفسير وتسميات، ودعاوي وثمرات، وغير ذلك من الفوائد والتنبهات، لكن لا أنقل هنا شيئا من ذلك الكلام إلا ما تدركه منها عقول العوام، لأن أكثر ذلك مما تحير فيه الأحلام، وربما تزل فيه الأقدام، ويدهش القلوب، فلأجل ذلك لم تجر لنا بأكثره الأقلام، إذ أن هذا الكتاب موضوع لعوام أمثالي الطامعين في المقام العالي، فلا أشوش ألبابهم بفهم تلك الأقوال، فربما تصعب عليهم تلك الأحوال، فيكون ذلك سبب انقطاعهم عن رفقة أهل الكمال، ومن أراد ذلك فعليه بمطالعة الكتاب المذكور، فإنه يجد ما لم نذكره هنا فيه محصور، ويشتمل ما نذكر منه على ثلاثة فصول، ليسلك المريد على سنة الرَّسول، صلّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وأتباعه من أمته وسلّم تسليما.

الفصل الأول في فضل لا إله إلا الله

قال ابن عطاء الله رحمه الله في ذلك الكتاب: يروى عنه صلَّى الله عليه وسلّم أنه قال: «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله»[1]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه قال: ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا عند النشور، وكأني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب، ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن [2]، ويروى أن المأمون لما انصرف من عدن يريد العراق اجتاز بنيسابور وكان على مقدمته علي بن موسى الرضى، فقام إليه قوم من المشايخ، وقالوا له نسألك بحق قرابتك من رسول الله ﷺ أن تحدثنا بحديث ينفعنا، فروى عن

(1) رواه الترمذي (462/5) وابن ماجه (1249/2).

(2) رواه الطبراني في الأوسط (171/9).

أبيه عن أمامة عن النبي ﷺ قال: يفتح الله أبواب الجنَّة وينادي مناد من تحت العرش أيتها الجنة وكل ما فيك من النَّعيم لمن أنت؟ فتنادي الجنّة وما فيها: نحن لأهل لا إله إلا الله ولأهل لا إله إلا الله، ونحن محرمون على من لم يقل لا إله إلا الله، ولم يؤمن بلا إله إلا الله، وعند هذا تقول النار وكل ما فيها من العذاب: لا دخلني إلا من أنكر لا إله إلا الله، ولا أطلب إلا من كذب بلا إله إلا الله، وأنا حرام على من قال: لا إله إلا الله، ولا أمتلئ إلا بمن جحد لا إله إلا الله، وليس غيظي إلا على من أنكر لا إله إلا الله، قال: فتجيء رحمة الله ومغفرته، ويقولان: إنا لأهل لا إله إلا الله، وناصران لمن قال لا إله إلا الله، ومحبان لمن قال لا إله إلا الله، ويقول الله تعالى: أبحت الجنة لمن قال: لا إله إلا الله، وحرمت النار على من قال لا إله إلا الله، وأغفر كل ذنب لمن قال لا إله إلا الله، فلا أحجب رحمة ولا مغفرة عمن قال لا إله إلا الله، وما خلقت الجنَّة إلا لأهل لا إله إلا الله، ولا تخالطوا إلا أهل لا إله إلا الله، ولا تعملوا إلا ما يوافق لا إله إلا الله. وقال عليه السَّلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»[1]، والله الموفق سبحانه.

الفصل الثاني في بعض تفسير لا إله إلا الله

قال ابن عطاء الله رحمه الله: ذكر العارفون في تفسير لا إله إلا الله وجوها:

أحدها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا إله إلا الله: لا نافع ولا ضار ولا معز ولا مذل ولا معطي ولا مانع إلا الله.

ثانيها: لا إله يرجى فضله وعدله، ويهلك عذابه، ويؤمن جوره، ويوكل رزقه، وينزل أمره، ويسأل عفوه، ويترك نهيه، ولا يحرم فضله إلا الله.

وأيضا قول لا إله إلا الله إشارة إلى المغفرة والتَّوحيد بلسان المجد والتّشهيد إلى الملك المجيد، إذا قال العبد لا إله إلا الله فمعناه: لا إله له الآلاء والنعماء والبقاء والعظمة والسناء والعز والثناء والسخط والرضى الذي هو رب العالمين وخالق الأولين والآخرين وديان يوم الدين إلَّا الله تعالى.

وأيضا: قول لا إله إلا الله هو للرغبة، ولا إله للرهبة، إلا الله كاشف الكربة.

وأيضا: كلمة لا إله إلا الله اثنا عشر حرفا، فلا جرم وجب بها اثنا عشر فريضة،

---

(1) رواه البخاري (153/1) ومسلم (52/1).

ستة ظاهرة، وستة باطنة؛ أما الظاهرة: فالطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وأمَّا الباطنة فالتوكل والتفويض والصبر والرضى والزهد والتَّوبة. قال بعضهم: الحكمة في سؤال الملكين لما طعنت الملائكة في بني آدم بقولهم ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ الآية، فقال تعالى: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/ 30]، وإذا مات المؤمن بعث الله إلى قبره ملكين يقولان له: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، ونبي محمَّد رسول الله، وديني الإسلام، فيأمرهم الله تعالى، فيقول لهما: اشهدا بما سمعتما، لأن أقل الشهود اثنان، ثم يقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدي قد أخذت روحه وماله وزوجته، فماله أخذه ورثته، وزوجته في حجر غيره، وضيعته في يد غيره، ثم إن الملكين سألاه في بطن الأرض، فلم يذكر شيئا إلا توحيدي وتنزيهي، لتعلموا أني أعلم ما لا تعلمون. وأيضا في هذا السؤال أنَّ الله قال في الابتداء: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف/ 173] فشهد الله عليهم، فلما جاؤوا إلى الدنيا شهدوا بالتَّوحيد، وشهد عليهم الأنبياء والمؤمنون بذلك، فإذا مات أحدهم وأدخل القبر سألاه الملكان عن الشهادة، فيشهد بها في قبره، فتسمع الملائكة تلك الشَّهادة، فإذا جاء يوم القيامة وأراد أن يأخذه إبليس ويقول: هذا من شيعتي لأنه تبعني في المعاصي، فيقول الله تعالى: لا سلطان لك عليه، لأني سمعت منه التَّوحيد في الابتداء والانتهاء، والرسل سمعوا منه في الوسط، والملائكة سمعوا منه في الانتهاء، فكيف يكون من شيعتك؟ وكيف لك عليه سلطان؟ اذهبوا به إلى الجنّة.

ومن معنى لا إله إلا الله فهي بمنزلة من يقول لا عالم في المدينة إلا زيد، فهي أشرف من قول القائل: زيد عالم المدينة، لاحتمال أن يكون في المدينة عالم آخر مثله، أو دونه، أو أعلم منه، فإذا قلت: لا عالم في المدينة إلا زيد، فهذا أشرف وأنفع، لأن العلم مقتصر عليه وحده، إذ انتفى غيره، فاعلم ذلك فهو بين في ما زيده، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الفصل الثالث في أسماء لا إله إلا الله

فاعلم يا أخي أن ابن عطاء الله ذكر في مفتاح الفلاح ثمانية عشر اسما من أسماء لا إله إلا الله، وشرحها وبينها، وها أنا آتي بها بلفظه من غير زيادة ولا نقصان إن شاء الله تعالى، قال رحمه الله تعالى:

فصل في أسماء كلمة لا إله إلا الله: كلمة التَّوحيد لأنه يدل على نفي الشرك على

الإطلاق، ومعنى على الإطلاق أنَّه تعالى قال: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، فربما خطر ببال أحد أن يقول: إلهنا واحد لكن يمكن أن يكون لغيرنا إله يعاند إلهنا، فأزال الله تعالى هذا التوهم بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة/ 163]، أن قولنا لا رجل في الدار يقتضي نفي الماهية، ومتى انتفت انتفى جميع أفرادها، إذ لو حصل فرد من أفراد تلك الماهية لحصلت تلك الماهية التي كل جزء من أفراد الماهية يشتمل على تلك الماهية، وإذا وجدت الماهية فذلك يناقض نفي الماهية، فثبت أن قولنا لا رجل في الدار يقبل النفي العام الشَّامل، وإذا قيل بعد إلا زيدا فإذا التَّوحيد الكامل، ولهذه الكلمة ثمرات:

الأولى: أن جوهر الإنسان خلق في الأصل مكرما، كان كونه مطهرا على وفق الأصل كونه متنجسا على خلاف أصل، ثمَّ إذا رأينا الإنسان متى أشرك صار نجسا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة/ 28]، فالنجاسة على خلاف الأصل، وكونه موحدا يقتضي الطَّهارة أولا، لأنه على وفق الأصل، والتّوحيد من خواص الله تعالى لقوله ﴿ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور/ 26].

الثَّمرة الثانية: أن الشرك سبب لخراب العالم فالتوحيد سبب لعمارة العالم قال الله تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم/ 90] وإذا كان الشرك سببا للخراب فالتَّوحيد سب لعمارة العالم، لأن الضدين مختلفان في الحكم، وإذا كان التَّوحيد سببا لعمارة العالم، فالأولى أن يكون سببا لعمارة القلب الذي هو مكمل الوحدانية، ولعمارة الإنسان الذي هو مكمل الوحدانية، وذلك يناسب عفو الله عن أهل التَّوحيد.

الاسم الثاني: كلمة الإخلاص، سميت بذلك لأن الأصل فيها علم القلب، وهو كون الإنسان عارفا بقلبه وحدانية الله تعالى، وهذه المعرفة الخالصة في القلب يستحيل أن يأتي بها الإنسان لغرض آخر سوى بخلاف سائر الطاعات البدنية، فإنها كما يؤتى بها لتعظيم الله تعالى فقد يؤتى بها لسائر الأغراض العاجلة من الرياء والمدح والثناء، فلذلك سميت كلمة الإخلاص.

الاسم الثالث: كلمة الإحسان، قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن/ 60]، أي جزاء الإيمان الجنَّة، واعلم يا هذا أن عليك عهد العبودية، وعلى كرمه عهد الربوبية، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة/ 40]، وعهد عبوديتك أن تكون عبدا له لا لغيره، وأن ترى أن كل ما سوى الله فهو عبد لله، يدل على اعترافه كل ما سواه فهو عبده، لقوله تعالى: ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا

آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم/ 93]الآية، فثبت أن قول لا إله إلا الله إحسان من العبد، فقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن/ 60] أي هل جزاء من أتى بقول لا إله إلا الله إلا أن أجعله في حماية لا إله إلا الله، وقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس/ 26]، والمراد من قوله: "أحسنوا " هو قول لا إله إلا الله باتفاق أئمة التفسير، لأنه لو قال ذلك ومات دخل الجنَّة، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فصلت/ 33] الآية اتفقوا أنها نزلت في مسألة الأذان لاشتماله على لا إله إلَّا الله، وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل/ 90] قيل: العدل عما سوى الله، والإحسان الإقبال على الله. وروى عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ {للذين أحسنوا} أي الذين قالوا: لا إله إلا الله، الحسنى هي الجنة، والزيادة النّظر إلى وجه الله الكريم[1]. وكل ما كان الفعل أشد حسنا كان فاعله أشدَّ إحسانا، وأحسن الأذكار لا إله إلا الله، وأحسن المعارف معرفة لا إله إلا الله، فتكون هذه المعرفة وهذا الذكر أشد إحسانا.

الاسم الرابع: دعوة الحق، قال تعالى في سورة الرعد ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد/ 14]وهو يفيد الحصر، أي هذه الدعوة له لا لغيره، كقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون/ 6] أي لكم دينكم لا لغيركم، ووجه إفادة الحصر أن الحق نقيض الباطل، والحق هو الموجود، والباطل هو المعدوم، ولمَّا كان الحق سبحانه حقا في ذاته وصفاته وكان ممتنع التغيير في حقيقته كانت معرفته هي المعرفة الحقيقية، وذكره هو الذكر الحق، والدعوة إليه هي الدعوة الحق، وأما ما سواه فهو ممكن لذاته ما دامت ذاته، فلا تكون معرفته واجبة التَّحقيق، ولا ذكره ولا الدعوة إليه، ودعوة الحق تكون من الحق، فإنَّه هو الذي دعا القلب إلى حضرته، فلولا دعوته إلى تلك الحضرة وتوفيقه في ذلك الوصول، وإلا فمن أين يمكن للعقل البشري الوصول إلى جلال حضرة الله تعالى، وأيضا فمبادئ الحركات وأوائل المحدثات تنتهي إلى قدرة الله تعالى وقضائه، قال الله تعالى: ﴿ لِلهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْد﴾ [الروم/ 4]، وأما تلك دعوة الحق فقال الله تعالى: ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر/ 16]، وأمَّا الانتهاء إلى الحق فقال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَى

---

(1) رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده (648/2/زوائد الهيثمي).

رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم/ 42]، وأما دعوة الخلق تكون من الخلق للحق إلى الحق، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [فصلت/ 33] الآية وقال تعالى: ﴿ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران/ 193]، قلت: فهذه دعوة الخلق للحق إلى الحق، إذ دعوة الخلق للحق هو من يدعو الخلق لله تعالى، وهو الحق إلى الحق، أي يدعو الخلق للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، فهذه الدعوة إلى الحق، فالإيمان بما ذكرناه حق، فقد ظهر هذا وتبين. انتهى. والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

الاسم الخامس: كلمة العدل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل/ 90]، وفي الحديث أن جبريل عليه السَّلام قال: يا محمد إنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان[1]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: العدل هو شهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان هو القيام بالعبودية. وقيل: العدل شهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان الإخلاص فيها. وقيل: العدل مع النَّاس، والإحسان مع نفسك بالطَّاعة، قال تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء/ 7]، وقيل: أمر بالعدل مع الأعضاء، وبالإحسان مع القلب، بأن يربيه بغذاء التوحيد وشراب المحبّة. وقيل: العدل رؤية الافتقار إلى الحق، والإحسان مشاهدة إحسان الحق من كل شيء في الحق. وسبب تسمية هذه الكلمة بكلمة العدل وجوه:

الوجه الأول: العدل في كل شيء: تحصيل سبب اعتداله وكمال حاله، وكمال حال القوى الحسية في إدراك المحسوسات، وكما حال القوة الغضبية في دفع الأشياء المنافية للجثمانية، وأمَّا القوة العقلية فكمال حالتها وغاية سعادتها أن ترسم فيها صور الحقائق وأشياء المعقولات كما هي، فتصير القوة العقلية كالمرآة التي تجلو فيها صور الوجوه بتمامها، وأشرف المعقولات وأعلاها معرفة جلال الله وقدسه وعظمته وعزه، فكان غاية العدل والاعتدال للأرواح البشرية والقوى العقلية وكونها مقبلة على أخذ الحال مستغرق فيها لأسباب.

الثَّاني: إلى معرفة متوسطة بين الإفراط الذي هو التَّشبيه، والتَّفريط الذي هو التَّعطيل، فمن بالغ في الإثبات وقع في التشبيه، ومن بالغ في النفي بالغ في التَّعطيل،

(1) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص: 307).

فالحق الاعتدال بين الطَّرفين.

السبب الثالث: من ترك النظر والاعتدال في معرفة الله تعالى، وعدل إلى أن الحق ما لقيه من الخلل والخيال وقع في الضَّلال، وأما من توغل في البحث وأراد الوصول إلى كنه العظمة تحير وتردد في نور الإلهية، يعمي العقول البشرية، فصار هذان الطرفان مذمومين، فالأول البحث في الاعتدال وترك التعمق، وعنه عليه الصَّلاة والسَّلام: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق»[1] قلت: وعلى هذا الحديث بينت ما تضمنته منظومتنا المسماة ببهجة النفوس التي وضعتها في علم التنزيه، فإنها سالمة الاعتدال بفضل الله المعطي الجواد، فطالعها إن شئت، والله الموفق. هـ. ثمَّ قال رحمه الله: فأمر تعالى بالعدل في التَّوحيد وقال تعالى: ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء/ 129] أظهر العجز عن الضَّعيف، وأقدر على الشَّريف، ليعلم أن الكل منه سبحانه لا إله إلا هو.

الاسم السادس: الطيب من القول، أي لا إله إلا الله الألف واللام للاستغراق، كأنه قال: لا لذيذ ولا طيب إلَّا هذا، لأن الطيب بالنسبة إلى كل طيب، وأي كلمة أطيب وأطهر من كلمة التوحيد، والكفر سبب للنجاسة سبعين مرة، ونزول النجاسة بذكر هذه الكلمة مرة واحدة، وذلك أن الطيب هو اللذيذ، واللذيذ إدراك الملائم، والملائم للقوى الحسية والمحسوسات، والملائم للقوى العقلية إدراك جلال الله تعالى وقسمه وإدراك القوة الحسية، فهي الأعراض القائمة بالأجسام الكثيفة الفاسدة، ومدرك القوة العقلية، وهو ذات الله وعظمته، وكل ما كان الإدراك أقوى، فالمدرك أشرف، كانت اللذة الحاصلة بسبب ذلك الإدراك أشرف وأعلى، فعلى هذا نسبة اللذة العقلية للحسية في الشرف والقوة منسبة الإدراك العقلي إلى الإدراك الحسي، وكنسبة ذات الله وصفاته في الشرف والفعال إلى الأعراض القائمة في الأجسام، وكما أنه لا نهاية للنسبة الحاصلة بين اللذات العقلية الحاصلة من إدراك جلال الله، ومن الحاصلة بسبب إدراك المطعوم والروائح وسائر الحواس، فتبين أن الطيب المطلق معرفة لا إله إلا الله، وذكر لا إله إلا الله، والاستغراق في نور جلال لا إله إلا الله.

الاسم السابع: الكلمة الطيّبة، قال تعالى: ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم/ 24] الآية،

---

(1) رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة. انظر: فيض القدير للمناوي (262/3).

سميت بذلك لأنها طاهرة عن التَّشبيه والتعطيل، لأنَّها طريقة متوسطة بينهما مباينة لكل واحد منهما، وقال المفسرون: الشجرة الطيبة النّخلة، وشبهت بكلمة التَّوحيد لأنها ثبتت في بعض البلاد دون بعض، وكلمة التَّوحيد تجري على لسان بعض النَّاس دون بعض، ومعرفة التَّوحيد يحصل في قلب دون قلب، ولأن النَّخلة ثابتة في الأرض وفرعها في السَّماء، والكلمة الطَّيبة أصلها ثابت في القلب، وهي المعرفة، وفرعها في السَّماء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر/ 10].

الاسم الثامنُ: الكلمةُ الثَّابتةُ قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم/ 27]، وسميت بذلك لأن المذكور المعلوم ثابت وجوب الثبوت لذاته، ممتنع العدم فالقول كذلك.

الاسم التاسعُ: كلمة التقوى، سميت بذلك لأن قائلها اتقى الكفر، ولأنها واقية لبدنك من السَّيف، ولمالك من أن يغنم، ولأولادك من الأسر، فإن انضاف إلى القلب اللسان صارت واقية لقلبك من الكفر، وإن وفقت صارت واقية لجوارحك من المعاصي.

الاسمُ العاشرُ: الكلمةُ الباقيةُ، قال كثير من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾ [الزخرف/ 28] في عقبه أنها قول لا إله إلا الله، لقوله قبل ذلك ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزخرف/ 26 - 27]، ومعنى براء ممَّا تعبدون: نفي الإلهية من الأشياء التي كانوا يعبدونها، ثمَّ قال: ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾، وكان فيه إثبات الألوهية للذي فطرني، وجموع ذلك لا إله إلا الله.

الاسم الحادي عشر: الاستقامة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت/ 30] هو قول لا إله إلا الله، وقولهم: ربنا الله: إقرار بوجود الرب تعالى، ثمَّ من المفسرين من أثبت له ندا أو شريكا تعالى عن ذلك، ومنهم من نفى ذلك، وهم الذين استقاموا على الصراط المستقيم، والاستقامة في القيامة بقدر الاستقامة في نفي الشركاء.

الاسم الثاني عشر: كلمة الله العليا، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة/ 40]، وذلك أنَّ القلب إذا تجلى فيه نور هذه الكلمة استعقب حصول القوة بها، ولهذا صار العارفون المستغرقون في نور جلال الله يستحقون الأحوال اللدنية، وعظماء الملوك لا ينالون بالقتل، ولا يقيمون طيبات الدنيا

وزينتها وزنا البتة، ألا ترى إلى سحرة فرعون لما تجلى لهم نور هذه الكلمة كيف لم يلتفتوا إلى قطع الأيدي والأرجل، وإلى سيدنا محمَّد ﷺ لما استغرق في هذا النور لم يلتفت إلى الملكوت، كما قال تعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم/ 17]، وهي مستعلية في الدنيا على سائر الأديان قال تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة/ 33] مستعلية على سائر الذنوب، فإنها مزيلة سائر الذنوب ولا يزيلها ذنب، والله الموفق.

الاسم الثالث عشر: الأعلى، قال تعالى: ﴿ وَلِلهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل/ 60]، قال قتادة: معناه قول لا إله إلا الله، ومعنى المثل هنا الصفة، كذا قال أهل اللغة، ونظيره قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد/ 35] أي صفتها.

الاسم الرابع عشر: العهد، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم/ 87] العهد: قول لا إله إلا الله.

الاسم الخامس عشر: مقاليد السموات والأرض، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هو قول لا إله إلا الله، لأن الشرك سبب لفساد العالم، قال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ ﴾ [مريم/ 90 – 91]، فكذلك كان التَّوحيد عمارة العالم، ولا تفتح أبواب السماء عند الدعاء إلا بقول لا إله إلا الله، وأبواب الجنان إلا بهذا القول، وأبواب النيران لا تغلق إلا لهذا القول، وأبواب القلب لا تفتح إلا بهذه الكلمة، وأنواع الوساويس لا تندفع إلا بهذا القول، فهي أشرف مقاليد السموات والأرض، وأعز مفاتح أرواح الأجسام والعقل.

الاسم السَّادس عشر: كلمة الحق لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف/ 86] وهم يعلمون أي قول لا إله إلا الله.

الاسم السابع عشر: كلمة الوثقى قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة/256] يعني قول لا إله إلا الله.

الاسم الثامن عشر: كلمة سواء قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران/64]، قال أبو العالية: هي كلمة لا إله إلا الله.

تميمة الأسرار في بعض معاني بعض الأذكار: اعلم أن لا إله اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل على ما قاله ابن عطاء الله رحمه الله في كتابه المذكور، ثمّ قال بعد

هذا القول: ثمَّ غلب على المعبود بالحق، قلت: لا يطلق على غير المعبود بحق، لأن معنى الألوهية استغناء الإله عن كل ما سواه، وافتقار كل ما سواه إليه، ولا يكون هكذا إلا المعبود بالحق، وهو الله خالق الخلق، سبحانه لا إله إلا هو. هـ.

قال تاج الدين في هذا المحل: وأمَّا الله فقيل مشتق، واختلفوا على قول، قيل: مأخوذ من أله الرجل إذا أفزع إليه غيره من أمر نزل به، إذا لأجاره، قلت: وفيه نظر من كون القديم يؤخذ من الحادث، وعلى هذا فلا يصح هذا المأخذ، إذ لو عكس الأمر لكان موافقا لما في نفس الأمر، والله أعلم. هـ.

قال تاج الدين: ويسمَّى إلها كما سمي من أم النَّاس إماما، ثمَّ قال: وقيل مأخوذ من لاه يلوه إذا احتجب، أي حجبت العقول عن حقيقته، وقيل: من لاه يلوه إذا ارتفع، كما يقال لاهت الشمس إذا ارتفعت، وقيل من قولهم ألهت بالمكان إذا أقمت به. قلت: والله تعالى مقيم على ما هو عليه كان، منزها عن الزَّمان والمكان، وتلك إشارة إلى دوام وجوده. وقيل: الله ليس بمشتق، إنما أجري مجرى الأعلام لأنه يوصف بسائر الأسماء، لأن هذا الاسم جامع لجميع معاني الذَّات والصفات، والأسماء كلها مضافة إليه، لا يضاف هو إلى شيء منها، وهو يوصف بسائر الأسماء، ولا يوصف به اسم، وذلك خاصة الأعلام، وهو اسم لوجود الحق الجامع لجميع صفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرد بالوجود الحقيقي، وكل موجود سواه استعار الوجود منه، وهذا الاسم أعظم التسعة والتسعين أسماء، أنه دال على الذات الجامعة لجميع صفات الألوهية.

قلتُ: ومن عظمته على سائر الأسماء أن كل اسم على الإطلاق يختل معناه إذا نزع منه الحرف الأول، أعني الحروف الأصلية دون الزائدة، إلا هذا الاسم الكريم، ما حذف منه حرف إلا وكان فيما بقي من حروفه دلالة على الذات القديمة العظيمة المنزهة عن الأمثال والأشباه، فإذا حذف الألف مثلا بقي ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض﴾، وإذا حذف اللام الأول بقي ﴿ له ملك السَّموات والأرض﴾، وقال تعالى: ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ إلى قوله ﴿ له ما في السموات وما في الأرض﴾ أيضا، وإذا حذف اللام الثاني بقي " هو "، قال الله جل ثناه: ﴿ هو الأول والآخر والظَّاهر والباطن﴾ إلى غير ذلك من الآيات، وأمَّا غيره من الأسماء كالرحمن مثلا فإذا نزع منه حرف الراء الذي هو من حروفه الأصلية اختل معناه، فيبقى حمان، وهو ليس باسم،

والرحيم يبقى حيم، والملك يبقى لك، وهذه كلها مختلة المعاني بزوال حرف منها، وكذلك غيرها من الأسماء على الإطلاق، إلا الاسم المفرد الدال على الذات المفرد، فلا يختل أبدا، فلذلك جعل طبيعة لكل لسم طبيعة حرفه الأول من غير نظر ولا تأمل ولا حساب، وهو كذلك لما كان الحرف الأول من كل اسم ومن كل كلمة على الإطلاق هو سلطان الحروف، فكذلك هذا الاسم الكريم، وهو سلطان الأسماء، ولمَّا كان السلطان هو عظيم قومه، فكذلك سلطان الحرف وسلطان الأسماء، فالله من الأسماء هو عظيمها، والله أعلم هـ.

قال تاج الدين: وقد ورد في الآثار أنهم كانوا يكتبون في كتبهم في الجاهلية باسمك اللهمَّ، وقال تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم/ 65]، ولهذا قال الجنيد رحمه الله: ما عرف الله إلا الله، وأعطى لخلقه الأسماء فحجبهم، فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة/74]، فوالله ما عرف الله إلَّا الله في النشأتين والدارين واليومين، وقبض الله بسط العقول والأرواح والقلوب في ميدان هذا الاسم، كما بسطهم في ميدان الأسماء، ولذلك لا يقع التجاسر ولا للأفكار التسمية به مع وجود الجاحدين، والفراعنة الطاغين مع شدة كفرهم، ولذلك كان كل اسم من الأسماء يصلح للتَّخلق إلا هذا الاسم، فهو للتعلق، فينبغي أن يكون حظ العبد من هذا الاسم التأله، وأعني به أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى لا يرى غيره، ولا يلتفت إلى سواه، ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه، ولا يصلح التعلق بهذا الاسم إلا بعد التخلق بجميع الأشياء أقوالا وأفعالا، وظاهرا وباطنا، ومن أراد التقرب بهذا الاسم فعليه بسبعة أصول: استحقار ما سوى الله حالا، والتعظيم لأوامر الله كشفا، وسقوط الأكوان شهودا، والفناء في الجميع استغراقا، وتعلق الهمة بالله دأبا، ومراقبة الأنفاس سرا، وذكر الاسم الأعظم ظاهرا وباطنا، إلى أن يناله في الوله، يعني يستغرق سره في وجوده في حقيقة شهوده، لا يرى غيره، ولا يحس من سواه، فيحرس الله عليه أحواله، ويحفظ من الأغيار أسراره. وعن الشبلي: ما قال أحد على حقيقة الله إلا الله، ومن قاله إنما قاله بحظه، وقال أبو سعيد الخراز: من جاوز حد بستان نفسه وقع في نسيان حظه من الله، ونسيان حاجته إلى الله، فلو تكلمت جوارحه لقال: الله الله، فهؤلاء الذين ولهت أسرارهم بالله، وامتحنت آثارهم طمسا في عين التَّوحيد، فاستخدم الله لهم الأكوان، وسخر لهم الأسرار، فمن اتخذ الخلوة بهذا الذكر إلى أن يتوله به في الاستغراق، وحقيقة التوله أن يستغرق ولا يحس

بموجود أو معدوم، ولا يزال صامتا إلى أن يغلب عليه، فيسمع كل عضو منه يقول الله الله بلسان يسمعه، فلو سقط دمه لكتب: الله الله، وهذا والله أعلم في كل ذرة من ذرات العلم، سر من أسرار سر الله، فبذلك السر فهم عنه، وأقر له بالتَّوحيد كل عالم على نوعه، الذي هو قائم به، علم أم لم يعلم، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ﴾ [الرعد/15]، فالألف الأول دلالة الذَّات، واللام الأولى دلالة صفات الذات، واللام الثانية دلالة أسماء المعاني القائمة بأسماء الصفات، والهاء دالة على أسماء الإشارة لبواطن الأسماء.

تنبيه واستذكار في بعض فوائد الأذكار:

يحكى أن رجلا كان واقفا بعرفة وكان بيده سبعة أحجار، فقال: يا أيتها الأحجار السَّبعة اشهدوا أني أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمدا رسول الله صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وأمَّته، فنام الرجل فرأى في المنام كأن القيامة قد قامت، وحوسب ذلك الرجل فوجب له النار، فلما سيق به إلى باب من أبواب جهنَّم جاء حجر من تلك الأحجار السبعة، وألقى بنفسه على ذلك الباب، واجتمعت ملائكة العذاب على رفعه، فلم يقدروا، ثم سيق إلى الباب الثاني فكان الأمر كما في الأول، وهكذا الأبواب السبعة، فسيق به إلى العرش، فقال الله سبحانه: عبدي أشهدت الأحجار فلا يضيع حقك، وأنا شاهد على شهادتك على توحيدي، ادخل الجنَّة، فلمَّا قرب من أبواب الجنان، فإذا أبوابها مغلقة، فجاءت شهادة أن لا إله إلا الله، وفتحت الأبواب ودخل الرجل.

وذُكر أنه زاد الماء في بغداد حتى أشرفت على الغرق، فقال بعض الصَّالحين: رأيت في تلك اللَّيلة كأني على طرف دجلة، وأقول لا حول ولا قوة إلا بالله غرقت بغداد، فجاء إنسان حسن الصورة، وكنت أعلم أنه ملك، فجاء ملك آخر من ناحية أخرى، فقال أحدهما للآخر: ما الذي أمرت به؟ فقال: أمرت بتغريق بغداد ثم نهيت عنها، فقال: ولم؟ فقال: رفعت ملائكة الليل ببغداد البارحة سبعمائة فرج حرام فغضب الله فأمر بتغريقها.

يعني أن تحسن ظنك بالله تعالى، ولا تترجج في دين الله، ولا في ما ضمن لك من الرزق، فذلك هو حسن الظن الجميل، وعلامة ذلك أن لا تتهمه في رزقك ودينك، ولا تدبر ولا تفكر كفاية في تدبيره واختياره، ولا تغتم ولا تحزن لما نقص من مالك

وولدك، ولا تفرح بما تزايد لك من ذلك، ولا تخف فوت رزقك ثقة بما سبق في علمه لك، ولا تزال مستبشرا فرحا شائقا إلى لقائه سبحانه.

فصل في شرح قوله وتتهلَّل بأسماء الله الحسنى: يعني تذكر الله بها وتدعوه بها، لقوله تعالى: ﴿ وَلِلهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف/180]، وقال النبي ﷺ: "إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من حفظها دخل الجنَّة ". قلتُ: وروينا في الصحيح[1]: "من أحصاها دخل الجنَّة "، قيل: الإحصاء هو الحفظ كما ذكر هنا، وقيل بمعنى التخلق والتعلق، والله أعلم هـ. فتحصيلها علما وإيمانا وتعظيما، وتتخلق بما فيها للتخلق، وتتعلق بما فيها للتَّعلق.

فصل في شرح قوله: تتقلد بسيف الحقيقة: يعني تتحقق بأن لا يوجد شيء من الكونين لا وجود ولا حركة ولا سكون ولا جسم ولا جوهر ولا عرض إلا بالله تعالى على مقتضى قضائه وقدره، بسر قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر/85]، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر/49] بمحكم الحقيقة هي قضاؤه وقدره فلم يجد منها المحققون غير الإيمان بها، والسكون لمخارج حلوها ومرها، والرضى والقبول والفرح ولم يسموا من أهلها حتى لم تخرجهم عن أحكام الشريعة، فإذا أجمعوا بين الحقيقة والشريعة وغلب عليهم نور الحقيقة بعد الوقوف على حدود الشَّريعة، ولم يشهدوا سوى الحق والحقيقة، فحينئذ يسموا محققين، ولكن يلزمهم أدبها، وهو كل ما كان حسنة الأبرار في غير الأصول فهو لهم سيئة.

فصل في شرح قوله: تأخذ درقة الجهاد: يعني تجاهد في الله حق جهاده، فتجاهد عينيك عن النظر لمحارم الله، وأذنيك عن الإصغاء لمزامر الشيطان والمحارم ولما لا يعنيك، ولسانك أن تنطق بما لا يرضي الله منك، وأن تطلقه فيما طلب منك، ويديك أن تقبض بهما، أو أن تمدهما فيما لا يحل لك، وفرجك أن تنكح به ما لا يحل لك، ورجليك أن تنقلهما لمعصية، وأن تجاهد الكفار والمنافقين مع القدرة على ذلك، وأن تعمر هذه الجوارح التي ذكرنا كلها بالطَّاعة، ثمَّ تجاهد نفسك بأن لا يبقى لها حول ولا قوة ولا إرادة ولا اكتساب شيء ممَّا فيه غضب الله تعالى، ولا يبقى لك تدبير ولا اختيار ولا بخل في طاعة، ولا شهوة في معصية، ولا قنوط من رحمة الله، ولا أمن من

(1) صحيح البخاري (2691/6)، وصحيح مسلم (2062/4).

مكر الله، وأن لا تحب ما يبغض، أو تبغض ما يحب، وأن تقطع سبل الشيطان وأهل حزبه، وأن لا تفتي بما لا تعلم في دين الله، ولا تعتقد ما لا تعلمه في ذات الله أو صفاته، أو في أسمائه، أو في دينه، أو في ملائكته، أو في أوليائه، أو في علمائه، أو أمة نبيه، في غيبه، أو أن يسكن في قلبك غيره، أو أن يصيب عقلك في الوجود غيره، أو أن تطمع أن تصل إليه، أو تلقاه بغيره، أو أن تطمع أن تدركه في علو شأنه، وأن تدركه بأبصارك وأوهامك وذهنك، أو يخطر في روحك حب غيره، أو حب ما لم يرض به، وتجعل حبك كله فيه وفي طاعته وسنَّة نبيه صلى الله عليه وسلَّم، وتجعل سرك معه بلا حلول ولا مكان ولا زمان ولا غيبة ولا جهل، وأن لا يبقى لك ولي مدبر عن مجاهدة ما ذكرت لك، وتستبشر بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت/69]، وبقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣ ﴾ [الصف/10 - 13].

فصل في شرح قوله تحبس عصاة العلم: يعني تكون عالما بالله وبأمره، وعلامة العلم به مشاهدته في كل لحظة، وعلامة العلم بأمره طاعته في كل نفس، لأنه كل علم لا يعمل به هو عليك لا إليك، فالعمل بمقتضى العلم بالله هو تعظيمه وإجلاله ومحبته والحضور معه والخشية منه والحياء والهيبة والسكينة والوقار والرضى عنه والتفويض له والإعراض عما سواه والفناء فيه والبقاء به والعمل بمقتضى أمره ونهيه، وأن لا تغفل عن طاعة الله تعالى في السر والعلانية، والإخلاص في ذلك، وأن لا ترى ذلك منك، وتكون في حظوظك كالعبيد الممالك، وحقيقة ذلك أن لا تركن لذلك، وإنما الركون في ذلك كله إلى الله تعالى، ومن علامة المنَّة في ذلك أن لا تزال تتعلم وتعمل بما تعلم، لأنَّ الله تعال قال: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف/76]، وقوله تعالى لسيد الخلق: ﴿وقل رب زدني علما﴾ [طه/114].

فصل في شرح قوله تنشر راية الوفاء: يعني توفي بجميع الحقوق كلها، ظاهرة وباطنة، ومجموع ذلك في الرضى والتَّسليم لقضاء الله وقدره وأمره ونهيه، فعليها

عاهدنا الله بالوفاء بها علما وفعلا، وإخلاصا بأصولها، شرف روضها وعلامتها وحقائقها، فمن أتى بها هكذا فهو وافيا، وقد أثنى ربنا جل جلاله على أبينا إبراهيم عليه السَّلام بقوله تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم/37]، وأمرنا أن نتبع إبراهيم حنيفا، وما كان من المشركين، فانظر إلى وفائه عليه السلام كيف منعه الرضى والتَّسليم من أن يسأل الله حوائجه، وقال: علمه بحالي يغنيني عن سؤالي، وذلك بقوة يقينه بأن الله يفعل ما يشاء، وبصحة عقد ضميره بعبوديته لربه، فلزم شروط العبودية مع الربوبية، وفوض لله أموره واستغناءه بعلمه بمطالبه، وحقق بفضله وجوده ورحمته، وعلى أنه لم يبخل عليه بذلك، فاستغنى بحبه وخلته، والتزم ما يوحى إليه في نومه ويقظته، والرضى بقضائه وقدره حلوه ومره، فوفى بذلك ولم يحل قط عقدةُ، قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة/40]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة/ 111]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق/3]، ومن تحقيقه عليه السَّلام أن الأفعال كلها بيد الله، فلذلك لم يخف من غيره، ولم يطمع أن يهرب من قضائه وقدره، ولم يستغث بغيره، ولم يلجأ لغيره، ولم يستغث بجبريل الذي جاء لنصرته، لعلمه أنه مغيث من استغاث به، ولذلك قطع الأصنام ولم يخف من عبادها، فلمَّا علموا بذلك سألوه عن ذلك، فأخبرهم بذلك بعدما أشار لهم بإخفاء ذلك إذ ليعلهم أنه من عبد ذلك هالك مثله، فأخذوه وأرادوا يهلكونه، فأجمعوا وأشعلوا فيه نارا، وأرادوا أن يحرقوه فأبى ربه ونجاه، بعدما ظهر صدقه ووفاه بتفويضه لربه واعتماده عليه، وذلك أنَّهم لمَّا جعلوه في المنجنيق طلبت العوالم كلها من ربنا جل جلاله أن يغيثه، فقال لهم: إن استغاث بكم فأغيثوه، فلما عرض عليه كل واحد منهم الإغاثة لم يطمع عليه السَّلام في واحد منهم، وكان آخر من طلبه في الإغاثة سيدنا جبريل عليه السَّلام، وهو طالع في الهواء، إذ قال له: ألك حاجة؟ فقال له: أما عندك فلا، فقال له: وعند ربنا؟ فقال: بلى، قال: فاسأله، قال له: علمه بحالي يغنيني عن سؤالي، فلم يرد عليه السَّلام غير أن قال: حسبي الله ونعم الوكيل، فكان الله حسبه، فنجاه الله من النار، ونعمه بالنار أربعين يوما، فلم ير على وجه الدنيا لذة أحلى منها، وابتلاه بذبح ابنه فصبر على ذلك، فنجاه من ذلك أيضا وقر عينيه وفداه بذبح عظيم، والله الموفق سبحانه.

فصل في شرح قوله وتركب جواد الحق: يعني تمشي على المذهب الجامع بين

الشريعة والحقيقة، وهو أن تفعل ما أمرك الله به، وتنتهي عن كل ما نهاك عنه، ولا ترى ذلك منك إلَّا من الله إلى الله، وتجد سرّ ذلك في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال/17]، ومن علامات وجود ذلك فيك كل ما يصعب على الناس من فعل الطاعات تجده أنت هينا عليك في كل الحالات، وكذلك ترى النعم والنقم كلها من الله، وإن كان ذلك الضرر والأذى لحقك بسبب واسطة عبد، فتعلم أن الضارب مولاك، والواسطة عصا ضربك بها إلهك، إذ لو لم يردك بذل لم يصلك شيء من ذلك، وتمنعك الشَّريعة أن تفعل ذلك بغيرك، فإن خرقت الشريعة فأنت فاسق عاص مؤاخذ بذلك في الدنيا والآخرة، وإن نسبت فعل الغير لك إلى الله لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال/17] الآية، تحققت بسر قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة/51] الآية، فإنك تجمع راحة الدنيا والآخرة، وهذا هو الجمع بين الشريعة والحقيقة، والله الموفق وهو الهادي والملهم سبحانه.

فصلٌ: وأمَّا معنى قوله وتسرجه بالحلم: يعني تحنن على المخلوقات عموما وعلى المؤمنين خصوصا، وأن تراعي في كل مخلوق حق من خلقه، إذ لم يخلقه عبثا، ولم يتركه سدى، لقول سيدنا محمَّد ﷺ: «الرحماء يرحمهم الرحمان»[1]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [الشورى/40]. وحقيقة الحلم: أن تحلم عن كل من يظلمك، وتعفو عنه، وعلامة ذلك أن لا تجازي أحدا بفعل السوء، وتجعله في حل، وأن تجعل دعاءك في السر والعلانية مشتركا بينك وبين من أكرمك ومن أهانك وضرك، وأن يكون ذلك بطيب نفسك، وتخفيه من الخلق لئلا يمدحونك ويثنون عليك، لأن من مدحك فقد ذبحك، ويكفيك رؤية الله ذلك منك، وأن ترى ذلك منة من الله عليك، وأن لا ترى لنفسك حقا على الله تعالى، لا على أحد من غيره، وترى حق الله تعالى وحق عباده عليك مع كل نفس، والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

فصل: وأمَّا معنى قوله: وتحبس بعنان صدق الصدق: يعني أن لا تغفل عن مشاهدتك له في كل لحظة، وعبادتك له في كل نفس، وتقطع إياسك من الخلق والخالق، أن لا يصلك شيء منه تعالى ولا منهم، إلا إذا سبق لك ذلك الشيء في علمه تعالى، واحبس في يدك أمر السوابق تكون عبدا صادقا، وترعى جميع الأحوال، وتصير

---

(1) رواه البخاري (431/1)، ومسلم (635/2) بلفظ: "إنما يرحم الله من عباده الرحماء ".

رابح القلب متعلقا بالخالق، وبذلك يصح لك التوكل على الله تعالى في جميع الأمور، وحسن ظنك بالله، واعتمد عليه تنل البغية والسرور، واعتكف على عبادته، وعمر بالذكر والفكر جميع أوقاتك وأسبابك، وجميع أحوالك، وتيقن بأن ما كان يصيبك ولا يخطيك، وما كان يخطيك فلا يصيبك، وترضى بجميع ذلك، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

فصل في بيان معنى قوله: وتكون اللزمة من الصمت عمّا لا يعنيك: قال عليه السَّلام: «لو كان الكلام فضة لكان الصمت ذهبا»[1]، وروى أن رجلا كان من فصحاء العرب فجعل يتكلم على النَّاس بالتذكير والمواعظ، وكان الناس يستطيبون ذلك، فازداد بذلك نشاطا وقوة، فلما فرغ من علمه، إذا هاتف يكلمه ولا يرى شخصه من ناحية الخشبة التي كان جالسا عليها، وهو يقول له: تكلمت فأحسنت، فبقي عليك أن تسكت فتحسن، ولم يسمع ذلك أحد سواه، فسأل بعض معارفه كان جالسا بالقرب منه إذ ذاك، فقال له: هل سمعت شيئا؟ فقال له: وما ذاك؟ فقال له: إن سمعت شيئا فأخبرني وإلا فلا، فقال: ما سمعت شيئا، فلم يجلس قط في ذلك بعد ذلك ولم يتكلم بشيء إلا بما لا بدّ منه. والمراد أن لا تتكلم إلا بما لا ترجى منه ثوابا، وأحرى ما يكسبك عقابا، والله الموفق وهو الملهم والهادي سبحانه.

فصل في بيان معنى قوله: وتنتهي بنور المعرفة: يعني تكون عارفا بالله تعالى وبأوصافه وبأسمائه، وبالنَّبي ﷺ وبأوصافه وبأسمائه، وبنفسك، وبالدنيا وأوصافها، وبيوم القيامة وأوصافه، وبالنار وأوصافها، وبالجنّة وأوصافها، وبالنَّعيم وأوصافه، وبالعذاب وأوصافه، وبالذنوب وأوصافها، وبالحسنات وأوصافها، وبالمبدأ وأوصافه، وبالمنتهى وأوصافه، وبحجب الجمع والفرق وأوصافها، وبالأنوار والأسرار وأوصافها، وعلامة المعرفة أن تجد علم الشَّريعة والحقيقة في كل شيء جل أو دق، كثيف أو لطيف، وهذه أعلى درجة الولاية والله الموفق.

فصل في بيان معنى قوله: وتتزود بالتَّقوى: يعني تترك الكبائر والصَّغائر، وتقوم بالواجبات والرغائب، حتى تستغرق أوقاتها كلها في الأعمال الصَّالحات، وتترك جميع الأعمال المذمومات، وقد بين الله تعالى في كتابه العزيز الصديقين والمتَّقين فقال عز

(1) ليس حديثا، وإنما حكمة مأثورة مشهورة.

من قائل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة/177]، والذي يتقي الله ضمن الله له تيسيرا لأمور دنياه ودينه، أمَّا أمور دنياه فقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق/2 - 3]، وأمَّا تيسير أخراه فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝ ﴾ [القمر/54 - 55]، فإذا من الله عليك بالتَّقوى يلزمك الشكر على ذلك لقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم/7] ويضمن له الجزاء لقوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران/145]، ويضمن له الدوام لقول النبي ﷺ: «النعم وحشية فقيدوها بالشكر»[1]، ويضمن له الحب لقوله صلى الله عليه وسلم: «أحب إلي من دنياكم ثلاث قلب شاكر ولسان ذاكر وجسم على البلاء صابر»[2]، ويضمن له التَّخصيص لقوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ/13]، وأمرنا الله سبحانه بالشكر فقال تعالى: ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة/152].

والشكر على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: شكر بالقلب وهو أن ترى أن الله تعالى منَّ عليك بجميع النعائم كلها، حتى الشكر منة منه عليك.

وشكر باللسان: وهو الإقرار بجميع النعائم أنها من الله وحده من غير حول منك ولا قوة، حتى الحمد والشكر.

وشكر بالجوارح: وهو أن لا تعصي الله تعالى بها، وأن تؤدي الواجبات والمندوبات بها.

وأما كفران النعم أن تعصي الله بها، أي تستعين بنعمائه على معصيته ولا تشكره.

والشكر على ضربين: شاكرين ومشكورين، فالشاكرون الله على السَّراء ليزيدهم ويحمدونه على الضراء ليعظموه في ذلك على وجه الرضى، ويتركون الشكر على

(1) ليس حديثا، وإنما هو من قول أحد الحكماء، انظر: فيض القدير (456/5).
(2) لم أقف عليه بهذا اللفظ والله أعلم.

الضراء خوف المزيد على الدَّوام، والمشكورون يشكرون الله على السراء والضراء على وجه الرضى والتَّفويض فيها معا لتسوية السراء والضراء عندهم، إذ كل ما يأتيهم من الله تعالى محمود، فالسراء عند الشاكرين بنعيم الدنيا، والسراء عند الشكورين بالضراء لما يترتب عليها من الثواب، والشكور الصادق في شكره، هو الذي يشكر العافية كما يشكر الأول البلاء والألم، ومنه شكوى أيوب عليه السَّلام لمَّا عفاه الله وشفاه من الجدري الذي كان بجسمه، وجعل الدود يتساقط من لحمه، ويحمله بيده، ويرده لمحله، فلمَّا كثر تساقطها شم رائحة العافية فتضرر بها، فشكى العافية، فقال: ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء/83]، فسماه الله شكورا بقوله: ﴿ إِنَّه كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء/3] والله المرفق وهو الملهم سبحانه.

فصل في بيان معنى قوله: تمشي على الصراط المستقيم: يعني بالصراط المستقيم صراط الأنبياء والصديقين والشهداء والصَّالحين، فصراطهم هو الصراط المستقيم، أي طريقهم، فقوله: تمشي على الصراط المستقيم، يعني تتعلم علومهم، وتعمل بأعمالهم، وتتخلق بأخلاقهم، لكن وإن أمرت بطريق الأنبياء فلا تطمع أن تبلغ مقام الأنبياء، ولا تحوم حولهم، لكن تكون من أتباعهم والمصدقين فيهم، والمحبين في جميعهم من غير تفريق بينهم، والله الموفق سبحانه.

فصل في بيان معنى قوله: فإذا أردت المشي فيه يتعرض لك فيه أربعة، وهم: الدنيا والشيطان والنفس والهوى، وقد أردت أن أضرب مثلا لكيفية قتال هؤلاء الأعداء الأربعة، أي جهاد هؤلاء الأشرار أعظم وأكبر من جهاد الكفار، لأنَّ جهاد العدو الظاهر الجلي أهون من قتال العدو الباطن الخفي، وأيضا فالعدو الكافر إن تغلب فإذايته وضرره نعمة كبرى، لأنها موصلة لرضاء الله ولجنته بالأسر والقتل، والعياذ بالله من الأسر، والعدو الباطن إن تغلب فيكون سببا لسخط الله تعالى، ولاستحقاق عذابه وعقابه، والعياذ بالله من هذا القسم كله، فلذلك عنيت في جمع كيفية تسهل قتال العدو الباطن، الذي قتاله معنوي لنصيره بضرب المثال كأنه حسي، وقد تقدم في أوائل السفر الأول من هذا الجهاد شيء حسن، لكن أردت ممَّا تقدم فجعلت أفكر في ذلك، فوجدت في هذا اليوم بطاقة واحدة، مكتوبة من وجهين منسوبة للشيخ الفقيه الإمام العالم الرباني أبو حامد الغزالي رحمه الله ونفع به آمين، فرأيت فيها أكثر شيء ممَّا كنت ترومه، فحكيته هنا بلفظه، وأن أنسج على منواله ورأيه، فقال رحمه الله قوله

تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل/98] دل على أنَّ الله تعالى إذا اختص عبدا لخدمته سارع في طاعته، وقهر النفس بمعرفته، فلم ير في الوجود سواه، ولم يعبد إلا إياه، فلما أشرق فؤاده بنور الإيمان، وبرق خاطره ببوارق الإيقان، فجدَّ وشمَّر، وهمَّ وما قصر، فالتمست للمؤمن في أحواله وتصرفاته في أقواله وأفعاله وسبيله مع الشيطان مثلا، فرأيت أن مثل المؤمن كالمدينة، وجوارحه كالسور المحدق بها، وفي المدينة قصر وهو القلب، وفيه ملك كريم فاضل وهو الإيمان، وله وزير وهو العقل، وله دليل وهو التَّوحيد، وله نديم وهو العلم، وله صاحب سر وهو الأنس، وله سيف وهو الحق، وله رسول وهو الصدق، وله منادٍ وهو الإقرار، وله سجن وهو الخوف، وله جنود لا يفارقونه، وأعوان لا يخالفونه، فبينما هو كذلك إذ أقبل إليه بعض رعيته المشفقين على مملكته، فقال له: أيها الملك الكريم إن الشيطان الرجيم قد توجه إليك في جيش عظيم ليخرب هذه المدينة، وينزعك منها، ويبدد شمل رعيتك، ويستولي بالكفر أو العصيان عليها، فاستعد له قبل وصوله لمدينتك، واحترز بالحفظ والصيانة على مملكتك، فإن عدوك إلى مدينتك واصل، وعن حربك غير ناكل، قال: فأحضر الملك جماعته، وشاور أهله وقرابته، والتفت إلى وزيره وهو العقل، فقال له: أيها الوزير الخطير، والأب الكبير، انظر ماذا به علي تشير، فقال: تحفر حول مدينتنا خندقا من الزهد، فإنه لبأس العدو يصد، ولجميع جنده يرد، قال: فأسرعوا في حفره بمعاول الصدق، وأجروا فيه ماء دموع الأرق، وأوقدوا نار الحزن الحرق، وأنشدوا في معنى ذلك:

ولما أحاطت بي جنود وساوسي	حفرت بجهدي حول جسدي خندقا
حفرتها في أرض من الجود والصفا	وأجريت دمع العين فيه مدفقا
وشيدت حصني واستعنت بخالقي	وأسرعت سيري في المكاره مطلقا

فبينما هو كذلك، إذ أقبلت غبرة البطَّالين، وجنود الشياطين، وهم ما بين فارس وراجل، وهم على حال السارع في أمر عاجل، وأقبل جيش الهجر في موكب كالبحر، بين يديه علم يخفق، واتصل الوصل وهو غير مرفق، وأنشدوا:

اتصل الجند إلى موضع	عليه صور به محدق
وضل قلبي بين جند الهوى	والوجد والشوق له ينسق
فويح قلبي من تبارحه	إني أسير والهوى مطلق

فنزل اللَّعين إبليس عن يمين المدينة، وكانت جنوده إحدى عشرة، وهم الكفر والشقاق والنفاق والغفلة والنسيان وارتكاب النواهي واجتناب الأوامر وحب الزينة والمال ومعصية ذي الجلال والإكرام ومخالفة الأمر، ونزلت النفس عن يسار المدينة، وكانت جنودها إحدى عشرة: اللهو والشَّهوات وحب المدح والثناء والزور والغرور والرياء والمراء والمباهات والقسوة ومخالفة الأمر، ونزل الهوى من وراء المدينة، وكانت جنوده إحدى عشرة: الزين والشِّين والراحات والمرايات وضروب البغي والفساد ورفض الرشاد وسد الأبواب وترك الأسباب ومخالفة الأمر، ونزلت الدنيا أمام المدينة وكانت جنودها إحدى عشرة: وهي الطمع ورفض الورع والتزين للخلق بما ليس فيه والغش والمكر والحسد وطول الأمل والبخل والعداوة ومخالفة الأمر، فهال الملك ما أبصر واغتم، وتحير وميز أمره ودبر، وأنشدوا:

قد بالغ الأمر منتهاه ... وحل بالعبيد ما تراه

إذا لم يكن لي مولى سواه ... فلست أشكو إلى سواه

فلمَّا أحاطت بالمدينة أسباب البلوى، رفع مالكها إلى خالقها الشكوى، سند أمره إلى اللَّطيف المولى، الذي يعلم السر والنَّجوى، وأنشدوا في ذلك:

إني بليت بأربع ما سلطوا ... إلا لعظم رزيتي وشقائي

إبليس والدنيا والنفس والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي

إبليس يسلك في طريق مهالكي ... والنفس تأمرني بكل بلائي

وزخارف الدنيا تقول أما ترى ... حسني وفخر ملابسي وبهائي

وهذا الهوى أيضا يزيد ما به ... أقع في مهلتك مع الهلكاء

وجنودهم حاطوا بسور مدينتي ... يا عدتي في شدتي ورخائي

فثبت الله أركانه، وقوى بفضله جنانه، وشيد بقوته حيطانه، فالتفت إلى وزيره وهو العقل، فقال له: أيها الوزير الصَّادق إني أعلم أنك لا تفزع من العوائق، وأنك في رأيك موافق، ولا يدركك إن شاء الله مخادع ولا فاسق، فإني أسلمت مدينتي إليك، وأعتمد في حفظها على الله ثم عليك، فقال له الوزير: إنني أريد إخوانا، يكونون لي على العدو أعوانا، فضم إليه من جنوده عشرة، وأمرهم بطاعته ولا يقطعون أمرا إلا بمشورته، وهم: اليقين المحض والقيام بالمندوبات والفرض والتوكل والوفاء والبذل والسخاء والتنزه عن الفحشاء وترك الإصرار والتهجد في الأسحار ورفض هذه الدار والإقبال

على الملك الجبار والطَّاعة للأمر، وقال له: كن أنت في مقابلة الشيطان، والتفت إلى دليله، وهو التَّوحيد، وقال له: كن أنت في مقابلة النفس بالقوة والعزم الشَّديد، وضم إليه من جنوده عشرة، وأمرهم بالطاعة، وهم: الحلم والنصيحة ولزوم الجماعة ورد النفس عن الميل للشبهات وغض البصر عن المحرمات والمداومة على الذكر ولزوم الفكر والإخلاص في الأعمال والصدق في جميع الأحوال والطاعة للأمر، ثمَّ التفت إلى خديمه وهو العلم، وقال له: كن أنت في مقابلة الدنيا، وضم إليه من جنوده عشرة، وأمرهم بطاعته وترك مخالفته، وهم: التعظيم والتفويض والتَّسليم والوفاء بالعهود والحفظ للحدود والرضى بالموجود والصبر على المفقود وترك الاختيار وصدق الافتقار والطاعة للأمر، ثمَّ التفت إلى صاحب السر، وهو الأنس، وقال له: كن أنت في مقابلة الهوى، وضم إليه من جنوده عشرة، وأمرهم بطاعته وترك مخالفته، وهم: الهيبة والوقار والوقوف عند الأمر والاستماع مع الاتباع لسنة النبي المختار والتحقيق والاستمساك بالعروة الوثقى وترك الدعوى وقطع الأطماع والعزم والتصميم على الحق والطاعة للأمر، قال: وحفظ الملك باب المدينة وعليه الوقار والسكينة، ومعه بقية جنوده كالجراد المنتشر، وهم عوام الجيش من أهل القتال، الضاربين بالسيوف والنبال، وكثرة المدافع والمجانيق والجبال، ونشر العلوم من خزائن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واستكثر من التَّهليل والتكبير، والصَّلاة والسَّلام على البشير النذير، وطاف حول المدينة جيوش التَّسبيح والتَّقديس، ومعرفة الله الواحد الأحد السَّالمة من الشك والوهم والتَّلبيس، واستعان الملك بالله وقوته على حرب العدو وجماعته، فلمَّا جن عليه الليل أوقد الملك على أبواب المدينة مشاعل الحكمة، ووكل على الطَّواف حول المدينة حرّاس التَّوبة، وأنشدوا في معنى ذلك:

تتجافـــــــــى جـــــــنوبهم	عــــن وطـــــئ المـــــضاجع
لـــو تـــراهم وقـــد نفـــذوا	بالعـــــزم علـــــى المهاجـــــع
قـــــد أجيـــــبوا بدعـــــوتهم	ولـــم تقـــع فـــي المـــسامع
يـــا عـــبادي لـــيس مـــا	تفعلــــــون بـــــــضائع
قـــــد غفـــــرت ذنـــــوبكم	فأبـــــــشروا بالمطامـــــــع

فقيل للملك: إن العدو الشَّيطان قد نصب على أبواب المدينة منجنقات البهتان ذات الطغيان، فقابلها الملك بمنجنقات التوحيد، ورادعات التفريد والتمجيد، فأيد الله

كلمة التَّوحيد، ونصر أهلها بقدرة الملك الحميد، فلما أصبح الصباح، ونشر عطره الفواح، قال الملك لجنوده: اخرجوا إليهم، فإن الله ينصركم عليهم، لأنكم لكم المولى وهم لا مولى لهم، فبزز الشيطان وقال الله له: ليس لك عليهم سلطان، فخرج جيش الإيمان للقتال، وبرزت الأبطال للأبطال، فأيد الله جنود الرحمان على جنود الشيطان، فولوا هاربين، وانهزموا مطرودين، وممَّا رجوه خائبين، وأمَّا النفس فإنها لما أيقنت بالذلة والخيبة، التجأت إلى الملك لما رأت له من الهيبة، في نفسه وتخلقت بأخلاقه، فحسن حالها، وتطهرت من رين ذنوبها وأوزارها، فصارت نفسا مطمئنَّة، لا تأمر إلا بالخير، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر/27 - 30].

قلت: اعلم يا أخي إنك إذا تفطنت لهزيمة هذه الأعداء الأربعة عن مدينتك، وولوا آيسين من قتالك ومحاربتك، فلا تطمئن للنّفس وتترك رعايتها وصيانتها ما دام الروح مقيما في جثتك، لأن الشيطان وجنوده لا يضجرون من شدتك وقوتك، ولا ييئسون من ضلالتك، لأن رئيس الضلالة إبليس لعنه الله كالذباب، مهما صرف من وجه انقلب لك من وجه آخر، ومهما غلقت له بابا فإنه يفتح لك أبوابا، فعليك بحفظ جميع جوارحك الظاهرة والباطنة كما تقدم لنا حفظها مرارا، لأن تلك الجوارح هي صور مدينتك وحصنها، فإذا خرب السور دخل العدو لمدينتك وفسدها وخربها واستخرج ملكها، وتغير عليك الحال، وصرت من حزب الشيطان والضلال، والعصاة والأرذال، لكن ينبغي لك حفظ هذا السور، ومهما نقب اللَّعين نقبة في سور مدينتك بسبب نومك وغفلتك، بل بما سبق لك في علم ربك، فلا ترضى بهذه المشيئة واجعل نفسك كمن كان يحارب الأعداء في السَّفينة، لأن صاحبها مهما فتحت له كوة في سفينة استعجل سدها، ووثق عقلها، لأنَّها إن تركها مهمولة غرق في الحين، وأنت مثل ذلك مع الشيطان والأعداء الأربعة يا مسكين، فإذا فتحوا في جوارحك بابا أو كوة بسبب معصية فاستعجل وبادر سدها بالتَّوبة، لتمحو عنك تلك الحوبة، ولا تزال هكذا ما طالت لك الأيام، إلى أن ترحل للدار الآخرة بسلام، وإذا نزل بك الموت يا إنسان، فلا تترك هذه المحاربة بالنسيان، لأنه في ذلك الحين حريص على هلاك روحك، ورد إليه عقلك وبالك، ولا تستريح من شره إلى أن ينقضي نحبك، ولا تخصص الشَّيطان بهذه العداوة، بل هؤلاء الأربعة كلهم عين الضلال، فالحذر الحذر من الغفلة عنهم جميعا

في جميع الأقوال والأفعال، والأخلاق والأحوال، فهؤلاء هم الأربعة سلاطين كل واحد منهم مشؤوم ظالم وغشوم، فهم يحاربونك بأنواع المحاربة، وليس لك طاقة على محاربتهم إلا بالخدعة، والدخول في حصن الأمان، وتقاتلهم بالسَّيف الأقطع الذي يقطع رقابهم بتوفيق الرحمن، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر/42].

واعلم أن حصن الأمان هو قول لا إله إلا الله، والسيف الأقطع الذي تحاربهم به هو حب الله تعالى، وأمَّا الخدعة على أنواع، فمحاربة الدنيا بطلب الآخرة، وذلك كل ما تشتهي نفسك منها شيئا فتعلم أنها زائلة فانية، وعن قريب ترحل عنها، وتبقى منك خالية، وتعلم أن كل ما تشتهي في الآخرة تجده دائما وباقياً، فيهون عليك بيع الفاني بالباقي، وكل ما تكره من الدنيا تراه زائلا عنك بزوالها، وكل ما تكره في الآخرة دائما بدوامها، فحينئذ يهون عليك الصبر على ما تكره في الدنيا، وتضعف عندك شهواتها بما في الشهوات في الدار الدائمة العليا، فيحصل لك بهذا ثمرة قول رسول الله ﷺ: "حفَّت الجنَّة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات"[1]، فحينئذ تقطع أسباب الدنيا كلها عنك، وتشتغل بأسباب الآخرة بكليتك، وتعتمد على قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى/20].

واعلم أن أسباب الدنيا كلها مفسدة لأسباب الآخرة، فأما أسباب الدنيا فهي كل ما حرمه الشرع أو نهى عنه من قول أو فعل، وكل ما يلهيك من الحلال عن ذكر الله تعالى، لقوله عز وجل: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ [النور/37] الآية، وأمَّا أسباب الآخرة فهي فعل الواجبات والمندوبات وترك المحرمات والمكروهات في الأقوال والأفعال بشرط الإخلاص، وأن يكون الترك امتثالا لأمر الله من غير حظ للنَّفس في ذلك حسبما ذكرناه قبل، وأن لا يقصد بذلك كله إلَّا التَّعظيم لجلال الله تعالى وجلاله وعظمته وكبريائه، لكن لا يصح ذلك إلا بشرط الاقتداء برسول الله ﷺ وبأصحابه، أو بما وقع عليه الإجماع من أئمة المسلمين، أعني الموصوفين بالسنة، وأمَّا إجماع غيرهم فهو ساقط لعدم الاقتداء والاتباع للكتاب والسنة، ولسوء فهمهما بما

(1) رواه مسلم في صحيحه (2174/4).

يخالف فهم أهل السُّنة، وضبط ذلك كله أن لا يفعل ولا يترك إلا ما أذن الشرع في فعله أو تركه، وأن يوقف ما التبس عليه من ذلك حتى يسأل عنه علماء الملة ولا يفعل شيئا بتحسين عقله، ولا يتركه لأجل تقبيح العقل، لأن العقل ممنوع من التصرف في الأمور المشروعات كلها، إذ لا يتصرف في شيء إلا في المعقولات خاصة، لكن بشرط الموافقة لأئمة أهل السنة، لئلا يقع في بعض اعتقادات أهل البدع كالمعتزلة والقدرية والجبرية ومن يضاهيهم، فيتقلد في المشروعات بمذهب أحد الفقهاء الأربعة مالك والشافعي وابن حنبل وأبي حنيفة لا غير، ويتقلد في المعقولات مذهب أبي الحسن الأشعري رضي الله عنهم، الذي وقع إجماع أئمة أهل السنة على صحته، ويتقلد في التصوف مذهب شيخ الشيوخ أبي القاسم الجنيد، وينبذ ما سوى ذلك، ودليل فساد الفعل من غير اقتداء ما ذكره في عوارف المعارف قال: أن بعضهم كان يجوع نفسه ولا يصوم تأديبا لنفسه بالجوع، ولا يفرحها برؤية الصيام، قلتُ: وهذا عندي مما يوقع في البدعة المحرمة التي تميت السُّنة، وإن شاع ذلك، فيؤثر في عدم الصيام المشروع نفلا، وسبب هذه البدعة نزغ من الشيطان، ولا ينجى أحد من كيده إلا بالاقتداء فاعلم ذلك انتهى. قال أبو عبد الله المواق في سنن المهتدين: قال سهل: كل عمل يعمله العبد بغير اقتداء فهو غش نفسه، وقال ابن السبكي: إذا حضر لك خاطر فزنه بالشرع، فإن كان مأمورا به فبادره فإنه من الرحمان، وإن كان منهيا عنه فدعه فإنه من الشَّيطان، فإنه لا يأتي إلا في صورة ناصح ونصيحته غش، فاحذر الأمور التي لم توافق الكتاب والسنة قدر طاقتك، ولا تغتر بمكايد الشيطان كما اغتر من كان يجوع نفسه ولا يصوم، فوقع في مخالفة السنة، ومراد الشَّيطان منه أن يخرجه عن السنة، ويزين له تحسين العقل وتقبيحه فيهلك، فينبغي للمؤمن الحريص على خلاص نفسه ونجاتها أن لا يقبل نصيحة ناصح، ولا خاطر من الخواطر الباطنة حتى يعلم رشدها، والدليل عليها من السُّنة، فإذا علمت هذا علمت وجوه محاربة النَّفس والشيطان والدنيا والهوى، وهم الأعداء الأربعة، فحافظ على ذلك تَمُتْ مجاهدا، فتكون مهما حاربك أحد هذه الأربعة علمت وجه محاربته، فينهزم عنك سريعا والحمد لله تعالى، والله الموفق وهو الهادي والملهم سبحانه.

قلتُ: هذا فصل مبين في بيان ما يفسد الدنيا والدين، ليحترز منها كل مؤمن آمين. اعلم يا أخي أنَّني لما بينت لك أسباب الدنيا والآخرة، فيلزمنا أن نبين لك ما يفسدهما

معا لتحذره وتتحرز منه، فاعلم يا أخي أن من أعظم الأسباب المهلكة لأسباب الدنيا وأسباب الآخرة المنازعة والخصام وأسبابها، كالجدال ونحوه، لأنهما يورثان العداوة والبغض والشحناء، وكل ذلك وبعضه مفسد للدين ومفسد للدنيا، ولا يخفى فساد ذلك ولا نطول بذكره، قال الله العظيم في محكم كتابه الحكيم ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال/46] الآية، لأن الخير كله في الموافقة، والشر كله في المخالفة، حتى قال بعض الحكماء: إذا وجدت من يعبد حمارا فعاونه بالحشيش لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة/ 105]: يعني إذا علمت من الضالين عدم قبول النَّصيحة.

قلتُ: فإذا علمت أن المنازعة مفسدة للدين والدنيا، فأعظم المنازعة التي لا دواء لها هي منازعة الملوك والأمراء، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء/59]، وهذا المعنى هو الذي رأى أبو حنيفة رحمة الله عليه، حيث قال المواق في سنن المهتدين: روي أن أبا حنيفة نزعه السلطان من الفتيا فلازم بيته، فسألته ابنته عن دم رأته ما حكم الله فيه، فقال لها: اسألي أخاك، فقالت: أردت أن أسمع منك، فقال لها: إن السلطان نزعني من الفتيا، فلا يسوغ لي مخالفة أمره، فقالت: وأين الأمير ومن يبلغه خبرك؟ فقال: ما كنت بالذي نطيعه ظاهرا ونعصيه باطنا.

والسر في ذلك أن منازعة الملوك تؤثر في إيقاد خمدان الفتنة بين المسلمين، ويكثر فيهم النهب والقتل، فيكون إثم ذلك على من أوقد نار الفتنة، هذا إن سلم ببدنه وماله وما أظنه ينجى، فهذا برهان قولنا في ترجمة هذا الفصل، من أن المنازعة سبب لهلاك الدين والدنيا، فهلاك الدنيا بالنهب وقطع الرقاب، وفساد الدين بمخالفة أمر الله بطاعة الأمراء في الكتاب، وبالإثم الذي يلزمه بتسببه في الفتنة بين خلق الله تعالى، على غير كتاب ولا سنَّة، فلا خير في منازعة الملوك ومخالفة أمرهم وطاعتهم، قال بعض الفقهاء: لا تخالف أمر الملوك كيف ما كانوا، مقسطين أو قاسطين، أعني عادلين طائعين أو فاجرين ظالمين، وبيان القاسط والمقسط قال تعالى في حق المقسط: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة/42]، فالمقسطون جمع وكل جمع لا واحد له من مفرد، فمفرد المقسطين مقسط، ومفرد القاسطين قاسط قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [الجن/15]، فهذا بيان الفرق بين القاسطين والمقسطين.

قلنا: فإذا علمت هذا فيجب علينا طاعة الأمراء كيف ما كانوا، ففي طاعتهم صلاح الدنيا والآخرة، وقد رأيت رجلا في ولاية السلطان مولانا الرشيد رحمه الله تعالى يكثر من الدعاء له، ويقول في المحافل وَالجامع بالعلانية: اللهمَّ طول عمر مولانا الرَّشيد، وانقص من عمري وزد في عمره، وكان يكثر من هذا الدعاء في كل محفل، فقيل له في ذلك، فقال: هذا مما يرضي الملك ويبسطه، فإذا رضيت الملوك حسن نظرهم للرعية، ويكون لنا ثواب ذلك، ومن تسبب فيما يسخطهم فيسيئون النظر للرعية، ويكون على مسخطهم الإثم، وأمَّا دعائي هذا فأنا فيه على يقين بأن الله لا يزيده نفسا واحدا في عمره، ولا ينقصني من عمري نفسا واحدا بسبب دعائي، ولكن هذا مما نثاب عليه في الدنيا والدين، فكان كذلك، وهذا وشبهه مقصد حسن، فترك الخروج على الأمراء والملوك أولى من مخالفتهم، وإن كانوا غير مستمعين للحق، فطاعتهم أولى والصبر على ضررهم أنفع في أمور الدنيا وأمور الدين، إذ شرهم في المخالفة أعظم.

واعلم أنه إن من الله علينا بالعلماء المقسطين أن نستكثر من الحمد والشكر قال تعالى: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم/7]، وإن ابتلانا الله سبحانه بالأمراء القاسطين أن نستكثر من الحمد والصبر قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر/10]، وتقول: ما دفع الله عنا من شر الأمراء أعظم ممَّا نحن فيه، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران/ 200]، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة/155]الآية.

فصل في المنقول عن أئمة أهل السنة من ذلك: قال أبو عبد الله المواق في سنن المهتدين: قال في الإحياء[1] لأبي حامد الغزالي رحمة الله عليه: اعلم أن السلطان به قوام الدين، فلا ينبغي أن يحقر، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: سلطان غشوم خير من فتنة تدوم، وقال سيدنا محمَّد ﷺ: «سيكون عليكم أمراء يفسقون وما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدونه فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصَّبر»[2]. قال الطرطوشي في سراجه: طاعة السلطان فرض، على كل مسلم

(1) الإحياء (104/4).

(2) رواه البيهقي في الشعب (15/6).

طاعة السلطان مقرونة بطاعة الله، اتقوا الله بحقه والسلطان بطاعته، من إجلال الله إجلال السلطان عادلا كان أو جائرا.

قلت: وهكذا ينبغي للمؤمن أن يكون ليسلم له دينه ورقبته وعرضه ودنياه، وقال المواق رحمه الله في الكتاب المذكور: الطَّاعة تؤلف شمل الدين، وتنظم أمر المسلمين، وعصيان الأئمَّة يهدم أركان الطَّاعة، وملاك الدين الطاعة، وهي عماد السلامة، وأرفع منازل السعادة، الطَّاعة الطريقة المثلى والعروة الوثقى، الطَّاعة تؤلف شمل المؤمنين، وتصلح أمور المسلمين، واعلم أن قوام الأمة قوام السُّنة بطاعة الأئمة، فطاعة الأئمة عصمة لمن يخافهم، وحرز لمن دخل معهم، وليس للرعية الاعتراض على الأئمة. قال ابن العربي رحمه الله في سراجه: حديث " الدين النصيحة"[1]: أمَّا النصيحة لرسول الله ﷺ فمن أوجه، منها تعظيمه وطاعته والرضى بحكمه، قال: وأما النصح للسلطان فهو نائب عن رسول الله ﷺ، يجب له ما يجب لرسول الله ﷺ من التَّعظيم والحرمة والطَّاعة، ويزيد على النَّبي ﷺ لا لحرمة زائدة، لكن لعلة حادثة بأوجه، منها: الصبر على أذاه والدعاء له عند فساده بصلاحه، وتنبيهه إذا غفل. قال الطرطوشي في سراجه: يعطى السلطان ما طلب من الظلم، ولا ينازع في ذلك. قلتُ: فالذخيرة للمعطي والخليفة على الله. انتهى. ثمَّ قال الطرطوشي متَّصلا بما سبق قبل كلامي: قال أبو عمر في تمهيده ذهبت طائفة من المعتزلة وعامة الخوارج إلى منازعته في ذلك، قال: وأما أهل الحق وهم أهل السنّة والأثر فقالوا: الصبر على طاعته أولى وأوجب وأحرى، قال عياض: وأحاديث مسلم كلها حجة على ذلك لقوله صلّى الله عليه وسلَّم: "أطعه وإن أخذوا مالك وضربوا ظهرك"[2]، وكذا نقل ابن المناصف عن مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وجماعة أهل العلم، أن للرجل أن يقاتل على نفسه وماله وأهله إذا أريد ظلمه، قال ابن المنذر: إلَّا السلطان ومن لم يمكنه أن يمنع نفسه وماله إلا بالخروج على السلطان فلا يخرج عليه للأخبار التي فيها الأمر بالصَّبر على ما يكون منهم من الجور والظلم وترك قتالهم، قال أبو عمر: وكل من أمكنه نصح السلطان فإنه يجب عليه نصحه لله، قال مالك: وذلك إذا رجا أن يسمعه

---

(1) رواه مسلم (74/1).

(2) صحيح مسلم (1475/3).

وإلا فهو في ذلك في سعة، قال أبو عمر: وإلا دعا له، قال: لأن السلف كانوا ينهون عن سبّ الأمراء، قال سهل بن عبد الله: من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق، ومن دعاه السلطان ولم يجبه فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل، ومن الذخيرة[1] ما نصه: قاعدة ضبط المصالح العامة واجب، ولا تنضبط إلا بتعظيم الأئمة في نفوس الرعية، ومهما أهينوا تعذرت المصالح، ولذلك لا يتقدم في صلاة الجنازة ولا غيرها إلا بإذنهم، ومن ابن يونس: من صلى خلف من يشرب المسكر أعاد أبداً إلا أن يكون الخليفة أو صاحب شرطته، وقد صلى ابن عمر خلف الحجاج، ومن كتاب ابن العراقي ما نصه: حديث النهي عن الإنكار على السلطان جهرة بحيث يؤدي إلى خرق هيبته، الحاكم في المستدرك[2] من حديث عياض بن تميم: "من كانت عنده نصيحة لسلطان فلا يكلمه بها علانية، وليأخذ بيده، فليخل به فإن قبلها قبلها، وإلا قد كان أدى ما عليه والذي له "، قال: وهو صحيح الإسناد، والترمذي[3] من حديث بكرة قال قال رسول الله ﷺ: "من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله في الأرض "، وفي الصحيح[4] أن رسول الله ﷺ قال: «من كره من أميره شيئا فليصبر فإنَّه ليس أحد من الناس يخرج عن السلطان شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية» وسئل سهل بن عبد الله التستري: أي الناس خير؟ قال: السلطان، قيل: كنا نرى أشر النَّاس السُّلطان، قال: مهلا يا بني إن لله تعالى في كل يوم نظرتين، نظر إلى سلامة أموال الناس، ونظر إلى سلامة أفكارهم، فيطلع الله في صحيفة السلطان فيغفر له، والخشب المعلقة على أبوابهم خير من سبعين واعظا يعظون النَّاس، وقيل: عدل السلطان ساعة تعدل عبادة العابد المخلص أربعين سنة، ومن سراج ابن العربي: وقد روى عن الفضل وابن المبارك كلمة بديعة من الجود والإيثار على أنفسهم على الأمة، لأنهما قالا لو كانت لنا دعوة مجابة لجعلناها في السلطان لصلاحه، يعنون لما فيها من صلاح العامة واستقامة الأمر وسلامة ذات البين، وفي الطرطوشي عن الفضيل: لو ظفرت ببيت المال لأخذت من حلاله، وصنعت منه أطيب طعام، ودعوت الصَّالحين وأهل الفضل من الأخيار

---

(1) الذخيرة للقرافي (234/13).

(2) المستدرك على الصحيحين (413/5).

(3) سنن الترمذي (502/4).

(4) صحيح البخاري (2588/6).

والأبرار، فإذا فرغوا قلت لهم: تعالوا ندع ربنا أن يوفق سلطاننا ومن يولى علينا وجعل إليه أمرنا، وعن حذيفة بن اليمان رحمه الله: ما ذهب قوم ليذلوا سلطان الله في أرضه إلا أذلهم الله قبل أن يموتوا، وفي الصحيح[1]: ثلاثة لا يظلهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، منهم رجل بايع سلطانا إن أعطاه من الدنيا أوفى وإن لم يعطه لم يوف. هـ.

قلت: لما انتهى كلامنا على أسباب صلاح الدنيا والآخرة، ورأيت وصية لبعض الحكماء فيما يليق بأمور الدنيا والآخرة أردت أن أختم بها هذا الفصل، لكن نسجت على منواله، فأتيت بأمور حسنة، ورأيت أن أقدم كلامه وأؤخر كلامي للأدب مع أهل الفضل، والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

وصية حسنة فيما يليق بأمور الدنيا والآخرة: قال الحكيم رحمه الله لبعض تلامذته: من فاتك باللباس ففته بالصَّابون، ومن فاتك بالمال ففته بالدين، ومن فاتك بالحرث ففته بالتقى، ومن فاتك بدراس اللوح ففته بدراس الأسوار، ومن فاتك بحسن الكلام ففته بالصمت، ومن فاتك بالفهم ففته بالبحث على الدوام، ومن فاتك بالعلم ففته بالتَّقوى، ومن فاتك بكثرة النَّظر ففته بكثرة التَّأمل.

قلتُ: ومن فاتك بكثرة الدراية ففته بكثرة الرواية، ومن فاتك بالأسباب ففته بالاعتماد على رب الأرباب، ومن فاتك بالعبادة ففته بالإخلاص والإرادة، ومن فاتك بعمل الظَّاهر ففته بعمل الباطن، ومن فاتك بالصدقة ففته بترك المن تسبقه، ومن فاتك بقراءة الصغر ففته بقراءة الكبر، ومن فاتك بحسن الرأي ففته بالمشورة في كل شيء، ومن فاتك بالعزوة ففته بالسخاء والمروة، ومن فاتك بالذكر ففته بالفكر، ومن فاتك بالغراسة ففته بالشراء والسياسة، ومن فاتك بالصابة والهيف ففته بكيل الزرع في الصيف، ومن فاتك بالسلطان ففته بخدمة الرحمن، ومن فاتك بكثرة الأوراد ففته بكثرة الصَّلاة والسَّلام على سيد العباد، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلَّم، ومن فاتك بكثرة الزواج ففته بتزيين زوجتك بالحلي والحلات، وإن لم تجد فبحسن المعاشرة والكلمات الطيبات، ومن فاتك بالقوة ففته بالحيلة، وهي وضع الأشياء في مواضعها وأن تأتي البيوت من أبوابها، وأن يكون اعتقادك أن الرزق مقسوم، والحرص مذموم،

---

(1) صحيح البخاري (2636/6)، وصحيح مسلم (103/1).

والموت محتوم، والبخيل محروم، والدنيا لا تدوم، ولا يدوم إلَّا الله الحي القيوم.

قلتُ: وهذا ما فتح به علينا الفتاح الخبير في هذه السَّاعة، ونطلب المزيد منه فهو على كل شيء قدير، واعلم أن هذه الحكم لمن تدبرها وعمل بها، فإنها تكون نافعة له في دينه ودنياه، لكن لا يصح الانتفاع بهذه الوصايا إلا بمحاربة الدنيا، وقد تقدم قريبا كيفية محاربتها، وذلك بأن لا يأخذ منها إلَّا ما يوافق الكتاب والسنة وترك الغش والخيانة، وكتمان العيوب بالبيوع، ونحو ذلك.

واعلم أنه لما كانت الدنيا رأس كل خطيئة، فلا يحرم اللباس الطيب النَّقي لقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ﴾ [الأعراف/32] الآية وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ [المائدة/86]، إلى قوله ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [المائدة/88]، وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة/93] الآية، وأيضا فإن اللباس الحسن مما يستحب اتخاذه، إذ هو من زيادة المروّة وعلو الهمَّة، لأن من كان بلباس ووسخ كان ثوبه ينادي عليه بلسان الحال: هذا رجل فقير محتاج عديم فتصدقوا عليه، من كانت عليه ثياب جديدة جيدة نظيفة، فإنها تنادي عليه بلسان حالها هذا رجل غني فلا تعطوه شيئا، وأيضا فذلك أعني لباس الجميل من الثياب لا ينافي العبودية ولا ينافي الزهد والتّوكل، كمن بيده أمتعة حلال غير مشغلة له عن دينه، ويؤتي كل ذي حق حقه منها من الصدقتين، صدقة الفرض وصدقة التَّطوع، فذلك جائز شائع، وقد كان كثير من الصحابة والتَّابعين أغنياء كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. قال الشيخ سيدي عبد السَّلام بن النَّاصر رحمه في قصيدة له في ذم الدنيا:

ولا تضر يد من حلها ملئت   إن انتفى الحرص والأكثر ليس يجب

فهذا بيان محاربة الدنيا، والله أعلم، والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

وأمَّا محاربة الشيطان فإنما هي بالقرآن، يعني كل ما أمرك القرآن فتفعله ولا تزيد برأيك مثقال ذرة، وكلما نهاك عنه فتنتهي عنه، ويجمع ذلك كله في سر قوله تعالى: ﴿ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر/7]، ويجمع شرح هذه الآية على مقتضى السنة، فإذا مشيت على السنة أخطأت طريق النار، واتبعت طريق الجنة لكن مع كون عباد الله تعالى مخلصة لوجه الله تعالى، فحينئذ ينهزم الشيطان

وجنوده لقوله تعالى مخبرا عن الشيطان لعنه الله: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾ [ص/82 - 83]، وبالآية التي قدمناها آنفا، وهي ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر/42].

واعلم انه بقي علي أن نبين لك أصول مكائد الشيطان لتعلمها، وتكون لك على بال، وهم على أنواع شتى، فأول ما يأمرك بالكفر، فإن لم يقدر عليك فيأمرك بالشرك، فإذا لم يقدر عليك فيأمرك بالشك، فإذ لم يقدر عليك فيأمرك بالزيغ، وفي كل ذلك يزين لك تزيينا، ويبين لك نصحا وبيانا، والخطاب لا يوري لك فيه إلا النَّصيحة، والنصيحة خدعة محض، وما ذلك إلا ليستفز بك منها ولو بحرف، فإنه يقنع بك منه، وما تسلم بيدك إلا على شيخك لعلمه بالواجب والجائز والمستحيل، فيخرجك من رأيك ورأي الشيطان إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ولما أجمع عليه الجمهور رضي الله عنهم، وأما إذا تحاربه أنت برأيك فتكون من الذين يعملون في الدين برأيهم، وذلك زيغ - ولكن يلزمك أن لا تكلم عن شيخك شيئا وإن كتمت ذلك غشيت نفسك وأطعت الشيطان، وذلك عين الخسران، وعلامة ذلك أن يستفز بشيء مخالفتك لشيخك على يد غيره، فإذا لم يقدر عليك الشيطان فيأمرك بالكبائر من المعاصي، فإذ لم يقدر عليك فيأمرك بالصَّغائر، فإذا لم يقدر عليك ويرى أنك قد تركت الكبائر والصغائر، فيرجع فيأمرك بالنظر إلى عيوب النَّاس ليشغلك بها عن كمون دسائس نفسك، فإذا لم يقدر عليك فيرجع فيأمرك بالطَّاعة، وذلك لوجهين: الوجه الأول يأمرك بإفراط المجاهدة ليخرجك بها عن السنة، وتحقر بها الأمة ليوقعك في البدعة والتكبر وتزكية النَّفس، والوجه الآخر: يقول لك أنت وصلت قد تركت الكفر والشرك والشك والزيغ والبدعة والكبائر والصَّغائر، ما بقي لك معصية، لينسيك عن تقصير نفسك، ويوقعك في الدعوى، ومنه أن يقول لك الآن توري النَّاس ليشهدوا فيك بالصَّلاح، لقول النبي ﷺ: «من شهد له اثنان كان الله ثالثهم»، فيرجع كلما يصلي أو كلما يصدق أو كلما يعمل من أعمال البر ما يعمله إلا ليراه النَّاس، وما ذلك إلا ليخرجك عن محل الإخلاص، ومنه أن يزينك الشيطان في أعين النَّاس، ويأمرهم بتعظيمك وتقبيل يدك وركبتك، ويطلبون خاطرك، وما ذاك إلَّا لترى أن لك قيمة تستحق لها ذلك، ومنها أن الناس يقولون لك تكون شيخنا، ويروي لك حديث مولانا علي بن أبي طالب

رضي الله عنه: لأن يهدي الله على يدي رجلا خير لي مما طلعت عليه الشَّمس [1]، فتقبل المشيخة، وأنت لم تعلم دسائس نفسك ممَّا وجب عليها، وممَّا نهيت عنه، ولا بما أمر قلبك، ولا بما نهى عنهُ، ولا بأفعال روحك، ولا بأفعال عقلك، ولا بأفعال سرك، ويوري لك علوما، ويسوق لك فيه شواهد من مشكلات الآيات والروايات، لتحرف حكمك عن مواضعه، فيخرجك عن حكم الشريعة، فترجع تفتي به، فتحرم ما أحلَّ الله، وتحلل ما حرم الله تعالى، فإذا لم يقدر عليك، واستبرأت من حولك وقوتك، وأخلصت عبادتك لوجه ربك، ولا رأيت لنفسك قيمة على ذلك، ولم تغير في حكم ربك كل ذلك بالله ومن الله وإلى الله إذا رأى أنك قد استقمت على ذلك خالفته في كل ما احتال عليك، وعاين أنه لم يقدر عليك، فحينئذ يصرخ في جميع الشياطين ليعاونوا عليك، فيحاربونك على ما ذكرناه بأشد المحاربة، فإذا لم يقدر عليك فينفخ في الماء فكل من يشرب من ذلك الماء يبغضك، وما ذلك إلا ليضيق عليك، ليدخل معك القنط والملل والحرج، فيبغضك جميع النَّاس، حتى أبويك وأولادك وإخوانك وأحبائك، ولهذا قالوا: لا يكون الصديق صديقا حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق، فإذا هان عليك هجران الخلق في جانب الحق، ويرى أنك قد وطنت على ذلك، فيرجع فيقول لك بخلاف: أنت من الناس، وأنت تريد أن تدخل الجنَّة وحدك، أو تدخلها بعلمك، أكثر منك اجتهد، وآخر كل شيء مات على غير الشهادة، منهم برصيص العابد، إلى غير ذلك، فلا يزال عليك بأنواع المحاربة عسى أن تقصر ممَّا أنت فيه، وتفرط في ذات الله تعالى، فإذا غلبك وردك من قدس الطاعة إلى شهوات نفسك، وإلى مرضات النَّاس الغافلين الكاسلين المقصرين عن طاعة رب العالمين، فيمسح على وجهك ويقول: هذا وجه لا يفلح أبدا، لهذا قيل: من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، وقالوا كل من نقص فهو قد سقط من عين الله تعالى، فإذا لم يقدر عليك وثبتك الله في طاعته ورضيك لحضرته وحفظك بولايته، فحينئذ ينهزم الشيطان وجنوده، فيقول الله تعالى: يا جبريل نادي في السموات والأرض أنَّ الله قد أحب فلانا فأحبوه، فيبزق محبته في الماء، فكل من يشرب من ذلك الماء يحبه، فتلك هي المحبة المستقيمة التي هي

---

(1) رواه البخاري (1357/3)، ومسلم (1872/4).

من الله وبأمر الله لا منك، فحينئذ يوضع القبول في الأرض فيحبونه جميع المؤمنين، ويحسدونه ويبغضونه جميع المنافقين، فيتولى الله حفظه ورعايته، فحينئذ يكون من المخصوصين بولاية الله، لكن هنا يتقوى حرص الشَّيطان، ولا يفارقك لا ليلا ولا نهارا، عسى يجد فيك غرة، أو ينتهز فيك فرصة، فيردك من عين رضاء الله إلى عين سخط الله تعالى، فكيف يأمن الإنسان في عدوه، والعدو مسلط مستكلب، والولي غير معصوم، وإنما هو محفوظ خاصة، لأن العصمة إنما هي للأنبياء لا للأولياء، فالمعصوم لا يقع في معصية قط، والمحفوظ يجوز عليه القضاء والقدر، ولذلك يوجد كثير من الأولياء مسلوبين من بعد العطاء وظهور المزية، أعوذ بالله من السلب بعد العطاء، وكفران النعم وحرمان الرضى، فينبغي للمؤمن أن يكون على حذر من وساوس الشَّيطان وكيده، على أي حالة كان، كيف وقد أخبر الله بعداوته فقال: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر/6] فعل أمر، ومن يرض بمنزلته ومزيته، ويغفل مكايد الشَّيطان فقد وقع في مخالفة الأمر.

واعلم أن الولي وإن علمت رتبته فلا يدرك درجة النبوءة أصلا، وانظر إلى أبينا آدم عليه السَّلام وخصوصيته ومزيته ونبوته ورسالته، وأن الله تعالى قد عظم قدره بسجود ملائكته إليه وهو في الجنَّة المطهرة والشيطان لعنه الله مطرود منها، ومع ذلك تحيل على الدخول للجنَّة، ودخل في فم الحية، ووسوس لنبي الله في أفضل البقاع إلى الله تعالى، وهو في غاية القرب والرضى عند الله تعالى، وأنت يا مسكين غير معصوم وغير نبي ولم تسجد لك ملائكة رب العالمين قط، ومع ذلك أنت في دار الذل والهوان، وفي مجاورة الشيطان، وتركن لولايتك المظنونة، وتغفل عن عدوك ومكايده، وهو يجري فيك مجرى الدم، فينبغي لك أن تحزم لعداوته ومحاربته بالمخالفة لكل ما يخالف الكتاب والسنَّة، فبذلك يقطع ظهره إن كان يوسوس لك مع كل نفس، لأنك إن لا زمت ما أشرت به عليك شجاع ذو بأس شديد في محاربته لعنه الله، فقد علمت وجه قتاله فلازم ذلك إلى أن تفارق الدنيا، فلا راحة للمؤمن من كيده ومكره وخدعه وشره لعنه الله ووساوسه إلا بالموت، ولذلك كان الموت تحفة لكل مؤمن، ويرحم الله القائل حيث قال:

يـــرى المـــوت قـــوم فـــناء لهـــم	وفـــيه الحـــياة التـــي لا تغـــيب
فـــلا تكـــرهوا مـــوتكم إنَّـــه فـــراق	العـــــدو ولقـــــى الحبـــــيب

ففي هذه كفاية من التَّحذير من كيد الشَّيطان وجميع أعوانه، والحمد لله تعالى، وله الشكر على هدايته، والله الموفق وهو الملهم سبحانه، لكن يستبشر المؤمن بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل/99] حفظنا الله وإيَّاكم من شره وكيده آمين.

تنبيه وبيان في محاربة النفس المطمئنة للشيطان: وذلك أن الشيطان لما بلغ المؤمن على هذه المرتبة، ويرى أنه لا قدرة له عليه، وتنقطع له جميع الحيل، ولم يبق له حيلة يحتال بها عليه، إلا أن يحتال على النَّفس إذا كانت قبل ذلك من أعوانه ورفقائه، فلما رآها خالفت مذهبه وهجرته وتركت سيرته لم يقطع إياسه منها، فيجعل التحيل على النَّفس المطمئنة المذكورة بحيلة لا تنتهي، فمن ذلك أنه يقبل على النَّفس التي كانت مزيته ومعها شيء من طبيعته، وأن النفس كورقة في طرف شجرة أضل شيء من الريح يهزها ويحركها، فينفخ فيه اللَّعين من بعيد فيحركها بتلك النَّفخة بما تميل إليه طبائعها لمطالبها إليك بنوع من الطاعات، وهي من الحظوظ للنَّفس في تكثير الحسنات، فإن غلبتك نفسك وقنعت بما زينت لك فتحجب عن ما فوق ذلك، وما ذلك من الشَّيطان إلا ليقلل درجاتك حسدا منه، فيبقى يلهم النفس درجة بعد درجة عسى أن يبقى مع واحدة، فتحجب عما فوقها، فذلك مكر الشَّيطان وجهل من النفس بما وراء ذلك، فيدخل معك من ذلك السبب الذي قبلت من النفس بإشارته فتقول ها أنا مكنته فعسى إن زدته رمية أخرى، فتنفذ مقاتله، ويهلك الأبدي، فيجعل يتحيل عليك بوجوه حيله بعد ما كانت مقطوعة في يده، فأول ما يوري لك عذاب النار ونعيم الجنَّة عسى أن تبقى تعبد الله على حرف، وهو حظ نفسك بعبادتك، فتكون عبادتك بنية الطَّمع في الجنَّة، أو للنجاة من النار، فيشغلك بالحوادث عن العبادة الخالصة لوجه الله تعالى من غير طمع في الجنَّة ولا خوف من النار، بل بما يستحقه سبحانه من التَّعظيم، فيطمع فيك أن تبقى على ذلك الحال، ولا نسبة بين العبادة لأجل الله سبحانه وبين العبادة لأجل الحوادث، وهو الذكور، فإذا لم يقدر عليك من ذلك الوجه فينقلب لغير ذلك، فيرجع يوري لك الكرامات، فإذا لم يقدر عليك ويرى أنك تعلو عن ذلك فيرجع يوري لك علو الدرجات عسى لأن تعبد الله لغير وجهه، بل تعبده على نية علو الدرجات، فإذا لم يقدر عليك ويرى أنَّك تعلو عن ذلك فيرجع فيوري لك كمال المقامات، عسى أن تعبد الله تعالى بنية كمال المقامات، فإذا لم يقدر عليك ويرى أنك

تعلو عن ذلك فيرجع يوري لك القرب، عسى أن تعبد الله تعالى بنية القرب، فإذا لم يقدر عليك ويرى أنك تعلو عن ذلك فيرجع يوري لها الأنوار والأسرار، عسى أن تعبد الله على نية الأنوار والأسرار، فإذا لم يقدر عليك ويرى أنك تعلو عن ذلك فيرجع يوري لك الفناء، عسى أن تعبد الله تعالى بنية الفناء، فإذا لم يقدر عليك ويرى أنك تعلو عن ذلك فيرجع يوري لك البقاء، عسى أن تعبد الله تعالى بنية البقاء، فإذا لم يقدر عليك ويرى أنك تعلوا عن ذلك فيرجع لك الأنس، عسى أن تعبد الله تعالى بنية الأنس، فإذا لم يقدر على ذلك ويرى أنك تعلو عن ذلك فيرجع يوري لك المحادثة والمكالمة، عسى أن تعبد الله تعالى بنية المحادثة والمكالمة، فإذا لم يقدر عليك ويرى أنك تعلو عن ذلك فيرجع يوري لك النظر إلى المولى، عسى أن تعبد الله تعالى بنية النظر إلى المولى، فإذا لم يقدر عليك ويرى أنَّك تعلو عن ذلك وفنيت في عظمة الله تعالى حتى لم تشاهد سواه، وترى الأمور كلها منه، فحينئذ ينهزم الشيطان وينقطع إياسه منك، أن يحجبك عن الله، ولكن لم يزل يطمع فيك ويحتال عليك، وأنت لا تزال تأخذ حذرك منه، لأنه عمل على حق العداوة التي أخبر الله تعالى عنه بها، فاعمل أنت حق العداوة يأخذك الحذر منه والالتجاء إلى الله في كل شيء، والتعوذ به من الشيطان الرجيم، لأنَّ الله تعالى لمَّا أخبرنا بعداوته، وأمرنا أن تخذه عدوا، وهو في حيز الغيب علم الله سبحانه أننا عاجزون عن محاربته، إلا بمخالفة الخواطر السَّيئة التي ترد عليك، فمهما خطر لك خاطر فتأمل فيه، فإن كان يوافق فعله الكتاب والسنة فافعله، وإن كان يوافق نهيهما فلا تفعله واتركه رأسا، وان خفي عليك حكمه، حتى لا تدري هل هو يوافق الأمر والنَّهي، والتبس عليك أمره والنَّهي، فافعل على مقتضى العلم، وإن توقف العلماء عنه فاتركه فهو خبيث، ومع ذلك لا تنجى من الشَّيطان، فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل/98]، فدلنا الله تعالى على الالتجاء به والاعتماد عليه سبحانه، وأننا لا ننجو من الشَّيطان بعلمنا ومعرفتنا وكيسنا إلا بالاعتماد عليه سبحانه، وأن نستعيذ به سبحانه من الشَّيطان الرجيم في ابتداء كل فعل قل أو جل، ولذلك عبر الله سبحانه بالاستعاذة بالأعلى، وهو القرآن، لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ﴾ [النحل/98]، كأن الله سبحانه يقول: القرآن عظيم قديم وهو كلامي، وهو قاهر لكل شيء، لكن حيث قرأتم حكيتم بألسنتكم المحدثة الفانية فلا تسلم لكم تلك القراءة إلا بالاستعاذة من الشَّيطان الرجيم، فإذا كان القرآن

الذي هو أعلى من كل شيء وأعز وأجل لا يسلم لكم ذكره وتلاوته إلا بالاستعاذة بالله من الشيطان، فكيف لغير القرآن من المسائل القليلة أصلا وفصلا؟ فحيث لم يسلم لكم تلاوة القرآن إلا بالاستعاذة، فغيره من العبادات وغيرها أحرى وأولى بالاستعاذة، والله أعلم، فهذا فهمناه من معاني هذه الآية، والله الموفق، وهو الملهم سبحانه.

وأمّا محاربة الهوى فهو أن لا تميل لنفسك ولا بقلبك ولا لروحك ولا لسرك ولا لعقلك وَلا لبعضك ولا لكليتك ولا لسرك ولا لعلانيتك إلّا لله تعالى، فميلك إلى الله تعالى هو بحبك له وقضاء حوائجك منه، ولا تطلبها من غيره، وأن تخلص الأعمال كلها له، وأن تسند جميع إرادتك وأمورك كلها لله تعالى ونحو ذلك، أي وما يشبه ذلك، فإن ملت على شيء من الحوادث فكأنك اتخذتها أنداد وأصناما تعبدها، والعياذ بالله من الالتجاء لغير الله، ومن عبادته لسبب من السباب الحادثة، بل لا نعبده تعالى إلّا لكمال ذاته وجميل صفاته وأسمائه سبحانه، لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه، ولذلك قال تعالى تحذيرا لنا من ذلك ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج/11]، والله الموفق وهو الملهم والهادي سبحانه.

فصلٌ في بيان قوله: ولا بدّ لك من دليل يكون عارفا بالبلاد كلها ويكون عنده مفاتح الأبواب كلها و، يكون عارفا بالطرق كلها وبهذه الطهارة والكسوة وفهمهما: فالمراد والله أعلم بذلك أن الدَّليل يكون شيخا عالما عارفا عاملا مخلصا محققا كامل العقل والدين، مع كونه مخلصا سنيا زاهدا ورعا عارفا بالإسلام والإيمان والإحسان وبالحق والحقيقة والحقوق والحقائق، وبأقسام الشريعة وأصول الطَّريقة وفروعها الرقيقة وغوامضها الدقيقة وحقائقها اللَّطيفة، ويكون عارفا بدلائل الهدى وبالدلائل العقلية والنَّقلية وبالنظر والاستدلال، وبالموارد الشَّيطانية والموارد النَّفسية والموارد الملكية والموارد الربانية وبالحجب والمنازل والأحوال والمقامات والأنوار والأسرار والمبتدأ والمنتهى، ويكون مؤيدا بالبركة واستجابة الدَّعوة وصحة العبارة وضبط الحكمة وصحة الفراسة وحقيقة المكاشفة، ومعاني المحادثة والمكالمة، وظهور التخصيص والولاية، والعلم بالواجب والمستحيل والجائز، وبدسائس النفوس ورياضتها وبأفعالها وبأفعال القلوب وبأفعال الأرواح وبأفعال العقول وأفعال الإسرار وكمون آفاتها كلها، وبحقائق ثمراتها كلها، وفهم المشكلات والمشابهات وبيانها وفهم

العبائر والأشائر، ويكون في علومه وأحواله على بينة من ربه، ويجمع معه على ذلك أئمة الظاهر وأئمة الباطن، ولكن لا بدّ فمن يجمع معه في حضوره وينكر عليه في مغيبه، كذلك جرت سنة الله في أنبيائه وأوليائه، فالإنكار من شيم المنافقين، والتلبيس من شيم الزنادقة، والصفاء من شيم الإيمان هذه كلها على يد شيخ آخر وارثا بسلسلة الشيوخ رضي الله عنهم متبعا لهم غير مبتدع، متواضعا غير مرتفع، متخلقا بأخلاق الأنبياء والأولياء وأخلاق الألوهية، ويكون قد أذن لهُ بالتّقديم في الباطن وأهل إليه في الظاهر، وعلامة ذلك أن يكون له همة نافذة لكل من يأخذ عنه الطَّريق بالصدق والتَّصديق، ويقطع الله تعالى عنه مدد أنواع التجلي، فأول ما يفهم المريد من ذلك في بدايته تبديل طبائعه وعوائده، ولا يبقى في قلبه مثقال حبّة من حب المعاصي، ويعمر قلبه بحب الله تعالى وحب الطَّاعة، فهذه أصول مبادئ الشيخوخة، وأما منتهاهم فلا يصاف باللسان، فلنرجع نبيّن معاني البلاد ومعاني المنازل ومعاني المفاتح، فمعاني البلاد هي وظائف العبادات والتَّرقي في المنازل وموضع السكنى في سدرة المنتهى، فوظائف العبادات هي الرسوم الشرعية وهي الواجبات المندوبات، فتدريج المريد في منازلها على أنواع وهي على قدر عقول المريدين، فنبين هاهنا أصولها، ليسهل فهمها وتعليمها على من جهلها، ونبين فيها سبيل الترقي لأعلاها وكيفية سلوكها، وذكر علامات علو بعضها على بعض وليس نتعرض هنا لشرح شرف بعضها على بعض خشية التطويل، لكن من يكون ذا فهم لا يخفى عليه ذلك.

قُلتُ: وبيان ذلك مرتبا من البداية إلى النهاية، وما يخص كل نزل من الأذكار والمقاصد والثمرات والعوارض والكرامات وعلامات انتهاء السلوك لكل منزل وصايا تليق بأرباب ذلك المنزل وغير ذلك نذكره إن شاء الله تعالى في الباب الجامع فانظره هناك هـ.

وقال رحمه الله: هاهنا فعلامة علو بعضها على بعض، فهو أثقلها على النَّفس، فنبينها على حال همة المريد وعقله في ترقيه وسلوكه، وذلك إذا عرضت عليها أي على النَّفس فعل الطَّاعة وترك المعاصي، فيهون عليها فعل الطَّاعة وترك المعاصي، فتعلم أن ترك المعاصي أفضل من فعل الطاعات، وإذا عرضت عليها ترك المعاصي وحسن الخلق، فإنها يخف عليها ترك المعاصي ويثقل على النَّفس حسن الخلق، وإذا عرضت عليها حسن الخلق والذكر، فإنه يثقل عليها الذكر ويهون عليها حسن الخلق،

وإذا عرضت عليها الذكر والفكر، فإنه يهون عليها الذكر ويثقل عليها الفكر، وإذا عرضت عليها الفكر وترك العلائق، فيهون عليها الفكر ويثقل عليها ترك العلائق، وإذا عرضت عليها ترك العلائق وترك الحظوظ، فيهون عليها ترك العلائق ويثقل عليها ترك الحظوظ، وإذا عرضت عليها ترك الحظوظ ورؤية الفعل ابتغاء وجه الله تعالى تعظيما وامتثالا لأمره وإجلالا له تعالى، ورؤية أنه تعالى هو الفاعل، فيهون عليها رؤية الفعل ابتغاء وجه الله تعظيما وإجلالا ويثقل عليها رؤية الفاعل هو الله تعالى لا هي، وإذا عرضت عليها رؤيته تعالى أنه هو الفاعل وتعظيم الفعل، فيهون عليها رؤيته تعالى أنه هو الفاعل ويثقل عليها تعظيم الفعل، وإذا عرضت عليها تعظيم الفعل والرضى به وترك الحرج وترك الفرح لغير فضل الله تعالى ورحمته، فيهون عليها ترك الفرح لغير فضل الله ورحمته ويثقل عليها فناؤك عن رؤية نفسك، وإذا عرضت عليها فناءك عن رؤية نفسك والغيبة عن الحركة والسكون في المكونات، فيهون عليها فناؤك عن رؤية نفسك ويثقل عليها الغيبة عن الحركة والسكون في المكونات، وإذا عرضت عليها الغيبة عن الحركة والسكون في المكونات والغيبة عن الحركات والسكون في المكونات من غير أنفسها، فيخف عليها رؤية الغيبة والسكون في المكونات عن أنفسها والغيبة عن رؤيتها من الله فيهون عليها السكون والحركات عن أنفسها ويثقل عليها الغيبة عن رؤيتها من الله تعالى، وإذا عرضت عليها الغيبة عن رؤيتها من الله تعالى، وانَّها في علمه بلا بداية ولا حد ولا نهاية، فيهون عليها رؤيتها من الله تعالى ويثقل عليها أنها في علمه سبحانه بلا بداية ولا حد ولا نهاية، وإذا عرضت عليها أنها في علمه سبحانه بلا بداية ولا حد ولا نهاية ولا تقديم ولا تأخير ورؤيته جل جلاله في كل شيء فيهون عليها رؤية الله تعالى في كل شيء ويثقل عليها الغيبة عن كل ما سواه، وإذا عرضت عليها الغيبة عن كل ما سواه تعالى والغيبة عن النظر الذي يغيب فيه عما سواه فيهون عليها الغيبة عن النظر الذي يغيب فيه عما سواه ورؤية الجمع والفرق، وإذا عرضت عليها رؤية الجمع والفرق ورؤية الله واحدا في الوجود كما كان قبل الوجود، فيهون عليها رؤية الجمع والفرق ويثقل عليها رؤيته بلا مقابلة، ويهون عليها رؤية انفراده ويثقل عليها رؤيته به له ويهون عليها رؤيته بلا مقابلة ويثقل عليها قدره، ويهون عليها رؤيته به له، فهذا آخر منزل من المنازل التي يعبر عنها بلسان المقال، وبقي علينا المنازل التي يعبر عنها بلسان الحال، لأنها لا تظهر إلَّا لأهل الذَّوق، فهذا حال الترقي

إلى حضرة العلي الأعلى، بالسلوك على المنزل من البداية إلى النهاية، ومن هذا المنزل الأخير يبتدئ المجذوب من غير كلفة ولا سفر ولا مشقة ولا خوف من قطع الطَّريق ولا عوارض ولا غيرها، بل بينما هو هائم في حال سكرته بغفلته عن مولاه إذ اجتباه الله فجذبه عن عقله وروحه ونفسه وسره وحسه، فلم يشعر إلا وهو في الحضرة الإلهية، فمن الناس من يبقى كذلك مجذوبا هائما في حب الله غائبا عن نفسه وعن كل شيء سوى الله، ومن النَّاس من يرد عليهم الجليل جل جلاله عقله وحسه وروحه وسره، فيتدلى في المنازل كلها من العليا إلى السفلى، فمن الناس من يصل إلى الدرجة السفلى بسلامة فيصير حاله حال السَّالك الواصل إلى الله تعالى الذي سلم من جميع العوارض وغيرتها، ويذوق من ألم السّفر في المنازل والشاق والخوف من العوارض الشّيطانية والقواطع النّفسانية في حال تدليه فالسَّالك، وهذا المجذوب السَّالك يسلكان غيرهما لكونهما حازا درجة الشيخوخة بمقاسات السلوك واستوائهما فيه أحدهما يسلك بالتَّرقي، وهو الأول الذي عبرنا عن منزله، والثاني قاسها بالتدلي، فاعلم ذلك، ومن المجذوبين من ينقطع في سلوكه، فلا هو في المقام الأعلى ولا إلى بلوغ سلوكه للمقام الأدنى، فهو المسلوب عن مرتبة الأخيار، ولذلك قيل في الجذبة أولها فنون ووسطها جنون وآخرها قيل تكون وقيل لا تكون والله أعلم، وأمَّا معرفة المفاتح فاعلم يا أخي أن المفاتح على ضربين، ضرب منها ناطق، وهو صحة عقائد الضَّمير على حكم حق اليقين بالذوق والمكاشفة والتَّعيين، والضرب الثاني هي أسماء الله المخصوصة بالفتح والهدى ورفع الحجب عن علم الغيوب، وهي في أسماء الله الحسنى، كل اسم منها خصَّه الله تعالى بفتح باب من أبواب الطَّريق، واسم الله العظيم الأعظم يفتح جميع الأبواب، فيدرج المريد بالأسماء التي تليق به حتَّى يبلغ إلى أن يحيل ذكر الله العظيم، فحينئذ يأمره الشَّيخ بذكره، فإذا ذكر به يهب الله له نور الكمال الأعظم الذي هو آخر منزل من منازل الأولياء، الذي يكشف به عن مراتب الأسماء، الذي يعلم بها أوصاف حضرة الألوهية، الذي يعلم به عظيم جلال جمال كمال الكبرياء، فالشيخ يدرج المريد لا يشعر إلى أن يجد في نفسه روح سر الاسم، فحينئذ يستيقظ من نومة غفلته دهشانا والها لهفانا، فيكشف له عن ضوء شمس الاسم، فينظر بذلك الضوء إلى مادته، فيرى مادته من عين شمس تخصيص الشيخ، فيشهد ساء تعظيمه وكرسي جماله ولوح أوصافه وقلم ذاته في بساط عنايته وكبريائه متعلقة من أمر

قدمه في حضرة صبره في رحبة يقينه في عناية دليل هدايته ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة/24]، فإذا كشف للمريد عن هذه الأوصاف الحميدة بكمالها في الشَّيخ بدليل علم الشَّيخ وعمله وزهده وحسن خلقه وشرف نسبة شيوخه فحينئذ نبايعه بيعة الرضوان على الحكم الجائز بسند أو وسيلة لما يرضى الله ورسوله، فيملك له زمام نفسه لقودها إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ليعمل بها، ويخلصها لوجه الله تعالى، فحينئذ يلقنه أسماء من الأسماء مما يليق به، ليرتقى بسره إلى أن يقوى على حمل ذكر الاسم العظيم، فيلقنه له مخفيا في الأسماء، فإذا انفرد بذكره وهو لم يشعر أنَّ ذلك هو الاسم العظيم فيكشف له على معنى أسرار أسماء الله الحسنى تفريدا وتعديدا، فحينئذ يكشف له على علم اليقين، فيحقق بأهوال يوم القيامة وبالنار وعذابها وطريقها وبالجنَّة ونعيمها وطريقها، فإذا علم وتيقن لم يدر أين هو مسكنه بها، فتضيق عليه الأرض بما رحبت، واجتمع عليه ثلاث مصائب، همّ دخول النار وهمّ فوت الجنة وهمّ فوت رؤية المولى، فلا تسأل عن خوفه ورجائه فحينئذ يريك طريق المعاصي أسرع من البرق الخاطف ظاهرا وباطنا، ويسرع إلى طريق الطاعة حتى ينسى طريق المعاصي بالكلية باشتغاله بالطَّاعة وهو خائف راج إلى تقصير هيبته أبدا خائف من أن لا يقبل عمله أو يكون مغشوشا حتى يجوز على الصراط، فإن عليه سر الخوف بسر التكليف فهكذا يبقى لا يرتقي من هذا المقام، وهو مقام العباد فلا تكون همته إلا في النجاة من النَّار ودخول الجنَّة ورؤية المولى، فلا يبقى له همة إلا في طلب علم المعاصي ليتجنبها، وفي علم الطَّاعة ليفعلها ظاهرا وباطنا، وأمَّا الذي تتعدى همته إلى زائد الترقي بعد هذه الدرجة فيلقنه الشَّيخ ظاهر الاسم العظيم معلوما، فإذا علم ظاهره انفرد بذكره فيكشف الله له على معاني أسرار الصفات تفريدا وتعديدا، فحينئذ يكشف له على سرّ عين اليقين فيشغف جمالها فؤاده وروحه وعقله وسره بإفراط عظيم الحب وحرارة نار الشوق ولهيب ذوبان الاشتياق إلى تلك الصفات العلية والمحاسن السنية، فلا يدري هل يلقاها وينظر إليها ويتنعم بها أم لا، فحينئذ يسرع لهفانا والها في مرضاتها وتعظيما لها فلا يبقى في قلبه التفات لطلب غيرها، ولا شغل سواها، فلا يكون له هم أعظم من فوتها، ولا أعظم طلبا لوصلها، حتى يغلب عليه حبها من أن يلتفت إلى الخوف من النار والطَّمع في الجنّة، لأنه إذا عظم المطلوب غاب ما سواه في جانب عظمته وعز فقده وحتى غيبه عن

الالتفات لغيره، فحينئذ يكون يعبد الله حبا لهُ وتعظيما وإجلالا وامتثال أمره، فحينئذ يعظم خوفه وحياؤه وهيبته من حقيقة تعظيمه فلم يستطع الاعراض عن النَّظر إليه، ولا الاعتراض عليه، ولا البخل في طاعته، ولا الكلام في غير مرضاته، ولا يسوء الظن فيه، ولا تميل نفسه لطلب غيره، ولا متكبرا عليه، فإذا يكون ظاهرا إليه، راضيا عنه، ناشطا في طاعته، متكلما في مرضاته، وحسن الظن به منكفيا به متواضعا بين يديه، وقد ملك له رق نفسه، يفعل بها كيف يشاء، ملآن بأسرار حبه، مشتغل في قلبه بربه، ولم يشغله عز وجل بغيره، ولا يفتر عن خوف فوته، ولا عن حب وصله حتى يجتمع به، ولا يكون ذلك إلا في حضرة القدس في ميدان التجلي، فلا يزال بسر الحب والتَّعظيم خائفا من الصد والطرد طامعا في الوصول والقبول، لا يقر قراره حتى يبلغ مناه، وهذا هو مقام المحبين، فلا يبقى له طمع في غيره ولا علقة عن حبيبه لعظيم جماله وعظيم كماله، فلا يميل بهمته عنه إلى أن يلقاه، وأمَّا الذي أراد الله به الترقي إلى مقام المحبوبين فيرفع همته إلى ظاهر باطن الاسم العظيم فيلقنه لهُ الشيخ بلطائف العبارات وأنفع الإشارات في سره فيشغل بذكره بقلبه حتى ينكشف له من معاني أسرار وحدانيته بتفريد كنه ماهية حقيقة الذَّات الكريمة المنفردة المنزهة عن إدراك غيره مبلغ ماهية ذاته المقدسة العظيمة الجليلة الجميلة الكاملة الكبيرة الغنية عما سواها المفتقر إليها كل ما سواها، الذي لا يدرك علم حقيقتها غيرها، ولا يثني عليها حق ثنائها غيرها، ولا يحمدها ويمجدها ويعظمها كذلك أحد غيرها، فكل ما يحمدها الحامدون ويمجدها الماجدون ويعظمها المعظمون فهو منها وإليها، فحينئذ يكشف له عن سر حق اليقين، فيكشف له على الجمع بين الاسم والمسمَّى، فيرى الاسم هو المسمَّى والمسمَّى هو الاسم، فيرى معناه محيطا بالذَّات والصفات والأسماء والأفعال، في سر قوله تعالى: لا إله إلا هو الحي القيوم، قيوم بلا بداية ولا حد، ولا نهاية ولا تقديم ولا تأخير، ولا يزيد ولا ينقص، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فحينئذ يكشف له على أول منزل من معاني منازل باطن الاسم العظيم، فيتولاه الله وتقطع عنه المعاصي والمخالفة، ويمده بأمداد الحسنات والطَّاعات، فلم يشهد بها نفسه بل يراها هدية من ربه، فحينئذ يتبرأ من رؤية دعوة نفسه، فيكسيه ويحليه ويتوجه بالأسرار، ويكشف له على سر الحقيق، فيحفظه الله من المعاصي ويستعمله في الطَّاعة، ويرى أنَّ الله تولاه في ذلك وفي كل ما يجد من علم ومن حب وإيمان كله من الله إلى الله وكل ما يشتهي يتمنى ما

يجده إلا بيد الله، ويرى أن الله تولاه وكفاه في جميع مراده، فمراده هو الله ومراد الله منه ما هو في عبده حاصل، ومراده تعالى نافذ، فاجتمع العبد بمطالبه فهو فرح مسرور، وبدا بهذا الفرح من حين ظهر له في الدنيا، ولهذا قال أهل المعرفة رضي الله عنهم: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة، وهي جنَّة المعرفة، فهذا أول مقام من منازل المحبوبين.

وأمَّا الذي أراد أن يعرف همته إلى ثاني منزل من منازل معاني باطن الاسم العظيم، فيرفع له الشَّيخ الحجاب عن باطن أسرار، فيكشف له عن عظمة مولاه، فيتلاشى كل شيء في جانب عظمته، فينهمك انهماكا كليا في الكلية الأزلية، ويغيب عن كل شيء في عظمة الله تعالى ووحدانية أزليته وكبرياء ربوبيته، فيبقى عن ذاته في ذات الله، وعن صفاته بصفاته سبحانه، وعن أسمائه مع أسمائه فتنقطع حقوقه وحظوظه، وشهواته وكمياته، والميل للإشارة لا بنية وجوده بالكلية، فيتولاه في جميع أموره، ويحفظه في دنياه ودينه، ويجعل حركاته وسكونه بيده، فيصرفها على مقتضى كتابه وسنة نبيه سيدنا محمَّد ﷺ، فحينئذ ثبت الفعل لمن ثبت له في القدم الذات والصفات والأسماء وغيره، عدم محض لعدم ذاته وأسمائه وصفاته فحينئذ المريد من حيث تعلمه من بذات الله وصفاته حق ومن حيث ذاته وصفاته وأسماؤه باطل، لقول النبي ﷺ: "أصدق بيت قالت الشعراء ألا كل شيء ماخلا الله باطل"[(1)]، فيبقى المريد فانيا في عظمة سر الاسم العظيم أبدا، فهذا هو المقام الثاني من مقامات المحبوبين، وهو مقام الفانين المتولهين في حضرة رب العالمين.

وأمَّا الذي أراد الله أن يرفع همته إلى كمال الاسم العظيم ظاهرا وباطنا، فيمده الشَّيخ بسر كمال روح الاسم فيجيبه الله به، ويؤيده بروح عظمته وجلاله وجماله وكماله وعظيم كبريائه، فيحيط بمعرفة الكون والمكون جملة دون إدراك ودون جهل، فيعلم السر المصون ويتصرف في الكون بسر قوله كن كان نفس الاسم، فيفتقر له كل شيء ولا يفتقر هو لشيء، لوجود روح التَّعظيم فيه فيحيا بحياة المسمَّى حياة سرمدية أبدا عزيزة دائمة، فهذا هو المقام الثالث من مقامات المحبوبين وهو مقام البقاء، وهو أول منزل من منازل الحضرة الرفيعة، فالمريدون في هذه المقامات على أحوال شتى،

(1) رواه البخاري (2380/5) ومسلم (1768/4).

فقوم يعلمونها ويصدقون بها ولم يعلموا بها لكن يحبونها ويحبون أهلها ويحبون الله تعالى، فذلك حظهم منها وهم معهم يوم القيامة، شاهده الحديث جاء رجل للنَّبي ﷺ قال له: متى السَّاعة يا رسول الله؟ قال له: «ما أعددت لها؟» قال له: لا شيء غير أني أحب الله ورسوله فقال له صلَّى الله عليه وسلَّم: «المرء مع من أحبَّ»[1]، وقول أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه: التصديق بطريقتنا هذه ولاية، وقول ابن عباد رضي الله عنه ونفعنا به آمين:

لـي سـادة مـن عـزهم أقـدامهم فـوق الجـباه
إن لـم أكـن مـنهم فلـي فـي حـبهم عـز وجـاه

وقوم يؤمنون بها ويعملون ببعضها ويتركون بعضها، لكن غلبت عليهم لعظمتها فذلك حظهم منها، وهم داخلون في قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة/102]، وقوم يفهمونها باطنا ولم يقدروا أن ينطقوا بكلمها ظاهرا، ويقومون بها فعلا وخلقا، فذلك حظهم منها، يصدق عليهم قول سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ونفعنا به آمين:

فـلا يـنفع الأعـراب إن لـم يكـن تقـي ومـا ضـر ذا تقـوى لـسان معجـم

وقـال غـيـره:

ولا خيـر فـي علـم إن لـم يكـن تقـي ولا خيـر فـي الـتَّقوى إذا عمَّهـا الجهـل

ومنهم من يعلمها ظاهرا وباطنا وقولا وفعلا سرا وعلانية، فهؤلاء هم أهل الله والكمال سلوكهم في ذلك على أنواع، فمنهم من يبدأ من أولها ويترقى جميع المنازل إلى آخرها، فذلك من السَّالكين، ومنهم من يبدأ من آخرها، ويتدلى لأولها، فذلك من المجذوبين السَّالكين بعد الجذب، ومنهم من يبدأ من مقام أي مقام فلا يرقى ولا يتدلى، فذلك من أهل الوقفة، ويسمَّى بمقامه أين ما كان من المقامات، إن كان من الخائفين، أو من الراجين، أو من المحبين، أو من المحبوبين، أو من الفانين، أو من الباقين، وذلك كله بمرد الشَّيخ على قدر همم المريدين، فهذه أحوالهم في الترقي إلى الحضرة الرفيعة، فالشيخ يرقيهم على قدر عقولهم، وقوة أذهانهم، وصحيح فهمهم، وعلو هممهم. قلتُ: ولذلك تجد كثيرا من المريدين يتكلمون على يدي وكثيرا من أولاده

---

(1) رواه البخاري (2282/5)، ومسلم (2032/4).

وأهله وأقاربه فاسدين، وهذا وشبهه معلوم بالمشاهدة، ولا عجب في هذا، إذ الشيخ لا يتصرف إلَّا على مقتضى القضاء والقدر، وعلى مشيئة الواحد القهار، قال تعالى لسيد الأولين والآخرين: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران/128]، فهذا في حق سيد المرسلين الشّفيع في جميع الخلق يوم الدين، مات عمه أبو لهب على الكفر، ومحبه غاية المحبة عنه الشقيق أبو طالب، كان عليه السلام حريصا على هدايته، وحيث لم تقتضي ذلك المشيئة لم يتصرف عليه السَّلام في هدايته، ومات ولم ينطق بكلمتي الشَّهادة، وأوحى الله تعالى إليه ذلك: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص/56] فكيف الشَّيخ يهدي من أحب، ويتصرف الولي في هداية أولاده وغيرهم بخلاف حكم المشيئة، فهذا مما لا يكون أبدا، وهذا دليل صحة ما ذكرناه قبل قريبا، وما ذكرناه في القصيدة قبل، فاعلم ذلك.

ولنرجع لكلام أبي علي صالح رحمه الله في كتاب الأصول متَّصلا بما ذكرناه قبل كلامنا هذا فاعلمه قال رحمه الله تعالى: ومنهم من ابتدأ يرقيه بالأسماء كما ذكرنا، ومنهم من يبدأ به من أول مرة بذكر الاسم الأعظم لأجل قدوتهم وثبوتهم له، ومنهم من يكون له همة قوية وله طبيعة صفرواية خارجة عن الحد، فيلقي له الشيخ اسما آخر ترطب له، ولو أعطاه الاسم الأعظم من أول مرة لأفسده ذلك، ومنهم من تكون له همة قوية معتدلة الطبع فيعطيه من أول مرة أعلى مقام كمال الاسم العظيم ولم يضر لذلك، وهذا طرف من تصريف الشَّيخ في المريدين، هذا إذا كان الشيخ في أول درجة الشيخوخة، فلم يمد الله سرّ هيبته إلا خاصة، وأمَّا إذا كان الشيخ في ثاني درجة من درجات التصريف، فيمد الله بسر همة الشَّيخ جميع أمَّة سيدنا محمَّد ﷺ طائعهم وعاصيهم، حيهم وميتهم أولهم وآخرهم، وأمَّا إذا كان الشَّيخ في كمال درجة التصريف فيمد الله بسر همته جميع الثقلين على حكم المشيئة وقضاء رب العالمين، واعلم أن الشيوخ في ترتيبهم على قسمين، قسم يربي كما ذكرنا بعلم الكلام ومعاني الأسماء، وآخر يربي بسر الهمم والنظرة وهم الأعلون، وهم قدوتنا وقدوة آبائنا وأجدادنا. قُلتُ: وحدَّثني شيخي مشافهة أن طريقة السلوك المعلومة بالأسماء قد انقطعت بسنين كثيرة، وأمَّا شيوخ شيوخنا فما بلغنا عنهم إلا التربية بالهمة والنَّظرة، قُلتُ: وهذه الطريقة والله أعلم أسهل وأقرب من طريقة السلوك بالأسماء، لكن الأمر كله على حكم السَّوابق، ولا ريب في ذلك، واعلم أنه ظهر لي من سرد ذلك أن الله تعالى لما علم ضعف همم

المريدين قرب عليهم السلوك بهمم الشيوخ من غير اكتساب، بل موهبة من الله تعالى قال: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة/105] الآية حتى كان المريدين الصديقين الواصلين مجذوبون بواسطة الصدق في الشيوخ الكاملين، ومن أجل هذا شاع في الناس التصديق في المبتدعة الكاذبين الفاسقين الضالين المضلين الفاتنين المفتونين أهلكهم الله، وأخلا منهم الأرض آمين. قلت وقد أردت أن أضع هنا فصلا يبين أحوال المبتدعة الكذَّابين ليحترز منهم الصَّالحون، ويأمن من شرورهم الصديقون، فأقول:

فصل بديع في بيان أحوال أهل البدع ليحترز منهم الفقراء المحبون السنيون من أهل الورع: اعلم يا أخي أن الفقراء الصديقين قد اختفوا، ولم يطلع عليهم إلا أمثالهم، وأنَّهم كاتمون على الخلق لما كثر التَّصديق في النَّاس، حتى إنَّ النَّاس اليوم لو رأوا على كافر بعض الخوارق السحرية لاتهموه الخير، ربما اتخذه بعض الجهال شيخا، واتبعوه وإنهم الآن يفتخرون بالتَّصديق المذموم، ويقولون نحن أشد تصديقا من المتقدمين، لأنهم كان في حينهم أولياء صالحون، ولهم خوارق وكرامات وهم واصلون وموصلون، ومع ذلك يكذبونهم ويبحثون على مساويهم، ويضربونهم ويخرجونهم من ديارهم، ولا كان الاتفاق يقع منهم في الأولياء، إلا بعد وفاتهم فيندمون على صحبتهم وخدمتهم والاقتداء بأفعالهم، ويقولون نحن اليوم نصدق بكل أحد من غير بحث ولا إنكار، ويظنون ان هذا المقام منهم محمود، وإنما هو مذموم يماثل اقتداء الكافرين بآبائهم، قال تعالى حكاية عن متأخري الجاهلية ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف/23]، ويتركون الاقتداء بالأنبياء والمرسلين، وكذلك أهل هذا الزمان يتركون العلماء العاملين الذين هم في سجن الورع، ومقيدون بقيد السنة والشَّرع، ويصدقون أهل الضلال والبدع، الذين ما بنوا طريقتهم إلا على الجهل وخروج العقل، حرفتهم الحرص على الدنيا والطمع، وترك التعبد والورع، فمن أراد اليوم أن يكون وليا فيتحمق ويتعرى ويهتز ويكثر الكلام الذي لا معنى له ويترك الصلاة والصيام ويشتغل بالشَّطح واللهو والآثام، ومع ذلك نجد الغاوين يتبعونهم، ويتركون أسباب معاشهم ويخدمونهم، ويقولون نحن أفضل من المتقدمين، وهم إخوة للشياطين المتمردين. واعلم أن هذا التَّصديق في أهل البدع والضَّلال إنَّما هو تدريب وتوطئة للقاء الدجال، لأن زمان خروجه قد أطل، ووقت خروجه قريبا وربما قد وصل، فيجد الناس مصدقين في النوارج، ولا نكير على أهل

البدع والخوارج، فيأتي الدجال بسحره العظيم، فيجد الناس مصدقين ومتبعين لكل فتان ذميم، ومستمعين لنصيحة الشيطان الرَّجيم، فيتبعون الدجال سريعا، لما تقدم لهم من التَّصديق للضَّلال وترك الاستماع من أهل العلم والسنة والكمال، فيتكبلون في حباله، ويصيرون من حزبه وأتباعه، فإنا لله وإنا إليه راجعون. واعلم يا أخي أن أهل الحق يبحثون على دينهم، ولا يتبعون إلَّا من وجدوه على سنَّة نبيهم، ويزنون الناس بميزان الشَّريعة ولا ينبذون الشَّرع، ويتبعون الحقيقة بل الحقيقة حق لكن مع موافقة السنة والكتاب، ولا يفرق بينهم إلا أهل الزيغ والارتياب، فلذلك لا يخرج الدجال الكذاب في زمن أهل الحق والصَّواب، وربما يخرج إذا كثر الأتباع والتَّصديق أهل البدع التاركين للسنَّة والشرع، فانظر يا من قال نحن أفضل من المتقدمين، من منكم ينجي من متابعة الدجال اللَّعين، هل المتبعون للشَّريعة أم المتمسكون بالبعد والقطيعة، فهذا بيان شافي والله سبحانه هو المسقم والمعافي، جعلنا الله من المحبين لأهل السنة والكتاب، المتقدمين بهم في طاعة رب الأرباب، وقانا من متابعة كل بدعي كذاب، آمين.

واعلم يا أخي أن أبا علي صالح قال في كتاب الأصول له: اعلم أن كل من يقبل المشيخة والشياخة، ولم تكن فيه هذه الأوصاف الشَّريفة العلية السنية، ولا يستطيع شرح هذه العلوم الثَّابتة، وكيفية تفسير هذه الطَّريقة، ولم يدرك حقيقة الإذن مع وجود التَّيسير والموافقه لمذهب الصَّحابة والتابعين، وسنة سيد المرسلين صلَّى الله عليه وسلَّم، فمن لم يكن فيه ذلك وقبل الشياخة فهو مغرور مفتون، وإنه خاطئ أهل طريق الهدى إن لم يتب لا يفلح ولا يهتدي ولا ينجح، فنعوذ بالله من مهاوي الخذلان، ومن مخالطة كل بدعي فتان، قال أبو علي صالح في كتاب الأصول أيضا: فالشَّيخ لا يكون شيخا حتَّى يستكمل غاية العلم الظاهر والباطن المكسوب والموهوب، بحكم الشريعة والحقيقة على حكم الواجب والجائز والمستحيل، ويستكمل غاية العمل بقصد الامتثال لأوامر الله والإخلاص عما يشوبه من الرياء المفسد لطاعة الله، وأن يجد حقيقة الموافقة والهدى والحفظ لنفسه من الوقوع في الردى، وأن يكون متأدبا على يد شيخه بحكم الشَّريعة والحقيقة، وأن يجد حقيقة الإذن ممن على حكم الحقيقة مع كونه مستبرئا من نفسه ومن دعوته وقوته وفطنته حتى يكون في ذلك على بينة من ربه، فحينئذ يكون هاديا لعباد الله على حكم الشَّريعة، ويقتدي به من اتبعه على حكم الكتاب

والسنَّة مع حكم الحقيقة، فينقاد النَّاس إليه ويوفقون للقيام بما يدعوهم إليه على حكم الشَّريعة، ولو كان الشَّيخ مخالفا للشَّريعة في أدق شيء من النَّوافل، فلا يجيء منه شيء إنما هو شيطان غوي فتان، قلتُ هذا في مخالفة الشريعة في النوافل، وأحرى من يخالف في الفرائض اللازمة، ويدعي أنه شيخ كامل هذا إن كان يصحو من فنائه، ولا يقتدي بالسنَّة حين صحوه في أقواله وأفعاله، فقد رأينا من كان في زماننا هذا هكذا، يجمع الأموال وله عزائب ينميها بإذنه مملوءة بأنواع الأنعام والخيل والبغال واللهو والسماع المتقون، ويخالط النساء والرجال، ومع ذلك لم يصل صلاة قط، ويأمر النَّاس بالصَّلاة، فأي بدعة وضلالة أعظم من هذه يا عباد الله، ومع ذلك كثير من الجهال يعتقدون أنه ولي الله، وكانوا يشيخونه ويدعون بمحبته ورضاء الله، فهؤلاء هم الخاطئون، وهؤلاء هم البطَّالون فاحذرهم واتباعتهم أيها المؤمنون.

فصل في بيان معنى قولي أول ما يفتح لك باب الفقر والعبودية وسد باب الغنى لاختيار النَّبي ﷺ، ومعنى قولنا يفتح باب الفقر والعبودية، فتنال مما نال رسول الله ﷺ، ومعنى قولنا يفتح باب الفقر والعبودية فيريد أن يفتح لك الشيخ أولا للرضى بالفقر والعبودية، فإذا رضيت بالفقر والامتثال، ومع ذلك لا تكون قائما بحق العبودية، فذلك دليل على انقطاع شهوتك وصحة طاعتك وعلى التهمة لرازقك ورزقك، وذلك دليل على معرفتك بالأمور كلها أنها بيد الله تعالى وحده لا بيدك أنت منها مثقال ذرة، فتكون في الدنيا بالله لله، وفي الآخرة كذلك، فلا تزال عبد الله فقيرا له ولا يزال إصرارك وطاعتك له، وهذا سر قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر/15]، لا من ثبت استغناؤه لذاته قديما فلا يزال عليها أبدا، ومن ثبت له العدم لذاته فهو مفتقر لمن أوجده وأظهر وجوده العدم ولا يزال مفتقرا إليه أبدا، لأن فقره مكتسب من ذاته، فهو مفتقر لما يقوم بذاته مادامت ذاته، ثمَّ لا يزال مفتقرا لمن أوجد ذاته أولا في إيجادها بالبعث ثانيا، ثم ينكشف الغطاء فيحصل على كمال اليقين في فقره واحتياجه إلى الله تعالى فيجمع له إذ ذاك علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين والأمر هكذا، ولا ينكر ولا يجهل، فابدأ به الآن فكن عبدا، وخالقك ربا، وارض بذلك أبدا، فهذا باب عظيم أمر الشيوخ بفتحه لأصحابهم، جزاهم الله خيرا، وأجزل لهم مثوبة وأجرا، والحمد لله رب العالمين والله الموفق.

فصل في بيان معنى قوله: وترى نفسك أصغر من عشر جناح بعوضة، وأن

البعوضة قد طارت وأنت عاجز عن الطَّيران، وكذلك كل موجود غير الله تعالى صغيرا حقيرا في جنب عظمة الله تعالى وكبريائه: فاعلم أن السر الذي ترى به سكونك، والسر الذي ترى به حركاتك، والسر الذي ترى به فناءك في الله، والسر الذي ترى به بالله والسر الذي ترى به هذه الأسرار كل ذلك من الله إلى الله، فإذا رأيت ذلك استحال عليك طلب العوض والحظ، لأنك لا تستحق ذلك إلا إذا كان الفعل فعلك، خالصا لك فكيف والله تعالى يقول ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات/96]، فكيف تطلب الحظ لنفسك ممن أوجد لك نفسك؟ أم كيف تطلب الأجرة فمن فعل فعله وكمله، فليس ذلك منك إلا فضول وجرأة على الله سبحانه لا تقبلها العقول، واعلم أنك بعد الموت محاسب بكسبك قال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة/286]، فليس لك من الأفعال كلها إلا الاكتساب، الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، وهو اختيار الفعل أو تركه، وأما إيجاد الفعل وتمامه، فإنما هو لله لا لك، فاعلم ذلك، وكن عبدا تنل عز الدنيا والآخرة، وهو الموفق سبحانه، لا إله غيره فاعبده وتوكل عليه.

فصل في بيان معنى قوله فتكون يا صاحب هذا الوصف من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة/222] يريد إذا كان يحبك فتكون تائبا طاهرا، فتكون في بساط حضرته الرَّفيعة، لأنَّه من أحبه الله قربه وأجله وقدسه وعظَّمه، واعلم أن كل حضرة لا بدّ لها من أدب وكسوة، وهذه الحضرة الرفيعة قد أتينا بأدب الداخلين فيها، وكيفية الطَّهارة والكسوة اللَّتين يتجمل بهما الداخل في هذه الحضرة وتعظيمها، وكثرة وصفها كل هذا، وما ذكرناه قليل نزر حقير في هذه الحضرة الرَّفيعة، لأن حسن الأدب في الحضرة على قدر شرف الحضرة، ومن أساء الأدب في بساط الملكوت عاقبوه بالطرد، وأهلها واقفون على آدابهم كالجبال الرَّواسي، وقد ذكرنا أوصافهم ونعوتهم في هذا الكتاب، فاجعل يا أخي في يدك هذه البداية، وعلى الله سبحانه كمال النهاية، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم، وقد أتينا بما اشترطناه من شرح هذه الثلاثة أبيات على الوفاء والكمال، على قدر الوسع والتَّيسير في الأعمال، وبتمام شرح ذلك البرنامج تم الكتاب بفضل الله وبوده، وتأييده وإلهامه وتفضيله، ولم يبق علينا من ذكره إلا الباب الجامع، أسأل الله أن يجعل هذا الكتاب لأحوالنا جامع، وللنَّفس والشَّيطان والدنيا والهوى قامع، وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليما كثيرا كثيرا.

الباب الجامع
فيما يليق تعليمه للمريد السَّالك الطَّائع

اعلم يا أخي أنني كنت عزمت أن نأتي في هذا الباب على أن يكون محتويا على طائفة السلوك من أولها إلى آخرها، بكل ما يحتاج إليه ممَّا يخص كل منزل من منازلها التسعة من الأذكار والمقاصد والثَّمرات والنَّتائج والعوارض والكرامات والوصايا والأدعية، كل ذلك لكل منزل منزل، فرأيت هذا من الاشتغال بما لا يعني، لأن هذه الطَّريقة قد عدم العمل بها في هذا الزمان حسبما حدثنا بذلك قدوتنا وغيره، قال: فلم يبق في هذا الزمان إلا السلوك بهمة الشيخ ونظرته فيتصرف في المريد بما سبق لهم في علم الله تعالى، وهذه الطريق أسهل وأرفق بالمريدين والله أعلم، فضربت عن ذلك صفحا، ووكلت الأمر في ذلك لله تعالى، ورأيت أن نأتي في هذا الباب بذكر ما يخص كل منزل من الأوصاف المحمودة والأوصاف المذمومة، وهي إحدى عشر محمودة، فينبغي للمريد أن يتحلى بها ويتخلى عن أضدادها، وهي إحدى عشر صفة مذمومة، ومهما تحلى بضده من الأوصاف المحمودة فإنه يتخلى عن الصفات التي تناقضها من الأوصاف المذمومة على الإطلاق، فيجتمع في التسع منازل تسعة وتسعون صفة مذمومة، فيتحلَّى بالمحمودة، ويتخلى عن المذمومة بسر المجاهدة من غير طريق السلوك الذي لا علم لنا به، ولا بقي في زماننا هذا فيما نعلمهُ شيخا يربي به، فيكون في ذلك للمريدين ناصح، وسالم من الدعوى والفضائح، وعلى الله الاستعانة في كمال هذه الإفادة، والله الموفق سبحانه.

وأمَّا بيان هذا السفر الذي يسلكون فيه المنازل، ويقطعون فيه العقبات والعوارض حتى أن من هذه الطَّريقة من ناهى عدد المقامات إلى ألف مقام حسبما ذكرناه قبل، فاعلم أن الله تعالى ليس بينه وبين عبده مسافة حتى يقطعها مريده بالمنازل والمقام، لكن الله تعالى قريب بدون اتصال، بعيد بغير انفصال، وإن كان الخلق بين أصابعي قدرته وإرادته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولكن لا بدّ أن نبين مرادهم بهذا السِّفر الذي يسلكونه السالكون، ويجوزونه الواصلون، ويقر في منتهاه العارفون المقربون، فبيان ذلك سهل هين، يعلمه كل مؤمن ومؤمنة، وذلك أن القرب من الله تعالى هو قرب الرضى والمحبَّة، قال تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم/52]، وأمَّا البعد من الله تعالى فهو بعد السخط والغضب، فمن أراد التقرب من الله تعالى فإنما يتقرب

إليه بطاعته وامتثال أمره ونهيه، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، وما أجمع عليه العلماء من أمَّته، صلَّى الله عليه وسلَّم، قال صلَّى الله عليه وسلم: "عمل قليل في سنَّة خير من الاجتهاد في البدعة"[1]، والدليل على أن الطائع لله التابع لسنة رسول الله ﷺ يكون قربه من رضاء الله ومحبَّته بقدر الاجتهاد في طاعته تعالى قوله عليه السَّلام حكاية عن الله تعالى: "ما تقرب إلي المتقربون بأفضل مما افترضته عليهم، ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي يتكلم به، ويده التي يبطش بها"[2] الحديث فانظره، وقال في حق نبينا محمَّد ﷺ ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور/ 54]، فلا يزال العبد يتقرب إلى الله تعالى بالطَّاعة واتباع السنة، ويرتقي في المنازل والمقامات بحسبها بتوفيق الله تعالى وهدايته، إلى أن يبلغ غاية القرب، أي غاية المحبَّة والرضى من الله تعالى، وهي حضرته سبحانه، أي يكون مع الله تعالى في كمال المحبَّة التي يصحبها شيء من العزة والغفلة، ولذلك سميت بالحضرة المقدسة، لكون العبد حاضرا مع الله تعالى، فانيا فيه لا يرى شيئا، إلا ويرى الله فيه أو معه أو قبله، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثر على الأثر، وكيفية السلوك بهمة الشيخ أن يقيم المريد في التعبد والمجاهدة، فكل ما ازداد مجاهدة ازداد نورا، وكل ما ازداد نورا ازداد طاعة، وكل ما ازداد طاعة ازداد معرفة بربه، وكل ما ازداد معرفة بربه ازداد نورا، والنور هنا هو العلم اللدني وهو العلم الوهبى لا سيما إن شاركه العلم، فهذا هو نور الطَّاعة لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت/69]، فلا يزال المؤمن يرتقي في الأحوال والمقامات بتوفيق الله تعالى بسبب هذه الأربعة أشياء، وهي ما ذكرناها قبل، ولكن نكررها للبيان، فنقول: كل ما ازداد مجاهدة ازداد نورا أي علما، وكل ما ازداد علما ازداد معرفة، وكل ما ازداد معرفة ازداد طاعة، ثم إلى ما يترتب عليها بحسب الدور إلى ما لا نهاية له، وقيل نهاية القرب هو الدرة البيضاء، والله أعلم والدليل على أنه لا نهاية للقرب والرضى أنه كل ما ازداد معرفة ازداد طاعة، ثم يرتقي إلى زيادة المعرفة، ومعرفة الله تعالى لا نهاية لها، وكذلك ما يترتب على المعرفة، والله

---

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه (291/11) من حديث الحسن البصري مرسلا.

(2) رواه البخاري في صحيحه (2384/5).

أعلم، فهذه كيفية السلوك في هذا الزمان الصَّعب، الذي قال فيه صلَّى الله عليه وسلم لبعض أصحابه: "أنتم في زمان من ضيع عشر دينه هلك، وسيأتي زمان من تمسك بعشر دينه نجا"[1] نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يتمسَّك بعشر دينه، لأن هذا هو الزمان الذي أشار إليه سيد المرسلين.

وأمَّا كيفية البعد من الله تعالى فهو بعكس ما ذكرناه، إلى أن يبلغ غاية البعد وهو الكفر، ولا يزال أيضا يزيد في البعد بزيادة الكفر والجرأة والتَّعدي على أهل لا إله إلا الله إلى ما لا نهاية له كذلك، فهذا معنى البعد والقرب من غير قطع مسافة، فاعلمه، والله الموفق، فلذلك أردت أن أذكر هذه الأوصاف المحمودة والأوصاف المذمومة مفرقة على المنازل التسعة، ليعرفها المريد الصَّادق، فيتحلى بالصفات المحمودة، ويتخلى عن الصفات المذمومة، والله الموفق.

فصل في ابتداء ذكر ما أردنا ذكره من ذلك: فاعلم يا أخي أن الدين هو الإسلام، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران/19] إلى غير ذلك من الآيات، والإسلام في اللغة هو الانقياد، وفي الشرع انقياد الجوارح في قيامها بما يخصها من وظائف الدين، إما أن يكون ذلك من باب إعطاء الحكم للغالب، أو حمل الاسم على نسق الإفهام، لأن الباطن لا يخلو من مشاركة الظَّاهر في معنى الإسلام بما يقتضيه من الانقياد، ولهذا الاعتبار يفهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران/19] لاحتماله أن يكون المراد بالإسلام وظائف الظَّاهر، فعبر على جميع الدين بها لإجراء الحكم على الغالب، كما ورد: "الحج عرفة " أي معظم الحج عرفة، إذ للحج أركان لا يصح الحج بغيرها، ولا يحصل الحج بنفس الوقوف على عرفة خاصة، وكذلك انقياد الجوارح الظَّاهرة كاللسان واليدين وسائر البدن بحكم شرائع الإسلام، فهذا معظم الإسلام ولا يصح الإسلام بغير انقياد الجوارح الباطنة باعتقاد التَّوحيد والتفريد ونفي التشبيه والضد والند عن الحميد، وليس الانقياد بالجوارح الظَّاهرة والباطنة هو كمال الدين بل انقيادهما يدل على صحة الإسلام وثبوته على كمال الدين كله، إذ لا يكمل الدين إلا بالإحسان، وهو إتقان الأعمال كلها الظاهرة والباطنة كما ينبغي أن تفعل به،

---

(1) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (239/3): "أخرجه أحمد من رواية رجل عن أبي ذر".

لأن الدين كله جد وليس بهزل، ونضرب لك مثلا يتبين الإحسان لطالبه، فمثاله رجل عالم بأركان الصلاة وجميع أحوالها وما يتعلق بها، لكن إن صلَّى وحده فلا يبالي بتمام الركوع والسجود والطمأنينة وغيرها من هيئة الخشوع والخضوع، ويسرع العمل ليخرج من صلاته، فهذا مسلم مؤمن وليس بمحسن، هذا إن لم تفسد صلاته من إخلاله بالطمأنينة، أمَّا إن أخل بها فهو مسلم مؤمن عاص بإفساده صلاته، وأمَّا مثل الإحسان فمثل ذلك الرجل، بعينه دخل مسجدا ليصلي فوجد فقيها معظما عند أهل بلده، فجعل يصلي أمام الفقيه، وهو يعلم أنَّ الفقيه ينظر إليه، فإنَّه لا شك أنَّ هيبة الفقيه النّاظر إليه تمنعه من يأتي بالصَّلاة على صورة اللَّعب والعادة، بل لا بدّ لهذا المصلي أن يفرغ مجهوده في إتقان صلاته كما يعلم من وجهها، ويأتي بها جدا لا هزلا، فهذا المصلي كان في صلاته وحده لا يعبأ بها فهو مسلم مؤمن وليس بمحسن، وفي هذه الصَّلاة الثانية التي صلاها بنظر الفقيه إليه فهو محسن، لهذا قيل الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك من حيث لا تراه، فهذا بيان الإحسان بيانا شافيا بفضل الله وجوده، وضعته هنا من فتح الفتَّاح سبحانه ما رأيت من نص على الإحسان بهذا البيان قط، ولا سمعته من أحد قط، بل بفضل ملهم القلوب سبحانه لا إله إلا هو.
واعلم يا أخي أنك حيث علمت معنى قوله الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن هيبة النظر إليه أعظم من علمك بنظره سبحانه إليك، وإذا كنت متيقنا بأنه يراك قطعا وهذا معتقد كل مؤمن، فما ضعف هيبة نظره إليك حتى جعلت تلعب بين يديه بعبادتك، ولم تمنعك هيبة الله تعالى من الاستهزاء بعبادته، كما منعتك هيبة الفقيه، وأي عقوبة تخشاها من الله عزَّ وجل بل هذا دليل ضعف إيمانك ونقصان دينك، ولو كنت مؤمنا لغلبت عليك هيبة نظر الله إليك أعظم من هيبة غيره، كائنا من كان، واعلم أنك لما علمت معنى الإحسان فلا تفعله بالجوارح الظَّاهرة وتهمله بالجوارح الباطنة، كأن تشرك في العمل غير الله تعالى بأن تفعل ذلك الفعل رئاء النَّاس ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة/13].

اعلم يا أخي أنه يتفاوت النَّاس في انقياد الجوارح الظّاهرة، يتفاوتون في الإسلام بتفاوتهم في انقياد الجوارح الباطنة والظَّاهرة، ويتفاوتون في حصول الولاية الخاصَّة وخاصة الخاصة، فبهذه القواعد الثلاث يحصل الدين كله، كما قال سيدي محمد بن أحمد السَّاحلي رحمه الله ورضي عنه في بغية السَّالك في أشرف المسالك، ومنه نقل

ما يأتي إن شاء الله إلى آخر الكتاب، فقال هنا استشهادا منا به على ما ذكرناه، فقال: اعلم نور الله قلوبنا بأنوار معرفته، وبلغنا مراتب أهل ولايته، أن الدين الذي كلف الله عباده إياه قائم من ثلاث مقامات محتويات، من إسلام وإيمان إحسان، فجميع وظائف الدين داخل تحت نظامها، فهي الطَّريق التي توصل المسافرين إلى الله تعالى، والسَّبيل الذي يهدي إلى المعرفة، فجدير أن هذه القاعدة أوضح من فلق الصبح المبين، حدَّثنا الشيخ الراوية أبو عبد الله سيدي محمَّد بن عياش قال حدثني صهري أبو القاسم بن الطيلسان بالمسجد الجامع بقرطبة قال حدثنا القاضي أبو محمَّد عبد الحق قال حدثنا القاضي أبو مروان عبد الملك بن مسرة قال حدثنا أبو البحر سفيان قال حدثنا أبو العبَّاس بن دلهات العذري قال حدَّثنا أبو العباس أحمد بن الحسين الداري بمكة سنة تسع وأربعمائة قال حدَّثنا أبو أحمد الجلودي عن إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه قال حدثنا أبو محمَّد الحسين مسلم بن الحجاج قال حدثنا عبد الله بن معاذ العبدي قال حدثنا أبي قال حدَّثنا كهمش عن أبي هريرة عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهيري فانطلقت أنا وعبد الرحمن بن حميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلت: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوافق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر فينا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم أنهم يزعمون القدر وأن الأمر أنف، فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برءاء مني والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل منه حتى يؤمن بالقدر، ثمَّ قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشَّعر لا يرى عليه أثر السَّفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النَّبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمَّد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اله وأنَّ محمَّدا رسول الله وتقيم الصَّلاة وتؤتي الزكاة وتصوم شهر رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال: صدقت فعجبنا منه يسأله ويصدقه قال: فأخبرْني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره قال: صدقت قال:

أخبرني عن الإحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم يكن تراه فإنه يراك من حيث لا تراه قال: فأخبرني عن الساعة قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السَّائل قال فأخبرني عن إماراتها قال أن تلد الأمة ربَّتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان ثم انطلق فلبث ثمَّ قال يا عمر أتدري من السَّائل قلت الله ورسله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم[1]. قال أبو عبد الله البخاري[2] حين أورد هذا الحديث: فسمَّى ذلك كله دينا، فظهر لك من هذا الحديث الجليل أن الدين قائم على ثلاث مقامات، محتويات على إسلام وإيمان وإحسان كما تقدم، وأن جميع وظائف الدين الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص المقاصد والحفظ من النَّفس وغللها وغير ذلك تحت نظامها. هـ.

قُلْتُ: فالدين كله ليس يخرج منه شيء عن هذه الثلاث قواعد يسير بها السَّائرون، ومنها منازل السَّالكين، وفي أبحر معرفتها مجرى سفن الأقطاب العارفين، فكن فيها أقوى يا مسكين، بالإسلام جملة وتفصيلا، فجملته ما يحقن الدماء خاصة، وتفصيله على ثلاثة أقسام، إسلام وإيمان وإحسان، فلكل قاعدة من هذه القواعد ثلاثة أقسام، بداية ووسط ونهاية، وعبر الساحلي رحمه الله عن الوسط بالتَّمكين، فتكون تسعة من ضرب ثلاثة في ثلاثة، وهذه الثلاثة هي المعبر عنها بمنازل السَّالكين، ولك منزل إحدى عشرة صفة حميدة، وإحدى عشرة صفة مذمومة، وهاهنا نشرع في بيانها إن شاء الله تعالى بعد وعظ نفسي بكلام الشَّاعر رحمه الله حيث قال:

يـــــا مـــــن لغيـــــره تعلـــــيمه ... هــــلا لنفـــسك كـــان ذا التَّعلـــيم

لا تـــنه عـــن خلـــق وتأتـــي مـــثله ... عـــار علـــيك إذا فعلـــت عظـــيم

وقال غيره:

وكـــيف تـــريد أن تكـــون حكـــيما ... وأنـــت لكـــل مـــا تهـــواه ركـــوب

وتـــوري مـــنك ظاهـــرا بهـــيا ... وتـــرتكب الذنـــوب ولا تـــتوب

قلت الشطر الأول من البيت الثاني أصلحه المؤلف أصلح الله حاله، لكونه وجده

(1) رواه مسلم في صحيحه (36/1).

(2) صحيح البخاري (27/1).

في الأرض بعيد المعنى ولا فائدة في ذكرهما، والله أعلم.

قال رحمه الله: فبداية الإسلام التَّوبة، وتمكينه الاستقامة، ونهايته التَّقوى، وبداية الإيمان الإخلاص، وتمكينه الصدق، ونهايته الطمأنينة، وبداية الإحسان المراقبة، وتمكينه المشاهدة، ونهايته المعرفة.

قلت: وعلى هذا التسع منازل ترتب ذكر ما أشرت به في صدد هذا الباب، والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

الفصل الأول
في المنزل الأول من مقام الإسلام

اعلم جعلني الله وإياك ممن أسلم وجهه لله، ولم ير في الوجود إلَّا الله، أن أول منازل الإسلام التوبة، وقد تقدم لنا التَّعريف بحقيقتها ولوازمها وشروطها، فأغنانا ذكر ذلك عن إعادته هنا، وهي بداية السَّالك، وقد قيل نتيجة النهاية على قدر البداية، وإنما جعلت بداية لأنها مدخل وولوج لأول منازل الإسلام، والمراد بالتوبة هنا التوبة العامة التي فرضها الله تعالى على جميع المؤمنين بقوله: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور/31]، وهي الرجوع من المعاصي إلى الطاعة قال تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات/11].

وقال رحمه الله يروي عن أبيه رضي الله عنهم: أن للتوبة ثلاث مراتب، توبة في مقام الإسلام وهي الرجوع من المخالفات إلى الطَّاعات، وتوبة في مقام الإيمان وهي الرجوع من الغفلة إلى استصحاب الذكر، وتوبة في مقام الإحسان وهي الرجوع من الأوهام إلى الحقائق، فأمَّا التوبة الأولى التي في مقام الإسلام، فهي على ثلاثة أقسام: توبة من تضييع الواجبات، وتوبة من التلبس بالمحرمات، وتوبة من تحمل الظلامات، واعلم أن الذكر الخاص بهذا المنزل هو الاستغفار بمرهم جراحات الذنوب، والعيوب به تداوى كلومها وقروحها، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء/110]، وجاء في بعض المسانيد[1] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال جاء رجل إلى النَّبي ﷺ فقال يا رسول الله إني ذرب لساني وأكثر ذلك علي أهلي فقال له رسول الله ﷺ وأين أنت من الاستغفار، فانظر يا أخي إلى

(1) رواه أحمد في مسنده (394/5).

اختصاص هذا الدواء بهذه العلة على لسان الطبيب الأكبر، وكونه صلى الله عليه وسلم لم يقل له أين أنت من التَّهليل والتَّسبيح وغير ذلك من سائر الأذكار، وإنما دواء كل علة بما يناسبها، مثل ما يدعو بأسماء الله الحسنى، كقولي مثلا يا تواب تب علي، يا غفار اغفر ذنبي، يا جواد جد علي، يا ستار استر عيبي، ونحو ذلك فافهم، وأن يكون التزام كل واحد من الاستغفار وغيره على قدر حاله، وأن لا يستكثر من ذكره خشية الملل والسأم فيؤدي إلى انقطاعه، ورده من المخالفات والأفعال الخبيثات، وبالدؤوب على الذكر تظهر للذاكر ثمراته، وتنتج له نتائجه، والله الموفق سبحانه.

تنبيه واعتبار في ذكر نتائج الاستغفار:

الأولى: الحزن وهو توجع الباطن بما فاته من الخير، وتألمه بما ناله من التَّضييع والتفريط، لأن الحزن يحرك رؤية التفريط في العمل، ويؤثر إيثار الجفاء، وذلك ينفي عن النَّفس القسوة في طلب الخلاص لغفلته عن الوعيد، وعن خروجه من حزب الله تعالى، والقلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون.

الثانية: الإشفاق، وهو الحذر من الوقوع فيما قد علمت هلاك عاقبته، أو فوات ما قد حصل وقد علم صلاحه، وبالإشفاق يتوقى طريق الهوان، قال الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور/26 - 27]، وذلك ينفي عن النَّفس إلى التضييع الذي هو سبيل الحركان ويعرض إلى الخسران.

الثالثة: الفرار وهو الهرب من الشر إلى الخير ومن البعد إلى القرب ومن الهلاك إلى النَّجاة فيستدعي الحذر ويمحق أثر البعد وهو أول أبواب الابتهال إلى الله تعالى والإجابة لأمره قال تعالى تخصيصا على هذا المقام ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات/50]، وذلك ينفي عن النفس التثبط مع الشَّهوات والتَّنعم بالمخالفات والركون إلى اللَّذَّات.

الرَّابعة: الإنابة وهي الرجوع بعد الاعتذار إلى صلاح الحال ووفاء بالعهود بشدة الإقبال للقيام بما تضمنه مقصد الاستغفار من الوفاء بالتَّوبة والقيام بحفظ الحدود عن طيب نفس وانشراح صدر وقوة عزم إلا وخرج عنها ولا فائت إلا واستدركه ولا عثرة إلا استقال منها ولا فتنة إلا طلب الخلاص منها والفرار عنها مع سوء الظن بالنَّفس وإقامة الحجة عليها من مخالفتها المتحقّقة وموافقتها التي هي خطر من قبول أو رد ذلك ينفي عن النفس التفريط في الواجبات والشغل بالنظر بجمال النَّفس.

الخامسة: السَّماع وهو من شيم أهل الخير يراد به الإجابة إلى ما تضمنه الوعد والوعيد بالمسارعة إلى الخيرات والمبادرة إلى الإخلاص استنشاقا لنواسم الإرادة من جنبات التّخصيص وذلك ينفي عن النفس الإعراض عن الإجابة بتصميم الغفلة والثاني في طريق الفلاح ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم لأن الإعراض عن الإجابة دليل المقت.

السَّادسة: المحاسبة بتقرير النَّفس على ما فاتها من الخير وما نالت من المخالفات فيرى التقصير لازما والتضييع ثابتا فيحمل عليها ذلك زواجر التَّوبيخ حتى العزائم ولنبعث مواد القرائح وذلك ينفي عن النَّفس الانهماك في متابعة الهوى الداعي إلى مهاوي الردى والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني.

السَّابعة: المحافظة وهي لزوم طريق الإنابة تعرضا لنفحات القبول وصونا لعقود العهود واحتياطا لشروط المتاب وذلك ينفي عن النَّفس البطالة في الأعمال والشتات في الأحوال والهدر في الأقوال متابعة للشره وميلا على الشَّهوات.

الثَّامنة: الحذر وهو قريب من الإشفاق لكن الإشفاق لا يفارقه الترحم والحذر يصاحبه ما يؤذن ببراءة الذمة ويفصح عن ارتفاع الهمة ويقضي بالخلاص من التبعات وذلك ينفي عن النفس الاسترسال المؤدي إلى الوبال والنكال وهو من صفات البهائم في عدم العزائم.

التَّاسعة: الرفق الذي يزين أهل الإسلام ويحفظ أخوة أهل الإيمان ويصون شغل الألفة من شتات الأغيار وذلك ينفي عن النَّفس طوارق العدوان بإطفاء شرر الشره والكف عن البغي.

العاشرة: الثبوت وهو عقد التوبة بروابط الإنابة قياما بحفظ الحدود على الدَّوام وإصلاح السَّريرة وذلك ينفي عن النفس التردد بأوهام الهوى والطباع بخروجها عن عوائدها الذميمة.

الحادية عشر: الوفاء وهو من شعار صدق العزائم وعلامات أهل الإثبات وأمارات القبول وذلك ينفي عن النفس الميل إلى الشَّهوات والتشوق إلى المخالفات ويقطع عنها مواد الإنكات والانتكاص.

فإن قلت: هذه الصفات كلها باطنة والإسلام عبارة عن الوظائف الظَّاهرة،

فالجوابُ أنه قد تقدم لنا جميع الإسلام والإيمان والإحسان وإنما المراد بذلك كله تزكية وطهارة، فتأخذ النَّفس من التزكية والطَّهارة من كل مقام بحسب ما تقتضيه وظائفه، وقد مضى لنا أن الإسلام في العرف الشّرعي ليس مقصورا على أعمال الظَّاهر دون الباطن، فذلك صفة النفاق، فإذا تقرر هذا فاعلم أن الاستغفار إذا تحكم معناه بالباطن بناء على أساس مقصده فيثمر الخوف للنَّفس فينتج لها ذلك بالتحلية بجميع الصفات المحمودة الإحدى عشر المذكورة أولا، فتتَّصف النّفس بها فإذا تمكنت هذه الصفات من النّفس، فتنفي عنها الإحدى عشر صفة المذكورة المذمومة، فتتخلى عنها النَّفس، وتتطهَّر منها طهارة تامّة، لأن الصفات المحمودة التي اتصفت مثل النور، والصفات المذمومة التي تطهرت منها مثل الظلمات، وحيث أشرق نور الصفات المحمودة على النَّفس انتفت عنها ظلمات الصفات المذمومة، لأن الضدان لا يجتمعان، فاعلم ذلك، فإذا امتزج الخوف مع النَّفس وأثمر فيها ما ذكرناه فلا انفكاك للنَّفس منه، إلا إذا عرض عارض مؤذن بالمقت مفصح بالطَّرد والعياذ بالله من ذلك، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، جعلنا الله وإياكم ممن شملته عواطف الإحسان، وحفظه الله من عواطف الخسران آمين، وعلى مقتضى ما ذكرناه هنا فاحمل أيها السَّالك كل ما عليك في فصول هذه المنازل كلها ممَّا يؤذن بتحلية النَّفس به وبتخليتها عنه والله الموفق.

الفصل الثاني
من مقام الإسلام وهو منزل الاستقامة

اعلم رزقني الله وإياكم من المواهب أسناها، ومن المنح الدينية أعذبها وأعلاها، وأوردنا وإياكم موردها وأصفاها، أن الاستقامة هي المنزل الثاني من منازل الإسلام، وهي تمكينه قال تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود/112]، وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: "استقيموا ولن تحصوا"[1]، واعلم أن الاستقامة على قسمين خاصة وعامة، فأمَّا الخاصة في استقامة السر في نهج المشاهدة من غير التفات إلى شيء غير الله تعالى مع كونه محفوظا عن رؤية الرسوم، مطهرا من شوائب الأوهام مغمورا في بحار أسرار الحقائق، ومتمسكا بسنَّة سيد الأنام، سيدنا

(1) رواه أحمد في مسنده (276/5).

محمَّد عليه من الله أفضل الصَّلاة وأزكى السَّلام، وأمَّا العامة فهي المشار إليها في هذا المنزل، هي اعتدال السيد على نهج السنَّة، من غير تحريف واستواء السلوك على سبيل الشرع من غير تبديل ولا تغيير، والحكمة في الإتيان بهذا المنزل وبالمنازل كلها هي أن يرسخ في نفس السالك معنى الاتباع بالمحافظة على السنة، فيكون ذلك واقفا له عند ورود حقائق النهايات، واعلم أن الاستقامة هي الاستواء مأخوذ من قولهم أسباب الطرق المتفرقة الضَّعيفة والسعي على المنهاج الواضح قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام/153]، وقال النبي ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي استمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجد وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»[1]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت/30]: أي لم يروغوا روغان الثعالب، لأن الثعلب غايته إنما يطلب فنيات الطريق، فالاستقامة حافظة من الزيغ، هادية إلى الصراط المستقيم، وبه يسهل السير، ويقرب القصد، فمن لم يمل عن السنة فقد استقام وخرج من أقسام الهلاك الاثنين والسَّبعين فرقة، فهو إذا من الفرقة الناجية التي أخبر النبي ﷺ أنها في الجنَّة، كما أخبر عن الاثنين والسَّبعين أنها في النار، انظر الحديث، فلا مطمع في التَّرقي إلى منازل التَّخصيص لمن لم يصف له مشربه، فهذا المنزل من حرمه ضاع عمره وخاب سعيه وانقطع أمله، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل/92]، واعلم أن لهذه الاستقامة ظاهرا وباطنا، أما ظاهرها فتحلية الجوارح بحلية السنَّة وهو تعديلها بقانون الشَّرع وتهذيبها بآدابه وطهارتها من جميع المخالفات والعصيان إذ لا مطمع للمخالف في الشرع في الدخول لحضرة التّخصيص، وأمَّا باطنها فتحلية الباطن بأخلاق الشرع وتهذيبه بآداب السنَّة واستقامة الباطن أصل استقامة الظَّاهر لأن الباطن هو المنفق على الظَّاهر، لأن الظّاهر خديم الباطن، لأنه على رأيه يتحرك، وعن إشارته يسكن، وإن كان قد يصل إلى الباطن من استقامة الظَّاهر أنوار تقوي مادة عزمه فذلك كالفروع التي تنعكس على الأصول، إذ لو قطع الأصل ما بقي للفروع مادة فتنعكس بها، بل تذهب وتتلاشى ولا

---

(1) رواه أبو داود (610/2) والترمذي (44/5)، وابن ماجه (15/1) في سننهم.

يذهب الأصل، إذ ربما ينبت فروعا أخرى فتقوى بمادة الأصل فتنعكس عليه كذلك، وهذا مثال حسن فاعلمه، واعلم أن للاستقامة هنا شروطا وآدابا أمَّا شروطها فخمسة الأول مواصلة أهل السنة ومجانبة أهل البدعة قال الله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف/28] فهذا النَّهي أعظم من الأمر الذي ورد في أول الآية فاعلمه، وقال متصلا بهذا النَّهي ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف/28].

الثَّاني: تعلم العلم الهادي إلى وظائف الشَّرع والداعي إلى أحكام السنَّة قال النبي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1]، قال مالك: أما لك علم فلا. لكن ما لا بدّ للإنسان منه.

الثالث: تسليم النَّظر للشَّارع صلَّى الله عليه وسلّم في جميع ما صدر عنه من قول أو فعل بحسن ظن وصدق طوية وانشراح صدر من غير تأويل صاد عن السَّبيل ولا تنظر مانعا من اقتباس الدَّليل لأن المشروعات لا تؤخذ بقياس ولا بدليل إذ ليس للعقل نظر في أمور الشَّرع إذ لو كان له نظر في ذلك لسلم إليه النظر لم يحتج إلى رسول يبين دين الله بأمره إذا فالعبد محجور عليه في نظره فما وافق فيه الشرع قُبل وما خالفه طُرِح ونبذ وترك، قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: إنَّما يقع في باطني الكلمة من نكث القوم أياما فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين وهما الكتاب والسنَّة، ولهذا المعنى أشار إمام الطَّريقة أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه بقوله: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن أمورنا مقيدة بالكتاب والسنَّة، واعلم أنَّ أمور الشريعة ووظائف السُّنَّة منوطة بعضها ببعض، فلينظر من له سبب فيهما أنه ليس بينه وبين سعادة الآخرة أو شقاوتها إلا قليلا منها ما فتح الله تعالى للعقل في إدراكه والمعرفة به ومنها ما حجبه عنه ولم يجعل له سبيلا إلى العثور عليه هذا الأمر بين فلا نطيل بذكره.

الرَّابع: استعمال أثر السنة من فعل أو قول أو مقصد باعتدال من غير تعمق ولا تأنق ولا ميل مع أوهام الوساوس لأن ذلك مما يخرج العبادة عن مقصودها الشَّرعي وما أصاب الإنسان من ذلك فسبيله إما داخل في العقل لاختلال في الذهن وفساد في

---

(1) رواه ابن ماجه (81/1) وغيره، وللحافظ السيوطي جزء مفرد في تصحيحه.

التصور وأن ذلك جهالة فادحة بأحوال السُّنَّة وفي كلا الوجهين للشّيطان عون على فساد الدين وذلك مما يجب العدول عنه وطلب الإقالة منه قال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة/185]، وقال عز من قائل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج/78]، وقال النَّبي ﷺ: «ديننا هذا يسر»، والله الموفق.

الشَّرط الخامسُ: كل حركة أو سكون من أمور السنَّة لا تكون إلا بقصد القربة وحسن المعاملة لله تعالى ليجني العبد من ذلك ثمرة حسن الوجهة إلى الله تعالى لأن الأشياء التي لا يصحبها قصد القربة وحسن المعاملة لا أثر لها في تنوير الباطن وما ذلك إلا هباء لا أثر له فبالتزام المقاصد بين يدي الأعمال الشَّرعية يتنور الباطن فيتأنس بالله ويستوحش من غيره، وأما آدابها فخمسة الأول متابعة النَّبي ﷺ في جميع ما ورد عنه من الأقوال والأفعال والحركات والسكنات ممَّا يرجع إلى العبادات إذ بذلك يحصل مطلوب اتباع المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف/158] والكلام هنا متسع فاقتصرت على هذا المحل منه لبيانه، والله أعلم، وما تركته إلا خشية التَّطويل والتكرار، مع ما تقدم في أوائل هذا السفر.

الثَّاني: الأخذ بالأعم من أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم فهو الأحوط وإن كان الأخص أصح لا سيما فيما يرجع إلى الترغيب والترهيب فذاك أهدى على سبيل الاتباع، ومن هذا المعنى نظائر كثيرة في الشّرع، كعدد ركعات الوتر وركعات الضحى وغير ذلك، وكذلك ما كان عليه صلوات الله وسلامه عليه آخر عمره، إذ لعله انتقل من المتقدم إلى المتأخر لحكمة ظهرت من جانب الغيب.

الثَّالثُ: أن يقصد بمتابعته صلَّى الله عليه وسلَّم تعديل الحركات والسكنات حتَّى تنفعل النَّفس لذلك التَّعديل فتتصف به، وقد تقدم لنا ارتباط الظاهر مع الباطن والعدل وضع الأشياء في مواضعها من غير ميل ولا تحريف، ولا يتوصل إلى ذلك إلا بمتابعة النَّبي ﷺ في العبادات والعادات، وذلك أن حركة الجوارح لا تكون إلا بعد أن تصورها النَّفس وتكيفها، فإن كانت تلك الحركة معتدلة أبقت في النَّفس أثرا معتدلا، وإن كانت معوجة أبقت في النَّفس أثرا معوجا استطاع السَّالك أن لا تصدر عنه حركة ولا سكون إلا على سبيل العدل فهو اللائق به، المعبر على قصده، ولا يصل إلى تحقيق الأمر في ذلك إلا بمتابعة النَّبي ﷺ الدليل الأكبر والبُرهان الأعظم، لأن الادراكات تقصر عن العثور على وجه العدل في أكثر الحركات والسكنات، فلا سبيل إلى ذلك إلا من قبل

الشَّارع صلوات الله وسلامه عليه، وهذا مما يؤكد حكم اتباعه في ما قل وجل وذلك باب السَّعادة الأبدية.

الرَّابعُ: أن يبني أمره في اتباع النَّبي ﷺ على أن يضْبطَ نفسه بضابط شرعي يقمعها عن هواها ويربطها بروابط الاقتداء بالنَّبي ﷺ ليخرجها عن نظرها إلى موافقة حكم الشرع وهو المطلوب الخامس مدافعة الخواطر العارضة عند التلبس بالاتباع بأن يمضي على قصده ويلغي جميع الأوهام لأن العزم يدفع جميع العوارض بالمقصد المبلغ إلى رضاء الله تعالى فالعزم بأن لا يعدل عن شيء بشيء يريد الاتباع به إلا بنص جلي لا معارض له وأمَّا الذكر المناسب لهذا المنزل الذي هو الاستقامة هو استعمال كيفية من الصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمَّد ﷺ بعدد معلوم لا ينقص ولا يتغير ووجه مناسبة هذا الذكر لهذا المنزل الذي لا يصح ولا يثبت إلا بمتابعة النَّبي ﷺ فكانت وسيلة اتباعه عليه السَّلام محبّته لأن من أحب شيئا لا يخالفه ووسيلة المحبّة هي الصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم لأن من أحب شيئا أكثر من ذكره وأن تكون الصَّلاة عليه لكي يتأكد الأمر هنا بالكيفية الواردة عنه صلى الله عليه وسلم لما فيها من معنى الاتباع سلب الإرادة وأن يزيد السيادة في لفظ الصلاة عليه لأن الصلاة تثمر المحبَّة والمحبة تثمر الاتباع والاتباع ينيل سيادة الدنيا والآخرة والسيادة تثمر تعظيمه عليه السَّلام والتعظيم يثمر الهيبة والهيبة تمنع الذاكر من مخالفة أمره ونهيه فاعلم ذلك فإذا امتزجت الصلاة بنفس السَّالك فإنها تثمر له ما ذكرناه فإذا أثمرت فلا بدّ من ظهور نتيجتها وهي هذه.

نتيجة: اعلم يا أخي أن نتيجة هذه الثمرات هو اتصاف النفس بإحدى عشرة صفة حميدة تنفي عنها إحدى عشرة صفة مذمومة.

الأولى: إيثار النبي ﷺ عزما وإخلاصا ذلك ينفي عن النفس العدول عن العدل في اتباعه وهي علة في هذا المنزل.

الثانية: محبَّة الأمة بمحبته إياهم بستر عيوبهم ويظهر فضائلهم ويدعي أخوتهم في الغيب وذلك ينفي عن النفس الحقد والنَّميمة والحسد والغيبة والغي وسائر الإذايات الحسية والمعنوية.

الثَّالثة: الرجاء بحسن الظَّن بالله تعالى بالتعلق بأذيال الشَّفيع وميلا إلى جاهه المنيع من غير ميل إلى الأمن إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وذلك ينفي عن النَّفس اليأس والقنوط الكائنين عن إفراط الخوف إذ لا ييأس من روح الله إلا القوم

الكافرون.

الرَّابعة: الحرص على نيل الأسوية بالسعي على سبيل السنَّة بقوة عزم وصدق وتوجه وذلك ينفي عن النفس الكسل على النوافل والميل إلى اللهو والباطل.

الخامسة: الرعاية أعني بها رعاية الأعمال من شوائب الإخلال القادح في العلم وذلك ينفي عن النَّفس نفحات البدعة ويخلصها من ربقة الضَّلالة.

السّادسة: الحرمة وهي تعظيم الأمر والنّهي تهيبا لعظيم أمر الشَّريعة ونهيها وذلك ينفي عن النَّفس الركون لصاحب المخالفات والمستعمل للمكروهات.

السَّابعة: المحاسبة وأصلها إساءة الظن بالنَّفس في الخروج عن المحظورات والمكروهات وذلك ينفي عن النَّفس الاقتحام فيما لا يعني إذ من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

الثّامنة: التَّجمل أصله الصبر على حمل مشاق الدين التي منها حمل المعاشرة مع الخلق بحمل أذاهم وكف الإذاية عنهم وهو تكميل لبقايا الصفة الثَّانية، وذلك ينفي عن النَّفس الجزع الحامل على التَّورط في لجة الهلاك والداعي إلى خصال ذميمة أدناها إساءة الظنّ بالمسلم.

التَّاسعة: الصمت بصيانة النفس عن الهفوات التي يغري بها اللسان فتهدم مراقي الإنسان وذلك ينفي عن النّفس شتات قواعد الكلام ويخلصها من التعب والملام.

العاشرة: التواضع من غير مهانة علما بنظارة أهل الدنيا أمر الدنيا ودناءة أسبابها وشك في ثبوت أعمال الصَّلاح وقبولها ذلك ينفي عن النَّفس رذائل الكبر ونحوه.

الحادية عشر: الشَّفقة التي من أثرها توقير الكبير ورحمة الصغير وذلك ينفي عن النفس القسوة التي عنها يكون تضييع حقوق الإسلام والمسلمين وهذه الصفات قواعد ترجع إليها فروع تناسبها وكل صفة منها يتعلق بها كلام يؤول إلى التطويل ومرادنا التقصير على ما يحصل الغرض إلى ما فيه دواء المرض، والله الموفق وهو الهادي سبحانه.

الفصل الثالث

في النزل الثالث من مقام الإسلام وهو التَّقوى

اعلم يا أخي جعلني الله وإياك من خلصاء أهل التَّقوى، وسلك بي وبك على منهجه الأقوى، أن هذا المنزل وهو آخر منازل مقام الإسلام، وقد تقدم لنا الكلام على

التقوى كثيرا، فأغنانا ذلك عن ذكره هنا، فلنذكر ما لا بدّ منه من ذلك، ما حكاه مؤلف البغية عن والده حيث قال: سمعت والدي رضي الله عنه يقول: التَّقوى ثلاثة أقسام، فتقوى أهل مقام الإسلام حراسة الجوارح من العصيان اتقاء سخط الديان، وتقوى أهل مقام الإيمان مراقبة الباطن من العدوان ابتغاء مرضات الرحمان، وتقوى أهل مقام الإحسان حراسة السر ممَّا سوى الله مع الأنفاس حفظا لعهد الملك الديان، وفي كل منزل تقع الإشارة إلى ما يخصه من ذلك بفضل الله الرَّحيم الرحمان، وأمَّا الذكر الخاص بهذا المنزل فهو التَّهليل، فقد علمت أن التَّقوى أول ولوج في أبواب العبودية، وأول قدم من أقدام المعرفة، وأول جرعة من مذاق التوحيد، والتَّوحيد هو الباعث على القيام بما يرضاه الواحد الصَّمد من حفظ وظائف الدين من طوارق الفساد وعوارض الشتات باتخاذ الوجهة له، فلا بدّ أن يكون الذكر مناسبا لهذا المعنى فالذي يحرك الباطن للانبعاث إلى التَّوحيد هو التهليل، ولا بدّ لنا هنا من ذكر مقدمة تشرق من جمالها أشعَّة أنوار معاني التَّوحيد توطئة لما يأتي بعد قال: فأقول معتصما بالله أن التَّوحيد على ثلاثة أقسام: تقليدي ونظري وذوقي، أمَّا التقليدي فهو الظَّاهر الجلي الذي يقي من الشرك العظيم، وعليه نصب القبلة، وبه وجبت الذِّمة، حقنت الدماء والأموال، وصحت به الملة للعامة، وإن لم يقوموا بحق الاستدلال إذ ليس في وسع كل إنسان الاهتداء بطريق النَّظر والاستدلال لاختلاف الفطن وتباين الطَّبع، ولا سيما لأول مهلة وقد كان الداخلون في الإسلام من الأعراب وغيرهم على عهد رسول الله ﷺ وغيره يدخلون الإسلام ويحسبون بمجرد التقليد، ثمَّ لا يزالون يباشرون بأحوال الدين ووظائف الإسلام ويعملون بها حتى تستمكن بشاشة الإيمان من قلوبهم، فيقوى إيمانهم ويرتص بناء توحيدهم، فهذا النَّوع من التوحيد أقل ما يجزئ لأهل التوبة وإن فتح لهم في زائد عليه فهو أحسن وأكمل، وأمَّا النَّظري فهو ما يحصل من الفهم عند النَّظر في المخلوقات فيستدل بها على الخالق وفي المصنوعات فيستدل بها على الصَّانع وفي المحدثات فيستدل بها على القديم فيتحقّق جواز الجائز ووجوب الواجب واستحالة المستحيل، بقوانين علمية ومقاييس عقلية تفيد القطع بوجود الباري وبصفاته وأفعاله، حتى لا يدخله في ذلك تشكيك ولا احتمال، وليس من شرط هذا النَّوع من التَّوحيد إفصاح لسان كل أحد ممن يدعيه بحجج المناظرة على صحة ذلك، ولا تجويد العبارة عن حقائقه إذ ليس كل إنسان يقدر على الوفاء بالتّعبير عن المعاني القائمة في

نفسه، وهذا النَّوع من التَّوحيد أقل ما يجزئ لأهل الاستقامة، لأنهم قد أحذر إليهم بما زاولوه من أمور الدين، ووقفوا عليه من إيثار الشرع وباشروه من وظائف السنَّة مع ما وصلوه من محبَّة النبي ﷺ وذكره والصلاة عليه حتى قابلهم من ذلك نور ينشرح به الصدر لتدبر معاني التوحيد الاهتداء لطرق الاستدلال والنَّظر ولا شك أن العقل تشحذه نحو هذه، وتصفي مرآته أعمال الطَّاعات ووظائف العبادات حتى يهتدون بذلك إلى سبيل النَّظر والاستدلال، أمَّا الذَّوقي فهو ممَّا لا تفصح به العبارة وربما يقرب إلى فهمه حسن الإشارة ولذلك تركت ما نقله في ذلك الشيخ السَّاحلي غيره من أهل التَّحقيق والله يوفقنا إلى حسن طريق.

واعلم أن أقرب الإشارات من فهم ذلك وما يدل عليه وينبه به نظر فكرك أن أقل درجات للتَّوحيد الذَّوقي أن تحصل في جميع الجوارح الظَّاهرة والباطنة هيبة جلال الذات ورغبة جمال الصفات فيحملان الجوارح امتثال الأمر والنَّهي طوعا طبيعيا خارجا عن كلفة الاستعمال ومشارق الأوقات والأحوال وأن يشاهد الله مع كل شيء وفي كل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء ولا ينجيه منه شيء فأمَّا رؤية الله تعالى مع كل شيء فيستفاد من سر قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة/7]، وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد /4]، وأمَّا رؤية الله في كل شيء فيستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق/ 16] وقيل أن حبل الوريد هو عرق في الدماغ متَّصل بالقلب وحيث كان الله مع بعض الحيوانات أو كلها هكذا فهو مع ما يماثلها في الحدوث كذلك إذ كل شيء فعله وصنعته فيعلم من سر المعالجة أنَّ الصانع كان موجودا قبل صنعته وكل فاعل كان موجودا قبل فعله وأمَّا رؤية الله بعد كل شيء فيفهم من سر قوله تعالى: كل شيء هالك إلَّا وجهه فهو سبحانه باق بعد هلاك الأشياء دائم حي لا يموت سبحانه لا إله إلا هو ثمَّ نشير لدرجة ثانية من درجات التَّوحيد الذوقي، وذلك أنَّه إذا تمكنت هذه المعرفة من قلب المؤمن فإنه يفني نفسه، ويفنى عن كل فان ولا يبقى في قلبه وروحه وعقله وسره إلا الموجود على الإطلاق، ويفنى عن النَّظر عن كل مسبوق بعدم لأنه عدم بالنَّظر إلى ذاته فإذا تمكنت من القلب والعقل والروح والسر وامتزجت بها فيرقى

توحيده إلى درجة ثالثة، تحمله على أن لا يخاف من شيء ولا يطمع في شيء ولا يرجى شيئا إلا القديم الباقي الواحد الأحد الفرد الصَّمد، وأن يكون ذلك منه مقاما راسخا لا أحوالا تحل وترتحل وعلامة ذلك أنه لو وطئ أفعى ونحوها لم يشعر بها وإن لدغته لا يلتفت إليها ولا يتألم من سمها وإن وجد أسدا في حال انفراده فلا يلتفت إليه ولا يفزع منه ولا يبالي بشيء من أموره ويكون في نظره كأنه من الحمر الأهلية، والله أعلم، فهذه الأشياء تشير لحقيقة التوحيد الذَّوقي، وهذا من معناه فاعلمه، والله الموفق وهو الملهم سبحانه، قد ذكر الإمام السَّاحلي رحمه الله كلاما في التَّوحيد الذَّوقي وحصره في سبع درجات تقتضي سبع منازل من منازل السلوك وذكر بعدها أشياء من معنى ذلك فانظره في بغية السّالك في أشرف المسالك إن شئت، والله الموفق، وأما الذكر المناسب لهذا المنزل فهو ذكر التَّهليل، لأن له اختصاص بهذا المعنى قال الله تعالى: فاعلم أنه لا إله إلا الله ومن أكبر الأدلة على أنَّ التهليل يثبت معنى التَّوحيد في النَّفس الدخول في الإسلام به وأنه لا يقبل من أحد الإسلام بلفظ غيره، هذا مع الإمكان، وإلا فالإشارة المفهمة له ممن يكون أبكم لا يستطيع بمخارج الحروف، وإذا تأملت ما ورد في هذا الذكر من الكتاب والسنَّة وجدتها مؤذنة بفتح أبواب أسرار التَّوحيد، فإذا جعل صاحب هذا المنزل وردا من ذكر هذا التّهليل على قدر حاله ولا أقل من خمسمائة مرة ويكون ذلك بكيفية حاله كذلك الاستغفار وغيره من الأذكار، فللمناسبة التي بين الأحوال والأذكار تؤثر قوى في الباطن ينتج منها لصاحب هذا المنزل تحلية بإحدى عشرة صفة حميدة، تنفي عنه إحدى عشرة صفة مذمومة، فيتحلى بالمحمودة تزكية ويتخلى عن المذمومة طهارة، والمراد من صاحب هذا المنزل دفع الخواطر عن فكره جهد استطاعته وقوته حتى تستوي له مؤونة الخلق مع مؤونة نفسه في إيراد الذكر ولا يزال كذلك حتى يعود الذكر يرقى بالذاكر إلى أن يوصله إلى أعلى مقام الإيمان حتى يجري من قلبه مجرى الخواطر التي لا تنفك فينتج له ذلك نتيجة وهي الاتصاف بإحدى عشر صفة حميدة، تنفي عنه إحدى عشر صفة مذمومة.

الأولى: الإرادة وهي إجابة داعي الحق حيث كان من غير خروج عن سبيل العلم ولا عدول عن السنَّة وينفي عن النَّفس وارد الغفلة بالركون إلى الشَّهوات وسد العين عن الفائتات في الأغلب وإلَّا كان بعيد الكشف عن حقيقة عواقب الدنيا وشؤمها.

الثَّانية: العبادة وهي قيام الظَّاهر مع تعلق الباطن بالطَّاعات مع استصحاب الذكر وذلك ينفي عن النَّفس موت العزيمة المؤذن بالحُرمات المؤدي إلى الخسران.

الثَّالثة: الصَّبر ويعني به ما يعم أقسام الصبر في الطَّاعة والمعصية والمصيبة لقول بعضهم الصبر والشكر يشملان جميع وظائف الإسلام إشارة إلى الرغب والرهب وينفي عن النفس الجزع والهلع واللذان يؤذيان الإنسان لعدم محبَّة الله وعدم الخوف منهما وهما ضد الرغبة والرهبة فاعلمهم.

الرَّابعة: الورع وهو صيانة النَّفس في حفظ الحدود بترك ما لا يتقين حليته خشية من الوقوع في المحظور وذلك صيانة التَّقوى وصعود إلى العلم المنجي من اقتحام الحدود ولذلك ينفي عن النَّفس الهلع ويصونها من الطَّمع وكلا الأمرين داع إلى إنكاره وموقع في المحرَّم والمكروه.

الخامسة: الخشوع وهو سكون النفس بهدوء الطباع لواردات الاتباع للأمر استلاما للحكم ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد/ 16]، وذلك ينفي عن النَّفس القسوة والقلب القاسي البعيد من الله لأنها تخمد نار الفكرة وتذهب بطعم العبادة ولذلك ختم الله الآية التي استشهدنا بها هنا وذلك بأن قال تعالى: ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد/16].

السَّادسة: الرغبة وهي التي تبعث الاجتهاد في طلب الحرية وتحمل على التعلق بالمعارف الحقيقية وذلك ينفي عن النَّفس الميل إلى الورع.

السَّابعة: القناعة وهي الاقتصاد والاقتصار على الضَّروري وهو متوسط بين طرفي الزهد والتكاثر والضّرورات تختلف باختلاف الأحوال وذلك ينفي عن النَّفس الميل على الترفه بالفضول.

الثَّامنة: الأدب في طريق العبادة مع الملك المعبود بالتزام العدل بين حالتي الإفراط والتَّفريط جريا على قانون الهدي المستقيم وذلك ينفي على النَّفس التقلب بين الهوى عدولا عن العلم.

التَّاسعة: الاذعان وهو الإصاغة بسمع العقول لأمر الله انقيادا وتسليما وذلك ينفي عن النَّفس معارضة المنقول بالمعقول ولا بينة لمن لا حجَّة لهُ بل لله الحجة البالغة ومن حق المقيد بقيود الأحكام أن يقول سمعت وأطعت واتبعت.

العاشرة: التّهذيب للزوم الحق ومتابعة الهدى وذلك ينفي عن النَّفس الإبابة والشرود عن مشاق وظائف العبادات وذلك يحرم من الوصول إلى محل الصفا.

الحادية عشر: العزم على بذل النَّفس عوضا في رضاء الله في معاملة الله وهو أن يتوكل على الله تعالى فإذا عزمت فتوكل على الله إنَّ الله يحب المتوكلين فقدم العزم وهو تحقيق القصد طوعا وكرها وذلك ينفي عن النَّفس الإجابة لداعي الهوى والمسارعة إلى سبيل الردى والله الموفق سبحانه.

البابُ الثَّاني في مقام الإيمان

اعلم جعلني الله وإياك ممن قام بوظائف التَّصديق ولازم الاهتداء على سواء الطَّريق أن الإيمان في اللغة هو التَّصديق قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ [يوسف/17] أي بمصدق لنا، وهو في عرف الشَّرع يتألف من أصل وهو التَّصديق وفرع وهو العمل بما يقتضيه التَّصديق خلافا للمرجئة، الذين يقولون لا يحتاج مع التَّصديق إلى عمل، وذلك كفر وضلال، والحق الذي لا يعدل عنه ولا محيص عنه أنه لا يقوم الإيمان إلا على دعائم الأعمال الشَّاملة للطاعات، ولذلك سميت الأعمال إيمانا للتلازم الذي بينها وبين التَّصديق، ولأن الأعمال من دلائل الإيمان فلا تقوم إلا به، ولا يصح دونها، وأمَّا مدح الشَّرع بتلك الفروع من كان قائما على أصلها محافظا على شروطها حتى لو كان عاملا غير مصدق لم ينفعه عمله كما لو كان مصدقا غير عامل لم ينفعه شيء من المدح الشَّرعي، خلافا للمعتزلة بهذا الاعتبار، فصح أن يطلق على الأعمال الظاهرة إيمانا، والله الموفق وهو الهادي والملهم سبحانه.

الفصل الرابع
في المنزل الأول من منازل مقام الإيمان وهو الإخلاص

اعلم جعلني الله وإياك ممن أخلص ضميره لربه وظفر باختصاصه وقربه أن الإخلاص هو بداية مقام الإيمان وأول منزل من منازله قال الله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر/3]، وقال عز من قائل: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة /5]، ويعني بالإخلاص هنا ما يعم النيات التي تقوم بها الأعمال وغيرها من الأمور الباطنة. واعلم أنَّ الإخلاص على ثلاثة أقسام: خاص وعام وثالث لهما، أمَّا الإخلاص الخاص فهو ما يتعلق بالنيات المصححة للأعمال وهو عام من جهة أنَّ جميع

المكلفين مطلوبون به بحسب الإمكان فهو فيه درجات وأحكامهم فيه مختلفة وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة /5]، وأمّا العام فهو ما يعم النيات وغيرها من أعمال الباطن وهو خاص من جهة أن القائمين به هم الأقلون وهو المشار إليه في هذا المنزل، وهو تصحيح الوجهة إلى الله تعالى في جميع الحركات والسكنات جرى على سبيل العبودية.

وأمَّا القسم الثالث فهو إخلاص ثالث يختص به أهل النهايات وهو الخروج بالسر عن الأكوان حتى عن تلمح الإخلاص استغراقا في مشاهدة الواحد الحق وسيأتي بيانه في محله إن شاء الله تعالى، وقد جعل بعض النَّاس النية والإخلاص شيئا واحدا، وإن كان هذا يصح من وجه مَّا فالصحيح من كل الوجوه إنما هو شيئان، فالإخلاص غير النية، لكن النية من بعض الأشياء التي تفتقر إلى الإخلاص، أن النية روح الأعمال الظَّاهرة والإخلاص روح الأعمال مطلقا، والنية من الأعمال الباطنة، فصح بذلك أن الإخلاص روح الروح، وذلك أن الباطن يصور صورة ما فيتحرَّك إلى العمل بمقتضاها، إن خير فخير وإن شر فشر، ثم ان جنيت الخير في ذلك لا تخلو في الغالب عن الشوائب، التي منها ما يمح آثار الخير بالجملة، ومنها ما يؤثر فيه نقصا، ولا يعزيه عن الخيرية، وهذه الأعمال كلها التي ذكرنا إنما تفعل بالنية، لأن النية هي القصد إلى الشَّيء والعزم عليه، والإخلاص بخلاف ذلك لأنه يذهب جميع الشَّوائب كلها رأسا ويخلص جميع النيات وأعمالها للواحد الحق بما اقتضته حقيقة الإيمان من تخليص الوجهة إلى الله تعالى وتصفية معاملاته من شوائب الشرك، فهذا أعظم دليل لما ذكرناه من الفرق بين النية والإخلاص، وأن الإخلاص هو روح الروح.

تنبيه: وللإخلاص في هذا المنزل شروط وآداب، **أمَّا شروطه فأربعة:**

الأولى: معنى العبادة في القلب عريا عن واردات الخواطر المنفية للإخلاص استيناسا بما احتوى عليه الذكر من لذيذ المناجاة وترفعا عن دناءات ما يتعلق بالأفكار من ضروب شواغل الآفات بأن يكون ذلك متصلا باتصال ذكره ونسيان مادته دون فتور.

الثَّانيةُ: غيبة القلوب في أعمال الطَّاعات عن الالتفات لغير الله والإعراض عن الأعراض العارية عن الإخلاص حتى لا تمترج الطَّاعات بما يغايرها من المباحات ولا تختلط القربات بما تقتضيه العادات ومهما فعل ذلك تكدر عليه مشرب الإخلاص.

الثالثةُ: الصَّبر على تجرع مرارة ما ينافي الطباع وينافي الهوة من أمور الإخلاص فيربط النفس بقوانين الإخلاص ويحملها على سبيله والمحاسبة على خطواته وإن دقت لأن الإخلاص من أشد الأشياء على القلب وأصعبها على النَّفس إذ ليس فيه حظ تميل إليه من أجله إنما هو خروج عن حظوظها بالرجوع إلى خالقها وهو من مفاتح المراقبة، ولذلك أشار سهل بن عبد الله رضي الله عنه بقوله: أهل لا إله إلا الله كثيرون، والمخلصون منهم قليلون.

الرابعة: عدم المبالاة[1] بغير الله تعالى تعويلا لأنه سبحانه هو المولى الذي يجب أن يكون له الدين الخالص ومن يفعل ما وجب عليه لم يبق له إلا انتظار الملة وهي ورود ألطاف المعارف على قلبه شيئا فشيئا.

وأمَّا آدابها فأربعة:

الأول: الجزع من سلب الإخلاص بسابقة الإهمال فتغير الوجهة وذلك من المقت المستعاذ بالله منه ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

الثَّاني: اتهام النَّفس فيما تدَّعيه من توفية حق الإخلاص لأنَّها ذات نحس ومكر وتغليظ فيما لا يشكل فأحرى فيما يخفى من أمر الإخلاص وما يدق من شعب الشرك وما يخفى فيما يعسر إدراكه ولا بدّ من قوة عقلية وفطنة زكية تبرز حقيقة الإخلاص من بين الأعمال إلى جانبه امحاض الوجهة إلى الله سبحانه.

الثَّالثُ: أن يلجأ إلى الله تعالى بالضراعة ويفزع إلى الدعاء ومرور الأزمان واتصال الأنفاس بإسقاط حوله وقوته في تخليص إخلاصه بالخلاص من شوائب نفسه وخواطر فكره ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور فالافتقار إلى الله تعالى دليل الخلاص ومن ذهل عن شيء من هذا المعنى لم تتخلص عبادته من رق الأوهام.

الرابع: مطالبة النَّفس بالإخلاص في المباحات والعادات مع إحضار نيّة القربة في ذلك التزاما لوظائف العبودية في كل حال ليكون له بذلك مرقى إلى منزل الصدق مع الله تعالى في معاملته في كل الأنفاس وذلك أن المباحات إذا أخلص فيها المقصود هان الإخلاص في العبادات والله الموفق والذكر المناسب لهذا المنزل هو قول لا إله إلا الله محمَّد رسول الله خلافا لمن طبع الله على قلبه فلم يهتد به سبيلا ومكر به شيطانه

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

فأضله تضليلا بأن قال له الشيطان ذكر المحدث لا يفيد ولا يفيد إلا ذكر الله القديم سبحانه وهم الطائفة الخاسرة والزمرة الفاجرة الذين يقولون الإكثار من ذكر النبي ﷺ حجاب عن الله.

قلتُ وقد وقعت لي مناظرة مع بعض أكابر لطائفه الخبيثة بقرية ولي الله تعالى سيدنا عمر رحمه الله عليه بمحضر جم غفير من المسلمين عامتهم وخاصتهم، وكان هو الطَّالب لذلك وتغيبت له في النَّاس، ولازال يبحث علي من طلوع الشمس إلى الزَّوال فحينئذ دل علي، وقيل له هذا فلان وكان فصيح اللسان جريء الجنان قوي المنطق فدار بنا النَّاس وكان مهما تكلَّم يستلذون قوله وينصتون له، فأتركه حين أتكلم بكلمات تبطل له ذلك حتى صار أكثر الناس ينهرني عن جوابه لشدة حلاوة منطقه، فقلت في نفسي هذا لا أقهره إلا بالله وأفوض أمري إلى الله إنَّ الله بصير بالعباد والله ناصر دينه، فسكت عن جوابه حتى تنفس مرارا ولم نجبه بشيء فظن أنه قهرني، وظن ذلك كل من حضر، ففرح بذلك وسر سرورا عظيما، فوفقني الله لشيء يزيد في سكره وغفلته، فأخذت يده فقبلتها ومرادي لو كنت قطعتها، فقلت له يا سيدي الآن قد ظهر الحق وانتفى الشَّيطان، وأردت أن ترشدني كما أرشدت أصحابك الذين هداهم الله بك، فقال حبا وكرامة، وأي سعادة أكبر من هذه، انطلق معي إلى منزلي، فقلت له: هذا أمر هين خفيف كنت سمعته منك وسمعه هؤلاء الحاضرون، فأردت أن أسألك عنه بلسان الإفادة لعلك تجيبني بها تزيل شكي فننتفع به وينتفع جميع الحاضرين فقال: وما ذاك فقلت له: سمعت منك أنكم لا تحتاجون إلى نبينا محمَّد ﷺ في شيء وإنما ها أنا وربي حاضر لا يغيب فتقول: يا رب فيقول: يا عبدي، فقال: نعم وما تنكرون من ذلك أليس نبيك محدثا وهو من جملة خلق الله تعالى، والله خالق كل شيء وإليه ترجعون، فقال سلمت هذا فقلت نعم سلمته وأنا قائل به لكن بقي لي أن نزيد هذا بيانا فقال: وما ذاك؟ قلت له: ولماذا تقرأ القرآن وتحتج بنصوصه وهو إنما أنزل على سيدنا محمَّد ﷺ، فقال: ما قرأته قط ولا تعلمت منه حرفا، ولا أعلم اسمي في اللوح وهو كاذب بذلك، فقلت: فكيف لك بقراءة القرآن عن ظهر قلب من غير تعليم، فقال: بل الشيخ سيدي محمَّد الأندلسي الذي قتل بمراكش في الزمان السَّالف زاره جدي كان عاميا لم يقرأ فضربه بكفه على كتفه فمكنه الله من حفظ القرآن كله بتلك الضَّربة، وكذلك فعل معي جدي، فقلت له: وحيث ينزل عليكم القرآن بأدنى سبب فاطلبوه أن ينزل عليكم

قرآنا آخر غير القرآن الذي أنزله الله على سيدنا محمَّد ﷺ، قولوا له يا ربنا إنا محمَّد نبغضه فأنزل علينا من كلامك قرآنا يشهد النَّاس أنَّه غير قرآن محمَّد ﷺ يا كافر، وَأصحبت هذه الكلمة بطرشة لوجهه، فانتبه الناس وافترقوا فرقا ثلاثة، فرقة تضرب بالحجارة له ولأصحابه، وفرقة منهزمة وهم أصحابه وهو أولهم، وفرقة تجدد الإسلام ويستكثرون من قول لا إله إلا الله محمَّد رسول الله ﷺ، وهم الذين استمالت قلوبهم وكانوا يقهرونني ويسكتونني عن جوابه قبل، فلمَّا فضحه الله وتبين لهم كفره وعلموا أنهم فتنوا جعلوا يجددون الإسلام، فقال قائل من أصحابنا ما أحلاها من قبلة قبلت يده فقطعت رأسه جزاك الله خيره ويرحم الله الشاعر حيث قال:

وكم من يد قبلتها عن ضرور ... وكان مرادي قطعها لو تمكنا

قلت: فلا بدّ من ذكر الله على لسان نبينا محمَّد ﷺ الذي دلنا على ذكره، فلا بدّ من ذكر الدليل والمدلول، ولا يجتمعان في ذكر أفضل من لا إله إلا الله محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فمن الواجب علي أن أتفوه هنا بنبذة تحملنا على الهداية وترفع عنا إن شاء الله الفتنة والغواية، فأقول مختصرا وبالله منتصرا، أن الله عز وجل أودع في ذكر نبيه مع ذكره فوائد وأسرار منها أن رسول الله ﷺ باب عظيم إلى معرفة الله عزَّ وجل فمن قصد معرفة الله تعالى وأتاها من بابها نالها ووصل إليها ومن تعرض إليها من غير بابها حرمها ومنع الوصول إليها، ومنها أن التوحيد لا ينال سره إلا بالإيمان والإيمان لا يصح إلا بإثبات الرسالة فكما يطلب السَّالك بما يحرك عنده قوة الإيمان بذكر التَّهليل كذلك يطلب بما يحرك عنده قوة شروط الإيمان رسالة الدليل ولا أهل التوحيد ومن نظر بتحقيق النَّظر لسر الرِّسالة وجده من التَّوحيد وذلك أنَّ النبي ﷺ لم يكن نبيا ولا رسولا بنفسه بل بسر السر فيه دون غيره وذلك السر هو من الغيب الذي خص به وأهل له قال الله عز وجل حاضا عن الرسول ﴿ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم/11]، ولذلك السر الوحداني الصادر من الغيب وجب التَّعظيم وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء/80]، فجعل الله طاعته في طاعة رسوله، ومنها أنَّ ذكره لا بدّ منه لأنَّه يؤكد اتباعه الذي هو فرض على الأعيان وبه النجاة والخلاص من النيران حسبما وقعت إليه الإشارة قبل في منزل الاستقامة من أن ذكره يقتضي حبَّه وحبه يقنضي اتباعه وطاعته، ومنها حفظ العهد للواسطة بأن يذكر ولا ينسى والنَّبي ﷺ هو الواسطة بيننا وبين الله

والدال عليه ومن حسن العهد أن لا ينسى وأن يذكر كيف وهو لم ينسانا في حياته ولا بعد مماته ولا عند النَّشر ولا في الحشر ومنها أن ذكره صلَّى الله عليه وسلم نور يسطع في أرجاء قلوب محبَّته وذاكريه وأيضا لم يبق مع النور إشكال ولا يوجد مع الضياء ظلام فما انبهم الباطن من أسرار التَّوحيد أو غاب عنه سر معنى العبودية لا شك أنَّ بيانه وظهوره يدركان بذكره صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وبذلك يظهر لك ويتبيَّن أن لذكره عليه السَّلام في كل مقام اختصاصا فاختصاصه في مقام الإيمان بالاهتداء إلى حقائق المعتقدات واختصاصه في مقام الإحسان بالاهتداء إلى أسرار المشاهدات فمن عدل عن ذلك حرم موارد الاختصاص ومن أحله من باطنه المكان المكين بلغ به مراتب التَّمكين فلا بدّ من ذكره صلَّى الله عليه سلَّم في كل المقامات متصلا بذكر الله ومنفردا ليدخل السَّالك في قدم دليله موارد التَّخصيص فقد يدخل الخديم حضرة الملك في قدم مخدومه فيكرم من أجله ويقرب بسببه واعلم أنه قد تقدَّم غير ما مرة أن الراد من الذكر انطباع معناه في النَّفس حتى تتصف بمقتضاه ولا يوصل إلى ذلك إلا بالتفكر والتدبر لمعنى الذكر فإذا أثمر فيه هذا الذكر فينتج له نتيجة. اعلم أن نتيجة هذه الثمرة أن تتصف النَّفس بإحدى عشرة صفة حميدة تنفي عنها إحدى عشرة صفة مذمومة:

الأولى: الزهد، ويعني به خلو الباطن من الميل إلى فان وفراغ القلب من التدبير والتَّقدير في ملك الله وأنك من ملكه تعالى وهو حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم فتوجب لك هذه المعرفة التنزه عن الإشغال بالرزق والمضمون فتتفرغ بذلك لعمارة الوقت بالمهم الباقي الثَّابت وإن كانت اليد معمورة بمتاع حلال فيكون عنده على سبيل العارية المحصنة وتصرفه في تصرف الوكالة الخاصة فينتظر العزل مع الأنفاس وذلك ينفي عن النَّفس التعلق بما يزول وهو حجاب يجلب الأفكار ويدعو إلى الأغيار ويصد عن الأسرار.

الثَّانية: التّوكل، وهو ثقة القلب بالوكيل الحق تصديقا لوعده وسكونا عن اضطراب مع اضطراب الأسباب تعويلا على المسبب لا على السَّبب ولا يقدح في التوكل تلبس الظَّاهر بالأسباب إذا كان القلب فارغا منها حال وجودها وعدمها وقد أثنى الله عز جل على من لم تشغله الأسباب بقوله تعالى: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ الآية وذلك ينفي عن النَّفس الركون إلى الخلق ذهولا عن الحق

والتعويل على الأسباب غفلة عن المسبب والجنوح إلى تأثير العادة.

الثالثة: الحياء وهو تعظيم الله عز وجل بدوام ذكره والتزام أمره ونهيه والإمساك عن الشكوى به إلى غيره وذلك ينفي عن النَّفس التسخط فيما لا يوافق الطَّبائع ممَّا تجري به الأقدار والانبساط الباعث على تضييع الحرمات وتبديل الأوقات.

الرَّابعة: الغناء وهو غناء القلب بسلامته من فتر الأسباب والإذعان لمسالمة الحكم والخلاص من الخصوم وذلك ينفي عن النَّفس الاعتراضات على أحكام الخالق بتعليلات فارغة وشرك خفي وهو لو كان كذا لكان كذا ولو كان عند السَّالكين حرفا مهجورا لجذب لهم مراد الشرك ويدخلهم في دهليز الفضول.

الخامسة: الفقر وهو نفض اليد من الدنيا بسطا أو طلبا وسكوت اللسان عنها مدحا أو ذما وإن كان الظَّاهر يشير إلى الغنى فالمعنى: فكم من فقير غني وكم من غني فقير وذلك ينفي عن النَّفس الإكثار بالتَّأويل ويصونها من موارد الأنكاد والأغيار.

السَّادسةُ: الإيثار وهو إيثار الخلق على نفسه لا بما لا بدّ منه للشَّرع وذلك ينفي عن النَّفس الشح والمقاسة بالمقاشحة ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر/9]، حتى لا يتأسف على فائت ولا يفرح بآت.

السَّابعة: الفتوة وهي التجافي عن مطالبة الخلق مع الإحسان إليهم ولو ببذل السَّلام وتصفية الباطن لهم على كل حال وهي فوق المسالمة ذلك ينفي عن النَّفس تراكم سحاب الأحقاد في سماء إخلاص القلوب وتخاطر سيوف المعاتبة في ميدان حقيقة التّوحيد والانفصال إلى حادثات الأسباب.

الثَّامنة: الشكر وهو إفراد القلب بالثّناء على المنعم الواحد الحق بامحاض القصد والسَّعي من شوائب عثرات الخطرات هذا في السراء خاصة وأعلى من ذلك جريانه في السراء والضراء على حد سواء يتلمح النعم على طي النقم وذلك ينفي عن النفس التنافر عن تلمح حكمة الأحكام والتعافي على استبصار أسرار نظر الوجود بما لا مطمع فيه للعقل.

التَّاسعة: العبودية وهي فوق العبادة ودون العبودية لأن العبادة صادرة عن علم اليقين سبيلها مقام السَّلام والعبودية واردة من عين اليقين طريقها مقام الإيمان وآتية من حق اليقين منهاجها مقام الإحسان فالعبودية تكليف الباطن بأحكام ما وقف عليه القلب من اليقين بما عاينه من حقائق التَّوحيد وذلك ينفي عن النَّفس عوارض الشكوك

وطوارق الأوهام.

العاشرة: الخلق وهو أعلى من التخلق الخاص بمنزل الاستقامة لأن التخلق تفعل وهو طلب لخلق بما لا يخلق إلا عن كلفة وحمل مشقَّة أصله الاقتداء وسبيله العلم وأمَّا الخلق فهو صادر عن ذوق وتحقيق بأن الخلق للموصوفين به في حوز أقدارهم وهم مربوطون بما في طاقتهم محبوسون على الحكم الأصلي فهم عليه موقوفون وأن جميع تعاريف الخلق على اختلافها اقتضتها حكمة نظم هذا الوجود وارتباطه ومع ذلك فلا تتحرك ذرة فما فوقها ولا تسكن إلا بالقدرة القديمة والإرادة الأزلية والحكمة البالغة والعلم الكامل والحياة الدائمة وإذا تحكم هذا المعنى وقام وأثمر الخلق الجميل والعمل الحسن وذلك ينفي عن النَّفس وهن الشَّك وشعب الإشراك.

الحادية عشر: الموافقة ويعني بها استطعام تصديق القلب بالغيوب سكونا إلى الأحكام وذلك ينفي عن النَّفس التّعلق بالأماني وإرسال الفكر في الآمال.

الفصل الخامس

في المنزل الثاني من مقام الإيمان وهو الصدق

اعلم جعلني الله وإياك ممن صدق الله في معاملته فظفر بأوفر حظ من عنايته أنَّ الصدق هو تمكين الإيمان وثاني منازله قال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله﴾ إلى قوله ﴿الصَّادقون﴾ [الحجرات/15]، وقال النبي ﷺ: "إن المؤمن ليصدق أقوى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا"[1]، وليس المراد من الصدق هنا ما تعرفه العامة هنا من صدق اللسان خاصة، إنما المراد به قيام معنى الصدق بالنَّفس الذي يكون عند العدل، وبعد إفراد المعاملات واحدها صدق اللسان فالصدق المشار إليه هنا هو صدق الباطن بتصفية مشرب الوجد في معاملة الواحد الحق ويقال لصاحبه في أول هذا المنزل صادق وفي آخره صديق، وحالة الصدق تنشأ عن كمال الإخلاص وبينهما فريق وهو بالإخلاص يختص بنفي صفات الإشراك والصدق يختص بنفي صفات النفاق ومعناهما متقارب. قال بعض العارفين: الصدق عماد طريق السَّالكين وباب حضرة العارفين قال وإن كان الإخلاص عبارة عن تصحيح عقد التَّوحيد بالتنزه عن دناءات الشرك فالصدق له منزلة الشحيذة للذَّهب تنفي عنه عوارض النفاق وتصفيه من كدرات

(1) صحيح البخاري (2261/5) ومسلم (2012/4).

الأوهام وذلك أن الإخلاص يخلو من مداهنة النّفس ومسامحة الهوى والصدق يذهب المدهنات ويرفع المسامحات ولا يشم رائحة الصدق من داهن نفسه أو غيره ممَّا دق أو جل ولا يكمل للصادق صدقه حتَّى يكون بحيث يموت ولا يستحي من غيره لو كشف عنه وإلى هذا أشار بعضهم بقوله الصدق صحبة التوحيد مع القصد وقيل لأن أبيت ليلة أعامل الله تعالى بالصدق خير من أن يضرب عنقي في سبيل الله فالصدق من أسنى أحوال السَّالكين وأنفعها في الخلاص من عوارض التَّوحيد وهو عبارة عن صفاء معاملة الله عزَّ وجل من امتزاج الخواطر الجلية والخفية يقال هذا صادق الحلاوة وهذا صادق الحموضة إذا صفا طعم كل واحد منهما من شوب وبلغ الغاية في نوعه، واعلم أنَّ للصدق في هذا المنزل شروطا وآدابا.

أمَّا شروطه فثلاثة:

الأول: طرح العلائق القادحة في سبيل الصدق خروجا عن الشواغل القاطعة عن الوفاء بامحاض تصفية مشرب التَّوحيد من غير ترخص ولا تأويل.

الثَّاني: إسقاط حظوظ النَّفس في الوجهة إلى الله تعالى بإخماد نار الأهواء وانقشاع شراب الآمال ركونا إلى نور الصدق وتعويلا على ثلج اليقين وقواما مع الواحد الحق من غير كسر الميزان الشَّرعي ولا عدول عن سبيل العدل ولا خرق لحجاب الأدب ولا إصغاء لحديث النَّفس.

الثالث: تصحيح العزم بإمحاض القصد في معاملة الرب وسداد السعي لموافقة القلب حتى يجتمع القصد والسَّعي على منهاج مقتضى التَّوحيد بتوارد الظَّاهر والباطن على سواء السَّبيل وفاء بصحَّة العزم من غير ارتاء ولا التواء ولا رجوع ملازمة الكتمان على أسرار الرحمان.

وأمَّا آدابُهُ فأربعة:

الأولى: حفظ الوقت من الخواطر وتصفية القلب من هواجس الضَّمائر وتعلقه بعالم السَّرائر.

الثَّاني: تلمح الحكم من مخالفة عاقله وبهيمه وناطقه وصامته في طريق السراء والضراء.

الثالث: اتهام النَّفس مع وفائها في توفية حقوق الخلق من الذرة إلى الفيل وما من إنس وجان وملك صامت وناطق وهي حقوق جاوزت حد الصدق على الحصر وبنور

الصدق يهتدى إلى أصولها وفروعها بملاحظة حق الله في ذلك وحظ الأحوال وخلاص الأعمال.

الرَّابع: ترك الاجتهاد بالتَّأويل حفظا لرسوم القوم من التَّغيير والتَّبديل.

اعلم أن الذكر الخاص بهذا المنزل هو التنزيه، فقد علمت أن المراد بالصدق هو تصفية مشرب توحيد الأفعال حتى يبلغ غايته وتصفيته تكون بطرد الهوام ونفي العلل وهذا هو الذكر الخاص بهذا المنزل سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده، ولا بدّ من الصَّلاة على النَّبي ﷺ مع كل ذكر لتذهب على تأثير الذكر ظلمات الآثار وغيرها بعدد يناسب حال السَّالك، فإذا أدمن على ذلك فإن الذكر يثمر فيه وينتج له نتيجة اعلم أن نتيجة هذه الثَّمرة هي اتصاف النَّفس بإحدى عشرة تنفي عنه إحدى عشرة صفة مذمومة:

الأولى: التَّفويض، وهو آكد من التَّوكل فإنما التَّوكل إنما يكون عند وقوع السبب والتَّفويض يكون قبل وقوع السَّبب وبعده وهو تحقيق للزوم الاضطرار من غير التفات إلى جنبات صفحات الأسباب وذلك ينفي عن النَّفس التَّأثر لأثر الحوادث والالتفات إلى حركات التقلبات.

الثَّانية: الثقة، ومعناها ثلج اليقين ما دارت عليه الأحكام وثبت في أم الكتاب من توزيع الأقسام على الأيام وجريان الأقدار في الوجود وذلك ينفي عن النَّفس تلجلج الأفكار فيما حكمته الأقدار وجرت به الأقلام.

الثالثة: التَّسليم، وهو نزع العقول من شعب التَّدبير فيما غابت عاقبته خلف أستار الغيوب وذلك ينفي عن النَّفس رعونة الميل للهوى ما لعله يفوت فلا يحصل أو يحصل فلا يفوت.

الرَّابعة: الرضى، وهو سكون القلب بجريان الأقدار ونفوذ الأقضية بترك انكماش الباطن لهبوب رياح المكاره وإن عظم أمر الوارد وذلك ينفي عن النَّفس التقلب مع تقلب الواردات والانفعال إلى ما خالف الطباع أو وافقها ميلا إلى المألوف.

الخامسة: اليقين، وهو توطن القلب على كل مضمون وموعود من قبل الحق تعالى وهدوءه من خفقان التَّقلب عند جريان الأحكام حين يسطع فيه نور التَّوحيد وذل ينفي عن النَّفس مقادر الشكوك فيما ضمن وموارد العتاب على ما لم يرد سبحان الله أن يكون ما لا يريد.

السَّادسة: القصد، وهو الإجماع على التجرد عن القواطع والشَّواغل باستنادها لله

تعالى بخفة والقدوم عليه علاقة وذلك ينفي عن النَّفس التواني مع الإلف والتنبط.

السَّابعة: الفهم، وهو نور يضعه الله في قلوب الصديقين يطلعون به على أسرار وحكم وهو دون الفراسة وأعلى من الظَّن وذلك ينفي عن النَّفس كثافة الاستبصار المنزلة عن موارد الخواطر.

الثَّامنة: حسن الظَّن بالله تعالى، وهو رأس بضاعة السَّالكين ولا يصح ذلك مع الغفلة كيف وحسن الظن عن صدق الهمَّة إلى الله تعالى ولا يكون ذلك إلا برؤية جمال أفعال الله تعالى في الغاية التي لا غاية بعدها من الجمال والكمال وقد جاء في الصحيح فيما يرويه النَّبي ﷺ عن ربه عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي» وذلك ينفي عن النَّفس ترك الأفكار من آفات الحدود ميلا مع الاقسام.

التَّاسعة: الحكمة، وهي صادرة عن اعتدال عمود الفهم بفتح أبواب المعاني وحل مقفلات أسرار الخطاب الحسية والمعنوية وذلك ينفي عن النَّفس الخمود على الظاهرية المحضة العارية عن أوصاف الربانيين وهو طرف من طرف الجهل.

العاشرة: الاستبصار، وهو العثور على حقيقة العدل في التَّصارف الإلهية من اعطاء ومنع وقبض وبسط وإماتة وإحياء ونفع وضر وغير ذلك من الأمداد النَّافذة أحكامها في الخلق وقد قيل إذا عاملت الله بالصدق اعطاك مرآة تبصر بها كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة وذلك ينفي عن النَّفس عن تلمح أسرار الوجود وحكمة جريان الأحكام.

الحادية عشر: التَّعظيم وهو تعظيم الحق سبحانه بقطع الشَّواغل عنه وتسليم الحكم له من غير عوض وهذه الصفة تشهد بالصدق وببذل النّفس كله من غير غرض لأن الأغراض وحظوظ النَّفس بدل الأهل جميع الفروع وذلك ينفي عن النَّفس الركون للحظوظ طلبا للأغراض ومدافعة للأحكام بالعلم وهذا ممَّا ينافي الصدق، والله الموفق سبحانه.

الفصل السَّادس

في المنزل الثالث من مقام الإيمان وهو الطمأنينة

اعلم رزقني الله وإياك في الطمأنينة قدما راسخا ومقاما شامخا أن ثالث منازل مقام الإيمان الطمأنينة وهي نهايته قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد/ 28]، والطمأنينة سكون القلب إلى ثلج اليقين

وهو يشبه العيان عار عن الريب والاضطراب في هذا المنزل ينفض السَّالك رجليه من هجوم الغفلة ويجعل في زمام الاختصاص ويشم روائح الوصلة، وهو أول منزل من منازل المراد وأول نسبة ينالها من الاتصاف الملكي، وفيه تهب عليه نواسم حقائق توحيد الصفات وفي أول نزل من منازل مقام الإحسان يكمل له توحيد الصفات حتى لا يرد على منزل المشاهدة إلا بتوحيد الذَّات.

واعلم أن طمأنينة القلب بذكر الله هي غاية مقام الإسلام وهي المعبر عنها بالتَّقوى، وكما أن طمأنينة الروح بحب الله عزَّ وجل هي غايةُ مقام الإحسان وهي المعبر عنها بالمعرفة، وذلك أن القلب إذا اطمأن بذكر الله عز وجل متصلا مع الأنفاس على سبيل الإخلاص ومهيع[1] الصدق، فإن كل حركة وسكنة ظاهرة أو باطنة تعزب عن حقيقة الذكر الذي عمر قلبه، فلا يظهر عليه إلا ما يقتضيه ذكره الدَّائم اللَّازم، وهذه حقيقة الذكر، واعلم أنَّ للطمأنينة في هذا المنزل شروطا وآدابا، **أمَّا شروطها فأربعة:**

الأول: نفي جميع الهموم عن القلب حتى يصير همه واحد للواحد القيوم والهم أعظمه الاستغراق وأقله خطرة واحدة فإذا تصفَّى القلب بالذكر حتى يحل منه محل الخطرات ويعود الذكر جاريا في روحه بالنفس مع ذلك تطمئن لاطمئنان القلب بذكر الله.

الثَّاني: غسل القلب من تباعات الأوهام وتطهره من أثر الهوى فإن منزل المراقبة التَّالي لهذا المنزل لا يأبى إلا الطهارة والتخلق بالأخلاق الملكية حتى لا يبقى عنده تشوق ولا أمل إلا مطالعة جمال الحضرة الربانية ولولا ماله في الذكر من الشفاء من مزعج الشوق لتفطر فؤاده بتصاعد الأنفاس.

الثالث: نبذ هواجس الآراء تعويلا عن الحق واتهاما لنفسه فقد يغير صاحب الطمأنينة بما فتح له من طهارة نفسه فيعول على آرائها وهو بالبقية التي بقيت عليه فينبغي له أن يحترس آراء النَّفس وإن كانت طاهرة مطمئنَّة لأن عوائدها ومألوفاتها لا تنسى فاعلم ذلك.

الرَّابعُ: مراعاة الرسوم الشَّرعية قياما بالوظائف الدينية ويحكم أحكام حكمها في الظاهر والباطن حتى لا يتحرك حركة ولا يسكن سكنة إلا على أصل شرعي وأساس سني

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

قال الله عز وجل: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور/ 63]، وذلك أن منزل الطمأنينة هو مبدأ مطالع أسرار الحقائق فقد يذهل القلب بورود ما يرد عليه من الحقائق عن التلبس بأمر من أمور الشَّريعة وذلك فتنة، ولا يجمع بين الحقيقة والشَّريعة إلا من أيده الله بروح قدسه، ويهتدي بذكر نبيه ﷺ.

وأمَّا آدابها فأربعة:

الأول: الحرص على العمل الظَّاهر والباطن بالتزام الأدب وحفظ الوقت، ولا شك أن من الأدب التَّشمير في طرق العبودية عن ساق الجد وإن كان صاحب هذا المنزل قد شم أول روائح الحرية، فأعظم الناس حرية أعظمهم اجتهادا وأشدهم عزيمة، ولو لم يبق إلا شكر المنعم وإلى ذلك الإشارة بقول النبي ﷺ وقد قيل من تورم قدميه من طول القيام في الصَّلاة: "أفلا أكون عبدا شكورا"[1].

الثَّاني: مباحثة الأنفاس في التَّصفية خشية الفضيحة عند ورود سلطان المراقبة لأنه لا يحمل أعباء المراقبة إلا بباطن صاف من كدورات الخطوب النَّفسانية.

الثالث: ألا يشغله سكون الطمأنينة عن حركة الانتهاض إلى مبادئ الإحسانية فيحصل في حضرة المقربين.

الرَّابع: خمود نار الفكرة بوارد نور معنى الذكر من غير أن يبلغ به مبلغ الشكر والمراد منه أن يرد على معنى الذكر مورد اعتدال من غير قوة اقتدام ولا ضعف تواني إن الله يأمر بالعدل والإحسان ليعلم أن هدية التوحيد في هذا المنزل ربَّما جاءت على فجأة من غير استعداد فيخرق ستر الوقار وذلك من دليل ضيق العطا والكمال أن يتراكم عنده أمواج بحار توحيد الصفات وهو ساكن وإن ضعف عن هذا ففي منزل المراقبة يحصل عليه بسهولة والانزعاج يفشش أسرار الأذكار ويذهب بنشاط الأفكار.

ذكر: اعلم أن الذكر الخاص بهذا المنزل هو الذكر المفرد، ونسبة هذا الذكر لهذا المنزل كنسبة التَّهليل لمنزل التَّقوى، كما يستعمل التَّهليل ليتأنس بمعناه لما يرد عليه في منزل المراقبة وما يعده على سبيل المعالجة بالذكر الذي يؤذن بالجمع ويعرب عن الوصلة ويقتضي القرب، وإن كان هذا حاصلا في مقام الإحسان فينبغي أن يتأنس به، فيقول الله محمَّد رسول الله فيدأب على هذا الذكر بعدد معلوم مقدر بحسب حال

---

(1) اتفق عليه البخاري (380/1) ومسلم (2171/4).

صاحب الذكر، فإذا لازمه صاحب هذا المنزل فيثمر له وتنتج له هذه الثَّمرة.

نتيجة: اعلم ان نتيجة هذه الثمرة هو أن تتصف النَّفس بإحدى عشرة صفة حميدة تنفي عنها إحدى عشرة صفة ذميمة:

الأولى: التَّمكين وهو حالة تتولد عن الطمأنينة، والتَّمكين عبارة عن صحة الانقطاع إلى الله تعالى والخروج عن تعلق القلب بغيره بثلج اليقين الصادر عن التَّوحيد بحيث لا يرى في الأكوان غير الله تعالى مبدئا ومعيدا ونافعا وضارا ومحركا ومسكنا فالوجود بأسره باختلاف صفاته وأحواله قائم صادر عن أمره وذلك ينفي عن النَّفس ثلج بروق الأوهام ويمحو عنها آثار العادة.

الثَّانية: الوجد تأجج نار القلب بقلقلة تعارض عن حمله فيوقظ[1] الروح ليحمل ذلك العارض عنه لأنه من عالمه فتجد الروح تجذبه مبادي أسرار إلى العوالم الإحسانية والمشاهدة الحقيقية فيظفر بأنوارها بقبس ويتخلى من أسرارها بنفس وذلك ينفي عن النفس سنة السلوان ويوقظها من رقدة مقتضى الجسمان وما يعرض قبل هذا مما يشبهه فهو تواجد وما يعرض بعده مما يضارع هذا فهو وجود.

الثَّالثة: البرق وهو طرق أهل التَّحقيق يلمع فيؤذن بالعثور على مبادي نفحات حضرة التّخصيص ويحرك داعي الطَّرفين ويبشر السر بالسرور كيف لا وقد لاح له من جانب طور اللطف نار الوصول وفتحت له أبواب درك الآمال وذلك ينفي عن النَّفس خبث المادة ويطهرها من قذر الهوى ويولجها في روض السماء.

الرَّابعة: الأنس وهو الكشف عن حقيقة مبادي توحيد الصفات وهو إن كان أنسا فيقل معه الاصطبار ويثقل حمله على القلب لاختلاف النسبة ولأجل هذا لم يف هذا المنزل بتخليص هذا النَّوع من التَّوحيد وقد ضل كثير من الناس في هذا المنزل لهذه الحالة وخلعوا أثواب العلم والخلق من قيودها لضعفهم عن حمل هذه الوظيفة الأنسية ولذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة وذلك ينفي عن النَّفس الانقباض ممَّا يخالف الهوى والامتعاض مما لورود ما يضاد الطباع ويقطع العادة.

الخامسة: السَّكينة وهي خاصية من خواص الطمأنينة وإن كانت للعارف سكينة

---

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

أخرى فهي فوق الإشارة وهذه تفصح عنها العبارة قال الله عز وجل ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح/4]، فالسَّكينة تقتضي كمال الإيمان ويفضي إلى الإحسان وهي أول درج من أدارج الولاية التي تورت عن الحكمة وتشير إلى نكث الحقائق حين تهب بها نواسب لطائف الحق فيروج لها القلب ويستجيب لداعيها الروح وذلك ينفي عن النفس سراب الخطرات القادحات في المراقبات وتمحو منها الآثار الطّبيعية.

السَّادسة: الهمَّة وهي عبارة عن غلبة الانبعاث إلى حصول الأمل خالصة من شوائب الالتفات لغيرها ترقى بصاحبها عن طلب العوض واعتبار الدرجات بما لاح له من أنوار توحيد حقائق الصفات وذلك ينفي عن النَّفس الرضى بالأدنى عن الأعلى والنفور عن التضمن بقاءها وتهتيكها المؤذن بصحتها.

السَّابعةُ: الفراسة وهي من ثمرات غرس الإيمان ومن الإلهام وذلك دون الكشف فتصدر عن نهاية الإيمان لكن لا تخلو عن شائبة شك بما بقي في القلب من آثار التقلب بخلاف الكشف الذي هو من خواص الروح وحين لم يبق فيه من طبع الجسم أثر فالفراسة سطور تونية تلوح من جنبات عرصات التَّحقيق يضعف بصر البصيرة عن الإحاطة بعين الخبر عنها فهو وإن علم شيئا فبغلبة ظن قاصرة عن القطع وإلى ذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلَّم: «لا تكاد فراسة المؤمن تخطئ» وذلك ينفي عن النَّفس الغموض عن تلمح الأسرار والعجز عن الاكتيال بمكيال أهل الوفاء.

الثامنة: العلم ويعني به هنا العلم الخفي الثابت في قلوب أهل الطَّهارة والرياضة الخاص بأصحاب الهمة الشَّريفة وهو مؤذن بمبادئ عين اليقين معرب عن مبادئ حقائق توحيد النعوت ولا يدرك إلا بطمأنينة القلب بذكر الله وتيسير تعلم الرسوم وذلك ينفي عن النَّفس الجهالة بوارد الحكم والتَّعامي عن بوارق أسرار التوحيد.

التَّاسعة: الصفا وهو البراءة من الكد بسقوط التلوين ويعني به هنا صفاء الحال التي بها تبدو شواهد التَّحقيق وتؤذن ببروق المراقبة وتنفي غلق الجسم وذلك ينفي غلق الجسم وذلك ينفي عن النَّفس التّبط مع كدرات الوهم والالتفات لشواهد الرسم.

العاشرة: النّفَس بفتح الفاء وهو باب يلج عليه السَّالك في هذا المنزل يشرب منه على ساحة المراقبة التي هي بداية مقام الإحسان ويسمَّى نفسا لما فيه من ترويح السَّالك من ضغطة حجاب الغفلة بسراج مبادئ أنوار الوصلة الاختصاصية وذلك ينفي

عن النَّفس غمة الكمد والعقود على الغيبة عن الرصد.

الحادي عشر: الذكر ويعني به اتصال حقيقة الذكر في القلب مع الأنفاس مخلصا من وهن الغفلة يعني الحضور وهو الذكر الخفي القلبي وهو المؤذن بامتلاء القلب من ذكر الله وتهيئه إلى حلول النور الصمدي فيه وما تقدم من سلوك ما مضى من المنازل فيبلغ إلى هذا المقدار من عمارة القلب بالله وذلك بداية لما يرد عليه الروح من مقام الإحسان لانقلاب القلب عن التقلب والاصطبار إلى السكون والثبوت وذلك ينفي عن النَّفس دخان ظلم الغفلة وزكام هوى الاضطراب.

الفصل السَّابع

في المنزل الأول من مقام الإحسان وهو المراقبة

اعلم جعلني الله وإياك ممن رزق أحوال المراقبة، وأن يدخلنا في زمرة أوليائه وحزب أصفيائه، أن المراقبة هي بداية مقام الإحسان، وأول منزل من منازله، قال الله عزَّ وجل: ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب/52]، والمراقبة تمكين الروح باطلاع الله عليه فيلازم الوجهة يرتقب كشف الحجاب عن وجه القلب لتتصل المراقبة بالمراقبة ولا مطمع في هذه المراقبة لمن بقيت عليه بقية من هون نفسه، لأن سببها مراعاة القلب وحفظ الأنفاس مع الله تعالى نعم قد تطلق المراقبة باعتبارات أخر ترجع إلى المحاسبة إذ لا يكاد يخلو منزل من منازل السَّالكين عن شيء من معاملة، ومرادنا هنا بالمراقبة ما يصدق عن علم صادر عن تصديق ثابت وهي المراقبة الخاصة بأهل مقام الإحسان الصادرة عن ذوق كشف واطلاع، لأنها مراقبة مطالع شعاع شمس المشاهدة في أفق التَّوحيد المبين مطالعه من عين السبق وتلمح إشارات الأزل وهي من مبادئ الوصلة وعلامات القرب، قال بعض العارفين: من لم يحكم المراقبة بينه وبين الله، وقد سئل بعضهم عن المراقبة فقال: مراعاة السر بملاحظة الحق مع كل خطرة، وهذا أبين الوجوه كلها فاعلمه، واعلم أن محل المراقبة من الإحسان كمحل الإخلاص من الإيمان، ولما نال القلب بالطمأنينة من العمارة بالله ما نال، قيل للروح قد آن لك أن تصفى مشاربك وتقرب منه مطالبك فراقب مولاك عساه يتولاك، فتظفر بمشاهدته فهو حاضر معك، قريب منك، وإن صفى سرك فهو موضع نظر الله عزَّ وجلَّ منك، واعلم أن المراد من تصفية الروح هو أن يعود إلى حالته الأولى من الطَّهارة، فيصير كالمرآة بحيث لا يخفى فيه شيء من الحقائق، ولم يبق هنا من حجب الروح

التي تصده عن الكشف والأعلام والمشاهدة غير عيش مراؤها، تولدت عن الهوى كآثار الجراحات، فهو وإن ذهبت أوهامه، وبرئت أسقامه، ولتلك الآثار تأثير في التثبط عن النفوذ لما بقي من عيش أوهام الإلف بمباشرة عالم الجسم حتى ضعف بصر البصيرة عن درك عرض فإذا زال العيش وذهب الآثار ووقف على عين الخبر فيشاهد من الحقائق الإلهية والأسرار الأزلية والألطاف الجبروتية ما لم يكن إليه قبل ذلك سبيل وإن وافقه الإسعاد الاختصاصي والإمداد الإلهي ففي غاية منزل المراقبة يدرك المراد، ولا الخبر كالعيان، فلا يزال يراقب أسرار الغيب في مرآة التَّحقيق بما يقتضيه ذكره بناء على مقصده حتى يزول العيش ويزول الغبار، وتحصل غاية التصفية عنها تتجلى له عرائس الحقائق على ما هي عليه سافرة عن وجه الوصلة، وما لا فلا، وبالله التَّوفيق. اعلم أن لهذه المراقبة شروطا وآدابا. **أمَّا شروطها فأربعة:**

الأول: القيام بجميع حقوق الله تعالى سرا وعلانية خالصة من الأوهام صادقا من الاجتراء سالما من الدعاوى فحرام على من يلمح بارقا من بروق الهوى بعين الطَّبع أن تستطيع له بروق الأسرار لأنَّه قد تغير محل الاطلاع.

الثاني: استرسال الروح في تلمح علمه إعراضا عما سوى الله تعالى لأن أدنى فتنة من الالتفات إلى غير الله حجاب عن معنى ما ينظره من هبوب روائح أنفاس المشاهدة فالمطلب جسيم والأمر كبير والمرام عظيم ولذلك عظم سبب ذلك وهو تصفية الروح فهو أشد غصة من الموت لخفة تعلقات الروح بحيث إلا بعد الاختصاص.

الثالث: إقامة رسوم الشَّريعة أحسن إقامة فهي شعار أهل العبودية وهي الوسائل إلى ذكر الحقائق الإلهية ومن ظن أن ذلك ممَّا يستغنى عنه عند مواد التَّحقيق فهو مغبون في صفقته مفتون في وجهته راض بالحرمان والهوى ومن علامات صدق أهل الاختصاصات في استغراقاتهم الحفظ عليهم في إقامة الرسوم الشَّرعية كما أن من علامات الخذلان حل اليد من عروة الشَّريعة عند ورود الحقائق رزقنا الله من حفظه وكلاءته مما يحملها على منهاج العارفين.

الرَّابع: التَّجافي عن الإشارات الواردة عليه من مراقبته والإعراض عن تلمح لائح ولحظ لامع أو طالع لأن ذلك شغل شاغل عن المقصود وحجاب عن المراد وتلمح الروح شيئا من ذلك أو سكن إليه فتلمح علة فيه لتعلقه بأيسر البروق وميله إلى البشر ولو صار فلكان خيرا له فما بعد البروق إلا شمس المشاهدة ولا شراب إلا عذب الوصول.

وأمَّا آدابها فأربعة:

الأول: قوة المباعثة في تصفية الروح بشدة عزم وحسن هدى حالا وقصدا عن بقايا الأوهام.

الثَّاني: الإعراض عن عالم الحس بالمعنى إن لم يكن بالحس جملة من غير تفصيل مستعينا على ذلك بالخلوات والسهر والجوع من غير هلكة وتواصل الهمة مطلقا بالذكر الخاص به.

الثَّالث: الكتم لما يظهر ويلوح من مبادئ الأسرار مع الروح عن الالتفات لشيء ممَّا وقع به الكتم علما بأن المطلوب وراء ذلك كله لكن كتم الأسرار من علامات الأحرار وهتك الأستار شعار الأشرار.

الرَّابعُ: ملازمة الانكسار والخضوع لحفظ الأدب في المحاضرة القدسية لأنَّهُ قادم على حضرة تدق فيها وظائف الأدب وتخفى فيها هواجس الأسرار وحفظ الأدب من شيم عبيد الحضرة والخضوع من صفات من خرج عن الأكوان عند المنكسرة قلوبهم من أجلي ولا يحمله على هتك ستر الأدب مما يهب عليه من نفحات القبول فيكسبه بسطا ولا يليق بحضرة المشاهدة من قام لوظائف العبودية حتَّى لم ير مع الله غير الله تعالى وبالله التوفيق.

ذكر مناسب لأهل هذا المنزل: اعلم أنَّ الذكر الخاص بهذا المنزل الدال على نهاية توحد الصفات لأن المنفرد يشعر بالخروج عن المخلوقات والتجرد عن الأكوان تعويلا على الخالق وركونا إلى المكون الحق ولما كانت صفاته تعالى قديمة قائمة بذاته كان الذكر الدَّال على الذَّات هو الدال على الصفات وهو الاسم العظيم فلم يكن بد من استعماله من أول منزل الطمأنينة إلى ما بعده لكن تختلف مقاصده باختلاف المنازل ففيه نقصد كل منزل بالإشارة إلى ما يختص به من الأسرار والحقائق ولم ننقل في هذا الكتاب شيئا من المقاصد ولا الثمرات ولا الوصايا ولا العلامات ولا العوارض ولا الكرامات لعدم متعلقاتها فن وجود السالكين والمسلكين فرأيت السكوت عن ذلك أولى من الوقوع فيه لأنه من باب الدعوى والعياذ بالله منها، ومن أراد ذلك فليطالع كتاب بغية السَّالك في أشرف المسالك فيجد فيه جميع ذلك وجميع أدعية المنازل في آخر ذلك الكتاب فانظره، وأمَّا اشتغالنا بذلك هنا فهو من الاشتغال بما لا يعني.

فإن قيل: وما ذكرته في هذا الكتاب من المنازل وأذكارها وشروطها وآدابها ونتائجها المتضمنة جميع الصفات المحمودة والمذمومة وهي تسع وتسعون صفة محمودة وتسع وتسعون صفة مذمومة وأتيت بها كلها مشروحة مبينة بذلك أيضا من الفضول والاشتغال بما لا يعني، إذ جميع ذلك من وظائف أهل السلوك بالكلام، فأقول جوابه أنّني ذكرت ذلك في أول هذا الباب أعني الباب الجامع واشترطت هناك ذكر ما نذكره وما لم يذكر هنا وأثبت فيه هنا فهو من باب التبرعات ووجه ذكر ذلك هنا ووجه السكوت عما هو مسكوت عنه أننا لم نزعم بانقطاع طريقة السلوك بالكلام والتأدب بما تضمنته جميع هذه الأوصاف قد انقطعت منذ سنين كثيرة ولم يبق إلا السلوك بالهمَّة والنَّظرة، فلذلك جلبنا منها هنا أي من تلك الأمور ما يوافق السلوك بالهمة واعترضت صفحا عمّا يوافق السلوك الكلام لأجل ما ذكرناه والله أعلم، ولنرجع إلى ما كنت بسبيله فأقول: اعلم أنَّ الذكر الخاص بهذا المنزل وغيره إلى آخر المنازل هو لا إله إلا الله محمَّد رسول الله، بكيفية تناسب حال الذاكر بحيث لا يكثر العدد فيمل، ولا يقلله لئلا به يخل، خير الأمور أوسطها، فإذا لازم ذلك المريد ودأب عليه فإنه يثمر له ثمرات نتائجها خذها هنا مبينة. اعلم ان نتيجة هذه الثَّمرة هي اتصاف الروح بإحدى عشرة صفة حميدة تنفي عنها إحدى عشرة صفة مذمومة:

الأولى: العطش وهو بمأمول ويعني بمأمول التجلي الذي ما دونه سحاب هوى ولا حجاب طبع ولا بعده انتظار وذلك ينفي عن الروح عرائس الطَّبع لتعلق الإلف وهي علة في المراقبة.

الثَّانية: الشَّوق وهو هبوب الروح إلى غائب أو ما في معناه وهو الشَّوق إلى الله عز وجل بما تقعد في الروح من معنى توحيد صفاته حتى يعظه ما سواه وذلك يرقى بالروح عن القنوع بالذَّوق حياطة على الطباع من تدبيرها لوارد الحق للضعف والبشرى.

الثَّالثة: القلق وهو فرق من اليأس وضيق صدر لتوقع الجنية كذلك المراقب لا يزال الأنس يطول عليه مع اللحظات فإن منتظره عظيم وأوله حفيل يعيل دونها الصبر لا سيما إذا قدم بشير التَّجلي والكشف عن أنوار الجميل وذلك يرقى بالروح عن القنوع بالأطلال والوقوف مع الخيام.

الرَّابعةُ: الهيمان وهو إذهاب بالروح عن التماسك بإلف غيره وهو أصعب حالا

من الدَّهش الذي يكون بالمشاهدة لأن الدهش يصدر عن مقتضى توحيد الذَّات صدمة واحدة تهدم باقي الأوهام وتخرج الروح عن مقتضيات الإسلام والهيمان كون في ورود ما لا طاقة للروح بتصوره واستبصاره من تلاطم أمواج حقائق توحيد الصفات ببروق النور وتوالي الأسرار وذلك يرقى بالروح عن التماسك بعصا المقاوات للواردات.

الخامسةُ: الذوق وهو استطعام مبادئ الاتصال في مبادئ الجمع الى موائد القرب لكن ليس من ذاق كمن تملأ فالذَّوق نهاية المراقبة وبداية المشاهدة وذلك يرقى بالروح عن الصَّوم عن مذاق الأبرار والإمساك عن تلمح بوارق الأنوار والاتسام يسمى الانقطاع والاخلاد عن الارتفاع.

السَّادسة: اللحظ وهو تلمح مسترق على خجل ملاحظة نور الكشف وإذا تمكن اللحظ أفضى إلى المشاهدة باللحظ يستقيظ وستار الروح إلى روح الوصال وذلك يرقى بالروح عن الذهول بمقتضى الجسم عن أسباب الرقي إما قصدا وإما طبعا وكلاهما علة في المراقبة.

السَّابعة: الوقت وهو أعلى من البرق ومع ديموميته فهو مشرف على الجمع وبداية لحال الوجودين اللَّذين في منزل المشاهدة ونعني بالوقت هنا ما يغشى المراقب من أنوار جمال الحضرة القدسية أوقاتا فتملكه ثم تعيده إلى نفسه أوقاتا وذلك يرقى بالروح عن الاستمرار على رعي الرسوم والوقوف على أوهام مقتضيات الجسوم بقطع نياط العزم وعثار جواد القريحة.

الثَّامنةُ: الفناء وهو المحو عن الحس بسبب إشارات المكاشفات وهي مباديها وأوائل ناديها استجابة لمناديها وصحته أن لا يحس بشيء من عالم الحس ولا يشعر بعلاقة من علاقة الجسم مع الحفظ في إقامة رسوم الشَّرع وذلك يرقى بالروح عن التخبط في بحار الحيرة عن النفوذ إلى ساحل الكشف.

العاشرة: التَّجريد عن مقتضى آثار الأوهام طرحا لتلمح الشَّواهد وانخلاعا عما يشغل الروح عن أمله بما ناله من عين الكشف الموصل إلى كشف اليقين وذلك يرقى بالروح عن التلبس بثياب التفرقة والتَّماسك بربة العوارض.

الحادية عشر: الخلاص وهو الانتفاض من قيود الهوى واعلال الأوهام بلوغا إلى مبادي عين بأحكام التصفية والمبالغة في الروحانية وذلك يرقى بالروح عن عين

الجسمان وظلام الهوى والله الموفق سبحانه.

الفصل الثَّامن

في المنزل الثَّاني من مقاصد الإحسان وهو المشاهدة

اعلم يا أخي أشهدني الله وإياك سبيل المشاهدة، ولا حجبنا عنه بأسباب المقاطعة والمباعدة، أن ثاني مقام الإحسان هو المشاهدة، وهي تمكينه قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق/37]، والمشاهدة عبارة عن وجود الحق من غير ريبة ولا تهمة ولا دهشة، وذلك أن الروح إذا تطهرت وتصفت من جميع آثار الأوهام حتَّى لا يبقى فيها غير السر الإلهي المصون القدسي انجلت مرآته من غبش أنفاس الأوهام وانفتحت سماؤه من غيوم كدرات الرسوم وانقشع غبار مألوفة الجسوم فعند ذلك تشرق شمس المعرفة ساطعة الأنوار وتلوح دلالة المشاهدة باهرة الأسرار فيتجلى الحق سبحانه لمرآة الروح من غير تجديد ولا تكييف ولا تشبيه ولا إحاطة ولا مقابلة، وإنما هي بروق أنوار العظمة تتتابع وتتوالى وتتوارد على مرآة الروح فتفيده يقين العيان، قال بعض العارفين وقد سئل عن المشاهدة: كما لو قدرنا اتصال البروق وتواليها في الليلة الظَّلماء فتشاهد الأشياء كما تشاهد بالشمس الضاحية، فكذلك الروح إذا توالت عليه أنوار التجلي فتلوح له أسرار الملكوت والجبروت فيظهر محو اليقين قال الله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور/35]، وليس في وسع العبارة ما يعبر به مثلا للمشاهدة أبلغ من هذا المثال مع أن الأمر أعظم وأجل وأكبر من أن يعبر عنه ولا حرج في ضرب المثل الأعلى بالأدنى ومنه قول الله عز وجل: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور/35] إلى آخر الآية قال بعض مشايخ هذه الطَّريقة: لا يصح حال المشاهدة لمن بقي فيه عرق قائم يريد نهاية التَّصفية قلتُ أمَّا رؤية الله تعالى بالأبصار في الدنيا فلا تجوز لكونها ممتنعة لكون الفاني لا لرؤية القديم ولذلك قال تعالى جوابا لموسى عليه: ﴿ لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف/143] يعني في دار الفناء، وأمَّا رؤية الله تعالى في الجنَّة فثابتة بالكتاب والسنة، لأن الدار دار البقاء، وعين المؤمن فيها باقية لا تفنى، فيرى الباقي بالباقي وهذا أقوى دليل في ذلك، وأمَّا ما نقله الساحلي في بغيته عن ابن فورك حيث حكى في رؤيته تعالى في الدنيا بالأبصار قولين بالمنع للأكثرين وبالجواز للأقلين، فلا أقول إلا بالقول ولا أحكيه عنه، وانظره فيه إن شئت ووجه الرد على القائل بجواز الرؤية حيث لم يعطها الرسول بعد سؤاله

إياها كيف يعطاها الولي مع أن أعلا رتبة الولاية دون رتبة النبوءة، وهذا برهان قاطع مسكت والله أعلم هـ قال الساحلي في البغية: وأمَّا رؤية الله تعالى في الدنيا بالبصائر فالأقوى والأصح أن ذلك جائز، قلت: ومع جواره فلا تدركه تعالى البصائر كما لا تدركه الأبصار لأن البصائر أيضا محدثة، والمحدث لا يتوصل لماهية القديم ولا لكنه ذلته فاعلمهُ، ثمَّ قال بخصوصية أهل المشاهدة التي نالوها بالعناية الإلهية ونهايتهم إلى بلوغها إنما هو بالسَّابقة الأزلية، وذلك أنها سطوع أنوار كما ذكرنا فهي فيض على أرواحهم من نور الله تعالى فتقوم لهم مقام العيان في حصول ثلج اليقين، وهو الذي أشار إليه الصديق رضي الله عنه بقوله: ولو كشف الغطاء ما ازددت يقينا، مع ما ينكشف لهم من أسرار الملك والملكوت ويطلعون عليه من حجاب الجبروت فيما يفيدهم ذخائر المعارف ويكسبهم مواهب الولاية، وما يرى في كلام القوم من قرب ووصال ومشاهدة ومعاينة وتجل وكشف وجمع فإنما يشيرون بذاك إلى التّخصيصات التي تدرك بأنوار المشاهدة، وتؤذن برفع الدَّرجات في مقامات أهل الولاية، وتعرب عن الاطلاعات على العجائب القدسية والمواهب الجبروتية، التي لا تدرك إلا بغاية التَّصفية والبعد عن عالم الشَّهادة، لأنَّ عالم الشهادة وعالم الغيب ضدان، فيحسب البعد من أحد الضدين يكون القرب من الضد الآخر، وتكفي هذه النبذة في رفع الإشكال العارض عند سماع مصطلحات القوم في المشاهدة، وبالله التوفيق.

واعلم أنَّ لهذا المنزل شروطا وآدابا، **أمَّا شروطه فأربعة:**

الأوَّل: اصطلاح الروح على الموجودات خطيرها وحقيرها ظاهرها وباطنها أولها وآخرها بنظرة واحدة فيرى صنائع العرش وما احتوى عليه وإن عظمت وكثرت في محل الاعتبار كالجزء الذي لا يقبل القسمة ولا الحركة ثمّ يغيب عنها في عظمة الموجد لها مع بقائها على عظمتها وكثرتها ولا يمكن الوصول إلى حقيقة المشاهدة لما فيه من التّهيئة حين يدرك تلك الموجودات على ما هي عليه من الكثرة والعظمة ثم يمحقها الاضمحلال فتتلاشى في جنب المشاهدة حتى لا يبقى إلا القائل لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار.

الثَّاني: الاتصاف بصفة استهتار بسر التَّوحيد وهو المشار إليه في الحديث بقوله صلَّى الله عليه وسلّم: "سبق المفردون"، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال:

المستهترون[1] بذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون خفافا"[2]، وهذه الإشارة إلى بلوغ الغاية في تصفية الروح، وهو الذي يعبرون عنه بالخلاص، الذي ثمرته معنى قوله صلّى لله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه تعالى: "اني اطلعت على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري كنت سمعه الذي يسمع به "، وهذه حقيقة الرؤيا في سر المشاهدة.

الثَّالثُ: حفظ الرسوم الشرعية والأحكام الدينية لأن هذا المنزل لا ينال مع ترك شيء من الرسوم الشرعية ومن ادعاه وله تضييع لشيء منها فهو كاذب أو مغررو مخدوع على من لم يصحبه الحفظ الإلهي في إقامة وظائف الشرع حال استغراقه وصحوه الورود على مواد التَّخصيص لأنَّ ذلك علامة المقت والحرمان.

الرَّابع: رفع أوصاف العادة ونحوها من جميع ما يقدح من المواصلات وليس لصاحب هذا المنزل في هذا المحو سبب ولا إرادة بخلاف ما يكون من المحو في غيره من المنازل لأن المشاهد ونفسه موصول بربه يمحو الله ما يشاء ويثبت وغير المشاهد لا يخلو من شعور وهذا المعبر عنه بالسَّبب والإرادة إذ لكل صاحب منزل محو وإثبات بحسب منزله فمنهم ممحو بربه عن نفسه ومنهم ممحو بنفسه عن ربه وأمَّا صاحب المشاهدة فهو ممحو من شاهده بإثبات الاتصال وهي عبرة المحو ولذلك يسمون هذا النَّوع من المحو محقا لبلوغه الغاية في المحو المحمود وهو التَّمكين من الجمع وخروج الانكاد من أودية المعرفة لعدوله عن الشّواهد وخروجه عن العوائد.

وأمَّا آدابها فأربعة:

الأول: الحياء من الحق بالحق هيبة ووجودا وإفرادا بطرد طوارق الاعتدال عن الروح ونقل طرق الإشارة بالانبساط والانقباض ولا محو إنما هو حالة عزيزة الوصف خطيرة النَّعت تجل عن التكييف وتعز عن التَّعريف.

الثَّاني: الثبوت عند أول الواردات بتهيئة الروح للمشاهدة من مقاوات ليتقوى بالثبات عند بدايتها لما يرد من أسرار نهايتها ومن ضعف عن حمل البدايات لم يقوَ على حمل أعباء النهايات.

الثالث: الرجوع كلما ضعف الروح عن حمل مؤونة واردات المشاهدة لأنها لا

---

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

(2) رواه مسلم (2062/4).

تقتضي المكث والديمومة لا سيما في البداية عدولا عن الهلكة لأن حالة التجلي لا تحمل قوتها وعار عن جميع علق الجسم كثيرها وقليلها خطيرها وحقيرها فلا بدّ له أن يبقى على انصباغ البشرية بعض ما يستديم به بقاء الجسم بالرجوع إلى عالم الحس عند تجلي الروح من أسرار المشاهدة إذ لا صبر له على استدامتها في أول الأمر حتّى إذا تمكن سهل عليه المرام.

الرَّابع: عثور الروح على حقيقة نفسه حصل على تمكين سر المشاهدة وإن لم يقف على حقيقة نفسه لم يكمل له أمر المشاهدة وإلى هذا الإشارة بقول النَّبي ﷺ: "من عرف نفسه عرف ربه " فبقدر ما يعجز عن معرفة نفسه يفوته من معرفة ربه وإن كان للحديث محمل غير هذا أعم من هذا لكن هذا الخصوص أولى به وأقرب وبالله التَّوفيق.

ذكرٌ: اعلم أن الذكر المناسب لهذا المنزل هو الاسم العظيم مفردا، فهو أخص الأذكار به وإنَّما كان استعماله في منزل الطمأنينة ومنزل المراقبة لتعلق معناه بتوحيد الصفات من جهة أن الصفات قائمة بالذَّات، وذلك أن الاسم العظيم يدل على الذَّات المقدسة من حيث هو اسم الله العظيم وذاته وحقيقته وللإفراد اختصاص بحالة الجمع، ففي الطمأنينة يشير إلى الجمع من بعد وفي المراقبة يشير إليه من قرب، وفي المشاهدة يفصح عن الجمع نصا جليا واختلاف هذه المآخذ باختلاف المقاصد بالإفراد ينسب الأذكار للتفرد للقبض من حال الجمع بمعنى توحيد الذَّات بالروح في هذا المنزل نواهي بمعنى الاسم العظيم مستغرق في مدلوله من غير التفات لسواه متصلا مع الأنفاس، فإن داوم هذا الذكر بعدد متوسط باعتبار حال الذَّاكر، فيثمر له ثمرات تنتج له نتيجة.

اعلم أن نتيجة هذه الثمرات اتصاف الروح بإحدى عشرة صفة جيدة، ترقى بالروح عن إحدى عشرة صفة دونها، فإن قلت: التَّحلية والتزكية راجعتان إلى حال التَّصفية وقد قلت أن المشاهدة لا تكون إلا بعد كمال التَّصفية فالجواب أن كمال التَّصفية هي الروح في أول منزل المشاهدة لكن لا يذلل الروح مرتقيا في المعارف إلى ما لا نهاية له وتصفيته تزيد إلى ما لا نهاية لها، وأمَّا قولنا المشاهدة لا تكون إلا بعد كمال التَّصفية، فالمراد به بلوغ المقدار الذي تحصل عنه المشاهدة مع أن التَّصفية لا غاية لها في الحقيقة، كما أن المعارف لا غاية لها وكل معرفة لا تبلغ إلا بما يناسبها من التَّصفية

وإن كثرت المعارف وتضاعفت، وذلك من غير حصر ولا نهاية فلْنرجع إلى ذكر اتصاف الروح في هذا المنزل بإحدى عشرة صفة حميدة:

الأولى: المحبَّة ونعني بها المحبة الخاصة النَّاشئة عن المشاهدة بالمحمود فليست محبَّة الخير كمحبة الضار وهي التي تقطع العبارة بتدقيق الإشارة من غير عثور على كنه ولا ماهية ولا وقوف مع نعت ذلك يرقى بالروح عن القنوع بما يقتضيه العقل من المحبة لتوالي الإحسان وإذ ليس الحب للذات كالحب للصفات.

الثانيةُ: الدهش وهو تأثير عن المحبَّة عند صولة الإيصال وصدمة التجلي بنور القرب الواقع لتشوف العيان وذلك يرقى بالروح عن الركون إلى شوق الخير إذ ليس الخبر كالعيان.

الثالثة: الفناء التَّام وهو المعبر عنه بفناء الفناء وهو فناء عن الوجود وعن شهود الفناء للفناء مع الحق بعين الجمع وذلك يرقى بالروح عن الاستغناء بفناء شاهد العيان الحاصل له منزل المراقبة.

الرَّابعةُ: السكر وهو ناشئ عن المحبَّة وهي حالة بين العلم والفناء لكنها أقرب إلى الفناء منها إلى العلم وذلك عند انفصال وارد الاتصال وصدق هذا السكر تمحصه في التَّخلص من شوائب الحياة إلى التَّعظيم وصفاؤه بالشوق إلى التَّمكين وملازمة السرور بحق اليقين وذلك يرقى بالروح الهيمان الذي أصله الحياة في ميدان المراقبة.

الخامسة: المكاشفة وهي بلوغ لما وراء الحجاب وجودا من حقها الاستدامة فإن القطع عن حق اليقين لا يكون فيه انقطاع بخلاف الإلهام والفراسة لتصورهما درجة القطع والمكاشف عن حق التَّحقيق بلا ريب سببها الفناء التَّام وذلك يرقى بالروح عن وهن الظن وإن كان الظن ثابتا.

السَّادسة: المعاملة بعين الروح يرقى بالروح عن المعاينة القلبية وإن كانت تورث القطع لكنها مائلة إلى شواهد العلم.

السَّابعة: السرور الكائن من سماع الحق لمحو آثار استيجاش وتلاوة سور الإجابة التي تضحك الروح وذلك يرقى بالروح عن الأفراح بمبادئ الوصلة والفرح دون السرور.

الثَّامنة: الغيرة وهي التي تؤذن بالمعرفة وتميل إلى بحبوحة الأدب الدالة على المحبَّة الخالصة والغيرة عبارة عن التَّليين بالرسوم عن النَّشر والإشارة دون تصريح

صيانة للأسرار واتساعا لحمل الأمانة وذلك يرقى بالروح عن ضنى الحمل ومطاوعة الفرح.

التَّاسعة: الحياة المؤذنة بالبقاء الدائم وهي التي تجلي عن الفناء وتعرب عن الجمع الصَّحيح خروجا عن علق التفرقة إلى الحق عدولا عما سواه فليس بعد هذه الحياة انفصال ولا وهن ولا يورثها إشارة وذلك يرقى بالروح عن حياة العلم إلى حياة اليقين بلا حد ولا رسم ولا أثر ولا فناء ولا بعد ولا ضد ولا شبيه ولا زمان ولا مكان.

العاشرة: التَّفريد وهو تخليص الإشارة إلى الحق بالحق عن الحق تعطي العزة أولا والافتخار ثانيا وهداية الخلق ثالثا وذلك يرقى بالروح عن توحيد الصفات إلى توحيد الذات من غير مفارقة الغيوب.

الحادية عشر: الغربة وهي غربة الهمة في طلب الحق حين ظهرت له الأسرار على أكمل ما تقتضيه عيون الحقائق فهو غريب الدنيا والآخرة فطوبى للغرباء وذلك يرقى بالروح عن التلبس بالشواهد ولو لمجد والله الموفق وهو الهادي والملهم سبحانه.

الفصل التَّاسع

في المنزل الثَّالث من مقام الإحسان في المعرفة

اعلم يا أخي نور الله قلبي وقلبك بأنوار المعارف وحملنا على منهاج كل ولي عارف أن المعرفة هي نهاية مقام الإحسان وآخر منازله قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام/ 91]، أي ما عرفوه حق معرفته، وقال الله تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة/83]، وقال النبي ﷺ أن دعائم البيت إقامته ودعام الدين المعرفة بالله تعالى، ونعني بالمعرفة هنا تمكين حال المشاهدة واستصحابها مع إقامة الحال ولازمة الحكمة وهذا غير ما يطلبه أهل الفقه من أن المعرفة هي العلم بالرسوم وإن كان للمعرفة عموم يصح به أن يطلق على العلم من حيث هو لكن أخص مقتضياتها المعرفة بالله تعالى بمعاني أسمائه وصفاته من غير تفريق بين الصفات والذَّات وهي المعرفة الصَّادرة عن عين الجمع ويعرب عن الخلاص التام وتفصح عن دوام السَّير مع الله تعالى بمعرفة أسراره فيما من تصاريف أحكامه وإذا تأملت هذه المعرفة وجدتها تشمل جميع المعارف والعلوم، لأنهم قالوا في حد المعرفة هو الإحاطة بالشَّيء على ما هو عليه، وللعلماء فيه طرق فالمعرفة عند أهل هذا الشأن إنما يشيرون بها إلى المعرفة بالله تعالى بما يقتضيه الاسم العظيم من

معنى الشَّيء على ما هو عليه، وهو حد جامع مانع، متّفق عليه، فلا يتصور وجود عارف بذات الله تعالى على ما هي عليه إلَّا الله تعالى، لأنه سبحانه يعلمها على ما هي عليه بجميع حقائق[1] الذات والصفات والأفعال، لأن علمه متعلق بالواجبات والجائزات والمستحيلات فعلمه تعالى على الحقيقة وعلم غيره على المجاز، وما كان على المجاز فلا يدرك حقيقة ذات الله، فتنتفي المعرفة عمن هذا وصفه بالحد الذي ذكرناه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام/91]، أي وما عرفوا الله حق معرفته، إذ العارف لا يكون عارفا بمجرد المعرفة ببعض الشَّيء دون كليته، لأن من اتَّصف بالعلم ببعض الشَّيء فكأنه جاهل به من أصله، فأحرى من لم يعرف الأشياء ضعيفا قليلا متلاشيا بالنسبة لمعرفة كليات ذلك الشيء، وهو ذات الله تعالى، فلا يعرفها على ما هي عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا أفضل الأنبياء والمرسلين سيدنا محمَّد ﷺ وأحرى من دونه، لأن علة الحدوث وسجن البشرية مانعان عن إدراك حقيقة الربوبية لأن المحدث الذي يدركه الموت لا يدرك ذات القديم الباقي الذي لا يموت، فبهذا صح قولنا قبل، فلا يتصور وجود عارف غير الله تعالى ومن لم يتَّصف بالمعرفة الكاملة فلا يزال طالبا لها أبدا، ولا يمنعه عدم إدراك غاية المعرفة من طلبها، بل كلما ازداد معرفة ازداد طلبا وتعظيما بلا غاية ولا نهاية لما يجده من التلذذ بزيادة المعرفة، حسبما نبينه بعد قريبا إن شاء الله، وقد أقل هنا فصلا في هذا المعنى والله الموفق وهو الملهم سبحانه.

هَذا فَصْلٌ جميلٌ واضحٌ لطيف في معرفة التَّرقي في العلوم للنَّبي الشَّريف

اعلم يا أخي أنه يقدر هنا سؤال وجواب فالسؤال كأنَّ قائلا قال: إخواني هل تعلمون أن سيدنا محمَّدا ﷺ يرقى في العلوم والمعارف الربانية أبدا في الدنيا والآخرة بلا غاية، يقف عندها تفضل عليه الله تعالى لأجل خصوصيته وفضليته، وأنَّ الله تعالى قد جعلها أهلا لكل خير في الدنيا والآخرة فأنزل عليه لأجل ذلك جميع العلوم في دفعة واحدة ويخفق بها جميعا فلا يحتاج لزيادة علم بعد ذلك فبينوا لنا ذلك بالمنقول وما تقبله العقول وأجركم على الله سبحانه والسَّلام.

(1) الزيادة من خ وفي الأصل بياض.

قُلْتُ: فالجواب عن ذلك والله الموفق للصواب سبحانه: اعلم يا أخي أنَّ العلوم كلها تتلاشى في معرفة حقيقة كنه ذات الله تعالى لأن ما لا تنتهي أوصافه لا تحد معرفته، فحيث هو الأمر هكذا وأن موعده وأمته عليه السلام الجنَّة الواسعة الدَّائمة التي لا ينتهي نعيمها، كما لا ينتهي العلم بالله تعالى بحقيقة المعرفة فيها، مع وجود رؤية البصر والبصيرة تولي النظر لوجهه الكريم أبد الآبدين من غير حد ولا حصر ولا نهاية، وأنه يحصل لكل ناظر لوجه الله تعالى في الجنة بالنظرة الأولى عين اليقين، لما قد كان حصل له علم اليقين في الدنيا مع زيادة حق اليقين، وهو ذوق لذة النظر التي ينسى بها الناظر جميع ما ذاقه قبل الرؤية من نعيم الجنَّة ولذاتها وحورها وولدانها، وجميع ما ملكه فيها، ويتلاشى في عينه جميع ذلك، ما دام ينظر في وجه الله تعالى، فإذا أسر الله تعالى حجاب العظمة على عيني الناظر، فحينئذ يرجع إليه ليتنعم بالجنَّة وبجميع ما أكرمه الله فيها، فيحصل للنَّاظر من العلم بالله تعالى ضعف ما سبق له من العلوم والمعارف في الدنيا، إذ ليس الخبر كالعيان، فهذه مزية عين اليقين على علم اليقين وحق اليقين، وهو التلذذ بالنَّظر أعظم من ذلك لا سيما وقد يجمع للنَّاظر في ذلك المحل علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، ثم يضعف للنَّاظر جميع ما ضعف له من المعرفة بالله تعالى عند النظر الأول بالنَّظر في وجهه تعالى في المرة الثانية، ثم يضعف له أيضا في النَّظرة الثَّالثة جميع ما حصل له من المعارف قبل ذلك، وهكذا تتضاعف المعرفة بالله تعالى مع كل نظرة أبدا بلا نهاية، فالمؤمنون ورسلهم في زيادة العلوم والمعارف وتضعيفها أبدا ومع ذلك لا تدرك لمعرفة الله غاية أبدا لأنه قديم كبير عظيم وعظمته تعالى تتلاشى فيها كل معرفة وإن جلت وكثرت ودامت ولا يعرف الله إلا الله تعالى، فكيف يقتصر رسول الله ﷺ على معرفته بربه إذ هي رأس العلوم إذ العلوم كلها وسائل المعرفة بالله تعالى أم كيف يحرم نبينا عليه السلام من لذة المعارف التي تترادف عليه ومرور الأيام لا سيما والدنيا قليلة لا قدر لها بالنسبة للجنَّة ولذَّاتها إذ فوائد النَّظر في وجه الله تعالى لا قدر له قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة/22 - 23] فالنظر قدمنا بعض الإشارة لفوائده ومعانيه وأمَّا النَّظارة وهي النعمة والزين والبهاء والأنوار والكمال والاعتدال والرطوبة والصفاء والصحة والقوة يستفاد ذلك كله من سر قوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين/24] وما ذكرناه من معاني النَّضارة لا نسبة بين ما ذكرناه منها وبين ما يحصل للأنبياء والمؤمنين أولياء الله تعالى

في الجنَّة، لأننا ذكرنا ما نعرفه منها بعلمنا القصير منها على ما لا يدرك علمه في الدنيا، ولا يعلمه على الحقيقة كما هو إلا الملك الكبير سبحانه، لا إله إلَّا هو، أن نعيم الجنَّة لا مثيل له في الدنيا إلا التسميات دون المسماة، فتحصل هذه الفوائد لكل مؤمن بنسبة علمه بالله تعالى ومعرفته به في دار الدنيا، ولا تزال العلوم والمعارف والنَّضارة ومعانيها تتضاعف مع كل رؤية في وجه الله تعالى أبدا، فلا يزالون أهل الجنَّة في زيادة العلوم والمعارف والالتذاذ بها وترادف النعم وتضعيفها أبدا، ولذلك قال أبو عبد الله سيدي محمَّد بن أحمد السَّاحلي رحمة الله عليه في كتابه بغية السَّالك في أشرف المسالك في كلامه على منازل الإحسان حيث قال: فالعارف يرقى إلى المعارف مع مرور أنفاسه وتوالي أزمانه، قلت: فأي عارف أعرف من رسول الله ﷺ؟ وبه عرفت المعارف، فإذا علمتم هذا أيها النَّاظرون والمتأملون، فإنكم تعلمون صحة قول من قال بزيادة علم رسول الله ﷺ وترقيه في المعارف أبدا، ولا يلتفت لقول من قال: لا يرقى رسول الله ﷺ في العلوم، لأنه حدد الجائز وضيق على رسول الله ﷺ ما وسع على غيره، وأيضا نقص عظمة الله سبحانه، وضعف حظ نبينا ﷺ من فوائد معرفة الله ودوامها التي لا تحتمل ذلك إلَّا الدار الدَّائمة المعظمة المشرفة، فانظر يا أخي أين تتسع هذه الفوائد العظيمة وهذه العلوم النَّعيمة في هذه الدار الضيقة الفانية الذَّميمة مع دناءتها وحقارتها وذلتها وأهوالها ونقمتها وفنائها وزوالها وسرعة الانتقال منها، مع كثرة علم رسول الله ﷺ وعظمة معرفته بربه في الدنيا وأحرى في الآخرة، التي تتضاعف فيها العلوم والمعارف والنعم والشَّرف والالتذاذ بذلك كله، فأي حظ لرسول الله ﷺ إن كان علمهُ محجرا عليه لا يزيد ولا ينقص؟ فقد تنقص القائل بذلك قدر نبينا عليه السَّلام، وتنقص خصوصيته، وتنقص عزة الله وتعظيمه، لكن أشير عليك بما يدلك على عظمة الله تعالى وأنها لا حدَّ لها ولا غاية، وذلك بمعرفة علم قدر رسول الله ﷺ ومعرفته بربه في الدنيا، قال البوصيري رحمه الله:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رشفا من الديم

فقال بعض المحققين: مثال ما أوتي نبينا عليه السَّلام من العلوم والمعارف في هذه الدار الدنية كأن زقا مملوءا عسلا فرشحت منه قطرة واحدة، فوزعت بين جميع الأنبياء والمرسلين وجميع المؤمنين كل على قدر نصيبه منها فوسعتهم جميعا، فنسبة علم العلماء من علم رسول ﷺ كنسبة تلك القطرة من جميع ما في الزق، وبذلك القدر

يتضاعف علمه ومعرفته في دار السَّلام عند رؤية الحي الدائم الذي لا ينام، بحيث يرقى في العلوم والمعارف مع كل رؤية ضعف ما حصل له، ومع ذلك لا يدرك رسول الله ﷺ كنه ذات الله تعالى غاية، لأن عيب الحدوث وسجن البشرية يمنعان من الوصول لمعرفة كنه الربوبية، فمن هنا تدري عظمة الله تعالى، وأنها لا تحصل لنبينا عليه السَّلام مع هذه الزيادة في العلوم وتضعيفها أبدا، فأحرى غيره، فكيف يسمع قول من قال بعدم ارتقائه عليه السَّلام في العلوم والمعارف؟ كأنه أراد أن يحرم نبينا عليه السَّلام من هذه الفوائد العظيمة والنَّعائم العديدة، فانظر يا أخي هل ينال رسول الله ﷺ شيئا من ذلك في الدنيا؟ وإنما نال رسول الله ﷺ منها قدر ما يكون وسيلة له ولأمته لراحة الدار الدائمة، والوسيلة لا تكون أشرف من المتوسل إليه، فاعلم ذلك، فهذا يكفي في جواب السؤال المذكور، والله الموفق سبحانه.

ثم قال الشيخ الساحلي رحمه الله: ثم المعرفة وإن كان لها عموم في جميع منازل المقامات باعتبار أنها تطلق على العلم، فإذا تقرر هذا فإن المشار إليها هو غاية السَّالك ونهاية المسافرين لله تعالى، والصفقة التي بذلوا فيها أنفسهم لله تعالى، لم يبق منها اليوم غير مجرد الاسم دون المسمَّى، فلا جرم أن من بسط من ذكر أحوالها ووظائفها ما يعلم به قدرها، فإنها من منن الله تعالى، وتطلع منه إلى ما سبق إليه المفردون، وظفر به العارفون، وما حرمه المقصرون البطالون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، واعلم أن لمبادئ المعرفة شروطا وآدابا، إذ نهايتها يقتضي العجز عن تصورها، فضلا عن الكلام في أحكامها.

أما شروطها فأربعة:

الأول: القرب الدائم، فلا يشهد إلا الله ولا يرجع إلا إلى الله كما أن العاقل يرجع إلى قلبه ويفكره ويذكره فيما يستنجز له من أمر أو استقبله من حال كذلك العارف رجوعه إلى ربه ذاهلا عن قلبه وفكره وذكره لأن المعرفة تقتضي بتمزيق الرسوم وهذا بقاء الإشارات إذ العارف مستهلك في معرفته مستغرق في شهوده.

الثَّاني: العجز المؤذن بالإدراك، كما قال الصديق رضي الله عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك، وإلى ذلك الإشارة بقول النّبي ﷺ: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما

أثنيت على نفسك"[1]، قال ذو النون: أعرف النَّاس بالله أشدهم تحيرا فيه، إنما هو شهود خفي من غير إحاطة ولا وقوف على كنه، ولا حصر لمكان ولا زمان، ولا تعويل على تصوره ولا فكر ولا تذكر، جل الله وجلت المعرفة به سبحانه عمَّا لا يليق بألوهيته سبحانه علوا كبيرا.

الثالث: المحافظة على حفظ الرسوم الشَّرعية، وإقامة الوظائف الدينية، اقتداء بإمام العارفين وسيد المقربين، الذي انفطرت قدماه من طول القيام في الصَّلاة مع تمكين معرفته بربه، وقد ضل قوم وزلت أقدامهم حين ادعوا المعرفة، وقالوا بترك الحركات، ورأوا ذلك من باب البر والتَّقوى، ولم يشعروا بأن ذلك تعطيل وكفر، وحاشى المعرفة من هؤلاء، قال إمام هذه الطَّريقة وسيد أهل الحقيقة أبو القاسم الجنيد: القول بإسقاط الأعمال عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن حالا عندي من الذي يقول بإسقاط الأعمال. فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ورجعوا فيها إلى الله، ثم قال: ولو بقيت ألف عام لم أنق من أعمال الشَّريعة ذرة.

الرَّابعُ: صيانة ما حصل عليه من تصفية الروح حتى تبقى مخلقا بخلاق الحق فيكون خليفة على الحقيقة فلا يتحرك ولا يسكن ولا ينطق ولا يصمت إلا بالله ولله وعن الله وفي الله وإلى الله ومع الله حتى إن لسانه لصامت عن الحقائق، وأقواله وأفعاله تشير إليها فهو بالله من حيث توليته له ولله من أجله لا من أجل حظ ومع الله من حيث المشاهدة وفي الله من حيث الفكر والتَّرقي والى الله من حيث التوجه والقصد وعن الله من حيث التَّكليف.

وأمَّا آدابها فأربعة:

الأول: إعطاء الحكمة أهلها ومنعها من غير أهلها كما ورد في الحديث: "لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها من أهلها فتظْلموهم"[2]، وإلى هذا أشار بعضهم بقوله: سكوت العارف أنفع، وكلامه أشهى وأطيب، ورأس الحكمة مخاطبة النَّاس على قدر عقولهم.

الثَّاني: التزام الأدب في كل شيء عز وجل وأعظم الأدب معهم حفظ أسرار الحق

---

(1) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه (352/1).

(2) انظر: كشف الخفا للشيخ العجلوني (1902/2).

صيانة عن الخلق فهو مع الخلق برسمه ومع الله بالله كما قال بعضهم وقد سئل عن العارف، فقال: العارف لا يرى في نومه ويقظته إلَّا الله، ولا يوافق غير الله، ولا يطالع غير الله وللعارف من الأسامي ما تتسير به الحقائق بالرسوم فهم في واد وهو في واد.

الثالث: ملازمة الهيبة والعود إلى غايتها فإن الهيبة من أمارات المعرفة كل من ازدادت هيبته ازدادت معرفته وقد يعبر عن الهيبة بالخشية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر/28]، وقال النَّبي ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية»[1] وإن كان العارف في غاية المحق المطلق والفناء التام وهو مستغرق في ذلك غاية الاستغراق في معرفته والاستهلاك في وجوده أو شهوده، فمن علامات قربه أن تبقى له رسوم الأدب محفوظة، ومنها الهيبة فاعلم ذلك.

الرَّابع: الصعود أبدا إلى الغايات، فلا يقنع مع الله تعالى بحال وقته كما لا يقف عن السير إليه وكل ما سبح له من الطباع البشرية بشارة أخمد نارها بنور معرفته تنزها عن مقتضيات الطباع وجريا في ميدان المعرفة فهو يرقى أبدا من حال إلى حال والله الموفق وهو الهادي والملهم سبحانه.

ذكر: اعلم أنَّ ذكر مبادئ هذا المنزل غنما هو الذكر المفرد الذي ختم به منزل المشاهدة حتى إذا تمكن في بحار المعرفة، وحصل على لباب سر التَّوحيد حصولا راسخا، وانكشف له من معناه أنوار الحقائق متصلة معرفة عن المعارف الإلهية، حتى إن جميع ما احتوت عليه المملكة من الموجودات ناطقها وصامتها متحركها وساكنها جامدها ومائعها حيها وميتها ظاهرها وباطنها من العرش وما احتوى عليه إلى تخوم الأرض السابعة السفلى كل ذلك مستحضر عندهم، يعرف كل جوهر فرد منه على لباب سر التَّوحيد، فهو ذاكر بحركاته وسكناته ولحظاته وخطراته لمحاته والغيبة عنه غائبة، والحضور معه حاضر كذلك جميع الأذكار، وإن اختلفت كيفياتها وسائر الكلام وإن تباينت معانيه ما من حرف من ذلك ولا نقطة ولا شكلة إلا وجميع ذلك يفصح عن لباب سر التَّوحيد، فالحالات عند العارفين واحدة والأذكار لديهم سماوية، فالعارف وإن كان معدن الذكر وسره ولبابه فهو يجريها منه مدرجة في طي رسوم البدايات والتمكينات بتحريك اللسان وتصريف الجنان، ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً

---

(1) رواه البخاري (1949/5) ومسلم (779/2).

وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل/88]، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله: العارف هو الذي لا يكدره شيء، ويصفوا به كل شيء، وهو مع الإمدادات الإلهية التي ترد عليه في جميع الأوقات يتسع فيه جميعها ولا تظهر فيه زيادة مثل البحر مع المياه الواردة عليه من جميع جداول الدنيا وسواقيها وأنهارها، فهذه خصوصية من الله سبحانه يختص برحمته من يشاء، فإذا صحبت فاصحب العارفين، وإذا خدمت فاخدم العارفين، وإذا شيخت فشيخ العارفين، لأن العارف يحملك ويحمل عنك، لأنه مخلق بأخلاق الحق، متصف بجميع صفات السنَّة، وقالوا: العارف كالمطر تنتفع به كل جهة أصابها، وكيف لا وقد أضاءت له أنوار المعارف فأبصر بها عجائب القلوب، فهو كما قال إمام هذه الطَّريقة أبو القاسم رضي الله عنه في وصف العارف: عبد ذاهب عن نفسه متَّصل بذكر ربه لأنه لما أثمر له ذكر الأفارد أنتج له نتيجة.

اعلم أن نتيجة هذه الثمرة اتصاف الروح بإحدى عشرة صفة حميدة يرقى بها في ميدان المعرفة إلى ما لا غاية له وأن عبر عن مبادئها بإحدى عشرة صفة حميدة، فإلى هذا المنتهى ينتهي العلم بما يرقى إليه العارف، ويرقى عنه وراء ذلك من الأسرار اللَّطيفة والحقائق الدقيقة ما يحل عن البيان ولا يقدره إلا الملك الديان.

الصفةُ الأولى: الحرية، ومعناها أن يكون العارف فردا منفردا من غير أن يكون تحت رق شيء من الموجودات لا من أعراض الدنيا ولا من أعراض الآخرة ولعزة الحرية. أنشد بعضهم هذا البيت فقال:

أتمنَّى على الزمان محالا ... أن ترى مقلتاي طلعة حر

والحرية عبارة عن غاية التَّصفية والطهارة بماء الغيب، فالمكاتب عبد ما بقي عليه درهم واحد، قال بعضهم: ليس بحر من بقي عليه من تصفية نفسه مقدار نواة، وذلك يرقى بالروح عن تلميح الشواهد والعوائد.

الثَّانيةُ: الوجود القوي لحقيقة الشيء وهو وجود مقام تضمحل فيه الرسوم حتى رسم الوجود بالاستغراق في الأولية وذلك يرقى بالروح عن تلمح ضلال الأوهام عند سطوع أنوار الحقائق.

الثَّالثةُ: الجمع الأتم وهو الذي يعبر عنه بجمع الجمع الذي يفضي بقطع الإشارات ولشخوص من الإمارات والعلامات بعد صحة التمكين والبراءة وجمع

التَّلوين وذلك يرقى بالروح عن شهود غير الله حتَّى شهود الجمع.

الرَّابعة: الصحو، ولا ينال إلَّا بحيلة الروح بوادر الجمع ولوائح الوجود وهو عبارة عن تمكن حال المشاهدة واتصالها مع هدوء الروح من لدغات الدهش المذهل عن التمكن من مطالعة جمال الحضرة بتخليص المشرب من الحق بالحق حتى تسقط الشَّهادات وتفصل العبارات وتفنى الإشارات وذلك يرقى بالروح عن عين في أودية مهامه الحقائق حتَّى تشرق أنوار المعرفة بالخروج عن ضحضاح البشرية.

السَّادسةُ: البسط ويعني به إرسال الشَّواهد في الرسوم العلمية مع حفظ السر بسر الاختصاص وهو علم في طريق الإرشاد وإمام يهتدي به جميع العباد ومصباح يستضيء بنوره السَّالكون ويقطعون من حكمه كل رطب حي وذلك برقي بالروح لواردات القبض المستمد من الطَّبع.

السَّابعة: التَّلبيس وهو يضارع البسط لكن البسط أعمل منه والمراد بالتَّلبيس تغطية الأسرار بأستار الأسباب إبقاء على الكافة بما تحمله التربية لأبناء الحكمة بلبان الملاطفة وذلك من خواص الأسماء ثمَّ بعدهم للأئمَّة الربانيين الذين يربون السَّالكين بصغار الحكمة من كبارها وذلك يرقى بالروح من إطلاق العبارات بما لا يحمله عقل كل إنسان.

الثَّامنةُ: البقاء، والمراد به الخروج من فناء المشاهدة إلى بقاء المعرفة من غير عين شمس المشاهدة ولا رجوع إلى شواهد الحس إنما هو استجلاب القرب باستيناس الروح فهو كما قالوا كأين بأين وذلك يرقى بالروح عن الضعف عن حمل أعباء الوصل والوهن لواردات الحق.

التَّاسعة: السر، وهو قريب من التَّلبيس لكن التلبيس أقوى لأنه حسام والجمع في قراب المعرفة إبقاء على الكافة بالسَّلامة من الحياة والجمع بين الجمع والتَّفرقة أمر صعب جدا، وأمَّا السر فهو أصعب لأن ما يقتضيه يشير إلى منزل وهو في غيره على ما أشهده الحق من أسراره لما أسره عنه مع شواهد أقامها على صحة مقامه فاستتر بالله عن الكونين فمنفعة هذا مقصودة على نفسه بحكمة حكم بها العليم الخبير بخلاف صاحب التلبيس الذي قبضه الله عن منفعته لعباده وذلك يرقى بالروح عن ضيق الهاتك لستر السر القادح عن الغيرة.

العاشرة في الاتصال وهو اتصال الوجود بتوالي الجمع، لكن لا يدرك هذا

الاتصال بوصف ولا ينال عبد سره، إنما هو اسم لا تكشف عن مسمَّاه العبارة وإن إلى نحوه الإشارة، وذلك يرقى بالروح عن رهن الانفصال ورؤيته عند الخروج من ظلمات الكونين إلى أنوار المعرفة.

الحادية عشر: الحكمة، وهي التي هبت بها رياح التَّخصيص فاستنشقها أهل الولاية فأوردتهم موارد التَّحقيق، وألبستهم خلع المعارف وأظفرتهم بذخائر الأسرار، ولا تكون إلا لعارف وارث وذلك يرقى بالروح عن التَّصميم بالغيرة إلى دلالة الخلق على الله عز وجل، والله الموفق وهو الهادي والملهم سبحانه.

تنبيه وإرشاد في بيان عدد الأذكار السَّالكين الأنجاد:

اعلم شرح الله صدري وصدرك وبلغ لنيل الأماني أملي وأملك أن أذكار طريق السَّالكين وإن كثرت بحسب المقاصد، فترجع كلها إلى خمسة أذكار، وهي استغفار وتصلية وتهليل وتنزيه وإفراد.

أمَّا ذكر الاستغفار: فدليله من القرآن قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح/10]، وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد/19]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء/110]، إلى غير ذلك من الآيات. ومن السنة: ما خرجه أبو داود[1] والنَّسائي[2] عن ابن عباس قال قال النبي ﷺ: «من لازم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب»، وخرج النَّسائي[3] أيضا عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن وجد في كتابه استغفارا كثيرا»، وخرج مسلم[4] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون الله فيغفر لهم»، وأخرج أبو داود[5] عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة» إلى غير ذلك من الأحاديث.

---

(1) سنن أبي داود (457/1).

(2) لم يخرجه النسائي، وإنما أخرجه ابن ماجه في سننه (1254/2).

(3) قلت: لم يخرجه النسائي، وإنما أخرجه أيضا ابن ماجه في سننه (1254/2)، والحديث من أفراده.

(4) صحيح مسلم (2106/4).

(5) سنن أبي داود (475/1).

وأمَّا ذكر التَّصلية: فدليله من القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب/ 56]، ومن السنَّة: ما أخرجه الترمذي[1] عن ابن مسعود قال: قال النَّبي ﷺ: «أولى النَّاس بي يوم القيامة أكثرهم صلاة علي"، وأخرج النَّسائي[2] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي صلاة واحدة صلَّى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر سيئات ورفعت له عشر درجات، وأخرج ابن أبي شيبة عن يعقوب بن زيد التَّميمي قال: قال رسول الله ﷺ أتاني آت من ربي فقال: لا يصلين عليك عبد صلاة إلَّا صلَّى الله عليه عشرا قال: فقال: يا رسول الله صلَّى الله عليك وسلَّم، ألا أجعل نصف دعائي لك، قال: إن شئت، قال: ألا أجعل ثلثي دعائي لك؟ قال: إن شئت، قال: ألا أجعل كل دعائي لك؟ قال: إذا يكفيك الله هم الدنيا والآخرة. وعن عامر بن رفيعة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى عليَّ صلَّى الله عليه فأكثروا أو قللوا»[3] إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على الترغيب في الصَّلاة على النَّبي ﷺ.

وأمَّا ذكر التَّهليل: فدليله من القرآن قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ [محمد/ 19]، وقوله عز وجل: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران/ 18]، ومن السنة: ما أخرجه مالك أن أنس[4] وطلحة بن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أفضل ما قلته أنا والنَّبيئون من قبلي لا إله إلا الله"، وأخرج النسائي[5] عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أفضل الذكر لا إله إلا الله"، وأخرج الترمذي[6] والنسائي[7] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصا من قلبه إلا فتحت له أبواب السَّماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنبت الكبائر»، وأخرج النسائي[8] عن أبي سعيد

---

(1) سنن الترمذي (354/2).

(2) المجتبى من السنن للنسائي (50/3).

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه (215/2).

(4) الموطأ (214/1).

(5) عمل اليوم والليلة للنسائي (ص: 480).

(6) سنن الترمذي (575/5).

(7) عمل اليوم والليلة للنسائي (ص: 482).

(8) عمل اليوم والليلة للنسائي (ص: 608).

الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال موسى: يا رب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به، قال: يا موسى قل لا إله إلَّا الله، قال: يا رب كل عبادك يقول هذا، قال: قل لا إله إلَّا الله، قال: لا إله إلا أنت، إنما أريد شيئا تخصني به، قال: يا موسى لو أنَّ السَّموات السَّبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفَّة مالت بهن لا إله إلا الله. إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على التَّرغيب في لا إله إلا الله.

وأمَّا ذكر التنزيه: فدليله من القرآن قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى/ 1]، قوله عز وجل: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر/ 98]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء/ 93]، ومن السنَّة: ما أخرجه أهل الصحة[1] عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل، قال: «ما اصطفاه الله لملائكته ولعباده: سبحان الله وبحمده»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان للرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم"[2]، وأخرج الترمذي[3] والنسائي[4] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: قولوا سبحان الله وبحمده مائة مرة، من قالها مرة كتب الله له عشرا، ومن قالها عشرا كتبها له مائة، ومن قالها مائة كتبت له ألفا، ومن زاد زاده الله "، وأخرج غير واحد من أهل الصِّحة[5] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر ". إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على فضل التَّسبيح والتَّرغيب فيه.

وأمَّا ذكر الإفراد: فدليله من القرآن قوله عز وجل: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام/ 91]، وقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت/ 45]، وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب/ 41] وهذا الذكر هو لباب الأذكار وإنسان وقطب أفلاكها، قد أجمع كثير من أهل العلم على أنَّه اسم الله الأعظم، فإذا تقررت قواعد هذه

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (2093/4).

(2) رواه البخاري (2352/5)، ومسلم (2072/4).

(3) سنن الترمذي (513/5).

(4) عمل اليوم والليلة (ص: 211).

(5) صحيح البخاري (2352/5)، ومسلم (2071/4).

الأذكار من الكتاب والسنَّة، فاعلم أن سائر الأذكار داخل تحت نطاق هذه الخمسة أذكار كل ذكر من ذلك في الموطن الخاص به من حمد وشكر وبسملة وحسبلة وحوقلة وغير ذلك لا بكل ذكر منها الحالة التي تخصه، وقولنا أن هذه الخمسة الأذكار هي أذكار طريق السَّالكين يعني به أنها غالبة عليهم بها سلوكهم وإليها رجوعهم، وكل ذكر من هذه الأذكار الخمسة له كيفيات مختلفات، لكل كيفية منها اختصاص بنوع من التخلية والتزكية. وأمَّا تزكية الأذكار فكل تركيب منها له اختصاص بنوع من التحلية والتزكية فيما تركب من علل النفس حسبما تقدم في موضعه من هذا الباب في منازل المقامات، والله الموفق وهو الهادي والملهم سبحانه.

قُلْتُ: قال الحكماء: فائدة الكلام في تاليه، وأنا أقول فائدة هذا الكتاب في آخره، وذلك أنه حدثني بعض الإخوان المحبين في طاعة الرحمان أنَّه نظر كتابا وجد في خاتمته، قال بعض المحققين: من أراد طريق التَّصوف والتوجه إلى الله تعالى فالصدق والإخلاص يكفيه عن كل شيء، وعلامة صدقه ملازمة ذكر الله، وعلامة إخلاصه الفرار من الخلق وترك التأنس بهم، وشاهد صدقه الزهد في الدنيا بالضروريات وشاهد إخلاصه رفض الجاه والصيت، فمن وفق لهذا القدر فلا يحتاج معه لشيء والكتاب والسنَّة شاهدان عادلان لمن وفق وفقنا الله وإياكم بهما إليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

قلتُ: ونؤيد هذه الوصية بوصية إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه لبعض من طلبها منه، فقال له: احفظ عني هذه الستة مسائل، واعمل بها وكرر ذكرها في كل يوم مرات، واعمل بما تضمنته، فإنك تنجى بحول الله وقوته، الأولى: إذا أردت أن تعصى الله تعالى فلا تأكل رزقه لأنه لا ينبغي لك أن تأكل رزقه وتعصيه، الثانية: إذا أردت أن تعصي الله تعالى فلا تسكن في أرضه وبلاده لأنه لا ينبغي لك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه، الثالثة: إذا أردت أن تعصي الله فاطلب موضعا لا يراك فيه فإنه لا ينبغي لك أن تأكل رزقه وتسكن في بلاده وتعصيه بحضرته وينظر فيك ويسمع منك ما تبديه من الكلام السَّوء، الرَّابعة: إذا جاءك ملك الموت فاطلبه أن يؤخرك إلى أن تتوب فإن لم تقدر فلا تعصي الله وتب قبل ذلك، الخامسة: إذا كنت في القبر وسألاك منكر ونكير فقاتلهما فإن لم تقدر فتب لله قبل ذلك، السَّادسة: إذا كنا في القيامة وأمر بالعصاة إلى النار فتمنع ولا تدخل فيها فإن رأيت أنك لا تقدر على ذلك: فحافظ على الأوامر

والنواهي حتى تلقى الله تعالى على أكمل حالة في الإسلام: وهاهنا أردت أن أختم الكتاب بقصيدة الشيخ الإمام الشَّريف الحسني أبي الحسن سيدي علي بن طاهر رحمه الله: لأنها تضمنت مدح نبينا ومولانا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم وتعظيم قدره وذكر شيء من معجزاته وعظمته ورفعته والتوصل به إلى ربه جل وعز فقال:

هو الحبيب السيد البدر الذي ... ما مثله في العالمين رسولا
شوقي إليك مع النّسيم دخيلا ... أهدي به حبا بكرة وأصيلا
يا نسمة إن جئت ابغي محبة ... انزل به واسألهم التكميلا
وأقرئ السلام عليهمُ من مغرم ... صب كئيب قد غدا معلولا
يذري عقيق الدمع من أجفانه ... شوقي إليكم لو وجدت سبيلا
قد طالما قد بات يشكو ضره ... والصبر عنه في الفؤاد قليلا
افدوه من أسر البعاد بعطفة ... يحيي به قلبا هناك عليلا
يشفو سهاد الجفن من ألم الهوى ... فالليل أضحى للعليل طويلا
إن لاح برق أو تألق لامع ... صار الفؤاد لنجومكم معلولا
رفقا على قلبي فإنه ... من أجلكم أضحى المحب ذليلا
جددوا على من بات ... ومكبَّل عن وصلكم تكبيلا
يبغي التقرب والوصال لحيكم ... قد زاده ذل الهوى تعطيلا
من قد في قلبه محبة ... قد ذللت قطوفها تذليلا
لم يلق إلا والها بين الورى ... حيران سكر وذا تهويلا
فكل ما ناح الحمام بأيكة ... أصبوا إلى بدر هناك جميلا
حاز الملاحة والجمال فنوره ... عمّ العوالم كلها تكميلا
نور الهدى قطب العوالم كلها ... غوث النهى قد زانها إكليلا
ذو المعجزات الباهرات حقيقة ... ليست لها حصر ولا تعليلا
من فاح نشر الورد من أعراضه ... وغدا يريق من الحياء سيولا
من أنطقت بكمُ البهائم عندما ... مرت به في رحله محمُولا
من كبَّر البيت الحرام بجاهه ... وأعلن التكبير والتَّهليلا
هو صفوة المولى التي من آدم ... لأبيه نقّل نورها تنقيلا

هو جوهر الإرسال من تاج العلى ... حاز المفاخر بيته وقبيلا
هو نكتة الغيب التي دلت على ... ما لم يكن بها الهدى مدلولا
هو تحفة الكون التي قد وجدت ... عين السرى عن منتهى جبريلا
هو زهرة التي من نورها ... كست الكواكب والبدور أفولا
هو نجمة الفجر التي أسرى به ... فأنارت الجوزاء والإكليلا
هو سيد الإرسال أنبأنا به ... من أوضح الفرقان والتنزيلا
هو خاتم الرسل الكرام وجدها ... وأجلُّ مبعوث بأقوم قيلا
هو حاشر الأرواح من أجداثها ... يلقي عليها لدى المعاد وكيلا
هو فاتح الأبواب من زهواتها ... هو أول الجم الغفير دخولا
هو ابن آمنة التي في المهد قد ... طلعت عليه مطهرا مكحولا
هو سين يس وطاء طه أولت ... هذا الحروف على اسمه تأويلا
هو معدن الوحي العزيز أمانة ... هو كوكب الحي المبين حلولا
هو آية الله التي قد أعجزت ... عن كنه معناها نهياً وعقولا
لولاه ما خلق الظلام ولا الضيا ... أصلا ولا خلق الزمان فصولا
لولاه ما صارت النجوم ثواقبا ... وغدا بها ملك الرجوع كفيلا
لولاه ما خلقت طباق سبعة ... والأرض عرضا للعباد وطولا
لولاه ما أعطى السَّما من رزقه ... للخلق مشروبا ولا مأكولا
لولاه ما خلق النعيم ولا السنا ... أصلا ولا مالت الفروع أصولا
لولاه لم تخلق ولم تك جنة ... لولاه ما جعل السعير مقيلا
لولاه ما نيرت سحائب إثره ... أصلا ولا جرت البحار سيولا
لولاه ما لقحت غصون في الربا ... أصلا ولا جر النَّسيم ذيولا
لولاه ما فاحت عيون زاهر ... أصلا ولا أضحى الحسام صقيلا
لولاه ما اشتقنا لرؤية طيبة ... لولاه ما عشق المحب طلولا
لولاه ما خلقت شموس الهدى ... أصلا ولا جعل الشهاب دليلا
لولاه ما لآدم صورة ... أصلا ولا بعث الإله رسولا
لولاه ما ترك المحاسب خردلا ... لولاه ما نسي الكتاب فتيلا

لـــولاه مـــا يعفـــو ويغفـــر ربـــنا　　لـــولاه مـــا بلـــغ المـــؤمل رســـولا
يـــا مـــوئل المطـــرود يـــا وافـــي العطـــا　　يـــا خيـــر مـــن لا يـــضيم نـــزيلا
ارحـــم مذلـــة خائـــف مـــن ربـــه　　واقـــبل ضـــراعة مـــن أتـــاك دخـــيلا
أنـــا فـــي حمـــاك فـــلا تخيـــب مقـــصدي　　فلقـــد قـــدمت إلـــيك ربـــي ذلـــيلا
أنـــا فـــي حمـــاك فكـــن شـــفيعي يـــوم لا　　يجـــد الحمـــيم حمـــيمه كفـــيلا
أنـــا فـــي حمـــاك إذا الـــصراط تطاولـــت　　عقـــباته وإذ الوقـــوف طـــويلا
أنـــا فـــي حمـــاك إذا عثـــرت بذلتـــي　　ورجـــوت حلمـــك أن يكـــون مقـــيلا
أنـــا فـــي حمـــاك إذا المـــوازن رجحـــت　　وغـــدا الخفـــيف مـــن الذنـــوب ثقـــيلا
أنـــا فـــي حمـــاك إذا الملائـــك صـــففت　　مـــن كـــل وجـــه آلاف ومـــيلا
أنـــا فـــي حمـــاك إذا الجحـــيم ســـعرت　　وإذا المجـــيد مقـــيدا معلـــولا
أنـــا فـــي حمـــاك فـــلا تعـــذب جثتـــي　　بالـــنار يـــا بـــدر الهـــدى المفـــضولا
أنـــا فـــي حمـــاك إذا الجـــنان تزخـــرفت　　وإذا الحـــسان ســـعت إلـــيك دخـــولا
أنـــا فـــي حمـــاك إذا الـــصَّحائف نـــشرت　　وإذا الملائكـــة الكـــرام عـــدولا
أنـــا فـــي حمـــاك إذا الـــسرائر فتـــشت　　وإذا المفـــرط نادمـــا مذلـــولا
أنـــا فـــي حمـــاك فكـــن معـــي مؤنـــسا　　إذ ألقـــيت فـــي اللحـــود مهمـــولا
أنـــا فـــي حمـــاك إذا ســـالت وســـيلة　　وقـــضاك ربـــي أمـــره المفعـــولا
أنـــا فـــي حمـــاك فكـــن بفـــضلك مـــنقذي　　ممـــا أخـــاف فمـــا فعلـــت جمـــيلا
أنا في حماك فقد مضى عمري سدى　　وقطعـــت أوقاتـــي هـــوى وفـــضولا
أنـــت المحـــب لمـــن دعـــاك ولـــم يـــزل　　حبلـــي بـــبابك فـــي الـــدعاء موصـــولا
أنـــت المـــشفع فـــي الكبائـــر كلهـــا　　بحمـــاك أنجـــو إن عـــصيت جهـــولا
أنـــت المـــرفع فـــوق كـــل مـــرفع　　أنـــت المفـــضل باللـــوا تفـــضيلا
أنـــت المـــؤيد بالرســـالة حجـــة　　أنـــت المقـــرب فـــي البـــساط جلـــيلا
أنـــت المـــسمَّى أحمـــد ومحمَّـــد　　والمرتـــضى والمـــصطفى المقـــبولا
أنـــت المعظـــم فـــي القـــرآن بآيـــة　　نـــسخت بـــك الـــتَّوراة والإنجـــيلا
أنـــت المـــتوج تـــاج كـــل كـــرامة　　أنـــت المقـــدس طاهـــرا وجلـــيلا
أنـــت الـــذي أوحـــاك ربـــك ســـره　　و ســـــــيفك المـــــــسلولا

أنـت المنـزل بالكـتاب هدايـة | أنـت المفـصل حكمـه تفـصيلا
أنـت المـنادي فـي الخطـاب مبـشرا | ومدثـرا ومـزملا تـزميلا
إنـي تكلمـت علـيك يـا مـن لا يـرى | أبـدا إلـيه القاصـدون مثـيلا
أن تعفـو عـن ابـن المربـي الـذي | طلـب الـثواب مـسببا فأنـيلا
ربحـت تجـارة سـعده فـي شـعره | وعـسى فـنال القـصد والمأمـولا
فاغفـر لـه فـيما مـضى والطـف بـه | واسـتره سـترا مـن رضـاك جمـيلا
وأصـلح بحلمـك مـا خفـي مـن حالـه | فلقـد أتـى فـي العفـو مـنك دخـيلا
فهـو المـسبب فـي امـتداحه راغـبا | ذخـر الـثواب وأجـره تحـصيلا
وعلـيك مـن خيـر الـسَّلام تحـية | تهـدي إلـيك مـن الـوداد حمـولا
مـا غـردت فـوق الغـصون حمامـة | سـحرا ومـا هـب النَّـسيم علـيلا

انتهى، وهذا آخر ما قصدت وضعه وتأليفه وجمعه في هذا الكتاب، فقد كمل على حسن المراد، فأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله سبيلا إلى الهداية والرشاد، وأن يسلك بنا وبقرائه والمستعين لما فيه منهاج أهل الحق والسداد، والله يحفظ هذا الكتاب ويحميه من الوقوع في أيدي أهل الزِّيغ والفساد، ومن أهل البدع المشبّهين بأهل الصلاح والسداد، اللهمَّ اخل الأرض منهم وشتت شملهم، ومن علمت فيه خيرا منهم فاهده، وأقبل عليه، وأصلح نيته، وصحح توبته، واغفر لنا وله ولجميع المسلمين آمين يا رب العالمين، وأسأل الله سبحانه أن يجعل هذا الكتاب سببا للهداية والرشاد، وأن يمنحهُ أهل التوفيق والسداد، وأن يمنع منه أهل البدع والعناد، لئلا يدعون ما تضمنه من الأقوال، ويزعمون أنَّهم قائمون بجميع ما فيه من الأوصاف والأحوال، فيستعينون به على بدعتهم، ويدعون أنهم مخلصون من ضلالتهم، فاحفظ يا مولانا هذا الكتاب من مطالعتهم، وحل بيننا وبينهم بقوتك وحولك، يا من لا تخفاه خافية، يا من هو على كل شيء قدير، يا نعم المولى ونعم النَّصير، يا الله إني أسألك الهداية والتوفيق، وأن تسلكنا على أقوم طريق، وأيدنا يا مولانا باليقين والتحقيق، واحشرنا جميعا مع خير رفيق الذين خصصتهم بالإخلاص المحشورين مع أبي بكر الصديق، وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين وأمهما وجدهما وجميع تابعيه على منهاج سيدنا محمَّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلم المحافظين على سنَّته واستخرجنا يا مولانا من كل مضيق، واجعل هذا الدعاء كاملا لنا ولأهلينا وأولادنا وأصحابنا وآبائنا ومن تعلق بنا ومن له

تباعة لنا، ومن قرأ هذا الكتاب وعمل بما فيه والراغب فيه والحريص على تحصيله وناسخه وكاسبه والمتمسك بما فيه، ومن دعا لنا بالخير والرحمة واللطف ونيل الثَّواب والمنَّة ونفعنا به وبما فيه، واجعلنا جميعا واقفين عند أمره ونهيه إلى أن تخرج أرواحنا من أجسامها يا رب العالمين، وأنا أشهد وأتحقق وأقطع انَّه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد وأتحقق أن سيدنا ومولانا محمَّدا رسول الله أرسله الله تعالى في آخر الزمان رسالة عامة لجميع الثقلين الإنس والجن، وأشهد أنَّه بلغ الرسالة وأدى الأمانة وما قبضه الله إليه حتى أكمل به الدين، وأنَّهُ بالغ في نصح المؤمنين والمشركين، وأنه شفيع المذنبين وسيد المرسلين وخير الخلق أجمعين صلَّى الله عليه وسلم على آله، وأستودع هذه الشهادة وما نذكره من الصَّلاة والسَّلام على سيد الأنام عند كل من رأى هذا الكتاب، وعند من قرأه أو سمع شيئا منه، وعند الله تعالى الذي خلقنا وخلق سيدنا ومولانا محمَّداً صلَّى الله عليه وسلَّم، وفضلنا على جميع الأمم بالإيمان به وباتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين من صحبه، وأستودع ذلك أيضا جميع الملائكة الكرام وكل مخلوق على الدوام لنجد هذه الوديعة محفوظة عند الله سبحانه وعند نبينا محمَّد عليه السَّلام، ونفعنا بذلك يوم الحسرة والزحام يا من لا تضيع لديه الودائع يا رب العالمين، اللهمَّ لك الحمد كما أنت أهله، فصل على سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلَّم كما أنت أهله، وافعل بنا يا مولانا ما أنت أهله، فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة، اللهمَّ صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وأزواجه وذريته وأهل بيته والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من بقي منهم ومن مات والأحياء منهم والأموات آمين يا رب العالمين، وعلى جميع النبيين والمرسلين والسابقين للخيرات من المسلمين والشرفاء والصحباء والأولياء والصَّالحين وعلى جميع من استجاب لله وللرسول صلى الله عليه وسلَّم وعلى آله صلاة دائمة مستمرة منورة طيبة مطهرة كثيرة مضعّفة بقدر معاني القرآن وعدد نقط حروفه، ولا تزال هذه الصلاة تتضاعف كذلك قدر معاني ما تعلق به علم الله تعلى وكلامه وسلم تسليما، سبحان ربك رب العزة عمَّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.


الفهارس العامة
فهرس الآيات القرآنية
فهرس الأحاديث
فهرس الأعلام
فهرس الأبيات الشعرية
فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	الصفة
﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾	24 - 23	485
﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾	23	134
﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾	24	266
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	30	379
﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	30	299
﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾	30	547
﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	30	547
﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾	30	44 ،42
﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾	37 - 35	198
﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾	40	559
﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾	40	548
﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾	54	421
﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾	79	191
﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾	83	399

السورة	الآية	الصفحة
﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾	157 - 156	217
﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾	156	454 ،320
﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾	157	454
﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾	163	548
﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾	171	194
﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾	177	320
﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾	177	562
﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾	185	395
﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾	185	606
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾	186	400
﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾	189	237
﴿وتزودوا فإن خير الزاد التَّقوى﴾	197	237
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ ﴾	206	54
﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾	210	153
﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾	213	377
﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾	213	192
﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾	214	434

السورة	الآية	الصفة
﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾	214	322
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾	222	125، 149، 170، 237
﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾	222	593
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾	222	189
﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾	235	444
﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ وقال تعالى/ ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾	249	423
﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ ﴾	253	414
﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾	255	102
﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾	255	554
﴿ لله ما في السموات وما في الأرض﴾	255	554
﴿ له ما في السموات وما في الأرض﴾	255	554
﴿ له ملك السّموات والأرض﴾	255	554
﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ ﴾	255	47، 155
﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾	256	553
﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾	261	264، 420
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾	264	354
﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	273	284
﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾	284	405
﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾	286	44، 101، 207
﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾	286	593
﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾	286	45
﴿ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾	286	37

السورة	الآية	الصفحة
﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾	164	395
﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾	173	395
﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾	175	179
﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾	185	98، 231
﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾	191	282
﴿ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾	193	550
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾	200	320، 321
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾	200	571
النساء		
﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾	4	398
﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾	5	362
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا﴾	9	261
﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾	36	330
﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾	36	326
﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾	36	120
﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾	41	392، 420
﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾	43	54
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ﴾	43	28
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾	48	190، 278، 308
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾	59	570

السورة	الآية	الصفة
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾	65	253
﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾	69	235
﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾	78	250
﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾	78	36
﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾	78	43
﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾	79	43
﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾	80	617
﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾	110	421 ،247 ،190
﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾	110	647 ،600
﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾	129	551
﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾	131	399 ،237
﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾	145	409
﴿ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾	145	103
﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾	162	99
المائدة		
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾	1	294
﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾	3	135
﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾	3	392

السورة	الآية	الصفة
﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾	160	264
﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾	160	420
الأعراف		
﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾	12 - 11	212
﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾	13	213
﴿ لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾	17 - 16	198
﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ ﴾	22 - 21	199
﴿ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾	26	237
﴿ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾	29	102
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ﴾	32	575
﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾	33	214
﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾	55	283
﴿ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾	99	205
﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾	143	333 ،250
﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾	143	250
﴿ لَنْ تَرَانِي﴾	143	633
﴿ فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ ﴾ ...	150	41
﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا﴾	155	396
﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾	158	179
﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾	158	606
﴿ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾	168	322

السورة	الآية	الصفة
﴿ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾	19	414
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾	28	110
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾	28	23
﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾	28	548
﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾	33	553
﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾	40	552
﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾	51	255
﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾	51	219
﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾	51	560
﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾	51	101
﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾	67	400
﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾	84	391
﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾	102	131 -132، 184، 202، 204
﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾	102	588
﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾	103	391
﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾	103	544
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾	111	216
﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾	111	44
﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾	111	559
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾	118	188
﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾	118	186
﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾	118	188
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾	119	235

السورة	الآية	الصفة
يونس		
﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾	2	394
﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾	25	374
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾	26	549
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	38	485
﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾	49	382
﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾	62	181، 208، 371
﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾	64	457
﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾	84	220
﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾	89	396
﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾	101	164
﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾	101	61
﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾	103	399 - 400
هود		
﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾	13	486
﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ (٨٦)﴾	86	41
﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾	112	375
﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾	112	603
﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾	114	207
﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾	120	251
﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾	120	487
يوسف		
﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾	17	613
﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾	24	293

السورة	الآية	الصفحة
﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾	24	291
﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾	25	325
﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾	53	205 ،203
﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾	53	200
﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾	53	452
﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾	76	244 ،154 ،106
﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾	76	558
﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾	80	486
﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾	84	321
﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾	87	205
﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾	101	328
﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾	101	328
﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾	106	42
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾	110	434
الرعد		
﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ ﴾	4	45
﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾	14	549
﴿ وَلِلهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ﴾	15	556
﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ ﴾ ...	17	28
﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ ﴾	17	29
﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾	21	180
﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾	28	163 - 162
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾	28	623

السورة	الآية	الصفحة
﴿ إنَّه كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾	3	563
﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾	7	550
﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾	44	39
﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً﴾	74	392
﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾	81	496
﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾	88	134
﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾	88	486
﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾	93	649
الكهف		
﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾	6	48
﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾	22	47
﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾	28	451
﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾	28	605
﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾	28	605
﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾	49	185
﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾	66	455
﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾	70	456
﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾	77	218
﴿ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾	77	355
﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾	78	456 ،218
﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾	79	284
﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾	82	259

السورة	الآية	الصفة
﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾	109	153
﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾	109	173
﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾	110	186
مريم		
﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾	91 - 90	553
﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾	49 - 48	301
﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾	25	427
﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾	26	398
﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾	30	398
﴿ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾	31	398
﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾	32	399
﴿ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾	52	396
﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾	52	594
﴿ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾	59	297
﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾	65	555
﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾	67	41
﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾	71	102
﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾	87	102، 409
﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾	87	553
﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾	90	548
﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾	93	549 - 548

السورة	الآية	الصفة
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾	45	250
﴿ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾	45	250
﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾	63	292، 394
﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾	70	183
﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾	77	400
الشعراء		
﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ (82) ﴾	78 - 82	43
﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ (219) ﴾	218 - 219	34
النمل		
﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾	88	644 - 645
﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) ﴾	6	34
﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾	21	218
﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾	34	311
﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾	59	395
﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾	40	426
﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾	59	532
القصص		
﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾	5	434
﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾	7	487
﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾	28	293

السورة	الآية	الصفة
الصافات		
﴿ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾	61	460
﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	81	394
﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾	96	101، 191، 248 ، 379، 290
﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾	96	593
﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾	96	48
﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾	102	458
﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾	109	395
﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾	114	395
﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾	164	132
ص		
﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾	82 - 83	198، 576
﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾	24	442
﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾	26	198
﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾	30	188
﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾	35	218
﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا﴾	44	321
﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾	44	320
الزمر		
﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ ﴾	17 - 18	109، 313
﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾	3	98، 94
﴿ أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِص﴾	3	613
﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	9	414

السورة	الآية	الصفة
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾	30	375
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾	30	181
﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾	30	604 ،552
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾	33	549
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾	33	550
﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾	44	46
﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾	46	38
الشورى		
﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾	11	158 ،129
﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾	11	34
﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾	13	441
﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾	20	568
﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾	20	360
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾	25	395 ،444
﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾	40	560
﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾	43	463
﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا﴾	51	484
﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾	51	39
الزخرف		
﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾	35 - 33	308

السورة	الآية	الصفة
الحشر		
﴿مَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾	7	178
﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾	7	136، 163
﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾	7	575
﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾	9	305
﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾	9	209، 305، 336
﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾	9	619
﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾	9	334
﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾	14	422
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾	18	288
الصف		
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾	10 - 13	558
المنافقون		
﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾	8	344
التغابن		
﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾	16	239
الطلاق		
﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾	2 - 3	237، 562
﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾	3	220
﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾	3	219
﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾	3	559

السورة	الآية	الصفة
الانشقاق		
﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾	85	32
﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾	109	297
البروج		
﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾	12	48
﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾	22 - 21	487 ،134
الأعلى		
﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾	1	649
الغاشية		
﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾	17	164 ،138
الفجر		
﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾	22	154
﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾	30 - 27	200 - 201، 202، 567
الضحى		
﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾	5	392
﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾	11	89
الشرح		
﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾	1	393 ،250
﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾	4	250
التين		
﴿ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾	4	38
﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾	4	38
﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾	5	40 ،38
﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾	6	40
﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ ﴾	6	40
﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾	6	392

فهرس الأحاديث

الحديث	الراوي	الصفحة
إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله	أنس	251
إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه	العباس بن عبد المطلب	180
إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهدا في الدنيا	أبو خلاد	233 - 234
إذا رأيتم رياض الجنّة فارتعوا فيها	أنس	282
إذا كثرت ذنوب العبد ألقى الله عليه الهم	عائشة	297
إذا هممت بأمر فتأمل عاقبته فإن كان رشدا	–	289
اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو	أبو هريرة	226
ارفعوا أيديكم، فإنها أخبرتني أنها مسمومة	أبو هريرة	513
ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك النّاس	–	233
استقيموا ولن تحصوا		603
استقيموا ولن تحصوا واعلموا	ثوبان	375
اشتاقت الجنة إلى ثلاث علي وعمار وسلمان	أنس	328
أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل	سعد بن أبي وقاص	661
أصحابي كالنجوم	ابن عباس	254
أصدق بيت قالت الشعراء		661
أطعه وإن أخذوا مالك وضربوا ظهرك		572
اعقلها وتوكّل	أنس بن مالك	661
أعوذ بالله من الخبث والخبائث	أنس بن مالك	661
أفضل الدعاء الحمد لله	جابر بن عبد الله	401
أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله	جابر بن عبد الله	545

الحديث	الراوي	الصفحة
أفضل ما قلته أنا والنَّبيئون من قبلي لا إله إلا الله	أنس وطلحة	661
أفلا أكون عبدا شكورا	عائشة	625
أكثرهم ذكرا للموت واستعدادا له أولئك هم الأكياس	ابن عمر	226
أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص	أنس بن مالك	662
أكثروا من ذكر هادم اللذات	أنس بن مالك	225
ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا	النعمان بن بشير	336
الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف	أبو هريرة	58
الإيمان الصبر والسَّماحة	عمرو بن عبسة	320
البخيل الذي ذكرت عنده فلم يصل علي	علي بن أبي طالب	662
البخيل بعيد من الله بعيد من الناس	عائشة	215
ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم	أبو هريرة	474
البلاء موكل بالمنطق	أنس	261
التوكل نصف العبادة	-	221
الحج عرفة	عبد الرحمن بن يسر	185، 596
الحمد لله الذي جعله عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا	جابر	40
الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي	عائشة	662
الحياء من الإيمان	ابن عمر	662
الخاتم على الكتاب خير من التهمة	–	474
الدعاء مخ العبادة	أنس بن مالك	208

الحديث	الراوي	الصفحة
	طالب	
أنزل القرآن على سبعة أحرف	أبي بن كعب – حذيفة	34
أنـزل الله فـي بعـض الكـتب أوحـى الله إلـى بعض	أبو الدرداء	360
أنزلوا الناس على قدر منازلهم وحدثوهم على قدر عقولهم	–	127، 260، 413، 414
انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من	أبو هريرة	455
إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم	أبو هريرة	268
إنما الأعمال بالنية	عمر بن الخطاب	245، 290، 532
إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد	عائشة	105
إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا	أبو هريرة	467
إنما يرحم الله من عباده الرحماء		560
إنما يكفي أحدكم ما قنعت	ابن مسعود	334
إنه غير ذي بركة، وإن الله لم يطعمنا نارا	–	471
إنـي لأعـرف حجرا بمكـة كـان يـسلم علـي قبل أن أبعث	ابر بن سمرة	510
إني لأمشي مع النبي ﷺ في جبال مكة	علي بن أبي طالب	510
أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله	البراء ين عازب	383
أولى النَّاس بي يوم القيامة أكثرهم صلاة علي	ابن مسعود	520، 648
إيـاكم ومحـدثات الأمـور لأن كـل محدثـة	العرباض بن	254، 604

الحديث	الراوي	الصفحة
بدعة	سارية	
إياكم ومخالطة الموتى	-	285
أيما قوم جلسوا مجلسهم ثمَّ تفرقوا قبل أن يذكروا	علي بن أبي طالب	538
بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء	أبو هريرة	50
بعثت لأتمم مكارم الأخلاق	أبو هريرة	463
بينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها إذ التفتت البقرة إليه وقالت	أبو هريرة	427
تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة	أبو هريرة	294
تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق		551
تقليبة العالم في فراشه خير من عبادة الجاهل	الحسن البصري	241
تقولون: اللهم صل على محمَّد النَّبي الأمي كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد	أبو مسعود الأنصاري	528، 529
تقولون اللهمَّ اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمَّد	بريدة المرادي	530
تنام عيني ولا ينام قلبي	عائشة	45
ثلاث من أصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن	ابن مسعود	214
ثلاثة لا يظلهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم		574
جبلت القلوب على حب من أحسن إليها	ابن مسعود	434
حبُّ الدُّنيا رأس كلِّ خطيئة	الحسن البصري	98

الحديث	الراوي	الصفحة
حبك للشيء يعمي ويصمي	أبو الدرداء	330
حجابه النار	أبو موسى الأشعري	56
حجابه النور	أبو موسى الأشعري	56
حفَّت الجنَّة بالمكاره		568
خائفة أن لا يتقبل منهم أعمال البر	عائشة	180
خذه فتموله أو تصدق به وما جاءك	عمر بن الخطاب	350
خصلتان لا يجتمعان في المؤمن البخل	أبو سعيد	268
خلق الله آدم على صورته	ابن عمر	40
خير الأعمال ذكر الله تعالى	أبو الدرداء	282
خير الذكر الخفي	سعد بن مالك	283
خير الناس رجل يجاهد في	أبو سعيد	301
خير الناس من خلقه الله للخير وأجرى الخير على يده	أنس بن مالك	108 - 107
خيركم من إذا رئي ذكر الله	أسماء بنت يزيد	47
دع ما يريبك إلى مالا يريبك فإن الصدق	الحسن بن علي	235
دعامة الدين المعرفة بالله	عائشة	312
دعهن يا أبا بكر لكل قوم عيد وهذا عيدنا	عائشة	318
رأس الحكمة مخافة الله	ابن مسعود	180
رأيت الدنيا في صورة عجوز شوهاء فقلت	–	232
رحم الله امرأً سكت فسلم	–	262

الحديث	الراوي	الصفحة
عليكم من الأعمال ما تطيقون	عائشة	376
عمل قليل في سنّة خير من الاجتهاد في البدعة	الحسن البصري	240، 595
فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم	عمر بن الخطاب	599
فإنه لا يدري في أي الطعام البركة	–	473
في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على	أبو هريرة	406
في كل زمان من أمتي سابقون	عبد الله بن عمرو	442
فيضع الجبار قدمه في النّار	أنس بن مالك	161
قال الله تعالى: لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين	أبو هريرة	180
قال الله تعالى ابن آدم إذا ذكرتني شكرتني	–	281
قال الله تعالى لموسى عليه السّلام إنك لن تتقرب	ابن عباس	257
قال موسى: يا رب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك	أبو سعيد الخدري	649
قولوا: اللهم صل على محمَّد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم	سعد الساعدي	529
قولوا: اللهمَّ صل على محمَّد وعلى آل محمَّد	أبو هريرة	525، 528، 530
قولوا اللهمَّ صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم	أبو سعيد الخدري	525، 529، 531
قولوا سبحان الله وبحمده مائة	ابن عمر	649
قولوا: اللهم صل على سيدنا محمَّد وعلى	بشير بن سعيد	528، 532

الحديث	الراوي	الصفحة
آل محمَّد كما صليت على إبراهيم		
قيلوا فإن الشياطين لا تقيل	أنس	242
كان خلقه القرآن	عائشة	33، 35، 462
كان رسول الله ﷺ أحلم وأشجع وأعدل الناس وأعطف النَّاس	عائشة	465
كان لا يسرد الكلام سردكم هذا كان كلامه نزرا	عائشة	470
كان متواصل الأحزان دائم الفكر	هند بن أبي هالة	296
كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مجلسه وتوجهه	علي بن أبي طالب	469
كان يوما يأكل رطبا كان في يمينه ويحفظ النوى في يساره	أنس	472
كفى بالموت واعظا	عمار بن ياسر	175، 225
كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث عين بكت من خشية الله	أبو هريرة	180
كل مسكر ومفتر حرام	أم سلمة	274
كلمتان خفيفتان على اللسان	أبو هريرة	649
كل يوم لا أزداد فيه علما يقربني	عائشة	359
كن عالما أو متعلما أو مستمعا	أبو بكرة	243
كيف كان ذكر صاحبكم للموت	-	226
لا أحصي ثناء عليك	عائشة	311
لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك	أبو هريرة	642
لا إله إلا الله مفتاح الجنَّة	معاذ بن جبل	310
لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا	ابن عباس	260

الحديث	الراوي	الصفحة
لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها	–	412
لا تأكلوا إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي	أبو سعيد الخدري	35
لا تضربوا القرآن بعضه ببعض، فإنه أنزل على وجوه	عبد الله بن عمرو	470
لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم	عمر بن الخطاب	105
لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها		643
لا تكون مؤمنا حتى أكون أحبَّ	عمر بن الخطاب	390
لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعا	–	253
لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب	أنس	389
لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه	أنس بن مالك	671
لا يدخل الجنة من بكى من خشية الله حتى يلج اللبن في الضرع	أبو هريرة	180
لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه	ابن مسعود	292
لا يدخل النار من بكى من خشية الله	أبو هريرة	180
لا يزال الله تعالى في حاجة العبد ما دام العبد	–	335
لا يزال في أمتي سبعة لا يدعون الله بشيء إلا استجاب	–	441
لا يقبل من صلاة أحدكم إلا ما عقل منها	عمار بن ياسر	45
لا يولد مولود إلا وهو على الفطرة	أبو هريرة	206

الحديث	الراوي	الصفحة
لأن يهدي الله على يدي رجلا خير لي مما طلعت		577
لقد لقنك الله تعالى أسماءه الحسنى التي	جابر	402
لقد هممت أن لا أقبل إلا من	–	353
لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن	–	314
لكل شيء صقال وصقال القلوب ذكر الله تعالى	ابن عمر	282
لم يتكلم في المهد إلّا ثلاثة عيسى عليه السَّلام	أبو هريرة	427
لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم مثل ما يرزق	عمر بن الخطاب	221
لو كان لابن آدم واديان	أنس بن مالك	195
لو كانت الدنيا ذهبا يعني والآخرة خزفا لاخترت الآخرة	–	232
ليس المسكين الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان	أبو هريرة	284
ليس شيء من الجسد إلا هو يشكو حدة اللسان	أبو بكر	261
ما اصطفاه الله لملائكته ولعباده	أبو ذر	649
ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له	أنس	456
ما تقرب إلي المتقربون بأفضل مما افترضته عليهم	أبو هريرة	595
ما تقرب إلي المقرَّبون بأفضل من	أبو هريرة	324
ما جلس قوم مجلسا ثمَّ تفرقوا منه على غير صلاة على النبي	علي بن أبي طالب	538

الحديث	الراوي	الصفحة
من صلَّى عليَّ صلَّى الله عليه فأكثروا أو قللوا	عامر بن رفيعة	648
من صمت نجا	عبد الله بن عمرو	262
من ضيع سنتي حرمت عليه شفاعتي	-	253
من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت	أبو هريرة	649
من كان همه الدنيا شتت الله عليه أمره	زيد بن ثابت	231
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو	أبو هريرة	262
من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف	جابر بن عبد الله	282
من كانت عنده نصيحة لسلطان فلا يكلمه بها	عياض بن تميم	573
من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من النار	أبو سعيد الخدري	362
من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه	ابن عمر	261
من كره من أميره شيئا فليصبر فإنَّه ليس أحد		573
من لازم الاستغفار جعل الله له	ابن عباس	647
من لم يشكر الناس لم يشكر الله	أبو هريرة	108
من مشى فليمش رويدا		352
من نسي الصلاة علي نسي طريق الجنة	أبو هريرة	538
من وجه إليه شيء من هذا الرزق من غير	عائذ بن عمرو	350

الحديث	الراوي	الصفحة
يا معاذ، أوصيك باتقاء الله	معاذ	464
يأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه	–	361
يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح	أبو سعيد الخدري	103
يدخل الفقراء الجنَّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام	أبو هريرة	284
يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان	–	223
يصلح المرء من حينه، ومن صلح كان الله وليه	–	110

فهرس الأعلام

فهرس الأبيات الشعرية

فهرس الموضوعات

الفهارس العامة

سراج الغيوب في أعمال القلوب

إن للكتابات الصوفية المغربية خاصية فريدة، تتميز بالتقرير والتحرير، والنقل والتوثيق، والتوسع في الشرح والبسط في الطرح، وثراء الاصطلاح المعرفي ودقة التعبير الإشاري، كما يتميز المصنفون في الفكر الصوفي المغربي بجودة الأسلوب الأدبي وتعميق البحث العلمي، فكأن كتبهم خزانة علوم ومعارف، يجد فيها صاحب كل فن مراده ويقف على تفصيل لكل مسألة تدخل في مباحث صناعته...

ومن تلك الكتب النفيسة هذا المؤلَّف الفريد في بابه لصاحبه عبد الكبير بن عبد المجيد بن يوسف بن محمد بن علي بن محمد الشريف الحسني المصمودي ثم الزجني الكثيري النسب وعليوات اللقب، والذي توسع خلاله في شرح على الأبيات الثلاثة المنسوبة لشيخ الطريقة، ومحيي الحقيقة، سَيدي أبي القاسم الجنيد رضي اللّه عنه:

توضأ بماء الغيب إن كنتَ ذا سر ... وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر

وقدم إماما كنت أنت إمامه ... وصل صلاة الفجر في أول العصر

فهذه صلاة العارفين بربهم ... فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر

كما يتميز هذا الكتاب على ما هو عليه من النفاسة والجودة بدقة العبارة وبراعة تحرير المقالة، وإن تحقيقه ووضعه في متناول الأيدي لِمَّا يسهم في خدمة التراث المغربي عموماً والمغربي الصوفي على وجه الخصوص.


ISBN-13: 978-2-7451-7312-6


كتاب - ناشرون
Beirut-Lebanon بيروت - لبنان
tel: +96176 944855-P.O.Box: 11- 374 Riyad Al-Soloh
E-mail: books.publisher@hotmail.com


BOOKS - PUBLISHER